



مع سورة آل عمران

د خالد النجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مع سورة آل عمران

****** سميت هذه السورة في كلام النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكلام الصحابة: «سورة آل عمران»، ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (إِقْرَأُوا الزُّهْرَاوِينَ: البقرة وآل عمران). وفيه عن النّوّاس بن سمعان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: قال سمعت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تقدمه سورة البقرة وآل عمران).

وروى الدارمي في مسنده: أن عثمان بن عفان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "من قرأ سورة آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة". وسماها ابن عباس في حديثه في "الصحيح"، قال: "بت في بيت رسول الله فنام رسول الله حتى إذا كان نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله فقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران".

****** ووجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران وهو عِمْرَانُ بْنُ مَاتَانَ أَبُو مَرْيَمَ وَآلَهُ هُمْ زَوْجُهُ حَنَّةُ

وَأُخْتُهَا زَوْجَةُ زَكَرِيَّا النَّبِيِّ، وَزَكَرِيَّا كَافِلٌ مَرْيَمَ إِذْ كَانَ أَبُوهَا عِمْرَانُ
تُوفِي وَتَرْكُهَا حَمَلًا فَكَفَلَهَا زَوْجُ خَالَتِهَا.

** من أسمائها أيضا: طيبة، الزهراء. كما جاء في صحيح
مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، «باب فضل قراءة
القرآن وسورة البقرة»، عن أبي أمامة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ
آلِ عِمْرَانَ....)

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "وذكر الآلوسي أنها
تسمى: الأمان، والكنز، والمجادلة، وسورة الاستغفار. ولم أره
لغيره، ولعله اقتبس ذلك من أوصاف وصفت بها هذه السورة مما
ساقه القرطبي، في المسألة الثالثة والرابعة، من تفسير أول
السورة".

** وهي مدنية، نزلت بعد البقرة وقبل الأحزاب، وعلى ذلك
تكون السورة الثامنة والثمانين من حيث ترتيب نزولها.

** فضلها:

- لقد شاركت سورة آل عمران سورة البقرة في كثير من
فضائلها، فهما الزهراوان اللتان تأتيان يوم القيامة كأنهما غيابتان
أو غامتان أو فرق من طير صواف تحاجان عن صاحبهما،

وتقدمان القرآن وأهله يوم القيامة: كما ورد في حديث أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنَّهُما تأتيان يوم القيامة كأنَّهُما غمامتان أو كأنَّهُما غيأتان أو كأنَّهُما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ..). [مسلم]

- وكما جاء في حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ)، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيَتْهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: (كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ [ضوء] أَوْ كَأَنَّهُمَا حِرْقَانِ [طائفتان] مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا). [مسلم].

- وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يعدون قارئ البقرة وآل عمران من عظمائهم: كما ورد في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وَقَدْ كَانَ قَرَأَ: الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ،

وَأَلِ عِمْرَانَ، جَدَّ فِينَا -يَعْنِي عَظْمَ- [الإمام أحمد، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"].

- وقد اشتملت كل من السورتين على «اسم الله الأعظم» الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سئل به أعطى: كما جاء عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ -رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: {وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، وَفَاتِحَةُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: {الْمُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}). [أبو داود، والترمذي، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وحسنه الألباني في تعليقه على السنن، وكذلك حسين أسد في تعليقه على سنن الدارمي]

- وهما من السَّبْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْآنِ اللّوَاتِي عَدَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- آخِذَهُنَّ حَبْرًا: كما جاء في حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأَوَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ حَبْرٌ) [أحمد، وحسنه شعيب الأرناؤوط].

- كما أنهما من السَّبْعِ الطَّوَالِ الَّتِي أُوتِيَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَكَانَ التَّوْرَةِ: كما ورد في حديث واثلة بن الأسقع -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

(أُعطيتُ مكانَ التوراةِ السبعَ...) [أحمد، وحسنه شعيب
الأرنؤوط]

- ومن فضائلهما أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان كثيراً ما يقرأ في ركعتي الفجر بآيتين من السورتين المذكورتين، كما في حديث ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} الَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ [مسلم كتاب الصلاة: باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما، وتخفيفهما والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما].

- ومما اشتركت فيه آل عمران من الفضل مع غير البقرة: قول عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ، فَلَا هَادِيَ لَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}

[آل عمران: ١٠٢]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠-٧١] [أبو داود، والترمذي وصححه، وأحمد، وصححه الألباني في تعليقه على السنن، وكذلك الأرنؤوط في تعليقه على المسند].

- ومما اختصت به آل عمران فضل خواتيمها، بدءاً من قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..} [الآيات: ١٩٠-٢٠٠]؛ ما جاء في حديث ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: "بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَقُلْتُ لَأَنْظُرَنَّ إِلَى صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَطُرِحَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسَادَةٌ فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي طُولِهَا فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَاتِ الْعَشَرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ حَتَّى خَتَمَ [البخاري، ومسلم].

- فشان هذه الآيات عظيم، ذلك أن الويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، كما ورد في حديث عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- حين طلب منها عبيد بن عمير أن تخبره عن أعجب ما رأت من رسول

الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قال: فسكتت. ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي. قال: يا عائشة، ذريني أتعبدُ الليلةَ لربي، فقلت: والله إنني لأحبُّ قربك وأحب ما يسرُّك. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي، حتى بلَّ حِجره. قالت: وكان جالساً فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض فجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد أنزلت عليَّ الليلةَ آيةً؛ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..} (الآيات) [ابن حبان في صحيحه، وقال الأرئوط في تحقيقه له: "إسناده صحيح على شرط مسلم"].

الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)

أخرج ابن جرير الطبري وغيره أن وفد نجران من بلاد اليمن والمكون من ستين راكبا فيهم أشرافهم وأهل الحل والعقد منهم، وفدوا على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكان ذلك سنة اثنين من الهجرة، لما بلغهم مبعث النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكان أهل نجران متدينين بالنصرانية، وهم من أصدق العرب تمسكا بدين المسيح، وفيهم رهبان مشاهير، وقد أقاموا للمسيحية كعبة ببلادهم هي التي أشار إليها الأعشى حين مدحهم بقوله:

فَكَعْبَةُ نَجْرَانَ حَتَّمْ عَلَيْكَ ... حَتَّى تُنَاجِي بِأَبْوَابِهَا

فاجتمع وفد منهم قوامه ستون رجلا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، منهم ثلاثة إليهم يؤول أمرهم: أميرهم «العاقب» واسمه عبد المسيح، ومعه «السيد» واسمه الأيهم، وهو ثمالُ القوم [الذي يقوم بأمر قومه ويحميهم] وولي تدبير الوفد، ومُشِيرُهُ وَذُو الرأْي فيه، وفيهم خبرهم أسقفهم وصاحب مدراسهم وولي دينهم «أبو حارثة بن علقمة البكري» أحد بني بكر بن وائل - وكان ملوك الروم قد أكرموه وشرفوه، ومولوه؛ لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

وذكروا من جلالتهم، وحسن شارتهم وهيئتهم. وأقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في عيسى، ويزعمون تارة أنه الله، وتارة ولد الإله، وتارة: ثالث ثلاثة. ورسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يذكر لهم أشياء من صفات الباري تعالى، وانتفاءها عن عيسى، وهم يوافقونه على ذلك، ثم أبوا إلاّ جحوداً، ثم قالوا: يا محمد! أأنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: «بلى». قالوا: فحسبنا. فأنزل الله فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية منها، إلى أن دعاهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى المباهلة، فأجابوا ثم استعظموا ذلك، وتخلصوا منه، ورجعوا إلى أوطانهم.

فأنزل الله تعالى فواتح آل عمران فيهم، وذلك رداً لباطلهم، وإقامة للحجة عليهم، وسيلاحظ هذا المتدبر للآيات ويراه واضحاً جلياً في السياق القرآني في هذه الآيات.

{الم} لما كان أول أغراض هذه السورة الذي نزلت فيه، هو قضية مجادلة نصارى نجران حين وفدوا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانية، لا جرم افتتحت بحروف التهجي، المرموز لها إلى تحدي المكذبين بهذا الكتاب، وكان الحظ الأوفر من التكذيب بالقرآن للمشركين منهم، ثم للنصارى من

العرب؛ لأن اليهود الذين سكنوا بلاد العرب فتكلموا بلسانهم لم يكونوا معدودين من أهل اللسان، ويندر فيهم البلغاء بالعربية مثل السَّمَوَّل، وهذا وما بعده إلى قوله {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا} [آل عمران: ٣٣] تمهيد لما نزلت السورة بسببه، وبراعة استهلال لذلك.

{اللَّهُ} علم على ذات الرب المقدسة، وهو أعلم المعارف على الإطلاق، ومعناه: المعبود حبا وتعظيما، وأصله الإله، بمعنى المألوه، وحذفت الهمزة تخفيفا كما حذفت الهمزة من «خير وشر» في مثل قول الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا) [مسلم]، أي: أخيرها وأشرها.

وجيء بالاسم العلم: لتربية المهابة عند سماعه، ثم أردف بجملة {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} لا معبود بحق سواه، ردا على المشركين، وعلى النصارى خاصة.

وهناك آلهة باطلة، ولكنها آلهة وضعت عليها الأسماء بدون حق، كما قال الله تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ

الثَّالِثَةُ الْآخَرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذَا
قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) {النجم}

وبهذا التقدير للخبر في {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} يزول الإشكال، وهو
أنه كيف ينفي الإله في مثل هذه الجملة، ويثبت في مثل قوله:
{فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}
[هود: ١٠١]، والجمع: أن تلك الآلهة باطلة، وأما الإله في:
{لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}، أو {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} فهو إله حق، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢].

ثم أتبع بالوصفين {الْحَيُّ} ذو الحياة المستلزمة للإرادة
والعلم والسمع والبصر والقدرة، واستحقاقه للعبادة دون غيره هو
كونه تعالى حياً أزلاً وأبداً وكل حيٍّ غيره مسبوق بالعدم ويلحقه
الفناء، فلذا لا يستحق الألوهية إلا هو عز وجل.

قال ابن عثيمين: «أل» هنا للاستغراق، أي: الكامل الحياة،
وحياة الله - عز وجل - كاملة في وجودها، وكاملة في زمنها، فهو

حي لا أول له، ولا نهاية له، حياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، هي أيضا كاملة حال وجودها لا يدخلها نقص بوجه من الوجوه، فهو كامل في سمعه وعلمه وقدرته، وجميع صفاته.. إذا رأينا الآدمي، بل إذا رأينا غير الله -عز وجل- وجدنا أنه ناقص في حياته زمنا ووجودا، فحياته مسبقة بعدم، ملحقة بزوال وفناء، هي أيضا ناقصة في وجودها، هل هو كامل السمع؟ الحي ليس كامل السمع، ولا البصر، ولا العلم، ولا القدرة، كل حي فهو ناقص، إذن حياته ناقصة في الوجود والزمن، ففي الزمن مسبقة بعدم وملحقة بزوال، وفي الوجود ناقصة في جميع الصفات.

{الْقَيُّومُ} القائم بنفسه فلا يحتاج إلى أحد، والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه. فهو سبحانه القيم على كل مخلوقاته بالتربية والرعاية والحفظ، وما عداه فليس له ذلك بل هو مربوب مرزوق، فكيف يكون إلهاً مع الله؟!

فالقيام بنفسه لأن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين لا يحتاج إلى أحد، لذلك وصف نفسه بالغني، كقوله تعالى: **{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** [لقمان: ٢٦]، وقوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ**

يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {
[التغابن: ٦] ، هذا يدل على قيامه بنفسه.

أما قيامه على غيره لأن العباد كلهم فقراء إليه عز وجل، قال
تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥]، وقوله: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ {
[الرعد: ٣٣]

وفي الجمع بين الاسمين الكريمين «الحي القيوم» استغراق
لجميع ما يوصف الله به لجميع الكمالات، ففي الحي كمال
الصفات، وفي القيوم كمال الأفعال، وفيهما جميعا كمال
الذات، فهو سبحانه كامل الصفات والأفعال والذات.

قال ابن عاشور: "{الْحَيُّ الْقَيُّومُ}" لنفي اللبس عن مسمى هذا
الاسم، والإيماء إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها؛
لأنه غير حي أو غير قيوم، فالأصنام لا حياة لها، وعيسى في
اعتقاد النصارى قد أميت، فما هو الآن بقيوم، ولا هو في حال

حياته بقيام على تدبير العالم، وكيف وقد أودى في الله، وكذب، واختفى من أعدائه".

وقد ورد أن {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} اسم الله الأعظم لاشتغالهما على كمال الذات والصفات والأفعال.

فعن أبي أمامة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (اسمُ الله الأعظمُ في سورِ القرآنِ ثلاثٌ: في البقرةِ وآلِ عمرانَ وطهَ). [رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه]

(سورة البقرة): {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}

(سورة آل عمران): {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}

(سورة طه): {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}

وعن أنس -رضي الله عنه- أنه كان مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالساً ورجلاً يصلي ثم دعا: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم"، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى) [رواه أبو داود، وصححه الألباني]

{نَزَّلَ} بالتضعيف، فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كلفيته أو كميته، في الفعل المتعدي بغير التضعيف.

وقيل: يدلّ على التكثير وكثرة نزوله أنجمًا منجمًا، وأمّا التوراة والإنجيل، فقد عبّر في نزولهما بـ: **{أَنْزَلَ}** التي لا تدلّ على تكثير؛ لأنهما نزلا جملة في وقت واحد، ورده أبو حيان بقول تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}** [الفرقان: ٣٢]

وبعض الآيات لم يعتبر فيها التضعيف في نزول القرآن؛ كقوله تعالى: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}** [الكهف: ١] وقوله: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}** [البقرة: ١٨] أي إنزاله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

{عَلَيْكَ} أي الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقد بين الله تعالى في آية أخرى أنه نزل على قلب الرسول، ليكون أدل على وعيه لهذا القرآن الذي نزل عليه، فقال جل ذكره في سورة الشعراء: **{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)}**.

{الْكِتَابُ} أي القرآن، فهو كتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى في سورة الواقعة: **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)}** أي اللوح المحفوظ، وهو أيضا كتاب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى في سورة عبس: **{فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)}**، وهو كذلك كتاب في الصحف التي بأيدينا، فهو مكتوب بأيدينا ونقرأه من هذه الكتب.

قال ابن عاشور: وأما الكتاب فأصله اسم جنس مطلق ومعهود. وباعتبار عهده أطلق على القرآن كثيرا قال تعالى: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ} [البقرة: ٢]** وقال: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابُ} [الكهف: ١]** وإنما سمي كتابا لأن الله جعله جامعا للشرعية فأشبهه التوراة لأنها كانت مكتوبة في زمن الرسول المرسل بها، وأشبه الإنجيل الذي لم يكتب في زمن الرسول الذي أرسل به ولكنه كتبه بعض أصحابه وأصحابهم، ولأن الله أمر رسوله أن يكتب كل ما أنزل عليه منه ليكون حجة على الذين يدخلون في الإسلام ولم يتلقوه بحفظ قلوبهم.

وفي هذه التسمية معجزة للرسول -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
بأن ما أوحى إليه سيكتب في المصاحف، قال تعالى: {وَهَذَا
كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
حَوْلَهَا} [الأنعام: ٩٢]

ولذلك اتخذ النبي -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أصحابه
كتابا يكتبون ما أنزل إليه؛ من أول ما ابتدئ نزوله، ومن أولهم
عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعبد الله بن عمرو بن العاص،
وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان.

وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم على قدر ما
وجدوه مكتوبا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف.

واعلم أن أبا بكر -رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ- لما أمر بجمع القرآن
وكتابه كتبوه على الورق فقال للصحابة: التمسوا اسما، فقال
بعضهم سموه إنجيلا فكرهوا ذلك من أجل النصارى، وقال
بعضهم سموه السفر فكرهوه من أجل أن اليهود يسمون التوراة
السفر. فقال عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ-: "رأيت
بالحبشة كتابا يدعونه المصحف فسموه مصحفا". يعني أنه رأى
كتابا غير الإنجيل.

{بِالْحَقِّ} متلبساً بالحق ومشملاً عليه، إذا كل ما فيه حق وصدق، لا باطل فيه بأي وجه من الوجوه، فملاسته للحق اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني، قال تعالى: **{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}** [الإسراء: ١٠٥] فما في القرآن إما أخبار وإما أحكام، فالحق في الأخبار الصدق، والحق في الأحكام العدل، كما قال الله تعالى: **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}** [الأنعام: ١١٥]

ويحتمل أن يكون عائدا على التنزيل، يعني: أنه نفس النزول كان نزول حق ليس بباطل ولا كاذب، قال تعالى في سورة الشعراء: **{وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)}**، بعد قوله: **{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)}**، فيكون بالحق، يعني: أنه نازل عليك نزولا حقا ليس بباطل، فهو ما كذب عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن.

والمعنيان صحيحان لا يتنافيان، والقاعدة: أن النص إذا دل على معنيين صحيحين لا يتنافيان حمل عليهما جميعا.

{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} من الكتب السماوية السابقة لا يخالفها ولا يبطلها لأن مصدر الجميع واحد وهو الله تعالى.

فهو حاكما عليها بالصدق في أنها من عند الله عز وجل، وشاهدا بأن التوراة حق، والإنجيل حق، وأن الزبور حق، وأن صحف إبراهيم حق، وأن الله أنزل على كل رسول كتابا.

كما أن المراد منه أنه لم يبعث نبياً قط إلاّ بالدعاء إلى توحيده، والإيمان، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان، والشرائع التي هي صلاح أهل كل زمان. فالقرآن مصدق لتلك الكتب في كل ذلك.

وقيل: تصديقه إياها أنها أخبرت بمجيئه، ووقوع المخبر به يجعل المخبر صادقاً، وهو يدل على صحة القرآن، لأنه لو كان من عند غير الله لم يوافقها، قاله أبو مسلم.

فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن أنه سينزل، ووصفت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي ينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.

وجعل السابق **{بَيْنَ يَدَيْهِ}**: لأنه يجيء قبله. فكأنه يمشي أمامه.

{وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ} كتاب موسى عليه السلام، اسم عبراني، ومعناه بالعبرية: «الشريعة»، وقيل: أصلة: طورا، بمعنى الهدي.

{وَالْإِنْجِيلَ} كتاب عيسى عليه السلام، اسم عبراني، ومعناه باليونانية: «التعليم الجديد»، وهو اسم للوحي الذي أوحى به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه.

والتوراة والإنجيل اسمان أعجميان، وإذا ذكرا في القرآن فهما معربان، فكل اسم أعجمي إذا ذكر في القرآن فهو معرب، وليس أصله عربيا؛ لأنك لو تقول: إنه عجمي حتى بعد نزول القرآن به ما صار القرآن بلسان عربي. فالعرب لما عربوها ونطقوا بها وأجروها على ألسنتهم صارت عربية بالتعريب.

قال أهل العلم: إن التوراة والإنجيل نزلتا دفعة واحدة بدون تدرّج، بخلاف القرآن، فإنه نزل بالتدرّج، وهذا من رحمة الله - عز وجل - على هذه الأمة؛ لأنه إذا نزل بالتدرّج صارت أحكامه أيضا بالتدرّج، لكن لو نزل دفعة واحدة لزم الأمة أن تعمل به جميعه بدون تدرّج، وهذا من الآصار التي كتبت على من سبقنا إذا نزلت عليهم الكتب مرة واحدة ألزموا بالعمل بها من حين أن تنزل فيما ألفوه وفيما لم يألفوه، بخلاف القرآن الكريم.

{مِنْ قَبْلُ} من قبل هذا الكتاب **{هُدًى}** لأجل هداية الناس، والمراد بالهداية هنا «هداية الدلالة» التي يترتب عليها «هداية التوفيق»، لكن الأصل في هذه الكتب أنها هداية دلالة؛ ولهذا قال: هدى للناس عموماً، حتى الكفار تهديهم وتدلهم، تبين لهم الحق من الباطل، لكن قد يوفقون لقبول الحق والعمل به، وقد لا يوفقون.

والهدى ضد الضلال، واهتدى بمعنى صار على الطريق الصواب، وضل بمعنى انحرف وتاه وضاع، ومنه سميت الضالة، يعني: البعير الضائع التائه.

{لِلنَّاسِ} وخص الهدى بالتوراة والإنجيل هنا، وإن كان القرآن هدى، لأن المناظرة كانت مع النصارى وهم لا يهتدون بالقرآن، بل وصف بأنه حق في نفسه، قبلوه أو لم يقبلوه، وأما التوراة والإنجيل فهم يعتقدون صحتها، فلذلك اختصا في الذكر بالهدى.

{وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} القرآن الذي فرق الله به بين الحق والباطل بالحجج القرآنية والمعجزات الإلهية.

وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه على هدي التوراة والإنجيل،
لأن التفرقة بين الحق والباطل أعظم أحوال الهدى، لما فيها من
البرهان، وإزالة الشبهة.

وكرر ذكره بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق
والباطل - بعدما ذكره باسم الجنس {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}
تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله، وللاهتمام به، وليوصل الكلام به
في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} [آل عمران: ٤] أي بآياته
في القرآن.

قال ابن عاشور: فوصفه أولاً بالكتاب وهو اسم الجنس العام
ثم عبر عنه باسم الفرقان عقب ذكر التوراة والإنجيل وهما
علمان ليعلم أن الفرقان علم على الكتاب الذي أنزل على محمد
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

ووجه تسميته الفرقان أنه امتاز عن بقية الكتب السماوية
بكثرة ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فإن القرآن
يعضد هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبك ما اشتمل عليه
من بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجد مثله في التوراة
والإنجيل كقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]

وأذكر لك مثالا يكون تبصرة لك في معنى كون القرآن فرقانا وذلك أنه حكى صفة أصحاب محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الواردة في التوراة والإنجيل بقوله {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩] فلما وصفهم القرآن قال: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠] فجمع في هاتيه الجملة جميع أوصاف الكمال.

وأما إن افْتَقَدْتَ ناحية آيات أحكامه فإنك تجدها مبرأة من اللبس وبعيدة عن تطرق الشبهة، وحسبك قوله: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} [النساء: ٣] فإنك لا تجد في التوراة جملة تفيد هذا المعنى بله ما في الإنجيل. وهذا من مقتضيات كون القرآن مهيمنا على الكتب السالفة في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: ٤٨]

ولما رد وفد نجران ما حاجهم به الرسول وأقام به الحجة عليهم تأكد بذلك كفرهم فتوعدهم الرب تعالى بقوله:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} وكل شرك كفر، وليس كل كفر شركاً..
فالذي يعبد الصنم مشرك وهو كافر أيضاً، والذي يجحد ما
يجب الإيمان به كافر وليس بمشرك.

{بآيَاتِ اللَّهِ} جمع آية، وهي العلامات الدالة على الله عز
وجل، على وجوده، وعلى كماله الذاتي، وكماله الفعلي، والآيات
نوعان:

١ / آيات كونية، ومنها: السماوات، والأرض، والشمس،
والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، والإنسان،
واختلاف اللغات، واختلاف الألوان، والنوم، واليقظة، وأشياء
كثيرة، هذه آيات كونية.

٢ / آيات شرعية، وهي: الوحي المنزل على الرسل
أما الآيات الكونية فوجه كونها آية: أنه لا يستطيع أحد أن
يفعل مثل فعل الله عز وجل أبداً، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ
ضَرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا
ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ}** [الحج: ٧٣]

والآيات الشرعية هي أيضاً من آيات الله، ووجه ذلك: أنه لا
يستطيع أحد أن يأتي بمثل شرع الله في هداية الخلق وإصلاحهم

أبدا، لو اجتمع جميع مفكري العالم ليأتوا بدستور يصلح الخلق كما يصلحه ما جاء في الوحي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، قال عز وجل: {قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨].

لكن الآيات الكونية قد يعقلها كثير من الناس؛ لأنها آيات محسوسة مشهودة، حتى الكافر تقول له: تستطيع تخلق الذباب؟ يقول: ما أستطيع، أما الآيات الشرعية فليس كل أحد يدركها، قال الله تعالى في سورة المطففين: {كَأَلَا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣)} لا يتبين له أنها آيات -والعياذ بالله- لماذا؟ قال الله تعالى مكذبا لقوله: {كَأَلَا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)}، فالإنسان إذا اجتمعت الذنوب على قلبه، -نسأل الله أن يطهرنا وإياكم منها-، صار لا يرى الحق حقا ولا الباطل باطلا، عمي -والعياذ بالله- يتلى عليه القرآن فيقول: هذه أساطير الأولين، ليس كلام رب العالمين؛

ولهذا نقول: الآيات الشرعية هي التي فيها الامتحان والابتلاء، ومن ثم لم ينكر أحد الربوبية، ربوبية الله، كلٌ يقر بأن الله رب العالمين وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض، لكن الآيات الشرعية أنكرت، قريش مثلاً إذا سئلوا من خلق السماوات والأرض قالوا: الله، لكن قالوا في القرآن: إنه كهانة، وشعر، وسحر، وما أشبه ذلك.

والكفر بآيات الله شمل المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة، لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو من آيات الله؛ لأنه معجزة.

{لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} وقد ذكر الله تعالى في القرآن، وذكر نبي الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في السنة أصنافاً وأنواعاً من هذا العذاب تقشعر منه الجلود وتوجل منه القلوب.

قال الله تبارك وتعالى: **{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}** [الكهف: ٢٩].

وقال في سورة الصافات: **{أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي**

أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) { وقال في سورة الدخان: { إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) }،

هذا طعامهم، أما لباسهم: { سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمْ النَّارُ } [إبراهيم: ٥٠]، وأما مقرهم وهواؤهم: { يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت: ٥٥]، { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: ٥٦]. { وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } [فاطر: ٣٧]

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ} من العزة، وهي ثلاثة أصناف: «عزة القدر»، «عزة القهر»، «عزة الامتناع»:

١ / عزة القدر بمعنى: أن الله تعالى ذو قدر شريف عظيم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (السيد الله).

٢ / عزة القهر: أنه قاهر لكل شيء لا يغلب، بل هو الغالب، قال الله تعالى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}** [الأنعام: ١٨]

٣ / عزة الامتناع، أي: أنه عز وجل يمتنع أن يناله سوء أو نقص. فأشار بالعزة إلى القدرة التامة التي هي من صفات الذات. **{ذُو}** الوصف بـ «ذو» أبلغ من الوصف بـ «صاحب»، ولذلك لم يجيء في صفات الله «صاحب».

{انتِقَامٌ} هي المعاقبة على الذنب مبالغة في ذلك، وأشار بذى انتقام إلى كونه فاعلاً للعقاب. إذ هو عذاب عزيز منتقم كقوله: **{فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ}** [القمر: ٤٢].

والانتقام أخذ المجرم بإجرامه، كما قال الله تعالى: **{إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}** [السجدة: ٢٢]، وهنا قال: **{ذو انتقام}**، ولم يقل: ذو الانتقام، وفي الرحمة قال: **{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ}** [الكهف: ٥٨]، ولم يقل: ذو رحمة، وإن كان قال في

آية أخرى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ} [الرعد: ٦]؛ لأن الانتقام ليس من أوصاف الله المطلقة، وليس من أسماء الله المنتقم، بل المنتقم لا يوصف الله به إلا مقيدا، فيقال: المنتقم من المجرمين، كما قال تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}، أما ذو انتقام فهي لا تعطي الانتقام المطلق؛ لأن انتقام نكرة فلا تعطي المعنى على الإطلاق، يعني: له انتقام، انتقام ممن؟ مقيد ولا مطلق؟ مقيد، انتقام من المجرمين، وبهذا نعرف أن الأسماء المسرودة في الحديث الذي رواه الترمذي لا تصح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لأنه ذكر فيها من أسماء الله المنتقم، وهذا لا يصح، وحذف من أسماء الله ما ثبت به الأحاديث، فلم يذكر فيها مثل: الشافي، والرب، فالمهم أن الله تعالى لم يصف نفسه بالمنتقم إلا مقيدا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ} الخفاء ضد الظهور {شَيْءٌ} نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء: الكليات والجزئيات {فِي الْأَرْضِ}

وَلَا فِي السَّمَاءِ { فلو كان هناك من يستحق الألوهية معه لعلمه وأخبر عنه.

فعبر عنه بالأرض والسماء إذ الحس لا يتجاوزهما، وابتدى في الذكر بالأرض ليتسنى التدرج في العطف إلى الأبعد في الحكم؛ لأن أشياء الأرض يعلم كثيرا منها كثير من الناس، أما أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلا عن علم جميعها.

في هذه الآية الكريمة يُخبر الله عز وجل بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي صفة سلبية المراد بها بيان كمال علمه؛ لأن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي، وإنما يراد بها بيان كمال ضد ذلك المنفي، **{ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ }** لكمال علمه لا يخفى عليه شيء، فالله عز وجل كامل العلم، والغرض من هذه الجملة تربية الإنسان نفسه في امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وأنت لا تظن أن عملك يخفى على الله، بل هو معلوم له، فعليك أن تقوم بطاعته وتجتنب معصيته.

وفيه: التحذير من مخالفة الله تعالى سراً وجهراً، ووعيد بالمجازاة.. قال الزمخشري: مطلع على كفر من كفر، وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه.

وفيه: الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء الذي يفعله العبد إلا بعد وقوعه، وهؤلاء غلاتهم.

** وفيه: أن صفات الله عز وجل إما مثبتة وإما منفية، فالمثبتة يسمونها «ثبوتية» والمنفية يسمونها «سلبية». والسلبية متضمنة للثبوت لا بد، ولكنه ينفي نقص ذلك الثابت، فلكمال علمه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ} يجعلكم على صورة معينة يختارها ويريدها **{فِي الْأَرْحَامِ}** وعاء الجنين في بطن أمه **{كَيْفَ يَشَاءُ}** يصورنا على أي كيفية شاء، لا خيار لنا في اختيار صورة معينة للجنين الذي في البطن.

وخص من بين شؤون القيومية تصوير البشر لأنه من أعجب مظاهر القدرة؛ ولأن فيه تعريضا بالرد على النصارى في اعتقادهم إلهية عيسى من أجل أن الله صورته بكيفية غير معتادة فبين لهم أن الكيفيات العارضة للموجودات كلها من صنع الله وتصويره: سواء المعتاد، وغير المعتاد.

قال في البحر المحيط: وهي دالة على كمال العلم بالكماليات والجزئيات، وعبر عن جميع العالم بالأرض والسماء، إذ هما أعظم ما نشاهده، والتصوير على ما شاء من الهيئات دال على

كمال القدرة، وبالعلم والقدرة يتم معنى القيومية، إذ هو القائم بمصالح الخلق ومهماتهم، وفي ذلك ردّ على النصارى، إذ شُبّهتهم في إدعاء إلهية عيسى كونه: يخبر بالغيوب، وهذا راجع إلى العلم، وكونه: يحيي الموتى، وهو راجع إلى القدرة.

فنبهت الآية على أن الإله هو العالم بجميع الأشياء، فلا يخفي عليه شيء، ولا يلزم من كون عيسى عالماً ببعض المغيبات أن يكون إلهاً، ومن المعلوم بالضرورة أن عيسى لم يكن عالماً بجميع المعلومات، ونبهت على أن الإله هو ذو القدرة التامة، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يلزم من كون عيسى قادراً على الإحياء في بعض الصور أن يكون إلهاً، ومن المعلوم بالضرورة أن عيسى لم يكن قادراً على تركيب الصور وإحيائها، بل إنباؤه ببعض المغيبات، وخلقه وأحيائه بعض الصور، إنما كان ذلك بإنباء الله له على سبيل الوحي، وإقداره تعالى له على ذلك، وكلها على سبيل المعجزة التي أجراها وأمثالها على أيدي رسله.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} لا إله حق إلا هو، وليس «هو» اسماً من أسماء الله كما تقوله الصوفية الذين يدعون أنه اسم من أسماء الله عز وجل، ويدعون الله به، فيقولون: (هو، هو، هو)، وهذا من شطحاتهم.

{العَزِيزُ} ذو العزة الكاملة **{الحَكِيمُ}** إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. وهو تذييل لتقرير الأحكام المتقدمة.

فالله عز وجل حاكم مُحَكِّم، بمعنى (متقن)، وهنا يكون بمعنى (ذي الحكمة)، أي: متقن لكل ما حكم به ليس في حكمه خلل ولا نقص، فكل ما حكم الله به من حكم كوني أو شرعي فهو على أتم وجه وأتقنه وأحسنه.

****** فهو «العزیز» العزة التي لا ترام، يقال رُمْتُ الشيء إذا طلبته، والمعنى أنه سبحانه عزيز ممتنع لا يصل أحد إلى ضره فيضره، ولا يستطيع أحد أن يسلبه شيئاً، أو ينقص من صفته أو من فعله أو من ملكه شيئاً، بل هو -جل وعلا- الممتنع الذي لا يرام جانبه.

وهو تعالى «الحكيم» الحكمة التي لا تخطيء، وهما من مقتضيات ألوهيته الحقّة التي لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يجاحد فيها إلا معاند، كوفد نصارى نجران ومنّ على شاكلتهم من أهل الكفر والعناد.

****** وكرر هذه الجملة **{العَزِيزُ الحَكِيمُ}** الدالة على نفي الإلهية عن غيره تعالى، وانحصارها فيه، تأكيداً لما قبلها من قوله **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** ورداً على من ادعى إلهية عيسى، وناسب مجيئها

بعد الوصفين السابقين من العلم والقدرة، إذ من هذان الوصفان له، هو المتصف بالإلهية لا غيره، ثم أتى بوصف العزة الدالة على عدم النظر، والحكمة الموجبة لتصوير الأشياء على الإتيان التام.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ} جمع «آية»، وهي العلامة، ثم أطلقت الآية على الحجة لأن الحجة علامة على الحق، وكل آية في القرآن فهي علامة على منزلها لما فيها من الإعجاز والتحدي. ولذلك سميت معجزة الرسول «آية» كما في قوله تعالى: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} [النمل: ١٢] {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ} [الأعراف: ٢٠٣]

وإنما سميت «آية» لأنها دليل على أنها موحى بها من عند الله إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأنها تشتمل على ما هو

من الحد الأعلى في بلاغة نظم الكلام، ولأنها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلا على أن القرآن منزل من عند الله وليس من تأليف البشر إذ قد تحدى النبي به أهل الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربي فعجزوا عن تأليف مثل سورة من سوره.

فلذا لا يحق لجمل التوراة والإنجيل أن تسمى آيات إذ ليست فيها هذه الخصوصية في اللغة العبرانية والآرامية. وأما ما ورد في حديث رجم اليهوديين اللذين زنيا من قول الراوي: "فوضع الذي نشر التوراة يده على آية الرجم"، فذلك تعبير غلب على لسان الراوي على وجه المشاكلة التقديرية تشبيها بجمل القرآن، إذ لم يجد لها اسما يعبر به عنها.

{مُحْكَمَاتٌ} متقنات في الدلالة والحكم والخبر؛ معلومة ما فيها إشكال، قال السلف: المحكم الذي يعمل به كأصول الاعتقاد والتشريع، والآداب والمواعظ. قال يحيى بن يَعْمَر: "الفرائض، والأمر والنهي، والحلال والحرام".

وكانت أصولا لذلك باتضاح دلالتها، بحيث تدل على معان لا تحتمل غيرها أو تحتمله احتمالا ضعيفا غير معتد به. وباتضاح معانيها بحيث تتناولها أفهام معظم المخاطبين بها وتتأهل لفهمها

فهي أصل القرآن المرجوع إليه في حمل معاني غيرها عليها للبيان أو التفريع.

{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أصله ومرجعه الذي يرجع إليه في فهم الكتاب ومقاصده، ويرجع إليه أيضا عند الاشتباه، وقدم وصف هذه المحكمات وبيان حالها ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات؛ لأنها أم، وأم الشيء مرجعه وأصله، قال الله تعالى: **{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [الرعد: ٣٩]، أي: المرجع، وهو «اللوح المحفوظ» الذي تُرجع الكتابات كلها إليه، ومنه سُميت الفاتحة «أم الكتاب»؛ لأن مرجع القرآن إليها، ومن هذا المعنى قوله تعالى: **{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** [الفرقان: ٧٤]

{وَأُخْرُ} أي: ومنه آخر، كقوله تعالى: **{فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}** [هود: ١٠٥]، فإن **{سَعِيدٌ}** هنا ليست معطوفة على **{شَقِيٌّ}**؛ لأنها لو كانت معطوفة عليها لفسد التقسيم، ولكن التقدير: "فمنهم شقي ومنهم سعيد"، هذا أيضًا: "منه آيات محكمات، ومنه آخر متشابهات".

{مُتَشَابِهَاتٌ} في الدلالة، سواء كان حكمًا أو خبرًا، ولهذا نجد أن بعض الآيات لا تدل دلالة صريحة على الحكم الذي

استدل بها عليه، وبعض الآيات الخبرية أيضاً لا تدل دلالة صريحة على الخبر الذي استدل بها عليه.

فهو إما اشتباه في المعنى، يكون المعنى غير واضح، أو اشتباه في التعارض، يظن الظآن أن القرآن يُعارض بعضه بعضاً. ولا يمكن أبداً أن يكون في القرآن شيء متعارض إطلاقاً؛ لأن الله عز وجل يقول: **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}** [النساء: ٨٢] فهو يصدق بعضه بعضاً، ولكن التعارض الذي قد يفهمه من يفهمه من الناس يكون إما لقصور في العلم، أو قصور في الفهم، أو تقصير في التدبر، أو سوء ظن، بحيث يظن أن القرآن يتعارض، فإذا ظن هذا الظن لم يُوفق للجمع بين النصوص، ويحرم الخير؛ لأنه ظن ما لا يليق بالقرآن.

أما من أعطاه الله علماً وفهماً وحسن قصد وحسن ظن فإنه لا يحصل لديه تعارض في القرآن الكريم؛ لأن عنده كمال في العلم، وكمال في الفهم، ونشاط في التدبر، وحسن نية وقصد، فهذا يوفقه الله تعالى فيعرف كيف يجمع بين ما ظاهره التعارض، أو كيف يعرف هذا المتشابه.

قال الشاطبي: "فالتشابه: حقيقي، وإضافي، فالحقيقي: ما لا سبيل إلى فهم معناه، وهو المراد من الآية، والإضافي: ما اشتبه معناه، لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر. فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه، والتشابه بالمعنى الحقيقي قليل جدا في الشريعة وبالمعنى الإضافي كثير".

وفي «أحكام القرآن» للكنيا الهراسي يقول: "فجعل الله آيات الكتاب منقسمة إلى المحكم والمتشابه، وسمى المحكمات أم الكتاب، وذلك يقتضي رد المتشابهات إليها، فإن الأم لا يظهر لها معنى هاهنا، سوى أنها الأصل لما سواها، ويفهم منها معاني المتشابهات، وذلك يقتضي كون التشابه محتملاً لمعاني مختلفة، يتعرف مراد الله منها بردها إلى المحكمات، وإن كان كثير منها يستدل بالأدلة العقلية على معرفة المراد منها.

ويمكن أن يقال: سميت المحكمات أمّاً: لأنها أنفع لعباد الله تعالى، وأفضل من المتشابهات، كما سميت فاتحة الكتاب أم الكتاب، وسميت مكة أم القرى.

ويحتمل أن يقال: سمي المحكمات أم الكتاب لأنه يلوح معناها، فيستنبط منها الفوائد، ويقاس عليها فسامها أم الكتاب، أي الأم والأصل من الكتاب.

فعلى المحمل الأول، إذا قلنا معنى أم الكتاب أن المتشابهات مردودة إلى المحكمات، ومعتبرة بها، ومقيسة عليها، فالمتشابهات هي التي تحتل معاني مختلفة، فيتعرف مراد الله منها بالمحكمات".

****** وقد دلت هذه الآية على أن من القرآن محكما ومتشابهها، ودلت آيات أخر على أن القرآن كله محكم، قال تعالى: **{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}** [هود: ١] وقال: **{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}** [يونس: ١] والمراد أنه أحكم وأتقن في بلاغته، كما دلت آيات على أن القرآن كله متشابه، قال تعالى: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا}** [الزمر: ٢٣] والمعنى أنه تشابه في الحسن والبلاغة والحقية، وهو معنى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، فلا تعارض بين هذه الآيات: لاختلاف المراد بالإحكام والتشابه في مواضعها، بحسب ما تقتضيه المقامات.

{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} الزيف: الميل والانحراف عن المقصود، قال تعالى: **{مَا زَاغَ الْبَصَرُ}** [النجم: ١٧] ويقال: "زاغت الشمس" إذا مالت عن كبد السماء. فالزيف أخص من

الميل؛ لأنه ميل عن المقصود والصواب، أو عن الحق إلى الباطل.

{فَيَتَّبِعُونَ} والاتباع هنا مجاز عن الملازمة والمعاودة، أي يعكفون على الخوض في المتشابه ويحصونه. شبهت تلك الملازمة بملازمة التابع متبوعه.

{مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} كقوله تعالى:

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٦]، وقوله

في آية أخرى: **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}** [طه: ١٠٢]

وقوله: **{وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}** [المرسلات: ٣٦]، وفي

آية أخرى: يعتذرون، كقوله تعالى: **{رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا}**

{فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون: ١٠٧]

وقوله تعالى: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ}**

{وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١] وفي آية أخرى: **{وَأَقْبَلَ}**

{بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الطور: ٢٥]

وقوله: **{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ}**

{بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢] وفي آية

أخرى: **{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا}**

{مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]

****** روى البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١]، {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصفات: ٢٧]

{وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢]، {وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟

وَقَالَ: {أُمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا} [النازعات: ٢٧] إِلَى قَوْلِهِ: {دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: {أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ٩] إِلَى قَوْلِهِ: {طَائِعِينَ} [فصلت: ١١] فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ؟

وَقَالَ: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٩٦]، {عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ٥٦]، {سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟

فَقَالَ [أَيُّ ابْنِ عَبَّاسٍ]: {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ} [المؤمنون: ١٠١] فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ: {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} [الزمر: ٦٨] فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي

النَّفْحَةِ الْآخِرَةِ، {أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات: ٢٧]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: {مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، {وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢]، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ
ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولْ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ، فَخُتِمَ
عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنَطَّقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ
حَدِيثًا،

[وفي رواية: عن ابن عباس أن معنى هذه: ودوا إذ
فضحتهم جوارحهم أنهم لم يكتموا الله شركهم. وروي عنه
أيضاً: أنهم لما شهدت عليهم جوارحهم لم يكتموا الله شيئاً.
وقال الحسن: القيامة مواقف، ففي موطن يعرفون سوء أعمالهم
ويسألون أن يردوا إلى الدنيا، وفي موطن يكتمون ويقولون: والله
ربنا ما كنا مشركين]

وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ، وَدَحَوَهَا: أَنْ
أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {دَحَاهَا}
[النازعات: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}

[فصلت: ٩]. فَجَعَلَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ،
وَخَلَقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ،

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٩٦] سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ،
وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَي لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ
بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ".
ويقصد من قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ

مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} التعريض بنصارى نجران؛ إذ ألزموا المسلمين بأن
القرآن يشهد لكون الله ثالث ثلاثة بما يقع في القرآن من ضمير
المتكلم ومعه غيره من نحو: خلقنا وأمرنا وقضينا، وزعموا أن
ذلك الضمير له وعيسى ومريم، ولا شك أن هذا إن صح عنهم
هو تمويه؛ إذ من المعروف أن في ذلك الضمير طريقتين
مشهورتين إما إرادة التشريك أو إرادة التعظيم فما أرادوا من
استدلالهم هذا إلا التمويه على عامة الناس.

ومثال تأويل الزنادقة: ما حكاه محمد بن علي بن رازم الطائي
الكوفي قال: كنت بمكة حين كان الجنابي زعيم القرامطة بمكة،
وهم يقتلون الحجاج، ويقولون: أليس قال لكم محمد المكي:
{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} فأى أمن هنا؟" قال: فقلت له: هذا خرج

في صورة الخبر، والمراد به الأمر، أي: ومن دخله فأمنوه، كقوله:

{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} [البقرة: ٢٢٨]

فالذين في قلوبهم زيغ يأتون بهذه الآيات المتشابهة حتى يضربوا بعضها ببعض ليصدوا عن سبيل الله، ويشككوا الناس في كلام الله عز وجل.

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاحْذَرُوهُمْ [مسند أحمد: قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين].

ولفظ البخاري: (فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن ابن العاص، عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

قال: (إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به) [ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن، وابن سعد في الطبقات الكبرى، وإسناده حسن] وروى أحمد في المسند: عن عمر بن شعيب عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قوماً يتدارءون فقال: (إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) [ورواه ابن ماجه والبخاري]. وقال البوصيري في "زوائد ابن ماجه": "إسناده صحيح ورجاله ثقات".

قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده، عن أبي سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (نزل القرآن على سبعة أحرف، والمرء في القرآن كفر -ثلاثاً- ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه). [قال ابن كثير: "وهذا إسناده صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوي: "لا أعلمه إلا عن أبي هريرة" .. لكن رواه النسائي في الكبرى وليس في رواية النسائي الشك "لا أعلمه"] .

{اِبْتِغَاءُ الْفِتْنَةِ} أي: الإضلال لأتباعهم، وصد الناس عن دين الله؛ لأن الفتنة بمعنى الصد عن دين الله، كما قال الله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ}** [البروج: ١٠]

كما احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى: **{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ}** [الزخرف: ٥٩] وبقوله: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله.

{وَابْتِغَاءُ تَأْوِيلِهِ} أي: طلب تأويله لما يريدون هم لا لما يريد الله عز وجل، وهذا كأهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة والجهمية، وغيرهم من الباطنية فقد جعلوا معظم القرآن متشابها، وتأولوه بحسب أهوائهم.. كلهم اتبعوا ما تشابه منه، لكن من مقل ومستكثر، فهؤلاء يتبعون ما تشابه لهذين الغرضين أو لأحدهما.

قال الحافظ أبو يَعْلَى: عن حذيفة يحدث عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه ذكر: (إن في أمّتي قوماً يقرؤون القرآن يَنْشُرُونَهُ نَشْرَ الدَّقَلِ، يَتَأَوَّلُونَهُ على غير تأويله).

{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} الذين تمكنوا في علم الكتاب، ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى، بحيث لا تروج عليهم الشبه.

والرسوخ في كلام العرب: الثبات والتمكن في المكان، يقال: رسخت القدم ترسخ رسوخا إذا ثبتت عند المشي ولم تتزلزل، واستعير الرسوخ لكمال العقل والعلم بحيث لا تضلله الشبه، ولا تتطرّقه الأخطاء غالبا، فالراسخون في العلم: الثابتون فيه العارفون بدقائقه، فهم يحسنون مواقع التأويل، ويعلمونه.

**** هذه الآية الكريمة اختلف السلف في الوقف عليها:**

١ / فأكثر السلف وقف على قوله: **{إِلَّا اللَّهُ}** وجعل الوقف هنا لازما، يعني يجب أن تقف تقول: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** ثم تبدئ فتقول: **{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}** وعلى هذا فتكون الواو هنا في قوله: **{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}** للاستئناف **{وَالرَّاسِخُونَ}** مبتدأ، وجملة **{يَقُولُونَ}** خبر المبتدأ، وهذا الذي عليه أكثر السلف، يعني أن هذا المتشابه لا يعلم

تأويله، المراد به إلا الله عز وجل، والراسخون في العلم الذين لم يعلموا لا يطلبون بذلك الفتنة، وإنما يقولون: **{آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}**، وليس في كلام ربنا تناقض ولا تضارب، ويسلمون الأمر إلى الله عز وجل؛ لأنه هو العالم بما أراد، فينقسم الناس إذن إلى قسمين: **{الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}** و **{الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}**.

وقالوا: ولو كانوا عالمين بتأويل المتشابه على التفصيل لما كان في الإيمان به مدح، لأن من علم شيئاً على التفصيل لا بد أن يؤمن به؛ إذ الإيمان بما ظهر معناه أمر غير غريب.. وإنما الراسخون يعلمون بالدليل العقلي أن المراد غير الظاهر، ويفوضون تعيين المراد إلى علمه تعالى، وقطعوا أنه الحق، ولم يحملهم عدم التعيين على ترك الإيمان.

قال عبد الرزاق: كان ابن عباس يقرأ: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}**، ويقول الراسخون: آمنا به"، وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: "إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به". وكذا عن أبي بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول.

قال الفخر:

ومن هنا أمسك كثير السلف عن تأويل المتشابهات، غير
الراجعة إلى التشريع، فقال أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أي أرض
تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم".

وعن سليمان بن يسار أن صَيْغَ بن عِسل التميمي قدم
المدينة [من البصرة] فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء
[كان يَتَّبَعُ مُشْكِلَ القرآن، ويسأل عنه]، فبلغ ذلك عمر -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين من
عراجين النخل فلما حضر، قال له عمر: من أنت؟ قال أنا عبد
الله صَيْغَ. فقال عمر: وأنا عبد الله عمر ثم قام إليه فضرب رأسه
بعرجون فشجه ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه [وكرر
ذلك أياما] فقال: "حسبك يا أمير المؤمنين، فقد ذهب والله ما
كنت أجد في رأسي"، ثم أرجعه إلى البصرة، وكتب إلى أبي
موسى الأشعري أن يمنع الناس من مخالطته.

وطريقة السلف هذه كانت قبل تفشي شكوك الملحدين أو
المتعلمين، وذلك في عصر الصحابة والتابعين وبعض عصر
تابعيهم، خشية أن يتأولوا تأويلات لا يدرى مدى ما تفضي إليه

من أمور لا تليق بجلال الله تعالى، ولا تتسق مع ما شرعه للناس من الشرائع.

٢ / ووصل بعض السلف ولم يقف، أي قرأ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} فتكون الواو للعطف، {وَالرَّاسِخُونَ} معطوفة على لفظ الجلالة؛ أي: ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، بخلاف الذين في قلوبهم زيغ وليس عندهم علم فهؤلاء لا يعلمون.

وفي هذا العطف تشريف عظيم: كقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ} [آل عمران: ١٨]

ولا يسمى راسخاً إلا من يعلم من هذا النوع كثيراً بحسب ما قدر له، وإلا فمن لا يعلم سوى المحكم فليس براسخ. فتسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي استوى في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؟ وما الرسوخ إلا المعرفة بتعاريف الكلام، وموارد الأحكام، ومواقع المواعظ؟ وهو قول كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد. وعن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله.

وإعراب: الراسخين، يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما. وتأول عند عروض الشبهة لبعض الناس كما مر في حديث البخاري.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ} الذي أراد ما أراد {إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}** ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المُحَكِّمَةِ التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفدت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر.

****** والحقيقة أن ظاهر القراءتين التعارض؛ لأن القراءة الأولى تقتضي أنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه إلا الله، والقراءة الثانية تقتضي أن هذا المتشابه يعلم تأويله الله والراسخون في العلم، فيكون في ظاهر القولين التعارض.

ولكن الصحيح أنه لا تعارض بينهما، وأن هذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى التأويل في قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** فإن كان المراد بالتأويل «التفسير» فقراءة الوصل أولى؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير القرآن المتشابه، ولا يخفى عليهم لرسوخهم في العلم وبلوغهم عمق العلم؛ لأن

الراسخ في الشيء الثابت فيه المتمكن منه، فهم لتمكنهم وثبوت أقدامهم في العلم وتعمقهم فيه يعلمون ما يخفى على غيرهم، فإذا جعلنا التأويل بمعنى التفسير فقراءة الوصل أولى. أما إذا جعلنا التأويل بمعنى «العاقبة والغاية» المجهولة فالوقف على {إِلَّا اللَّهُ} أولى؛ لأن عاقبة هذا المتشابه وما يؤول إليه أمر مجهول لكل الخلق. وهو موجود في القرآن:

أولاً: التأويل بمعنى «التفسير»؛ مثل قول صاحبي السجن ليوسف عليه الصلاة والسلام: {قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَرْعَىٰ أَرْضًا خَيْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [يوسف: ٣٦] أي بتفسير هذه الرؤيا، ومن ذلك قول الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لابن عباس: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ) [أحمد]، أي: تفسير الكلام ومعرفة معناه.

وأما التأويل بمعنى «العاقبة والغاية» فمنه قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٥٣]

فقوله: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} يعني: عاقبته وما يؤول إليه،
{يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ} يعني: تأتي عاقبته التي وُعدوا بها، {يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}.

ومنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩] يعني: أحسن عاقبة ومآلًا.

فتبين بهذا أن كلمة (تأويل) صالحة للمعنيين جميعًا؛ التفسير
والعاقبة، فإذا جعلناها بمعنى التفسير فلا ريب أن الراسخين في
العلم يعلمون تفسير القرآن ولا يخفى عليهم شيء، ولا يمكن –
بأي حال من الأحوال– أن ينزل الله سبحانه وتعالى على عباده
كتابًا يسألهم عنه يوم القيامة وهم لا يعرفون معناه. فالراسخون
في العلم لا بد أن يعلموه وإلا لبطلت الحجة، فلا بد من معرفة
هذا الكتاب المنزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما إذا قلنا بأن التأويل ما آل إليه الأمر، وما كان عليه في
نفس الواقع مما هو مجهول لنا فهنا يتعين الوقوف على قوله:
{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}.

****** واعلم أن كثيراً من الناس الذين تكلموا في العقائد فسروا المتشابه بآيات الصفات، قالوا: إن المتشابهات هن آيات الصفات، ولكن لا شك أن تفسير المتشابهات بآيات الصفات على الإطلاق ليس بسديد ولا بصحيح؛ لأن آيات الصفات معلومة مجهولة؛ فهي من حيث المعنى معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله عز وجل ويحدثنا عن نفسه بأمر مجهول لا نستفيد منه، وليس هو بالنسبة إلينا إلا كنسبة الحروف الهجائية التي ليس فيها معنى، هذا غير ممكن إطلاقاً، نعم، هي مجهولة من جهة أخرى، وهي الحقيقة والكيفية التي هي عليها، فهذا مجهول لنا، لا نعلم كيف يد الله ولا ندرك حقيقتها، لا نعلم كيف وجه الله ولا ندرك حقيقته، لا ندرك حقيقة علم الله عز وجل، ولا ندرك كل صفاته من حيث حقائقها؛ لأن الله يقول: **{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}** [طه: ١١٠]، فمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه -على سبيل الإطلاق- فقد أخطأ.

وقد ذهب إلى هذا من ذهب من الناس، وقال: إن آيات الصفات وأحاديثها مجهولة لا نعلمها، لا يعلمها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، ولا ابن مسعود، ولا ابن عباس، ولا فقهاء الصحابة، ولا

فقهاء التابعين، ولا أئمة الإسلام، كلهم لا يدرون ما معناها، تقول له: ما معنى استوى على العرش؟ فيقول: الله أعلم. ما معنى يد الله في قوله: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]؟ يقول: الله أعلم، ما معنى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: ٢٧]؟ الله أعلم، كل شيء الله أعلم، كل ما يتعلق بصفات الله يقول: الله أعلم، والغريب أن هذا القول في غاية ما يكون من السقوط، وإن كان بعض الناس يظن أنه مذهب أهل السنة، أو أنه مذهب السلف، حتى أدى بهم الأمر إلى هذه الكلمة الكاذبة، «طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم»، وهذه الجملة والقضية من أكذب القضايا، أن تكون طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، لكن نقول: طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم، المهم أن من الناس من يظن أن مذهب السلف هو التفويض وعدم معرفة المعنى وعدم الكلام به حتى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على زعمهم يقول: (يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ) [البخاري] لو سأله وقلت: يا رسول الله، ما معنى يضحك؟ قال: ما أدري! (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ) لو سأله: ما معنى ينزل؟ قال: لا أدري، والعجب كيف يستقيم

لسان شخص يدّعي أن هذا مذهب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم القيامة؟! هذا بعيد من الصواب!

إذن: آيات الصفات من المتشابه في الحقيقة والكيفية التي هي عليها؛ لأن الإنسان بشر لا يمكن يدرك هذه الصفات العظيمة، لكن في المعنى محكمة معلومة لا تخفى على أحد، كلنا يعرف ما معنى العلم، كلنا يعرف ما معنى الاستواء، كلنا يعرف ما معنى الوجه، ما معنى اليد، ولهذا قال الإمام مالك - رحمه الله - قوله المشهور الذي روي عن شيخه قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} صدّقنا به، بالمحكم وبالمتشابه، أما المحكم فظاهر أنهم يؤمنون به؛ لأنهم عرفوا معناه واطمأنوا إليه، وأما المتشابه فإيمانهم به هو التسليم.

{كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} فعلى القول الأول: هو أنهم آمنوا بما عرفوا بتفصيله وما لم يعرفوه.

وعلى القول الثاني: وإذا كان كل من عند ربنا فإنه لا يمكن أن يتناقض ولا يمكن أن يتعارض، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم ويكون الجميع محكمًا.

وأضاف العندية إلى قوله: **{ربنا}**، لا إلى غيره من أسمائه تعالى لما في الإشعار بلفظة الرب من النظر في مصلحة عبده، فلولا أن في المتشابه مصلحة ما أنزله تعالى، ولجعل كتابه كله محكماً.

{وَمَا يَذَّكَّرُ} أصلها: يتذكر، لكن قلبت التاء ذالاً وأدغمت في الذال الأخرى صارت **{وَمَا يَذَّكَّرُ}**، أي: لا يتعظ وينتفع بالقرآن **{إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}** إلا أصحاب العقول.. تذييل، ليس من كلام الراسخين، مسوق مساق الثناء عليهم في اهتدائهم إلى صحيح الفهم.

والمعنى: وما يتعظ بنزول المحكم والمتشابه إلا أصحاب العقول، إذ هم المدركون لحقائق الأشياء، ووضع الكلام مواضعه، ونبه بذلك على أن ما اشتبه من القرآن، فلا بد من النظر فيه بالعقل الذي جعل مميزاً لإدراك: الواجب، والجائز، والمستحيل، فلا يوقف مع دلالة ظاهر اللفظ، بل يستعمل في ذلك الفكر حتى لا ينسب إلى الباري تعالى، ولا إلى ما شرع من أحكامه، ما لا يجوز في العقل.

****** وحكمة الله عز وجل في جعله القرآن ينقسم إلى قسمين، أن بهذا يحصل الابتلاء والامتحان؛ فالمؤمن لا يضل بهذا

الانقسام، والذي في قلبه زيغ يضل، وهذا كما يمتحن الله العباد بالأوامر والنواهي يمتحنهم أيضاً بالأدلة فيجعل هذا محكماً وهذا متشابهاً ليتبين المؤمن من غير المؤمن، ولو كان القرآن كله محكماً لم يحصل الابتلاء، ولو كان كله متشابهاً لم يحصل البيان، والله سبحانه وتعالى جعل القرآن بياناً، وجعله محكماً متشابهاً للاختبار والامتحان.

قال ابن كثير: وأحسن ما قيل فيه الذي قدمناه، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله- حيث قال: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق، لهن تصريح وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

وأيضاً لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال،، وفي المتشابه من تقادح العلماء وإتقانهم القرائح في استخراج معانيه، ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله،، ولأن المؤمن المعتقد

أن لا مناقضة في كلام الله، ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه، وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده، وقوة في إتقانه.

ويقول ابن عاشور: على أن من مقاصد القرآن أمرين آخرين:
١ / أحدهما كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

٢ / وثانيهما تعويد حملة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كل زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لا اعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ
لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

{رَبَّنَا} الظاهر أن هذا من جملة قول الراسخين في العلم
{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، ويقولون أيضاً: **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ
قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}**.

والدعاء يصدر غالباً بالرب؛ لأن الدعاء يستلزم ويتطلب
الإجابة، والإجابة من الأفعال، والأفعال علاقتها بالربوبية أكثر
من علاقتها بالألوهية، ولهذا غالب الأدعية يأتي مصدراً بالرب
{رَبَّنَا}، وهي منصوبة بياء النداء المحذوفة، وأصل الكلام: يا
رَبَّنَا، لكن حُذفت الياء تخفيفاً، وتيمناً بالبداءة باسم الله عز
وجل.

{لَا} هذه جملة دعائية وإن كانت بصيغة النهي؛ لأن النهي
لا يمكن أن يرد من المخلوق للخالق؛ إذ إن النهي طلب الكف
على وجه الاستعلاء، ولا يمكن للمخلوق أن يطلب من ربه أن
يكف على وجه الاستعلاء أبداً، فإذا وُجِّه الطلب من أدنى إلى
أعلى سُمِّي (دعاء)، فلهذا نقول: (لا) دعائية ولا نقول: (لا)
ناهية؛ لأنه لا نهى من مخلوق للخالق.

{تُرْغِ قُلُوبَنَا} سُلط الفعل على القلب؛ لأن القلب عليه مدار العمل لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) [متفق عليه من حديث النعمان بن بشير]

قال تعالى: **{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج: ٤٦]، وبهذا القلب يكون العقل لقوله تعالى: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}** [الحج: ٤٦] وهو عقل والرشاد والفساد، والتصرف والتدبير، وليس عقل الإدراك والتصور الذي في المخ. فإذا استقامت القلوب ولم تمل استقامت الجوارح عقيدة وقولاً وعملاً.

روى الترمذي عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) [صحيح]

وروى أيضا شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ

قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ
يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: (يَا أُمُّ سَلَمَةَ إِنَّهُ
لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ،
وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ). فَتَلَا مُعَاذُ {رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}
[صحيح]

{بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} تحقيق للدعوة على سبيل التلطف؛ إذ
أسندوا الهدى إلى الله تعالى، فكان ذلك كرماً منه، ولا يرجع
الكريم في عطيته، وقد استعاذ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من
السلب بعد العطاء.

والمعنى: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا
كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن
ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم.

وهذه الجملة لا يُراد بها الافتخار، وإنما يُراد بها التوسل
بالنعم السابقة إلى النعم اللاحقة، فكأنهم يقولون: ربنا إنك
مَنَنْتَ علينا بالهداية أولاً فنسألك أن تمن علينا بثبوت هذه
الهداية فلا تزغها.

**** والهداية: هداية دلالة وهداية توفيق:**

هداية الدلالة كقوله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧]. وقوله تعالى للرسول -صلى
الله عليه وسلم-: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}
[الشورى: ٥٢]

وهداية التوفيق كقوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦] وكاليهود الذي
علموا لكن لم يعملوا. أما النصارى فضالون لم يعرفوا الحق ولم
يعملوا به.

{وَهَبْ لَنَا} الهبة هي العطاء بلا عوض، وكمالها بلا منة،
والله سبحانه وتعالى له المنة علينا كما قال تعالى: {بَلِ اللَّهَ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ} [الحجرات ١٧]

سألوا بلفظ الهبة المشعرة بالتفضل والإحسان إليهم من غير
سبب ولا عمل ولا معاوضة، لأن الهبة كذلك تكون.

{مَنْ لَدُنْكَ} من عندك، وخصوصها بأنها من عنده -سبحانه-
لئلا يكون لأحد عليهم منة سواه، ولأنها إذا كانت من عند الله -
وهو أكرم الأكرمين- صارت هبة عظيمة؛ لأن العطاء على قدر
من المعطي.

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر حين سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته قال: (قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [البخاري]

{رَحْمَةً} تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا.. والرحمة يحصل بها المطلوب وينجو بها الإنسان من المرهوب، فإن جُمعت مع المغفرة صار بالرحمة حصول المطلوب، وبالمغفرة النجاة من المرهوب.

والرحمة صفة من صفات الله عز وجل، وتطلق على نعمه أيضا؛ لأنها من آثار رحمته كما قال الله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ}** [الشورى: ٢٨]. ومنه قوله تعالى: **{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [آل عمران: ١٠٧]. وقال الله تعالى للجنة: (أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ) [البخاري ومسلم]. فتطلق الرحمة على هذا وهذا، وفي هذه الآية هي النعم، وهي من آثار رحمته.

{إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} هذا كالتعليل لقولهم: **{وَهَبْ لَنَا}**، وفيها أيضا معنى التوكيد والحصر والقصر، وأتى بصيغة المبالغة التي على فعال لأجل كمال الصفة فيه تعالى؛ لأن هبات الناس

بالنسبة لما أفاض الله من الخيرات شيء لا يعبا به، وأيضا لمناسبة رؤوس الآي.

والوهاب: الكثير العطاء، وهذه صفة لازمة له عز وجل، وهو كذلك كثير من يعطي؛ يعني الذين يعطيهم الله كثيرون لا يحصون. كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ) وَقَالَ: (يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ [السحاء الدائمة الصب])، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ)

وفي مسلم عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: (.. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ..)

وفيه أن التخلية تكون قبل التحلية لقوله: {رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} ثم قال: {وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً}. وأن الإنسان مضطر إلى ربه في الدفع والرفع.

**** والآية كلها دعاء علمه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -،**
تعلّما للأمة: لأن الموقع المحكي موقع عبرة ومثار لهواجس
الخوف من سوء المصير إلى حال الذين في قلوبهم زيغ فما هم
إلا من عقلاء البشر، لا تفاوت بينهم وبين الراسخين في
الإنسانية، ولا في سلامة العقول والمشاعر، فما كان ضلالهم إلا
من حرمانهم التوفيق، واللفظ، ووسائل الاهتداء.

وقد علم من تعقيب قوله: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ}**
[آل عمران: ٧] الآيات بقوله **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا}** أن من جملة
ما قصد بوصف الكتاب بأن منه محكما ومنه متشابها، إيقاظ
الأمة إلى ذلك لتكون على بصيرة في تدبر كتابها: تحذيرا لها من
الوقوع في الضلال، الذي أوقع الأمم في كثير منه وجود
المتشابهات في كتبها، وتحذيرا للمسلمين من اتباع البوارق
الباطلة مثل ما وقع فيه بعض العرب من الردة والعصيان، بعد
وفاة الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، لتوهم أن التدين بالدين
إنما كان لأجل وجود الرسول بينهم، ولذلك كان أبو بكر يدعو
بهذه الآية في صلاته مدة ارتداد من ارتد من العرب، ففي
الموطأ، عن أبي عبد الله الصنابحي: أَنَّهُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي خِلَافَةِ
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَصَلَّى وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

الْمَغْرِبَ، فَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ فِي الْمَغْرِبِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَسُورَةٍ مِنْ قِصَارِ الْمُفْصَلِ، ثُمَّ قَامَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّالِثَةِ - قَالَ - فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنَّ ثِيَابِي لَتَكَادُ تَمَسُّ ثِيَابَهُ، فَسَمِعْتُهُ قَرَأَ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَهَذِهِ الْآيَةُ: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}

{رَبَّنَا} يقولون في دعائهم ربنا {إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ} لجزاء يوم، واللام هنا للتوقيت، فهي كقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} [الإسراء: ٧٨] أي: وقت دلوها، أو كقوله: {إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١] أي: وقت عدتهن، فالله تعالى جامع الناس لهذا الوقت.

{لَا رَيْبَ فِيهِ} لا شك في تحقيقه، ولكن الريب أبلغ من الشك، وإن كان معناهما متقاربًا؛ لأن الريب فيه زيادة قلق واضطراب مع الشك، والشك خالٍ من ذلك، ولهذا جاءت كلمة ريب الدالة لمفهومها اللفظي على أن هناك نوعًا من القلق والاضطراب الحاصل بالشك؛ لأن من الشكوك ما لا يولد هما ولا غمًا ولا اضطرابًا ولا يهتم به الإنسان، ومن الشكوك ما يهتم به الإنسان ويضطرب ويقلق مثل هذه الأمور العظيمة الواردة في

الأخبار باليوم الآخر، فإن الإنسان لا بد أن يطمئن اطمئننا
كاملاً.

** استحضروا عند طلب الرحمة أحوج ما يكونون إليها، وهو
يوم تكون الرحمة سببا للفوز الأبدي، فأعقبوا بذكر هذا اليوم
دعاءهم على سبيل الإيجاز، كأنهم قالوا: هب لنا من لدنك
رحمة، وخاصة يوم تجمع الناس كقول إبراهيم: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}** [إبراهيم: ٤١]

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} الموعد، وهي للتأكيد لما سبق،
وظاهر العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدل على
الاستئناف، وأنه من كلام الله تعالى لا من كلام الراسخين
الداعين.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الداعين، ويكون
ذلك من باب الالتفات، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة لما
في ذكره باسمه الأعظم من التفخيم والتعظيم والهيبة، وكأنهم لما
والوا الدعاء بقولهم: ربنا، أخبروا عن الله تعالى بأنه الوفي بالوعد.
** وتضمن هذا الكلام الإيمان بالبعث والمجازاة والإيفاء بما
وعد تعالى. وأن الله تعالى يجمع الناس كلهم في ذلك اليوم
العظيم من أولهم إلى آخرهم، ويجمع غيرهم كالجن والوحوش

والبهائم {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥] {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} [التكوير: ٤]، ويجمع الملائكة: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ} [النبا: ٣٨] {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢].

** وفيه: انتفاء صفة خُلف الوعد عن الله عز وجل لقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} وانتفاء هذه الصفة يتضمن كماله في شيئين وهما: الصدق والقدرة، فلكمال صدق الله عز وجل وكمال قدرته لا يخلف الميعاد بل لا بد أن يقع ما وعد به.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} كفروا بما يجب الإيمان به، فكفروا بالله، أو باليوم الآخر، أو بالملائكة، أو بالكتاب، أو بالنبيين، أو بالقدر.. إذا كفروا بأي واحد من هذه الأشياء الستة فهم كفار؛ لأن الإيمان لا يتبعض، كما قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} *

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا { [النساء: ١٥٠-١٥١]. وقال تعالى:
{ أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ
ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى
أَشَدِّ الْعَذَابِ { [البقرة: ٨٥].

فالإيمان ستة أركان بينها الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
جوابًا لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ،
وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)
[أحمد]

{لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ} لن تدفع عنهم قضاؤه، وتمنعهم من بطشه
وعذابه، كما في قول أبي سفيان، يوم أسلم: "لقد علمت أن لو
كان معه إله غيره لقد أغنى عني شيئاً".

{أَمْوَالُهُمْ} يطلق المال غالباً على الدراهم والدنانير، كما في
قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للعباس: (فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي
وَضَعْتَهُ بِمَكَّةَ حِينَ خَرَجْتَ عِنْدَ أُمِّ الْفَضْلِ وَلَيْسَ مَعَكُمْ أَحَدٌ
غَيْرُكُمْ) [أحمد]. وغلب المال في كلام أهل الزرع والحرث
على الجنات والحوائط، ففي الحديث: "كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ
الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ"
[البخاري]. وغلب اسم المال في كلام جل العرب على الإبل.

ولما كان المال في باب المدافعة والتقرب والفتنة أبلغ من الأولاد، قدم في هذه الآية، وفي قوله: { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ } [سبأ: ٣٧] وفي قوله: { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [التغابن: ١٥] وفي قوله: { اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } [الحديد: ٢٠] وفي قوله: { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ } [الشعراء: ٨٨]

بخلاف قوله تعالى: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [آل عمران: ١٤]، فإنه ذكر هنا حب الشهوات، فقدم فيه النساء والبنين على ذكر الأموال.

** واختلف العلماء في المرتد الذي يكفر بعد إسلامه، هل يزول ملكه عما تحت يده أو لا؟ فمن العلماء من قال: إنه إذا ارتد الإنسان زال ملكه عما تحت يده، وعلى هذا فلا يصح أن يتصرف فيه، ولكن القول الراجح: أنه لا يزول ملكه إلا إذا مات على رده فإن ملكه لا ينتقل إلى ورثته، بل إلى بيت المال. ولا

يرثه أحد من ورثته لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ) [متفق عليه].

{وَلَا أَوْلَادُهُمْ} ولا تناصر أولادهم، وإنما خص الأموال والأولاد من بين أعلام الذي كفروا؛ لأن الغناء يكون بالفداء بالمال، كدفع الديات والغرامات، ويكون بالنصر والقتال، وأولى من يدافع عن الرجل من عشيرته أبنائه، وعن القبيلة أبنائها.

{مَنْ اللَّهَ} من عذابه الدنيوي والأخروي **{شَيْئًا}** للتقليل.

{وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودٌ} ما يُوقد به: كالطَّهْر ما يُطهر به، والسَّحور ما يتسحر به، والفطور ما يُفطر به، بخلاف الضم: فُطور، وسُحور، وطَّهْر، ووُضوء فهي الأفعال.

وإذا كانوا -والعياذ بالله- وقودها فإنها تتسعر بهم أو تُسعر بهم، وهي في نفس الوقت تحرقهم نسأل الله العافية.

{النَّارُ} وأتى بلفظ: {هم} المشعرة بالاختصاص، وجعلهم نفس الوقود مبالغة في الاحتراق، كأن النار ليس لها ما يضرها إلا هم.

** ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وذكر أنهم وقود النار أي: حطبها الذي يتقد فيه، ولم يبين هنا هل نفيه لذلك تكذيب

لدعواهم أن أموالهم وأولادهم تنفعهم، وبين في مواضع آخر أنهم ادعوا ذلك ظنا منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأن الآخرة كالدينا يستحقون فيها ذلك أيضا، فكذبهم في آيات كثيرة، فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: **{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ}** [سبأ: ٣٥]، وقوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا}** [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدنيا. وقوله: **{وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ}** [فصلت: ٥٠] أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: **{وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}** [الكهف: ٣٦]، قياسا منه للآخرة على الدنيا.

ورد الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}**، وقوله: **{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}** [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقوله: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ}** [سبأ: ٣٧]، وقوله: **{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}** [آل

عمران: ١٧٨]، وقوله: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ،
وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم: ٤٥-٤٤]. إلى غير ذلك
من الآيات.

{كَدَّابٌ} الكاف للتشبيه، والدَّاب -بسكون الهمزة
وفتحها- إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه، مصدر
دَاب، إذا دام، ثم نقل إلى الشأن والعادة.

{آلِ فِرْعَوْنَ} أشياعه وأتباعه، لأن الآل يطلق على أشد
الناس اختصاصاً بالمضاف إليه، والاختصاص هنا اختصاص في
المتابعة والتواطؤ على الكفر، كقوله: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦] فلذكر الآل هنا من الخصوصية ما ليس
لذكر القوم؛ إذ قوم الرجل قد يخالفونه. فلا يدل الحكم المتعلق
بهم على أنه مساو لهم في الحكم، قال تعالى: {أَلَا بُعْدًا لِعَادِ
قَوْمِ هُودٍ} [هود: ٦٠]

وتخصيص آل فرعون بالذكر من بين بقية الأمم لأن هُلِكَهُمْ
معلوم عند أهل الكتاب، بخلاف هُلِكَ عاد وثمود فهو عند
العرب أشهر؛ ولأن تحدي موسى إياهم كان بآيات عظيمة فما
أغنتهم شيئاً تجاه ضلالهم؛ ولأنهم كانوا أقرب الأمم عهداً بزمان
النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهو كقول شعيب: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ

مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ { [هود: ٨٩] وكقول الله تعالى للمشركين: {وَإِنَّهَا
لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ { [الحجر: ٧٦] وقوله: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ {
[الحجر: ٧٩] وقوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ { [الصفات: ١٣٧-١٣٨].

وقد ذكر الله سبحانه تعالى قصة فرعون في كتابه كثيرًا من
أجل اليهود الذين كانوا في المدينة، ومن أجل الأنصار الذين
تلقوا من علوم اليهود شيئًا كثيرًا.

{وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} كقوم نوح وهود ولوط وصالح وشعيب
وغيرهم.

{كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} كذبوا بكل ما يدل عليها من الآيات الكونية
والآيات الشرعية، وأكثر ما يكون أن يكذبوا بالآيات الشرعية؛
لأن الآيات الكونية قل من يُكذَّب بها فالآيات الكونية مخلوقات
الله، وقل من ينكر أن يكون الخالق هو الله، لكن الآيات
الشرعية التي هي الوحي التي جاءت به الرسل هو الذي يقع فيه
التكذيب.

{فَأَخَذَهُمْ} أهلكهم **{اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}** رجع من التكلم إلى
الغيبة، ومعنى الأخذ بالذنب: العقاب عليه، والباء في: بذنوبهم،
للسبب.

وهو أخذ الانتقام في الدنيا كقوله: {أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام: ٤٤-٤٥].
{وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} فيه إشارة إلى سطوة الله على من كفر بآياته وكذب بها.

** والآيات استئناف كلام ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون: من دوام الهداية، وسؤال الرحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالندارة. وتعقيب دعاء المؤمنين {رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا.}، بذكر حال المشركين، إيماء إلى أن دعوتهم استجيب.

** وفيه: أن كل من جحد أهل الخصوصية، وفاته حظه من مشاهدة عظمة الربوبية، حتى حصل له الطرد والبعاد، وفاته مرافقة أهل المحبة والوداد، لن تغني عنه - بدلاً مما فاته - أموال ولا أولاد، واتصلت به الأحزان والأنكاد.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّائِيَاتِ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

{قُلْ} يا محمد، والخطاب الموجه للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في القرآن على ثلاثة أوجه:

١ / تارة يكون شاملاً له وللأمة بالنص المقترن بذلك الخطاب، أي اقترن به ما يدل على أنه عام له وللأمة، كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ}** [الطلاق: ١]، فقال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}**، ثم قال: **{إِذَا طَلَّقْتُمُ}** ولم يقل: إذا طَلَّقْتَ.

٢ / وتارة يكون عاماً له وللأمة بمقتضى كونه إماماً للأمة، فليس بالخطاب ما يدل على العموم لكن باعتبار أنه إمام الأمة يكون الخطاب له، وحكمه يشملهم ويشمل الأمة رغم أنه ليس فيه نص مقترن به على أنه عام، وهو أكثر الخطابات الموجهة للرسول -عليه الصلاة والسلام-. مثل هذه الآية: **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا...}** هذا شامل له وللأمة، حتى نحن نقول للذين كفروا: **{سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ}**، على وجه الاقتداء به والتأسي به.

٣ / وتارة يكون خاصًا به -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كقوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** [الشرح: ١]، **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}** [الضحى: ٦] ولا نقول: إن كل واحد إذا اهتدى شرح صدره للإسلام، فتكون كالنوع الثاني، لأن الاستفهام هنا للتقرير، وخاص بالرسول عليه الصلاة والسلام.

{لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ} في الدنيا من المؤمنين، وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان، فالذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا مصدقًا بالعمل الصالح سوف يغلبون الكفار بلا شك، قال عز وجل: **{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}** [غافر: ٥١]

وعلى كل حال فالذين يعصون الله عز وجل لا يستحقون النصر؛ لأن المعصية سبب للخذلان، لكن قد يُنصرون لظلم خصمهم، فأحيانًا يُنصر الظالم على الظالم من أجل إهانة الثاني، كما قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [الأنعام: ١٢٩]

{وَتُحْشَرُونَ} في الآخرة **{إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}** هذا قدح للنار، يعني: بئس ما يتمهد به الإنسان في فراشه ويلتحف بلحافه، كقوله تعالى: **{لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ}**

ظُلِّلَ} [الزمر: ١٦] -والعياذ بالله-، وقوله: {يَوْمَ يَغْشَاهُمْ
الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ} [العنكبوت: ٥٥]، وقوله: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [الأعراف: ٤١] أي: شيء يغشيهم ويغطيهم من
العذاب.

** فالكفار يخسرون الدنيا والآخرة. كقوله عز وجل: {إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٣٦]

وفيه: أن الله عز وجل يجمع للكفار بين العقوبتين: عقوبة
الدنيا وعقوبة الآخرة، وأما المؤمن فإن الله تعالى إذا عاقبه في
الدنيا لم يعاقبه في الآخرة، ولن يجمع الله له بين عقوبتين، قال
جل ذكره: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو
عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] فلا يجازي عليه، وهو تعالى أكرم من
أن يشني الجزاء في الآخرة.

** وسبب نزولها ما رواه البيهقي عن ابن عباس -رضي الله
عنهما- أنه قال: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقٍ قَيْنَقَاعَ

فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا). فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَا نَحْنُ النَّاسُ، وَإِنَّكَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ.

وقيل: نزلت في قريش قبل بدر بسنتين، فحقق الله تعالى ذلك.

والظاهر أن الذين كفروا يعم الفريقين: المشركين واليهود، وكل قد غلب بالسيف، والجزية، والذلة، وظهور الدلائل والحجج.

**** ولما أخبر تعالى قيل: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} [آل عمران: ١٠] ناسب ذلك الوعد الصادق اتباعه بهذا الوعد الصادق، وهو كالتوكيد لما قبله، فالغلبة تحصل بعدم انتفاعهم بالأموال والأولاد، والحشر لجهم مبدأ كونهم يكونون لها وقوداً.**
**** والآية أيضا استئناف ابتدائي، للانتقال من النذارة إلى التهديد، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر، إلى ضرب المثل لهم بسابق أحوالهم المؤذنة بأن أمرهم صائر إلى**

زوال، وأن أمر الإسلام ستندك له صم الجبال. وجيء في هذا التهديد بأطنب عبارة وأبلغها؛ لأن المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة، والتذكير بوصف يوم كان عليهم يعلمونه، كيوم بدر إن كان الخطاب للمشركين، أو يوم قريظة والنضير وخير إن كان الخطاب لليهود.

{قَدْ كَانَ} ولم يلحق التاء {كان} وإن كان قد أسند إلى مؤنث، لأجل أنه تأنيث مجازي. وازداد حسناً بالفصل بـ {لكم}، وإذا كان الفصل محسناً في المؤنث الحقيقي، فهو أولى في المؤنث المجازي، ومن كلامهم: "حضر القاضي امرأة".

{لَكُمْ آيَةٌ} علامة على أنكم ستُغلبون، أو دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره **{فِي فِتْنَيْنِ}** قصة فتنين أي طائفتين.

{الْتَقَتَا} لقي بعضهما بعضاً للحرب والقتال. وغالبا ما يطلق اللقاء على البروز للقتال، كما في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ}** [الأنفال: ١٥]

أجمع المفسرون على أنها وقعة بدر، والخطاب للمؤمنين، قاله ابن مسعود، والحسن. فعلى هذا معنى الآية تثبت النفوس

وتشجيعها، لأنه لما أمر أن يقول للكفار ما قال، أمكن أن يستبعد ذلك المنافقون وبعض ضعفة المؤمنين، كما قال -من قال يوم الخندق-: "يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر ونحن لا نأمن على النساء في المذهب"، وكما قال عدي بن حاتم -حين أخبره النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالأمنة التي تأتي، فقلت في نفسي: "فأين دُعَارُ طِيءِ الذين سَعَرُوا البلاد؟!".

{فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ} فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأولى ما أثبتت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولى، فذكر في الأولى لازم الإيمان، وهو القتال في سبيل الله. وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان، وهو الكفر.. وهذا من البلاغة الإيجازية.

{يَرَوْنَهُمْ} التفات من ضمير الخطاب «ترونها» إلى ضمير الغيبة، كقوله تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ}** [يونس: ٢٢]

{مِثْلِهِمْ} قدرهم مرتين **{رَأَى الْعَيْنُ}** مصدر مؤكّد، أي رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، ومعاينة كسائر المعاينات. وفي قراءة سبعة: **{تَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنُ}**

قال ابن كثير: قال بعض العلماء -فيما حكاه ابن جرير-:
يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم،
أي: جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم.

وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين
بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحذر لهم المسلمين،
فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وهكذا
كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ثم لما وقع القتال
أمدّهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني: ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم، أي:
ضعفيهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. وهذا لا إشكال
فيه على ما رواه العوفي، عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر
ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين
رجلاً. وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف
المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف
المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة
إلى الألف كما رواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن
عروة بن الزبير، أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما سأل
ذلك العبد لأسود لبني الحجاج عن عدّة قريش، فقال: كثير،

قال: "كم ينحرون كل يوم؟" قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (القوم ما بين التسعمائة إلى الألف).

وروى أبو إسحاق السَّيِّعِي، عن حارثة، عن علي، قال: كانوا ألفاً، وكذا قال ابن مسعود. والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم.

لكن وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال. [يعني روعي الكثرة ومطلق الزيادة، ولا يدل ذلك على التشية، مثل قوله تعالى في سورة الملك: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}]

لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا}؟ [الأنفال: ٤٤]

والجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال أخرى، كما قال السُّدِّي، عن مرة الطيب عن ابن مسعود في

قوله: **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الثَّقَاتِ..}** الآية، قال: هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضَعَفُونَ علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحداً، وذلك قوله تعالى: **{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيتُمْ فِي أُعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أُعْيُنِهِمْ}**.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلا منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفا.

فعندما عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثلهم، أي: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، عز وجل.

ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر.

{وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ} يُقَوِّي {بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ} ممن تقتضي الحكمة نصره، أو ممن تقتضي الحكمة تأييده، ويجب أن نعيد كل آية

جاءت بلفظ المشيئة أو جاءت معلقة بالمشيئة يجب أن نقرنها بالحكمة؛ لقول الله تعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [الإنسان: ٣٠].

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً} لاعتبارًا، والاعتبار مأخوذ من العبور من شيء إلى شيء، يعني كأن الإنسان يعبر بعقله من المذكور إلى المعقول، والعبرة هنا أن الفئة القليلة المؤمنة تغلب الفئة الكثيرة الكافرة، ويكون في هذا تحقيق لقوله تعالى: **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ}**.

{لِأُولِي الْأَبْصَارِ} إن في ذلك لمعتبرًا لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ
(١٤)

{زَيْن} خلقها وأنشأ الجبل على الميل إليها، أي جعل هذا الشيء زينًا في قلوبهم.

وَمَنْ الَّذِي زَيَّنَ؟ هَلِ الْمَزَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ أَوِ الْمَزِينُ الشَّيْطَانُ؟

المزين هو الله، وقد أضاف الله التزيين إلى نفسه في عدة آيات {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام: ١٠٨]، {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ} [النمل: ٤].

وأضاف التزيين -أيضاً- إلى الشيطان: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} [النمل: ٢٤]، لكن تزيين الشيطان إنما كان بالنسبة لأعمال هؤلاء، يعني زين لهم الأعمال، أما الأشياء المخلوقة فالذي يزينها هو الله عز وجل.

{لِلنَّاسِ} فمن الحكمة من هذا التزيين أن تكون هذه الدوافع محركات تدفع الإنسان للعمل، والقيام بمهمة الخلافة وعمارة الأرض.

ومن الحكمة -أيضاً- أن تكون موضع ابتلاء للإنسان: هل يقف في تناول هذا المتاع عند الحدود التي رسمها الله؟ أم يتجاوزها طمعاً في مزيد من متاع الحياة الدنيا فتفسد حياته في الدنيا ويذوق العذاب في الآخرة؟ كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: ٧]

{حُبُّ الشَّهَوَاتِ} وعبر عن المشتبهات بالشهوات مبالغة،
وتنبهها على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند العقلاء يذم متبعها
ويشهد له بالانتظام في البهائم، وناهيك لها ذماً قوله -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (حُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ)
[رواه أحمد عن أبي هريرة]

وأتى بذكر الشهوات أولاً مجموعة على سبيل الإجمال ثم
أخذ في تفسيرها شهوة شهوة ليدل على أن المزين ما هو إلا
شهوة دنيوية لا غير فيكون في ذلك تنفير عنها وذم لطالبها
وللذي يختارها على ما عند الله.

{مَنْ النَّسَاءِ} ولم يقل: حب النساء، بل حب الشهوات،
يعني أن يتزوج الإنسان المرأة لمجرد الشهوة لا لأمر آخر. لأن
تزيين حب النساء إذا كان لغير مجرد الشهوة قد يُحْمَد عليه
الإنسان، لكن إذا كان لمجرد الشهوة فهذا من الفتنة.

وفيه تقديم الأشد فالأشد، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهنَّ أشد،
وهن حبائل الشيطان. روى البخاري عن عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا
تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النَّسَاءِ). وفي البخاري

أيضا قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ
وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ)

ولفظ «الناس» في الآية يراد به عموم الجنس البشري:
الرجال والنساء؛ لأن الجميع -في الجملة- مشترك في محبة
هذه الشهوات الأربع التي هي أصول الشهوات الدنيوية،
والتنصيب على شهوة النساء مراد به الرجال على الخصوص،
ولم تذكر شهوة الرجال؛ لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف،
كما قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "ولم يذكر الرجال؛ لأن
ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، وإنما تحصل المحبة
منهن للرجال بالإلف والإحسان".

{وَالْبَنِينَ} ثنى بالبنين لأنهم شقائق النساء في الفتن. فقد
يحب المرء البنين لا ليكون عوناً له على طاعة الله ولكن ليفتخر
بهم، وخص البنين دون البنات لأنهم كانوا في الجاهلية يفتخرون
بالبنين ويتشائمون من البنات، فإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى **{ظَلَّ**
وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ} [النحل: ٥٨-
٥٩]: يختفي منهم مخافة المسبة، ثم يفكر ويقدر **{أَيْمَسْكُهُ**
عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} [النحل: ٥٩]، يعني: أيمسك
هذا المولود -وهو الأنثى- على هُونٍ وذُلٍّ وهضم لحقها، أم

يدفنها حية في التراب، قال الله تعالى: **{أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}**
[النحل: ٥٩]

وروى ابن ماجه عن يعلی بن مَنِيَّة الثَّقَفِي قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ
وَالْحُسَيْنُ يَسْعِيَانِ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَضَمَّهُمَا
إِلَيْهِ وَقَالَ: (إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ) [صححه الألباني]
وقدّموا على الأموال لأن حب الإنسان ولده أكثر من حبه
ماله، وحيث ذكر الامتنان والإنعام أو الاستعانة والغلبة قدمت
الأموال على الأولاد.

{وَالْقَنَاطِيرُ} القنطار ألف ومائة أوقية فضة **{الْمُقَنْطَرَةُ}**
الكثيرة بعضها فوق بعض. ومعناه المجتمعة كما يقول الألوفا
المؤلفة، اشتقوا منها وصفاً للتوكيد.

ذكر الله تعالى هذه المبالغ من الذهب والفضة؛ لأنه كلما كثر
المال -في الغالب- افتن الإنسان به، فإذا كانت قناطر مقنطرة
من الذهب صارت الفتنة بها أشد.

{مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ} نص عليهما لأنها أغلى ما يكون من
الأموال، ولذلك تتعلق الرغبات بهذين الجوهريين: الذهب
والفضة، حتى لو وُجد جواهر نفيسة لا تجد تعلق القلوب بهذه

الجواهر كتعلقها بالذهب والفضة. ولهذا كان الذهب والفضة قيمة لجميع الأشياء فكل الأشياء تباع وتشتري بهما.

{وَالْخَيْلُ} سميت خيلاً؛ لأن صاحبها غالباً يتلى بالخيلاء لأنها أفخر المراكب، فالراكب لها يكون في قلبه خيلاء، أو لأنها هي تختال في مشيتها، ولهذا ترى الخيل عند مشيتها ليست كغيرها، تشعر بأن فيها ترفعاً واختيالاً.

روى البخاري عن عُرْوَةَ بْنِ الْجَعْدِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وروى البخاري -أيضاً- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجَرَ، وَلِرَجُلٍ سِتْرًا، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرًا، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ لَهَا [أرعى لها الحبل] فِي مَرْجٍ [الموضع الذي يرعى فيها الدواب] أَوْ رَوْضَةٍ [المكان المخضر] فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ [الحبل الذي يطول للدابة ترعى فيه، ويشد أحد طرفيه في التود] فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ [ومعنى الكلام: أن فرس المجاهد ليمضي على وجهه في الحبل الذي أطيل له فيكتب له بذلك حسنات]، وَلَوْ

أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ [الاستئذان العدو] شَرْفًا [شوطًا] أَوْ
 شَرْفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ
 فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرَدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ
 لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا [استغناء عن الناس] وَتَعَفُّفًا
 [عن السؤال] وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا [بأن يؤدي زكاتها،
 ومنه استدل أبو حنيفة على زكاة الخيل] وَلَا ظُهُورِهَا [أي ولا في
 ظهورها بأن يركب عليها في سبيل الله] فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ [تحجبه عن
 الفاقة]، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنَوَاءً [المناوأة هي العداوة،
 ناوأت الرجل: ناهضته بالعداوة] فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ، فَسُئِلَ
 رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْحُمْرِ قَالَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَادَّةُ [ليس مثلها آية أخرى في قلة
 الألفاظ وكثرة المعاني لأنها جامعة لكل أحكام الخيرات
 والشرور] الْجَامِعَةُ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}. [ودلالة الآية على الجواب من حيث أن
 سؤالهم كان إن الحمار له حكم الفرس أم لا فأجاب بأنه إن كان
 لخير فلا بد أن يرى خيره، وإلا فبالعكس والله أعلم]

{الْمُسَوِّمَةُ} ذات السمات الحسان والمعدة للركوب عليها
 للغزو والجهاد **{وَالْأَنْعَامُ}** الإبل والبقرة والغنم وهي الماشية.

وأعلى هذه الأنواع هي الحمُر من الإبل، ولذلك يُضرب بها
المثل في الغلاء والمحبة، قال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي
بن أبي طالب وقد وجهه إلى خير؛ قال: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى
تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ
فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ
النَّعَمِ) [البخاري]

{وَالْحَرْثُ} الأرض المتخذة للغراس والزراعة، وروى أحمد
في مسنده عن سُويد بن هُبيرة، عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- قال: (خَيْرُ مَالٍ امْرَأٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سَكَّةٌ مَأْبُورَةٌ)
[أحمد بسند ضعيف] المأْمُورَةُ الكثيرة النسل، والسَّكَّةُ: النخل
المصطف، والمأْبُورَةُ: الملقحة.

{ذَلِكَ} بالمفرد المذكر للأشياء السابقة مع أنها جمع لأنه
أراد معنى تحقيق أمر الدنيا، والإشارة إلى فنائها وفناء ما يستمتع
به فيها، فلا ينبغي للإنسان أن يتبعه نفسه.

{مَتَاعٌ} أي: المتعة التي يتمتع الناس بها في الحياة الدنيا.
وغايتها الزوال؛ فإما أن تزول عنها، وإما أن تزول عنك، أما أن
تخلد لك أو تخلد لها فذلك مستحيل، لا بد أن تفارقها أو أن
تفارقك هي. وهذا أمر لا يحتاج إلى إقامة برهان.

{ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة...
ودنيا مؤنث أدنى، ووصفت بهذا الوصف لدنو مرتبتها بالنسبة
إلى الآخرة، فليست بشيء بالنسبة للآخرة، قال تعالى: **{ وَإِنَّ
الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ }** [العنكبوت: ٦٤] أي هي الحياة
الحقيقية، وفي هذا تنقيص لهذه الحياة؛ والله إنها لناقصة، إن
داراً لا يدري الإنسان مدة إقامته فيها، وإن داراً لا يكون صفوها
إلا منغصاً بكدر، وإن داراً فيها الشحناء والعداوة والبغضاء بين
الناس، وغير ذلك من المنغصات إنها لدنيا.

وكذلك سميت دنيا لأنها أدنى من الآخرة باعتبار الترتيب
الزمني، قال تعالى: **{ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى }** [الضحى: ٤]
{ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } حسن المرجع والثواب في الدار
الآخرة؛ لأن مرجع كل إنسان إلى الآخرة؛ إما إلى جنة وإما إلى
نار، وليس ثمة دار أخرى ثالثة.

وهو إشارة إلى نعيم الآخرة الذي لا يفني ولا ينقطع، وترغيب
الإنسان بما عند الله عز وجل، وألا يتعلق بمتاع الحياة الدنيا.

**** قال السعدي رحمه الله:** يخبر تعالى أنه زين للناس حب
الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة؛ لأنها أعظم

شهوَات الدنيا، وغيرها تبع لها، قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا} [الكهف: ٧] فلما زينت لهم هذه المذكورات
بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم، ومالت إليها
قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين:

قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم، وخواطرهم،
وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله،
وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون
شهوَاتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها
وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشقاء والعناء
والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاء
وامتحانًا لعباده؛ ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته
وشهوَاته، فجعلوها وسيلة لهم، وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم،
ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد
صحبوها بأبدانهم، وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله
فيها: {ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} فجعلوها معبرًا إلى الدار الآخرة،
ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى
ربهم .

وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغترين بها، وتزهد لأهل العقول النيرة بها.

****** ويقول الأستاذ محمد قطب: إن المتاع محبب للإنسان، والعبارة القرآنية الحكيمة تؤكد هذه الحقيقة: **{زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ}** فليس المزين للناس في الآية القرآنية هو الشهوات. إنما هو **{حُبُّ الشَّهَوَاتِ}** وهو تعبير دقيق عن مدى توغل الشهوات في النفس الإنسانية. «وكل زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى» كما يقول البلاغيون.

ومن ثم فإن تزوين **{حُبُّ الشَّهَوَاتِ}** أكد في بيان عمق الشهوات في النفس من تزوين الشهوات ذاتها، وأدل على أن النفس مفضولة على حب المتاع. ولحكمة ربانية أراد الله ذلك. ولكنه سبحانه وتعالى أمر الناس أن يضبطوا منطلق الشهوات [الضبط غير الكبت]، وأعطاهم الأداة المعينة على الضبط، والتوجيهات التي تجعله ميسرا على أصحابه، وفي مقدمة ذلك الإيمان بالله واليوم الآخر، والتوجه إلى القيم العليا، والجهد في سبيلها.

فحين لا يؤمن الإنسان باليوم الآخر، تصبح الحياة في حسه فرصة واحدة إن ذهبت لا تعود، وهي فرصة محدودة بحدود العمر البشري، بل بحدود الصحة والقوة والاستطاعة من ذلك العمر، وهي من ثم فرصة قصيرة قصيرة لا تشبع! فيكون هم الإنسان في تلك الحالة أن ينكب على المتاع بكل طاقته، ليعب منه ما يستطيع قبل الفوات! ويكون كذلك كارها لكل الضوابط - أو المشاغل - التي تحد من ذلك المتاع!

وليس كذلك من يؤمن بالله واليوم الآخر. فالأمر في حسه مختلف. إنه يستمتع، نعم ولكن في غير لهفة على المتاع، لأنه يؤمن أن ما يفوته من المتاع في الحياة الدنيا نتيجة تقيده بالضوابط الربانية أو بأي سبب كالجهاد في سبيل الله، ليس ضائعا، وليس ذاهبا بلا عودة، بل هو محفوظ له عند الله أولا، ثم هو معوض عنه ثانيا بنعيم لا ينفد في الجنة التي (فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) [حديث متفق عليه] ومن ثم يضبط شهواته، دون أن تتلف نفسه من عملية الضبط.

ثم إنه مشغول بقيم عليا، وجهاد في سبيل هذه القيم، يصرفه عن التعلق بهذه الشهوات حتى تصبح همه المقعد المقيم:

{قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)} [آل عمران]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)} [الصف]

فلا شيء يقنع الإنسان أن يقف عند الحدود التي رسمها الله إلا إيمانه بأن ما يفقده في الحياة الدنيا — طاعة لله واحتسابا — ليس ضائعا في الحقيق، إنما هو رصيد مذكور، يتسلمه أضعافا مضاعفة يوم القيامة، يهنأ به ويستمتع، بينما الذين غرقوا في المتاع الحرام محرومون.

بل ترتقي نفسه درجات فوق ذلك.. فلا يعود حد المباح هو الذي يحجزه عن التجاوز. إنما يشعر — قانعا — أنه لا يحتاج لأن يصل إلى آخر الحد المباح! فقبله — بقليل أو كثير — تنتهي

رغباته، ويزهد حتى في المتاع المباح! لا لأن نفسه قد ماتت ولم تعد ترغب! كلا! فما يريد الإسلام أن يقتل رغائب النفس، وقد خلقها الله لعمارة الأرض. ولكن لأن رغباته قد اتجهت وجهة أخرى أرحب وأعمق، وأعلى وأشرف.

وهكذا تتوجه الطاقة الحية إلى عالم أرفع من عالم الحس، إلى «عالم القيم» التي تجعل حياة الإنسان كريمة عالية رفيعة، لائقة بالإنسان الذي أسجد الله له الملائكة وكرمه وفضله على كثير ممن خلق.

وهذه نقطة اختلاف جوهريّة بين المنهج الرباني والمنهج الذي تختاره الجاهليات - كل الجاهليات - بما في ذلك الجاهلية المعاصرة.. ومحورها هو الإيمان - أو عدم الإيمان - بالله واليوم الآخر [رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، بتصرف]

قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

(١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)

قال ابن جرير: قال عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لما أنزلت: {زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..} قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت: {قُلْ أُوْنِبِّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمْ..} **{قُلْ}** تشير إلى الاهتمام به والعناية به؛ لأن الله أمر نبيه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمرا خاصا أن يبلغه للناس.

{أُوْنِبِّكُمْ} أخبركم؛ والإنباء هو الخبر عن أمر هام، ولا يكون النبأ غالبا إلا في الأمور الهامة، كما في قوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ} [النبا: ١-٢] والاستفهام هنا للتشويق إلى ما هو خير من متع الحياة السبعة سالفة الذكر، وهذا كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠]

{بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمْ} ولما قال: {ذلك متاع}، فأفرد، جاء: {بخير من ذلكم}، فأفرد اسم الإشارة.

وأشار إليه بلفظ المفرد المذكر لأجل طي ذكره بشيء واحد؛ حتى لا يشار إلى التفصيل فيه؛ لأن الدنيا كلها في الواقع ينبغي أن يزهد فيها الإنسان ولا يحتسبها شيئا، ألم تر إلى قوله -صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) [متفق عليه]، ولم يذكرها تحقيرا لها.

{لِلَّذِينَ اتَّقَوْا} اتقوا الله -عز وجل-، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ}** [البقرة: ٢٧٨].

وأحيانا نؤمر بتقوى النار: كقوله: **{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [آل عمران: ١٣١].

وأحيانا نؤمر باتقاء اليوم الآخر؛ كما في قوله: **{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}** [البقرة: ٢٨١].

ولكن المعاني وإن اتفقت في أصل الوقاية لكنها تختلف؛ لأن تقوى الله عز وجل تستلزم الخوف منه وتعظيمه، أما النار فإن تقواها تستلزم الخوف منها فقط لكنها ليست تقوى عبادة وإنابة وتعلق بها، بل تقوى فرارا منها. وكذلك تقوى اليوم الذي نرجع فيه إلى الله وهو يوم القيامة.

فينبغي هنا أن نحمل التقوى على أعلى درجات التقوى وأفضلها، وهي تقوى الله عز وجل، لا تقوى النار ولا تقوى اليوم الآخر؛ لأن تقوى الله تحمل على تقوى النار وعلى تقوى اليوم الآخر.

وقال بعض العلماء في تقوى الله: "أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله". وهذا يتضمن الإخلاص والعلم؛ العلم قوله: على نور من الله؛ والإخلاص: ترجو ثواب الله وتخشى عقاب الله. يعني لا يحملك على هذا حب الدنيا، أو الجاه، أو الرئاسة، أو ما أشبه ذلك.

وقال بعض العلماء: تقوى الله أن يخلي الإنسان جميع الذنوب؛ صغيرها وكبيرها.

وقال بعض العلماء: تقوى الله عز وجل: اتخاذ وقاية من عذابه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وهذا أجمع ما قيل في التقوى.

{عِنْدَ رَبِّهِمْ} العندية هنا تفيد فضلا عظيمًا؛ لأنها هي القرب من الله عز وجل؛ ولا أقرب من شيء يكون سقفه عرش الله عز وجل كالفردوس الأعلى، كما قال الله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ}** [القمر: ٥٤ - ٥٥] وقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}** [الأعراف: ٢٠٦]، وقوله تعالى: **{وَمَنْ**

عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ لَا يَفْثُرُونَ { [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقوله جل ذكره: {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ} جواب مضمون
الاستفهام {قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ}.

{جَنَّاتٌ} بالجمع؛ لتعدد أجناسها، وأنواعها، وأفرادها،
والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، وذكر الله تعالى في
سورة الرحمن أن أجناسها أربع، فقال: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}
[الرحمن: ٦٢]، وفي الترمذي بسند صحيح عَنْ أَبِي بَكْرٍ بَنِ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
قَالَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ جَنَّتَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَيْنِ
مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى
رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ) وهذا باعتبار
الجنس، أما الأنواع فكثيرة.

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ليس من تحت أرضها، بل فوق
أرضها، لكن من تحت أشجارها وقصورها، من مختلف أنواع
الأشربة؛ كما قال تعالى: {أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ

لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرِ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى { [محمد: ١٥]

وفي هذه الآية تسليّة عن زخارف الدنيا، وتقوية لنفوس تاركها، وتشريف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

{ خَالِدِينَ فِيهَا } ماكثين فيها أبد الآباد لا ييغون عنها حولا، والخلد من تمام وكمال النعيم، قال جل ذكره: **{ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ }** [الدخان: ٥٦]، بل يقال لهم: «خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ» فيُسَرُّونَ، ففي صحيح ابن حبان بسند حسن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (يُوتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْطَلِقُونَ خَائِفِينَ وَجَلِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَنْطَلِقُونَ فَرَحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ رَبَّنَا هَذَا الْمَوْتُ، فَيَأْمُرُ بِهِ فَيَذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا: خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ فِيهِ أَبَدًا)

وفي رواية للنسائي: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَأُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ..) الحديث

بل يقال لهم كما في حيث مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ
وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (يُنَادِي مُنَادٍ
إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا
تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ
تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ
الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.. فكل الآفات التي في
الدنيا المنغصة للنعيم كلها تنفى عنهم.

{وَأَزْوَاجٌ} معطوفة على {جَنَّاتٌ} أي جنات وأزواج؛ وعطفها
عليها لاختلاف نوع التلذذ؛ فالتلذذ بالجنات تلذذ شهوة بطن،
والتلذذ بالأزواج تلذذ من نوع آخر؛ ولهذا قال: **{وَأَزْوَاجٌ}** أي
من الحور العين ومن نساء الدنيا، والإنسان الذي له زوجة في
الدنيا تبقى زوجة له في الآخرة، وإذا كانت هي ذات زوجين فإنها
تُخير بينهما، وإذا لم يكن للإنسان زوجة في الدنيا فإن في الجنة
من ليس لهن أزواج في الدنيا، يُزوج هذا من هذه، وهناك أيضا
أزواج من نوع آخر وهن الحور العين.

{مُطَهَّرَةٌ} من كل دَنَسٍ وَخَبَثٍ حسي أو معنوي؛ فالحسي
مثل: البول والغائط والحيض والعرق المنتن والمخاط، وما أشبه

ذلك، والمعنوي: الغل والحقْد والفجور وكراهة الزوج، وما أشبه ذلك.

وقوله: **{مُطَهَّرَةٌ}** أطلق ولم يقل: من كذا وكذا؛ من أجل إفادة العموم؛ لأن من القواعد المعروفة أن حذف المعمول يؤذن بعموم العامل، قاعدة معروفة عندهم؛ ولهذا أمثلة كثيرة، مثلاً: قوله تعالى للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}** [الضحى: ٦-٨] قال: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا}** لم يقل: فأواك، مع أن الخطاب له **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا}** ولم يقل: فهداك، **{وَوَجَدَكَ عَائِلًا}** ولم يقل: فأغنأك، بل حذف المفعول ليؤذن على عموم العامل.

فالرسول عليه الصلاة والسلام وجده ربه يتيمًا فأواه، لكن ما آواه وحده، آواه وأوى به، حتى جعله فئة لكل مؤمن؛ ضالا فهداه، لكن هداه وهدى به؛ عائلا فأغناه وأغنى به، وإلا فمن أين للعرب هذه الغنائم العظيمة التي ما فكروا أن يغنموها، فكيف يغنم العرب -رعاء الشاء والإبل- أرض فارس والروم إلا بالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبدينه.

ولم يقل: مطهرات، لأن نعت الجمع يجوز أن يكون مجموعاً وأن يكون مفرداً، إلا جمع المؤنث السالم فإنه يكون مجموعاً؛

فتقول مثلاً: مررت بنساء مؤمنة، ونساء مؤمنات [لأنه جمع تكسير]، وتقول: مررت بمسلمات صالحات، ولا تقل: بمسلمات صالح [لأنه جمع مذكر سالم].

{وَرِضْوَانٌ} أفردته بالذكر؛ لأنه نعيم قلب **{مِنَ اللَّهِ}** يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَطُ عليهم بعده أبداً؛ ولهذا قال تعالى: **{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}** [التوبة: ٧٢] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم بالجنة.

وأظهر اسم الجلالة، دون أن يقول ورضوان منه - أي من ربهم - لما في اسم الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان. وقد بدأ أولاً بذكر المقر، وهو الجنات التي قال فيها: **{وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}** [الزخرف: ٧١] وفي الحديث النبوي الشريف: (فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ) [مسلم] ثم انتقل من ذكرها إلى ذكر ما يحصل به الأُنس التام من الأزواج المطهرة، ثم انتقل من ذلك إلى ما هو أعظم الأشياء وهو رضا الله عنهم، فحصل بمجموع ذلك اللذة الجسمانية والفرح الروحاني، حيث علم برضا الله عنه، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ اللَّهَ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا
وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ
أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ
ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أَحِلُّ عَلَيْكُمْ
رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا).

وقال الماتريدي: أهل الجنة مطهرون لأن العيوب في الأشياء
عَلَمُ الفناء، وهم خلقوا للبقاء، وخص النساء بالطهر لما فيهنَّ
في الدنيا من فضل المعايب والأذى.

{وَاللَّهُ} إظهار اسم الجلالة لقصد استقلال الجملة لتكون
كالمثل **{بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}** بصير بالعباد الذين يريدون الدنيا والذين
يريدون الآخرة، فهو بصير بهم «بصر نظر»، لا يغيب عن نظره
شيء، وبصير بهم «بصر علم» **{لَا يَغُزُّ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ}**
[سبأ: ٣] فيعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء، فتضمنت
الوعد والوعيد.

{الَّذِينَ} هذه بيان **{لِلَّذِينَ اتَّقَوْا}**، لا للعباد **{يَقُولُونَ}** يريد
بذلك القول باللسان والاعتقاد بالجنان؛ لأن الله تعالى إذا أطلق
القول بالإيمان ولم يتعقبه، كان المراد به القول باللسان والعقد

بالجنان. ودليل ذلك قوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}** [البقرة: ٨]، لما كان المراد بهذا القول: القول باللسان فقط قال: **{وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}**. أما إذا أطلق الله قول الإنسان: آمنت، فإنه يريد به القول باللسان والعقد بالجنان. ولهذا قال عز وجل: **{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ}** [البقرة: ١٣٦]، لا يريد منا أن نقول ذلك بألسنتنا فقط، بل بألسنتنا وقلوبنا.

{رَبَّنَا} توسلوا إلى الله بربوبيته للإخبار بحالهم في الإيمان به، كأنهم يقولون: ربنا آمنا ولكننا لم نصل إلى الإيمان إلا بربوبيتك لنا، تلك الربوبية الخاصة المقتضية للعناية التامة.

{إِنَّا} للتوكيد **{آمَنَّا}** بكل ما يجب الإيمان به: بك وبملائكتك وبكتبك وبرسلك.. مدحهم تعالى بهذا القول، والإيمان يتضمن معنى زائداً على مجرد التصديق، فهو تصديق متضمن لقبول وإذعان. ولو كان الإيمان مجرد التصديق لكان أبو طالب مؤمناً، فهو مصدق بالنبي ودعوته لكن لم يكن تصديقه هذا متضمناً للقبول والإذعان.

وفيه تزكية أنفسهم بالإيمان، لكن الذي نهى الله تعالى عنه هو تزكية الأنفس بالطاعات، كما قال تعالى: **{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}** [النجم: ٣٢]

{فَاغْفِرْ} المغفرة مأخوذة من الغفر وهو الستر مع الوقاية، ومنه المَغْفَر الذي يلبسه المقاتل في رأسه ليستر الرأس وبقية السهام، فليست المغفرة مجرد الستر بل هي ستر ووقاية، ولهذا مغفرة الذنوب سترها عن الناس والعفو عن عقوباتها، ويدل لهذا الحديث الذي رواه مسلم عن عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقْرَرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ قَالَ فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ).

{لَنَا ذُنُوبَنَا} أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلِكَ ورحمتِكَ.

فالفاء هنا للسببية، أي: فبسبب إيماننا اغفر لنا؛ لأن الإيمان لا شك أنه وسيلة للمغفرة، وكلما قوي الإيمان قويت أسباب المغفرة، حتى إنه إذا أخلص الإنسان إيمانه صارت حسناته تُذهب سيئاته، وهذا من باب التوسل بالطاعة لقبول الدعاء. وكل فعل بصيغة الأمر موجه إلى الله فهو دعاء يسمى «فعل دعاء»، لأن الله تعالى ما يُؤمر.

والذنوب هي المعاصي، وهي إما قبائح وإما دون ذلك، وكلها تحتاج إلى مغفرة، كلها يستغفر الإنسان منها، ولا تظن أن الصغائر إذا كُفرت بالحسنات لا تظن أنها كما لو كُفرت بالتوبة؛ لأن بينهما فرقاً عظيماً، إذا كُفرت بالتوبة أُبدلت السيئات بالحسنات، وإذا كُفرت بالطاعات فإنها تُمحى فقط لكن ما تُبدل بحسنات، الله يقول: **{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}** [الفرقان: ٧٠] ويقول: **{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}** [هود: ١١٤]، وفرق بين الأمرين.

يقول ابن عثيمين: إذن لا تعتمد على تكفير الحسنات للسيئات فتقول: إن سيئاتي مكفرة بحسناتي، لا، ثم إننا في الحقيقة حسناتنا نرجو أن تُبرئ ذممننا، يعني لا تقوى على أن تُكفر، لا تظن أن أي صلاة تكفر، لا، قد تكون صلاة لا تبرأ بها

الذمة إلا كما يقولون: بالدَّف؛ لأنها صلاة يفعلها الإنسان عادة ثم إذا دخل فيها بدأ يضارب بماله إن كان تاجرًا، وبدأ يقلب دفاتره إن كان طالبًا، وبدأ ينظر إلى قدومه ومنشاره إذا كان نجارًا، وهكذا، ولا تكثر الوسوس إلا إذا دخل في الصلاة، وإذا سلّم طارت الوسوس هذه، وصار قلبه حاضرًا للذكر الذي بعد الصلاة، أما الصلاة نفسها فهو يتجول في كل مكان، وإذا سد بابًا فإذا بالشیطان يفتح بابًا بعيدًا ما كان يطرأ على باله أبدًا، فإذا حاول سده فإذا باب آخر مفتوح، وهكذا، من أجل أن يحول الشيطان بين الإنسان وبين ربه؛ لأن الشيطان يعلم أن هذه الصلة التي بين الله وبين العبد -وهي صلته بالله في الصلاة- لها شأن عظيم ودور كبير في إصلاح العبد، قال الله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]

{وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} قنا العذاب فلا نعمل العمل الذي يوصلنا إلى العذاب، أو قنا العذاب عند استحقاقنا له بتعجيل التوبة والتوفيق لها أو بالأعمال الصالحة الماحية.

ولما ذكر أن الجنة للمتقين ذكر شيئاً من صفاتهم، فبدأ بالإيمان الذي هو رأس التقوى، وذكر دعاءهم ربهم عند الإخبار عن أنفسهم بالإيمان، وأكد الجملة بـ «إن» مبالغة في الإخبار،

ثم سألوا الغفران ووقايتهم من العذاب مرتباً ذلك الإيمان، فدل على أن الإيمان يترتب عليه المغفرة.

{الصَّابِرِينَ} في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، كنبى الله أيوب -عليه الصلاة والسلام- فإنه صبر صبراً عظيماً، قال الله تعالى: **{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}** [ص: ٤٤] وكصبر الرسل على أذية الناس في الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته، وأيضاً العلماء المبلغين لهم حظ من هذا الصبر، فكل من حمّله الله علماً فإن تحميله ذلك العلم عهد وميثاق بينه وبين ربه أن يبلغه إلى الناس، وأن يدعو به الناس، قال الله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}** [آل عمران: ١٨٧]، فتعليم الله لهم هو عهد وميثاق، اختصهم الله بالعلم من بين سائر الناس، هذا هو العهد والميثاق، فما هو مبايعة حسية يشهدها الناس في المساجد أو في الفلوات، ولكنه نعمة ينعم الله بها على الإنسان، فمتى أنعم الله بالعلم على إنسان فهذا هو العهد والميثاق الذي أخذه الله.

وانظر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أُوذي وحُبس عدة مرات، بل مات في السجن، فكان يكتب وهو في السجن، ينشر العلم من السجن فمنعوا عنه الدواة والقرطاس، فجعل يكتب العلم على جدران السجن، فيكتب ما يفتح الله عليه، وذكر عن نفسه أن الله فتح عليه علمًا عظيمًا؛ لأنه انقطع إلى الله عز وجل، فيأتي إليه أصحابه ويأخذون ما كتبه، فمنعوا أصحابه عنه، ومع ذلك صبر وانقطع إلى تلاوة القرآن وكان معه أخوه يدارسه القرآن حتى ختم قوله تعالى: **{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ }** [القمر: ٥٤-٥٥] ففاضت نفسه رحمه الله تعالى.

فالصبر من المقامات العالية، وأفضلها الصبر على طاعة الله، لأن الصبر على طاعة الله جامع بين أمرين: بين حمل النفس الباطنة على هذا العمل وبين حمل الجسد الظاهر على هذا العمل.

ثم يليه الصبر عن معصية الله لأن فيه عمل باطن فقط، وهو حبس النفس عن الفعل، ما فيه تعب بدني، لا فيه لا ركوع ولا سجود ولا قيام ولا قعود ولا بذل مال ولا شيء، كفّ فقط، ففيه معاناة باطنة فقط.

ثم يليه الصبر على أقدار الله، فهو إما أن يصبر صبر الكرام، وإما أن يسلو سلو البهائم.. فالإنسان لابد أن ينسى هذه المصيبة على ممر الزمان، فإذا كان لابد من نسيانها فكونه يصبر صبر الكرام الذي يثاب عليه خير من كونه يتجزع ويتسخط ثم في النهاية يسلو كما تسلو البهيمة، فالبهيمة إذا ضربها صاحبها تصرخ وتنتفض وفي النهاية تسكت وتنسى بعد الضرب والصراخ الكثير.

وقال شبيب بن شيبه للمهدي: "إن أحق ما تصبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سبيلاً".

هذا من حيث الأصل، لكن قد يعاني الإنسان من الصبر على الأقدار أكثر مما يعاني من الصبر على الأوامر، فيؤجر من هذه الناحية من حيث المشقة، وقد يعاني من الصبر عن محارم الله أكثر مما يعاني من الصبر على طاعة الله، فيكون من هذه الناحية أكثر أجراً بسبب المشقة.

{وَالصَّادِقِينَ} فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمون منه من الأعمال، فالصدق هو مطابقة القول للواقع، والصادق هو الذي يكون خبره مطابقاً لواقعه، والصدق يكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون مع الله [وعكسه النفاق]، ويكون مع عباد الله.

والصدق من صفات المؤمنين، والكذب من صفات المنافقين، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** [التوبة: ١١٩] وقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبُ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) [مسلم]، والصدقية ليست مرتبة دنيّة، بل هي التي تلي مرتبة النبیین، قال تعالى: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [النساء: ٦٩]

{وَالْقَانِينَ} القنوت: دوام الطاعة والخضوع **{وَالْمُنْفِقِينَ}** من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقربات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات، وقدّر الإنفاق يختلف باختلاف الزمان والمكان.

{وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} دل على فضيلة الاستغفار وقت

الأسحار، وهو الوقت قبل طلوع الفجر، قيل: سدس الليل الأخير. وأصل السحر الخفاء للطفه، ومنه السحر.

وقد قيل: إن يعقوب -عليه السلام- لما قال لبيه: **{سَوْفَ**

أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر.

وخص السحر بالذكر، وإن كانوا مستغفرين دائماً، لأسباب:

**** أولاً:** لأنه مظنة الإجابة، وثبت في الصحيحين وغيرهما

من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ينزل الله تبارك وتعالى

في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول:

هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ

مُسْتَغْفِرٍ فَأُغْفِرَ لَهُ؟) [البخاري ومسلم]

**** والثاني:** أنه وقت فراغهم من التهجد، والإنسان مطلوب

منه إذا فرغ من العبادة أن يستغفر الله، ولهذا يُشرع لنا أن

نستغفر الله تعالى ثلاثاً بعد الصلاة، وأمر الله سبحانه وتعالى أن

نستغفر في الحج قال جل ذكره: **{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ**

النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٩٩]

وسؤال المغفرة بعد الانتهاء من العبادة فيه كمال الذل لله عز وجل، وأن الإنسان لا يعجب بعمله بل يخشى من التقصير فيه، فلهذا يستغفر عما يكون منه من نقصان وتقصير في هذه العبادة. **** والثالث: لأن العبادة في السحر أشد إخلاصاً، لما في ذلك الوقت من هدوء النفوس، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته، فاختر له هؤلاء الصادقون آخر الليل لأنه وقت صفاء السرائر، والتجرد عن الشواغل.**

وفي الصحيحين، عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: "مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أُوتِرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ أَوَّلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحَرِ".

وكان عبد الله بن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السَّحَرُ؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح.

وعن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: "رَبِّ أَمْرَتْنِي فَأَطَعْتُكَ، وَهَذَا سَحَرٌ، فَاعْفِرْ لِي". فنظرت فإذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "كُنَّا نُؤَمِّرُ إِذَا صَلَّيْنَا مِنَ اللَّيْلِ أَنْ نَسْتَغْفِرَ فِي آخِرِ السَّحَرِ سَبْعِينَ مَرَّةً".

فذكر هنا أصول فضائل صفات المتدينين: وهي الصبر الذي هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي. والصدق الذي هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمة. والقنوت وهو ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها وهو عبادة نفسية جسدية. والإنفاق وهو أصل إقامة أود الأمة بكفاية حاج المحتاجين، وهو قربة مالية والمال شقيق النفس. وزاد الاستغفار بالأسحار وهو الدعاء والصلاة المشتملة عليه في أواخر الليل.

**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)**

{شَهِدَ} أصل: شهد، حضر، ثم صرفت الكلمة في أداء ما تقرر علمه في النفس، فأى وجه تقرر من حضور أو غيره.

{اللَّهُ} شهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بانفراده بالألوهية وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين. فلك أن تجعل شهد بمعنى: «بين وأقام الأدلة»، شبه تبين الأدلة على وحدانيته وإقامة الأدلة العقلية، بشهادة الشاهد بتصديق الدعوى في البيان والكشف. ولك أن تجعل شهادة الله بمعنى «الدلالة ونصب الأدلة».

فالشهادة من الله بأنه لا إله إلا هو تحتل أمرين:
أحدهما: أن يكون معناها الإخبار بذلك، تأكيداً للخبر
بالمشاهدة، كإخبار الشاهد بما شاهد، لأنه أوكد للخبر، أي
أخبر عن نفسه بأنه يشهد أنه لا إله إلا هو وهي: «شهادة
قولية».

والثاني: أنه أحدث من أفعاله المشاهدة ما قامت مقام
الشهادة بأن لا إله إلا هو، وهي «شهادة فعلية».. فبث في
الكون من دلائل وآيات لا ينكرها ذو عقل، بل ونوع الأدلة في
الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم. كذلك إنعامه العظيم
الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق
كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا
برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك.

{أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} لا معبود بحق إلا الله، المتفرد بالإلهية
لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقته، والفقراء إليه، وهو
الغني عما سواه، كما قال تعالى: {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ
أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}
[النساء: ١٦٦] فكل ما عُبد من دون الله فهو باطل، وإن سُمِّيَ
إِلَهاً فَإِنَّ أُلُوهُيْتَهُ مجرد تسمية، قال الله تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ { [يوسف: ٤٠]

والتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من
الدنيا، كما قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ كَانَ آخِرُ
كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ) [أبو داود] وفي رواية أحمد
(وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ) فهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول
الأمر وآخره.. فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها
وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به.

وفصل به بين المعطوف عليه والمعطوف، ليدل على الاعتناء
بذكر المفعول.

{وَالْمَلَائِكَةُ} شهادة الملائكة وأولي العلم بمعنى آخر وهو
الإقرار، لكنه نسق شهادة الملائكة على شهادة الله، وإن
اختلفت معنى، لتماثلهما لفظاً. كقوله: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ}** [الأحزاب: ٥٦] لأنها من الله الرحمة، ومن الملائكة
الاستغفار والدعاء.

وقدم الملائكة على أولي العلم من البشر لأنهم الملائكة
الأعلى، وعلمهم كله ضروري، بخلاف البشر، فإن علمهم
ضروري واكتسابي.

{وَأُولُو الْعِلْمِ} أي من كان من البشر عالماً، لأنهم ينقسمون إلى: عالم وجاهل، بخلاف الملائكة فإنهم في العلم سواء، ولا أحد أشد يقيناً وأقوى إيماناً من أهل العلم بالله تعالى وليس أي علم.

ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار أي شهدت الملائكة بما علمت من عظيم قدرته، وشهد أولو العلم بما ثبت عندهم، وتبين من خلقه الذي لا يقدر غيره عليه.

قال المروزي: ذكر شهادته سبحانه على سبيل التعظيم لشهادة من ذكر بعده، كقوله: **{قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}** [الأنفال: ١]

وفي هذه الآية بيان فضل أهل العلم من وجوه كثيرة: منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس.

ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً.

ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته.

ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومنها: أن إشهداه تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه.

{قَائِمًا} والقيام هنا بمعنى المواظبة، كقوله تعالى: **{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** [الرعد: ٣٣] وقوله: **{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** [الحديد: ٢٥] وتقول: الأمير قائم بمصالح الأمة، ومنه: إقام الصلاة.

{بِالْقِسْطِ} العدل، وهو مُخْتَصَرٌ مِنَ الْقِسْطَاسِ، روى البخاري عن مجاهد أنه قال: "القسطاس: العدل بالرومية"، وَيُطْلَقُ الْقِسْطُ وَالْقِسْطَاسُ عَلَى الْمِيزَانِ لِأَنَّهُ آلَةٌ لِلْعَدْلِ قَالَ تعالى: **{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}** [الإسراء: ٣٥] وقال: **{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [الأنبياء: ٤٧]

وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم على نظمها، وفي تقدير بقاء الأنواع، وإيداع أسباب المدافعة في نفوس الموجودات، وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل:

لدفع ظلم بعضهم بعضاً، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله.

وجملة **{قَائِمًا بِالْقِسْطِ}** حال من **{اللَّهُ}** أي قائماً على تدبير شئون خلقه بالعدل في أحكامه التكليفية، والعدل في أحكامه القضائية والجزائية.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} كرر التهليل توكيداً، قال الراغب: "إنما كرر **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** لأن صفات التنزيه أشرف من صفات التمجيد لأن أكثرها مشارك في ألفاظها العبيد، فيصح وصفهم بها، وكذلك وردت ألفاظ التنزيه في حقه أكثر، وأبلغ ما وصف به من التنزيه: «لا إله إلا الله»، فتكريره هنا لأمرين: أحدهما: لكون الثاني قطعاً للحكم. والثاني: لئلا يسبق بذكر العزيز الحكيم إلى قلب السامع تشبيه، إذ قد يوصف بهما المخلوق".

وقيل: فهو تلقين الإقرار له بذلك على نحو قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}** [الأحزاب: ٥٦] أي اقتداء بالله وملائكته، على أنه يفيد مع ذلك تأكيد الجملة السابقة، ويمهد لوصفه تعالى بالعزيز الحكيم.

{العَزِيزُ} العزة تفسَّر بثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع؛ أما عزة القدر فمعناها أن الله تعالى ذو القدر العظيم والسيادة والشرف والعظمة، إلى غير ذلك من معاني القدر والرفعة، والثاني: عزة الامتناع، يعني أنه يمتنع أن يناله السوء، ومن هذا قولهم في الأرض الشديدة الصلبة: أرض عزاز، يعني: قوية وصلبة لا ينالها شيء، والثالث: عزة القهر، أي أنه الغالب لكل شيء، ومنه قوله تعالى: **{فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}** [ص: ٢٣]، يعني: غلبني.

{الْحَكِيمُ} مأخوذ من الحُكم ومن الإحكام، فهو ذو الحكم وذو الإحكام؛ أما الحكم فإنه ينقسم إلى كوني وشرعي، والإحكام بمعنى الإتيان، والإتيان يستلزم الحكمة وهي وضع الأشياء في مواضعها.

وفيه أن عزة الله تعالى مبنية على الحكمة، وتنزيل الأشياء منازلها، لأن العزيز من المخلوقين قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقول الحق، أما الله عز وجل فإنه يقول الحق مع كمال عزته.

قال السعدي: واعلم أن هذا الأصل الذي هو «توحيد الله، وإفراده بالعبودية» قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة النقلية

فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة العقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه،

وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه.

ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره: انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه -فضلا عن غيره- جلب نعمة ولا دفع نقمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل، وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفراد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدا،

ومن الأدلة العقلية أيضا على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية،

فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المدبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون،

ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلا إلى كل خير دافعا لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدنية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً}** أي:

لعبرة يعتبر بها المعتبرون، فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء.

والآية تمهيد لقوله: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}** ذلك أن أساس الإسلام هو توحيد الله. وإعلان هذا التوحيد، وتخليصه من شوائب الإشراك، وفيه تعريض بالمشركين وبالنصارى واليهود، وإن تفاوتوا في مراتب الإشراك، وفيه ضرب من رد العجز على الصدر: لأنه يؤكد ما افتتحت به السورة من قوله: **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ}** [آل عمران: ٢-٣].

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

{إِنَّ} للتوكيد والحصر {الدِّين} الدين: يراد به «العمل»،
كما في قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦] أي:
لكم عملكم ولي عملي، وكما في قوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ
دِينُ الْقِيَمَةِ} [البينة: ٥]

ويراد به «الجزاء» كما في قوله تعالى: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}
[الفاتحة: ٤].

والمراد به في هذه الآية «العمل»، يعني: إن الدين الذي هو
عبادة الله والعمل له، هو الإسلام، وما يدان لله تعالى به أي يطاع
فيه ويخضع له به من الشرائع والعبادات.

قال ابن عاشور: "والدين: حقيقته في الأصل الجزاء، ثم صار
حقيقة عرفية يطلق على: «مجموع عقائد وأعمال يلقتها رسول
من عند الله ويعد العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب».
ثم أطلق على ما يشبه ذلك مما يضعه بعض زعماء الناس من
تلقاء عقله فتلتزمه طائفة من الناس.

وسمي الدين دينا لأنه يتقرب منه متبعه الجزاء عاجلا أو
آجلا، فما من أهل دين إلا وهم يتقربون جزاء من رب ذلك
الدين، فالمشركون يطمعون في إعانة الآلهة ووساطتهم ورضاهم
عنهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقال أبو سفيان يوم
أحد: أعل هبل. وقال يوم فتح مكة لما قال له العباس: أما آن
لك أن تشهد أن لا إله إلا الله: لقد علمت أن لو كان معه إله
غيره لقد أغنى عني شيئا. وأهل الأديان الإلهية يتقربون الجزاء
الأوفى في الدنيا والآخرة، فأول دين إلهي كان حقا وبه كان
اهتداء الإنسان، ثم طرأت الأديان المكذوبة، وتشبهت بالأديان
الصحيحة، قال الله تعالى -تعلما لرسوله-: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ**
دِينِ} [الكافرون: ٦]

وقال تعالى: **{مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}**
[يوسف: ٧٦] أي شريعته، فما كان له أن يأخذ أخاه في حكم
ملك مصر؛ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق بل جزاءه
الضرب وتغريم مثلي المسروق لا الاسترقاق، إلا أن مشيئة الله
اقتضت هذا التدبير والاحتكام إلى شريعة إخوة يوسف القاضية
برق السارق.

{عِنْدَ اللَّهِ} يعني: إن المرجع في كون هذا الشيء ديناً أو غير دين هو الله -عز وجل- فالعندية عندية الاعتبار والاعتناء، وليست عندية العلم.

{الإِسْلَامُ} ملة الإسلام.. إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهته -عليه أفضل الصلاة والسلام-، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بدين على غير شريعته، فليس بمتقبل. كما قال تعالى: **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [آل عمران: ٨٥] وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}**.

والإسلام هو التعبد لله تعالى بما شرع، حال قيام الشريعة. وهذا الإسلام بالمعنى العام. أما الإسلام بالمعنى الخاص -وهو المراد هنا- فهو التعبد لله بشرع محمد.

والدليل على هذا التقسيم من القرآن أن الله تعالى وصف إبراهيم بأنه كان حنيفاً مسلماً. وقال عن ملكة سبأ: **{وَأَسْلَمْتُ}**

مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤] وقال يعقوب لبيه:
{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ}
[البقرة: ١٣٢]. وقال عن التوراة: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} [المائدة: ٤٤].
والآيات في هذا كثيرة.

والإسلام علم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به محمد
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كما أطلق على ذلك الإيمان أيضا،
ولذلك لقب أتباع هذا الدين بالمسلمين وبالمؤمنين، وهو
الإطلاق المراد به هنا، وهو تسمية بمصدر أسلم إذا أذعن ولم
يعاند، إذعانا عن اعتراف بحق لا عن عجز، وهذا اللقب أولى
بالإطلاق على هذا الدين من لقب الإيمان؛ لأن الإسلام هو
المظهر البين لمتابعة الرسول فيما جاء به من الحق، وإطراح كل
حائل يحول دون ذلك، بخلاف الإيمان فإنه اعتقاد قلبي،
ولذلك قال الله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ} [الحج: ٧٨]
وقال: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: ٢٠]
ولأن الإسلام لا يكون إلا عن اعتقاد لأن الفعل أثر الإدراك،
بخلاف العكس فقد يكون الاعتقاد مع المكابرة.

قال ابن عاشور: "وإذ قد جاءت أديان صحيحة أمر الله بها فالحصر مؤول: إما باعتبار أن الدين الصحيح عند الله، حين الإخبار، وهو الإسلام، لأن الخبر ينظر إلى وقت الإخبار؛ إذ الأخبار كلها حقائق في الحال، ولا شك أن وقت الإخبار ليس فيه دين صحيح غير الإسلام؛ إذ قد عرض لبقية الأديان الإلهية من خلط الفاسد بالصحيح، ما اختل لأجله مجموع الدين، وإما باعتبار الكمال عند الله فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور؛ إذ لا أكمل من هذا الدين، وما تقدمه من الأديان لم يكن بالغا غاية المراد من البشر في صلاح شؤونهم، وهذا المعنى أولى محملي الآية، لأن مفاده أعم، وتعبيره عن حاصل صفة دين الإسلام تجاه بقية الأديان الإلهية أتم".

ثم قال: "أظهر الله دين الإسلام في وقت مناسب لظهوره، واختار أن يكون ظهوره بين ظهري أمة لم تسبق لها سابقة سلطان، ولا كانت ذات سيادة يومئذ على شيء من جهات الأرض، ولكنها أمة سلمها الله من معظم رعونات الجماعات البشرية، لتكون أقرب إلى قبول الحق، وأظهر هذا الدين بواسطة رجل منها، لم يكن من أهل العلم، ولا من أهل الدولة، ولا من ذرية ملوك، ولا اكتسب خبرة سابقة بهجرة أو مخالطة، ليكون

ظهور هذا الحق الصريح، والعلم الصحيح، من مثله آية على أن ذلك وحي من الله نفح به عباده.

ثم جعل أسس هذا الدين متباعدة عن ذميم العوائد في الأمم، حتى الأمة التي ظهر بينها، وموافقة للحق ولو كان قد سبق إليه أعداؤها، وكانت أصوله مبنية على الفطرة بمعنى ألا تكون ناظرة إلا إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب، قال تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [الروم: ٣٠] فبهذا الأصل: أصل الفطرة كان الإسلام دينا صالحا لجميع الأمم في جميع الأعصر".

وهنا ننبه أن كثيراً من الكتاب اليوم إذا تكلموا عن اليهودية والنصرانية والإسلام، يقولون: هذه الأديان السماوية. فيظن السامع أن دين اليهود قائم، وأن دين النصارى قائم، كقيام دين الإسلام. وهذا لا يصح، فإن هذه الأديان أديان سماوية بلا شك، لكنها حرفت، وبدلت، وغيرت ونسخت ببعثة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فليست ديناً يرتضيه الله اليوم، بل المتمسكون بها كفار، لا يعدُّون من المسلمين.

وربما توهم بعض العامة أن اختلاف هذه الأديان كاختلاف المذاهب الإسلامية، يعني كاختلاف مذهب الشافعي، ومالك، والإمام أحمد وأبي حنيفة، وهذا خطأ عظيم؛ لأنه من زعم أن هناك ديناً قائماً بعد بعثة الرسول -عليه الصلاة والسلام- فهو كافر، فإن دينه نسخ جميع الأديان، يقول الله تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}**.

والمراد بالإسلام هنا الدين كله بجميع شرائعه الظاهرة والباطنة، فليس قسم الإيمان المذكور في حديث جبريل عليه السلام، بل المراد به ما يعم جميع شرائع.

فالصلاة من الإسلام، والزكاة من الإسلام، والتوكل على الله من الإسلام، والخوف منه من الإسلام، وهكذا جميع شرائع الدين من الإسلام.

يقول ابن عاشور: فأصل الفطرة دين الإسلام الذي كان فيه في تسعة مظاهر خادمة له ومهيئة لجميع الناس لقبوله.

**** المظهر الأول: إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم بكون عقيدته مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختياراً،**

ثم لتصير تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران: ٦٤].

وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له؛ وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح؛ ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المشيرة، خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء. وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي؛ لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه.

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي: عزة النفس، وأصالة الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل.

وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارا لا يشبهه في دين آخر، بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة، فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلا.

** المظهر الثاني: جمعه بين إصلاح النفوس، بالتزكية، وبين إصلاح نظام الحياة، بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا

يتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفاً إلى المواعظ والعبادات، وقد قرن القرآن المصلحتين في غير ما آية، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧].

**** المظهر الثالث: اختصاصه بإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات، وتعليل أحكامه، بالترغيب وبالترهيب، وذلك رعي لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر.**

**** المظهر الرابع: أنه جاء بعموم الدعوة لسائر البشر، وهذا شيء لم يسبق في دين قبله قط، وفي القرآن: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨] وفي الحديث الصحيح في البخاري: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي) فذكر (وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ**

عَامَّةً) وقد ذكر الله تعالى الرسل كلهم فذكر أنه أرسلهم إلى أقوامهم.

والاختلاف في كون نوح رسولا إلى جميع أهل الأرض، إنما هو مبني: على أنه بعد الطوفان انحصر أهل الأرض في أتباع نوح، عند القائلين بعموم الطوفان سائر الأرض، ألا ترى قوله تعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ}** [الأعراف: ٥٩] وأيا ما كان احتمال كون سكان الأرض في عصر نوح هم من ضمهم وطن نوح؛ فإن عموم دعوته حاصل غير مقصود.

**** المظهر الرابع:** الدوام ولم يدع رسول من الرسل أن شريعته دائمة، بل ما من رسول، ولا كتاب، إلا تجد فيه بشارة برسول يأتي من بعده.

**** المظهر الخامس:** الإقلال من التفريع في الأحكام بل تأتي بأصولها ويترك التفريع لاستنباط المجتهدين، وقد بين ذلك أبو إسحاق الشاطبي في تفسير قوله تعالى: **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}** [الأنعام: ٣٨] لتكون الأحكام صالحة لكل زمان.

**** المظهر السادس:** أن المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي

تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها خواطر الشرور؛ لأن الشرور، إذا تسربت إلى النفوس، تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل وأحسبها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث: (إِنَّ الْحَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ) [البخاري ومسلم].

**** المظهر السابع: الرأفة بالناس حتى في حملهم على مصالحهم بالاقتصار في التشريع على نوع المصلحة، مع تطلب إبراز ذلك التشريع في صورة لينة، وفي القرآن: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] وفي الحديث الصحيح: (أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْخَفِيفَةُ السَّامِحَةُ) [البخاري] (وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ) [البخاري] وكانت الشرائع السابقة تحمل على المتابعة بالشدّة، فلذلك لم تكن صالحة للبقاء؛ لأنها روعي فيها حال قساوة أُمم في عصور خاصة، ولم تكن بالتي يُناسِبُهَا مَا قُدِّرَ مَصِيرُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ رَقَّةِ الطَّبَاعِ وارتقاء الأُفهام.**

**** المظهر الثامن: امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام،**
وذلك من خصائصه؛ إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون
للأمة، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة. وبامتزاج
الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة، واتحاد الأمة في
العمل والنظام.

**** المظهر التاسع: صراحة أصول الدين، بحيث يتكرر في**
القرآن ما تستقرى منه قواطع الشريعة، حتى تكون الشريعة
معصومة من التأويلات الباطلة، والتحريفات التي طرأت على أهل
الكتب السابقة.

**{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ}** ومجيء العلم هو الوحي الذي جاءت به رسالهم
وأنبياؤهم؛ لأن كلمة جاء مؤذنة بعلم متلقى من الله تعالى، يعني
أن العلم الذي جاءهم كان من شأنه أن يصددهم عن الاختلاف
في المراد، إلا أنهم أساءوا فكانوا على خلاف مراد الله من
إرسال الهدى.

والمعنى أن خلاف أهل الكتاب لم يكن عن جهل منهم
بالحق ومعرفته، ولكن كان عن علم حقيقي وإنما حملهم على
الخلاف المسبب للفتن والحروب وضياع الدين البغي والحسد

إذ كل فرقة تريد الرئاسة والسلطة الدينية الدنيوية لها دون غيرها، وبذلك يفسد أمر الدين الدنيا، وهذه سنة بشرية تورط فيها المسلمون بعد القرون المفضلة أيضاً، والتاريخ شاهد.

يقول ابن حيان في «البحر المحيط»: **{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ}** الذي هو سبب لاتباع الإسلام، والاتفاق على اعتقاده، والعمل به، لكن عموا عن طريق العلم وسلوكه بالبغي الواقع بينهم من الحسد، والاستئثار بالرياسة، وذهاب كل منهم مذهباً يخالف الإسلام حتى يصير رأساً يتبع فيه، فكانوا ممن ضل على علم".

{بَغْيًا بَيْنَهُمْ} أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلّفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابروهم، فحمل بعضهم بُغْضَ البَغْضِ الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً.. كل واحد منهم يقول: إن دينك باطل، فتفرقوا وتمزقوا.

****** وهذا أسلوب عجيب في الإخبار عن حالهم إخباراً يتضمن بيان سببه، وإبطال ما يتراءى من الأسباب غير ذلك، مع إظهار المقابلة بين حال الدين الذي هم عليه يومئذ من الاختلاف.

ونظير هذا قوله تعالى: **{وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}** [البقرة: ٢١٣] وقوله: **{وَمَا**

تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ {
[البينة: ٤]}

واختلاف الذين أوتوا الكتاب يشمل اختلافهم فيما بينهم:
أي اختلاف أهل كل ملة في أمور دينهم، كاختلاف اليهود بعد
موسى غير مرة، واختلافهم بعد سليمان إلى مملكتين: مملكة
إسرائيل، ومملكة يهوذا، وكيف صار لكل مملكة من المملكتين
تدين يخالف تدين الأخرى، وكذلك اختلاف النصارى في شأن
المسيح، وفي رسوم الدين، ويكون قوله: {بينهم} حالا لبغيا: أي
بغيا متفشيا بينهم، بأن بغى كل فريق على الآخر.

ويشمل أيضا الاختلاف بينهم في أمر الإسلام؛ إذ قال قائل
منهم: هو حق، وقال فريق: هو مرسل إلى الأميين، وكفر فريق،
ونافق فريق. وهذا الوجه أوفى مناسبة بقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}

** وقد جاءت الآية على نظم عجيب يشتمل على معان:

– منها التحذير من الاختلاف في الدين، أي في أصوله،
ووجوب تطلب المعاني التي لا تناقض مقصد الدين، عبرة بما
طراً على أهل الكتاب من الاختلاف.

– ومنها التنبيه على أن اختلاف أهل الكتاب حصل مع قيام أسباب العلم بالحق، فهو تعريض بأنهم أساءوا فهم الدين.

– ومنها الإشارة إلى أن الاختلاف الحاصل في أهل الكتاب نوعان:

أحدهما: اختلاف كل أمة مع الأخرى في صحة دينها كما قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [البقرة: ١١٣]، وثانيهما: اختلاف كل أمة منهما فيما بينها وافتراقها فرقا متباينة المنازع. كما جاء في الحديث: (افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين فرقة وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين فرقة وسبعين فرقة) يحذر المسلمين مما صنعوا.

– ومنها أن اختلافهم ناشئ عن بغي بعضهم على بعض.

– ومنها أنهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراض عنه بغيا منهم وحسدا، مع ظهور أحقيته عند علمائهم وأحبارهم، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [البقرة: ١٤٦-١٤٧] وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ { [البقرة: ١٠٩] أي
أعرضوا عن الإسلام، وصمموا على البقاء على دينهم، وودوا لو
يردونكم إلى الشرك أو إلى متابعة دينهم، حسدا على ما جاءكم
من الهدى بعد أن تبين لهم أنه الحق.

ولأجل أن يسمح نظم الآية بهذه المعاني، حذف متعلق
الاختلاف في قوله: **{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}** ليشمل
كل اختلاف منهم: من مخالفة بعضهم بعضا في الدين الواحد،
ومخالفة أهل كل دين لأهل الدين الآخر، ومخالفة جميعهم
للمسلمين في صحة الدين.

وهذا الاختلاف كما وجد في الأمم السابقة، وُجِدَ في هذه
الأمّة؛ نجد بعض العلماء يخالف الآخرين، ثم يجعل من هذا
الخلاف خلاف قلب؛ فتتنافر القلوب وتتشتت فمن كان على
ذلك ففيه شبه من اليهود والنصارى.

{وَمَنْ يَكْفُرْ} هذا عام في كل كافر بآيات الله، فلا يخص
بالمختلفين من أهل الكتاب، وإن جاءت الجملة الشرطية بعد
ذكرهم.

والكفر بآيات الله يدور على أمرين: «الجحود والتكذيب»،
«والاستكبار والعناد».

فالجحود والتكذيب: كما فعل المشركون مع النبي -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكما فعل أعداء الرسل من قبل.
والاستكبار والعناد بحيث يعلم الحق ثم يستكبر عنه ويعاند،
كما هو كفر إبليس، وبين الكافرين تلازم، فإن المكذب مستكبر،
والمستكبر وإن لم يكذب بلسانه، فهو مكذب بعمله؛ لأنه لم
ينقد لأمر الله.

{بَيَّاتِ اللَّهِ} الكونية، والشرعية.

فالكفر بالآيات الكونية: أن ينكر أن الله عز وجل هو الذي
خلقها، أو أن يعتقد بأن الله تعالى شريكاً فيها، أو أن يعتقد بأن
الله تعالى مُعيناً فيها.. كل هذا كفر بالآيات الكونية، كما قال الله
تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ
مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢]

{فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} جواب الشرط، وهي جملة خبرية
يقصد بها التهديد. فلا يشغله شيء عن آخر ولا يعنيه إحصاء
ولا عدد.

والسرعة تكون في الزمن والتقدير: أما في الزمن فإن الدنيا
مهما طالت فهي سريعة الزوال، وكذلك أيضاً سريع الحساب يوم

القيامة فإن الله تعالى يفرغ من الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم، ودليل ذلك قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان: ٢٤]، والقيولة تكون في نصف النهار. وهذه سرعة الحساب.

أما السرعة في التقرير فيحاسب الإنسان ويناقش، لكن لكل صفة، فالمؤمن لا يناقشه الله عز وجل، ولكنه سبحانه وتعالى يقرره بذنوبه، ويقول: عملت كذا في يوم كذا في يوم كذا فيقر. وأما حساب الكفار يحاسبون فيقفون على أعمالهم، ويخزون بها والعياذ بالله، ويقال: {هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨]

وقد لمحت الآية إلى أن هذا الاختلاف والبغي كفر؛ لأنه أفضي بهم إلى نقض قواعد أديانهم، وإلى نكران دين الإسلام، ولذلك ذيله بقوله: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ}.

وقوله: {فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} تعريض بالتهديد؛ لأن سريع الحساب إنما يتدئ بحساب من يكفر بآياته، والحساب هنا كناية عن الجزاء كقوله: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي} [الشعراء: ١١٣].

{فَإِنْ حَاجُّوكَ} جادلوك وخاصموك في التوحيد بحجج باطلة واهية، وأكثر استعمال فعل حاج في معنى المخاصمة بالباطل: كما في قوله تعالى: **{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ}** [الأنعام: ٨٠] وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ}** [البقرة: ٢٥٨] فالمعنى: فإن خاصموك خصام مكابرة.

وفيه التفات إلى الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{فَقُلْ أَسْلَمْتُ} فاختصر الحجاج معهم بإظهار موقفك المؤيس لهم، داعياً إياهم إلى الإسلام الذي عرفوه وأنكروه حفاظاً على الرئاسة والمنافع بينهم.

{وَجْهِي} وعبر بالوجه عن جميع ذاته، لأن الوجه أشرف الأعضاء، وإذا خضع الوجه فما سواه أخضع، وهو الذي يكون به الانقياد وعدمه؛ ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجداً؛ لأنه يضع أشرف أعضائه على موطن الأقدام.

{لِلَّهِ} أي أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند له ولا ولد ولا صاحبة له، فالمراد بالوجه هنا: «القصد» فإذا أسلم الإنسان وجهه الله، قبل كل ما يخبر الله به وامتلأ بكل ما يأمر به، وانتهى عن كل ما نهى عنه؛ فهو مسلم وجهه الله.

فهذه طريقتي، وأمرت أن أبلغكم، وقد بلغتكم، وليس علي أكثر من ذلك: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]

وفيه أن هؤلاء الذين يحتاجون الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يحتاجون إلى كبير عناء في الرد عليهم؛ لأنهم يحتاجون على أمر واضح، ولهذا أمره الله أن يقول: {أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ}، فإن أسلمتم فهو لكم، وإن لم تسلموا فعليكم.

ويتفرع على ذلك أن من علمت أنه إنما يحتاجك لقصد نصر قول، ولو كان باطلاً، فلك أن تعرض عنه؛ ولتقل: "هذا ما أدين الله به"، "وهذا ما أستسلم له"، وتدعه؛ لأنه معاند مكابر، وليس أهلاً لأن تدخل معه في محاجة أو خصومة.

فالقصد أن الآية متاركة وإعراض عن المجادلة، أي اعترفت بأن لا قدرة لي على أن أزيدكم بيانا، وأني أتيت بمنتهى المقدور من الحجة فلم تقتنعوا، فإذا لم يقنعكم ذلك فلا فائدة في الزيادة من الأدلة النظرية، فليست محاجتكم إياي إلا مكابرة وإنكاراً للبد依يات والضروريات، ومباهة، فالأجدر أن أكف عن الازدياد.

قال الفخر: فإن المحق إذا ابتلي بالمبطل اللجوج يقول: أما أنا فمناقداً إلى الحق. وإلى هذا التفسير مال القرطبي.

وقيل: هو تلخيص للحجة، واستدراج لتسليمهم إياها، قال أبو مسلم الأصفهاني: إن اليهود والنصارى والمشركين كانوا متفقين على أحقية دين إبراهيم عليه السلام إلا زيادات زادتها شرائعهم، فكما أمر الله رسوله أن يتبع ملة إبراهيم في قوله {ثُمَّ أُوحِيَنا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً} [النحل: ١٢٣] أمره هنا أن يجادل الناس بمثل قول إبراهيم: فإبراهيم قال: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ٧٩] ومحمد عليه لصلاة والسلام قال: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ} أي فقد قلت ما قاله الله، وأنتم معترفون بحقيقة ذلك، فكيف تنكرون أنني على الحق، قال: وهذا من باب التمسك بالإلزامات وداخل تحت قوله: {وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥].

وقوله: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ} كلمة جامعة لمعاني كنه الإسلام وأصوله ألقيت إلى الناس ليتدبروا مطاويها فيهتدي الضالون، ويزداد المسلمون يقينا بدينهم

وفيها بيان جامع معاني الإسلام حتى تسهل المجادلة،
وتختصر المناقشة، ويسهل عرض المتشككين أنفسهم على هذه
الحقيقة، ليعلموا ما هم عليه من الديانة.

وبينت هذه الكلمة أن هذا الدين يترجم عن حقيقة اسمه؛
فإن اسمه الإسلام، وهو مفيد معنى معروفا في لغتهم يرجع إلى
الإلقاء والتسليم.

قال ابن عاشور: وإسلام النفس لله معناه إسلامها لأجله
وصيرورتها ملكا له، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة
الله، وتحت هذا معان جمة هي جماع الإسلام: نحصرها في
عشرة:

المعنى الأول: تمام العبودية لله تعالى، وذلك بألا يعبد غير
الله، وهذا إبطال للشرك لأن المشرك بالله غير الله لم يسلم نفسه
بل أسلم بعضها.

المعنى الثاني: إخلاص العمل لله تعالى فلا يلحظ في عمله
غير الله تعالى، فلا يرائي ولا يصانع فيما لا يرضي الله ولا يقدم
مرضاة غير الله تعالى على مرضاة الله.

الثالث: إخلاص القول لله تعالى فلا يقول مالا يرضى به الله،
ولا يصدر عنه قول إلا فيما أذن الله فيه أن يقال، وفي هذا

المعنى تجيء الصراحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، على حسب المقدرة والعلم، والتصدي للحجة لتأييد مراد الله تعالى، وهي صفة امتاز بها الإسلام، ويندفع بهذا المعنى النفاق، والملق، قال تعالى في ذكر رسوله: **{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}** [يس: ٨٦].

الرابع: أن يكون ساعيا لتعرف مراد الله تعالى من الناس، ليجري أعماله على وفقه، وذلك بالإصغاء إلى دعوة الرسل المخبرين بأنهم مرسلون من الله، وتلقيها بالتأمل في وجود صدقها، والتمييز بينها وبين الدعاوى الباطلة، بدون تحفز للتكذيب، ولا مكابرة في تلقي الدعوة، ولا إعراض عنها بداعي الهوى وهو الإفحام، بحيث يكون علمه بمراد الله من الخلق هو ضالته المنشودة.

الخامس: امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، على لسان الرسل الصادقين، والمحافظة على اتباع ذلك بدون تغيير ولا تحريف، وأن يذود عنه من يريد تغييره.

السادس: ألا يجعل لنفسه حكما مع الله فيما حكم به، فلا يتصدى للتحكم في قبول بعض ما أمر الله به ونهى البعض. كما حكي الله تعالى: **{وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا**

فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ {
[النور: ٤٨-٤٩] وقد وصف الله المسلمين بقوله: {وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: ٣٦]، فقد أعرض الكفار عن الإيمان
بالبعث؛ لأنهم لم يشاهدوا ميتا بعث.

السابع: أن يكون متطلبا لمراد الله مما أشكل عليه فيه،
واحتماج إلى جريه فيه على مراد الله: يتطلبه من إلحاقه بنظائره
التامة التنظير بما علم أنه مراد الله، كما قال الله تعالى: {وَلَوْ
رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ
مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣] ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقه
في الدين والاجتهاد، تحت التقوى المأمور بها في قوله تعالى:
{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦].

الثامن: الإعراض عن الهوى المذموم في الدين، وعن القول
فيه بغير سلطان {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}
[القصص: ٥٠].

التاسع: أن تكون معاملة أفراد الأمة بعضها بعضا،
وجماعاتها، ومعاملتها الأمم كذلك، جارية على مراد الله تعالى
من تلك المعاملات.

العاشر: التصديق بما غيب عنا، مما أنبأنا الله به: من صفاته،
ومن القضاء والقدر: وأن الله هو المتصرف المطلق.

{وَمَنْ اتَّبَعْنِي} على ديني، فيقول كمقالتني، وعلى ما جئت به
من العقيدة والقول والعمل؛ وعلامة المتبع للرسول -عليه الصلاة
والسلام- حقا، هو الذي إذا قيل له: قال رسول الله، صار كقول
من يقال له: قال الله. وإذا قيل له: فعل رسول الله، لم يعدل
بفعله فعل أحد من الناس.. هذه حقيقة الاتباع.

وكما قال تعالى: **{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**
[يوسف: ١٠٨].

{وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ} هذا مما يدل على أن
الواو في **{حَاجُّوكَ}** يشمل: اليهود، والنصارى -ومنهم نصارى
نجران-، والمشركين الأميين وهم العرب، وسموا أميين نسبة إلى
«الأم»؛ لأن عامتهم جهال قليل فيهم من يقرأ ويكتب، إذ لم
يأتهم رسول بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ومنهم من أخذ
العلم -أي علم الرسالات الإلهية- عن النصارى، مثل: ورقة بن
نوفل.

{أَسْلَمْتُمْ} والاستفهام هنا يراد به الأمر، يعني: قل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلموا، فهو مثل قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ}** [الأنبياء: ١٠٨] يعني: فأسلموا.

وقيل: بل المراد أنه ينادي عليهم بالبلاهة، يعني: أسلمتم بعد هذا البيان وهذا الوضوح، أم أنكم بلهاء لم تفقهوا حتى الآن، ولم تسلموا مع ظهور المعنى ووضوحه، وهذا المعنى أبلغ من المعنى الأول.

فأما المشركون فبعدهم عنه أشد البعد ظاهر، وأما النصارى فقد ألوهوا عيسى، وجعلوا مريم صاحبة لله تعالى فهذا أصل لبطلان أن يكونوا أسلموا وجوههم لله؛ لأنهم عبدوا مع الله غيره، وصانعوا الأمم الحاكمة والملوك، فأسسوا الدين على حسب ما يلذ لهم ويكسبهم الحظوة عندهم.

وأما اليهود فإنهم وإن لم يشركوا بالله فقد نقضوا أصول التقوى، فسفهاوا الأنبياء وقتلوا بعضهم، واستهزءوا بدعوة الخير إلى الله، وغيروا الأحكام اتباعا للهوى، وكذبوا الرسل، وقتلوا الأحرار، فأنى يكون هؤلاء قد أسلموا لله، وأكبر مبطل لذلك هو

تكذيبهم محمداً - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دون النظر في دلائل صدقه.

{فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا} فَإِنْ التزموا النزول إلى التحقق بمعنى أسلمت وجهي لله فقد اهتدوا، ولم يبق إلا أن يتبعوك لتلقي ما تبلغهم عن الله؛ لأن ذلك أول معاني إسلام الوجه لله. والمعنى إن أسلموا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظاهراً وباطناً، فقد اهتدوا هداية التوفيق، وسلكوا طريق الهداية؛ لأن الهداية نوعان:

هداية دلالة: وهذه شاملة لكل أحد قال الله تعالى: **{وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}** [فاطر: ٢٤] لا بد أن يهدي الله سبحانه وتعالى كل أمة.

وهداية التوفيق: وهذه خاصة بمن هدى بالإسلام في كل زمان ومكان بحسبه. فمن اهتدى هداية التوفيق فهو محل المدح والثناء، وأما الأول الذي اهتدى هداية الدلالة فمعناه علم الحق فهذا إذا خالف الحق كان أشد ذماً ممن لم يعلم الحق.

{وَإِنْ تَوَلَّوْا} أعرضوا عن الإسلام فلم ينقادوا بظواهرهم ولا ببواطنهم، فقد أدبت ما عليك من البلاغ.

{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} فلا تحزن، ولا تظن أن عدم اهتدائهم، وخيبتك في تحصيل إسلامهم، كان لتقصير منك؛ إذ لم تبعث إلا للتبليغ، لا لتحصيل اهتداء المبلغ إليهم، والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة.

وفيه: وجوب تبليغ رسالات الله وشريعته على من آتاه الله علماً بهذا الوحي، خلفاً لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأنه لا يجب على الداعية إلا البلاغ فقط، وأن المرء يقوم بما يجب عليه، ولا يُسأل عن عمل غيره.

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} أي مطلع عليهم أتم الاطلاع، فهو الذي يتولى جزاءهم وهو يعلم أنك بلغت ما أمرت به. عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي **{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}** [الأنبياء: ٢٣] وما ذاك إلا لحكمته ورحمته. والبصر هنا: بصر الرؤية، وبصر العلم. فالله تعالى بصير بالعباد (بالرؤية)، لا يخفى عليه شيء منهم. (وبالعلم): لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- إلى جميع الخلق، كما

هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأمميهم، امتثالا لأمر الله له بذلك.

وقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) [رواه مسلم] وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) [أحمد] وقال: (كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري].

وروى الإمام أحمد عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وُضُوءَه ويناوله نعليه، فأتاه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فدخل عليه

وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(يا فلان، قل: لا إله إلا الله) فنظرَ إلى أبيه، فسَكَتَ أبوه، فأعادَ
عَلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فنظرَ إلى أبيه، فقالَ أبوه:
أطعَ أبا القاسم، فقالَ الغلامُ: "أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأَنَّكَ
رَسُولُ اللَّهِ"، فَخَرَجَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَقُولُ:
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ) أخرجه البخاري في
الصحيح.

**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)**

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ} جيء بالأفعال المضارعة لتدل على
استحضار الحالة الفظيعة، وليس المراد إفادة التجدد؛ لأن ذلك
وإن تأتى في قوله {يَكْفُرُونَ} لا يتأتى في قوله {وَيَقْتُلُونَ} لأنهم
قتلوا الأنبياء والذين يأمرُونَ بالقسط في زمن مضى.

{بِآيَاتِ اللَّهِ} الآيات: جمع آية، وهي في اللغة العلامة، وهي
كونية وشرعية، فالآيات الكونية هي التي نشاهدها مما لا

يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها. وهي تدل على أن الخالق واحد لا شريك له، وعلى أنه لا يشبهه شيء.

والآيات الشرعية أيضاً لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها، قال عز وجل: {قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} [الإسراء: ٨٨] وهي دالة على أن الذي أنزل هذه الآيات إله واحد وأنه كامل الحكمة.

والكفر بالآيات الكونية أن يجحد أن الخالق سبحانه وتعالى خلقها، فيدعي أن الذي خلقها غير الله، أو أن له شريكاً في خلقه، أو أن له معيناً في خلقه.

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها وبتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد، ومن تكذيبها أو الاستكبار عنها: تحريف النصوص، فإن تحريف النصوص نوع من الكفر بلا شك.

وفيه وجوب الإيمان بآيات الله الشرعية والكونية؛ لأن الله تعالى توعد هؤلاء الكافرين بالعذاب الأليم.

{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ} يشمل: الرسل، ومن لم يرسل من النبيين، وما أكثر ما توجد هذه الصفة في اليهود؛ لأن اليهود هم أعتى

المخالفين للرسول وأشدّهم غلظة والعياذ بالله، فصار منهم من قتل الأنبياء بغير حق، وعبد الطاغوت.

قال ابن عاشور: والمراد من أصحاب هذه الصلوات يهود العصر النبوي: لأنهم الذين توعدّهم بعذاب أليم، وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم، الذين قتلوا زكريا لأنه حاول تخليص ابنه يحيى من القتل، وقتلوا يحيى لإيمانه بعيسى، وقتلوا النبي إرمياء بمصر، وقتلوا حزقيال النبي لأجل توبيخه لهم على سوء أفعالهم، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، فهو مَعْدُودٌ عليهم بإقرارهم وإن كانوا كاذبين فيه، وَقَتَلَ مَنْشَا ابْنَ حَزَقِيَّالَ، مَلِكُ إِسْرَائِيلَ، النَّبِيَّ أَشْعِيَاءَ: نشره بالمنشار لأنه نهاه عن المنكر، بمراى ومسمع من بني إسرائيل، ولم يحموه، فكان هذا القتل معدودا عليهم، وكم قتلوا ممن يأمرون بالقسط، وكل تلك الجرائم معدودة عليهم؛ لأنهم رضوا بها، وألحوا في وقوعها.

{بَغَيْرِ حَقٍّ} هي حال مؤكدة للواقع، إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير الحق، فلا يراد منه التقييد ولا الاحتراز. فإنه لم يقتل قط نبي بحق، وإنما أتى بهذه الحشوة ليتأكد قبح قتل الأنبياء، وزيادة تشويه فعلهم، ولكي يعظم أمره في قلب العازم عليه.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بَقْلِهِمْ من آخره".

وجاء في هذه السورة {بغير حق} بصيغة التنكير، وفي البقرة {بغير الحق} بصيغة التعريف، لأن الجملة هنا أخرجت مخرج الشرط، وهو عام لا يتخصص، فناسب أن يكون المنفي بصيغة التنكير حتى يكون عاماً، وفي البقرة جاء ذلك في صورة الخبر عن ناس معهودين، وذلك في قوله: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١] فناسب أن يأتي بصيغة التعريف، لأن الحق الذي كان يستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفاً، كقوله {وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [المائدة: ٤٥] فالحق هنا الذي تقتل به الأنفس معهود معروف، بخلاف ما في هذه السورة.

{وَيَقْتُلُونَ} قرأ حمزة: ويقاتلون الذين يأمرُونَ، وقرأ الحسن: ويقتلون النبيين، بالتشديد، والتشديد هنا للتكثير بحسب المحل.

{الَّذِينَ} تأكيداً لقبح ذلك الفعل **{يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ}** بالعدل **{مِنَ النَّاسِ}** أي: من غير الأنبياء، إذ لو قال: ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط، لكان مندرجاً في ذلك الأنبياء لصدق اللفظ عليهم، فجاء {من الناس} بمعنى: من غير الأنبياء. قال الحسن: تدل الآية على أن القائم بالأمر بالمعروف تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء.

قال ابن جريج: كان الوحي يأتي على أنبياء بني إسرائيل ولم يكن يأتيهم كتاب، فيذكرون قومهم فيقتلون، فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلون أيضاً فهم الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس.

وقد وصف من تولى عن الإسلام وكفر بثلاث صفات: إحداهما: كفره بآيات الله وهو مقرون بالصانع، وجعل كفرهم ببعض مثل كفرهم بالجميع. الثانية: قتلهم الأنبياء. والثالثة: قتل من أمر بالعدل.

فهذه ثلاثة أوصاف بدأ فيها بالأعظم فالأعظم، وبما هو سبب للآخر، فأولها: الكفر بآيات الله، وهو أقوى الأسباب في عدم المبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة، وثانيها: قتل من أظهر آيات الله واستدل بها. والثالث: قتل أتباعهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وهذه الآية جاءت وعيداً لمن كان في زمانه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولما كانوا على طريقة أسلافهم في ذلك، نسب إليهم ذلك، ولأنهم أرادوا قتله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقتل أتباعه، فأطلق ذلك عليهم مجازاً، أي: من شأنهم وإرادتهم ذلك.

{فَبَشِّرْهُمْ} الخطاب للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو لكل من يتأتى خطابه، والقول الأول يدل على أن المراد معاصروه لا آباؤهم، فيكون إطلاق قتل الأنبياء مجازاً لأنهم لم يقتلوا أنبياء لكنهم رضوا ذلك وراموه.

والبشارة هي أول خبر سار، فإذا استعملت مع ما ليس بسار، فقليل: هو على سبيل التهكم والاستهزاء. وقيل: هو على معنى تأثر البشرية من ذلك.

ولكن إذا قلنا إنها من باب التهكم استفيد بذلك زيادة الألم على هؤلاء المبشرين كقوله تعالى في سورة الدخان: **{خُذُوهُ}**

فَاعْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) { وهذه الجملة
لا شك أنها ستبلغ في قلبه كل مبلغ، لأنه سيتذكر: أين العزة
وأين الكرم؟! أين العزة التي بها أغلب؟!، وأين الكرم الذي به
أجود؟!، فيكون أشد وقعاً وأشد تحسراً.

{بِعَذَابٍ} بعقوبة **{أَلِيمٍ}** مؤلم موجه. وفيه أنه ينبغي أن يعلن
لهؤلاء الكفار بما أمر الله تعالى أن نبشرهم به {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ}، والنبى عليه الصلاة والسلام لا شك أنه كلما كانت
الحكمة في تبشير هؤلاء بالعذاب الأليم بشرهم. وهكذا من
ورث النبى -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في العلم والدعوة ينبغي أن
يبشر كل كافر بآيات الله بالعذاب الأليم، لكن يجب أن يكون
هذا تابعاً للحكمة وتجنب المفسدة الأعظم.

{أُولَئِكَ} هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين
بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس.

{الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} وحبوط الشيء: ذهابه وزواله وعدم
الاستفادة منه. وَإِطْلَاقُ الْحَبَطِ عَلَى ذَلِكَ تَمْثِيلٌ بِحَالِ الْإِبْلِ الَّتِي
يَصِيبُهَا الْحَبَطُ وَهُوَ انْتِفَاخٌ فِي بَطُونِهَا مِنْ كَثَرَةِ الْأَكْلِ، يَكُونُ
سَبَبَ مَوْتِهَا، فِي حِينٍ أَكَلَتْ مَا أَكَلَتْ لِلْإِثْمِ بِهِ.

وفيه أن الكفر محبط للعمل، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}
[البقرة: ٢١٧]

{فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} فهؤلاء حبطت أعمالهم في الدنيا
والآخرة؛ فأما في الآخرة فظاهر؛ لأنهم لن يستفيدوا من
أعمالهم، وإن كانت خيراً كالإحسان إلى الناس، فإن ذلك لا
ينفعه في الآخرة؛ لقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]

وأما في الدنيا فلأنهم لمّا لم يستفيدوا منها، صاروا كأنهم لم
يعملوها، فأعمالهم لم تنفعهم. وشاهد هذا قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: ١٥]

{وَمَا لَهُمْ مِنْ} جيء بمن الدالة على تنصيب العموم لئلا
يترك لهم مدخل إلى التأويل **{ناصريين}** مجيء الجمع هنا أحسن
من مجيء الأفراد، لأنه رأس آية، ولأنه بإزاء من للمؤمنين من
الشفعاء الذين هم الملائكة والأنبياء وصالحوا المؤمنين، أي:
ليس لهم كأمثال هؤلاء، والمعنى: انتفاء الناصرين انتفاء ما يترتب

على النصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفت من جمع فانتفاؤها من واحد أولى، وإذا كان جمع لا ينصر فأحرى أن لا ينصر واحد.

وفيه أن هؤلاء الكفار ليس لهم ناصر في الآخرة، أما في الدنيا فقد ينصرهم من كان على شاكلتهم، ولكن هم ومن نصرهم مآلهم إلى الذل والخذلان؛ لأن الله تعالى يقول: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١]

ولما تقدم ذكر معصيتهم بثلاثة أوصاف ناسب أن يكون جزاؤهم بثلاثة، ليقابل كل وصف بمناسبه، ولما كان الكفر بآيات الله أعظم، كان التبشير بالعذاب الأليم أعظم، وقابل قتل الأنبياء بحبوط العمل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالقتل والسبي وأخذ المال والاسترقاق، وفي الآخرة بالعقاب الدائم، وقابل قتل الآمرين بالقسط، بانتفاء الناصرين عنهم إذا حل بهم العذاب، كما لم يكن للآمرين بالقسط من ينصرهم حين حل بهم قتل المعتدين، كذلك المعتدون لا ناصر لهم إذا حل بهم العذاب.

فذكر تقبيح الأوصاف، والتوعد عليها بالعقاب، مما ينفر عنها، ويحمل على التحلي بنقائضها من الإيمان بآيات الله وإجلال رسله وأتباعهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى
كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ
مُغْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا
أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)
فَكَيفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

{أَلَمْ تَرَ} ألم ينته إلى علمك، فالرؤية هنا «رؤية علم»،
والاستفهام هنا للتعجب من حالة اليهود في شدة ضلالهم، فإن
هذه الحال يتعجب منها كل عاقل.

{إِلَى الَّذِينَ} وَعُرفَ الْمُتَحَدِّثُ عنهم بطريق الْمُؤْصُولِيَّةِ دون
لقبهم، أعني اليهود، لأن في الصلة ما يزيد التعجب من حالهم؛
لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن
يصددهم عما أخبر به عنهم. على ما في هذه الصلة أيضا من
توهين علمهم المزعوم.

{أُوتُوا} من الله تعالى {نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} النصيب: القسط
والحظ.

يحتمل أنه يفيد التقليل، أو التكثير، فيكون المراد أنهم أوتوا نصيباً كبيراً من الكتاب، بحيث يكون حاملاً لهم على الاهتداء، ولكنهم -والعياذ بالله- استكبروا. ويحتمل أنه ليس عندهم إلا علم قليل، وأنه لو فرض أن عندهم علماً كثيراً، فإن هذا العلم لم ينفعهم، فصاروا كالذي أوتي نصيباً قليلاً من العلم.

قال ابن عاشور: وتنكير {نَصِيباً} للنوعية، وليس للتعظيم؛ لأن المقام مقام تهاون بهم، ويحتمل أن يكون التنوين للتقليل. و {مِنْ} للتبعيض، كما هو الظاهر من لفظ النصيب، فالمراد بالكتاب جنس الكتب، والنصيب هو كتابهم، والمراد: أوتوا بعض كتابهم، تعريضاً بأنهم لا يعلمون من كتابهم إلا حظاً يسيراً، ويجوز كون من للبيان. والمعنى: أوتوا حظاً من حظوظ الكمال، هو الكتاب الذي أوتوه.

وفيه أنه ليس كل من أعطي علماً يوفق للعمل به.

{يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ} والداعي لهم: هو رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة.

{لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ} أسند الحكم إليه لأن الحكم صار به، ويضاف الشيء إلى سببه كثيراً.

والحكم قد يكون فيما أنكروه واختلفوا فيه من صفاتك
وشأن نبوتك ورسالتك.

وأيضاً الحكم في كتاب الله يكون في كل شيء؛ في العبادات
والمعاملات والأخلاق والأعمال؛ لأنه لم يخص منها شيء.
ويتفرع على هذه الفائدة الرد على من قال: إن الشرع إنما جاء
في تنظيم العبادات فقط. أما المعاملات فهي إلى الخلق
واستدلوا لذلك بحديث تأييد النخل

فروى الإمام مسلم «بَابُ وَجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرَعًا دُونَ مَا
ذَكَرَهُ مِنْ مَعَاشِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ»

عن عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ مَا يَصْنَعُ
هَؤُلَاءِ فَقَالُوا يُلْقَحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا قَالَ
فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
بِذَلِكَ فَقَالَ: (إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ
ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا
بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وفي رواية له أيضا: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ يُلْقَحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ مَا
تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا كُنَّا نَصْنَعُهُ قَالَ لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا
فَتَرَكُوهُ فَنَفَضْتُمْ أَوْ فَنَقَصْتُمْ قَالَ فَذَكِّرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: (إِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ
مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ)

وفي رواية له عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَرَّ
بِقَوْمٍ يُلْقَحُونَ فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ قَالَ فَخَرَجَ شَيْصًا فَمَرَّ
بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ: (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ
دُنْيَاكُمْ)

قالوا: فوَكَّل علم أمور الدنيا إليهم، بل جعلهم أعلم منه بهذا؛
وعلى هذا فأمر الدنيا لا يتدخل فيها الشرع.

ولكن هذا فهم خاطئ، بل باطل؛ وذلك لأن أمور الدنيا إما
«أحكام شرعية» كالتحليل والتحريم، فهذه مرجعها إلى الشرع،
وإما «أمور فنية» تدرك بالتجارب والتعلم، فهذه مرجعها إلى أهل
الخبرة. فكم من عالم عنده علم واسع غزير في أمور الشرع لا
يستطيع أن يصنع باباً ولا إبرة، ويأتي رجل جاهل من أجهل الناس

ويستطيع أن يصنع باباً من أحسن الأبواب، وإبرة من أحسن الإبر.

ومسألة التأبير مسألة فنية بلا شك، تدرك بالتجارب، والنبي -عليه الصلاة والسلام- كما نعلم ولد بمكة، ومكة ليست ذات نخل، ولا يعلم عن هذا شيئاً، فأهل المدينة الذين مارسوا التجارب في هذه الأمور، كانوا أعلم منه بذلك.

ولا يعارض هذا أننا نرجع إلى العرف في أمور كثيرة؛ لأنَّ الشرع هو الذي ردنا إلى العرف كما قال تعالى: **{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** [النساء: ١٩]، **{فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}** [الطلاق: ٢]

وفي الآية دلالة على أن من دعا خصمه إلى حكم الشرع لزمته إجابته، لأنه دعا إلى كتاب الله تعالى.

قال القرطبي: وإذا دعي إلى كتاب الله وخالف، تعين زجره بالأدب على قدر المخالف، والمخالف.

قال ابن حيان في البحر المحيط: وهذا الحكم جارٍ عندنا بالأندلس وبلاد المغرب، وليس بالديار المصرية.

قال ابن خويزمناد المالكي: واجب على من دعي إلى مجلس الحكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق.

{ثُمَّ يَتَوَلَّى} التولي مجاز عن النفور والإباء، وأصله الإعراض والانصراف عن المكان **{فَرِيقٌ مِنْهُمْ}** لا كلهم؛ لأن بعضهم قد هُدي إلى نور الإسلام.

{وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} جملة حالية مؤكدة لأن التولي هو الإعراض، أو مبينة لكون التولي عن الداعي، والإعراض عما دعا إليه، فيكون المتعلق مختلفاً، أو لكون التولي بالبدن والإعراض بالقلب، أو لكون التولي من علمائهم والإعراض من أتباعهم، قاله ابن الأنباري.

والمعنى: وهو مصمم على عدم العودة إلى الحق، إنما قال ذلك لأن الإنسان قد يتولى لسبب طارئ، لكن في قلبه شيء من الإقبال. أما هؤلاء فإنهم متولون، وهم قد امتثلوا إعراضاً عن كتاب الله.

فالتولي مذموم كله وقد يكون عن إعراض وقد يكون عن غير إعراض، ولكن إذا كان عن إعراض وعدم مبالاة كان أشد.

وهذه الآية كقوله تعالى: **{وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ}** [النور: ٤٨]

{ذَلِكَ} التولي والإعراض **{بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}** أياماً قلائل؛ لأن كل معدود فهو قليل، ودليل

ذلك قوله تعالى: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} [هود: ١٠٤]، فكل شيء معدود فهو قليل؛ لأن شيئاً يمضي بالعدد، ولا بد أن ينتهي.

قال ابن عاشور: الإشارة إلى توليهم وإعراضهم، والباء للسببية: أي إنهم فعلوا ما فعلوا بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب إلا أياماً قليلة، فانعدم اكتراثهم باتباع الحق؛ لأن اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال جرأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض. وهذا الاعتقاد مع بطلانه مؤذن أيضاً بسفالة همتهم الدينية، فكانوا لا ينافسون في تزكية الأنفس. وعبر عن الاعتقاد بالقول دلالة على أن هذا الاعتقاد لا دليل عليه وأنه مفترى مدلس، وهذه العقيدة عقيدة اليهود.

وقيل في الأيام المعدودات: أربعين يوماً، قدر عبادتهم العجل يوم غاب موسى عنهم لمناجاته ربه تعالى في جبل الطور، ثم يخلفهم المسلمون.

وفي البقرة: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [البقرة: ٨٠] وهنا: {معدودات}، وهما طريقان فصيحان تقول: جبال شامخة، وجبال شامخات.

{وَعَرَّهْمَ فِي دِينِهِمْ} الغرور والخداع بمعنى واحد متقارب،
أي انخدعوا في دينهم.

وفيه أن الإنسان قد يغره ما هو عليه من الدين؛ فيغتر بأنه يصلي ويزكي ويصوم ويحج، ثم يقول في نفسه: "لن أعذب". وهذا قصور في النظر؛ لأنه ليس الشأن أن تصلي أو تزكي أو تصوم أو تحج، الشأن كل الشأن أن يقبل منك هذا العمل، فكم من عامل ليس له من عمله إلا التعب لوجود مبطل سابق أو لاحق. فالسابق كعدم الإخلاص مثلاً، واللاحق كالأعجاب بالعمل، والإدلال به على الله عز وجل، وأن يرى الإنسان لنفسه حقاً على ربه.

وقد يتلى الإنسان بالبدعة !! كم من أناس يحبون الخير وعندهم رغبة ومحبة الله ورسوله، ولكن لجهلهم يتدعون في دين الله ما ليس منه فيكون عملهم مردوداً؛ لأن من شرط قبول العمل أن يكون موافقاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [رواه مسلم عن عائشة]

{مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} قال مجاهد: الذي افتروه هو قولهم: **{لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}** وقال قتادة: بقولهم: **{نَحْنُ أَبْنَاءُ**

اللَّهِ وَأَحِبَّاءُؤُهُ} [المائدة: ١٨] وقيل بقولهم: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة: ١١١] وقيل: مجموع هذه الأقوال.

فهذه الدعوى اليهودية ما هي إلا فرية افتراها علماءهم ليهوتوا عليهم ارتكاب الجرائم وغشيان عظام الذنوب، كما حصل للمسلمين في القرون المظلمة من تاريخ الإسلام حيث أصبح مشايخ التصوف يُدَجَّلون على المريدين بأنهم سيستغفرون لهم ويغفر لهم.

قال ابن عاشور: وقد أخبر الله تعالى عن مفساد هذا الغرور والافتراء بإيقاعها في الضلال الدائم، لأن المخالفة إذا لم تكن عن غرور فلا إقلاع عنها مرجو، أما المغرور فلا يتقرب منه إقلاع. وقد ابتلى المسلمون بغرور كثير في تفاريع دينهم وافتراءات من الموضوعات عادت على مقاصد الدين وقواعد الشريعة بالإبطال.

وفيه أن أفسد شيء للأديان بعقائدها وشرائعها وعباداتها الافتراء فيها والابتداع عليها والقول فيها بغير علم.

وفيه أن النفس قد تمنى الإنسان ما لا يكون؛ وتحذير الإنسان أن يتكل على الأمانى؛ لأن هذا من صنع اليهود

والنصارى وكثير من العامة الآن يقعون في المعاصي، ويمنون أنفسهم بالمغفرة إذا وقعوا في المعصية. صحيح أن الله غفور رحيم، لكن الله قال أيضاً: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩-٥٠].

فيتمنى بعض العاصين الأمانى ويقول: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، فهو يريد أن يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعمل كل شيء دون الشرك، ثم يقول: إن الله يقول: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، وهذا خبر من الله عز وجل وهو أصدق القائلين!! فنقول: اقرأ الآية، لا تكن أعمى، أو أعور لا تنظر إلا بعين واحدة. فالله يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن لا يشاء لا يغفر له، وأنت لا تجزم بأنك ممن شاء الله أن يغفر له، إذن أنت على خطر، على أن الذي يستخف بالمعصية، ويلبس على نفسه وعلى الناس، قد يكون ممن لا يشاء الله أن يغفر له -والعياذ بالله- لأن هذا مستهتر مستهين.

وفيه أن هؤلاء يؤمنون بالبعث ولكن لم ينفعهم الإيمان؛ لقولهم: {لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ} ويتفرع على هذا أنه لا يكفي في الإيمان أن يؤمن الإنسان بوجود الله، وباليوم

الآخر، دون أن يستلزم هذا الإيمان قبولاً وإذعاناً، فمجرد التصديق لا يعتبر إيماناً، ودليل هذا نصوص كثيرة منها: أن أبا طالب عم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقر بأن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نبي حق، ومع ذلك لم ينفعه هذا الإقرار؛ لأنه لم يصحبه قبول وإذعان. وختم له في الآخر - والعياذ بالله - بأنه قال: هو على ملة عبد المطلب، ولكن نظراً لما حصل منه من دفاع عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أذن الله لنبيه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يشفع له، فشفع، فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه أبد، وهذا أهون أهل النار عذاباً، ولم نعلم أن كافراً نفعت فيه الشفاعة على الإطلاق، بمعنى أنه سلم من العذاب أبداً، ولم نعلم أن كافراً خفف عنه العذاب بالشفاعة إلا أبا طالب.

فروى البخاري عن ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعنده أبو جهل فقال: (أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزلوا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:- (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ) فَنَزَلَتْ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} وَنَزَلَتْ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}.

وروى أيضا عن العباس بن عبد المطلب -رضي الله عنه- قَالَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: (هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

وروى أيضا عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَذَكَرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَالَ: (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ)

{فَكَيْفَ} استفهام للتعجب من حالهم، واستعظامه لعظم مقاتلتهم حين اختلفت مطامعهم، وظهر كذب دعواهم، إذ صاروا إلى عذاب ما لهم حيلة في دفعه.

وهذا الاستفهام لا يحتاج إلى جواب، وكذا أكثر استفهامات القرآن، لأنها من عالم الشهادة، وإنما استفهامه تعالى تقرير وتوبيخ.

{إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ} اللام تأتي بمعنى «في» ويسمونها لام التوقيت، ومنها قوله تعالى: **{رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ}** [آل عمران: ٩] وقوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ}** [الطلاق: ١] أي: في استقبال عدتهن **{لَا رَيْبَ فِيهِ}** لا شك في وقوعه، أي يوم القيامة، وهذا تهويل لشأنهم، واستعظام لما يحيق بهم.

{وَوُفِّيَتْ} يعني أعطيت. ومنه قولهم: وفاه حقه، أي: أعطاه حقه وافياً

{كُلُّ نَفْسٍ} من البشر والجن، يعني من المكلفين الذين أمروا ونهوا، فهم الذين يوفون أجورهم. أما من لم يتوجه إليه أمر ولا نهى، فإنهم يجمعون يوم القيامة، ولكن ليس لهم أعمال يجازون عليها، فلا يشملهم الحساب.

{مَا كَسَبَتْ} من خير أو شر.. الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وأما في الشر فتوفي السيئة بمثلها إن لم يعف الله، أو تكن لها أعمال صالحة تكفر عنها هذه السيئات. فجزاء الله -عز وجل- وتوفيته للأعمال دائر بين الفضل والعدل، فالفضل لأهل الخير، والعدل لأهل السوء.

وفيه أن يوم التوفية الكاملة هو يوم القيامة؛ لقوله: {وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} والإنسان قد يوفى شيئاً من عمله في
الدنيا، كما قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢-٣] مخرجاً من كل ضيق،
وسعة في الرزق، ويرزقه من حيث لا يحتسب، هذا في الدنيا
وهذا جزاء.

وهناك جزاء آخر أعظم وأنفع وهو «الهدى» قال الله تعالى:
{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]؛ لأن
الهدى إذا زاد الله الإنسان منه انشرح صدره واستنار قلبه
واطمأن، وصارت التقوى عنده أسهل من كل شيء، وصارت
الأعمال الصالحة رياض قلبه وسرور نفسه، ولهذا قال رسول الله
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)
[أحمد]، والمؤمن كل الأعمال الصالحة قرة عينه؛ لأنه يشعر في
كل عمل صالح بأمرين عظيمين:

الأمر الأول: أنه يتعبد الله بالعمل الصالح، فيزداد ذلاً لربه
ومحبة له، وإنابة إليه.

الأمر الثاني: أنه بذلك متبع لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-، فهو يشعر حين فعل العبادة أن إمامه محمد، فيزداد

محبة لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتعظيماً لقوله،
وتعظيماً لهديه وسنته. وهذا أعظم كسب؛ أن يحصل لك هذا
الأمر في العبادة والتقوى.

{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} بنقص حسناتهم إن كانت لهم حسنات،
ولا بالزيادة في سيئاتهم وما لهم إلا السيئات. فإن من أوفى غيره
حقه فيما أن يوفيه بالفضل أو بالعدل أو بالجور، والجور -وهو
الظلم- ممتنع على الله؛ لقوله تعالى: **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}**
[الكهف: ٤٩]، **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}** **[فصلت: ٤٦]**، **{وَمَنْ**
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}
[طه: ١١٢]

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: (يَا عِبَادِي إِنِّي
حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا)
[مسلم]

وانتفاء الظلم عن الله سبحانه وتعالى هو من «الصفات
السلبية»، ويكون نفي الظلم لكمال العدل، فنأخذ من هذا
قاعدة مفيدة في باب الصفات، وهي أن: «كل صفة نفاها الله
عن نفسه، فإنما يراد بها ثبوت كمال الضد».

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ
إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

{قُلِ} استئناف ابتدائي المقصود منه التعريض بأهل الكتاب
بأن أعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوة منهم، وانقراض
الملك منهم، بتهديدهم وبإقامة الحجة عليهم في أنه لا عجب
أن تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى العرب، مع الإيماء إلى أن
الشريعة الإسلامية شريعة مقارنة للسلطان والملك.

{اللَّهُمَّ} أصلها يا الله، منادى حذف منه ياء النداء، وعوض
عنها الميم.. فلا خلاف أن لفظة اللهم معناها يا الله.

قال ابن عاشور: و {اللَّهُمَّ} في كلام العرب خاص بنداء الله
تعالى في الدعاء، ومعناه يا الله. ولما كثر حذف حرف النداء معه
قال النحاة: إن الميم عوض من حرف النداء يريدون أن لحاق
الميم باسم الله في هذه الكلمة لَمَّا لم يقع إلا عند إرادة الدعاء
صار غنيا عن جلب حرف النداء اختصاراً وليس المراد أن الميم
تفيد النداء. والظاهر أن الميم علامة تنوين في اللغة المنقول منها

كلمة (اللَّهُمَّ) مِنْ عِبْرَانِيَّةٍ أَوْ قَحْطَانِيَّةٍ وَأَنْ أَصْلَهَا لَا هُمْ مُرَادِفُ إِلَهٍ.

ولهذا لا تستعمل اللهم غالبا إلا في الطلب، فلا يقال: "اللهم غفور رحيم" بل يقال: "اللهم اغفر لي وارحمني".

ويسوغ استعمال هذا اللفظ في موضع لا يكون بعده دعاء. كقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الدعاء: (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك) [الطبراني في الأوسط]

وقوله: (اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك)

وقول النبي في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)

وهنا قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ..}

وقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: ٤٦]

{مَالِكُ الْمُلْكِ} مالك المملوكات كلها خلقا وتدبيراً لا يشاركه في ذلك أحد.

وفيه تعليم الله عز وجل نبيه محمداً أن يفوض الأمر إليه في قوله: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ}**، والخطاب الموجه للرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - موجه لأئمة، إما عن طريق التأسّي، وإما لأنه الإمام، والخطاب للإمام خطاب له وللمن اتبعه، إلا إذا دلّ الدليل على أنه خاص به.

{تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ} جملة استئنافية لبيان كيف يكون ملك الله عز وجل لهذا المملوك.

{تُؤْتِي} أي: تعطي، ولم يقل: تُمَلِّك؛ لأن ما يكون للعبد من المُلْك إنما هو من إعطاء الله تعالى إياه، وتسليطه عليه، ولهذا لا ينبغي أن يتصرف المالك من المخلوقين فيما ملك إلا على حسب الشريعة التي شرعها الله عز وجل.

وكل شيء له سبب إما شرعي، وإما كوني؛ لأن هذا مقتضى حكمة الله سبحانه وتعالى، وإذا كان كذلك فإن إتيان الله الملك لمن يشاء مقيد بسببه، فلا بد أن يكون له سبب. فالملك قد يكون مستقلاً عن الرسالة، وقد يكون تابعاً للرسالة. فإذا كان

مبنيًا على الشريعة صار تابعاً للرسالة، وإذا كان غير مبني على الشريعة كان مستقلاً.

قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}** [البقرة: ٢٥٨] فهذا ملك مستقل عن الرسالة؛ لأن الذي حاج إبراهيم كافر. وأما قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ اللَّهَ زَوْي لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُويَ لِي مِنْهَا) [مسلم] فالمراد بذلك هنا: ملك تابع للرسالة، فالمشيئة هنا كثير من الآيات معلقة بالحكمة لقوله تعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [الإنسان: ٣٠]

قال في البحر المحيط: وقد فسر الملك هنا بالنبوة أيضاً، ولا يتأتى هذا التفسير في: **{تنزع الملك}**، لأن الله لم يؤت النبوة لأحد ثم نزعها منه إلا أن يكون تنزع مجازاً بمعنى: تمنع النبوة ممن تشاء، فيمكن.

قال ابن كثير: وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأُمِّي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقليين

الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطَهَا نبيًا من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل، في العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار.

{وَتَنْزِعُ} تنزيل **{الْمُلْكِ مِمَّنْ تَشَاءُ}** إما نزع بعد ثبوت، وإما نزع بمعنى المنع؛ أي: تُمَلِّكُ من شئت، ولا تملك من شئت.. وتكرار **{الْمُلْكِ}** في الجمل للتفخيم والتعظيم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة "إسحاق بن أحمد" من تاريخه عن المأمون الخليفة: أنه رأى في قَصْرِ بِلَادِ الرُّومِ مكتوباً بِالْحُمَيْرِيَّةِ، فَعُربَ لَهُ، فإذا هو: "باسم الله ما اختلف الليل والنهار، ولا دارت نجوم السماء في الفلك إلا بنقل النعيم عن مَلِكٍ قد زال سلطانه إلى ملك. ومُلْكُ ذِي العرش دائم أبداً ليس بِفَانٍ ولا بِمَشْتَرِكٍ".

{وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} الإعزاز هنا: يعني التقوية، أي: تجعله عزيزاً قوياً غالباً على غيره، وكذلك تذل من تشاء. وهذا عام، قد يعز

الله الإنسان بدينه وعلمه وإيمانه، وإن لم يكن ملكاً، وقد يعزه بملكه. وكذلك في الذل قد يذله بالمعصية، وبالغلبة؛ فالذل بالمعصية في مقابل العز بالإيمان، والذل بالغلبة في مقابل العز بالملك، والذين يعزهم الله هم من ذكرهم الله بقوله: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** [المنافقون: ٨].

فالله يعز الرسل وأتباعهم، كما قال الله تعالى: **{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [المجادلة: ٢١]
ومن أسباب العزة: الإيمان، سواء كان الإنسان ملكاً أم غير ملك. ومن أسباب العزة الاستعداد والحدز والحزم والقوة والنشاط.

ومن أسباب الذل: أن يُعجب الإنسان بنفسه، وأن يتعرض لما لا يمكنه دفعه.

ولهذا جاء في الأثر الذي رواه أحمد والترمذي عن حُذَيْفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ قِيلَ وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ).

{وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} فالله - سبحانه وتعالى - تام الملك والسلطان لكونه يذل من يشاء، ولو بلغ ما بلغ من العزة البشرية،

فإن يد الله فوقه مهما بلغ الإنسان من العز. فالله قادر على إذلاله. ولذلك أمثلة كثيرة منها: قصة فرعون، فإن فرعون طغى وقال: **{أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}** [النازعات: ٢٤]، وافتخر بما عنده من الأنهار، فأهلكه الله بمثل ما افتخر به، فأغرقه بالماء. وعاد استكبروا في الأرض وقالوا: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [فصلت: ١٥]، فأهلكهم الله تعالى بالريح، وهي من ألطف الأشياء، لكنها من أشد الأشياء مع لطافتها، وقال عز من قائل: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}** [فصلت: ١٥].

ويتفرع على هذه الفائدة: أننا متى علمنا أن الإعزاز والإذلال بيد الله، فإننا لا نطلب العزة إلا به عز وجل. ولهذا يقال: «من ابتغى العزة من غير الله فهو ذليل»، ونستجير من الذل بالله تعالى، وفي الحديث الذي رواه أبو داود: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ)

وكذلك يتفرع على هذا: أنه ينبغي للإنسان أن يستعيز بالله دائماً من الذل الحسي والمعنوي؛ لأن الله تعالى هو الذي بيده الإذلال؛ من شاء أذله، ومن شاء أعزه.

{بِيَدِكَ الْخَيْرُ} تمثيل للتصرف في الأمر؛ لأن المتصرف يكون أقوى تصرفه بوضع شيء بيده، ولو كان لا يوضع في اليد.

والخير: كل ما فيه مصلحة ومنفعة للعبد، سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة. فالرزق والصحة والعلم خير، والعمل الصالح أيضاً خير. وهذا كله بيد الله، كما قال تعالى:

{وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣]

وفيه أنه إذا كان الخير بيده، فلا يطلب الخير إلا منه؛ لأنه لا أحد بيده الخير إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يطلب منه الخير.

وهنا قد يقال: لماذا ذكر أن الخير بيده، ولم يذكر الشر، مع أن الخير من الله والشر من الله؟!

قال بعض المفسرين: إن هذا من باب حذف المقابل المعلوم. كقوله: **{وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ}** [النحل: ٨١]. وزعموا أن تقدير الآية: بيده الخير والشر.

ولكن هذا وهُمٌ باطل، وليس المقام مقام حذف واقتصار بل المقام مقام ثناء، والثناء ينبغي فيه البسط والتوسع في الكلام. فالحذف غير مناسب لفظاً، وهو باطل معنى؛ لأن الله لا يضاف إليه الشر، ولا يجوز أن نقول: بيده الشر؛ لأنه ثبت عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) [مسلم] فلا ينسب إلى الله الشر قولاً ولا فعلاً. فالله يقول الحق وهو يهدي

السبيل، ويفعل الخير ولا يفعل الشر، وإذا وجد شر في المفعولات فهو شر من وجه، وخير من وجه آخر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شراً، بل هو خير محض. والشر إنما هو في المفعولات لا في الأفعال.

أما الخير فهو في المفعولات والأفعال، ولهذا ينسب إلى الله فيقال: بيده الخير. فمثلاً السباع فيها شر، والهوام اللاسعة واللاذعة فيها شر بلا شك، والشياطين كلها شر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء خير، والحكمة توجهه؛ لأنه لا يمكن أن تعرف تمام قدرة الله إلا بخلق الأشياء المتضادة، ثم في خلق هذه الأشياء من إصلاح العبد، واللجوء إلى ربه، والاستعاذة به من هذه الأمور الشريرة، خير كثير والخير لا يعرف إلا بضده.

{إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فجاء بهذا العام المندرج تحته الأوصاف السابقة.

فمن قدرتك يا الله تغيير هذه الأشياء العظيمة: إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال، كل هذه أمور عظيمة لا يقوم بها إلا القادر عليها، سبحانه وتعالى.

والآية فيها عموم قدرة الله تعالى؛ فهو قدير على كل شيء، على ما شاء وما لم يشأه. وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس

القدرة بالمشيئة خطأ؛ لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء.

وأما قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى: ٢٩]. فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع؛ يعني: إذا أراد جمعهم، وشاء جمعهم، فهو قدير عليه، لا يعجز عنه.

{تُولِجُ} تدخل {الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}
أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان. وهكذا في فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً.

وهذا الإيلاج من الأفعال التي لا يقدر عليها إلا الله وحده، فلو اجتمعت كل الخلائق على أن يزيدوا ساعة في الليل أو ساعة في النهار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ومع هذا فإن هذا الإيلاج بإيلاج بحكمة بتدرج، يأتي قليلاً قليلاً حتى ينتهي ثم يعود، ولو أن الليل قفز من أقصر الليل إلى أطوله لاختل نظام العالم وفسدت مواقيته، ولكن الله عز وجل يجعله بالتدريج ليعرف الناس أوقاتهم.

وينبني أيضاً على هذا الإيلاج تغير الفصول؛ فإنه إذا طال النهار طال زمن وجود الشمس على سطح الأرض فاحتر الجو، وأيضاً يكون شعاع الشمس عمودياً فيكون أشد تأثيراً في الحرارة مما إذا كان غير عمودي، والعكس بالعكس بالنسبة للشتاء، فيترتب على هذا الإيلاج زمن الفصول الهامة -على اختلافها- لصحة الأجساد ونمو النبات وتنوعه، كما أن هناك أشياء مؤذية، وهي ما يُعبر عنه في علم الطب بالجراثيم، لا يقتلها إلا شدة البرد، وأخرى لا يقتلها إلا شدة الحر.

{وُتُخْرِجُ} معنى الإخراج هنا «التكوين» **{الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ}** والمراد بالحي: الحي حياة «حسية ومعنوية»، وذلك لأن اللفظ صالح للمعنيين، وإذا صلح اللفظ للمعنيين بدون تناف بينهما، فالواجب حمله عليهما.

الحي «حياة حسية» أمثلته كثيرة، فالإنسان مخلوق من نطفة وهي ميتة بالمعنى اللغوي، فصار حياً من ميت. ولهذا قال الله تعالى: **{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [البقرة: ٢٨]

أما المعنوي: يخرج الحي من الميت أي: المؤمن من الكافر؛ لأن المؤمن حي حياة قلبية والكافر ميت، ويخرج الحي

العالم من الميت الجاهل، كما قال تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢] الأول: هو العالم، والثاني: هو الجاهل.. هذه الحياة المعنوية والحسية.

{وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} مثل: البيضة من الدجاجة.. وإخراج الشيء من ضده دليل على أن قدرته تامة وسلطانه نافذ سبحانه وتعالى.

{وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي: من اقتضت حكمتك أن ترزقه، فهو كالتذييل لذلك كله.. أي: تعطي من شئت الرزق، وتقتدر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشیئة والعدل.

والرزق عامة ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام والثمار كقوله: {وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} [آل عمران: ٣٧] وقوله: {فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ} [الكهف: ١٩]، ويطلق على أعم من ذلك مما ينتفع به كما في قوله تعالى: {يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} ثم قال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ

مِنْ نَفَادٍ { [ص: ٥١-٥٤] وقوله: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ} [يونس: ٣١]

واعلم أن رزق الله عز وجل نوعان: رزق به قوام البدن ورزق
به قوام القلب والروح.

أما الأول: فيشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر والمطيع
والفاسق حتى البهائم ويدخل فيه الحرام؛ فالذي لا يأكل ولا
يشرب إلا حراماً، فهو برزق من الله رزق، لكنه رزق يقوم به
البدن.

والثاني: ما يقوم به القلب والروح، وهذا خاص بأهل الإيمان
والعلم، فالعلم والإيمان للقلب بمنزلة الماء للشجرة، لا يمكن
أن تنمو بدونه.

وقال الزمخشري: ذكر قدرته الباهرة، فذكر حال الليل
والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج
أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن
من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن
يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع
الملك من العجم ويؤتيه العرب ويعزهم.

وفيه: الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأنك إذا تأملت الآية هذه لم تجد فيها دعاء أي طلباً، لكن الشاء مما يتوسل به إلى الله. فهنا الشاء يتضمن ما تدل عليه هذه الجملة؛ فإذا قلت: أنت الذي تعز، وأنت الذي تدل؛ فمعنى هذا أو فمقتضى هذا: أنك تسأل الله أن يعزك ولا يذلّك، ولهذا قال الشاعر :

إذا أثنى عليك المرء يوماً ** كفاه من تعرضه الشاء

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا
مِنْهُمْ تَقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْمَصِيرُ (٢٨)
قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْنَ يَغْلَمَ اللَّهُ وَيَعْلَمَ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ
مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

{ لَا يَتَّخِذِ } (اتخذ) تدل على اصطناع الشيء، والركون إليه والالتجاء إليه، والمعنى: لا يختار.

{الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ} وشاع في اصطلاح القرآن إطلاق وصف الكفر على الشرك، والكافرين والذين كفروا على المشركين، ولعل تعليق النهي عن الاتخاذ بالكافرين بهذا المعنى هنا لأن المشركين هم الذين كان بينهم وبين المهاجرين صلوات، وأنساب، ومودات، ومخالطات مالية، فكانوا بمظنة الموالاة مع بعضهم.

{أَوْلِيَاءُ} لأن اتخاذهم أولياء بعد أن سفه الآخرون دينهم وسفوها أحلامهم في اتباعه يعد ضعفا في الدين وتصويبا للمعتدين.

{مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} من غير المؤمنين، كقوله تعالى: **{وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ}** [البقرة: ٢٣] أي: من غير الله. ومعنى اتخاذهم أولياء: اللطف بهم في المعاشرة، وذلك لقربة أو صداقة أو يد سابقة أو غير ذلك، وأما أن يتخذ ذلك بقلبه ونيته فلا يفعل ذلك مؤمن البتة، والمنهون هنا قد قرر لهم الإيمان، فالنهي هنا إنما معناه النهي عن اللطف بهم والميل إليهم، واللطف عام في جميع الأعصار، والمحبة في الله والبغض في الله أصل عظيم من أصول الدين.

وقد تكرر هذا كثيرا في القرآن، فال جل ذكره:

- { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة: ٢٢]

- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل عمران: ١١٨] بطانة: أصفياء تطلعونهم على أسراركم.

- وقال تعالى بعد ذكر موالات المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: ٧٣].

قال ابن عثيمين: "لا ينصروهم، ولا ينتصروا بهم؛ فلا يتولون الكفار، ولا يجعلون الولاية للكفار عليهم. فالنهي عن الأمرين، فإذا كان الأمر في سعة والمؤمنون في قوة، فإنهم لا يجوز لهم

أن يتخذوا من الكفار من ينصرهم؛ لأن الكفار مهما كانوا أعداء المسلمين.

فليس لنا حق أن نستعين بالكفار، إلا إذا دعت الحاجة فلنا أن نتصر بهم بأخذ السلاح، وما أشبه ذلك، بل وبالعهد معهم أيضاً؛ فإن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- استعار من صفوان بن أمية دروعاً فقال له: أغصباً يا محمد؟ قال: (بل عارية مضمونة) [أحمد وأبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية]، فدل هذا على جواز الاستعانة بالمشرك بأخذ سلاحه.

كذلك حالف النبي خزاعة في صلح الحديبية [أحمد وابن ماجه]، والناس في ذلك الوقت ليسوا على قوة فيجوز أيضاً أن يحالف المسلمون الكفار إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأنه قد يكون هذا من مصلحة المسلمين. فإن المسلمين إذا كانوا ضعفاء وتسلب عليهم كفار آخرون، فإذا حالفوا كفاراً أقوياء انتصروا بهم؛ فصار في ذلك مصلحة.

ولكن مع ذلك لا يجوز أن نجعل هذا الانتصار بهم على حساب ديننا؛ يعني أن ندهنهم ونمكنهم من أفعالهم القبيحة في بلادنا، بلاد الإسلام؛ لأن المداينة في دين الله حرام.

وأصل النهي عن ولاية الكفار، هو من أجل أن لا يذل الإسلام بين أيديهم؛ فإذا كان في مثل هذه الأمور مصلحة للمسلمين وقوة صار ذلك جائزاً. هذا بالنسبة للانتصار بهم. أما بالنسبة للانتصار لهم فهذا لا يجوز أبداً. لا يجوز أن ننصر كافراً على مؤمن بأي حال من الأحوال، ولكن هل يجوز أن ننصر كافراً على كافر إذا اقتضت المصلحة ذلك؟

نقول: إن المؤمنين فرحوا حين غلبت الروم الفرس، وهم كفار على كفار؛ كما قال تعالى: **{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ}** [الروم: ٤-٥]. فإذا كان هناك عدو مشترك لنا ولهذه الطائفة من الكفار، ونحن نعلم أننا إن لم ننصر الكفار على هذا الكافر غلبه ثم استأصلنا، فحينئذ يكون عونه للحاجة جائزاً؛ لأننا نعينه لا لذاته، ولكن لمصلحة المسلمين، وهذا كله يعود إلى المصلحة. أما لو رأينا كافراً يطلب منا العون على مسلم، فهذا لا يجوز بأي حال من الأحوال. ولهذا قال: **{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}**، يعني: من سوى المؤمنين؛ يعادون المؤمنين ويوالون الكفار.

وجاءت هذه الآية: **{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ}**. ولم يقل: «لا تتخذوا»؛ لأن الله فرق بين قوله: **{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ}**

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، وبين ما إذا اتخذ المؤمنون الكافرين أولياء لا من دون المؤمنين، فوجه الخطاب إلى المؤمنين مباشرة في الثانية دون الأولى؛ فقال تعالى: {يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ} [المائدة: ٥١]، {يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [المتحنة: ١]. فخاطبهم خطاباً مباشراً.

قال بعض العلماء المعاصرين: إن الله لم يخاطب المؤمنين خطاباً مباشراً؛ لأن هذا أمر مشين. والأمر المشين تكون المخاطبة المباشرة فيه صدمة عظيمة، ولهذا قال الله تعالى لرسوله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ١-٢]، ولم يقل: عبست.

وهذا القول أول ما يطالعه الإنسان يظنه جيداً؛ لكن يشكل على هذا قوله تعالى: {يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء: ١٤٤]، فهنا واجههم بالخطاب مباشرة، مع أنه قال: {مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}.

وعلى هذا فيكون التوجيه الذي ذكره بعض المعاصرين فيه نظر. ونقول: إن الله عبر بصيغة الغائب هنا: {لَا يَتَّخِذْ

الْمُؤْمِنُونَ { دون الخطاب، لبلاغة يعلمها الله عز وجل، قد نعلمها وقد لا نعلمها".

****** وظاهر الآية تقتضي النهي عن موالاتهم إلا ما فسخ لنا فيه من اتخاذهم عبيداً، والاستعانة بهم استعانه العزيز بالذليل، والأرفع بالأوضع، والنكاح فيهم. فهذا كله ضرب من الموالاة أذن لنا فيه، ولسنا ممنوعين منه، فالنهي ليس على عمومته.

****** قال ابن عاشور: والموالاة تكون بالظاهر والباطن وبالظاهر فقط، وتعتورها أحوال تتبعها أحكام، وقد استخلصت من ذلك ثمانية أحوال.

١ / الحالة الأولى: أن يتخذ المسلم جماعة الكفر أو طائفته، أولياء له في باطن أمره، ميلاً إلى كفرهم، ونواء لأهل الإسلام، وهذه الحالة كفر، وهي حال المنافقين، وفي حديث عتب بن مالك: أن قائلاً قال في مجلس رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَشْنِ؟ فقال آخر ذلك منافق لا يحب الله ورسوله فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَقُلْ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ) فقال القائل: الله ورسوله أعلم، فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين. فجعل هذا الرجل الانحياز إلى المنافقين علامة على النفاق لولا شهادة

الرسول لمالك بالإيمان أي في قلبه مع إظهاره بشهادة لا إله إلا الله.

٢ / الحالة الثانية: الركون إلى طوائف الكفر ومظاهرتهم لأجل قرابة ومحبة دون الميل إلى دينهم، في وقت يكون فيه الكفار متجاهرين بعداوة المسلمين، والاستهزاء بهم، وإذاهم كما كان معظم أحوال الكفار عند ظهور الإسلام مع عدم الانقطاع عن مودة المسلمين، وهذه حالة لا توجب كفر صاحبها، إلا أن ارتكابها إثم عظيم، لأن صاحبها يوشك أن يواليهم على مضرة الإسلام، على أنه من الواجب إظهار الحمية للإسلام، والغيرة عليه.

وفي مثلها نزل قوله تعالى: {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ} [المائدة: ٥٧] قال ابن عطية: كانت قريش من المستهزئين. وفي مثل ذلك ورد قوله تعالى: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ} [المتحنة: ٩] الآية وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران: ١١٨] الآية نزلت في قوم كان بينهم وبين اليهود جوار وحلف في الجاهلية،

فداموا عليه في الإسلام فكانوا يأنسون بهم وَيَسْتَتِيْمُونَ إِلَيْهِمْ،
ومنهم أصحاب كعب بن الأشرف، وأبي رافع ابن أبي الحُقَيْق،
وكانا يؤذيان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

٣ / الحالة الثالثة: كذلك، بدون أن يكون طوائف الكفار
متجاهرين ببغض المسلمين ولا بأذاهم، كما كان نصارى العرب
عند ظهور الإسلام، قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} [المائدة: ٨٢] وكذلك كان حال الحبشة
فإنهم حموا المؤمنين وآووهم، قال الفخر: وهذه واسطة، وهي
لا توجب الكفر، إلا أنه منهي عنه، إذ قد يجر إلى استحسان ما
هم عليه وانطلاء مكائدهم على المسلمين.

٤ / الحالة الرابعة: موالاة طائفة من الكفار لأجل الإضرار
بطائفة معينة من المسلمين، مثل: الانتصار بالكفار على جماعة
من المسلمين، وهذه الحالة أحكامها متفاوتة، فقد قال مالك،
في الجاسوس يتجسس للكفار على المسلمين: إنه يوكل إلى
اجتهاد الإمام، وهو الصواب لأن التجسس يختلف المقصد منه
إذ قد يفعله المسلم غرورا، ويفعله طمعا، وقد يكون على سبيل
الفلته، وقد يكون له دأبا وعادة، وقال ابن القاسم: ذلك زندقة لا

توبة فيه، أي لا يستتاب ويقتل كالزنديق، وهو الذي يظهر الإسلام ويسر الكفار، إذا اطلع عليه، وقال ابن وهب: ردة ويستتاب، وهما قولان ضعيفان من جهة النظر.

وقد استعان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بالجلالة على المرابطين اللمتونيين، فيقال: إن فقهاء الأندلس أفتوا أمير المسلمين عليا بن يوسف بن تاشفين، بكفر ابن عباد، فكانت سبب اعتقاله ولم يقتله ولم ينقل أنه استتابه.

٥ / الحالة الخامسة: أن يتخذ المؤمنون طائفة من الكفار أولياء لنصر المسلمين على أعدائهم، في حين إظهار أولئك الكفار محبة المسلمين وعرضهم النصرة لهم، وهذه قد اختلف العلماء في حكمها: ففي المدونة قال ابن القاسم: لا يستعان بالمشركين في القتال لقوله -عليه السلام- لكافر تبعه يوم خروجه إلى بدر: (ارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ)، فعن عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها قالت: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين رأوه فلما أدركه قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله

—صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ—: (تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟) قَالَ: لَا. قَالَ:
(فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ) قَالَتْ ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا
بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ —
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَالَ: (فَارْجِعْ فَلَنْ
أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ) قَالَ ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ
أَوَّلَ مَرَّةٍ: (تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟) قَالَ نَعَمْ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ —
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ—: (فَانْطَلِقْ)

وروى أبو الفرج، وعبد الملك بن حبيب: أن مالكا قال: لا
بأس بالاستعانة بهم عند الحاجة، قال ابن عبد البر: وحديث (لن
أستعين بمشرك) مختلف في سنده!!، وقال جماعة: هو منسوخ،
قال عياض: حمله بعض علمائنا على أنه كان في وقت خاص
واحتج هؤلاء بغزو صفوان بن أمية مع النبي —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ— في حنين، وفي غزوة الطائف، وهو يومئذ غير مسلم،
واحتجوا أيضا بأن النبي —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— لما بلغه أن أبا
سفيان يجمع الجموع ليوم أحد قال لبني النضير من اليهود: (إنا
وأنتم أهل كتاب، وإن لأهل الكتاب على أهل الكتاب النصر،
فإما قاتلتم معنا وإلا أعزتمونا السلاح) وإلى هذا ذهب أبو
حنيفة، والشافعي، والليث، والأوزاعي، ومن أصحابنا من قال: لا

نطلب منهم المعونة، وإذا استأذنونا لا نأذن لهم: لأن الإذن كالطلب، ولكن إذا خرجوا معنا من تلقاء أنفسهم لم نمنعهم، ورام بهذا الوجه التوفيق بين قول ابن القاسم ورواية أبي الفرج، قاله ابن رشد في البيان من كتاب الجهاد، ونقل ابن رشد عن الطحاوي عن أبي حنيفة: أنه أجاز الاستعانة بأهل الكتاب دون المشركين، قال ابن رشد: وهذا لا وجه له، وَعَنْ أَصْبَغِ الْمَنْعِ مطلقاً بلا تأويل.

٦ / الحالة السادسة: أن يتخذ واحد من المسلمين واحداً من الكافرين بعينه ولياً له، في حسن المعاشرة أو لقراءة، لكمال فيه أو نحو ذلك، من غير أن يكون في ذلك إضرار بالمسلمين، وذلك غير ممنوع، فقد قال تعالى في الأبوين: **{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ}** [لقمان: ١٥] واستأذنت أسماء النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بر والدتها وصلتها، وهي كافرة، فقال لها: (صلي أملك) [البخاري] وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}** [الممتحنة: ٨] قيل نزلت في والددة أسماء، وقيل في طوائف من مشركي مكة، وهم: كنانة،

وخزاعة، ومزينة، وبنو الحرث ابن كعب، كانوا يودون انتصار المسلمين على أهل مكة. وعن مالك تجوز تغزية الكافر بمن يموت له. وكان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يرتاح للأخنس بن شريق الثقفي، لما يبيده من محبة النبي، والتردد عليه، وقد نفعهم يوم الطائف إذ صرف بني زُهْرَةَ، وكانوا ثلاثمائة فارس، عن قتال المسلمين، وخنس بهم.

٧ / الحالة السابعة: حالة المعاملات الدنيوية: كالتجارات، والعهود، والمصالحات، أحكامها مختلفة باختلاف الأحوال وتفاصيلها في الفقه.

٨ / الحالة الثامنة: حالة إظهار الموالاة لهم لالتقاء الضر وهذه هي المشار إليها بقوله تعالى: **{إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً}**.

****** وفيه الإشارة إلى أنه يجب أن يتخذ المؤمنون أولياء من المؤمنين، وهذا هو مقتضى الإيمان. قال الله تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [التوبة: ٧١]

{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ} مُنْسَلَخ من ولاية الله تعالى، والله بريء منه، وهذا أمر معقول؛ فإن موالاة الولي وموالاة

عدوّه ضدان.. فهو نفي ولاية الله عن من اتخذ عدوه ولياً، لأن
الولايتين متنافيتان.

{فِي شَيْءٍ} تصريح بعموم النفي في جميع الأحوال لرفع
احتمال تأويل نفي الاتصال بأغلب الأحوال، فالمعنى أن فاعل
ذلك مقطوع عن الانتماء إلى الله.. أي من يرتكب نهى الله في
هذا فقد برئ من الله.

وهذا يدل على المبالغة في ترك الموالاة، إذ نفي عن متوليهم
أن يكون في شيء من الله، وفي الكلام مضاف محذوف أي:
فليس من ولاية الله في شيء. وقيل: من دينه. وقيل: من عبادته.
وقيل: من حربه.

****** وفيه أن اتخاذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب.

{إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا} التفات، لأنه خرج من الغيبة إلى الخطاب،
ولو جاء على نظم الأول لكان: "إلا أن يتقوا منهم تقاة"، وهذا
النوع في غاية الفصاحة، لأنه لما كان المؤمنون نهوا عن فعل ما
لا يجوز، جعل ذلك في اسم غائب، فلم يواجهوا بالنهي، ولما
وقعت المسامحة والإذن في بعض ذلك وجهوا بذلك إيذاناً
بلطف الله بهم، وتشريفاً بخطابه إياهم.

{ مِنْهُمْ تُقَاةٌ } الاتقاء: تجنب المكروه، والمعنى: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتيقهم بظاهرة لا بباطنه ونيتته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: "إِنَّا لَنَكْشُرُ [أي نضحك ونبتسم] فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ".

والمعنى لا يتخذوا كافراً ولياً في شيء من الأشياء إلا لسبب التقية، فيجوز إظهار الموالاتة باللفظ والفعل دون ما ينعقد عليه القلب والضمير، ولذلك قال ابن عباس: التقية المشار إليها مداراة ظاهرة. وقال: يكون مع الكفار أو بين أظهرهم، فيتيقهم بلسانه، ولا مودة لهم في قلبه.

وقال قتادة: إذا كان الكفار غالبين، أو يكون المؤمنون في قوم كفار فيخافونهم، فلهم أن يحالفوهم ويداروهم دفعاً للشر وقلوبهم مطمئن بالإيمان.

وقال صعصعة بن صوحان لأسامة بن زيد: خالق المؤمن وخالق الكافر، إن الكافر يرضى منك بالخلق الحسن.

وقال الصادق: التقية واجبة، إني لأسمع الرجل في المسجد يشتمني فاستتر منه بالسارية لئلا يراني. وقال: الرياء مع المؤمن شرك، ومع المنافق عبادة.

قال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

قال ابن الخطيب: "وهذا القول أولى؛ لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان".

وقال أصحاب أبي حنيفة: التقية رخصة من الله تعالى، وتركها أفضل، فلو أكره على الكفر فلم يفعل حتى قتل فهو أفضل ممن أظهر، وكذلك كل أمر فيه إعزاز الدين فالإقدام عليه حتى يقتل أفضل من الأخذ بالرخصة.

وقال أحمد بن حنبل، وقد قيل له: إن عرضت على السيف تجيب؟ قال: لا.

وقال: إذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟ والذي نقل إلينا خلفاً عن سلف أن الصحابة، وتابعيهم، بذلوا أنفسهم في ذات الله، وأنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا سطوة جبار ظالم.

وقال الرازي: إنما تجوز التقية فيما يتعلق بإظهار الحق والدين، وأما ما يرجع ضرورة إلى الغير: كالقتل، والزنا، وغصب الأموال، والشهادة بالزور، وقذف المحصنات، وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فغير جائز البتة.

وظاهر الآية يدل على أنها مع الكفار الغالبين، إلا أن مذهب الشافعي: أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحال بين المشركين جازت التقية محاماة عن النفس، وهي جائزة لصون النفس والمال.

**** ومجمل أحكام التَّقِيَّة:**

١ / تجوز إذا كان الرجل في قوم كفارٍ، ويخاف منهم على نفسه، وماله، فيداريهم باللسان، بأن لا يُظْهِرَ العداوة باللسان، بل يجوز له أن يُظْهِرَ الكلامَ الموهَمَ للمحبة والموالاة، بشرط أن يضمّر خلافه، وأن يُعَرِّضَ في كُلِّ ما يقول؛ فإن التقية تأثيرها في الظاهر، لا في أحوال القلوب، ولو أفصح بالإيمان - حيث يجوز له التقية - كان أفضل؛ لقصة مسيلمة.

٢ / تجوز فيما يتعلق بدفع الضرر عن نفسه، أما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل، والزنا، وغصب الأموال، والشهادة بالزور، وقذف المحصنات، وإطلاع الكفار على عورات المسلمين، فلا تجوز البتة.

٣ / تحل التقية مع الكفار الغالبين، وقال بعض العلماء: إنها تحل مع المسلمين إذا شاكلت حالهم حال المشركين؛ محاماةً على النفس.

وهل هي جائزة لصَوْن المال؟ يُحْتَمَل أن يُحْكَم فيها بالجواز؛
لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ
فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ) [أحمد]، وقوله -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)
[الترمذي]، ولأن الحاجة إلى المال شديدة، والماء إذا بيع
بالغبن سقط فرضُ الوضوء، وجاز الاقتصار على التيمم؛ دفعاً
لذلك القدر من نقصان المال، فهاهنا أولى.

** وهذه التقية مثل الحال التي كان عليها المستضعفون من
المؤمنين الذين لم يجدوا سبيلاً للهجرة، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ
أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦] ومثل الحالة التي
لقبها مسلموا الأندلس حين أكرههم النصارى على الكفر
فتظاهروا به إلى أن تمكنت طوائف منهم من الفرار، وطوائف من
استئذان الكفار في الهجرة إلى بلاد الإسلام فأذن لهم العدو،
وكذلك يجب أن تكون الثقة غير دائمة لأنها إذا طالت دخل
الكفر في الذراري.

** قيل: وفي الآية دلالة على أنه لا ولاية لكافر على مسلم
في شيء، فإذا كان له ابن صغير مسلم بإسلام أمه فلا ولاية له
عليه في تصرف ولا تزوج ولا غيره.

****** وقيل: وفيها دلالة على أن الذمي لا يعقل جناية المسلم، وكذلك المسلم لا يعقل جنايته، لأن ذلك من الموالاة والنصرة والمعونة.

{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} بطشه ونقمته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه.

والفائدة في ذكر النفس: أنه لو قال: "ويحذركم الله"، فهذا لا يُفيد أن الذي أريد التحذير منه هو عقاب يصدر من الله تعالى أو من غيره، فلما ذُكر النفس زالت هذه الأشياء، ومعلوم أن العقاب الصادر عنه، يكون أعظم أنواع العقاب؛ لكونه قادراً على ما لا نهاية له، وأنه لا قُدرة لأحد على دَفْعِهِ وَمَنْعِهِ مما أراد.

{وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} صيرورتكم ورجوعكم، فيجازيكم إن ارتكبتم موالاتهم بعد النهي. وفي ذلك تهديد ووعيد شديد، أكد به صريح التهديد الذي قبله.

وعن عمرو بن ميمون بن مِهْران قال: قام فينا معاذ ابن جبل فقال: "يا بني أود، إني رسول رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار".

{قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ} والذي في الصدور هو ما تكنه القلوب، وجعله في الصدور لأن القلوب في الصدور، كما

قال الله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦].

{أَوْ تُبْذَوْهُ} زيادة أفادت تعميم العلم، تعليماً لهم بسعة علم الله تعالى لأن مقام إثبات صفات الله تعالى يقتضي الإيضاح.

{يَعْلَمُهُ اللَّهُ} انتقال من التحذير المجمل إلى ضرب من ضروب تفصيله، وهو إشعار لمحذر باطلاع الله على ما يخفونه من الأمر.

والمفهوم أن الباري تعالى مطلع على ما في الضمائر، لا يتفاوت علمه تعالى بخفاياها، وهو مرتب على ما فيها الثواب والعقاب إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي ذلك تأكيد لعدم المبالاة، وتحذير من ذلك.

وهو سبحانه وتعالى عالم به قبل أن تخلق الصدور وما فيها، ولكن يعلمه أيضاً بعد أن يقع في الصدور علم وقوع، وأما علمه السابق فهو علم بما سيكون. وأما بعد وقوع الشيء فهو علم بالشيء بعد كونه

فلله سبحانه وتعالى فيما يكون بالنسبة للعلم اعتباران:

الاعتبار الأول : باعتبار ما سيكون.

والاعتبار الثاني باعتبار ما كان.

وبهذا التقرير يزول الإشكال الذي يرد على النفس، ويورده
كثير من الناس، في مثل قوله تعالى: **{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ**
الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد: ٣١].

فيقول: أليس الله عز وجل قد علم المجاهدين والصابرين من
غيرهم في الأزل؟

فالجواب: بلى؛ لكن علمه في الأزل علم بما سيكون وعلمه
بعد كون الشيء علم به كائناً، وفرق بين الأمرين. هذا من وجه.
ومن وجه آخر: أن علمه الأزلي لا يترتب عليه عقاب ولا
ثواب، وعلمه بالشيء بعد كونه هو الذي يترتب عليه الثواب
والعقاب؛ فيكون معنى: **{حَتَّى نَعْلَمَ}** أي: علماً يترتب عليه
الثواب والعقاب.

****** وفيه التحذير من أن يُسَرَّ الإنسان في نفسه ما لا يرضي
الله عز وجل؛ لأن الله إنما أخبرنا عن علمه بذلك تحذيراً لنا من
أن نخفي في صدورنا ما لا يرضى.

{وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} ما: من الأسماء
الموصولة، وكل اسم موصول فإنه يفيد العموم، سواء كان من
صيغ الجمع كالذين واللائي، أو من صيغ المفرد كالذي والتي،

أو من الصيغ المشتركة ك (ما)، و (من) وعليه فجميع الأسماء الموصولة بأصنافها الثلاثة كلها تفيد العموم.

ألم تروا إلى قوله تعالى: **{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}** [الزمر: ٣٣]، أين الخبر: **{أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**؛ فجعل الخبر جمعاً، مع أن المبتدأ مفرد؛ لأنه مفرد في اللفظ، لكنه عام في المعنى. فكل ما في السموات فهو معلوم الله عز وجل، وكل ما في الأرض فهو معلوم الله عز وجل، بعلمه الأزلي القديم.

وهذا دليل على سعة علمه سبحانه، وذكر عموم بعد خصوص، فصار علمه بما في صدورهم مذكوراً مرتين على سبيل التوكيد وقوة التذييل، أحدهما: بالخصوص، والآخر: بالعموم، إذ هم ممن في الأرض.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ختم الآية ببيان عموم قدرته إشارة إلى أن الله تعالى قد وسع كل شيء علماً وقدره، وأنه قادر على الانتقام منكم فيما إذا أخفيتهم ما لا يرضاه، ولكنه لحكمته قد يؤخر الانتقام.

****** وفيه تحذير مما يترتب على علمه تعالى بأحوالهم من المجازاة على ما أكتته صدورهم. وهو تمام التحذير؛ لأنه إذا

كان قادراً على جميع المقدورات كان - لا محالة - قادراً على إيصال حق كل أحد إليه، فيكون هذا تمام الوعد، والوعد، والترغيب، والترهيب.

قال الزمخشري: "وهذا بيان لقوله {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} لأن نفسه - وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات - متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى، فلا يجسر أحد على قبيح، ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة، فلاحق به العذاب".

وقال ابن عاشور: "إعلام بأنه مع العلم ذو قدرة على كل شيء، وهذا من التهديد؛ إذ المهدد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلما أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أن الله لا يفلتهم من عقابه.

وإظهار اسم الله دون ضميره فلم يقل: "وهو على كل شيء قدير": لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل، والجملة لها معنى التذييل".

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ} كما قال تعالى: **{يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}** [القيامة: ١٣]

{تَوَدُّ} الود: خالص المحبة، أي: تحب محبة شديدة **{لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}** كما يقول لشيطانه الذي كان مقترنا به في الدنيا، وهو الذي جرّاه على فعل السوء: **{يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}** [الزخرف: ٣٨].

{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} كرر التحذير للتوكيد والتحريض على الخوف من الله بحيث يكونون ممتثلي أمره ونهيه.

ويجوز أن يكون الأول تحذيرا من موالة الكافرين، والثاني تحذيرا من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضرا. والخطاب للمؤمنين ولذلك سمي الموعظة تحذيرا: لِأَنَّ الْمُحَذَّرَ لَا يَكُونُ مُتَلَبِّسًا بِالْوُقُوعِ فِي الْخَطَرِ، فَإِنَّ التَّحْذِيرَ تَبْعِيدٌ مِنَ الْوُقُوعِ وَلَيْسَ انْتِشَالًا بَعْدَ الْوُقُوعِ.

{وَاللَّهُ رَءُوفٌ} على وزن فعول المقتضي للمبالغة والتكثير **{بِالْعِبَادِ}** والتعريف في العباد للاستغراق: لأن رأفة الله شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم، فقال تعالى **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}** [فاطر: ٤٥]، وقال:

{اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} [الشورى: ١٩] وما وعيدهم إلا لجلب صلاحهم، وما تنفيذه بعد فوات المقصود منه إلا لصدق كلماته، وانتظام حكمته سبحانه.

ولما ذكر صفة التخويف وكررها، كان ذلك مزعجاً للقلوب، ومنبهاً على إيقاع المحذور مع ما قرن بذلك من اطلاعه على خفايا الأعمال وإحضاره لها يوم الحساب، وهذا هو الاتصاف بالعلم والقدرة اللذين يجب أن يحذر لأجلهما، فذكر صفة الرحمة ليطمع في إحسانه، وليبسط الرجاء في أفضاله، فيكون ذلك من باب ما إذا ذكر ما يدل على شدة الأمر، ذكر ما يدل على سعة الرحمة، كقوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}** [الأعراف: ١٦٧]

وجاء المحكوم به على وزن فعول المقتضي للمبالغة والتكثير، وجاء بأخص ألفاظ الرحمة وهو: رؤوف، وجاء متعلقه عاماً **{بِالْعِبَادِ}** ليشمل المخاطب وغيره، وبلغظ العباد ليدل على الإحسان التام، لأن المالك محسن لعبده وناظر له أحسن نظر، إذ هو ملكه.

وقيل: يحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير، أي: إن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد،

لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروا دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه.

وعن الحسن: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه، وقال الحوفي: جعل تحذيرهم نفسه إياه، وتخويفهم عقابه رافة بهم، ولم يجعلهم في عمى من أمرهم.

والكلام محتمل لذلك، لكن الأظهر الأول، وهو أن يكون ابتداء إعلامه بهذه الصفة على سبيل التأنيس والإطماع لئلا يفرط الوعيد على قلب المؤمن.

** وفيه أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه بالنسبة إلى ربه أنه «عبد»، والعبد يجب أن يكون منقاداً لأمر الرب، وأن يكون ذليلاً له سبحانه وتعالى شرعاً كما أنه ذليل له قدراً. فكل الناس أذلاء الله قدراً، لا يستطيعون أن يخالفوا قَدْرَهُ. وأكبر واحد في الدنيا، وأشدّهم عتواً، يمرض ويموت، وهذا خضوع للربوبية القدرية. لكن من ليس بمؤمن ليس بخاضع للربوبية الشرعية.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

{قُلْ} الخطاب في الآية للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
إذا وجه إليه بـ «قل» في القرآن فهو دليل على العناية بهذا القول
الذي أمر أن يقوله؛ لأن هذا أمر بالتبليغ الخاص لهذا القول. أما
القرآن كله فقد أمر أن يقوله كله لكن بعض الأشياء يُخص بـ
«قل» مثل: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠] {وَقُلْ
لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النور: ٣١]، {قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]... وما
أشبه ذلك، فهذا أمر بتبليغ هذا الشيء الخاص بعينه فيكون في
ذلك تأكيد ودليل على العناية به، وهذه لا شك يجب الاعتناء
بها.

{إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} لكمال ذاته وإنعامه عليكم.. والشعور
بالحسن الموجب للمحبة يستمد من الحواس في إدراك
المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال، ويستمد أيضا من التفكير في
الكمالات المستدل عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة،

ولذلك يحب المؤمنون الله تعالى، ويحبون النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، تعظيماً للكمالات، واعتقاداً بأنهما يدعوانهم إلى الخير، ويحب الناس أهل الفضل الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين، ويحبون سعة الخير من الحاضرين وهم لم يلقوهم ولا رأوهم.

وقد اختلف المتقدمون في أن المحبة والجمال هل يقصران على المحسوسات: فالذين قصرهما على المحسوسات لم يثبتوا غير «المحبة المادية»، والذين لم يقصرهما عليها أثبتوا «المحبة الرمزية»، أعني المتعلقة بالأكوان غير المحسوسة كمحبة العبد لله تعالى، وهذا هو الحق، وقال به من المتقدمين أفلاطون، ومن المسلمين الغزالي وفخر الدين الرازي، وقد أضيفت هذه المحبة إلى أفلاطون، ف قيل «حب أفلاطوني»: لأنه بحث عنها وعللها، فإننا نسمع بصفات مشاهير الرجال مثل الرسل وأهل الخير والذين نفَعوا الناس، والذين اتصفوا بمحامد الصفات كالعلم والكرم والعدل، فنجد من أنفسنا ميلاً إلى ذكرهم ثم يقوى ذلك الميل حتى يصير محبة منا إياهم مع أننا ما عرفناهم، ألا ترى أن مزاولة كتب الحديث والسيرة مما يقوى محبة المزاوِل في الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكذلك صفات الخالق تعالى، لما كانت كلها كمالات وإحساناً إلينا

وإصلاحاً لفسادنا، أكسبنا اعتقادها إجلالاً لموصوفها، ثم يذهب ذلك الإجلال يقوى إلى أن يصير محبة.

{فَاتَّبِعُونِي} عقيدة وقولاً، وفعلاً وتركاً، في المنشط والمكره. فرتب تعالى على محبتهم له اتباع رسوله محبته لهم، وذلك أن الطريق الموصل إلى رضاه تعالى إنما هو استفاد من نبيه، فإنه هو المبين عن الله، إذ لا يهتدي العقل إلى معرفة أحكام الله في العبادات ولا في غيرها، بل رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو الموضح لذلك، فكان اتباعه فيما أتى به احتماؤه لمن يحب أن يعمل بطاعة الله تعالى.

ومن آثار المحبة تطلب القرب من المحبوب والاتصال به واجتناب فراقه. ومن آثارها محبة ما يسره ويرضيه، واجتناب ما يغضبه، فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى لأن الرسول دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه، وذلك كمال المحبة.

{يُحِبُّكُمْ} هذه فك إدغامها، ولذلك ظهر السكون فيها، وفي غير القرآن لو قيل: "يحبكم الله" لكان صحيحاً؛ لأن الإدغام هنا وفكه يجوز.

{اللَّهُ} إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبه لكم منتفية.

{يُحِبُّكُمْ اللَّهُ} فيحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبه إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: "ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ".

وعلى النقيض قوله تعالى: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ}** [المائدة: ١٨]

****** صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبه جل وعلا ذلك المتبع، وذلك يدل على أن طاعة رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هي عين طاعته تعالى، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى: **{مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}** [٤/٨٠]، وقال تعالى: **{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}** [٧/٥٩].

****** هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع

أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدُّ) [مسلم]

** وهي تسمى «آية المحنة» يعني: آية الاختبار والامتحان؛ وذلك أن قوماً ادعوا أنهم يحبون الله، فأمر الله نبيه أن يتحداهم بهذا الميزان.

قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}.

وقال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}.

وقال الحسن البصري: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية.

وقال الزمخشري: "أراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل، فمن ادّعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه". ثم ذكر من يذكر محبة الله، ويصفق بيديه مع ذكرها، ويطرب وينعر ويصفق، وقبح من فعله هذا.

** يقول ابن القيم: فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره، فأصل

العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه كما يجب أنبياءه ورسوله وملائكته وأوليائه، فمحبتنا لهم من تمام محبته وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علما عليها وشاهدا لمن ادعاه، فقال تعالى: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}** فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحقيقه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

**** وفيه أن محبة العبد للرب تعالى واجب وإيمان لقول الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما).**

**** وفيه أنه كلما قوي اتباع الإنسان للرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان هذا**

برهاناً على صدق محبته الله، فهذه من علامة محبة الإنسان لربه، فإذا رأيت الإنسان شديد الاتباع للسنة فاعلم أنه شديد المحبة الله.

**** وفيه: إثبات المحبة بين العبد والرب من الجانبين؛ وهي محبة حقيقية خلافاً لمن**

أولها. قال: {تحبون الله}: أي تحبون ثوابه، {يحبكم الله}: أي يشيكم الله، فإن هذا تحريف. وسبب هذا التحريف القاعدة الباطلة للسمع والعقل؛ وهي تحكيم العقل فيما يثبت وينفي عن الله عز وجل.

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أي كل ما عملتم من الذنوب يغفرها لكم، فيغفر وإن لم يستغفر الإنسان منه؛ لأن حسنة الاتباع تمحو هذا الذنب ومحبة الله للإنسان توجب عدم عقوبته. أو يغفر بأن ييسر لكم أسباب المغفرة بأن يعود من معصية الله إلى طاعته.

**** وفيه: كمال إحسان الله سبحانه وتعالى لجزائه على العمل أكثر منه؛ لأن الذي يتبع الرسول يحصل له محبة الله ومغفرة الذنوب.**

**** وفيه أنه ينبغي للإنسان أن يجيب غيره بما هو أكثر من سؤاله إذا دعت إليه الحاجة؛ لأنه لم يقل: فاتبعوني تحبوا الله، بل قال: يحببكم، ولا أحد يحبه الله إلا وهو يحب الله، لأنك إذا أحببت الله عملت فأحبك الله. فلهذا أتى بالثمرة المهمة وهي محبة الله للعبد.**

{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} الجملة اسمية اشتملت على ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى: الله، والغفور، والرحيم.

فأما معنى «الله» المألوه أي المعبود حبا وتعظيماً، وأن أصل (الله) الإله، فحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

وأما «الغفور»: يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون صفة مشبهة والمعنيان لا يتنافيان فتكون صفة مشبهة وصيغة مبالغة، صفة مشبهة؛ لأن الله لم يزل ولا يزال غفوراً، وصيغة مبالغة لكثرة من يغفر له، وكثرة ما يغفره من الذنوب.

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست مجرد الستر لوجهين: لغوي وسمعي.

أما اللغوي: فلأن المغفرة مأخوذة من المغفر الذي يستر به
المقاتل رأسه ويتقي به السهام، والمغفر جامع للستر والوقاية.
وأما السمعى فلما ورد في كيفية محاسبة الله لعبده المؤمن أنه
يخلو به ويقرره بذنوبه، فيقول: (فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا
وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ) [مسلم]

وأما «الرحيم»: فهو ذو الرحمة، وهو صالح أيضاً لأن يكون
صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، والرحمة: صفة تقتضي العطف
والإحسان على المرحوم، والجمع بينهما، بين الغفور والرحيم
لفائدة عظيمة: وهي الجمع بين الوقاية والعناية، بين الوقاية
بالمغفرة يقيك الله سبحانه وتعالى شر الذنوب، والعناية بالرحمة
يعتني الله بك فييسرك ليسرى ويجنبك العسرى.

{قُلْ أَطِيعُوا} الطاعة هي عبارة عن الانقياد والموافقة سواء
كانت في فعل أو في ترك؛ فإن كانت أمراً فالطاعة فعل المأمور
به، وإن كانت نهياً فالطاعة اجتناب المنهي عنه.

{اللَّهُ وَالرَّسُولُ} توكيد لقوله: **{فَاتَّبِعُونِي}**، وأمر لكل أحد من
خاص وعام.

وأتى بالواو الدالة على التشريك لأن طاعة الرسول -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما يأمر به من الشريعة من طاعة الله، وأما

فيما لا يأمر به من الشريعة فلا شك أنه أعظم الناس حقاً علينا. ولكن قد يشير بالشيء أو قد يشفع بالشيء ولا يلزم طاعته في الشفاعة، كما في قصة بريرة.

ونظيراً هذا قوله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}** [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: "ثم" رسوله؛ لأن هذا إتيان شرعي لا قدري؛ لأن الأمور القدريّة لا يمكن أن يشرك فيها الرسول مع الله بـ "الواو".

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} أعرضوا عن الإيمان والطاعة.

{فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} والمعنى: فإن أعرضوا عن الطاعة ولم يمتثلوا لها ولم ينقادوا، وهذا كفر منهم، ولكنه قد يكون مخرجاً من الإسلام وقد لا يكون مخرجاً، فإن كان كفراً مطلقاً بكل ما أمروا به فهو كفر مخرج عن الإسلام، وإن كان كفراً مقيداً ببعض الأوامر فهو كفر دون كفر لا يخرج من الإسلام، والميزان في ذلك النصوص، فما دلت النصوص على أنه كفر كان التولي عنه كفراً مخرجاً عن الملة، وما دلت النصوص على أنه معصية فهو كفر لا يخرج من الملة.

واعلم أن ترك امتثال الطاعة إن كان سببه كراهة ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- فهذا كفر مخرج عن الملة كما

قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ} [محمد: ٩]، وإن كان تكاسلاً وكراهة لهذا العمل نفسه لا لأن الرسول جاء به، فهذا لا يخرج من الملة، وهذه مسألة يجب التفطن لها.

فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقليين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته.

وقوله: {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} هو إظهار في محل الإضمار. ومقتضى السياق أن يقال: "فإن تولوا فإن الله لا يحبهم"، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لفائدتين: إحداهما «لفظية»، والثانية: «معنوية». والمعنوية تتضمن ثلاث فوائد.

الفائدة اللفظية: مراعاة الفواصل أي فواصل الآيات، فإن قال: "فإن تولوا فإن الله لا يحبهم" لم تتناسب هذه الفاصلة مع الفواصل التي قبلها وبعدها، ومراعاة الفواصل من البلاغة ألم تروا إلى قوله تعالى من سورة طه: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}

[طه: ٧٠]، مع أنه في الآية الأخرى يقدم موسى، وموسى أفضل من هارون لا شك، وأحق بالتقديم، لكنه قدم هارون على موسى في هذه الآية من سورة طه من أجل مراعاة الفواصل، ولا شك أن القرآن في قمة البلاغة فمراعاة الفواصل من البلاغة.

أما الفائدة المعنوية: فقولهُ: {لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} إظهار في موضع الإضمار، وله ثلاث فوائد معنوية:

١ / التسجيل على هؤلاء بالكفر؛ يعني الحكم عليهم بأنهم كفار، ولو قال: "فإنه لا يحبهم" لم تحصل هذه الفائدة أنهم كفار.

٢ / التعميم، بحيث تكون محبة الله منتفية عن كل كافر، ولو قال: لا يحبهم لاختص نفي المحبة بهؤلاء فقط.

٣ / التعليل، وذلك لأن الحكم إذا عُلّق بوصف دل على عليّة ذلك الوصف فيه، فإذا قلت: أكرم المجتهد، أي: لاجتهاده، فدل ذلك على أن الاجتهاد هو العلة.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا

فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا
 مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
 (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
 وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ
 عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

{إِنَّ} للتوكيد {اللَّهُ اصْطَفَى} لما قدم قبل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ
 تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١] ويليه {قُلْ
 أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [آل عمران: ٣٢] وختمها {إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} ذكر المصطفين الذين يجب اتباعهم،
 فبدأ أولاً بآدم أولهم وجوداً وأصلهم، وثنى بنوح عليه السلام إذ
 هو «آدم الأصغر» ليس أحد على وجه الأرض إلا من نسله، ثم
 أتى ثالثاً بآل إبراهيم، فاندرج فيهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ-، المأمور باتباعه وطاعته، وموسى عليه السلام، ثم أتى
 رابعاً بآل عمران، فاندرج في آل: مريم وعيسى عليهما السلام،
 ونص على آل إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلى آل عمران

لخصوصية النصارى بهم، فذكر تعالى جعل هؤلاء صفوة، أي مختارين نقاوة. والمعنى أنه نقاهم من الكدر. وهذا من تمثيل المعلوم بالمحسوس.

{آدم} واصطفاء آدم بوجوه: فهو أبو البشر، خلقه الله تعالى بيده خلقاً مستقلاً، وجعله خليفة في الأرض، وإسجاد الملائكة له، واسكانه جنته، إلى غير ذلك مما شرفه به.

وآدم أبو البشر، خلقه الله تعالى خلقاً مستقلاً وليس متطوراً من جنس آخر أو من نوع آخر قبله كما يقول أهل الإلحاد. ومن ادعى ذلك فقد كفر بالله؛ لأن الله تعالى أخبر في كتابه في عدة مواضع أن الله خلق آدم من تراب، من صلصال كالفخار، من طين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. فمن زعم غير ذلك فهو كافر مصدق لغير الله مكذب الله –والعياذ بالله– مع العلم بأنه لن يأتي أحد بكلام عن آدم وابتداء خلقه وكيفية خلقه غير مستند في ذلك إلى الوحي فإن قوله غير مقبول، لأنه لم يشاهده، قال الله تعالى: **{مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ}** [الكهف: ٥١]، وقال الله تعالى: **{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ}** [إبراهيم: ٩]، فمن ادعى

علم شيء ممن سبق فهو كاذب إلا برهان، وآدم كما نعلم بيننا وبينه أزمته طويلة جدا، فلا يمكن أن نقبل قولاً فيه إلا عن طريق الوحي الصحيح.

وظاهر القرآن أن الله أسماه بهذا الاسم من قبل خروجه من جنة عدن، وقيل: سُمي آدم لأدمته، يعني لونه ليس الأبيض الشاهق ولا الأسود الحالك، لكنه بين ذلك، وخلق الله عز وجل على صورته -أي على صورة الله عز وجل- تكريماً له، ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا)

وفي الأدب المفرد للبخاري ومسند أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، وَلَا يَقُلْ: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ، وَوَجْهَهُ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)

[حسنه الألباني]

وفي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ).

ولا يلزم من كونه على صورة الله أن يكون مماثلاً له؛ لأن الله تعالى يقول: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: ١١]، فعلينا أن نؤمن بالنصوص كلها، نؤمن بأنه خلقه على صورته، ونؤمن بأنه ليس كمثله.

فإن قلت: كيف يكون على صورته وليس مثله؟

فالجواب: يمكن هذا في المخلوق فما بالك في الخالق فلقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) [البخاري].

ومن المعلوم أنه لا يلزم التماثل؛ يعني ليس صورتهم كصورة البدر تماماً، بل من حيث الجمال والبهاء والنور كالقمر ليلة البدر. ثم إن القرآن والسنة لا يكذب بعضهما بعضاً.

وآدم عليه الصلاة والسلام أوحى إليه كما في القرآن الكريم. ولا شك أنه أوحى إليه أيضاً من الناحية العقلية، وذلك لأنه لا يستقل بعبادة الله؛ أي لا يمكن أن يعرف كيف يعبد الله إلا بوحي من الله وهو مخلوق للعبادة.

فدل السمع والعقل على أنه موحى إليه، ولكن هل كان رسولاً؟ لا، ليس برسول بدلالة الكتاب والسنة. أما الكتاب ففي قوله تعالى: **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ**

بَعْدِهِ { [النساء: ١٦٣] ، فجعل النبيين من بعد نوح. وقال تعالى:
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}
[الحديد: ٢٦] ، وفي الحديث الصحيح -حديث الشفاعة
الطويل-: أن الناس يأتون إلى نوح ويقولون له: (أنت أول رسول
بعثه الله إلى أهل الأرض)

وعليه فآدم نبي أوحى إليه بشرع وتعبد الله به، وبقي الناس
على هذا الشرع لأنهم قلة، ولم يحصل منهم اختلاف، فلما
اختلفوا بعث الله النبيين كما قال تعالى: **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**
فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: ٢١٣]

{وَنُوحًا} ذكره الله عز وجل بعد ذكر آدم؛ لأنه الأب الثاني
للبشرية، فإن نوحاً لما كذبه قومه إلا القليل أهلكهم الله تعالى
بالغرق، فجعل الله ذريته هم الباقيين كما في سورة الصافات:
{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} [الصافات: ٧٧] ، فصار الأب الثاني
للبشرية.

واصطفاء نوح عليه السلام بأشياء، منها: قولهم أنه أول
رسول بعث إلى أهل الأرض بتحريم البنات والأخوات والعمات

والخالات وسائر ذوي المحارم، وأنه أب الناس بعد آدم وغير ذلك.

{وَالْ} الآل: رهط الرجل وقرابته **{إِبْرَاهِيمَ}** أبناؤه وحفيده وأسابطه، والمقصود تفضيل فريق منهم، واصطفاء آل إبراهيم - عليه السلام - بأن جعل فيهم النبوة والكتاب.

{وَالْ عِمْرَانَ} هو عمران بن ماثان، وكان من أحبار اليهود، وصالحهم، وأصله بالعبرانية عمرام بميم في آخره. أبو مريم البتول أم عيسى عليه السلام، وهو من نسل هارون أخي موسى، وقيل من ولد سليمان بن داود. وليس المراد هنا عمران والد موسى وهارون.

{عَلَى الْعَالَمِينَ} ضمنه معنى فضل، فعدها بـ «على». ولو لم يضمه معنى فضل لعدى بـ «من». قيل: والمعنى على عالمي زمانهم.

{ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} بعضها من بعض في الآداب والأخلاق والديانات.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ختمها بالسمع والعلم إشارة إلى أن كل ما يقوله هؤلاء المصطفون أو يفعلونه فإنه معلوم عند الله، فهو يسمع ما يقولون، ويعلم ما يفعلون، بل هو يعلم ما لا يفعلون مما

يكون في قلوبهم، بل يعلم ما سيفعلونه وإن لم يكن في قلوبهم؛
لأن الله يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون.

وقال ابن عاشور: والغرض من ذكر هؤلاء تذكير اليهود
والنصارى بشدة انتساب أنبيائهم إلى النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فما كان ينبغي أن يجعلوا موجب القرابة موجب
عداوة وتفريق. ومن هنا ظهر موقع قوله: **{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** أي
سميع بأقوال بعضكم في بعض هذه الذرية: كقول اليهود في
عيسى وأمه، وتكذيبهم وتكذيب اليهود والنصارى لمحمد -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

**** وفيه: أن التفاضل كما يكون في الأعمال يكون في**
الأعيان، وكما يكون في الأعمال والأوصاف يكون كذلك في
الأشخاص، ولهذا نقول: إن جنس العرب أفضل من غيرهم من
الأجناس، لكن هذا الجنس الفاضل إذا اجتمع معه التقوى صار
له الفضل المطلق، وإن تخلفت التقوى صار معدنه طيباً وعمله
خبيثاً؛ فيزداد خبيثاً لكون أصله طيباً ثم ارتد بنفسه إلى الخبث؛
لأن من أصله طيباً ثم نزل بنفسه إلى المستوى الأدنى صار أكثر
لوماً ممن لم يكن كذلك.

ولذلك لو زنت الحرة لجلدت مائة جلدة إن كانت غير محصنة، ورجمت إن كانت محصنة، ولو زنت الأمة لم ترجم ولو كانت متزوجة، ولم تجلد مائة جلدة بل تجلد خمسين؛ لأن هناك فرقاً بين إنسان أصله كريم وشريف ثم يضع نفسه موضع الوضيع، وبين شخص كان في الأصل على خلاف ذلك.

ويدل لهذا -أي: أن الناس يختلفون في أجناسهم- قول الله في كتابه: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [الأنعام: ١٢٤]، وقد جعلها الله تعالى في العرب في محمد، فإذا كان محمد أطيب الخلق وأشرفهم لزم أن يكون جنس العرب أطيب الأجناس وأفضلها وأشرفها، وهو كذلك.

وفي مسند أحمد عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَّهُوا) [صحيح على شرط مسلم] وفيه أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (النَّاسُ مَعَادِنُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَّهُوا) [صحيح على شرط مسلم]

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]

فالجواب أن نقول: إن الله تعالى أراد أن يمحو ما كان أهل الجاهلية يعتادونه من الفخر بالأحساب، حيث يقول: أنا من القبيلة الفلانية، أنا من القبيلة الفلانية. فبين الله أن هذه الشعوب والقبائل جعلها الله من أجل التعارف لا التفاخر، وأن فخركم لا يقربكم إلى الله، فالذي يقربكم إلى الله هو التقوى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} وهذا لا ينافي أن يكون جنس العرب أفضل من غيرهم كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، في: «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم».

{إِذْ قَالَتْ} اذكر إذ قالت، وفيه تعظيم هذه القصة؛ لأن الله أمر رسوله أن يبينها ويرويها للناس.

{امْرَأَتُ عِمْرَانَ} اسمها: حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُوذَا، وهو اسم عبراني، جدة عيسى عليه السلام. مات زوجها وتركها حبلً فندرت حبلها ذلك محرراً أي: مخلصاً لخدمة بيت المقدس.

{رَبِّ} منادى حذف منه «ياء» النداء، وأصله: «يا رب» ولكن تحذف ياء النداء في مثل هذا التركيب اختصاراً لكثرة

استعماله، وحذف منه ضمير المتكلم «الياء» تخفيفاً، وأصله: «ربي».

{إِنِّي نَذَرْتُ} لم تكتف حنّة بنية النذر حتى أظهرته باللفظ، وخاطبت به الله تعالى، وقدّمت قبل التلفظ بذلك نداءها له تعالى بلفظ الرب. الذي هو مالکها ومالك كل شيء، والنذر هو استدفاع المخوف بما يعقده الإنسان على نفسه من أعمال البر. **{لَكَ}** اللام فيه لام السبب، وهو على حذف التقدير: لخدمة بيتك، أو للاحتباس على طاعتك.

{مَا} وأتى بلفظ: ما، دون: من، لأن الحمل إذ ذاك لم يتصف بالعقل.

{فِي بَطْنِي} جزمت النذر على تقدير أن يكون ذكراً، أو لرجاء منها أن يكون ذكراً.

**** وفيه:** جواز النذر في الأمر المجهول؛ وينبغي على ذلك أن يقول القائل: لله علي نذر أن أتصدق بما في بطن هذه الشاة أو هذه الناقة، وينفذ النذر.

{مُحَرَّرًا} عتيقاً من كل شغل من أشغال الدنيا، فهو من لفظ الحرية. أو محرراً من خدمتي ليكون خادماً للمسجد الأقصى، وإطلاق المحرر على هذا المعنى إطلاق تشريف لأنه لما خلاص

لخدمة بيت المقدس فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرية عبادة الله تعالى.

وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك؛ أي أن الإنسان منهم ينذر ولده ليكون قائماً بخدمة المسجد الأقصى تعظيماً له.

** وفيه: أن الولد يخدم والده من أم أو أب؛ لأنها قالت: {محرراً} يعني محرراً من الخدمة بحيث لا أستخدمه ولا أستغل حياته.

{فَتَقَبَّلَ مِنِّي} هذا النذر .. دعت الله تعالى بأن يقبل منها ما نذرت له، والتقبل أخذ الشيء على الرضا به، وأصله المقابلة بالجزاء.

** وفيه: طرد الإعجاب بالنفس؛ وذلك بأن الإنسان إذا عمل عملاً لا يُدِلُّ به على الله يقول: أنا عملت وأنا عملت، بل يشعر أنه مفتقر إلى الله عز وجل في قبول ذلك العمل، ونظيره قول إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [البقرة: ١٢٧]، والإنسان إذا علم أنه مفتقر إلى ربه عز وجل في العمل وفي قبول العمل زال عنه الإعجاب، وإذا زال عنه الإعجاب صار حرياً بأن الله تعالى يقبل منه ويشبهه.

{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} جملة استئنافية للتعليل؛ يعني أني

سألتك أن تتقبل

مني لأنك السميع العليم.

وختمت بهذين الوصفين لأنها اعتقدت النذر، وعقدته بنيتها، وتلفظت به، ودعت بقبوله. فناسب ذلك ذكر هذين الوصفين. وذكرت «العلم» هنا لأن الإنسان قد يسأل الشيء وليس من صالحه حصوله، فيسند الأمر إلى علم الله عز وجل.

وذكر المفسرون سبب هذا الحمل الذي اتفق لامرأة عمران فروي أنها كانت عاقراً، وكانوا أهل بيت لهم عند الله مكانة، فينا هي يوماً في ظل شجرة نظرت إلى طائر يذق فرخاً له، فتحركت به نفسها للولد، فدعت الله تعالى أن يهب لها ولداً. فحملت.

ومات عمران زوجها وهي حامل، فحسبت الحمل ولداً فنذرته لله حبساً لخدمة الكنيسة أو بيت المقدس، وكان من عادتهم التقرب بهبة أولادهم لبيوت عباداتهم، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم وأحبارهم، ولم يكن أحد منهم إلا ومن نسله محرر لبيت المقدس من الغلمان، وكانت الجارية لا تصلح لذلك، وكان جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم، فإذا حرر خدم الكنيسة بالكنس والإسراج حتى يبلغ،

فيخير، فإن أحب أن يقيم في الكنيسة أقام فيها، وليس له الخروج بعد ذلك، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء، ولم يكن أحد من الأنبياء والعلماء إلاّ ومن نسله محرر لبيت المقدس.

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} فيه أن الأم تتكلف الحمل كما يشعر به كلمة {وضعتها} أنها حاملة لها، وهو كذلك لا شك أنها تتكلف الحمل، وإذا قدرنا أن هذا الطفل الذي في بطنها سيبقى تسعة شهور وهي حاملة له في بطنها، في أرق ما يكون من البدن، قائمة وقاعدة ومستيقظة ونائمة، فماذا نتصور من التعب؟

ولهذا قال الله تعالى: **{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا}** [الأحقاف: ١٥]، وقال: **{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ}** [لقمان: ١٤]، ثم مع ذلك هذا الطفل في البطن يتحرك وهي تحس به، ولولا لطف الله بعباده ما استطاعت أن تحمل هذا ولكن الله عز وجل يعينها. فيتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي: «عظم حق الأم على ولدها»؛ لأن من أحسن إليك وأتعبته كان أحق الناس ببرك، ولهذا جعلها النبي عليه الصلاة والسلام أحق الناس بحسن الصحبة.

{قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ} خاطبت الله تعالى بذلك على سبيل الاعتذار، والتوصل من نذر ما لا يصلح لسدانة البيت، إذ كانت الأنثى لا تصلح لذلك في شريعتهم.

وقيل: كانت مريم أجمل نساء زمانها وأكملهن.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ} جملة معترضة.. قرأ ابن عامر، وأبو بكر، ويعقوب: بضم التاء: {وَضَعْتُ}، ويكون ذلك وما بعده من كلام أمّ مريم، وكأنها خاطبت نفسها بقولها: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ}**.

ولم تأت على لفظ: رب، إذ لو أتت على لفظه لقالت: وأنت أعلم بما وضعت. ولكن خاطبت نفسها على سبيل التسلية عن الذكر، وأن علم الله وسابق قدرته وحكمته يحمل ذلك على عدم التحسر والتحذر على ما فاتني من المقصد، إذ مراده ينبغي أن يكون المراد، وليس الذكر الذي طلبته ورجوته مثل الأنثى التي علمها وأرادها وقضى بها.

ولعل هذه الأنثى تكون خيراً من الذكر، إذ أرادها الله، سلت بذلك نفسها.

وتكون: الألف واللام في: الذكر، «تعريف العهد» للمعهود في نفسها، فيكون مقصودها ترجيح هذه الأنثى التي هي موهوبة الله على ما كان قد رجحت من أنه يكون ذكراً.

ويحتمل أن تكون الألف واللام في: الذكر، «تعريف الجنس» لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساوياً لجنس الأنثى.

ويكون مقصودها أنه ليس كالأنثى في الفضل والدرجة والمزية، لأن الذكر يصلح للتحرير، والاستمرار على خدمة موضع العبادة، ولأنه أقوى على الخدمة، ولا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالرهبان والناس ولا تهمة.

وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلاً فسياق الكلام أن تقول: وليست الأنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها، وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد.

وقرأ باقي السبعة: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}، بتاء التأنيث الساكنة على أنه إخبار من الله بأنه أعلم بالذي وضعته، فالكلام من الله. أي: بحالها، وما يؤول إليه أمر هذه الأنثى، فإن قولها: وضعتها أنثى، يدل على أنها لم تعلم من حالها إلا على هذا القدر من كون هذه النسمة جاءت أنثى لا تصلح للتحرير، فأخبر

تعالى أنه أعلم بهذه الموضوعة، فأتى بصيغة التفضيل المقتضية للعلم بتفاصيل الأحوال، وذلك على سبيل التعظيم لهذه الموضوعة، والإعلام بما علق بها وبابنها من عظيم الأمور، إذ جعلها وابنها آية للعالمين.

قال ابن عاشور: والمقصود منه: أن الله أعلم منها بنفاسة ما وضعت، وأنها خير من مطلق الذكر الذي سألته، فالكلام إعلام لأهل القرآن بتغليطها، وتعليم بأن من فوض أمره إلى الله لا ينبغي أن يتعقب تدبيره.

وقرأ ابن عباس: بما وضعت، بكسر تاء الخطاب، خاطبها الله بذلك أي: إنك لا تعلمين قدر هذه الموهوبة، وما علمه الله تعالى من عظم شأنها وعلوّ قدرها.

{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} أما على قراءة: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}** فالظاهر أن كونه من كلام الله أرجح؛ لأن قوله: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}** من كلام الله، أما على قراءة **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}** فإن كونه من كلامها أرجح لئلا تتشتت الجمل.

** وفيه أنه لا يستوي الذكور والإناث لا في الطبيعة ولا في الأخلاق ولا في المعاملة، بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان؛

فالذكر ليس كالأنثى، وإذا كان الذكر ليس كالأنثى، فالأنثى أيضاً ليست كالذكر.

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} مريم في لغتهم معناه: «العابدة»، أرادت بهذه التسمية التفاؤل لها بالخير، والتقرب إلى الله تعالى، والتضرع إليه بأن يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن تصدق فيها ظنها بها.

ألا ترى إلى إعادتها بالله وإعادة ذريتها من الشيطان؟ وخاطبت الله بهذا الكلام لترتب لاستعاذة عليه، واستبدادها بالتسمية يدل على أن أباهما عمران كان قد مات، كما نُقل أنه مات وهي حامل، على أنه يحتمل من حيث هي أنثى أن تستبد الأم بالتسمية لكرهة الرجال البنات غالباً.

**** وفيه: تسمية المولود حين يولد؛ لقولها: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}** وهذا هو السنة، أن يسمّى الإنسان حين يولد إلا إذا لم يتهياً الاسم فإنه يسمى في اليوم السابع، وبهذا تجتمع الأدلة، فإن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما ولد إبراهيم قال: (وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ) [مسلم عن أنس]. وفي حديث العقيقة قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذَبِّحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُحْلَقُ وَيُسَمَّى) [أبو داود] فيكون

الجمع أن من كان مهياً الاسم قبل الولادة فالأفضل أن يسميه حال الولادة، ومن لم يهياً فالأفضل أن يؤجله إلى اليوم السابع.

{وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا} بناءً على الأصل والغالب أن الأنثى تتزوج ويكون لها ذرية، ولكن الله عز وجل أراد لهذه المرأة شيئاً آخر.

وتكرر التأكيد في **{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا}** **{وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ}** لزيادة التأكيد: لأن حال كراهيتها يؤذن بأنها ستعرض عنها فلا تشتغل بها، وكأنها أكدت هذا الخبر إظهاراً للرضا بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدعاء لها الدال على الرضا والمحبة.

{مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} والشيطان هو أبو الجن كما قال الله تعالى: **{أَفْتَحْخُذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ}**

[الكهف: ٥٠]

والشيطان من «شطن» أي بُعد، يعني بعد من رحمة الله. والرجيم: بمعنى المرجوم وأصل الرجم القذف بالحجارة؛ ومنه: رجم الزاني، أي مطرود مبعد عن رحمة الله عز وجل.

وأتى خبر: «إن» مضارعاً وهو: أعيدها، لأن مقصودها ديمومة الاستعازة، والتكرار بخلاف: وضعتها، وسميتها، فإنهما ماضيان قد انقطعا.

وقدّمت ذكر المعاذ به على المعطوف على الضمير للاهتمام به، ثم استدركت بعد ذلك الذكر ذريتها.

ومناجاتها الله بالخطاب السابق إنما هو وسيلة إلى هذه الاستعاذة، كما يقدّم الإنسان بين يدي مقصوده ما يستنزل به إحسان من يقصده، ثم يأتي بعد ذلك بالمقصود.

روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوْلَدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا) ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنَّ شِئْتُمْ {وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}

{فَتَقَبَّلَهَا} تفریع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة .. وتقبل أبلغ من قبل، وذلك أن الغالب أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ففيها شدة العناية والمبالغة.

ومعنى تقبلها: تقبل تحريرها لخدمة بيت المقدس، أي أقام الله مريم مقام المنقطع لله تعالى، ولم يكن ذلك مشروعاً من قبل.

{رَبُّهَا} الربُّ: تأني بمعنى الخالق المالك، المدبر، فإذا أضيفت الربوبية لله فهذا معناها، أنه الخالق فلا خالق غيره،

والمالك فلا مالك غيره، والمدير فلا مدير غيره، وهذا النفي باعتبار الإطلاق فلا خالق على سبيل الإطلاق إلا الله، وإذا أضيف الخلق إلى غيره فإنما هو باعتبار «التغيير والتصيير» لا باعتبار الأصل. فخلق الباب من الخشب ليس أصلياً بل هو تغيير وتصيير، صير الخشب باباً فقال: خلقه، لكن أصل هذا الخشب إنما خلقه الله عز وجل، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يخلق خشبة واحدة بل ولا غصن شجرة.

فالمالك على الإطلاق هو الله، وإضافة الملك لغير الله إضافة جزئية، وإلا فقد قال الله تعالى: **{إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}** [المؤمنون: ٦]، فأضاف الملك إلى الإنسان، وقال تعالى: **{أَوْ مَا مَلَكَتْ مَفَاتِحَهُ}** [النور: ٦١]، فأضافه أيضاً إلى الإنسان؛ لكن هذا ملك مقيد غاية التقييد.

والمدير كذلك، فالتدبير على إطلاقه هو لله عز وجل، أما الإنسان فإنه وإن أضيف إليه التدبير فهو تدبير خاص محصور على كل حال.

وربوبية الله نوعان: عامة، وخاصة. العامة مثل قوله تعالى: **{رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}** [مريم: ٦٥]، والخاصة

مثل قوله: **{رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** [الأعراف: ١٢٢]، وهنا **{رَبُّهَا}** من الخاصة.

واعلم أن كل خاص من الربوبية والمعية والسمع والبصر وما أشبه ذلك مما قال العلماء إنه ينقسم إلى عام وخاص، أن الخاص يتضمن العام ولا عكس. فكل من كان الله ربه على وجه الخصوص فهو ربه على وجه العموم، وكل من كان الله معه على وجه الخصوص فهو معه على وجه العموم، وكل من سمعه الله على وجه الخصوص فقد سمعه على وجه العموم، وهلم جرا. وهنا أضاف الربوبية إلى مريم؛ لأنه عز وجل قبلها هذا القبول الحسن.

{بِقَبُولِ حَسَنِ} رضي بها في النذر مكان الذكر كما نذرت أمها، وسنى لها الأمل في ذلك، وقبل دعائها في قولها: **{فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**، ولم تقبل أنثى قبل مريم في ذلك.

والقبول الحسن من الله أنه - سبحانه وتعالى - يسرها ليسرى وسهل أمرها وجعلها من خيرة نساء العالمين، حتى ألحقها بالرجال في صلاحها، فقال: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا}**

مِنَ الْقَانِتِينَ { [التحريم: ١٢] ، وتأمل أنه قال: {من القانتين}، ولم يقل: من القانتات؛ لأنه كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)

وقال ابن عاشور: الباء فيه للتأكيد، وأصل نظم الكلام: فتقبلها قبولاً حسناً، فأدخلت الباء على المفعول المطلق ليصير كالألة للتقبل فكأنه شيء ثان، وهذا إظهار للعناية بها في هذا القول، وقد عرف هذا القبول بوحى من الله إلى زكريا بذلك، وأمره بأن يكفلها زكريا أعظم أحبارهم، وأن يوحى إليه بإقامتها بعد ذلك لخدمة المسجد، ولم يكن ذلك للنساء قبلها، وكل هذا إرهاب بأنّه سيكون منها رسول ناسخ لأحكام كثيرة من التوراة؛ لأن خدمة النساء للمسجد المقدس لم تكن مشروعة.

{وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} قد يعود إلى المعنى، وقد يعود إلى الحس، فالمعنى: أنبتها نباتاً حسناً يعني في كمال الآداب والطاعة والعفة والحشمة وغير ذلك، وقد يكون أنبتها نباتاً حسناً باعتبار الجسم؛ يعني أنه نماها تنمية جيدة، لم يتعثر فيها

جسمها، حتى إن بعضهم قال -ولعلها من الإسرائيليات-:
"كانت تنمو في العام ما ينموه غيرها في عامين"، والله أعلم.

قال ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت من النهار
وقامت الليل حتى أربت على الأحبار.

وقيل: لم تجر عليها خطيئة.

وقال قتادة: حُذِّثْنَا أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَصِيبُ الذُّنُوبَ كَمَا يَصِيبُ
بَنُو آدَمَ.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} كاهن إسرائيلي، جاءته النبوة في كبره. وقرأ
الجمهور: **{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}** بتخفيف الفاء من كفَّلها أي تولى
كفالتها، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف: **{وَكَفَّلَهَا}**
بتشديد الفاء أي أن الله جعل زكريا كافلا لها.

وإنما كفَّلها زكريا لأن أمَّها هلكَتْ، وكان أبوها قد هلك وهي
في بطن أمِّها. وكان زكريا قد تزوج أخت أم مريم إمشاع ابنة
عمران بن ماثان فكان يحيى وعيسى ابني خالة.. فتنازع كفالتها
جماعة من أحبار بني إسرائيل حرصا على كفالة بنت حبرهم
الكبير، واقترعوا على ذلك، وإنما جعلت كفالتها للأحبار لأنها
محررة لخدمة المسجد فيلزم أن تربي تربية صالحة لذلك.

قال ابن إسحاق: إن زكريا كان تزوّج خالتها لأنه وعمران كانا سلفين على أختين، ولدت امرأة زكريا يحيى، وولدت امرأة عمران مريم.

قال أبو عبيدة: ضمن القيام بها، ومن القبول الحسن والنبات الحسن أن جعل تعالى كافلها والقيم بأمرها وحفظها نبياً. وأوحى الله إلى داود عليه السلام: إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً.

وقال ابن عاشور: عد هذا في فضائل مريم، لأنه من جملة ما يزيد فضلها لأن أبا التربة يكسب خلقه وصلاحه مرباه. فهذا أيضاً من التيسير أن الله يسر لها من يكفلها من الرسل، ولا شك أن الإنسان إذا كان عنده كافل مستقيم صالح كان هذا من أسباب صلاحه واستقامته، وإذا كان عند فاسق كان بالعكس. ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن يترك الطفل المحضون بيد شخص لا يصونه ولا يصلحه.

روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس كالحجة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة! فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم، وصاحب قربانهم، وكانت

بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، عندي حالتها. فقالوا: لا، حتى نقترع عليها. فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين، إلى نهر. قيل: هو نهر الأردن وهو قول الجمهور. وقيل: في عين ماء كانت هناك، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها. وقال عكرمة: ألقوا أقلامهم فجرى قلم زكريا عكس جرية الماء.

وقيل: عامت مع الماء معروضة، وبقي قلم زكريا واقفاً كأنما ركز في طين.

{كُلَّمَا} كل وقت دخول زكريا عليها.. تقتضي التكرار، وعلى كثرة تعهده وتفقدته لأحواله.

{دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ} مِفْعَال من الحرب، وهو مكان العبادة، وسمي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان.

وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند عامة الناس، وفي بعض المساجد مكتوب على قوس طاق القبلة: **{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ}**، يجعلون الإمام مريم وهم لا يشعرون، ويخطئون أيضاً في المعنى؛ لأن المحراب مكان العبادة سواء

كان طاقاً أو مربعاً أو حجرة، ولهذا قال الله تعالى في قصة داود:

{وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [ص: ٢١]

ثم أطلق المحراب عند المسلمين على موضع كشك نصف قبة في طول قامة ونصف يجعل بموضع القبلة ليقف فيه الإمام للصلاة. وهو إطلاق مولد، وأول محراب في الإسلام محراب مسجد الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صنع في خلافة الوليد بن عبد الملك، مدة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة.

{وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} ما يقوم به البدن مما تأكله ليقوم بدنها وتحفظ حياتها .. يقال في بعض الإسرائيليات: كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

وأبعد من فسر الرزق هنا بأنه فيض كان يأتيها من الله من العلم والحكمة من غير تعليم آدمي، فسماه «رزقاً».. قال الراغب: واللفظ محتمل، انتهى، وهذا شبيه بتفسير الباطنية.

{قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكَ هَذَا} أني، سؤال عن الكيفية وعن المكان وعن الزمان، والأظهر أنه سؤال عن الجهة، فكأنه قال: من أي جهة لك هذا الرزق؟ ولذلك قال أبو عبيدة: معناه من أين؟ ولا يبعد أن يكون سؤالاً عن الكيفية، أي كيف تهيأ وصول هذا الرزق إليك؟ وظاهره أنه كان يسأل كلما وجد عندها رزقاً.

خاطبها بقوله: **{ يَا مَرْيَمُ }**، إشارة إلى أنها في حال لا تقتضي أن يكون عندها ذلك؛ لأنها امرأة لا تكتسب منقطة للعبادة، والمنقطع للعبادة ولو كان ذكراً لا ييسر له الرزق. ولهذا ناداها باسمها قال: يا مريم؛ يعني انتبهي أيتها الأنثى كيف يجيئك هذا الرزق.

{ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } لم يأت به آدمي ألبتة، بل هو رزق يتعهدني به الله تعالى. فعند ذلك يستريح قلب زكريا بكونه لم يسبقه أحد إلى تعهد مريم، وبكونه يشهد مقاماً شريفاً، واعتناءً لطيفاً بمن اختارها الله تعالى بأن جعلها في كفالته.

{ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ } الرزق بمعنى العطاء، والعطاء ينقسم إلى قسمين: عطاء كوني، وعطاء شرعي.

فالعطاء الكوني: ما يرزق الله به الإنسان والحيوان الحلال والحرام، لا يختص بالمؤمنين ولا بالطيب من الرزق.

والعطاء الشرعي: وهو ما يعطاه المؤمن من الرزق الحلال فهو الرزق الخاص الذي ليس فيه تبعة، ويشمل أيضاً العطاء الشرعي ما ثبت إعطاؤه بمقتضى الشرع كإعطاء الفقراء من الزكاة مثلاً، وإعطاء الغانمين من الغنيمة، فهذا عطاء وإيتاء شرعي.

{مَنْ يَشَاءُ} فالرزق لا يكون إلا بمشيئة الله، وهي مربوطة بالحكمة، يعطي من يشاء لحكمة، ويمنع من يشاء بالحكمة، والدليل على أن كل ما أثبت الله فيه المشيئة فهو مقرون بحكمة، قوله تعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [الإنسان: ٣٠]

{بَغَيْرِ حِسَابٍ} بمعنى الحصر لأن الحساب يقتضي حصر الشيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى إن الله يرزق من يريد رزقه بما لا يعرف مقداره لأنه موكول إلى فضل الله.

أي بغير مكافأة، يُطْعَم ولا يُطْعَم، يرزق ولا يُرْزَق، قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)}** [الذاريات] بخلاف البشر فإنه قد يُعْطَى لِيُعْطَى. والظاهر أنه من كلام مريم، وقال الطبري: ليس من كلام مريم، وأنه خبر من الله تعالى لمحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ

قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ
(٣٩) قَالَ رَبِّ أُنِّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ
وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ
رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا
رَمَزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

{هَنَالِكُ} أصل: هنالك، أن يكون إشارة للمكان، وقد
يستعمل للزمان وقيل بهما في هذه الآية.. أي في ذلك المكان
الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم.

وقال بعضهم: هذا اسم إشارة إلى المكان. واللام للبعد
والكاف حرف خطاب؛ والإشارة هنا يحتمل أن تكون للزمان أي
في ذلك الزمن، ويحتمل أن تكون للمكان، أي في ذلك المكان
الذي هو محراب مريم.

قال ابن عاشور: "أي في ذلك المكان، قبل أن يخرج، وقد
نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم: **{إِنَّ اللَّهَ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** [آل عمران: ٣٧] والحكمة ضالة
المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك

عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إبانه، وقد كان في حسرة من عدم الولد كما حكى الله عند في سورة مريم.

وأيضاً فقد كان حينئذ في مكان شهد فيه فيضاً إلهياً. ولم يزل أهل الخير يتوخون الأمكنة بما حدث فيها من خير، والأزمنة الصالحة كذلك، وما هي إلا كالدوات الصالحة في أنها محال تجليات رضا الله.

وسأل الذرية الطيبة لأنها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة. ومشاهدة خوارق العادات خولت لذكريا الدعاء بما هو من الخوارق، أو من المستبعدات، لأنه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى، لاسيما في زمن الفيض أو مكانه، فلا يعد دعاؤه بذلك تجاوزاً لحدود الأدب مع الله على نحو ما قرره القرافي في الفرق بين ما يجوز من الدعاء وما لا يجوز".

وعن جَابِرٍ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَعَا فِي مَسْجِدِ الْفَتْحِ ثَلَاثًا: يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَيَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ [أي الظهر والعصر]، فَعَرَفَ الْبَشَرُ فِي وَجْهِهِ. قَالَ جَابِرٌ: "فَلَمْ يَنْزِلْ

بِي أَمْرٌ مُهِمٌّ غَلِيظٌ، إِلَّا تَوَخَّيْتُ تِلْكَ السَّاعَةَ، فَأَدْعُوا فِيهَا فَأَعْرِفُ
الْإِجَابَةَ "

[قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد والبخاري وغيرهما، وإسناد أحمد جيد، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن. أ هـ، ورواه البخاري في "صحيح الأدب المفرد" لكن الشيخ شعيب الأرنؤوط قال في تحقيق المسند: إسناده ضعيف، كثير بن زيد ليس بذاك القوي، خاصة إذا لم يتابعه أحد، وقد تفرّد بهذا الحديث عن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب، وهذا الأخير في عداد المجاهيل]

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - في "اقتضاء الصراط": وهذا الحديث يعمل به طائفة من أصحابنا وغيرهم، فيتحررون الدعاء في هذا، كما نقل عن جابر ولم يُنقل عن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه تحرى الدعاء في المكان بل في الزمان.

وقال البيهقي في "شعب الإيمان": ويتحرى للدعاء الأوقات والأحوال والمواطن التي يرجى فيها الإجابة تماما، فأما الأوقات فمنها ما بين الظهر والعصر من يوم الأربعاء.

وقال الشيخ حسين العوايشة في "شرح صحيح الأدب المفرد": فاستُجيب له بين الصلاتين من يوم الأربعاء: قال شيخنا

(أي: الألباني) حفظه الله مجيباً سؤالي عن ذلك: لولا أَنَّ الصحابي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أفادنا أَنَّ دعاء الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ذلك الوقت من يوم الأربعاء كان مقصوداً، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وليس الخبر كالمعينة، لولا أَنَّ الصحابي أَخْبَرَنَا بهذا الخبر؛ لكنَّا قُلْنَا هذا قد اتفق لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ دعا فاستجيب له، في ذلك الوقت من ذلك اليوم. لكن أخذ هذا الصحابي يعمل بما رآه من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوماً ووقتاً ويستجاب له. إِذَاً هذا أَمْرٌ فهمناه بواسطة هذا الصحابي وَأَنَّهُ سَنَّةٌ تعبدية لا عفوية. انتهى كلامه.

{دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ} فإنه لما رأى هذا الخارق العظيم لمريم، وأنها ممن اصطفاها الله، ارتاح إلى طلب الولد واحتاج إليه لكبر سنه، ولأن يرث منه ومن آل يعقوب -كما قصه تعالى في سورة مريم- ولم يمنعه من طلب كون امرأته عاقراً، إذ رأى من حال مريم أمراً خارجاً عن العادة، فلا يبعد أن يرزقه الله ولداً مع كون امرأته كانت عاقراً، إذ كانت حنة قد رزقت مريم بعدما أيست من الولد.

****** وفيه إثبات القياس؛ لأنه لما رأى أن الله يرزق هذه المرأة بدون سبب معلوم علم أن الذي يسوق لها الرزق وهي منقطعة عن التكسب في محرابها قادر أن يرزقه، فيكون الانتقال من الشيء إلى نظيره، وهذا هو نفس القياس؛ إذن هو استدلال أو أخذ من هذه القصة عبرة وهو أن يسأل الله أمراً وإن كان مستبعداً.

****** وفيه أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله، حتى الأنبياء لا يستغنون عن دعاء الله؛ لقوله: {دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ}

****** وفيه دلالة على أن يتوخمى العبد بدعائه الأمكنة المباركة والأزمنة المشرفة.

****** وفيه أن الصيغة التي يتوسل بها غالباً في الدعاء هي اسم الرب لقوله (ربه)، ولم يقل: (الله)، ولهذا تجد أكثر الأدعية مصدرة بالرب؛ لأن إجابة الداعي من مقتضى الربوبية لأنها فعل، وكل الأفعال من مقتضى الربوبية، فلهذا يتوسل الداعي دائماً باسم الرب، كما في الحديث الذي رواه مسلم: (ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ..) {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي} الهبة هي التبرع بالشيء بلا عوض.. لكن قال العلماء: إن هناك صدقة، وهدية، وهبة: فالصدقة ما أريد به

ثواب الآخرة. والهدية: ما أريد به التودد والتقرب بين المهدي والمهدي إليه. والهبة ما قصد به مجرد انتفاع الموهوب له.

{مِنْ لَدُنْكَ} من عندك، وأضاف العندية إلى الله -عز وجل- ليكون أبلغ وأعظم؛ لأن «هدية الكريم أكرم».

وفي الحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِلْمُنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي قَالَ: (قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

{ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ} صالحة.. وفيه أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل مطلق الذرية؛ لأنهم قد يكونون نكداً وفتنة، وإنما يسأل الذرية الطيبة.

****** وفيه أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي تكون بها ذريته طيبة، ومنها الدعاء؛ دعاء الله، وهو من أكبر الأسباب، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن الرجل يبلغ أشده أنه يقول: **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**

[الأحقاف: ١٥]، ولا شك أن صلاح الذرية أمر مطلوب؛ لأن
الذرية الصالحة تنفعك في الحياة وفي الممات؛ لقول النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ
ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ) [رواه
الترمذي وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ]

وهذه الجملة شرح للدعاء وتفسير له، وناداه بلفظ: {رب}،
إذ هو مربيه ومصلح حاله، وجاء الطلب بلفظ: {هب}، لأن
الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً
للوهاب، ولما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبب فيه:
لا من الوالد لكبر سنه، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد،
فكان وجوده كالوجود بغير سبب، أتى هبة محضة منسوبة إلى
الله تعالى بقوله: {مِنْ لَدُنْكَ} لدن، لما قرب.. أي من جهة
محض قدرتك من غير توسط سبب.

{إِنَّكَ سَمِيعٌ} مجيب {الدُّعَاءِ} والدعاء: هو سؤال العبد ربه
حاجته إما
بجلب
منفعة وإما بدفع مضرة.

لما دعا زكريا ربه بأنه يهب له ولداً صالحاً، أخبر بأنه تعالى
مجيب الدعاء. عبر بالسماع عن الإجابة إلى المقصد، واقتفى

في ذلك أثر جده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩] فأجاب الله دعاءه ورزقه على الكبر كما رزق إبراهيم على الكبر، وكان قد تعود من الله إجابة دعائه.

قيل: وذكر تعالى في كيفية دعائه ثلاث صيغ: أحدها: هذا، والثاني: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} [مريم: ٤] والثالث: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [الأنبياء: ٨٩]

وهذه الحكاية في هذه الصيغ إنما هي بالمعنى، إذ لم يكن لسانهم عربياً، ويدل على أنه دعاء واحد متعقب بالتبشير، العطف بالفاء في قوله: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ} {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [الأنبياء: ٩٠]

** وفيه أن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه المناسبة للحاجة؛ لقوله: {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}، أي مجيبه، وهكذا ينبغي أن تكون الأسماء التي يتوسل بها الإنسان في دعائه مناسبة للمدعو به، فالداعي بالمغفرة يتوسل باسم الغفور وبالرحمة، والداعي بالرزق يتوسل باسم الرزاق وهكذا، ويدل لهذا أيضاً قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]

وقوله: **{فَادْعُوهُ بِهَا}**، يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ دعاء المسألة أن تجعلها وسيلة لدعائك، ودعاء العبادة أن تتعبد الله تعالى بمقتضاها، فإذا علمت أنه سبحانه (غفور) فتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه (رحيم) كذلك وهكذا.

****** وفيه إثبات سمع الله وكرم الله وقدرته على الإجابة، فهنا زكريا يقول: **{إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}**، وقال إبراهيم: **{إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}** [إبراهيم: ٣٩]

{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ} الفاء للتعقيب أي استجبت دعوته للوقت.

قيل: النداء يستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يسرع به وينهى إلى نفس السامع ليُسَرَّ به، فلم يكن هذا إخباراً من الملائكة على عرف الوحي، بل نداءً كما نادى الرجل الأنصاري: كعب بن مالك، من أعلى الجبل. كما في البخاري وغيره: "فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ

فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا".

والمناداة عامة تكون للتبشير وللتحزين ولغير ذلك، كقوله تعالى: **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}** [غافر: ٣٦] وكما جاء في الحديث: (يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ) [مسلم] وإنما فهمت البشارة في الآية من قولهم: **{أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ}** لا أن لفظ نادته يدل على ذلك، لا بالوضع ولا بالاستعمال.

وفي الكلام حذف تقديره: فتقبل الله دعاءه، ووهب له يحيى، وبعث إليه الملائكة بذلك، فنادته جماعة من الملائكة. ويجوز أن يكون الذي ناداه ملكا واحدا وهو جبريل عليه السلام، وإنما قيل الملائكة على قولهم: فلان يركب الخيل، لا يريد خصوصية الجمع، إنما يريد مركوبه من هذا الجنس. يعني: إن الذي ناداه هو من جنس الملائكة. وقد ثبت التصريح بهذا

في إنجيل لوقا، فيكون إسناد النداء إلى الملائكة من قبيل إسناد فعل الواحد إلى قبيلته كقولهم: "قتلت بكر كليبا".

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف: فناده الملائكة على اعتبار المنادي واحدا من الملائكة وهو جبريل.

{وَهُوَ قَائِمٌ} جملة حالية والمقصود من ذكرها بيان سرعة إجابته؛ لأن دعاءه كان في صلاته. ومقتضى قوله تعالى: **{هُنَالِكَ}** إن قلنا أنها للمكان، والتفريع عليه بقوله فناده أن المحراب محراب مريم.

{يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} المحراب مكان الصلاة أو مكان العبادة، وسمي بذلك؛ لأنه مكان حرب الشياطين، فإن العبادة حرب للشياطين.

ذكر البغوي أن زكريا كان الحبر الكبير الذي يقرب القربان، ويفتح باب المذبح، فلا يدخلون حتى يؤذن. فبينما هو قائم يصلي في المحراب، يعنى المسجد عند المذبح، والناس ينتظرون أن يؤذن لهم في الدخول، إذا هو برجل عليه ثياب بيض، ففرع منه، فناده، وهو جبريل: يا زكريا! إن الله يبشرك.

{أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ} البشارة هي الإخبار بما يسر، وسميت بذلك لتأثر البشرية بالخبر؛ لأن الإنسان إذا بُشِّرَ بما يسره يفرح

ويظهر ذلك على وجهه، كما روى البخاري عن عائشة -رَضِيَ
اللهُ عنها- قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَسْرُورٌ [وفي رواية تَبَرَّقَ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ] فَقَالَ: (يَا
عَائِشَةُ أَلَمْ تَرِي أَنَّ مُجَزَّزًا الْمُدَلِّجِيَّ [ينتهي نسبه إلى بني مدلج
قبيلة من قبائل بني كنانة قيل سمي مجززا لأنه كان يجر نواصي
أسرى الحرب أو لحاهم ويتركهم وكانت بني مدلج مشهورة
بالقيافة] دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ
غَطَّيَا رُءُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا فَقَالَ إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ)

وفيه اعتبار «القيافة»: وهو اعتبار الأشباه لإلحاق الأنساب،
ولولا أن قوله ذلك صادر عن علم يلزم التعلق به لما سُر به النبي
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والله أعلم وأحكم.. فقد زوج النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- زيد بن ثابت بمولاته أم أيمن «بركة
الحبشية» وكانت حبشية سوداء فولدت له أسامة بن زيد، فكان
أسامه بن زيد حب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وابن حبه،
لكن كان أسامة بن زيد أسود مع أن أباه كان أبيض، فكانت
قريش تطعن في نسبه، ولما جاء مجزز ورأى زيد بن حارثة وابنه
أسامة بن زيد وقد غطيا رؤوسهما ووجوههما ببرد وأقدامهما بادية

مع أن أقدام زيد بيضاء وأقدام أسامة بن زيد سوداء فلكن لما نظر إليها قال إن هذه الأقدام بعضها من بعض فلذلك دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - على عائشة مسروراً تبرق أسارير وجهه إذ كان في قول مجزز رد على المشركين الذين يطعنون في نسبه.

كما أن الإخبار بما يسوء بشري؛ لأن البشرية تتأثر بذلك أيضاً، ومنه قوله تعالى: **{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: **{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [النساء: ١٣٨]

وتبليغ البشارة على لسان الرسول إلى المرسل إليه ليست بشارة من الرسول، بل من المرسل. ألا ترى إضافة ذلك إليه في قوله: **{يُبَشِّرُكَ}** وقد قال في سورة مريم: **{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى}** [مريم: ٧] فأسند ذلك إليه تعالى.

{يَحْيَى} معرب يوحنا بالعبرانية، فهو عجمي لا محالة نطق به العرب على زنة المضارع من حيي. وقتل يحيى -عليه السلام- في كهولته بأمر هيرودس قبل رفع المسيح بمدة قليلة.

والمعنى: يبشرك بولادة يحيى منك ومن امرأتك، والذي عليه كثير من المفسرين أنهم لاحظوا فيه معنى الاشتقاق من الحياة. وقال قتادة وغيره: إنما سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان. **{مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ}** أي: بعيسى ابن مريم، لأن عيسى كلمة من الله، وسمي بذلك لأنه كان بكلمة الله ولم يكن من أب كما يكون البشر، قال الله تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [آل عمران: ٥٩] فكان يحيى أول من صدق بعيسى وشهد أنه كلمة من الله، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر، وقتل قبل رفع عيسى، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني لأجد الذي في بطني يسجد، وفي رواية: يومي برأسه لما في بطنك، فذلك تصديقه، وهو أول التصديق.

وقيل: مصدقا بكتاب من الله التوراة والإنجيل وغيرهما، أوقع المفرد موقع الجمع، فالكلمة اسم جنس، وقد سمت العرب القصيدة «كلمة».. روي أن الحويدرة ذكر لحسان، فقال: لعن الله كلمته، أي قصيدته. وفي الحديث: (إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَيْدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ) [مسلم]

**** وفيه الثناء على من صدّق المرسلين؛ لقوله: {مُصَدِّقًا**
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ} فإن الله تعالى قال ذلك على سبيل الثناء على
يحيى، ولا شك أن من صدق من قامت البيئات على صدقه فإنه
محمود حتى في الأمور الدنيوية، وأما إذا صدق من لم تقم البيئة
على صدقه فهذا استعجال، وأما إذا صدق من قامت البيئة على
كذبه فهذا خبال وسفه في العقل وضلال في الدين.

قال ابن عاشور: ولا شك أن تصديق الرسول، ومعرفة كونه
صادقا بدون تردد، هدى عظيم من الله لدلالته على صدق التأمل
السريع لمعرفة الحق، وقد فاز بهذا الوصف يحيى في الأولين،
وخديجة وأبو بكر في الآخرين، قال تعالى: **{وَالَّذِي جَاءَ**
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: ٣٣]

{وَسَيِّدًا} السيد من ساد غيره وشرف عليه بالعلم والدين
والخلق والمعاملة.. فيكون جامعاً لصفات الكمال الممكنة في
المخلوق.

قال ابن عاشور: والسيد فيعمل من ساد يسود إذا فاق قومه
في محامد الخصال حتى قدموه على أنفسهم، واعترفوا له
بالفضل. فالسؤدد عند العرب في الجاهلية يعتمد كفاية مهمات
القبيلة والبذل لها وإتباع النفس لراحة الناس.. وكان السؤدد

عندهم يعتمد خلافاً مرجعها إلى إرضاء الناس على أشرف الوجوه، وملاكه بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال العظام، وأصله الرأي، وفصاحة اللسان.

قال ابن عباس: السيد الكريم. وقال قتادة: الحليم. وقال الضحاك: السيد الحكيم المتقي. وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد في خلقه ودينه. وقال عكرمة: من لا يغلبه الغضب. وقال الضحاك: الحسن الخلق. وقال سالم: التقي. وقال ابن زيد: الشريف. وقال أحمد بن عاصم: الراضي بقضاء الله. وقال الخليل: المطاع الفائق أقرانه. وقال أبو بكر الوراق: المتوكل. وقال الترمذي: العظيم الهمة. وقال الثوري: السيد من لا يحسد من قولهم: «الحسود لا يسود». وقال أبو إسحاق: السيد الذي يفوق في الخير قومه. وقال سلمة عن الفراء: السيد المالك، والسيد الرئيس، والسيد الحكيم، والسيد السخي.

وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (يا بني سلمة من سيّدكم اليوم؟) قالوا: الجَدُّ بن قيس، وَلَكِنَّا نُبْخِلُهُ، قَالَ: (وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ وَلَكِن سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ) [الأدب المفرد للبخاري

بنحوه] وسمى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أيضاً سعد بن معاذ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سيداً في قوله: (قوموا إلى سيدكم). أي رئيسكم والمطاع فيكم.

والسيد في اصطلاح الشرع من يقوم بإصلاح حال الناس في دنياهم وأخراهم معاً، وفي الحديث النبوي: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ) [الترمذي]

وسمي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الحسن بن علي: سيداً في قوله: (إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [سنن البيهقي] فقد كان الحسن -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- جامعاً لخصال السؤدد الشرعي، وحسبك من ذلك أنه تنازل عن حق الخلافة لجمع كلمة الأمة، ولإصلاح ذات البين.

ووصف يحيى -عليه السلام- بالسيد لتحصيله الرئاسة الدينية من صباه، فنشأ محترماً من جميع قومه، قال تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا} [مريم: ١٢-١٣]

وقال الزمخشري: "السيد الذي يسود قومه أي يفوقهم في الشرف. وكان يحيى قائماً لقومه، قائماً للناس كلهم في أنه لم يرتكب سيئة قط، ويا لها من سيادة!".

وقال ابن عطية: خصه الله بذكر السؤدد، وهو الاعتمال في رضا الناس على أشرف الوجوه، دون أن يوقع في باطل، وتفضيله: بذل الندى وهو الكرم، وكف الأذى وهي العفة في الفرج واليد واللسان، واحتمال العظام وهنا هو الحلم من تحمل الغرامات وجبر الكسير والإنقاذ من الهلكات.

وقال ابن عمر: ما رأيت أسود من معاوية؟ قيل له: وأبو بكر وعمر؟ قال: هما خير منه، ومعاوية أسود منهما! انتهى كلامه.. قال ابن عطية: أشار إلى أن أبا بكر وعمر كانا من الاستصلاح وإقامة الحقوق بمنزلة هما فيها خير من معاوية، ولكن مع تتبع الجادة، وقلة المبالاة برضا الناس ينخرم فيه كثير من خصال السؤدد، ومعاوية قد برز في خصال السؤدد التي هي الاعتمال في إرضاء الناس على أشرف الوجوه ولم يواقع محذورا.

وفي قوله: {وَسَيِّدًا} دلالة على إطلاق هذا الاسم على من فيه سيادة، وهو من أوصاف المدح. ولا يقال ذلك للظالم والمنافق والكافر. ففي سنن أبي داود عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ) [صححه الألباني]

وفي المستدرک عن عبد الله بن بريدة عن أبيه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إذا قال الرجل للمنافق يا سيد فقد أغضب ربه تبارك وتعالى) [هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني]

وما جاء من قوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} [الأحزاب: ٦٧] فعلى ما في اعتقادهم وزعمهم.

وما جاء في حديث وفد بني عامر من قولهم لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أنت سيدنا وذو الطول منا"، فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (السيد هو الله، تكلموا بكلامكم)، فمحمول على أنه رآهم متكلفين لذلك، أو كان ذلك قبل أن يعلم أنه سيد البشر.

فعن أبي العلاء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: وفدت في بني عامر إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقالوا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وذو الطول منا، فقال: (مه مه، قولوا بقولكم، لا يستجربكم الشيطان، فإنما السيد هو الله) [معرفة الصحابة لأبي نعيم]

{وَحْصُورًا} هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، وإيراد الحصور وصفاً في معرض الثناء الجميل إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجبلة في الغالب، والذي يقتضيه مقام يحيى -عليه السلام- أنه كان يمنع نفسه من شهوات الدنيا من النساء وغيرهن، ولعل ترك النساء زهادة فيهن كان شرعهم إذ ذاك.

قال ابن عياض: عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل، كيحيى -عليه السلام-. ثم هي حق من أقدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة علياء، وهي درجة نبينا محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحسينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ) [البيهقي والنسائي].

قال ابن عاشور: وذكر هذه الصفة في أثناء صفات المدح إما أن يكون مدحا له، لما تستلزمه هذه الصفة من البعد عن الشهوات المحرمة، بأصل الخلقة، ولعل ذلك لمراعاة براءته مما

يلصقه أهل البهتان ببعض أهل الزهد من التهم، وقد كان اليهود في عصره في أشد البهتان والاختلاق، وإما ألا يكون المقصود بذكر هذه الصفة مدحا له لأن من هو أفضل من يحيى من الأنبياء والرسل كانوا مستكملين المقدرة على قربان النساء فتعين أن يكون ذكر هذه الصفة ليحيى إعلاما لذكريا بأن الله وهبه ولدا إجابة لدعوته، إذ قال: **{ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي }** [مريم: ٥-٦] وأنه قد أتم مراده تعالى من انقطاع عقب زكريا لحكمة علمها، وذلك إظهار لكرامة زكريا عند الله تعالى. ووسطت هذه الصفة بين صفات الكمال تأنيسا لذكريا وتخفيفا من وحشته لانقطاع نسله بعد يحيى.

وقيل: الحصور الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو. وقد روي أنه: مر وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب، فقال: ما للعب خلقت.

{ وَنَبِيًّا } هذا الوصف الأشرف، وهو أعلى الأوصاف، فذكر أولاً الوصف الذي تبنى عليه الأوصاف بعده، وهو: التصديق الذي هو الإيمان، ثم ذكر السيادة وهي الوصف يفوق به قومه، ثم ذكر الزهادة وخصوصاً فيما لا يكاد يزهد فيه وذلك النساء، ثم ذكر الرتبة العليا وهي: رتبة النبوة.

وفي هذه الأوصاف تشابه من أوصاف مريم عليها السلام، وذلك أن زكريا لما رأى ما اشتملت عليه مريم من الأوصاف الجميلة، وما خصها الله تعالى به من الخوارق للعادة، دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، فأجابه إلى ذلك، ووهب له يحيى على وفق ما طلب، فالتصديق مشترك بين مريم ويحيى، وكانت مريم سيدة بني إسرائيل بنص الرسول في حديث فاطمة، وكان يحيى سيداً، فاشتركا في هذا الوصف.

وكانت مريم عذراء بتولاً لم يمسها بشر وكان يحيى لا يقرب النساء. وكانت مريم أتاها الملك رسولاً من عند الله وحاورها عن الله بمحاورات حتى زعم قوم أنها كانت نبية، وكان يحيى نبياً، وحقيقة النبوة هو أن يوحى الله إليه، فقد اشتركا في هذا الوصف.

{مِنَ الصَّالِحِينَ} يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المعنى من أصلاب الأنبياء، كما قال: **{ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}** [آل عمران: ٣٤]

ويحتمل أن يكون المعنى: وصالحاً من جملة الصالحين. وإنما قلنا ذلك لأن النبوة وصف أعلى من الصلاح، لكن هو في جملة الصالحين، فالنبوة صلاح وزيادة والدليل على ذلك قوله

تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩]، فالصالحون في المرتبة الرابعة.

فإن مراتب الصلاح أربعة: النبوة، والصدقية، والشهادة، والصلاح، هذا إذا ذكرت جميعاً صارت مراتب، وإن لم تذكر جميعاً صار الصلاح عامّاً؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: كُنَّا نَقُولُ: التَّحِيَّةُ فِي الصَّلَاةِ، وَنُسَمِّي، وَيُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: (قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [مسلم]

كما قال تعالى في وصف إبراهيم -عليه السلام- {وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة: ١٣٠]

وقد قال سليمان -عليه السلام- بعد حصول النبوة له {وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩] قيل:

وتحقيق ذلك أن للأنبياء قدراً من الصلاح لو انتقص لانتفت النبوة، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر، فمن كان أكثر نصيباً من الصلاح كان أعلى قدراً.

وقيل: من الصالحين في الدنيا والآخرة، فيكون إشارة إلى الدوام على الإيمان، والأمن من خوف الخاتمة.

{قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ} هذا باعتبار ما سيكون، والتعبير بما سيكون أمر سائغ في اللغة وارد في القرآن: **{قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا}** [يوسف: ٣٦]، يعني أعصر عنباً يكون خمرًا؛ لأن الخمر لا يعصر، فعبر عن الشيء بما يؤول إليه.

{لِي غُلَامٌ} كان قد تقدّم سؤاله به: **{رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}** فلا شك في إمكانية ذلك وجوازه: وإذا كان ذلك ممكناً وبشرته به الملائكة، فما وجه هذا الاستفهام؟.

وأجيب بوجوه:

أحدهما: أنه سؤال عن الكيفية، والمعنى: أيولد لي على سن الشيخوخة وكون امرأتي عاقراً؟ أي بلغت سن من لا تلد، وكان قد بلغ تسعاً وتسعين سنة، وامراته بلغت ثمانياً وتسعين سنة،

وقال ابن عباس: كان يوم بشر ابن عشرين ومائة سنة، وقال الكلبي: ابن اثنتين وتسعين سنة.

أم أعاد أنا وامرأتي إلى سن الشبية وهيئة من يولد له؟ فأجيب: بأنه يولد له على هذه الحال.. قال معناه: الحسن، والأصم.

لأنه لما سأل الولد فقد تهيأ لحصول ذلك فلا يكون قوله {أَنْتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} إلا تطلبا لمعرفة كيفية ذلك على وجه يحقق له البشارة، وليس من الشك في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم {لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]، فأجيب بأن الممكنات داخله تحت قدرة الله تعالى وإن عز وقوعها في العادة.

الثاني: أنه لما بشر بالولد استعلم: أيكون ذلك الولد من صلبه نفسه أم من بنيه؟.

الثالث: أنه كان نسي السؤال، وكان بين السؤال والتبشير أربعون سنة، ونقل عن سفيان أنه كان بينهما ستون سنة.

الرابع: أن هذا الاستعلام هو على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى، يحدث ذلك عند معاينة الآيات وهو يرجع معناه إلى ما قاله بعضهم: إن ذلك من شدة الفرح، لكونه كالمدهوش عند حصول ما كان مستعبداً له عادة.

{وَقَدْ} الواو هذه يسميها العلماء: «واو الحال»؛ يعني أنها تدل على أن الجملة التي بعدها في موضع نصب على الحال، يعني: والحال أنه قد بلغني الكبر.

{بَلَّغَنِي الْكِبَرُ} أسند البلوغ إلى الكبر توسعاً في الكلام، كأن الكبر طالب له، لأن الحوادث طارئة على الإنسان، فكأنهما طالبة له وهو المطلوب .

وقيل: هو من المقلوب، كما جاء: **{وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}** [مريم: ٨].. قال الراغب: إذا بلغت الكبر فقد بلغك الكبر.

جاء على طريق القلب، وأصله وقد بلغت الكبر، وفائدته إظهار تمكن الكبر منه كأنه يتطلبه حتى بلغه، كقوله تعالى: **{أَيُّمًا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ}** [النساء: ٧٨].

{وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ} يعني لا تحمل، وعافر لفظ مذكر لكن معناها هنا مؤنث، لأنها تطلق على الذكر والأنثى، يقال: رجل عافر وامرأة عافر، وهو الذي لا يولد له أو هي التي عقم رحمها من الكبر.

وهذا تعريض بأن يكون الولد من زوجه العافر دون أن يؤمر بتزوج امرأة أخرى وهذه كرامة أيضا لامرأة زكريا.

****** وفيه جواز وصف الإنسان بما يكره إذا كان المراد مجرد البيان لا القدح والعيب ونظيره أن رسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ)، وهذا من باب المشورة، لما أخبرته فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أن معاوية وأبا جهم خطباها، فلم يقصد الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يعيب الرجل، بل قصد أن يبين حاله ليكون الإنسان على بصيرة.

{قَالَ} أي الملك **{كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}** الكاف: للتشبيه، و «ذلك»: إشارة إلى الفعل، أي: مثل ذلك الفعل وهو تَكُونُ الولد بين الفاني والعابر، يفعل الله ما يشاء من الأفعال الغريبة فيكون إخباراً من الله أنه يفعل الأشياء التي تتعلق بها مشيئته فعلاً، مثل ذلك الفعل لا يعجزه شيء، بل سبب إيجاده هو تعلق الإرادة: سواء كان من الأفعال الجارية على العادة أم من التي لا تجري على العادة. وإذا كان تعالى يوجد الأشياء من عدم الصرف بلا مادة ولا سبب، فكيف بالأشياء التي لها مادة وسبب وإن كان ذلك على خلاف العادة.

فكل ما شاءه الله تعالى فعله؛ لأنه عز وجل لا يمنعه مانع، كما نقول نحن في دبر كل صلاة: (اللهم لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ،

وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ) [البخاري]، فالله عز وجل يفعل ما يشاء؛ لأن له المُلْك المطلق في خلقه، فلا أحد يمنعه ولا أحد يسأله لم فعلت؟ {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]

** وفيه إثبات فعل الله؛ لقوله: {قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} ومذهب أهل السنة والجماعة: إثبات أفعال الله الاختيارية المتعلقة به والمتعدية إلى غيره؛ أفعال الله الاختيارية: يعني التي تقع باختياره، ولا شيء يقع من أفعال الله إلا باختياره، لكن منها شيء متعلق به مثل الاستواء والنزول والضحك والفرح، وأشياء متعلقة بغيره مثل الخلق، فإن الخلق يتعدى إلى الغير، فأهل السنة والجماعة يشبتون النوعين، ويقولون بلا شك: إن الرب الذي يفعل ما يشاء أكمل من الرب الذي لا يستطيع الفعل، وغالب الأشاعرة -إن لم أقل كل الأشاعرة- والمعتزلة ومن ضاهاهم يقولون: إن الله ليس له أفعال اختيارية؛ لا يستوي، ولا ينزل، ولا يجيء، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يحب، ولا يكره.. إلى آخر ما يقولون في نفي الأفعال الاختيارية، وعلتهم أوهى من أي علة حيث قالوا: "إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، والله عز وجل أزلي أبدي".

فيقال لهم أولاً: من قال لكم أن الحوادث لا تقوم إلا بحدث، فهذا قياس عقلي فاسد فإن الحوادث لا يلزم أن لا تقوم إلا بحدث؛ لأنه من المعلوم أن المحدث سابق عن الحدث، وإذا كان المحدث سابقاً على الحدث لم يلزم أن يكون المحدث حادثاً، أنت الآن تأكل الغداء اليوم، والغداء اليوم بالنسبة لك حادث وقت حدوثه وأنت موجود من قبل، فالرب عز وجل يفعل الأفعال هذه في وقت فعلها وهو لم يزل موجوداً. لكن على زعمكم أنتم وعلى مذهبكم الباطل يلزم أن يكون الله سبحانه وتعالى لا يفعل أي فعل معطل عن الأفعال، وهذا عيب؛ لأن من يفعل أكمل ممن لا يفعل باتفاق الناس، وليس يعتري الله عز وجل من إثبات الفعل في حقه أي نقص بأي وجه من الوجوه، والآيات كثيرة في إثبات فعل الله: {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [البروج: ١٦]، {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧]. والنصوص في هذا كثيرة، والحمد لله أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بها.

{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً } أراد علامة على وقت حصول ما بشر به، وهل هو قريب أو بعيد، فالآية هي العلامة الدالة على ابتداء حمل زوجته.

والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله عز وجل كونية وشرعية، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيدوا بالآيات الدالة على صدقهم، الآيات الكونية والآيات الشرعية.

وكثير من الناس يسمي آيات الأنبياء «معجزات» وهذه التسمية وإن اشتهرت على الألسن لكن فيها قصوراً، والتعبير الصحيح السليم أن نسميها آيات كما سماها الله، نسمي ما يحصل من خوارق العادات على أيدي الأنبياء؛ نسميها آيات، ولهذا لا تجد آية في القرآن سمى الله فيها هذه الخوارق معجزات أبداً، بل كان يسميها آيات.

والمعجزات لو أخذناها على ظاهرها لشملت ما يأتي به السحرة وما تأتي به الجن؛ لأن ما يأتي به السحرة أو الجن معجز

****** وفيه جواز البحث عما يزيد به الإيمان، وإن كان الإيمان موجوداً، بل قد نقول: وجوب البحث عما يزيد به الإيمان؛ لأن الإنسان مطلوب منه أن يقوي إيمانه بكل وسيلة.

{ قَالَ آيُتُكَ } أضافها إلى زكريا مع أنه ليس هو الذي أوجدها، لكن لأنها علامة له.

{ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } بلياليها، بدليل قوله تعالى في سورة مريم: **{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيُتُكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا }** [مريم: ١٠]

{ إِلَّا رَمْزًا } إشارة باليد والرأس، أو إيماء: وهو الإشارة لكنه لم يعين بماذا أشار.. وهذا «استثناء منقطع»، إذا الرمز لا يدخل تحت التكليم. لأن الرمز ليس بكلام، ولذلك لو رمز الإنسان في الصلاة لم تبطل صلاته، ولو كانت كلاماً لبطلت؛ لقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) [مسلم من حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ]

وقيل: هو «استثناء متصل» وفيه دلالة على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام، وأن الإشارة تقوم مقام العبارة، لأن الكلام هو ما يعبر عما في النفس من قول أو إشارة أو كتابة.

وذلك موجود في كثير من السنة. ففي البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى جَارِيَةٍ فَأَخَذَ أَوْضَاحًا كَانَتْ عَلَيْهَا [جمع وضح وهو

نوع من الحلي يصنع من الفضة سميت بها لبياضها وصفائها]
وَرَضَخَ [دق] رَأْسَهَا، فَأَتَى بِهَا أَهْلُهَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وَهِيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ [بقية روح] وَقَدْ أُصِمَّتْ فَقَالَ لَهَا
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ قَتَلَكَ؟ فُلَانٌ؟) لِغَيْرِ
الَّذِي قَتَلَهَا. فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا. قَالَ: فَقَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ
الَّذِي قَتَلَهَا. فَأَشَارَتْ أَنْ لَا. فَقَالَ: (فُفُلَانٌ؟) لِقَاتِلِهَا فَأَشَارَتْ أَنْ
نَعَمْ فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَضَخَ رَأْسَهُ
بَيْنَ حَجَرَيْنِ.

فأجاز الإسلام بالإشارة وهو أصل الديانة التي تحقن الدم
وتحفظ المال وتدخل الجنة، فتكون الإشارة عامة في جميع
الديانات، وهو قول عامة الفقهاء.

فمن لاحظ المعنى قال «الاستثناء متصل» وهذه الفائدة
مبنية على أن الإشارة تقوم مقام العبارة لاسيما عند العجز عن
التعبير.

ومن لاحظ اللفظ وأن الكلام هو الصوت قال: «الاستثناء
منقطع»، ولكن على القولين المعنى واحد، لن يستطيع أن ينطق
بلسانه مع الناس ولكن يشير إليهم إشارة.

{وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا} قالت طائفة من المفسرين: لم تكن آفة، ولكنه منع مجاورة الناس، فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله. فكانت الآية حبس اللسان لتخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها، وكأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر.

وهنا لم يقل له: وإنك ستذكر ربك، بل قال: واذكر ربك، فأمره بذكر الله ليكون ذكره الله تعالى في حال امتناع مكالمة الناس عبادة خاصة خالصة مأموراً بها.

{وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} العشي: آخر النهار، والإبكار: أول النهار، وهذان الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما في أكثر من آية، فقال تعالى: **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}** [طه: ١٣] **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** [ق: ٣٩] **{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ}** [ص: ١٨] **{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الأحزاب: ٤٢] والتسبيح يشمل تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به.

فتسبيح الله يكون تنزيها عن أمور ثلاثة: عن صفة النقص، وعن نقص في كمال، وعن مماثلة المخلوقين؛ فصفة النقص كقوله

تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨]،
والنقص في الكمال مثل قوله: {لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ}
[البقرة: ٢٥٥]، وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، ومماثلة
المخلوقين مثل قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]،
وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]، وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]

والتسبيح: يكون بالقول ويكون بالفعل؛ فكل من عبد الله
فقد سبحه بالقول وبالفعل وإن لم يكن فيها كلمة: «سبحان» إلا
أن العابد تستلزم عبادته المعبود أن يكون كاملاً؛ لأن الناقص لا
يمكن للعاقل أن يعبد، فكونه يعبد الله يستلزم أن يكون مقراً له
بالكمال مسبحاً له عن النقص.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي
لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامَهُمْ
أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

لما فرغ من قصة زكريا، وكان قد استطرد من قصة مريم إليها، رجع إلى قصة مريم، وهكذا عادة أساليب العرب، متى ذكروا شيئاً استطردوا منه إلى غيره ثم عادوا إلى الأول إن كان لهم غرض في العود إليه، والمقصود تبرئة مريم عن ما رمتها به اليهود من الزنا، وإظهار استحالة أن يكون عيسى إلهاً، فذكر ولادته.

{وَإِذْ} اذكر، وتضمنين الجملة لهذا يدل على العناية بها، وأنه ينبغي إشهارها وإظهارها حتى تتبين وتتضح للناس.

{قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ} المراد بهم الجنس، إذ ليس المراد كل الملائكة

بل واحد منهم، وهو في الغالب جبريل.

{يَا مَرْيَمُ} مريم علم عبراني، وهو في العبرانية بكسر الميم، وهو اسم قديم سميت به أخت موسى عليه السلام. وليس في كتب النصارى ذكر لاسم أبي مريم أم عيسى ولا لمولدها ولكنها تبتدئ فجأة بأن عذراء في بلد الناصرة مخطوبة ليوسف النجار، قد حملت من غير زوج.

والعرب يطلقون اسم مريم على المرأة المترجلة التي تكثر
مجالسة الرجال. وقال في الكشف: مريم في لغتهم أي لغة
العبرانيين بمعنى العابدة.

وفي النداء لها باسمها تأنيس لها وتوطئة لما يلقي إليها،
وقيل: نداؤها باسمها نوع من التكريم، إذ لم يقل: يا هذه باسم
الإشارة، بل أتى باسمها - الاسم العلم - تكريماً لها.

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ} أي اختارك، وهي مأخوذة من الصفوة،
أي جعلك من صفوة الخلق، واصطفأؤه إياها سبحانه وتعالى من
عدة وجوه:

منه: أنه تقبلها بقبول حسن حين قالت أمها: **{إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا}** [آل عمران: ٣٥]، مع أن المعروف عندهم
أنه لا يخدم المساجد إلا الرجال، لكن هي قبلت.
ومنه: أنه أنبتها نباتاً حسناً، مما تضمن التريتين الروحية
والجسدية.

ومنه: أن الله تعالى اختار أن تكون عند نبي من الأنبياء، حتى
تتربى في بيت نبوة.

{وَطَهَّرَكَ} التطهير هنا من الحيض، قاله ابن عباس، قال السدي: وكانت مريم لا تحيض. وعن مجاهد: عما يصم النساء في خلق وخلق ودين، وعنه أيضاً: من الريب والشكوك. والظاهر أنه طهرها من الأرجاس المعنوية، وأنها بالنسبة للأرجاس الحسية كالبول والغائط والحيض كغيرها من النساء، لكنه طهرها من الأرجاس المعنوية، فبرأها الله تعالى مما رماها به اليهود، وكذلك طهرها من سفاسف الأخلاق حتى كانت دائماً في عبادة الله سبحانه وتعالى.

{وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} أي: ميزك من بينهن.

قيل: كرر على سبيل التوكيد والمبالغة، وقيل: لا توكيد إذ المراد بالاصطفاء الأول اصطفاء الولاية، وبالثاني اصطفاء ولادة عيسى، لأنها بولادته حصل لها زيادة اصطفاء وعلو منزلة على الأكفاء.

وقيل: الاصطفاء الأول «ذاتي»، وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى «التفضيل على الغير»، فلذلك لم يعد الأول إلى متعلق، وعدي الثاني. ونساء العالمين نساء زمانها، أو نساء سائر الأزمنة.. فاصطفاه الله تعالى من بين سائر النساء حيث جعلها من النساء الكُمَّل.

روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال سمعتُ
رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ
نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ، أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ
يَدِهِ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ)

قال في فتح الباري: قوله يقول أبو هريرة على أثر ذلك ولم
تركب مريم بنت عمران بعيرا قط، في رواية لأحمد وأبي يعلى
وقد علم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن مريم لم تركب
بعيرا قط، أراد أبو هريرة بذلك أن مريم لم تدخل في النساء
المذكورات بالخيرية لأنه قيدهن بركوب الإبل، ومريم لم تكن
ممن يركب الإبل وكأنه كان يرى أنها أفضل النساء مطلقا.

وروى أيضا عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ
يَقُولُ سَمِعْتُ عَلِيًّا بِالْكُوفَةِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا
خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ) قَالَ أَبُو كُرَيْبٍ: وَأَشَارَ وَكِيعٌ إِلَى السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ.

وروى الترمذي عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرِيْمُ ابْنَةُ

عِمْرَانُ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ
فِرْعَوْنَ) «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»

وقال عبد الله بن أبي جعفر الرازي، عن أبيه قال: كان ثابت
الْبُنَّانِي يحدث عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعُ، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ،
وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)

وروى البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ
مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ
عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الشَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)

** وفيه: جواز تكرار المناقب؛ لأن أوصاف الكمال كلما
كررت ظهر من كمال الموصوف ما لم يكن معلوماً من قبل،
وهي فائدة أيضاً تتعلق بصفات الله عز وجل، وهي أن أكثر ما
وصف الله به نفسه «الصفات الثبوتية» التي يشتملها لنفسه، أما
الصفات التي ينفى عنها نفسه فوصفه بها قليل بالنسبة لوصفه
بصفات الإثبات؛ لأن صفات الإثبات كمالات، وصفات النفي

نقائص تنفى لا لذاتها ولكن لإثبات كمال ضدها مع أنها هي
منفية أيضاً حقيقة.

ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة
والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدعوى في العمل لها،
لما يريد الله تعالى بها من الأمر الذي قدره وقضاه، مما فيه محنة
لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته
العظيمة، حيث خلق منها ولدًا من غير أب، فقال تعالى:

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ} القنوت هو الطاعة في خشوع، وقيل:
هو دوام الطاعة، والخشوع، والاشتغال بالطاعة عما سواها.
ولهذا لما نزلت: **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى**
وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨]، أمروا بالسكوت ونهوا عن
الكلام ليشغلوا بالطاعة عما سواها، فالقنوت دوام الطاعة مع
الاشتغال بها عن غيرها. كما قال تعالى: **{بَلْ لَهُ مَا فِي**
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦]

واللام في قوله **{لِرَبِّكِ}** للاختصاص: أي قنوتاً خالصاً لله،
أي طاعة خالصة له.

والربوبية هنا «ربوبية خاصة»، تختص بمن خصها الله به،
وتفيد تربية واعتناء أكثر واختصاصاً من الربوبية العامة.

{وَاسْجُدِي} عطف السجود على القنوت من باب عطف الخاص على العام. وذكر الخاص بعد العام يدل على فضله ومزيتة، ولا شك أن السجود من أفضل أنواع الطاعة، لذلك كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

{وَارْكَعِي مَعَ الرَّائِعِينَ} أمرتها الملائكة بفعل ثلاثة أشياء من هيئات الصلاة، فإن أريد ظاهر الهيئات فهي معطوفة بالواو، والواو لا ترتب، مثل قولنا: قام زيد وعمرو، لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، فلا يسأل لم قدم السجود على الركوع إلا من جهة علم البيان.

والجواب: أن السجود لما كانت الهيئة التي هي أقرب ما يكون العبد فيها إلى الله قدم، وإن كانت متأخراً في الفعل على الركوع، فيكون إذ ذاك التقديم بالشرف.

و «مع»، في قوله: **{مَعَ الرَّائِعِينَ}**، تقتضي الصحبة والاجتماع في إيقاع الركوع مع من يركع، فتكون مأمورة بالصلاة في جماعة، ويحتمل أن يتجاوز في: «مع»، فتكون للموافقة للفعل فقط دون اجتماع، أي: افعلي كفعالهم، وإن لم توقعي الصلاة معهم، فإنها كانت تصلي في محرابها.

ويكون المعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أي في الجماعة، أو انظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني معهم وفي عدادهم، ولا تكوني في عداد غيرهم.

وقال ابن عطية: القول عندي في ذلك أن مريم أمرت بفعلين ومعلمين من معالم الصلاة، وهما: طول القيام والسجود، وخصا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة.

وهذان يختصان بصلاتها منفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام لا يقال له: أطل قيامك، ثم أمرت بعدُ بالصلاة في الجماعة، ف قيل لها: **{وَارْكَعِي مَعَ الرَّائِعِينَ}** وقصد هنا معلم آخر من معالم الصلاة لئلا يتكرر لفظ.

وجاء: **{مَعَ الرَّائِعِينَ}** دون الراكعات لأن هذا الجمع أعم إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب، ولمناسبة أواخر الآيات قبل وبعد، ولأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قلنا إنها مأمورة بصلاة الجماعة.

وقيل: ولم يقل مع الراكعات مع أنها امرأة؛ لأنَّ الكُمَّل من الرجال أكثر من الكُمَّل من النساء.

وهذا الخطاب مقدمة للخطاب الذي بعده وهو **{يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}** [آل عمران: ٤٥] لقصد تأنيسها بالخبر

الموالي لأنه لما كان حاصله يجلب لها حزنا وسوء قاله بين الناس، مهد له بما يجلب إليها مسرة، ويوقنها بأنها بمحل عناية الله، فلا جرم أن تعلم بأن الله جاعل لها مخرجا وأنه لا يخزيها.

**** وفيه: بيان أنه كلما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على إنسان بشيء كانت مطالبته بالعبادة أكثر؛ لأن الملائكة لما قالت: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}، أمرتها بالقنوت والسجود والركوع، فدل هذا على أنه ينبغي للإنسان كلما ازدادت عليه نعم الله أن يزداد على ذلك شكراً بالقنوت لله والركوع والسجود وسائر العبادات.**

{ذَلِكَ} الإشارة إلى ما تقدّم من قصص امرأة عمران، وبنتها مريم، وزكريا، ويحيى، والمعنى: أن هذه القصص وصولها إليك من جهة الوحي إذ لست ممن دارس الكتب، ولا صحب من يعرف ذلك، وهو من قوم أميين، فمدرك ذلك إنما هو الوحي من عند الله كما قال في الآية الأخرى، وقد ذكر قصة أبعد الناس زماناً من زمانه، -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو نوح -عليه السلام-، واستوفاهما له في سورة هود أكثر مما استوفاهما في غيرها: **{تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}** [هود: ٤٩]

وفي هذا دليل على نبوة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
إذ أخبر بغيوب لم يطلع عليها إلا من شاهدها، أو: من قرأها في
الكتب السابقة، أو: من أوحى الله إليه بها. وقد انتفى العيان
والقراءة، فتعين الثالث وهو الوحي من الله تعالى.

{مِنْ أَنْبَاءٍ} أخبار **{الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ}** الوحي في اللغة:
الإعلام بسرعة وخفاء، فإذا أعلمك إنسان بسرعة على وجه خفي
يسمى في اللغة «وحيًا»، ولكنه في الشرع : إخبار الله سبحانه
وتعالى لنبي من أنبيائه بما يشاءه من شرعه، ثم إن كلفه بتبليغه
كان رسولاً، وإلا كان نبياً.

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ} وما كنت معهم بحضرتهم، وفيه إيماء إلى
خلو كتبهم عن بعض ذلك.

ونظيره في قصة موسى: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا
إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ}** [القصص: ٤٤] **{وَمَا
كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}** [القصص: ٤٦] وفي
قصة يوسف: **{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}** [يوسف: ١٠٢]

{إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ} كانوا يكتبون بها التوراة، فاختاروها للقرعة تبركاً بها، وقد استدل بهذه الآية على إثبات القرعة. والناس يصيرون إلى القرعة عند انعدام ما يرجح الحق، وليس هذا من شعار الإسلام، وليس لإعمال القرعة في الإسلام إلا مواضع تمييز الحقوق المتساوية من كل الجهات.

{أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} أي: ما كنت عندهم يا محمد فتُخبرهم عنهم معاناة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} أي: بسبب مريم، والمقصود شدة رغبتهم في التكفل بشأنها.. هذا الاختصاص الظاهر أنه قبل إلقاء الأقلام، لكن آخر في الذكر لمناسبة رؤوس الآيات.

عن عكرمة قال: ثم خَرَجَتْ بها -يعني أم مريم بمريم- تحملها في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى، عليهما السلام -قال: وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما يلي الحَجَبَةِ من الكعبة- فقالت لهم: دُونَكُمْ هذه النَّذِيرَةُ فَإِنِّي حررتها وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي. فقالوا

هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إليّ: فإن حالتها تحتي. فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، ففَرَعَهُمْ زكريا، فكفلها.

وقد ذكر عكرمة أيضاً، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد - دخل حديث بعضهم في بعض - أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فيه فأبهم ثبت في جَرِيَةِ الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ثبت. ويقال: إنه ذهب صُعْدًا يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبههم صلوات الله وسلامه عليه.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)

{إِذْ} اذكر {قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ} يخبرك
بخبر سار مفرح لك، وتقدم تكليم الملائكة قبل هذا التبشير
بذكر الاصطفاء والتطهير من الله، وبالأمر بالعبادة له على سبيل
التأنيس واللفظ، ليكون ذلك مقدمة لهذا التبشير بهذا الأمر
العجيب الخارق الذي لم يجر لامرأة قبلها، ولا يجري لامرأة
بعدها، وهو أنها تحمل من غير مس ذكر لها.

{بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} الكلمة مراد بها كلمة التكوين.. أي يكون
وجوده بكلمة من الله تعالى: «كن» بلا أب، وذلك في قوله
تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ**
قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩].. ووصف عيسى بكلمة
مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون
الأسباب المعتادة.

وقوله: **{مِنْهُ}** من للابتداء المجازي أي بدون واسطة أسباب
النسل المعتادة، وقد دل على ذلك قوله: **{إِذَا قَضَى أَمْرًا}**.

{اسْمُهُ الْمَسِيحُ} سُمي المسيح، - كما قال بعض السلف -:
لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أخمص
لهما، والأخمص ما تجافى عن الأرض من باطن الرجل. وقيل:
لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى.

قال ابن عاشور: "والمسيح كلمة عبرانية، ونقلت إلى العربية بالغلبة على عيسى، ومعنى مسيح ممسوح بدهن المسحة وهو الزيت المعطر الذي أمر الله موسى أن يتخذه ليسكبه على رأس أخيه هارون حينما جعله كاهنا لبني إسرائيل، وصارت كهنة بني إسرائيل يمسحون بمثله من يملكونهم عليهم من عهد شاول الملك، فصار المسيح عندهم بمعنى الملك: ففي أول سفر صمويل الثاني من كُتِبَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ قال داود للذي أتاه بتاج شاول الملك المعروف عند العرب بطالوت: «كَيْفَ لَمْ تَخَفْ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ لِتُهْلِكَ مَسِيحَ الرَّبِّ».

فيحتمل أن عيسى سمي بهذا الوصف كما يسمون بملك، ويحتمل أنه لقب لقبه به اليهود تهكما عليه إذ اتهموه بأنه يحاول أن يصير ملكا على إسرائيل ثم غلب عليه إطلاق هذا الوصف بينهم واشتهر بعد ذلك، فلذلك سمي به في القرآن".

{عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} أتى بالوصف المفيد للنسب لأن السامعين تعارفوا ذكر اسم الأب في ذكر الأعلام للتمييز وهو المتعارف، وتذكر الأم في النسب إما للجهل بالأب كقول بعضهم: زياد بن سمية قبل أن يلحق بأبي سفيان في زمن معاوية

بن أبي سفيان، وإما لأن لأمه مفخرة عظيمة كقولهم: عمرو ابن هند، وهو عمرو بن المنذر ملك العرب.

{وَجِيهًا} والوجيه ذو الوجة وهي: التقدم على الأمثال، والكرامة بين القوم، وهي وصف مشتق من الوجه للإنسان وهو أفضل أعضائه الظاهرة منه، وأجمعها لوسائل الإدراك وتصريف الأعمال، فأطلق على أول الشيء على طريقة الاستعارة الشائعة فيقال: وجه النهار لأول النهار قال تعالى: **{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاتَّكُفُّوا آخِرَهُ}** [آل عمران: ٧٢]

ويقولون: هو وجه القوم أي سيدهم والمقدم بينهم. واشتق من هذا الاسم فعل وجَّه ككَّرَم فجاء منه وجيه صفة مشبهة، فوجيه الناس المكرم بينهم، ومقبول الكلمة فيهم، قال تعالى في وصف موسى عليه السلام **{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** [الأحزاب: ٦٩].

{فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} قال الزمخشري: الوجة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة.

بل هو من أولي العزم من الرسل، الذين هم أعظم الناس جاهاً في الدنيا والآخرة، ولهم بالآخرة مقامات لا تكون لغيرهم. **{وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** من المقربين إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة. وقيل: وكونه من المقربين رفعه إلى السماء وصحبته الملائكة.

{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} المهد: مضجع الصبي وهو رضيع، وهو شبه الصندوق من خشب لا غطاء له يمهد فيه مضجع للصبي مدة رضاعه يوضع فيه لحفظه من السقوط.

وبين هذا الكلام في سورة "مريم" بقوله: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}**

[٢٩-٣٣]

وهذا كلام من أفصح الكلام وأعظمه، وهو في المهد، وهذا من آيات الله عز وجل الدالة على قدرته، ولهذا كانت آيات عيسى كلها تدور حول هذا الأمر، حول خوارق العادات في الأمور الكونية؛ فهو نفسه آية خُلق بلا أب، وكلم الناس في

المهد، وهذا من الآيات، ويصنع من الطين كهية الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، ويبرئ الأكمه والأبرص ولا أحد يبرئهما من الأطباء، ويحيي الموتى ويخرجهم من القبور.

وتكلم في المهد سبعة: عيسى، ويحيى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وصبي ماشطة امرأة فرعون، وصاحب الجبار، وصاحب الأخدود، وقصص هؤلاء مروية، ولا يعارض هذا ما جاء من حصر من تكلم رضيعاً في ثلاثة، لأن ذلك كان إخباراً قبل أن يعلم بالباقيين، فأخبر على سبيل ما أعلم به أولاً، ثم أعلم بالباقيين.

{وَكَهْلًا} الكهولة سنّ ما بين الشباب والشيخوخة، من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، والمعنى: يكلمهم من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، وينبأ فيها الأنبياء.

فكلامه في المهد كلامه وهو كهل؛ يعني ليس كلام الصبي الذي يتكلم في المهد كلام أطفال، بل كلامه فصيح من أبلغ الكلام كما يتكلم به وهو كهل.

{وَمِنَ الصَّالِحِينَ} من صلحت سيرته وعلايته، وصلاح قوله وعمله، فله علم صحيح وعمل صالح، والصالحون أيضاً هم

الذين صفتهم الصلاح لا تفارقهم، وأصل الصلاح: استقامة الأعمال وطهارة النفس، ومن دعاء إبراهيم -عليه السلام-: **{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}** [الصافات: ١٠٠].

{قَالَتْ رَبِّ} استعطاف منها حيث قالت: **{رَبِّ}** ومعلوم أن كلمة رب هنا مضافة إلى ياء المتكلم التي حذفت للتخفيف وأصلها: «ربي».

{أَنْتَى} كيف؟، استفهام ليس على سبيل الشك، ولا على سبيل الاستبعاد، ولكنه على سبيل التعجب. ولذلك أجيب بجوابين أحدهما: **{كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}** فهو لرفع إنكارها، والثاني: **{إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** لرفع تعجبها.

{يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} المسيس هنا كناية عن الوطء، وهذا نفي عام أن يكون باشرها أحد بأي نوع كان من تزوج أو غيره.

{قَالَ كَذَلِكَ} الأمر كذلك، وعلى هذا فيحسن الوقوف هنا، أي يحسن أن تقف فتقول: كذلك، ثم تبتدئ فتقول: **{اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}**، وهذا التركيب له نظائر في القرآن، مثل قوله:

{كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} [الدخان: ٥٤]، وإنما تأتي هذه

الصيغة للتقرير والتثبيت، يعني الأمر مثلما وقع تماماً.

{اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} سواء كان على وفق العادة أو على

خلاف العادة.. كما وكيفاً ونوعاً، وعلى سبب معلوم وعلى سبب غير معلوم.

وصرح هاهنا بقوله: {يَخْلُقُ} ولم يقل: "يفعل" كما في قصة

زكريا، من حيث إن أمر زكريا داخل في الإمكان العادي الذي

يتعارف، وإن قل، وفي قصة مريم: {يَخْلُقُ}، لأنه لا يتعارف

مثله، وهو وجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع من غير

سبب عادي، فلذلك جاء بلفظ: {يَخْلُقُ}، الدال على هذا

المعنى.

فهو خَلَقَ أنف غير ناشئ عن أسباب إيجاد الناس، فكان لفعل

يخلق هنا موقع متعين، فإن الصانع إذا صنع شيئاً من مواد معتادة

وصنعة معتادة، لا يقول: خلقت، وإنما يقول: صنعت.

وقيل: لئلا يبقى شبهة، وأكد ذلك بقوله: {إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا}

أرادَه وحكم بوجوده {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا
إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ
لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ
مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ
بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي
وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

{وَيُعَلِّمُهُ} قرأ نافع، وعاصم: {ويعلمه} بالتحية، أي: يعلمه
الله. وقرأه الباقون بنون العظمة: {ونعلمه}، على الالتفات.
{الْكِتَابَ} الخط والكتابة، وفيه شرف الكتابة وفضلها.
{وَالْحِكْمَةَ} وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد
ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.
والحكمة حكمتان: علمية وعملية.. فالعلمية: الاطلاع على
بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرًا،
قدرا وشرعا، والعملية: كما قال صاحب المنازل: وهي وضع
الشيء في موضعه.

{وَالْتُورَاةُ} كتبها الله تعالى كتابة بيده، قال تعالى: **{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}**
[الأعراف: ١٤٥]

ولهذا قال أهل العلم من علماء السلف: إن الله تعالى غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده سبحانه وتعالى، ونزلت ألواحاً على موسى وفيها ما تقتضيه المصلحة، والحاجة والضرورة في ذلك الوقت.

{وَالْإِنْجِيلُ} روي أن عيسى كان يستظهر التوراة والإنجيل، ويقال لم يحفظها عن ظهر قلب غير: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى.

وذكر الإنجيل لمريم وهو لم ينزل بعد لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء، وأنه سينزل.

{وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ} قائلًا لهم **{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ}**
أرسلت إليكم من جانب الله، ونظيره قوله تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ}** [الزخرف: ٦٣]
{بَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} فيه الإشارة إلى وجوب قبول رسالته لأنها من الله تعالى.

{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ} أصور لكم، لا الخلق الذي هو الإنشاء والاختراع إذ ذاك لله تعالى.

{مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} الهيئة: الصورة والكيفية أي أصور من الطين صورة كصور الطير.

{فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} هذا من أجل تحقيق التوحيد، بإظهار العبودية، ونفي توهم المشاركة في خلق الكائنات.

وفي قراءة سبعة: {فيكون طائراً بإذن الله}، والقراءتان لكل واحدة منهما معنى يكمل الأخرى، فقوله: {فيكون طيراً} أي طيراً حياً بعد أن كان على صورة الطير وليس فيه روح، وقوله: {فيكون طائراً} أي: يطير، تشاهدونه يطير بالفعل، فعندنا ثلاث مراتب: تصوير على هيئة الطير، وطيير فيه روح على قراءة {فيكون طيراً}، وطيير يطير بالفعل على قراءة {فيكون طائراً} بإذن الله.

**** وفيه أن ما فعل بأمر الله فهو حلال مباح وإن كان نظيره بدون أمر حراماً، فلو أن أحداً أراد أن يصنع تمثالاً من الطين على هيئة الطير لكان ذلك حراماً، لكن لما كان هذا بأمر من الله كان هذا حلالاً، ولهذا نظائر: السجود لغير الله شرك والسجود**

لغير الله بأمر الله طاعة، ولهذا سجد الملائكة لآدم فكانوا طائعين، واستكبر عن ذلك إبليس فكان من الكافرين.. قتل النفس المحرمة ولاسيما ذو الرحم من كبائر الذنوب، وإذا كان بأمر الله كان مما يقرب إلى الله، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أمر بذبح ابنه إسماعيل فامتثل، وكان امتثاله لذلك طاعة الله عز وجل.. هكذا خلق عيسى كهيئة الطير لينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، هذا من الأمور التي أبيحت له بأمر الله عز وجل.

{وَأُبرئُ} أشفي، والبرء في الأصل من البراءة، والبراءة من الشيء السلامة منه.

{الأَكْمَه} هو الذي يولد أعمى، وقيل: من ولد بلا عين، وهذا أبلغ في القدرة.

{وَالْأَبْرَص} داء جلدي عبارة عن بقع بيضاء شديدة البياض تظهر على الجلد، فإن كانت غائرة في الجلد فهو البرص، وإن كانت مساوية لسطح الجلد فهو البهق، ثم تنتشر على الجلد فربما عمت الجلد كله حتى يصير أبيض، وربما بقيت متميزة عن لون الجلد. وأسبابه مجهولة، ويأتي بالوراثة أحيانا، وهو غير معد.

والعرب والعبرانيون واليونان يطلقون البرص على مرض آخر هو من مبادئ الجدام، فكانوا يتشاءمون بالبرص إذا بدت أعراضه على واحد منهم.

فإما العرب فكان ملوكهم لا يكلمون الأبرص إلا من وراء حجاب، كما وقع في قصة الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ الشاعر مع الملك عمرو بن هند [وحِلْزَةَ اشتقاقه من الضِّيق. رجلٌ حِلْزٌ، إذا كان بخيلاً].

وأما العبرانيون فهم أشد في ذلك. وقد اهتمت التوراة بأحكام الأبرص، وأطالت في بيانها، وكررت مرارا، ويظهر منها أنه مرض ينزل في الهواء ويلتصق بجدران المنازل، وقد وصفه الوحي لموسى ليعلمه الكهنة من بني إسرائيل ويعلمهم طريقة علاجه، ومن أحكامهم أن المصاب يعزل عن القوم ويجعل في محل خاص، وأحكامه مفصلة في سفر اللاويين. ولهذا كان إعجاز المسيح بإبراء الأبرص أهم المعجزات فائدة عندهم دينا ودنيا.

وقد ذكر فقهاء الإسلام البرص في عيوب الزوجين الموجبة للخيار وفصلوا بين أنواعه التي توجب الخيار والتي لا توجبه ولم يضبطوا أوصافه واقتصروا على تحديد أجل برئه.

{وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ} ولا شك أنها آية عظيمة -وهي إحياء الموتى-، وهذا من آيات الله، وفي الآية الأخرى: **{وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}** [المائدة: ١١٠]، ففي الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى وإن كانوا في القبور وإخراجهم منها أحياء، يعني إذا ضمنت هذه إلى هذه استفدت فائدتين أنه يحيي الموتى وهم على ظهر الأرض، ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون.

وإحياء الموتى معجزة للمسيح، كنفخ الروح في الطير المصور من الطين، فكان إذا أحيا ميتا كلمه ثم رجع ميتا، وورد في الأناجيل أنه أحيا بنتا كانت ماتت فأحيها عقب موتها. ووقع في إنجيل متى في الإصحاح (١٧) أن عيسى صعد الجبل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا أخوه وأظهر لهم موسى وإيلياء يتكلمان معهم، وكل ذلك بإذن الله له أن يفعل ذلك.

ولقد بُعث عيسى في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد.

{وَأُنَبِّئُكُمْ} أخبركم **{بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}**
وفيه أن الغيب لله، ويعلم أنبياءه منه ما يشاء، **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** [الجن: ٢٦-٢٧]
{إِنَّ فِي ذَلِكَ} إن في ذلك كله **{لَايَةً لَكُمْ}** على صدقي
فيما جئكم به.

** وفيه أنه ينبغي التكرار في المقام الهام؛ لقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ}**، مع أنه قال في أول الآية: **{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بَآيَةً مِنْ رَبِّكُمْ}**، وذلك لأن الأمور الهامة ينبغي تكرارها أولاً من أجل أن يتبين للمخاطب أهميتها عند المتكلم وأنه ذو عناية بها، والثاني من أجل أن ترسخ في الذهن؛ لأنه كلما تكرر الشيء ازداد رسوخاً.

{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أي إن كنتم تريدون الإيمان، بخلاف ما إذا كان دأبكم المكابرة.

يعني أنها آية بهذا القيد، وأما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بالآيات، ولا تكون الآية له آية، قال تعالى: **{قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}** [يونس: ١٠١] بل إن غير المؤمن يرى أن هذه الآيات العظيمة

أساطير الأولين، {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطففين: ١٣] وذلك بسبب ما كان على قلبه من ظلمات المعاصي، {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]

والإيمان هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق، ودليل ذلك أنه لا يتعدى بما يتعدى به التصديق، فإنه لا يقال: «آمنته»، ويقال: «صدقته». بل إنه يتضمن الإقرار والاعتراف والانقياد والتسليم، ومن صدق ولم يقبل ولم يدعن فليس بمؤمن، فأبو طالب عم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان مصدقا برسالته لكنه لم يقبل ولم يدعن فلم يكن مؤمنا، فالإيمان معنى زائد على التصديق وليس هو مجرد التصديق.

وتعرض القرآن لذكر هذه المعجزات تعريضاً بالنصارى الذي جعلوا منها دليلاً على ألوهية عيسى، بعلّة أن هذه الأعمال لا تدخل تحت مقدرة البشر، فمن قدر عليها فهو الإله، وهذا دليل سفسطائي أشار الله تعالى إلى كشفه بقوله: {بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} وقوله: {يَا ذُنِ اللَّهِ} مرتين. وقد روى أهل السير أن نصارى

نجران استدلووا بهذه الأعمال لدى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{وَمُصَدِّقًا} المصدق: المخبر بصدق غيره.

{لَمَّا بَيْنَ يَدَيْ} ما تقدم قبلي، لأن المتقدم السابق يمشي بين يدي الجائي، وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة، لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه، فكأنها لم تسبقه بزمن طويل.

ويطلق «ما بين اليدين» على ما سيأتي أيضا، أي ما يستقبل، فإن قرن بالخلف فهو للمستقبل، وإلا فإنه صالح للمستقبل والماضي، ففي قوله تعالى: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** [البقرة: ٢٥٥] المراد هنا المستقبل لقوله مقترنا: **{وَمَا خَلْفَهُمْ}**.

{مِنَ التَّوْرَةِ} هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهي أصل الكتب المنزلة على بني إسرائيل وأعظمها، بل هي أعظم الكتب فيما نعلم بعد القرآن.

وانحصرت شريعة عيسى في إحياء أحكام التوراة وما تركوه فيها وهو في هذا كغيره من أنبياء بني إسرائيل، وأيضا في تحليل بعض ما حرمه الله عليهم رعا لحالهم في أزمنة مختلفة، وبهذا كان رسولا.

{وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ} ولم يقل: «كل» **{الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}**
والمحرم عليهم ذكره الله في قوله: **{فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا}**
[النساء: ١٦٠] وقوله: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}** [الأنعام: ١٤٦]

فلما حرمت عليهم هذه الطيبات لظلمهم وعدوانهم، وبعث الله عيسى أحل لهم بعض ما حرم عليهم، ولم يذكر في القرآن بيان هذا البعض فيكون باقياً على إطلاقه، ولو كان لنا مصلحة في تعيين ذلك لبينه الله. وقيل: أنه محلاً لأشياء مما حرم فيها: كالشحوم، ولحوم الإبل، وبعض من الحيتان [الأسمك] والطيور. وما قيل أنه حرم عليهم الطلاق فهو تقول عليه، بل حذرهم منه وبين لهم سوء عواقبه، وحرم تزوج المرأة المطلقة. وينضم إلى ذلك ما لا تخلو عنه دعوة: من تذكير، ومواعظ، وترغيبات.

**** وفيه دلالة على أن عيسى -عليه السلام- نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين. فالإنجيل كالمتمم**

للتوراة؛ لأنه في الحقيقة نزل على بني إسرائيل الذين أنزلت عليهم التوراة؛ ومن المعلوم أن حال بني إسرائيل تغيرت من وقت موسى إلى عيسى، فكان في الإنجيل أشياء فيها تعديل أو زيادة، فهو متمم للتوراة.

ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطئوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: **{وَلَا بَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ}** [الزخرف: ٦٣] والله أعلم.

**** وفيه: جواز نسبة الحكم إلى من بلغه؛ لأنه قال: {وَلَا حِلَّ لَكُمْ}** وأصل التحليل والتحريم من عند الله -عز وجل-، لكن إضافته إلى من أبانه وأظهره لا بأس بها، ولهذا أضاف الله القرآن إلى نفسه وإلى جبريل وإلى محمد، أما إلى نفسه فقال: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}** [التوبة: ٦]، وأما إلى جبريل فقال: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}** [التكوير: ٢٠-١٩]، وأما إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- فقال: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ}** [الحاقة: ٤٠-٤١] لكن الكلام يضاف حقيقة إلى من

قاله مبتدئاً، وأما من قاله مبلغاً مؤدياً فإنما يضاف إليه لكونه أظهره وأبانه.

{وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} يشمل كل ما جاء به من الآيات، ويكون هذا من باب التأكيد لقوله الأول **{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}** وإقامة الحجة عليهم، فكرر مجيئه بالآيات احتجاجاً عليهم بما كذبوا.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ} يعني اتخذوا وقاية من عذابه؛ لأن التقوى مأخوذة من الوقاية، وتكون بفعل أوامره واجتناب نواهيه. هذا هو المعنى الشامل للتقوى عند الإطلاق، وإذا قرنت التقوى بالبر صار المراد بها اجتناب المحارم، مثل قوله تعالى: **{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى}** [المائدة: ٢]

{وَأَطِيعُونَ} أي: وأطيعوني فيما أمرتكم به وفيما نهيتكم عنه، وطاعته من التقوى بلا شك لكن نص عليها لأنها تقوى خاصة فيما جاء به عيسى؛ لأن التقوى يؤمر بها كل إنسان، فإذا قيل: (أطيعون) صارت تقوى خاصة في طاعة هذا الرسول الذي بعث إلى قومه.

والطاعة قال العلماء في تفسيرها: إنها موافقة الأمر تجنباً للنهي وفعلاً للمأمور، فمن تجنب النهي ناوياً بذلك امتثال الأمر

فهو مطيع، ومن فعل الأمر ناوياً بذلك امتثال الأمر أيضاً فهو مطيع، أما من ترك النهي أو بعبارة أصح المنهي عنه عجزاً عنه، فإن هذا ليس بمطيع، بل إذا سعى في أسبابه حتى عجز كان كمن فعله؛ ففي البخاري عن عَنِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ فَلَقِينِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قُلْتُ أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ قَالَ ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: (إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ) قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟! قَالَ: (إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)

{إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ} لما أمرهم بتقوى الله ذكر ما هو كالسبب في ذلك.. فأنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه. وبدأ بنفسه ليكون أول مدعن ومنقاد لهذا الرب عز وجل.

والربوبية هي انفراد الله بالخلق والملك والتدبير، ولا يعني ذلك أن لا أحد يشاركه في خلق أو ملك أو تدبير، لكن على وجه لا يماثل ما يثبت للخالق من ذلك، فالعبد خلقه أو ملكه أو تدبيره ناقص من حيث الشمول ومن حيث التصرف أيضاً.

{فَاعْبُدُوهُ} الفاء هنا عاطفة وتفيد السببية أيضاً أي: بسبب كونه ربا اعبدوه.

والعبادة مأخوذة من الذل عَبْدَ بمعنى «ذَلَّ». ومنه قولهم: طريق معبد أي: مذل لسالكه، فأصلها «الذل» لكنها بالنسبة لله عز وجل ذل مقرون بمحبة وتعظيم. فكل من تعبد الله فإن تعبدته هذا مقرون بهذين الأمرين: المحبة، والتعظيم، فبالمحبة يكون الطلب وبالتعظيم يكون الهرب، فالإنسان إذا أحب شيئاً طلبه، وإذا عظم شيئاً هابه وهرب منه وخاف منه. ولهذا كانت العبادة مبنية على الرجاء والخوف.

والعبادة تطلق أحياناً على هذا المعنى الذي ذكرنا باعتبارها مصدراً، وهو أي التذل لله مع المحبة والتعظيم وتطلق أحياناً على اسم المفعول أو على الشيء المتعبد به وحينئذ نقول: إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فالصلاة مثلاً عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الأرحام عبادة، وهكذا، فأحياناً تطلق على الفعل، وأحياناً تطلق على المفعول.

{هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} ولا يسمى الطريق صراطاً إلا إذا اجتمع فيه السعة والاعتدال؛ لأنه مأخوذ من (السرط)، وهو الابتلاع بسرعة، وإن شئت فقل: من (الزרט) وهو الابتلاع بسرعة، والطريق الواسع المستقيم يتلع سالكيه بسرعة؛ لأن الضيق لا يمشي الناس فيه إلا رويداً رويداً ببطء، وغير المستقيم لا يوصل للغاية إلا ببطء سواء كان انحرافه على اليمين أو الشمال أو من حيث الصعود والنزول، فإنه إذا كان صاعداً نازلاً أتعب السالك.

فإن كان الصراط مستقيماً خالي من الانحرافات يميناً وشمالاً وكذلك في الصعود والنزول اختصر الطريق، فإذا قدرنا أن هناك غاية تصل إليها بالطريق المستقيم في ثلاثين متراً، إلا أن فيه تعاريج، كل تعريجة عشرة أمتار، وفيها عشرة تعاريج، فإنك ستصل إلى الغاية بمائة متر.

وقوله **{مُسْتَقِيمٌ}** يعني لا اعوجاج فيه، ووصفه بالاستقامة بعد أن قلنا إن الصراط هو الطريق الواسع المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج من باب التوكيد.

وكان عيسى قد هربت به أمّه من قومها إلى مصر حين عزلوا أولادهم، ونهوهم عن مخالطته، وحبسوهم في بيت، فجاء عيسى

يطلبهم فقالوا: ليسوا ها هنا، فقال ما في هذا البيت؟ قالوا:
خنازير، قال: كذلك يكونون، ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير.
ففشا ذلك في بني إسرائيل، فهموا به، فهربت به أمه إلى أرض
مصر.

فلما بلغ اثنتي عشرة سنة أوحى الله إليها: أن انطلقي إلى
الشام، ففعلت حتى إذا بلغ ثلاثين سنة جاءه الوحي على رأس
الثلاثين، فكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

{فَلَمَّا أَحَسَّ} الإحساس: الإدراك ببعض الحواس الخمس،
وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

{عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ} فلما أدرك بحاسته، واستشعر منهم
التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال، وجحود نبوته
وإنكار معجزاته. مع هذه الآيات العظيمة التي يشاهدونها.

{قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} يعني إذا كان الإيمان تعذر منكم جميعاً فمن الذي يكون ناصري منكم؟ و (إلى) هنا للغاية، ولم يقل: من أنصاري (في) الله؛ ليكون النصر مبنياً على الإخلاص؛ لأن (إلى) للغاية، فيريد أن يكون نصراً موصلاً إلى الله عز وجل. والنصر يشمل إعلان الدين والدعوة إليه، فالظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: (مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي عَلَى أَنْ أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي) [رواه أحمد في المسند من حديث جابر رضي الله عنه] حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر.

وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل فأمنوا به وآزره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. وهذا موقف من مواقف الرسل، فقد أخبر الله تعالى عن نوح: **{فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}** [القمر: ١٠] وقال موسى: **{وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي}** [طه: ٢٩].

{ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ } لقب غلب على أصحاب عيسى عليه السلام: الذين آمنوا به ولازموه، وكانوا اثني عشر رجلا، وهو اسم معرب من النبطية ومفرده حوارى.

والحواري: صفوة الرجل وخاصته، وهو مشتق من: الحور، وهو البياض. حورت الثوب بيضته، وسموا حواريين لسلامة قلوبهم من أثر المعاصي؛ لأن للمعاصي -نسأل الله العافية- نكت سوداء تكون في القلب كلما عصى الإنسان نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل وعاد إلى الاستنارة، وإن لم يتب وأحدث معصية أخرى زادت نكتة أخرى، وهكذا حتى يطبع على القلب.

والحواري أيضا: الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال: (إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ) [البخاري].

{ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ } أنصار دينه وشرعه. والداعي إليه، وفيه دلالة على أنهم علموا أن نصر عيسى ليس لذاته بل هو نصر لدين الله.

وقد آمن مع الحواريين أفراد متفرقون من اليهود، مثل الذين شفى المسيح مرضاهم، وآمن به من النساء أمه عليها السلام، ومريم المجدلية، وأم يوحنا.. ونساء آخر، ولكن النساء لا تطلب منهن نصرة.

{آمَنَّا بِاللَّهِ} الإيمان في الشرع هو: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان. لا يكفي التصديق فقط بل لا بد من قبول ما جاء به الرسول والإذعان له.

{وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ} أشهدوا نبهم عيسى -عليه الصلاة والسلام- على إسلامهم، مع أنه شهيد عليهم سواء استشهدوه أم لم يستشهدوه، فكل رسول شهيد على أمته، ولكنهم قالوا ذلك من باب التوكيد وإعلان الإسلام.

فلما ذكروا أنهم أنصار الله ذكروا مستند لإيمانهم، لأن انقياد الجوارح تابعة لانقياد القلب وتصديقه، والرسول تشهد يوم القيامة لقومهم، وعليهم.

ودل ذلك على أن عيسى -عليه السلام- كان على دين الإسلام، برأه الله من سائر الأديان كما برأ إبراهيم بقوله: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [آل عمران: ٦٧]

****** وفيه أن إشهد الإنسان على نفسه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أشبه ذلك لا يعد من الرياء لاسيما في الاتباع؛ لأن في ذلك فائدة وهي: «تقوية المتبوع»، ولا يعد هذا من الرياء.

ولم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى، ولكنه بين في سورة "الصف"، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- في نصره الله ودينه، وذلك في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}** [الصف: ١٤].

{رَبَّنَا} منادى حذف منه ياء النداء لسببين: كثرة استعمال هذا الاسم الكريم في الدعاء، والتبرك بالبداءة باسم الله عز وجل؛ لأن الرب من أسماء الله.

****** وفيه التوسل إلى الله تعالى بربوبيته؛ لأن الربوبية تدور على ثلاثة أشياء وهي: الخلق والملك والتدبير. وإجابة الدعاء داخل في هذه الثلاثة، فلذلك كان كثيراً ما يتوسل دعاة الله بالربوبية

كما جاء في الحديث الصحيح: (يُمد يديه إلى السماء يا رب يا رب)

{آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ} (ال) هنا في (الرسول) للعهد الذهني، وهو عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لا رسول لهؤلاء القوم من بني إسرائيل إلا عيسى، فالذي عين أن يراد بالرسول عيسى هو العهد الذهني الذي كان معلوماً عندهم.

والاتباع في الحقيقة هو ثمرة الإيمان؛ وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً كان أشد اتباعاً لمن آمن به، وكلما قل الإيمان قل الاتباع، هكذا، ويصح أن نقول: كلما قل الاتباع قل الإيمان.

ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة؛ لأن الإيمان المجرد لا ينفع، والعمل الصالح بمنزلة سقي الشجرة، إن لم تسقها ماتت، ولهذا ينبغي لنا عندما نتكلم عن الإسلام أن لا نحاول جعل الإسلام عقيدة فحسب، بل هو: «عقيدة وعمل» العقيدة وحدها لا تكفي؛ لأن العقيدة الآن كل يدعي أنه معتقد، اليهود والنصارى يقولون: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، ونؤمن بأن هناك ربا مديراً للخلق، وأنه عز وجل خالق، ونؤمن بالبعث ولكن هذا ليس بإيمان، وإن كان عندهم هذه العقيدة، فهذه عقيدة فاسدة، فلا بد من قرن العقيدة بالعمل

الصالح، حتى لا يتكل الناس على ما عندهم من العقيدة ويقولون لا حاجة للعمل.

{فَاكْتُبْنَا} وعبروا عن فعل الله ذلك بهم بلفظ: **{فَاكْتُبْنَا}**، إذ كانت الكتابة تقيّد وتضبط ما يحتاج إلى تحقيقه وعلمه.

{مَعَ} (مع) هنا للمصاحبة، والمصاحبة لا تقتضي المخالطة أو الموافقة في الزمن، فقد تكون المصاحبة مع قوم سبقوك لكن في النهاية يكونون معك إلى الله.

{الشَّاهِدِينَ} أي مع الذين شهدوا لرسول الله بالتبليغ، وبالصدق، وهذا مؤذن بأنهم تلقوا من عيسى فيما علمهم إياه فضائل من يشهد للرسول بالصدق.

عن ابن عباس قال: مع أمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وهذا إسناد جيد... لأن الشهادة المطلقة ليست إلا لهم؛ لأنهم آخر الأمم، فهم شهداء على جميع الرسل وعلى جميع الأمم، والشهداء الذين كانوا من قبلهم ليسوا شهداء إلا على من سبقهم فقط، كما قال الله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [البقرة: ١٤٣] والمعنى: اكتبنا مع أمة محمد، ولا يرد على هذا

التفسير أنهم سبقوا أمة محمد فكيف يطلبون أن يكتبوا مع الشاهدين؟

والجواب: أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- قد بشرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فقال: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]، فكان عندهم علم بهذه الأمة بواسطة البشارة التي ألقاها إليهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

والقول الثاني: أن المراد بالشاهدين الذين شهدوا لرسلك بالحق، وهذا يتناول من سبقهم بلا شك، ويتناول أمة محمد إذا كان بعد أن أخبرهم بذلك وبشرهم به، وهذا القول الثاني أعم من القول الأول وأقل إشكالاً منه.

{وَمَكُرُوا} الضمير يعود على الذين كفروا بعيسى من بني إسرائيل، وقد بين ذلك قوله تعالى، في سورة الصف: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} [الصف: ١٤]

والمكر فعل يقصد به ضر أحد في هيئة تخفى عليه، أو تلبس فعل الإضرار بصورة النفع، ويشبهه الخداع، ومكرهم هو

احتياهم وسعيهم لدى ولاية الأمور ليتمكنوهم من قتل عيسى، أو بأن وكلوا به من يقتله غيلة.

{وَمَكَّرَ اللَّهُ} قيل: المكر هنا الأخذ بالغفلة لمن استحقه..
وقيل: مجازاتهم على مكرهم وسمى ذلك «مكراً» من باب
المقابلة والمشاكلة، لأن المجازاة لهم ناشئة عن المكر، كقوله:
{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [الشورى: ٤٠] وقوله: **{فَمَنْ اعْتَدَى**
عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤]
وكثيراً ما تسمى العقوبة باسم الذنب، وإن لم تكن في معناه.

أما أن نصف الله بالمكر على الإطلاق فهذا لا يجوز لأن
المكر صفة نقص، وأفعاله تعالى منزهة عن الوصف بالقبح أو
الشناعة، لأنها لا تقارنها الأحوال التي بها تقبح بعض أفعال
العباد؛ من دلالة على سفاهة رأي، أو سوء طوية، أو جبن، أو
ضعف، أو طمع، أو نحو ذلك. أي فإن كان في المكر قبح
فمكر الله خير محض.

{وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} أي أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم
بخذلانه إياهم.. ولم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله
باليهود، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به: محاولتهم
قتله، وذلك في قوله: **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}**

رَسُولَ اللَّهِ { [النساء: ١٥٧] ، وبين أن مكره بهم: إلقاءه الشبه
على غير عيسى وإنجاؤه -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-،
وذلك في قوله: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}
[النساء: ١٥٧] ، وقوله: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}
[النساء: ١٥٧-١٥٨] .

فقال تعالى مخبرا عن ملأ بني إسرائيل فيما همُّوا به من
الفتك بعيسى -عليه السلام-، وإرادته بالسوء والصلب، حين
تمالئوا عليه ووَشَوْا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً، فأنهوا
إليه أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويُفَنِّد
الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه في
رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية حتى استشاروا غضب
الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنْكَل به، فلما
أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفع
من رُوِّزَنَ ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل
ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة
الليل عيسى -عليه السلام- فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا
على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه
ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون

أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادا
للاحق ملازما لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد.
والرجل الذي ألقى عليه الشبه هو زعيمهم، فلما أرادوا أن
يقتلوه قال: أنا صاحبكم، قالوا: كذبت، بل أنت عيسى فقتلوه
وصلبوه. وهذا بلا شك مكر أعظم من مكرهم، لأن هذا الرجل
الذي جاء متزعا هؤلاء القوم ليقتل عيسى صار هو القتل.
وقيل بل الرجل من أصحاب عيسى، فإن عيسى عليه السلام
لما أحس بأنهم سيدخلون عليه ليقتلوه، قال لأحد أصحابه: من
يقبل أن يلقي الله عليه شبيهي فأضمن له الجنة، فانتدب واحدا
منهم لذلك، وألقى الله شبهه عليه، والمسألة ليست فيها نص عن
النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ إِلَىٰ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَإِنَّمَا كُنَّ فِي
الْأَفْئِدَةِ كَلِمَةً أَن يَقُولُ اللَّهُ رَبِّهِمْ إِنِّي أَنزَلْتُ الذِّكْرَ عَلَىٰ
الْأَفْئِدَةِ وَأَنَا أَتَمَّ الْقَائِمُ فِي الدِّينِ وَابْتَغُوا الْآخِرَةَ
وَمَا تُحِبُّونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)

{إِذْ} اذكر إذ {قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى} وفيه فضيلة عيسى ومنقبة
له بخطاب الله إياه، فإن من خاطبه الله فذلك فخر له بلا شك
خصوصاً أنه قال له أيضاً: {وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا} وذلك بالدفاع عنه مما نسبوه عليه من الزور والبهتان.
{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} التوفي لغة: أخذ الشيء كاملاً غير ناقص،
والعرب تقول: توفي فلان دينه يتوفاه فهو متوفٍ له إذا قبضه
وحازه إليه كاملاً من غير نقص.

فمعنى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} في الوضع اللغوي أي حائزك إلي،
كاملاً بروحك وجسمك... قال مطر الوراق: متوفيك من الدنيا
وليس بوفاة موت. وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه.
وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: «وفاة المنام»، أي:
ورافعك وأنت نائم، حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في
السماء آمن مقرب.

كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم
بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠]

وقال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: ٤٢]

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول إذا قام من النوم: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) [البخاري] فكل من النوم والموت يصدق عليه اسم التوفي، وهما مشتركان في الاستعمال العرفي.

فالصحيح أنها وفاة نوم؛ لأن الله عز وجل لما أراد أن يرفعه إلى السماء أنامه ليسهل عليه الانتقال من الأرض إلى السماء؛ لأن الانتقال من الأرض إلى السماء ليس بالأمر الهين لطول المسافة وبعدها ورؤية الأهوال فيما بين السماء والأرض وفي السموات أيضاً، فأنامه الله ثم رفعه نائماً حتى وصل إلى السماء.

قال الله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} إلى قوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء: ١٥٦ - ١٥٩]

والضمير في قوله: **{قَبْلَ مَوْتِهِ}** عائد على عيسى عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

قال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك أما قوله تعالى: **{فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}**، فدلالته على أن عيسى مات، منفية من وجهين:

الأول منهما: أن عيسى يقول ذلك يوم القيامة، ولا شك أن يموت قبل يوم القيامة، فأخباره يوم القيامة بموته، لا يدل على أنه الآن قد مات كما لا يخفي.

والثاني منهما: أن ظاهر الآية أنه توفي رفع وقبض للروح والجسد، لا توفي موت.

وإيضاح ذلك أن مقابلته لذلك التوفي بالديمومة فيهم في قوله: **{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}** [المائدة: ١١٧]، تدل على ذلك لأنه لو كان توفي موت، لقال ما دمت حيا، فلما توفيتني لأن الذي يقابل بالموت هو الحياة

كما في قوله: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم: ٣١].

أما التوفي المقابل بالديمومة فيهم فالظاهر أنه توفي انتقال عنهم، إلى موضع آخر.

** وفيه إثبات منقبة لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وذلك أن النبي أسري به إلى السموات السبع حتى اخترقها كلها وهو يقظان، وعيسى لم يُرفع إلا وهو نائم، ومعلوم أن ثبات قلب من يباشر الشيء وهو يقظان أقوى من ثبات من يباشره وهو نائم.

{وَرَأَيْتُكَ} إلى السماء {إِلَيَّ} ظاهر في رفع الجسم والروح معا كما لا يخفي.

والحاصل أن القرآن العظيم على التفسير الصحيح والسنة المتواترة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كلاهما دال على أن عيسى حي، وأنه سينزل في آخر الزمان، وأن نزوله من علامات الساعة، وأن معتمد الذين زعموا أنهم قتلوه ومن تبعهم هو إلقاء شبهه على غيره، واعتقادهم الكاذب أن ذلك المقتول الذي شبه بعيسى هو عيسى. وقد عرفت دلالة الوحي على بطلان ذلك.

**** وفيه ثبوت علو الله تعالى بذاته؛ لقوله: {وَرَأَيْتُكَ إِلَى}،**
لأن الرفع معروف أنه الصعود إلى أعلى، فإذا قال: (إلي) علم
يقيناً أن الله عز وجل فوق وهو كذلك هو فوق كل شيء بذاته.
ولا ينافي هذا ما ثبت من أنه عز وجل ينزل كل ليلة إلى
السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، هو النازل وهو عالي،
ولا ينافي هذا أيضاً أنه مع الخلق كما قال عز وجل: **{وَهُوَ مَعَكُمْ**
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤]، فهو مع الخلق وهو عال عليهم كما
قال شيخ الإسلام في الواسطية: "علي في دنوه، قريب في
علوه".

ولا ينافي هذا أيضاً أنه يأتي يوم القيامة للفصل بين العباد،
فهو يأتي ولكنه فوق كل شيء، ولا ينافي هذا أنه يدنو عشية يوم
عرفة يباهي بأهل الموقف الملائكة.
فإذا قال قائل: كيف لا ينافي هذا، أنا لا أتصور أن شيئاً
يكون عالياً نازلاً أبداً.

قلنا: أنت لا تتصور هذا بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة
للخالق فكل ما أخبر الله به عن نفسه فهو حق لا يتناقض وليس
فيه غير ممكن أبداً.

إذا قلت: لا يمكن معناه أنك لن تصدق أخبار الله ورسوله إلا إذا وافقت هواك وإلا فلا.. ولهذا ضلَّ مَنْ ضلَّ من الناس في مثل هذه الأمور حيث قالوا: هذا غير ممكن، وبنوا عقيدتهم على أهوائهم.

إذا كنت تريد أن تبني عقيدتك على هواك فما الفائدة من الرسل؟ لا فائدة من الرسل، إذا كنت أنت تريد أن تبني العقيدة على ما تهوى أنت وإذا جاءت الرسل بكلام يخالف ما عندك ذهبت تحرفه، إذن لا فائدة من الرسل.

ولهذا ينبغي أن يقبل المسلم كل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله عز وجل، ومن صفات اليوم الآخر أيضاً، لأنه في اليوم الآخر أشياء لا تكون في الدنيا: دُنُو الشمس من الناس قدر ميل يوم القيامة، ولو كان في الدنيا لاحتقرت الأرض ومن عليها، لكن أحوال الآخرة شيء آخر، وأحوال الناس مختلفة، هذا في نور وهذا في ظلمة والموقف واحد. أما في الدنيا فغير ممكن فلو أتيت بأدنى سراج معك لانتفع به من إلى جانبك. وفي الآخرة الناس يعرفون على قدر أعمالهم بالعرق، فمنهم من يلجمه العرق، ومنهم من إلى كعبيه والمقام واحد.

فأمور الآخرة وأمور الغيب كلها لا يجوز لك أن تقيسها بما تشاهده في الدنيا؛ لأن القياس هنا ممتنع، فهو قياس مع الفارق لاسيما في صفات الخالق عز وجل، فإن الفارق بعيد بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولذلك حذار أن تقيس ما أثبت الله لنفسه من صفات جل وعلا بما تعرفه من صفات المخلوقين؛ فإنك ستضل لا محالة.

{وَمُطَهَّرُكَ} تطهير معنويا لا تطهير حسيا **{مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** يريد منزله من تهم اليهود الباطلة إذ قالوا ساحر وابن زنى، ومبعده من ساحة مجتمعهم الذي تعفن بكفرهم والخبث والشر والفساد.. جعل الذين كفروا دنساً ونجساً فطهره منهم، لأن صحبة الأشرار وخلطة الفجار تنزل منزلة الدنس في الثوب. ويستفاد من هذا أولاً كفر هؤلاء، وثانياً: أن كل من رماه بذلك فهو كافر، لأنه لم يقل: "مطهرك من الذين قدحوا فيك".

{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ} اتبعوا شريعتك **{فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** وقد أنجز الله تعالى وعده فأعز أهل الإسلام ونصرهم، وأذل اليهود والكفار وأخزاهم.

**** وهذه الأخبار الأربعة ترتيبها في غاية الفصاحة، بدأ أولاً:**
بإخباره تعالى لعيسى أنه متوفيه، فليس للماكرين به تسلط عليه
ولا توصل إليه.

ثم بشره ثانياً: برفعه إلى سمائه وسكنائه مع ملائكته وعبادته
فيها، وطول عمره في عبادة ربه.

ثم ثالثاً: برفعه إلى سمائه بتطهيره من الكفار، فعم بذلك
جميع زمانه حين رفعه، وحين ينزله في آخر الدنيا فهي بشارة
عظيمة له أنه مطهر من الكفار أولاً وآخرأ.

ولما كان التوفي والرفع كل منهما خاص بزمان، بدء بهما.
ولما كان التطهير عاماً يشمل سائر الأزمان آخر عنهما، ولما
بشره بهذه البشائر الثلاث، وهي أوصاف له في نفسه، بشره
برفعة أتباعه فوق كل كافر، لتقرّ بذلك عينه، ويسر قلبه.

ولما كان هذا الوصف من اعتلاء تابعيه على الكفار من
أوصاف تابعيه، تأخر عن الأوصاف الثلاثة التي لنفسه، إذ البداءة
بالأوصاف التي للنفس أهم، ثم أتبع بهذا الوصف الرابع على
سبيل التبشير بحال تابعيه في الدنيا، ليكمل بذلك سروره بما
أوتي، وأوتي تابعوه من الخير.

****** وهذه الآية مما يطبل بها النصارى اليوم ويقولون: نحن لنا العلو إلى يوم القيامة، ليس إلى أن بعث محمد ولكن إلى يوم القيامة. فنقول: نعم صدق الله العظيم، إن الذين يتبعون عيسى لهم النصر على الكافرين إلى يوم القيامة، ولكن من الذين اتبعوا عيسى؟ هم الذين ردوا بشارته وكذبوا بمن بشر به؟! لا أبداً أنتم لم تتبعوا عيسى ووالله لو خرج عيسى لقاتلكم حتى ترجعوا إلى الإسلام، ولهذا في آخر الزمان لا يقبل إلا الإسلام، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير في آخر الزمان ولا يقبل حتى الجزية التي كانت تقبل قبل نزوله من شدة كراهته لما عليه النصارى واليهود الآن.

إن الذين اتبعوا عيسى هم الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد بعثة محمد، أما قبل بعثة محمد نعم لا شك أن أتباع عيسى هم المسلمون، وأنهم على الحق قبل أن يحرفوا ويبدلوا.

وهؤلاء النصارى الآن لم يتبعوا عيسى، ألم تسمعوا أن الله يقول يوم القيامة: **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا**

فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ {

[المائدة: ١١٦-١١٧]

{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} يوم القيامة، يعني ثم بعد هذه الغلبة في
الدنيا، إلى مصيركم، وكل المصير إلى الله عز وجل في الدنيا
وفي الآخرة، قال تعالى: {وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ} [النجم: ٤٢]

{فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ} ولذلك قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ) ففي الحديث الذي رواه أبو داود
عن شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِيٍّ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكُونُهُ بِأَبِي الْحَكَمِ، فَدَعَاهُ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ
الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟) فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي
شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنْ
الْوَلَدِ؟) قَالَ: لِي شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: (فَمَنْ
أَكْبَرُهُمْ؟) قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: (فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ) قَالَ أَبُو دَاوُدَ:
«شُرَيْحٌ هَذَا هُوَ الَّذِي كَسَرَ السِّلْسِلَةَ، وَهُوَ مِمَّنْ دَخَلَ تُسْتَرٌ»

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «وَبَلَغَنِي أَنَّ شُرَيْحًا كَسَرَ بَابَ تُسْتَرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ مِنْ سِرْبٍ»

{فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ} العذاب فعل ما به مشقة أو حصول ما به مشقة سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ) [البخاري]، وقال: (إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِكُأَةِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ) [مسلم]، يعني هذا عذاب مشقة، ومن عذاب المشقة عذاب العقوبة لأنه شاق على المعاقب، والمراد بالعذاب هنا عذاب مشقة العقوبة.

{عَذَابًا شَدِيدًا} وصف العذاب بالشدة لتضاعفه وازدياده. وقيل: لاختلاف أجناسه.

{فِي الدُّنْيَا} ما يحصل لقلوبهم من الضيق والضنك والقلق والحسرة والذلة والمسكنة وغير ذلك، وما يحصل لهم على أيدي المؤمنين من القتل والأسر والجزية وغير ذلك، فعذابهم يكون بالألم النفسي والألم البدني. ومن لم ينله شيء من هذا فهو على وجل، إذ يعلم أن الإسلام يطلبه.

وعذاب الدنيا قضية جزئية لا تقتضي الاستمرار، فعذاب الدنيا يجري على نظام أحوال الدنيا: من شدة وضعف وعدم استمرار، فمعنى انتفاء الناصرين لهم منه انتفاء الناصرين في المدة التي قدرها الله لتعذيبهم في الدنيا، وهذا متفاوت، وقد وجد اليهود ناصرين في بعض الأزمان مثل قصة أستير في الماضي وقضية فلسطين في هذا العصر.

والدنيا: هي هذه الحياة التي نحيها ووصفت بذلك لوجهين

:

١ - لدنوها لأنها سابقة على الآخرة، فهي دانية.

٢ - لنزول مرتبتها كما يقال: دنيا وعليا، فالدنيا نازلة في المرتبة عن الآخرة، مهما بلغ نعيمها فإنها نازلة عن الآخرة؛ لأن نعيم الدنيا إذا حصل فهو مشوب بالكدر.

{وَالْآخِرَةُ} بعذاب النار **{وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** تأكيد لشدة العذاب الذي لا يهونه ناصر ولا ولي من دون الله تعالى.

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} جزاء أعمالهم.. في الدنيا نصراً وتمكيناً ورضا الله عنهم، وبركاته معهم، والحياة الطيبة، وحسن الذكر. وفي الآخرة قسم المنازل في الجنة بحسب الأعمال على ما رتبها جل وعلا.

والتوفية: دفع الشيء وافياً من غير نقص، والأجور: ثواب الأعمال، شبهه بالعامل الذي يوفى أجره عند تمام عمله.

كأن هؤلاء عمال يستحقون الأجر ولا بد، حيث سمي الله جزاءهم أجراً، والأجر من المستأجر حق يجب عليه، ولكن هذا من فضل الله عز وجل وكرمه؛ لأن الذي أوجب الأجر على نفسه الله عز وجل، ولم يوجبه أحد عليه، ولو شاء لأمرنا ونهانا ولزمنا أن نطيعه بدون عوض؛ لأنه ربنا وخالقنا وما نعمله من الطاعات فإنه لا يقابل واحدة من نعمه التي لا تحصى سبحانه وتعالى، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا) [البخاري]، فهذه الأجور التي هي جزاء الأعمال التي سماها الله أجراً كالأجرة المفروضة على المستأجر لم يوجبها أحد على الله بل هو الذي أوجب على نفسه هذا الأجر رحمة منه وفضلاً.

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} أي ويحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ختم الآية بهذا مناسب؛ لأنه لما بين أن هؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات فيوفون أجورهم، بين أن هؤلاء قد قاموا بما يلزمهم

وأنهم لم يظلموا أنفسهم، ولذلك أثابهم الله عز وجل هذا الثواب العظيم، وأن الله سبحانه وتعالى لا يحب الظالمين، فلو ظلموا أنفسهم ما استحقوا هذا الثواب.

****** وفيه إثبات المحبة لله عز وجل؛ فإن قال قائل: كيف تستدلون على إثبات المحبة بنفي المحبة؟ لأنه قال: **{لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}**، فالجواب: أن نفي المحبة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم، ولو كانت منتفية عن الجميع لم يكن لتخصيصها بالظالمين فائدة، ولهذا استدل الشافعي -رحمه الله- على ثبوت رؤية المؤمنين الله بقول الله تعالى عن الفجار: **{كَأَلَا إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: ١٥]، وقال في وجه الاستدلال: "ما حجب أعداءه عن رؤيته في الغضب إلا لثبوت رؤية أوليائه له في الرضا"، وهذا واضح.

****** وفيه شؤم الظلم على الإنسان، وأنه سبب لانتفاء محبة الله له، وإذا انتفت محبة الله للعبد فقد هلك.

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ
الْمُفْتَرِينَ (٦٠)

{ذَلِكَ} إشارة إلى ما تقدم من خبر عيسى **{نَتْلُوهُ}** نقرؤه
عليك متتالياً يتلو بعضه بعضاً، وأضاف التلاوة إلى نفسه وإن
كان الملك هو التالي تشريفاً له، وفي: نتلوه، التفات، لأن قبله
ضمير غائب في قوله: **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}**، ونتلوه: معناه
تلوناه، كقوله تعالى: **{وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ}**
[البقرة: ١٠٢].. وأنت أُمِّي لا تقرأ ولا تصحب أهل الكتاب،
فهي آيات لنبوتك.

وخصه بالتلاوة عليه لأنه أشرف من يتلقى القرآن، وأقوم
الناس عملاً به، فكأنه هو المخصوص بالتلاوة عليه.

{عَلَيْكَ} أي هذا الذي قَصَصْنَاهُ عليك يا محمد في أمر
عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه
إليك قرآناً نزل به عليك من اللوح المحفوظ، فلا مزية فيه ولا
شك.

{مِنَ الْآيَاتِ} نقرؤه عليك من جملة آيات القرآن الحكيم.
{وَالذِّكْرُ} الذكر يطلق على معان منها: «الشرف» كما قال
تعالى: **{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}** [الزخرف: ٤٤]، أي: شرف

عظيم، ومنه قوله تعالى: **{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}** [الشرح: ٤]، أي: شرفك.

ويطلق الذكر على ما يحصل به «التذكر»، فيسمى الكلام الجيد المشتمل على الموعظة: ذكرى، قال الله تعالى: **{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}** [الأعلى: ٩]، أي: التذكرة.

ويطلق الذكر على «ذكر الله عز وجل» كما قال تعالى: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا}** [النساء: ١٠٣] والمراد به في هذه الآية المعنيان الأولان: الشرف وما يحصل به التذكير، فإن هذا القرآن - لا شك - أنه شرف لمن تمسك به وقام بحقه، فإنه ينال شرف الدنيا والآخرة وسعادة الدنيا والآخرة، ولم يشرف العرب ولم ينالوا السعادة والنصر والظهور إلا حين تمسكوا به.

والقرآن أيضاً ذكر من جهة التذكير؛ لأن كل إنسان يقرأ القرآن بحضور قلب فلا بد أن يتأثر به: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** [ق: ٣٧]

{الْحَكِيم} لأنه ذو حكمة في تأليفه ونظمه، ويجوز أن يكون بمعنى المحكم، كقوله تعالى: **{الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ}**

فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ { [هود: ١] محكم متقن ليس فيه اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض.

{إِنَّ مَثَلَ} المثل: الصفة المستغربة البديعة. والعرب تضرب الأمثال لبيان ما خفي معناه ودق إيضاحه، فلما خفي سر ولادة عيسى من غير أب، لأنه خالف المعروف، ضرب الله المثل بآدم الذي استقرّ في الأذهان. وعلم أنه أوجد من غير أب ولا أم، كذلك خلق عيسى بلا أب، ولا بد من مشاركة معنوية بين من ضرب به المثل، وبين من ضرب له المثل، من وجه واحد، أو من وجوه لا يشترط الاشتراك في سائر الصفات.

والمعنى الذي وقعت فيه المشاركة بين آدم وعيسى كون كل واحد منهما خلق من غير أب.

{عِيسَى} أي إن شأن عيسى وحاله الغريبة **{عِنْدَ اللَّهِ}** في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب **{كَمَثَلِ آدَمَ}** كشأن آدم فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل **{خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ}** فما بال النصارى يقولون: كيف خلق الله عيسى بلا أب ما هو إلا إنه ابن الله وجزء منه، ولم يقولوا: إن آدم ابن الله مع أنه لو كان أحد يدعي النبوة في أحد من البشر لكان الأحق بها آدم؛ لأنه ليس له أم ولا أب، فأنتم أيها النصارى أقررتم بأن آدم ليس

ابناً لله فيلزمكم أن تقرّوا بأن عيسى ليس ابناً لله؛ لأن مثل عيسى كمثل آدم خَلَقَهُ ابتداءً من تراب.

وفي هذه الآية صحة القياس أي إذا تصور أمر آدم قياس عليه جواز أمر عيسى. ففي هذه الآية بيان إقامة الحجة بمثل ما يحتاج به الخصم؛ لأنه أقام الحجة على النصارى بمثل ما احتجوا به. وكل مثل مضروب في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس.

{ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ} وقول كن تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه حيا ذا روح ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنيع يد، ولا نحت بآلة، ولكنه بإرادة وتعلق قدرة وتسخير الكائنات التي لها أثر في تكوين المراد، حتى تلتم وتندفع إلى إظهار المكون وكل ذلك عن توجه الإرادة بالتنجيز.

{فَيَكُونُ} كناية عن سرعة الخلق والتمكن من إيجاد ما يريد تعالى إيجاده.. ولم يقل: فكان، لاستحضاره صورة تكونه، مثل قوله: **{وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً}** [فاطر: ٩]

والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواهم في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا. ولكن

الرب -عز وجل- أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: {وَلَجَعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [مريم: ٢١].

قال في البحر المحيط: وهما نظيران في أن كلاً منهما أوجده الله خارجاً عما استقر واستمر في العادة من خلق الإنسان متولداً من ذكر وأنثى، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات: ١٣] والوجود من غير أب وأم أغرب في العادة من وجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه.

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} أي ما قصصناه عليك في شأن عيسى هو الحق الثابت من ربك الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأصل الحق من حق الشيء إذا ثبت، كما قال الله تعالى: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٣٣]

{فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} الشاكين، ونهيه عن الامتراء وجل رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يكون ممترياً، من باب التهيج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره. قال الراغب: ولم يكن ممترياً ليكون فيه ذم من شك في عيسى. فالمقصود التعريض بغيره، والمعرض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلهية بسبب تحقق أن لا أب لعيسى. ** وفيه أن الممترين كثيرون، وإن كان يحتمل أن يراد به الجنس فيصدق بواحد، لكن الظاهر الأول، ولا شك أن الممترين من بني آدم كثيرون؛ لأن ذرية بني آدم من كل ألف منهم تسعمائة وتسع وتسعون كلهم من أهل النار كما ورد في الصحاح.

** وفيه جواز التعريض؛ لأن قوله: **{فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}**، لا يعني أن الرسول يمكن أن يكون منهم، بل هو تعريض بهؤلاء وأنهم ذوو خلق سيئ، فلا تكن منهم وإن كان هو ليس منهم لا باعتبار الواقع ولا المستقبل.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا

وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبِّتْهُمْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ
(٦١)

{فَمَنْ حَاجَّكَ} جادلَكَ وخاصمَكَ يا محمد، وسميت
المجادلة محاجة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته من
أجل أن يغلب الآخر ويحججه، ومنه الحديث الشريف: (تَحَاجَّ
آدَمُ وَمُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى) [مسلم]، أي: طلب كل واحد
منهما أن يحج الآخر.

{فِيهِ} أي في عيسى، والمراد بالمحاجة في عيسى ليس في
ذاته؛ لأن عيسى معلوم أنه بشر لكن في شأنه وقضيته. وهذه
الآية وما قبلها كلها نزلت في وفد نصارى نجران.

{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} يعني بعد أن علمت قضيته
وشأنه وتيقنت بأنه عبد الله ورسوله، فالذي يحاجك فيه ادعه
للمباهلة.

{فَقُلْ تَعَالَوْا} أي أقبلوا، اسم فعل لطلب القدوم، وهو في
الأصل أَمَرٌ مِنْ تَعَالَى يَتَعَالَى إِذَا قَصِدَ الْعُلُو، فكأنهم أرادوا في
الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو، ثم شاع
حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور.

{ نَدُّعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ }

دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء؛ وذلك أن النبي -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمشي خلفه
وعليّ خلفها وهو يقول لهم: "إن أنا دعوت فأمنوا"

وفي مسلم: وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **{ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدُّعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ }** دَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ
وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي)

وهذا أعز ما يكون عند الإنسان في الدنيا، نفسه وأبنائه
وزوجاته يحضرون ويحضر الخصم أيضاً نفسه وأبنائه ونسائه.
قال الزمخشري: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله،
واستيقانه بصدقه، حيث استجراً على تعريض نفسه له، وعلى
ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك
الاستئصال إن تمت المباهلة.

وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل، وألصقهم بالقلوب.
وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثم
كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من
الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم «حماة الحقائق»،
وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم، وقرب

منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس يقدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لأنه لم ير واحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

{ثُمَّ نَبْتَهَلُ} نلتعن، أي: ندع بالالتعان، وأصل الابتهاال الاجتهاد في الدعاء بالتضرع واللعن وغيره.. فالابتهاال مشتق من «البَهْلُ» وهو الدعاء باللعن ويطلق على الاجتهاد في الدعاء مطلقاً لأن الداعي باللعن يجتهد في دعائه والمراد في الآية المعنى الأول.

{فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} منا أو منكم.. أي: يقول كل منا: لعن الله الكاذب منا أو منكم في أمر عيسى.
وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نصارى نجران، قال ابن اسحاق: لما أتى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دَعْنَا نُنْظِرَ فِي أَمْرِنَا، ثم نَأْتِيكَ بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا

بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتُم أن محمداً لنبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا.

قال محمد بن جعفر: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ائْتُونِي الْعَشِيَّةَ أبعث معكم القوي الأمين)، فكان عمر بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قطّ حُبِّي إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحْتُ إلى الظهر مُهَجِّراً، فلما صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم نظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتناول له ليراني، فلم يزل يلتبس ببصره حتى رأى أبا

عُبَيْدَةُ بْنُ الْجَرَّاحِ، فدعاه: (اخرج معهم، فأقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه). قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة، رضي الله عنه.

وفي البخاري عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريدان أن يلاعناهُ قال فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل فوالله لئن كان نييًّا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبننا من بعدنا قالاً إنا نعطيك ما سألتنا [أي أقرّا بالخراج] وأبعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: (لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين) فاستشرف له أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (قم يا أبا عبيدة بن الجراح) فلما قام قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (هذا أمين هذه الأمة)

وفي مسند أحمد: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال أبو جهل لئن رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي عند الكعبة لا تيئه حتى أطأ على عنقه قال فقال: (لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً) [قال شعيب الأرناؤوط: صحيح]

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع؛ لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

قال القرطبي: هذه الآية من أعلام نبوة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادي نارا فإن محمدا نبي مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى؛ فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا في كل عام ألف حُلَّة في صَفَر وألف حلة في رجب فصالحهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على ذلك بدلا من الإسلام.

والمباهلة هي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: "لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظالم منا".

وهي مشروعة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإلزام الحجة من
أعرض عن الحق بعد قيامها عليه، والأصل في مشروعيتها هذه
الآية وتسمى «آية المباهلة».

قال ابن القيم رحمه الله:

"السُّنَّة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حُجَّةُ الله ولم
يرجعوا، بل أصرُّوا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر
الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لَأُمَّتِكَ مِنْ
بَعْدِكَ "

وقال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء:

"ليست المباهلة خاصة بالرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع
النصارى، بل حكمها عام له ولأئمة مع النصارى وغيرهم؛ لأن
الأصل في التشريع العموم، وإن كان الذي وقع منها في زمنه -
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في طلبه المباهلة من نصارى نجران فهذه
جزئية تطبيقية لمعنى الآية لا تدل على حصر الحكم فيها".

** ويشترط للمباهلة شروط، من أهمها:

- إخلاص النية لله تعالى؛ وأن يكون الغرض من المباهلة
إحقاق الحق ونصرة أهله وإبطال الباطل وخذلان أهله. فلا يكون

الغرض منها الرغبة في الغلبة للتشفي وحب الظهور والانتصار للهوى ونحو ذلك.

– أن تكون المباهلة بعد إقامة الحجة على المخالف، وإظهار الحق له بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة.

– لا يجوز أن تكون في المسائل الاجتهادية التي يسوغ فيها الاختلاف.. فلا تجوز المباهلة إلا بعلم يقيني؛ لقوله تعالى: **{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}**

– أن يتبين من أمر المخالف إصراره على الباطل وعناده للحق وانتصاره للهوى؛ فإن المباهلة تسعى بالمبطل إلى لعنة الله وغضبه، ولا يجوز أن يدعى بذلك إلا لمن يستحقه من المشاقين المعاندين.

– جواز الدعاء بالله على من خالف الحق لكن بالوصف لا بالشخص؛ لأن الكاذبين وصف، أما الشخص فلا يجوز الدعاء عليه حتى لو كان كافراً.

– أن تكون في أمر هام من أمور الدين، ويرجى في إقامتها حصول مصلحة للإسلام والمسلمين، أو دفع شر المخالف. أما الأمور التي ليست بهامة فلا ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه للخطر.

قال أحمد بن إبراهيم في "شرح قصيدة ابن القيم":
"وأما حكم المباهلة: فقد كتب بعض العلماء رسالة في
شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار وكلام الأئمة،
وحاصل كلامه فيها: أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعا وقع فيه
اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة، فيشترط كونها بعد
إقامة الحجة، والسعي في إزالة الشبه، وتقديم النصح والإنذار،
وعدم نفع ذلك، ومساس الضرورة إليها".

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

{إِنَّ هَذَا} الإشارة إلى ما تقدم من أخبار عيسى {لَهُوَ}
ضمير فصل، ودخلت عليه لام الابتداء لزيادة التقوية التي أفادها
ضمير الفصل؛ لأن اللام وحدها مفيدة تقوية الخبر، وضمير
الفصل يفيد القصر، أي: هذا القصص لا ما تقصه كتب النصارى
وعقائدهم.

وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: المؤكد الأول: (إن)،
التي هي للتوكيد، والمؤكد الثاني: (اللام)، والمؤكد الثالث:
(هو)، ضمير فصل، الذي يفيد الحصر والتوكيد.

{ الْقَصَصُ } «الْقَصَصُ» اسْمٌ لِمَا يُقَصُّ، يُقَالُ: قَصَّ الْخَبَرَ
قَصًّا إِذَا أَخْبَرَ بِهِ، وَالْقَصُّ أَخَصُّ مِنَ الْإِخْبَارِ فَإِنَّ الْقَصَّ إِخْبَارٌ
بِخَبَرٍ فِيهِ طَوْلٌ وَتَفْصِيلٌ وَتُسَمَّى الْحَادِثَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يُخْبَرَ
بِهَا «قِصَّةً» أَيْ مَقْصُوصَةً أَيْ مِمَّا يَقْصُهَا الْقَصَّاصُ، وَيُقَالُ لِلَّذِي
يَنْتَصِبُ لِتَحْدِيثِ النَّاسِ بِأَخْبَارِ الْمَاضِينَ «قَصَّاصٌ» قَالَ تَعَالَى:
{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [يوسف: ٣]

{ الْحَقُّ } أي الذي قصصناه عليك في شأن عيسى عليه
السلام هو الحق الذي لا مَعْدِلَ عنه ولا محيد، وإنه عبد الله
ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

{ وَمَا مِنْ } صرّح فيه بمن الاستغراقية تأكيداً للرد على
النصارى في تثليثهم.

{ إِلَهٍ } بمعنى: مألوه، والمألوه هو المعبود محبة وتعظيماً، ولا
يصدق هذا حقاً إلا على الله عز وجل.

{ إِلَّا اللَّهُ } لا معبود بحق إلا هو تعالى.

****** وفيه أن في سلامة العقيدة الراحة التامة؛ لأنك إذا سلمت عقيدتك وآمنت بأنه ما من إله إلا الله، فإنك لن تتجه إلى من سوى الله، ولا شك أن هذا راحة، فانحصار الهدف والمقصود من أكبر أسباب راحة الإنسان، وإذا تعددت الأهداف والمقاصد تبيل الإنسان، ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: "من بورك له في شيء فليلزمه"، أي شيء يبارك لك فيه، وترى أنك مطمئن إليه سواء كان سيارة أو بيتاً أو زوجة أو صاحباً فالزمه، فإنه خير من أن تنتقل إلى غيره.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الغالب الذي لا يمانع في شيء أرادته، و(ال) هنا تفيد الاستغراق أي جميع أنواع العزة ثابتة الله سبحانه وتعالى.

{الْحَكِيمُ} في خلقه وتدبيره.

والآية أفادت تقوية الخبر عن الله تعالى بالعزة والحكم، والمقصود إبطال إلهية المسيح على حسب اعتقاد المخاطبين من النصارى، فإنهم زعموا أنه قتله اليهود وذلك ذلة وعجز لا يلتئمان مع الإلهية، فكيف يكون إله وهو غير عزيز وهو محكوم عليه، وهو أيضاً لإبطال لإلهيته على اعتقادنا؛ لأنه كان محتاجاً لإنقاذه من أيدي الظالمين.

وفيه إشارة إلى وصفي الإلهية وهما: «القدرة» الناشئة عن الغلبة فلا يمتنع عليه شيء، و «العلم» المعبر عنه بالحكمة فيما صنع والإتقان لما اخترع، فلا يخفى عنه شيء. وهاتان الصفتان منفيتان عن عيسى.

وكل عزيز إذا اقترن في عزته بالحكمة والحكم كملت عزته، وذلك لأن العزيز إذا غلب ولم يكن له حكمة أدته غلبته إلى الطيش وعدم ضبط النفس، فإذا اجتمعت العزة والحكمة كمل الموصوف بهما.

والحكيم مشتق من الحكم والإحكام، فهو سبحانه وتعالى الحاكم ولا حاكم غيره، وهو المحكم أي المتقن لما حكم به سواء كان الحكم كونياً أو شرعياً، والحكمة أو الإحكام الذي بمعنى الإتقان هو وضع الشيء في موضعه اللائق به بحيث لا يقال: إن هذا غير لائق أو هذا غير موافق، بل يكون موافقاً مطابقاً لما تقتضيه المصلحة.

والحكم نوعان: حكم كوني، وحكم شرعي.
فالحكم الكوني: ما قضى به الله قدراً.
والحكم الشرعي: ما قضى به شرعاً.

والفرق بينهما ظاهر؛ الحكم الشرعي يتعلق فيما يحبه الله عز وجل فعلاً أو تركاً، فإن نهى عن شيء فهو يحب تركه، وإن أمر بشيء فهو يحب فعله. ويمكن أن يتخلف الحكم الذي حكم الله به شرعاً.

أما الحكم الكوني فيتعلق فيما يحبه وما لا يحبه، ولا يمكن أن يتخلف، فلا بد أن يكون.

** وفيه أن واجبنا نحو أحكام الله الكونية والشرعية التسليم والرضا والقناعة وأن لا نطلب سواها؛ لأننا نعلم أنها مبنية على الحكمة، ولهذا كان السلف الصالح -رضي الله عنهم- بل كل مؤمن إذا قضى الله ورسوله أمراً لم يكن لهم الخيرة من أمرهم، حتى إنهم يجيبون إذا سئلوا عن الحكمة بقال الله وقال رسوله، فعائشة رضي الله عنها لما سألتها المرأة: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: "كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة"، والمؤمن حقاً، والعابد حقاً هو الذي يقتنع بما لا يعرف حكمته كما يقتنع بما يعرف حكمته، هذا هو المؤمن حقاً، أما الذي لا يقتنع بحكم الله إلا إذا عرف حكمته فهو في الحقيقة ليس عابداً لله على وجه الكمال، بل هو عابد لهواه، إن تبينت له الحكمة اقتنع، وإن لم تبين لم

يقتنع ولهذا نرى أن في إيجاب رمي الجمرات -وهي الحصى- في مكان معين.. نرى أن فيها مع إقامة ذكر الله عز وجل الذي نص عليه الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تمام العبودية وكمالها؛ لأن كون الإنسان يحمل حصى يرميها في مكان معين تعبدًا لله هو من كمال العبودية، أما كون الإنسان -مثلاً- يصلي أو يتجنب الزني خوفاً من الله ورجاء لثوابه في الصلاة فهذا واضح الحكمة فيها، لكن كونه يرمي حجرات -حصيات- في مكان معين قد لا تتضح الحكمة فيها لولا أن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بين أنها لإقامة ذكر الله وفيها تمام العبودية.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} أعرضوا عن الإقرار بالوحدانية والتنزيه عن صاحبة الولد وقبول الحق الذي قصصنا عليك بعد ما عاينوا تلك الحُجَجَ النَّيرةَ والبراهينَ الساطعة.

{فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} عبر عن العقاب بالعلم الذي ينشأ عنه عقابهم، ونبه على العلة التي توجب العقاب، وهي الإفساد، ولذلك أتى بالاسم الظاهر دون الضمير فلم يقل: "عليم بهم".

وأتى به جمعاً ليدل على العموم الشامل لهؤلاء الذين تولوا
ولغيرهم، لأن الإعراض عن التوحيد والحق الذي لا محيد عنه
بعد ما قامت به الحجج إفساداً للعالم.
ودل على أن توليهم إفساد أي إفساد. وفيه من شدة الوعيد
ما لا يخفى، فالمفسد الله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر
الجزاء، وهو القادر، الذي لا يفوته شيء.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ
وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٦٥) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ
تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ
كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ

أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

{قُلْ} يا محمد.. والقاعدة أن الله تعالى إذا صدر الشيء
بقول الموجه للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه يقتضي زيادة
العناية به؛ لأنه أمر بأن يبلغ هذا الشيء بخصوصه، وإلا فإن
جميع القرآن مأمور النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يقوله.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} يعني بهم اليهود والنصارى، وإنما وصفوا
بأهل الكتاب لأنه لا يوجد كتب منزلة باقية آثارها -وإن كان بها
تحريف وتغيير- إلا التوراة والإنجيل، وإلا فإنه ما من رسول إلا
ومعه كتاب يدعو به كما قال تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ
وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ}** [الحديد: ٢٥]

وخاطبهم بـ **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}**، هزأ لهم في استماع ما يلقي
إليهم، وتنبيهاً على أن من كان أهل كتاب من الله ينبغي أن يتبع
كتاب الله.

{تَعَالَوْا} ارتفعوا من وهدة الباطل التي أنتم واقعون فيها.
{إِلَى كَلِمَةٍ} والكلمة هنا أطلقت على الكلام الوجيز كما في
قوله تعالى: **{كَأَلَا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا}** [المؤمنون: ١٠٠]، وإما

لكون الكلمات مرتبطة بعضها ببعض، فصارت في قوة الكلمة الواحدة إذا اختلّ جزء منها اختلت الكلمة.

{سَوَاءٌ} كلمة عدل وإنصاف، لا تختلف فيها الشرائع.. نستوي نحن وإياكم فيها، واتفقت عليها جميع الرسل والكتب التي أنزلت إليهم.

ولما قطعهم بالدلائل الواضحة فلم يذعنوا، ودعاهم إلى المباهلة فامتنعوا، عدل إلى نوع من التلطف، وهو: دعاؤهم إلى كلمة فيها إنصاف بينهم.. قال ابن زيد: لما أبى أهل نجران ما دعوا إليه من الملاعنة، دعوا إلى أيسر من ذلك، وهي الكلمة السواء.

{بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} ثم فسر الكلمة بقوله: **{أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ}** أي لا نخضع ولا نذل الذل المطلق والخضوع المطلق إلا لله وحده عز وجل لأن العبادة يراد بها الذل والخضوع الكامل المطلق، ويراد بها المتعبد به أي العبادات التي يقوم بها العبد، فهي تشمل هذين المعنيين.

ومن مقتضيات العبودية الإقرار بأن له تعالى وحده السلطة المطلقة في التدبير والتشريع والتحريم والتحليل.

{وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا} توكيدا للتوحيد، أي ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة من الشركاء والوسطاء والأرباب الذين يحللون ويحرمون، وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** [النحل: ٣٦]

{وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا} جمع ربّ وهو المألوه المطاع.. وفيه إشارة لطيفة، وهي أن البعضية تنافي الإلهية إذ هي تماثل في البشرية، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم: **{إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}** [إبراهيم: ١٠]

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: ١١] **{فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}** [المؤمنون: ٤٧] فادعاء الإلهية فيهم ينبغي أن يكونوا فيه أشد استبعاداً.

{مَنْ دُونِ اللَّهِ} لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى، وهو نظير قوله تعالى: **{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}** [التوبة: ٣١] معناه أنهم أنزلوهم

منزلة ربهم، في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله تعالى ولم يحله، وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد، الذي لا يستند إلى دليل شرعي.

**** وفيه أن الحكم بين الناس والعبادة مقترنان؛ لأن الله قرن بينهما، {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ}، لأنك لن تعبد الله إلا بشريعته، إذن يلزم أن يكون المشرع هو المعبود.**

**** وفيه أنه لا يصلح حال البشرية ولا يستقيم أمرها إلا إذا أخذت بمبدأ: «الكلمة السواء» وهي: أن تعبد ربها وحده لا تشرك به سواه، وأن لا يعلو بعضها على بعض تحت أيّ قانون أو شعار.**

**** وفيه أن من دعا الناس إلى حل أو حرام، لكن بإذن الله وشرعه، فهو على حق تؤخذ من قوله: {مِن دُونِ اللَّهِ} فهو سبحانه وتعالى لم يقل: {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا} فحسب بل قال: {مِن دُونِ اللَّهِ}.**

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} أعرضوا عن هذا النصف وهذه الدعوة إلى التوحيد.

{فَقُولُوا اشْهَدُوا} اعلّموا علم رؤية ومشاهدة، وعبر عن العلم بالشهادة على سبيل المبالغة، إذ خرج ذلك من حيز المعقول إلى حيز المشهود، وهو المحضر في الحسّ.

{بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} منقادون إليها، وهذا مبالغة في المباينة لهم، أي: إذا كنتم متولين عن هذه الكلمة، فإننا قابلون لها ومطيعون.. وفي هذا تعريض بل تصريح بأن غيرهم ليسوا مسلمين.

****** وفيه أنه ينبغي للمسلم أن يعتز بدينه، وأن يعلنه، ويشهره، خلافاً للضعفاء الذين عندهم هزيمة نفسية، وقلة دين، الذين يستترون بدينهم مخافة أن يعيروا به.

وهذه الآية كانت في الكتاب الذي وجه به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل.

روى البخاري عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال حين قرأه التمسوا لي

هَـا هُنَا أَحَدًا مِّنْ قَوْمِهِ لِسَأَلِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

إِلَى أَنْ قَالَ

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَرَأَ
فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى هِرْقَلٍ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي
أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلِمًا وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ
فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ [هم الأكارون أي الفلاحون
والزراعون والمعنى إن عليه إثم رعاياه الذي يتبعونه وينقادون
بإنقياده] وَ{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ} استفهام للإنكار والتوبيخ {تُحَاجُّونَ فِي
إِبْرَاهِيمَ} في شأنه وحاله، فتدعي كل طائفة منكم أن إبراهيم كان
على دينها، أو تقول إنها على دين إبراهيم.. وفيه إشارة إلى علو
شأن إبراهيم -عليه السلام- ومنزلته بين جميع الطوائف.

{وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} لأن التوراة
والإنجيل لم يرد فيهما التصريح بأنهم دين إبراهيم، وأن موسى

وعيسى -عليهما السلام- لم يخبرا بأنهما على الحنيفية.. وهذا هو الفارق بين انتساب الإسلام إلى إبراهيم وانتساب اليهودية والنصرانية إليه، فلا يقولون وكيف يدعى أن الإسلام دين إبراهيم مع أن القرآن أنزل من بعد إبراهيم كما أنزلت كما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده.

قال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢]

{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: ١٣٥]

{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]

{إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٦٨]

ويقال: كان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين.. وفيه حجة التاريخ وبيان الحاجة إليه.

وبني الفعل للمجهول للعلم بالمُنزل وهو الله عز وجل،
والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وفي هذه السورة نفسها، وفي أولها
{نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ} [آل عمران: ٣]

وهذا نظير قوله تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً}
[النساء: ٢٨] فالخالق هو الله عز وجل لكن حذف للعلم به،
ولكن لما كان الضعف صفة نقص بني الفعل هنا للمجهول كما
بني للمجهول في قوله: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: ١٠] فالشر لم يضيفوه إلى الله
مباشرة تأدبا، والرشد أضافوه إلى الله مباشرة.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أي: هذا كلام من لا يعقل، إذ العقل يمنع من
ذلك.. توبيخ على استحالة مقاتلتهم، وتنبية على ما يظهر به
غلطهم ومكابرتهم.

والمراد بالعقل هنا «عقل الرشد» وليس «عقل الإدراك»؛
لأن هؤلاء عندهم عقل إدراك، والفرق بينهما أن عقل الإدراك
مناطق التكليف وعقل الرشد مناطق التصرف، يعني أن عقل الرشد
يكون به حسن التصرف من العاقل، وعقل الإدراك يكون به
توجيه التكليف إلى العقل، ولهذا يقال للرجل العاقل الذكي إذا

أساء في تصرفه، يقال: هذا مجنون، هذا غير عاقل مع أنه من حيث عقل الإدراك عاقل.

****** وفيه بيان الاحتجاج بالعقل، وأنه لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال، كما لا ينبغي الاعتماد عليه وحده وترك النص. فالحاصل أن في هذه الآية اعتبار العقل دليلاً؛ ولكن بشرط أن لا يخالف الشرع، فإن خالف الشرع فالأصح أن نقول: إنه ليس بعقل؛ لأن «صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول أبداً». لكن إذا ظن أن العقل يخالفه فإما أن تكون لا مخالفة، وإما أن يكون السمع غير ثابت، وإما أن يكون العقل غير صحيح، ملوث بالشبهات والشهوات.

{هَا} حرف تنبيه نبهوا بها على حالهم التي غفلوا عنها.. والتنبيه هنا حسن، وذلك لأنه يخاطب قومًا لمزهم بعدم العقل والذي ليس عنده عقل ينبغي أن يصدر الخطاب له بما يقتضي تنبيهه لأنه غافل، والغافل يتصرف تصرف مجنون فاحتيج إلى أن ينبه فلذلك أتى بهاء التنبيه.

{أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ} عنادا وضلالا **{فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}** على ما ترعمون من أمر عيسى، وقد قامت عليكم الحجة، وتبين

أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته، ومنكم من فرط وقال: إنه دعي كذاب، ولم يكن علمكم بمانع لكم من الخطأ.

{فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} فلماذا تحاجون في أمر إبراهيم، وليس لكم به علم، ولا لدينه ذكر في كتبكم، فمن أين أتاكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا؟!

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ} ما حاجتكم فيه **{وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** أي والله يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه، ولم تأتكم به الرسل من أمر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه، وأنتم لا تعلمون إلا ما عاينتم وشاهدتم وأدرتكم علمه بالسمع.. وهو تأكيد لما قبله من نفي العلم عنهم في شأن إبراهيم.

ونفي العلم عنهم هنا ليس رفعا للإثم عنهم، ولكنه إيدان بجهلهم وجهالتهم، وأن تصرفهم كتصرف الجاهل. فهو في الأول قال: **{لا تعقلون}**، وفي الثاني قال: **{لا تعلمون}**، فجمعوا بين السفه في الرأي والتدبير، وبين الجهل في العلم والتصور.

{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} وكرر **{لا}** لتأكيد النفي عن كل واحد من الدينين. ثم استدرك ما كان عليه بقوله **{وَلَكِنْ}**

ووقعت لكن هنا أحسن موقعها، إذ هي واقعة بين النقيضين بالنسبة إلى اعتقاد الحق والباطل.

{كَانَ حَنِيفًا} الحنيف: المائل عن الشرك والعقائد الزائفة إلى ملة الحق وهي الإسلام.

{مُسْلِمًا} لأنهم يعرفون معنى الحنيفية ولا يؤمنون بالإسلام، فأعلمهم أن الإسلام هو الحنيفية.

والمعنى: كان منقاداً لله مطيعاً، والحنيفية والإسلام من الأوصاف التي يختص بها كل ذي دين حق، ولذلك قال تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}** [آل عمران: ١٩] إذ الحنيف هو المائل للحق، والمسلم هو المستسلم للحق، وقد أخبر القرآن بأن إبراهيم **{كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}**

****** وفيه الإشارة إلى ما اشتهر عند الناس من أن «التحلية قبل التحلية» يعني البداءة بالنفي قبل الإثبات؛ فهنا بدأ بالنفي وهو **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا}** ثم أثبت بقوله: **{وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}** والظاهر أن هذا الترتيب موافق للطبيعة؛ لأنك تخلي الشيء مما يشينه أولاً، ثم تضيف ما يكون به الكمال ثانياً، وفي حديث الاستفتاح في الصلاة: (اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ

نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ
اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرْدِ [مسلم] فالمباعدة
أن لا أمارس الذنوب والخطايا، والتنقية أن يزال هذا الأذى،
والغسل أن يطهر وينظف.

{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وهذا ثناء على إبراهيم عليه
الصلاة والسلام بأنه لم يكن فيه صفة من صفات المشركين، ولم
يقُل: لم يكن مشركاً. فليس فيه صفة من صفات المشركين أبداً،
لا الشرك ولا غيره. وهكذا ينبغي لكل مؤمن أن لا يتصف بأي
صفة من صفات المشركين. فمثلاً من صفات المشركين كراحتهم
للتوحيد وينكرونه ويقولون: **{أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا
لَشَيْءٌ عَجَابٌ}** [ص: ٥] فمن كره التوحيد وإن لم يكن مشركاً
ففيه من صفات المشركين، بل قد يكون كافراً.

ولما كان الكلام مع اليهود والنصارى، كان الاستدراك بعد
ذكر الانتفاء عن شريعتهم، ثم نفى على سبيل التكميل للتبري
من سائر الأديان كونه من المشركين، وهم: عبدة الأصنام،
كالعرب الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم، وكالمجوس
عبدة النار، وكالصابئة عبدة الكواكب، ولم ينص على تفصيلهم،
لأن الإشراك يجمعهم.

وقيل: أراد بالمشرّكين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيزاً
والمسيح، فتكون هذه الجملة تأكيداً لما قبلها من قوله {مَا كَانَ
إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا}.. وليس المراد أن أصل شريعة
موسى وعيسى لم تكن صحيحة.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}
[البقرة: ١٣٥]

{إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ} أحق الناس بالنسبة إلى إبراهيم
والانتماء إليه وموالاته.

{لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} في زمانه: مثل لوط وإسماعيل وإسحاق..
وغير زمانه، فيدخل فيه متبعوه في زمان الفترات، وعنى بالأتباع
أتباعه في شريعته.

{وَهَذَا النَّبِيُّ} وخص بالذكر من سائر من اتبعه لتخصيصه
بالشرف والفضيلة -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا} آمنوا من أمة محمد، وخصوا أيضاً بالذكر
تشريعاً لهم، إذ هم أفضل الأتباع للرسول، كما أن رسولهم أفضل
الرسول.

وفي الآية دليل على أن الأولويات تختلف، أي أن الناس يتفاضلون بالأولوية والولاية؛ لقوله: **{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ}** وأولى اسم تفضيل، والتفضيل يدل على المفضل.

ولا شك أن الولاية درجات .. فأحق الناس بالولاية الإبراهيمية من اتبعه يعني القوم الذي اتبعوه في عهده؛ لأن القوم الذين اتبعوه في عهده اتبعوه في أصل الدين، وفي فروع الدين، يعني في جليل الدين ودقيقه. ولهذا قدم الذين اتبعوه على النبي والذين آمنوا؛ لأن نبي الله والذين آمنوا لم يتبعوا إبراهيم في فروع الشريعة بل **{لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}** [المائدة: ٤٨] لكن اتبعوه في أصل الدين والاستسلام لله عز وجل. وإلا فلا شك أن النبي محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أفضل من الذين اتبعوا إبراهيم، بل وأتباع الرسول أفضل من أتباع إبراهيم.

** وفيه أن المؤمنون بعضهم أولياء بعض وإن تناهت ديارهم وتباعدت أقطارهم.

{وَاللَّهُ وَلِيٌّ} جميع **{الْمُؤْمِنِينَ}** تذييل.. أي هؤلاء هم أولى الناس بإبراهيم، والله ولي إبراهيم، والذين اتبعوه، وهذا النبي، والذين آمنوا؛ لأن التذييل يشمل المذيل قطعاً.

فهو سبحانه متولي أمورهم وناصرهم ومجازيهم بالحسنى.
وهذا نظير قوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]

وهذه الولاية ولاية خاصة تقتضي أن ييسر المؤمن ليسرى،
ويجنب العسرى. وهناك ولاية عامة شاملة لكل أحد. فالله تعالى
ولي كل أحد ولهذا قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ
تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ}
[الأنعام: ٦١-٦٢]، فالله تعالى مولى لهؤلاء وهم كفار لكن هذا
بالولاية العامة، والولاية العامة هي ولاية التصرف.. التصرف في
الكون والتدبير، والولاية الخاصة ولاية العناية بالمولى، وعليه فإن
الله تعالى يعتني به فييسره ليسرى ويجنبه العسرى.

** وفيه أن كل من كان أكمل إيماناً فولاية الله له أكمل وأتم
وأخص، هذه فائدة أخذناها من قاعدة معروفة عند أهل العلم
وهي: «أن الحكم المعلق بوصف يزداد قوة بقوة هذا الوصف
فيه» هذه قاعدة مفيدة... فإذا قلت مثلاً: أنا أحب الصالحين
معناه كل من كان أصلح فهو أحب إليّ؛ لأن المحبة علقت
بالصلاح، فكلما ازداد الصلاح ازدادت المحبة

ويتفرع على هذه الفائدة أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه
ويكمله بقدر استطاعته من أجل أن ينال ولاية الله تعالى.
وفيه تعريض بأن الذين لم يكن إبراهيم ليس منهم ليسوا
بمؤمنين.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(٧١)

{وَدَّتْ} تمت، وقيل: أحبت، والود: «خالص المحبة». ومن أسماء الله تعالى (الودود) بمعنى الواد والمودود. فهو سبحانه واد لأوليائه وأصفيائه، وهو أيضاً مودود من أوليائه وأصفيائه.

{طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} وهم الأحرار والرهبان القسس والرؤساء فيهم.

{لَوْ يُضِلُّونَكُمْ} تمنّوا إيقاعكم في الضلال لتشقوا وتهلكوا مثلهم، وقال ابن عباس: "يردّونكم إلى كفركم".

وهذا الضلال الذي أرادوه بالمسلمين يمكن أن يفسر بآية
سورة البقرة: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ هَلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ نَفْسِهِمْ} [البقرة: ١٠٩]

** وفيه بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين حيث يودون لهم
الإضرار، والطائفة من القوم، والغالب أن مشرب بقية القوم
مشربها، فإذا كانت هذه الطائفة تود هذا فغيرها كذلك.

** وفيه التحذير من أهل الكتاب وأنهم يحاولون صد
المسلمين عن دينهم كالمشركين، وكل من الطائفتين تودان من
المسلمين الضلال، يقول تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا
فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء: ٨٩]، وقال تعالى عن المشركين من
قريش: {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [المتحنة: ٢]

فكل المشركين وكل الملحدين، أو كل من ادعى أنه صاحب
كتاب.. كلهم ينبغي على المسلمين أن يعتقدوا أنهم أعداء
ألداء، ويودون أن يقضوا علينا وعلى ديننا بين عشية وضحاها،
وأن يأخذوا الحذر منهم.

** وفيه الرد على كل شخص يدعي أو يتوهم أن الكفار
يريدون الخير بالمسلمين.

****** وفيه إحاطة علم الله بما في قلوب الخلق؛ لقوله: **{وَدَّتْ طَائِفَةٌ}** فإن الود محله القلب، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى.

{وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} لأن الإضلال ضلال **{وَمَا يَشْعُرُونَ}** وما يدرّون ولا يعلمون أن وباله راجع إليهم حيث يتوغلون في الشر فيضاعف لهم العذاب بضالّهم وإضلالهم. وهم لا يفطنون لذلك لمّا دق أمره وخفي عليهم لما اعترى قلوبهم من القساوة.

أو: ما يشعرون أن الله يدل المسلمين على حالهم، ويطلعهم على مكرهم وضالّتهم، ذكره ابن الجوزي.

وفي قوله: **{وَمَا يَشْعُرُونَ}**، مبالغة في ذمهم حيث فقدوا المنفعة بحواسهم.

****** وفيه تعزية المسلمين بما يريده بهم هؤلاء من الإضلال، فكأن الله تعالى قال: لا تخافوا منهم فإن الإضلال إنما يعود عليهم.. ولكن هذا في حق المؤمنين حقا الذين يؤمنون بدينهم ويفخرون به، ويعتزون به دون الذين يجعلون دينهم أقوال باللسان، أو حروفاً على الأوراق، وهم في الحقيقة يتبعون

غيرهم، ويعظمون غيرهم في نفوسهم، فإن هؤلاء ربما يصابوا
برجس هؤلاء الكفار الذين يريدون إضلالهم.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ } التفات، وخطاب من الله لأهل الكتاب
على سبيل التوبيخ.

{ لَمْ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } المنزلة على نبيه محمد - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتجددون رسالته.

{ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } أنها من عند الله، وأنه نبي الله، وهو
منعوت عندكم في التوراة والإنجيل، والمراد أحبارهم، أو
تشهدون أنه نبي الله بالمعجزات الواضحات.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ } إعادة ندائهم ثانية لقصد التوبيخ وتسجيل
باطلهم عليهم.

{ لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } أي خلطه به، كأنما كسا الباطل
ثوب الحق حتى لا يُعرف فيؤخذ به.

ولبس الحق بالباطل تلبس دينهم بما أدخلوا فيه من
الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة
بجميعه.

قال أبو علي: يتأولون الآيات التي فيها الدلالة على نبوة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على خلاف تأويلها، ليظهر منها للعوام خلاف ما هي عليه، وأنتم تعلمون بطلان ما تقولون.

وقيل: هو ما ذكره تعالى بعد ذلك من قوله: **{وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاتَّكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [آل عمران: ٧٢]

وقرأ يحيى بن وثاب: تلبسون، بفتح الباء مضارع: «لبس»، جعل الحق كأنه ثوب لبسوه، والباء في: بالباطل، للحال أي: مصحوباً بالباطل.

{وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ} يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها.

والظاهر أنه أنكر عليهم لبس الحق بالباطل، وكتم الحق، وكأن الحق منقسم إلى قسمين: قسم خلطوه بالباطل حتى لا يتميز، وقسم كتموه بالكلية حتى لا يظهر.

{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} جملة حالية تنعي عليهم ما التبسوا به من لبس الحق بالباطل وكتمانه، أي: لا يناسب من علم الحق أن يكتمه، ولا أن يخلطه بالباطل.

وقيل: "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ الحق"، بل وتعلمون حالكم أنكم لا بسوا الحق بالباطل، فهم يعلمون الأمرين: يعلمون الحق الصريح، ويعلمون أنهم قد خلطوا الحق بالباطل، ولا سيما اليهود، لأن اليهود عصوا الله وهم يعلمون أنهم عصوه، فعصوا الله على بصيرة.

وختمت الآية قبل هذه بقوله: **{وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}** وهذه بقوله: **{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** لأن المنكر عليهم في تلك هو الكفر بآيات الله، وهي أخص من الحق، لأن آيات الله بعض الحق، والشهادة أخص من العلم، فناسب الأخص الأخص، وهنا «الحق» أعم من الآيات وغيرها، و «العلم» أعم من الشهادة، فناسب الأعم الأعم.

والشهادة أقوى لكونها تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسه والمشاهدة بالحس أقوى من المشاهدة بالذهن.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى
الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى
اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ
قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ
(٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ (٧٤)

لما ذكر الله تعالى مكرهم بالقول في الآية السابقة {يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}
[آل عمران: ٧١] ذكر مكرهم بالحيل الفعلية، وقيل: الطائفة
الأولى حاولت الإضلال بالمجاهرة، وهذه الطائفة حاولته
بالمخادعة:

{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا} أظهروا الإيمان، ولا
يمكن أن يراد به التصديق.

{بِالَّذِي أُنْزِلَ} يعني القرآن، وإن شئت فقل الشريعة كلها.
{عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} أي: على زعمهم، وإلاّ فهم يكذبون، ولا
يصدقون أن الله أنزل شيئاً على المؤمنين.. أي أن اليهود أطلقوا
هذه الصلة على أتباع محمد إذ صارت علما بالغلبة عليهم.

{وَجْهَ النَّهَارِ} أوله وهو الصباح، شبه بوجه الإنسان إذ هو أول ما يواجهه منه.

والدليل على أن المراد بوجه النهار أوله قوله: **{وَإِكْفُرُوا آخِرَهُ}** وهذه إحدى الطرق التي يعلم بها معنى الكلمات في القرآن الكريم، أن يعلم معنى الكلمة بذكر مقابلها كقوله تعالى: **{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ الْفِرُّوا جَمِيعًا}** [النساء: ٧١] ثبات يعني وحداناً متفرقين.

{وَإِكْفُرُوا آخِرَهُ} واجحدوا به مساءً، مُرائين لهم أنكم آمنتم به بادي الرأي من غير تأملٍ ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم عنه، والغرض هو بلبلة أفكار المسلمين وإدخال الشك عليهم.

واختيار وجه النهار، لأنه وقت اجتماعهم بالمؤمنين يراءونهم، وآخره لأنه وقت خلوتهم بأمثالهم من الكفار.

{لَعَلَّهُمْ} أي المؤمنين **{يَرْجِعُونَ}** عن دينهم.

فهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصّلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدَّهم إلى دينهم

اطَّلَاعُهُمْ عَلَى نَقِيصَةِ وَعَيْبِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ. لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ هَذَا دِينَ بَاطِلٍ لَمْ يَرْجِعُوا.

وَلِذَلِكَ سَأَلَ هِرْقَلُ أَبَا سَفْيَانَ حِينَمَا لَاقَاهُ فِي الشَّامِ عَنْ أَصْحَابِ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخَطَةٌ لَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةُ الْقُلُوبِ " [البخاري]

وَقِيلَ أَشِيرَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ، أَغْوَاهُمُ الْعَجَبُ بِدِينِهِمْ فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ قَدَوَةٌ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا أُعِيتَهُمُ الْمَجَاهِرَةُ بِالْمُكَابَرَةِ دَبَرُوا لِلْكَيْدِ مَكِيدَةً أُخْرَى، فَقَالُوا لَطَائِفَةٌ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ: آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهَارِ مَظْهَرِينَ أَنْكُمْ صَدَقْتُمُوهُ ثُمَّ اكْفَرُوا آخِرَ النَّهَارِ لِيُظْهَرَ أَنْكُمْ كَفَرْتُمْ بِهِ عَنْ بَصِيرَةٍ وَتَجَرِبَةٍ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: "مَا صَرَفَ هَؤُلَاءِ عَنَّا إِلَّا مَا انْكَشَفَ لَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِ هَذَا دِينٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدِّينُ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ". فَفَعَلُوا ذَلِكَ.

وَهَذَا الضَّلَالُ الَّذِي أَرَادُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ يُمْكِنُ أَنْ يَفْسَرَ بِآيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ هَلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ نَفْسِهِمْ} [البقرة: ١٠٩]

****** وفيه التوبيخ لمن سلك هذا المسلك. ووجه ذلك: أن تخصيص التوبيخ لأهل الكتاب ليس تخصيصاً للشخص والعين ولكنه بالجنس والنوع والوصف، فكل من كان على شاكلتهم فإنه يستحق هذا التوبيخ.

{وَلَا تُؤْمِنُوا} لا تصدقوا {إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ} من أهل ملتكم، وهذا صرف من رؤسائهم للأتباع عن الإسلام وقبوله، أي لا تصدقوا المسلمين فيما يقولون لكم.

أو لا تطمئنوا وتظهروا سرکم وما عندكم إلا لمن اتبع دينكم.. كأنهم يقولون: اخفوا هذه الطريقة إلا على من تبع دينكم، فمن تبع دينكم أخبروه، أما غيرهم فلا تخبروهم.

{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ} من كلام الله تعالى مخاطباً لنبيه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

أي هو تعالى الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان ويثبتهم عليه، بما ينزله على عبده ورسوله محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات.

وهذه الجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها، لكنها في محل موافق تماماً، ومفيدٌ لكون كيدهم غير مُجدٍ لطائل.. ومعنى

الاعتراض أنه أخبر تعالى بأن ما راموا من الكيد والخداع بقولهم:
{آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ..} الآية، لا يجدي شيئاً،
ولا يصدّ عن الإيمان من أراد الله إيمانه، لأن الهدى هو هدى
الله، فليس لأحد أن يحصله لأحد، ولا أن ينفيه عن أحد.. وفي
هذا الجواب إظهار الاستغناء عن متابعتهم.

{أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} كلام متصل بقول الطائفة
{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ}.. والمعنى: قلت ذلك القول
ودبرتم تلك المكيدة، حسداً وخوفاً من أن تذهب رئاستكم،
ويشارككم أحد فيما أوتيتم من فضل العلم. فلا تظهروا ما
بأيديكم من العلم للمسلمين فيتعلمون منكم فيساووكم في العلم
به، وتكون لهم الأفضلية عليكم ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان
به.

فتقدير الكلام لأن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ومنه قوله
تعالى: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦] أي لئلا
تضلوا.

** وفيه: أن هؤلاء الذين صنعوا هذه الخديعة بينوا وأظهروا
أن الذي حملهم على ذلك هو الحسد؛ لقوله تعالى: {أَنْ يُؤْتَى
أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}؛ لأن اليهود من أبرز صفاتهم الحسد، قال

تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقرة: ١٠٩] {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: ٥٤]

{أَوْ} حرف «أو» للتقسيم مثل: {وَلَا تُطْع مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كُفُورًا} [الإنسان: ٢٤]، {يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} أي: يتخذوا العلم مما بأيديكم حجة عليكم، فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة فيغلبوكم ويدحضوا حجتكم عند الله في الدنيا والآخرة. وقيل يخاصموكم يوم القيامة عند ربكم يوم القيامة وتكون لهم الحجة عليكم إن أنتم اعترفتم لهم اليوم بأن نبيهم حق ودينهم حق، فلذا واصلوا الإصرار أنه لا دين حق إلا اليهودية وأن ما عداها باطل. فقالوا ذلك حسداً حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- من غيرهم.. وهذا القول -على هذا المعنى- ثمرة الحسد والكفر مع المعرفة بصحة نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-.. وهو قول معطوف على قولهم: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ}.

كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ { [الحج: ١٧] وقال تعالى:
{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١]

{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ} هو النبوة والهدى والتوفيق للإيمان والهداية
للإسلام وما يتبع ذلك من خير الدنيا والآخرة.

{بِيَدِ اللَّهِ} بيد الله لا بيد غيره، أي: متصرف فيه كالشيء في
اليد، وهذه كناية عن قدرة التصرف والتمكن فيها.

أي: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يَمُنُّ
على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء
ويُعمي بصره وبصيرته، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على
بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة.

والآية تأكيد لمعنى {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ} وفي ذلك
تكذيب لليهود حيث قالوا: شريعة موسى مؤبدة ولن يؤتي الله
أحداً مثل ما أوتي بنو إسرائيل من النبوة، فالفضل هو بيد الله.

{يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} من عباده ويحرمه من يشاء.

** وفيه إثبات المشيئة لله تعالى؛ ولا أحد ينكر إثبات مشيئة
الله، فما يتعلق بفعله تابع لمشيئته، ولا يكون إلا بمشيئته، ولكن
اختلفت الأمة في فعل العبد هل يكون بمشيئة الله أو لا يكون؟

فأهل السنة والجماعة قالوا: إنه يكون بمشيئة الله مع إثبات
إرادة العبد، أي فعل العبد بمشيئة الله مع إثبات إرادة العبد له.
وذهبت القدرية -مجوس هذه الأمة- إلى أن فعل العبد لا
يقع بمشيئة الله، وأن العبد حر يفعل ما يشاء، ولا تعلق لإرادة الله
ومشيئته بفعله، وبهذا سُمّوا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم اعتقدوا أن
العبد مستقل بما يحدثه، فجعلوا للحوادث خالقين: الله عز وجل
فيما يتعلق بفعل نفسه، والإنسان فيما يتعلق بفعل نفسه أيضاً.
فالله خالق لأفعاله والإنسان خالق لأفعاله. والله شاء لأفعاله
والإنسان شاء لأفعاله، ولا تعلق لمشيئة الله بفعل العبد.
وهناك طائفة أخرى وهم الجبرية قابلتهم فقالت: أفعال العبد
بمشيئة الله ولا إرادة للعبد فيها. إن قام فهو مُجبر، وإن جلس
فهو مجبر، وإن نزل من السطح على الدرج فهو مجبر، وإن
تدحرج رغماً عنه فهو مجبر، وإن مات فهو مجبر، وإن شرب
فهو مجبر.. كله إجبار ما له اختيار. وهؤلاء أيضاً خالفوا
المعقول والمنقول والمحسوس. لو أن أحداً منهم وقف أمامنا
وقال: الإنسان مجبر على فعله فقام أحدنا وضربه كفا وقال: أنا
مجبر على أن أضربك كفا فلن يرضى. ولهذا يذكر أن عمر بن
الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- رفع إليه سارق فأمر بقطع يده،

فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلا بقدر الله - يعني غصباً علي - فقال: "ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله". فرد عليه بحجته. مع أن أمير المؤمنين يقطع يد السارق بقدر الله وشرع الله.

ومشيئة الله مقيدة بالحكمة، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠]، يدل على أن مشيئة الله مقرونة بالعلم والحكمة وهو كذلك، فلا يشاء سبحانه وتعالى شيئاً إلا لحكمة. ولكن الحكمة قد تبين لنا وقد تخفى علينا؛ لأن عقولنا قاصرة. قد نظن مثلاً أن نزول المطر في هذا الوقت ضرر وليس بضرر. وقد نظن أن حبس المطر عنا ضرر وليس بضرر.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ} ذو سعة بفضله.. فهو سبحانه واسع في كل صفاته: واسع العلم واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع القدرة.. في كل الصفات. وسعة صفاته تعالى أنها لا حد لتعلقاتها، فهو أحق الموجودات بوصف واسع، لأنه الواسع المطلق.

قال ابن عاشور: وقد يؤتى بعد هذا الوصف أو ما في معناه من فعل السعة بما يميز جهة السعة من تمييز نحو: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [طه: ٩٨]، {الَّذِينَ

يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا {
[غافر: ٧]}. فوصفه في هذه الآية بأنه واسع هو سعة الفضل لأنه
وقع تذيلاً لقوله: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}..
وأحسب أن وصف الله بصفة واسع في العربية من مبتكرات
القرآن.

{عَلِيمٌ} بمن يستحق فضله فيؤمن عليه، فهو يؤتي فضله من
يشاء عن علم وحكمة.

والعلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه، فمن لم يدرك
الشيء فليس بعالم، وإن أدركه على خلاف ما هو عليه فليس
بعالم. والأول جاهل بسيط، والثاني جاهل مركب وهو أشدهما
عمى. لأنه جاهل وهو جاهل أنه جاهل. ولهذا قيل: إن الجهل
المركب أشد قبحاً من الجهل البسيط، فعالم لم ينتفع بعلمه أشد
إثماً من الجاهل؛ لأن العالم الذي لم ينتفع بعلمه علم ولكنه -
والعياذ بالله - لم يعمل بعلمه

إذن الله تعالى عالم، مدرك للأشياء على ما هي عليه، وعلمه
تعالى تام من كل وجه أزلاً وأبداً، فلم يزل عالماً يعلم ما سيكون.

وإذا علم وهو عالم عز وجل فلن ينسى، كما قال موسى عليه السلام: {فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: ٥٢]

وقال أهل العلم: لا يوصف الله بأنه عارف؛ لأن المعرفة انكشف بعد لبس وخفاء. ولهذا إذا علمت الصبي تقول له: هل عرفت؟ فيقول: نعم. يعني بعد أن كان خافياً عليه صار الآن معلوماً له، فمن أجل أنها انكشف بعد خفاء لم يصح إطلاقها على الله؛ لأن الله لم يزل ولا يزال عالماً.

ثانياً: أن المعرفة تطلق على العلم والظن، ولهذا إذا قلنا: العلم معرفة الحق بدليله شمل قولنا: (معرفة الحق بدليله) العلم والظن؛ لأن المعلومات إما علمية وإما ظنية، لهذا لا يصح أن يطلق على الله أنه عارف.

فإن قال قائل: كيف تقولون هذا وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ) [المعجم الكبير].. (يعرفك) وهذا فعل.

فالجواب عن ذلك: أن هذه معرفة خاصة تستلزم العناية بالذي تعرف إلى الله من قبل، والدليل على أنها ليست معرفة العلم بل هي: «معرفة العناية» قوله: (تعرف إلى الله) مع أن الله

يعرفك سواء قمت بعبادته أم لم تقم. لكن إذا قمت بعبادته
تعرفت إليه، فإذا تعرفت إليه في الرخاء عرفك في الشدة.

{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} يختص بمعنى يخص بالرحمة من
يشاء. ولكنه -عز وجل- يختص برحمته من هو أهل للرحمة،
كما قال تعالى: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [الأنعام: ١٢٤]
فكل فعل من أفعال الله قرن بالمشيئة فهو تابع للحكمة؛ فهو
سبحانه عليم حكيم يؤتي فضله من يشاء ممن يستحق ذلك
الفضل.

****** وفيه أنه لا اعتراض على الله في كونه يختص برحمته زيدا
ويمنع رحمته عن عمرو؛ لأن الأمر إليه، وهو فضل إن شاء منعه
وإن شاء أعطاه. ويتفرع على هذه الفائدة أن من منعوا فضل الله
لم يكونوا قد ظلموا شيئا؛ لأن فضل الله يؤتيه من يشاء، ويختص
برحمته من يشاء.

{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} الواسع الكثير، فلا
فضل أعظم من فضله، وانظر إلى ما أنعم الله به على العباد من
أول الدنيا إلى آخرها، وكل ذلك لم ينقص مما عند الله شيئا.
وفي الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ
وَأَنسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ

إِنْسَانٍ مَسْأَلَتْهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخِيطُ
إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ [مسلم]

** وفيه: جواز وصف غير الله بالعظم؛ لأن الفضل هنا يحتمل أن يُراد بها الفضل الذي هو فضل الله أي عطاؤه، أو أن المراد بها الْمُتَفَضِّلُ به وهو الْمُعْطَى فعلى الثاني لا إشكال في استنباط الفائدة التي ذكرناها أن العظم يوصف به غير الله وعلى الأول إذا قلنا: إن الفضل هو نفس فعل الله فوصفه بالعظم لا إشكال فيه؛ لأنه من صفات الله، وصفات الله كذاته عظمة.

وهذا مثل قول الله تعالى: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}** [النمل: ٢٣]
فوصف العرش بالعظم مع أن عرشها مخلوق.. إذن يصح أن نقول: هذا الفعل عظيم، وهذا رجل عظيم، هذه سيارة عظيمة، هذا بيت عظيم، وما أشبه ذلك، ولا يضر، كما أنه يصح أن نقول: فلان عزيز، فلان قوي، ولا حرج في ذلك، ولكن يجب أن نعلم أن ما نصف به المخلوق من صفات الله لا يماثل صفات الله ولا يدانيها أيضاً؛ لأن الصفة تكون لموصوف تناسبه **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: ١١].

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ
مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ
قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ
أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

لما ذكر الله سبحانه وتعالى خيانة أهل الكتاب في الأمور
الدينية ولبسهم الحق بالباطل، وعُتوهم وعنادهم ونفاقهم
وتغريهم للمؤمنين، ذكر حالهم في الأمور الدنيوية في المال
خاصة.

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} وسموا أهل كتاب لأنهم هم الذين
عندهم بقايا من الدين النازل على الأنبياء. فاليهود عندهم بقايا
من التوراة، والنصارى عندهم بقايا من الإنجيل.
{مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ} وضعه عنده أمانة **{بِقِنطَارٍ}** من المال الكثير
وما دونه بطريق الأولى.

{يُودِّهِ إِلَيْكَ} يرده إليك من غير تغيير ولا نقص.
روى البخاري عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ
بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ

أَشْهَدُهُمْ فَقَالَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ فَأَتَنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ كَفَى بِاللَّهِ
كَفِيلًا قَالَ صَدَقْتَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ
فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ التَّمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي
أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ
وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا [أي سوى موضع
النقر وأصلحه من تزجيج الحواجب وهو حذف زوائد الشعر] ثُمَّ
أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فَلَانًا
أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِي بِكَ
وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِي بِكَ وَأَنِّي جَهِدْتُ
أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا
فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ
يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ
يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ
فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ثُمَّ قَدِمَ
الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي
طَلَبِ مَرْكَبٍ لِأَتِيكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ
قَالَ هَلْ كُنْتُ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ

الَّذِي جِئْتُ فِيهِ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي
الْخَشَبَةِ فَانصَرَفَ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا.

{وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ} لفظ أعجمي تصرفت فيه
العرب وألقته بمفردات كلامها.

{لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} بالمطالبة به ليل نهار
والملازمة والإلحاح في استخلاص حقل، ولذلك قدم المجرور
للاهتمام، فليس المراد هيئة القيام، إنما هو من قيام المرء على
أشغاله: أي اجتهاده فيها.

وإذا كان هذا صنيعة في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه.
والذي يظهر أن القنطار والدينار مثالان للكثير والقليل، فيدخل
أكثر من القنطار وأقل. وفي الدينار أقل منه. والمعنى: منهم من
يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قلت.

{ذَلِكَ} ذلك الاستحلال والخيانة، وإنما أشير إليه لكمال
العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الشأن العجيب.

{بِأَنَّهُمْ} بسبب أنهم **{قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي} معاملته**
{الْأُمِّيِّينَ} وهم العرب المشركين وما سواهم ممن ليسوا بيهود.

{سَبِيلٌ} إثم وحرَج وعتابٌ ومُؤاخِذة، كقوله تعالى: **{مَا عَلَى**
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [التوبة: ٩١] وقوله: **{وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ**
ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ} [الشورى: ٤١]

وقصدهم من ذلك أن يحقروا المسلمين، ويتناولوا بما أتوه
من معرفة القراءة والكتابة من قبلهم. أو أرادوا الأُميين بمعرفة
التوراة، أي الجاهلين: كناية عن كونهم ليسوا من أتباع دين
موسى عليه السلام.

وأياً ما كان فقد أنبأ هذا عن خلق عجيب فيهم، وهو
استخفافهم بحقوق المخالفين لهم في الدين، واستباحة ظلمهم
مع اعتقادهم أن الجاهل أو الأُمي جدير بأن يدحض حقه.

قال ابن عاشور: "والظاهر أن الذي جرأهم على هذا سوء
فهمهم في التوراة، فإن التوراة ذكرت أحكاماً فرقت فيها بين
الإسرائيليين وغيره في الحقوق، غير أن ذلك فيما يرجع إلى
المؤاساة والمخالطة بين الأمة، فقد جاء في سفر التثنية
الإصحاح الخامس عشر: في آخر سبع سنين تعمل إبراء يبرئ
كل صاحب دين يده مما أقرض صاحبه. الأجنبي تطالب، وأما
ما كان لك عند أخيك فتبرئه.

وجاء في الإصحاح ٢٣ منه: لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام وللأجنبي تقرض بربا.

ولكن شتان بين الحقوق والمؤاساة فإن تحريم الربا إنما كان لقصد المؤاساة، والمؤاساة غير مفروضة مع غير أهل الملة الواحدة.

وعن ابن الكلبي: قالت اليهود: الأموال كلها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها فهو لنا، وإنهم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم.

وهذان الخلقان الذميان اللذان حكاهما الله عن اليهود قد اتصف بهما كثير من المسلمين، فاستحل بعضهم حقوق أهل الذمة، وتأولوها بأنهم صاروا أهل حرب، في حين لا حرب ولا ضرب".

روى عبد الرزاق عن صَعَصَعَةَ بن يزيد؛ أن رجلا سأل ابن عباس، قال: إنا نُصِيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة؟ قال ابن عباس: فَتَقُولُونَ ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: **{لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّانِ سَبِيلٌ}** إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

{وَيَقُولُونَ} مضمَّنةٌ معنى يفترون {على الله الكذب} وقد
اختلفوا هذه المقالة، واثتفكوا بهذه الضلالة، وادعوا أن هذا
شرعاً من الله، وإنما هم قوم بُهت، فإن الله حرم عليهم أكل
الأموال إلا بحقها.. قال المفسرون: إنهم ادعوا أنهم وجدوا
ذلك في كتابهم.

{وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك
لأنهم استحلوا ظلمَ من خالفهم وقالوا لم يُجعل في التوراة في
حقهم حُرمةً. فيكون قولهم أشد من قول من يقول الكذب وهو
لا يعلم أنه كذب.

فهي جملة حالية تنعى عليهم قبيح ما يرتكبون من الكذب،
أي: إن العلم بالشيء يبعد ويقبح أن يكذب فيه، فكذبهم ليس
عن غفلة ولا جهل، إنما هو عن علم.

****** وفيه أن أهل الكتاب لا يقتصرون على الظلم والعدوان
ويجعلون ذلك من تلقاء أنفسهم بل ينسبونه إلى شريعة الله.
وأن من افتري الكذب على الله فيما يفتي به أو يحكم به بين
الناس ففيه شبهةٌ باليهود والنصارى. وقد وجد في هذه الأمة من
يفتري الكذب على الله سواء في الحكم بين الناس أو في الفتوى
التي ليست بحكم ولكنها إخبار عن الشرع.

والمقصود من الآية ذم الفريق الثاني إذ كان من دينهم -في زعمهم- إباحة الخيانة ولذلك طول الكلام فيه. وإنما قدم عليه قوله: **{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ}** إنصافاً لحق هذا الفريق، لأن الإنصاف مما أشتهر به الإسلام، وإذ كان في زعمهم أن دينهم يبيح لهم خيانة غيرهم، فقد صار النعي عليهم، والتعبير بهذا القول لازماً لجميعهم أمينهم وخائنهم، لأن الأمين حينئذ لا مزية له إلا في أنه ترك حقاً يبيح له دينه أخذه، فترفع عن ذلك كما يترفع المتغالي في المروءة عن بعض المباحات.

وتقديم المسند في قوله: **{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** في الموضعين للتعجب من مضمون صلة المسند إليهما: ففي الأول للتعجب من قوة الأمانة، مع إمكان الخيانة ووجود العذر له في عادة أهل دينه، والثاني للتعجب من أن يكون الخون خلقاً لمتبع كتاب من كتب الله، ثم يزيد التعجب عند قوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا}** فيكسب المسند إليهما زيادة عجب حال.

وما دام أهل الكتاب ينقسمون إلى قسمين، فإننا لا ندري حين نعاملهم من أي القسمين هؤلاء، لكن على العموم يجب علينا الحذر من أهل الكتاب لاسيما إذا تبين لنا أنهم خونة، وأهل غدر، وأنهم لا يسعون لمصالحنا أبداً كما هو الواقع، فإن

الواقع في الوقت الحاضر أن اليهود والنصارى لا يسعون أبداً لمصالح المسلمين، بل يسعون للإضرار بالمسلمين والإفساد عليهم، حتى إنهم إذا رأوا الدولة متجهة إلى الإسلام من دول المسلمين فإنهم يحاولون إسقاطها، والتضييق عليها من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وهذا شيء يعرفه كل من تدبر وتأمل في الحوادث اليوم.

إذن يجب علينا أن نحذر غاية الحذر من اليهود والنصارى، وأن نعلم أن اليهود والنصارى كل واحد منهم ولي للآخر، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١]، مهما طال الأمد فهم أولياء ضد عدو مشترك وهم المسلمون.

وأعمال الدولة الحساسة لا ينبغي أن يؤتمنوا فيها، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران: ١١٨]

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى: فَقَدْ كَتَبَ خَالِدُ
بْنُ الْوَلِيدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ - يَقُولُ: "إِنَّ بِالشَّامِ كَاتِبًا نَصْرَانِيًّا لَا يَقُومُ خَرَجُ الشَّامِ إِلَّا بِهِ"
فَكَتَبَ إِلَيْهِ: "لَا تَسْتَعْمِلْهُ". فَكَتَبَ: "إِنَّهُ لَا غِنَى بِنَا عَنْهُ" فَكَتَبَ
إِلَيْهِ عُمَرُ: "لَا تَسْتَعْمِلْهُ" فَكَتَبَ إِلَيْهِ: "إِذَا لَمْ نُؤَلِّهِ ضَاعَ الْمَالُ"
فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: "مَاتَ النَّصْرَانِيُّ وَالسَّلَامُ"
"أَيُّ قَدْرٍ أَنَّهُ مَاتَ".

ولهذا ذكر شيخ الإسلام في عدة مواضع من كتبه أنه لا
يجوز أن يؤتمن غير المسلمين على أسرار المسلمين، وأن ذلك
من الخيانة، وأن ذلك خطر على الدولة الإسلامية، وذكر أشياء
عجيبة - رحمه الله - في خطر هؤلاء على الأمة الإسلامية إذا ولوا
أشياء من أسرار الدولة. وهو صادق لا شك في هذا، ولا شك
أنهم أعداء مهما كان.

{بَلَى} حرف جواب وهو مختص بإبطال، النفي فهو هنا
لإبطال قولهم: **{لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ}**.

إثبات لما نفوه، أي: بلى عليهم فيهم سبيل، والمعنى: ليس
الأمر كما يدعون بل عليهم الإثم والحرَج والمؤاخَذة، وإنما لا
إثم ولا حرج ولا مؤاخَذة على **{مَنْ أَوْفَى}** أي ولكن من أوفى،

بمعنى أتم **{بِعَهْدِهِ}** بما عاهد عليه غيره **{وَاتَّقَى}** وَاتَّقَى الله في هذا الإيفاء وغيرها من محارم الله تعالى كالخيانة ونقض العهد. **{فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** والمقصود نفي محبة الله عن ضد المذكور بقرينة المقام.

وأتى بلفظ: **{المتقين}** عاماً تشريفاً للتقوى وحصاً عليها. ولم يقل: "فإن الله يحبه" ومثل هذا التعبير يُسمى: «الإظهار في موضع الإضمار». والإظهار في موضع الإضمار له فوائد منها: أولاً: تنبيه المخاطب، ووجه ذلك أن الكلام إذا كان على نسق واحد لم يكن فيه ما يستدعي الانتباه. ولهذا يمشي المخاطب أو المتكلم ولا يوجد في كلامه ما يستدعي الانتباه، فإذا تغير الأسلوب وجاء الاسم مظهراً بموضع الإضمار فإن الإنسان ينتبه.

ثانياً: أن في الإظهار في موضع الإضمار التعليل للحكم الذي جاء فيه الإظهار في موضع الإضمار، وذلك أن قوله: فإن الله يحبه ليس فيه إظهار العلة، عكس كقوله: **{فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** أي لتقواهم فأفاد العلة.

ثالثاً: أنها تفيد التعميم أي: كل من يعمه هذا المظهر، وقرأ قوله تعالى: **{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}**

فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ {البقرة: ٩٨}. ولم يقل: "فإن الله عدو له" لأجل أن يشمل كل كافر سواء كان كفره بهذه العداوة أو غيرها، فيكون في هذا تعميم الحكم.

****** وفيه الحث على تقوى الله، وأنها سبيل محبة الله عز وجل؛ فكل إنسان يحب أن يحبه الله. ومحبة الله متعلقة بالعمل ومتعلقة بالعمل، ومتعلقة بالزمن ومتعلقة بالمكان.

متعلقة بالعمل: كما في هذه الآية: **{يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}**. وكما في قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ}** [الصف: ٤]. وكما في قوله: **{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [البقرة: ١٩٥]

ومتعلقة بالعمل: كما روى البخاري عن أبي عمرو الشيباني يَقُولُ أَخْبَرَنَا صَاحِبُ هَذِهِ الدَّارِ -وَأَوَّمًا بِيَدِهِ إِلَى دَارِ عَبْدِ اللَّهِ- قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: (الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا)

ومتعلقة بالزمن: كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ) [أبو داود]، وقد يقال: إن هذا متعلق بالعمل لا بالزمن.

ومتعلقة بالمكان: كمحبة الله تعالى لمكة، كما جاء عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال فيها: (عَلِمْتُ أَنَّكَ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ) [أحمد].

** وفيه الرد على الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل الذين أنكروا محبة الله وقالوا: إنه لا يجوز أن تثبت أن الله (يُحِب) قالوا: إذا أثبت أن الله يحب فقد وصفته بالنقص والعيب؛ لأن هذا من خصائص المحدثات، ولأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين.

وقالوا: ليس المراد بإثبات المحبة نفس المحبة، بل المراد بذلك لازمها وهو «الإثابة»، فمعنى يحب المتقين يعني: يشب المتقين. أما أن يكون يحبهم فكلا.

ولكن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن النصوص لا تكاد تحصر في إثبات محبة الله وأنه يُحِب وَيُحَب، قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤] وإذا أحب الله العبد أثابه، فالإثابة من لازم المحبة.

وقولهم: إنها لا تكون إلا بين متناسبين. هذا غير صحيح، فقد ثبت عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال في أحد:

(هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) [البخاري]، ولا مناسبة بين البشر والجبل؟.

وثبت بالواقع المحسوس أن بعض الحيوان يحب البشر، فالناقة تحب صاحبها، وتأتي إليه من بين الناس، تبرك عنده، ولو جاء أحد غير صاحبها لنفحته برجلها، أو عضته بفمها، لكن صاحبها تحن إليه وتجلس عنده، وإذا سمعت صوته - وإن لم تره - حنت، وكذلك بقية الحيوانات، شيء مشاهد، وهذه محبة. والهرة تحب بعض أهل البيت دون بعض، إذا جاء أحد من أهل البيت الذين لا تحبهم هربت، وإذا جاء الذي تحب دنت منه، وجعلت تتمسح به. وهذا الشيء مشاهد، ما الذي جعلها تتمسح بهذا وتهاديه وتجلب وده، والثاني تهرب منه وتعاتبه؟ إنها المحبة، فدعواهم بأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين يكذبها السمع والواقع.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

والكلام استئناف قصد منه ذكر الخلق الجامع لشتات مساوي أهل الكتاب من اليهود، وقد جرت أمثال هذه الأوصاف على اليهود مفرقة في سورة البقرة: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي} [البقرة: ٤٠] {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} [البقرة: ٤١] {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢] {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٧٤]. فعلمنا أنهم المراد بذلك هنا.

{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ} يستبدلون ويأخذون.. يقال: {يَشْتَرُونَ}، ويقال: {يَشْرُونَ} البائع معطي والمشتري آخذ. الشاهد للبائع المعطي من القرآن قوله تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} [النساء: ٧٤] يعني يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

وقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة: ٢٠٧]، أي يبيع نفسه. وأما الاشتراء الذي بمعنى الأخذ ففي مثل هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا}، يعني يأخذون ثمنًا

قليلاً بعهد الله، فينكثون عهد الله من بعد ميثاقه ويحلفون على الكذب بالأيمان من أجل الدنيا.

{بِعَهْدِ اللَّهِ} يحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الله عليه، ويحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الخلق عليه.

فأما على الأول: أي بما عاهدوا الله عليه، فهو ظاهر من الآية؛ لأن الله أضاف العهد إليه، ومثاله أن يكتم العالم علمه من أجل عرض من الدنيا، فإن الله عهد إلى العلماء أن يبينوا العلم **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}** [آل عمران: ١٨٧]

فإن قال قائل: كيف أخذ الله العهد على العلماء، ونحن لم نعلم أن أحداً من العلماء أجرى صفقة عهد مع الله؟. فالجواب: لما أعطى الله العلماء العلم كان إعطاؤهم إياه عهداً بأن يقوموا بنشره وإعلانه بين الخلق، فإذا لم يقوموا بذلك فإنهم لم يقوموا بعهد الله.

القول الثاني: يشترط بعهد الله أي بعهدهم مع الناس، وأضافه الله لنفسه **{بِعَهْدِ اللَّهِ}** لأنه أمر بالوفاء به، قال الله تعالى: **{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}**

[النحل: ٩١]، فسمى الله معاهدة المؤمنين لغيرهم، سماها عهداً له مع أنهم ما عاهدوا الله وإنما عاهدوا الخلق، لكنه أضافه إلى نفسه لأنه أمر بالوفاء به، فصح أن يُقال: أوفوا بعهد الله.

{وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} ويشترون -أيضاً- بأيمانهم ثمناً قليلاً من عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة، والأيمان جمع يمين، وهي الحلف بالله عز وجل، فيشترون باليمين ثمناً قليلاً مثل أن يحلف على جحد حق واجب عليه، أو يحلف على دعوى حق له وهو كاذب، وهذه هي اليمين الغموس التي قال عنها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ [كاذب] لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ) [البخاري]

{أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ} لاحظ ولا نصيب لهم، كما قال تعالى: {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] فقال: {لَهُمْ نَصِيبٌ} في مقابل قوله: {من خلاق} فدل ذلك على أن الخلاق هو النصيب.

{فِي الْآخِرَةِ} لأنهم اعتاضوا بالقليل الفاني عن النعيم الباقي،
والجزاء من جنس العمل. أما في الدنيا فقد يكون لهم من هذا
السحت نصيباً يأكلوه ولا خير فيه.

****** وفيه أن مَنْ وفى بعهد الله، وحلف على صدق، فإنه لا
يحرم النصيب في الآخرة. ووجهه أنه إذا كان من اشترى بعهد
الله ثمناً قليلاً أو بيمينه لا خلاق له في الآخرة، فإن ضده له
خلاق. وهذا الطريق من الاستدلال أخذناه من قول الشافعي
رحمه الله على قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ
لَمَخْجُوبُونَ}** [المطففين: ١٥] قال: في هذه الآية دليل على
رؤية المؤمنين الله؛ لأنه لما حجب هؤلاء في الغضب كان دليلاً
على رؤية الآخرين في حال الرضا.

{وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ} لا يكلمهم كلام لطف بهم، أو تكليم
رضا، ولكنه قد يكلمهم تكليم إهانة. فإن الله سبحانه وتعالى
يقول لأهل النار: **{قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ}**
[المؤمنون: ١٠٨] وهذا كلام من الله، ولكنه كلام تقريع وتوبيخ
وإهانة والمنفي هو «تكليم الرضا».

وفيه إثبات صفة الكلام. ووجه ذلك أنه لو كان الله لا يتكلم لم يكن لنفي الكلام مع هؤلاء فائدة. فلولا أنه يتكلم ما صار عدم تكليمه لهؤلاء عقوبة.

{وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ} ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك. والمراد به النظر الخاص، أما النظر العام فإن الله تعالى لا يحجب عن بصره شيء.

وهاتان الكنيتان من امتناع الكلام والنظر يجوز معهما إرادة المعنى الحقيقي.

** وفيه إثبات نظر الله؛ لقوله: **{وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ}** وهل فيه دليل على إثبات العين لله؟ الجواب: لا .. لأنه لا يلزم من إثبات النظر إثبات العين، كما إننا نشب سمع الله ولا يلزم أن نشب الأذن، وهذه مسألة يجب أن نتفطن لها؛ لأنه لا يلزم من الكلام وجود اللسان والشفيتين، ولا يلزم من السمع وجود الأذنين، ولا يلزم من النظر وجود العينين.

فيوم القيامة تحدث الأرض أخبارها فهل لها لسان وشفتان؟
الجواب: لا.

وكان الحصى يسبح بين يدي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهل له لسان وشفطان؟ لا.

وهل تسمع الأرض أو لا تسمع؟ الجواب: تسمع؛ لأنها تحدث أخبارها. فلولا أنها تسمع ما حدثت.

ولما قال الله تعالى للسموات والأرض: **{إِنِّي طَوْعاً أَوْ كَرْهاً}** [فصلت: ١١] خاطبهما فسمعتا أولاً؟ فقالتا: **{قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}**.

فقوله تعالى: **{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}** [الزلزلة: ٤]، أي: ما عمل عليها من خير وشر كما قال السلف. والذي يعمل على الأرض إما قول يسمع وإما فعل ينظر، إذن فهي ترى ومع ذلك لا نقول لها عينان.

فإذن لا يلزم من ثبوت نظر الله ثبوت العين. ولكن العين ثابتة بنصوص أخرى. فإن الله تعالى له عيني اثنتين لا تماثلان أعين الخلق؛ كقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ) [البخاري]

والجمع في الآيات من أجل التعظيم كقوله تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ}**

[يس: ٧١]، مع أن الله ليس له إلا يداً اثنتان، وكلتا يديه يمين سبحانه.

{يَوْمَ الْقِيَامَةِ} هو يوم البعث، وسُمِّي يوم القيامة لأمر:

الأول: قيام الناس من قبورهم.

والثاني: يوم يقوم الأشهاد، قال تعالى: **{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}** [غافر: ٥١]
أي يوم تشهد فيه الملائكة والأنبياء والمؤمنون على الأمم التي كذبت رسلها، فتشهد بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، وأن الأمم كذبتهم.

والثالث: يقام فيه العدل. قال تعالى: **{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}** [الأنبياء: ٤٧]

{وَلَا يُزَكِّيهِمْ} ولا يطهرهم من ذنوبهم ولا يكفرها عنهم، ويحتمل أن يكون المعنى ولا ينميهم أي لا يكثر حظوظهم في الخيرات ولا ينمي أعمالهم الطيبة، فلا زكاء لهم عند الله لأنهم ليسوا أهلاً للتزكية. لأن من بلغ من رقة الديانة إلى حد أن يشتري بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً، فقد بلغ الغاية القصوى في الجرأة على الله، فكيف يرجى له صلاح بعد ذلك.

ولهذا ينادى يوم القيامة على الظالمين {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا
عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨] يعني
طردهم وإبعادهم عن رحمته.

** وفيه أن هؤلاء المشترين بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً لا
يزكيهم الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا جاءت الكلمة {وَلَا
يُزَكِّيهِمْ} بعد قوله: {يَوْمَ الْقِيَامَةِ} فهؤلاء لا يزكيهم الله في الدنيا
بل يظهر عوارهم ويفضحهم في الدنيا حتى يعرفهم العباد ويعرفوا
سقوط عدالتهم وزوال زكائهم، كذلك لا يزكيهم الله يوم القيامة،
فلا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} العذاب: النكال والعقوبة وأليم بمعنى
مؤلم.

** وفيه تهديد هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً
قليلاً، وينصب هذا على العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله
مداينة أو مراعاة أو من أجل مال، فإنهم اشتروا بعهد الله ثمناً
قليلاً؛ لأن الله عهد إلى العلماء أن يبينوا العلم.

فالعلماء ثلاثة أقسام: عالم أمة، وعالم دولة، وعالم ملة،
فعالم الملة لا يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً، بل يبين الملة ولا
يبالي. وعالم الدولة يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ليكون له جاه

عند الدولة، وربما ليعطى مالا، وعالم الأمة هو الذي يراعي الأمة، ينظر ماذا تشتهي الأمة أي عامة الناس فيفتي به أو يقول به، وما لا تشتهيه الأمة يسكت عنه، فإذا رأى الأمة على شيء غير سائغ في الشرع سكت عنه، وإذا طلبوا منه شيئا غير سائغ في الشرع ولكنه يرى أنه يرضيهم وافقهم عليه.

روى مسلم عن أبي ذرٍّ -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قَالَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ).

وروى أحمد في المسند عن ابن الأحمسي، قال: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ، فَقُلْتُ لَهُ: بَلَّغْنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-. فَقَالَ: أَمَّا إِنَّهُ لَا تَخَالِنِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بَعْدَمَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَمَا الَّذِي بَلَّغَكَ عَنِّي؟ قُلْتُ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَقُولُ: (ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، وَثَلَاثَةٌ يَسْنُوهُمْ اللَّهُ) قَالَ: قُلْتُ: وَسَمِعْتُهُ. قُلْتُ: فَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ

يُحِبُّ اللَّهُ؟ قَالَ: (الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فِي الْفِتَّةِ فَيَنْصِبُ لَهُمْ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ، أَوْ يَفْتَحَ لِأَصْحَابِهِ، وَالْقَوْمُ يُسَافِرُونَ فَيَطُولُ سُرَاهُمْ حَتَّى يُحِبُّوا أَنْ يَمْسُوا الْأَرْضَ، فَيَنْزِلُونَ فَيَتَنَحَّى أَحَدُهُمْ، فَيُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَهُمْ لِرَحِيلِهِمْ، وَالرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ الْجَارُ يُؤْذِيهِ جَوَارُهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ) قُلْتُ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْنُوهُمْ اللَّهُ؟ قَالَ: (التَّاجِرُ الْحَلَّافُ، أَوْ قَالَ: الْبَائِعُ الْحَلَّافُ، وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ) [قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح]

وروى أحمد أيضا حَدَّثَنَا عَدِيُّ بْنُ عَدِيٍّ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ وَالْعُرْسُ ابْنُ عَمِيرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَدِيٍّ [الضمير عائد إلى عدي بن عدي- وهو ابن عميرة الكندي-] قَالَ خَاصَمَ رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ يُقَالُ لَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ بْنُ عَابِسٍ رَجُلًا مِنْ حَضْرَمَوْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي أَرْضٍ فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَيِّنَةِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ بَيِّنَةٌ فَقَضَى عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ بِالْيَمِينِ فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ إِنَّ أَمَكْنَتَهُ مِنَ الْيَمِينِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَتْ وَاللَّهِ أَوْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ أَرْضِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ أَخِيهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ) قَالَ رَجَاءُ وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} فَقَالَ امْرُؤُ
الْقَيْسِ مَاذَا لِمَنْ تَرَكَّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْجَنَّةُ قَالَ فَاشْهَدْ أَنِّي
قَدْ تَرَكْتُهَا لَهُ كُلَّهَا.

عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ
وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ
الْحَضْرَمِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي كَانَتْ
لِأَبِي. فَقَالَ الْكِنْدِيُّ: هِيَ أَرْضِي فِي يَدَي أَرْعُهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِلْحَضْرَمِيِّ: (أَلَاكَ
بَيِّنَةٌ) قَالَ: لَا. قَالَ: (فَلَكَ يَمِينُهُ) قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ
فَاجِرٌ لَا يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ:
(لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ) فَانْطَلَقَ لِيُخْلِفَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا أَذْبَرَ: (أَمَا لئن حَلَفَ عَلَى مَالِهِ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا
لَيَلْقَيْنَ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ)

وروى البخاري عَنْ شَقِيقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ
فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالٌ أَمْرِي مُسْلِمٌ لِقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ
غَضَبَانُ)

فَقَالَ الْأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ
الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَلَا
بَيْنَهُ؟) قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: (اخْلِفْ) قَالَ قُلْتُ يَا
رَسُولَ اللَّهِ: إِذَا يَخْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {إِنَّ الَّذِينَ
يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

وفي رواية للبخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ حَلَفَ
يَمِينَ صَبْرٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ
غَضَبَانُ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ
وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ} إِلَى آخِرِ
الْآيَةِ

قَالَ فَدَخَلَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ
الرَّحْمَنِ قُلْنَا كَذًا وَكَذَا قَالَ فِيَّ أَنْزَلْتَ كَانَتْ لِي بئرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ
عَمٍّ لِي قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بَيْنُكَ أَوْ يَمِينُهُ)
فَقُلْتُ إِذَا يَخْلِفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ [هِيَ الَّتِي يَصْبِرُ فِيهَا نَفْسُهُ
عَلَى الْجَزْمِ بِالْيَمِينِ، وَالصَّبْرُ: الْحَبْسُ، فَكَأَنَّهُ يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَلَى

هذا الأمر العظيم وهي اليمين الكاذبة، ويقال لها: اليمين الغموس أيضاً] يَفْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ)

وروى البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ فَحَلَفَ فِيهَا لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا مَا لَمْ يُعْطِهِ لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَنَزَلَتْ {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

وروى أبو داود عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ -يَعْنِي كَاذِبًا-، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ). [إسناده صحيح على شرط الشيخين]

أما قوله بعد العصر فقد قيل: إن هذا من الأوقات التي تكون فيها الأيمان مغلظة، فقد يكون تغليظ اليمين بالمكان، كما جاء في الحلف عند منبر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا من حيث الزمان.

وفي المسند بسند ضعيف عن زَبَّانَ، عَنْ سَهْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

عِبَادًا، لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) قِيلَ لَهُ: مَنْ أَوْلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (مُتَبَرِّ مِنْ وَالِدِيهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا، وَمُتَبَرِّ مِنْ وَلَدِهِ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ، وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ)

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا} طائفة وجماعة من أهل الكتاب، وقيل هم اليهود، واللام لزيادة تأكيد على تأكيد.

{يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ} أصل الليّ الفتل من قولك: "لويت يده إذا فتلتها"، ومنه: "لويت الغريم" إذا مطلته، وفي الخبر (لِيٍّ [مطل] الْوَاجِدِ [القادر الملىء] يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ) [البخاري] فالمعنى يفتلون ألسنتهم.. واللي ثلاث أقسام:

الأول: لي باللفظ لكنه لا يتعلق بنفس الكتاب المنزل إنما يأتي بكلام من عنده فيأتي به يتغنى به كما يتغنى بالكتاب المنزل، فيظن السامع أنه من عند الله.

والثاني: لي لفظي يتعلق بتغيير هيئة الكتاب المنزل وذلك ما يسمى بالتحريف اللفظي. ومثال ذلك قولهم: راعنا، وأسمع غير مسمع.

والثالث: اللي المعنوي، فيقول: معنى الآية كذا وكذا، وهذا لا شك أنه لي باللسان يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ لأن الكتاب يريد كذا وهم يقولون المراد كذا.

وهؤلاء المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

قال ابن عاشور: واللي في الأصل: إدارة الجسم غير المتصلب إلى غير الصوب الذي هو ممتد إليه: فمن ذلك لي الحبل، ولي العنان للفرس لإدارته إلى جهة غير صوب سيره، ومنه لي العنق، ولي الرأس بمعنى الالتفات الشرر أو الإعراض، قال تعالى: **{لَوَّارُؤُوسَهُمْ}** [المنافقون: ٥].

والذي في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى، وهذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم {راعنا} وفي الحديث من قولهم في السلام على النبي: "السام عليك" أي الموت

أو لعلهم كانوا يقرؤون ما ليس من التوراة بالكيفيات أو
اللاحون التي كانوا يقرؤون بها التوراة ليخيلوا للسامعين أنهم
يقرؤون التوراة.

ويحتمل أن يكون اللي هنا مجازاً عن صرف المعنى إلى
معنى آخر كقولهم: لوى الحجة أي ألقى بها على غير وجهها،
وهو تحريف الكلم عن مواضعه: بالتأويلات الباطلة، والأقيسة
الفاسدة، والموضوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى الله، وأياما
كان فهذا اللي يقصدون منه التمويه على المسلمين لغرض، كما
فعل ابنُ صُورِيّا في إخفاء حكم رجم الزاني في التوراة وقوله:
نحمم وجهه.

وقال في البحر المحيط: والذي يظهر أن الليّ وقع بالكتاب
أي: بألفاظه لا بمعانيه وحدها كما يزعم بعض الناس، بل
التحريف والتبديل وقع في الألفاظ، والمعاني تبع للألفاظ، ومن
طالع التوراة علم يقيناً أن التبديل في الألفاظ والمعاني، لأنها
تضمنت أشياء يجزم العاقل أنها ليست من عند الله، ولا أن ذلك
يقع في كتاب إلهي من كثرة التناقض في الأخبار والأعداد ونسبة
أشياء إلى الله تعالى من الأكل والمصارعة وغير ذلك، ونسبة
أشياء إلى الأنبياء من الكذب والسكر من الخمر والزنا ببناتهم..

وغير ذلك من القبائح التي ينزه العاقل نفسه عن أن يتصف بشيء منها، فضلاً عن منصب النبوة.

هذا مع خلوها من ذكر: الآخرة، والبعث، والحشر، والنشر، والعذاب والنعيم الأخرويين، والتبشير برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأين هذا من قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى وقد ذكر رسوله وصحابته {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ} [الفتح: ٢٩]

وقد نص تعالى في القرآن على ما يقتضي إخفاءهم لكثير من التوراة، قال تعالى: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} [المائدة: ١٥] فدلّت هاتان الآيتان على أن الذي أخفوه من الكتاب كثير، ودل بمفهوم الصفة أن الذي أبدوه من الكتاب قليل.

{لِتَحْسَبُوهُ} أي المحرّف، اللام هذه يحتمل أن تكون للتعليل، ويحتمل أن تكون للعاقبة. والفرق بينهما أن لام التعليل تحمل على الشيء، ولام العاقبة تكون غاية للشيء. فمثلاً إذا قلت: حضرت لأقرأ، اللام للتعليل، يعني أن الذي حملني على الحضور هو القراءة.

وإذا قلت: اصطدت هذا الصيد ليكون غداء لي، هذه للعاقبة، ومنه قوله تعالى: **{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}** [القصص: ٨]، فإن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا السبب أبداً، ولو علموا أنه يكون عدواً وحزناً لهم ما التقطوه.

{مِنَ الْكِتَابِ} أي لتظنوه من الكتاب المنزل **{وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}** ليس منه في نفس الأمر وفي اعتقادهم أيضاً. ولكنه من قبل أنفسهم.

{وَيَقُولُونَ} صريحاً غير مكثفين بالتورية والتعريض، مع ما ذكر من اللَّيِّ والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض.

{هُوَ} أي المحرّف **{مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}** منزل من عند الله **{وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}** وفيه من المبالغة في تشنيعهم وتقبيح أمرهم

وكمال جرأتهم ما لا يخفى، وإظهار الاسم الجليل والكتاب في محل الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول.

وهذا تأكيد لقوله {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} نفى أولاً أخص، إذ التعليل كان لأخص، ونفي هنا أعم، لأن الدعوى منهم كانت الأعم، لأن كونه من عند الله أعم من أن يكون في التوراة أو غيرها.

وجيء بالمضارع في هاته الفعال: {يلوون}، {يقولون}، للدلالة على تجدد ذلك وأنه دأبهم. وتكرير الكتاب في الآية مرتين، واسم الجلالة أيضاً مرتين، لقصد الاهتمام بالاسمين، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما، والمتعلقين به.

قال أبو بكر الرازي: هذه الآية فيها دلالة على أن المعاصي ليست من عند الله ولا من فعله، لأنها لو كانت من فعله كانت من عنده. وقد نفى الله تعالى نفيًا عامًا لكون المعاصي من عنده. انتهى.

وهذا مذهب المعتزلة، وكان الرازي يجنح إلى مذهبهم. وقال ابن عطية {وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} نفى أن يكون منزلاً كما ادّعوا، وهو من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد، ومنهم بالتكسب. ولم تعن الآية إلا معنى التنزيل.

{وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى، وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

وفيه: بيان مكر اليهود وتضليلهم للناس وخداعهم لهم باسم الدين والعلم. وجرأة اليهود على الكذب على الناس وعلى الله مع علمهم بأنهم يكذبون وهو قبح أشد وظلم أعظم. مع التحذير للمسلم من سلوك اليهود في التضليل والقول على الله والرسول لأجل الأغراض الدنيوية الفاسدة.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

{مَا كَانَ} أي ما صح وما استقام لأحد.. وكلمة «ما كان» تستعمل في الشيء الممتنع شرعاً أو قدراً. فقوله تعالى: **{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ..}** الآية هذا ممتنع شرعاً وقدراً. وقوله: **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}**

[مريم: ٦٤] ممتنع قدراً، بل ممتنع وصفاً؛ لأنه لا يتصور أن يأتي به القدر، مستحيل أن يكون الله تعالى ناسياً أو منسياً. وقوله: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}** [الأنفال: ٣٣] ممتنع شرعاً، ولو شاء أن يعذبهم وهو فيهم لعذبهم، ولكنه ممتنع شرعاً. قال في البحر المحيط: نفي عنه الكون، والمراد نفي الخبر، وذلك على قسمين:

أحدهما: أن يكون الانتفاء من حيث العقل، ويعبر عنه بالنفي التام، ومثاله قوله: **{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}** [النمل: ٦٠] **{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}** [آل عمران: ١٤٥] والثاني: أن يكون الانتفاء فيه على سبيل الانتفاء، ويعبر عنه بالنفي غير التام، ومثاله قول أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-: "ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم أن يصلى بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-".

ومدرك القسمين إنما يعرف بسياق الكلام الذي النفي فيه، وهذه الآية من القسم الأول، لأننا نعلم أن الله لا يعطي الكذبة والمدَّعين النبوة، وفي هذه الآية دلالة على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

{لَبَشَرٌ} إشعاراً بعلّة الحُكم فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة إليهم.. والبشر هو الإنسان من بني آدم، وسمي بشراً لظهور بشرته. فإن بشرة الإنسان ظاهرة بارزة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف بادية. وقيل: سمي بشراً لظهور أثر البشارة عليه فيما إذا أخبر بما يسره، ولا مانع من أن يكون سمي بشراً لهذا ولهذا، والحكمة من أن الله تعالى جعل الآدمي بارز البشرة ليعلم الآدمي أنه مفتقر إلى اللباس الحسي، فينتقل من ذلك إلى العلم بأنه مفتقر إلى اللباس المعنوي وهو التقوى. وأنه بحاجة إلى أن يعمل الأسباب التي تستره معنى كما هو يعمل الأسباب التي تستره حساً، وهذا من حكمة الله عز وجل.

{أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ} أي يعطيه إيتاء شرعياً، وكذلك إيتاء قدرياً.

{الْكِتَاب} الناطق بالحق الأمر بالتوحيد الناهي عن الإشراك.

{وَالْحُكْم} الحكمة وهي الفقه في أسرار الشرع، وقيل: الحكم أي بما أوحى من الكتاب، كما قال الله تعالى للنبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **{وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}** [المائدة: ٤٩]

والظاهر أن الحكم هنا القضاء والفصل بين الناس، وهذا من باب الترقى، بدأ أولاً بالكتاب وهو العلم، ثم ترقى إلى التمكين وهو الفصل بين الناس ثم ترقى إلى الرتبة العليا وهي النبوة وهي مجمع الخير.

{وَالنُّبُوَّةَ} يعني الإخبار بالوحي، وَالنُّبُوَّةَ بتشديد الواو إما أنها من النبوة وهي الارتفاع، وعلى هذا فتكون الواو أصلية؛ لأن رتبة النبي أعلى طبقات الخلق قال الله تعالى: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [النساء: ٦٩]

وإما أن تكون الواو مسهلة وأصلها النبوة فتكون مأخوذة من النبأ، وهو الخبر، وذلك لأن الرسول منبأ ومنبئ، منبأ من قبل الله عز وجل، ومنبئ لمن أرسل إليهم يخبرهم ويشرهم وينذرهم. وإنما قال: **{وَالنُّبُوَّةَ}** مع قوله: **{أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ}**، لأنه قد يطلق إيتاء الكتاب على من أرسل إليهم به، لا من أرسل به، فلا يلزم ممن أوتي الكتاب أن يكون نبيا كما في قوله تعالى: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}** [البقرة: ١٤٦]، وقوله: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ}**

تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [البقرة: ١٢١]، فالذين أوتوا الكتاب هنا ليسوا أنبياء.

ولهذا قال: {وَالنَّبَوَّةُ} لئلا يتوهم واهم أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين أرسل إليهم بالكتاب والمراد بالذين أوتوا الكتاب هنا الذي أرسل بالكتاب لا الذي أرسل إليهم به، بل الذي أرسل بالكتاب إلى غيره.

{ثُمَّ} أتى بلفظ: «ثم»، التي هي للمهلة تعظيماً لهذا القول {يَقُولُ لِلنَّاسِ} ذلك البشر بعدما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شؤونه العالية.

{كُونُوا عِبَادًا لِي} قال ابن عطية: والذي استقرت في لفظة: «العباد»، أنه جمع عبد، سقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترب بها معنى التحقير وتصغير الشأن.. فانظر قوله تعالى: {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٣٠] {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦] {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} [الزمر: ٥٣] وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]

وأما: العبيد، فيستعمل في التحقير، ومنه قول حمزة بن عبد
المطلب: "وهل أنتم إلا عبيد لأبي"، ومنه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦]
لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى
ليس بظلام لهم مع ذلك، ولما كانت لفظة «العباد» تقتضي
الطاعة، لم يقع هنا، ولذلك أنس بها في قوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ
الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ..} فهذا النوع من النظر يسلك بك
سبيل العجائب في حيز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية
السليمة.

{مَنْ دُونِ اللَّهِ} هذا هو الممتنع، وهو الذي انصب عليه
النفي، وهذا لا يمكن؛ لأن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة
إنما جاء لصد هذه الأشياء، ليمحق هذا الشيء، لا ليدعو الناس
إليه.

وهو بيانٌ لافتراءهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال
نصارى نجران: إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه رباً حاشاه
عليه السلام.

قال ابن عاشور: لما ذكر لي اليهود ألسنتهم بالتوراة، وهو
ضرب من التحريف، استطرد بذكر التحريف الذي عند النصارى

لمناسبة التشابه في التحريف إذ تقول النصارى على المسيح أنه أمرهم بعبادته فالمراد بالبشر عيسى عليه السلام، والمقصود تنزيه عيسى عن أن يكون قال ذلك.

{وَلَكِنْ} يقول للناس **{كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}** هذا الاستدراك استدراك واقع في مقابلة النفي الذي صدرت به الآية.. كونوا ربانيين، كوناً شرعياً، لا يملك أن يقول لهم كونوا كوناً قدرياً. لكن يملك أن يأمرهم شرعاً بأن يكونوا ربانيين.

{رَبَّانِيِّينَ} جمع ربّاني: من ينسب إلى الربّ لكثرة عبادته وغزارة علمه، أو إلى الربان وهو الذي يربّ الناس فيصلح أمورهم ويقوم عليها.

نسبة إلى الرب، ونسبة إلى التربية، فالرباني هو من كان عبداً للرب عز وجل، والرباني هو الذي يربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة، فالرباني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية، فباعتباره مضافاً إلى الله ربوبية، وباعتباره مضافاً إلى الإصلاح تربية.

قال محمد بن الحنفية حين مات ابن عباس: "اليوم مات رباني هذه الأمة". وقال أبو العباس ثعلب: "إنما قيل للفقهاء الربانيون لأنهم يربون العلم أي يقومون به". وقال مجاهد:

الربانيون فوق الأخبار لأن الأخبار العلماء والرباني الجامع إلى العلم والفقہ البصير بالسياسة والتدبير بأمر الرعية منسوب إلى الرب.. والألف والنون للمبالغة كلحياني وشعراني لعظيم اللحية وكثير الشعر.

** وفيه أن من من الله عليه بالكتاب والحكمة والنبوة فإنه لا يأمر إلا بخير؛ لقوله: **{وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ}**.

** وفيه أن المعلم للناس يصح أن نسميه ربانياً؛ لأنه قال: **{وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}** ولهذا نجد في تراجم العلماء رحمهم الله نجد كثيراً ما يصفون العالم بأنه العالم الرباني.

{بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ} من التعليم، أي تعلمون غيركم **{الْكِتَابَ}** قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو «بما كنتم تُعَلِّمُونَ» بمعنى عالمين أو تفهمون.. وتُعَلِّمُونَ أعم، لأنه لن يعلم إلا من علم.

أي كونوا عاملين بما كنتم تعلمون، لأن العالم إنما يقال له عالم إذا عمل بما علم، وإن لم يعمل بعلمه فليس بعالم، لأن من ليس له من علمه منفعة، فهو والجاهل سواء.

قال ابن عثيمين: الباء هنا للسببية، أي بسبب تعليمكم الكتاب، لأن الذي يعلم الكتاب مرب. ولهذا كلما كثر الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس؛ لأن المفروض في المعلم أن لا يكون معلماً للناس تعليماً نظرياً جديلاً؛ لأن هذا يمكن أن يدركوه بالكتب، لكنه ينبغي أن يعلمهم تعليماً نظرياً وتعليماً تربوياً. وهذا هو هدي النبي -عليه أفضل الصلاة والسلام- وأصحابه، إذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يعلم الناس تعليماً مقروناً بالتربية مصحوباً بها، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك، فلننظر مثلاً إلى سيرة عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ- فقد رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين ليردع الناس، ومنع المطلق ثلاثاً من الرجوع إلى زوجته من أجل أن يردع الناس فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علماً فحسب، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علماً وأخلاقهم تربية.

والمراد بالكتاب الجنس، يشمل التوراة والإنجيل والبعض منها والكل.

**** وفيه الرد على منكري الأسباب؛ لقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ} والباء للسببية، ولا شك أن الأسباب ثابتة، ولكنها**

ليست مستقلة بالإيجاد أو العدم، بل هي مؤثرة بما أودع الله فيها من قوة التأثير. وبهذا ندفع شبهة من قالوا بنفي الأسباب محتجين بأن إثبات الأسباب يستلزم إثبات خالق مع الله. ونحن نقول لهم: إننا نشبب الأسباب، لكنها لا تؤثر بنفسها بل بما أودع الله فيها من القوة. والدليل على هذا أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لما ألقى في النار قال الله للنار: **{كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ}** [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً عليه، لم يتأثر بها مع أنها محرقة. قال أهل العلم: ولو قال الله تعالى: **{كُونِي بَرْدًا}** ولم يقل: **{وَسَلَامًا}** لأهلكته من البرد؛ لأنها تمتثل أمر الله عز وجل.

{وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} معناه تقرأون قراءة بإعادة وتكرير: لأن مادة درس في كلام العرب تحوم حول معاني التأثير من تكرر عمل يعمل في أمثاله، فمنه قولهم: "درست الريح رسم الدار" إذا عفته وأبلته، فهو دارس، يقال: منزل دارس، والطريق الدارس العافي الذي لا يتبين. وثوب دارس خلق، وقالوا: درس الكتاب إذا قرأه بتمهل لحفظه، أو للتدبر، وفي الحديث (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ

إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ..) الخ [أبو داود] ومنه سمي تعليم العلم درسا.

فيكون عندكم للكتاب علم لفظي وعلم معنوي. فالعلم اللفظي يكون بالدراسة والمعنوي يكون بالعلم والتعليم. أي بسبب مُثَابَرَتِكُمْ على تعليم الكتاب ودراسته أي قراءته، فَإِنَّ جَعْلَ خَيْرٍ كَانَ مَضَارِعاً لِإِفَادَةِ الاستمرار المتجدد، وتكرير **{بِمَا كُنْتُمْ}** للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية، وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم.. وفي قراءة: تُدْرُسُونَ من التدريس للناس.

قال الضحاك في قوله: **{بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تُدْرُسُونَ}** حَقٌّ على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً. وتوسيط الاستدراك **{وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تُدْرُسُونَ}** بين المعطوفين للمسارعة إلى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشأنه ويحقُّ صدوره عنه إثر تنزيهه عما لا يليق بشأنه ويمتنع صدوره عنه.

{وَلَا يَأْمُرُكُمْ} التفات من الغيبة إلى الخطاب **{أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ}** من الألوكة، وهي الرسالة. قال تعالى: **{جَاعِلِ**

الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا} [فاطر: ١] {وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} جمع ربّ يعني أرباباً
تعبد من دون الله، وتقصد من دون الله.

{أَيَأْمُرُكُمْ} الاستفهام للإنكار {بِالْكُفْرِ} الكفر هنا الردة عن
الإسلام، وهو تصريح في أن المراد بيان انتفاء كلا الأمرين قصداً
لا بيان انتفاء الأول لانتفاء الثاني.

كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى:
{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}
[النحل: ٣٦] وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥] وقال
تعالى إخباراً عن الملائكة: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ
فَذَلِكْ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٢٩]

{بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} يعني بعد أن تقرر إسلامكم وثبت،
فإنه لا يمكن أن يأمركم بالكفر.

وكونه بعد كونهم مسلمين أفحش وأقبح، إذ الأمر بالكفر
على كل حال منكر، ومعناه: أنه لا يأمر بكفر لا بعد الإسلام ولا
قبله، سواء كان الأمر الله أم الذي استنبأه الله.

وفي هذه الآية دلالة على أن المخاطبين كانوا مسلمين، ودلالة على أن الكفر ملة واحدة إذ الذين اتخذوا الملائكة أرباباً هم الصابئة وعبداء الأوثان، والذين اتخذوا النبيين أرباباً هم اليهود والنصارى، ومع هذا الاختلاف سمي الله الجميع: كفراً.

وإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يتعبدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١] وفي المسند، والترمذي أن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: (بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم).

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمر الله به وبلغتهم إياه رسوله الكرام. إنما

يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاہُمُ اللّٰهُ عَنْہُ وَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ رِسَالَهُ الْكَرَامِ. فَالرَّسُلُ،
صَلَوَاتُ اللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمُ السَّفَرَاءُ بَيْنَ اللّٰهِ وَبَيْنَ
خَلْقِهِ فِي أَدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاغِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ
أَتَمَّ قِيَامٍ، وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ.

** وفيه أن من ألزم الناس أو أراد منهم أن يتبعوا قوله مهما
كان فإنه قد جعلهم عباداً له؛ لأن طاعة الشخص من العبادة.

وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ
تُمْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ
قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ
فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيَّرَ دِينَ اللّٰهِ يَبْغُونَ
وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ (٨٣)

{وَإِذْ} واذكر إذ {أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ} عهد، وسمي ميثاقاً؛ لأن
كلاً من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر كالوثاق -الحبل- الذي
يشد به الإنسان.

{النَّبِيِّينَ} جعل ذلك ميثاقاً للنبيين على سبيل التعظيم لهذا الميثاق. واكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد على الأتباع، ويبين هذا التأويل قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود: {ميثاق الذين أوتوا الكتاب}، بدل: {النبيين}، وكذا هو في مصحفيهما. ويبين أيضاً أن الميثاق يشمل الأمم قوله: **{فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** ومحال هذا الفرض في حق النبيين، وإنما ذلك في حق الأتباع.

{لَمَّا آتَيْتُكُمْ}.. التفات من الغيبة إلى الحضور والمعنى: للذي آتيتكم بمعنى الخبر، قال سيبويه: سألت الخليل بن أحمد عن قوله عز وجل: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ}** فقال: لما بمعنى «الذي». قال النحاس: التقدير على قول الخليل للذي آتيتكموه، ثم حذف الهاء لطول الاسم.

وقيل: بمعنى الجزاء أي: لئن آتيتكم ومهما آتيتكم. **{مِنْ كِتَابٍ}** وكل الأنبياء لم يؤتوا الكتاب وإنما أوتي البعض، ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب. والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتي الكتاب لأنه أوتي الحكم والنبوة.

وأيضاً من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله
فدخل تحت صفة من أوتي الكتاب.

{وَحِكْمَةٌ} الحكم بين الناس، وإصابة الصواب من تنزيل
الأشياء منازلها.

**** وفيه: أن ما مَنَّ الله به على النبيين من الكتاب والحكمة،**
يتفرع عليه أن من ورث هذا الكتاب والحكمة فإنه قد أخذ بحظ
وافر مما أنعم الله به على النبيين. ولهذا جاء في الحديث عن
النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ
الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ
بِحِظٍّ وَافِرٍ) [أبو داود] ، فيجب عليهم إذ ورثهم الله علم الأنبياء
أن يقوموا مقام الأنبياء في الدعوة إلى الله، ونشر العلم، والجهاد
في سبيله.

{ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ} له معنيان:

المعنى الأول: أنه يصدق ما سبقه من الكتب، ويقول مثلاً
:إن التوراة حق، والإنجيل حق، وما أشبه ذلك.

والمعنى الثاني: أنه يقع مصداقاً لما سبقه من الكتاب؛ لأن
الكتب أخبرت به. فإذا جاء مطابقاً لما أخبرت به صار مصداقاً
لها. فيكون على هذا الوجه شهادة لهذا الكتاب بأنه حق؛ لأن

الله تعالى يقول في النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: {الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} [الأعراف: ١٥٧] فإذا جاء على الوصف
الذي جاءت به التوراة والإنجيل وقع مصداقاً لهما؛ لأنهما أخبرا
بشيء فجاء هذا الشيء كما أخبرا فيكون مصداقاً.

إذن لما قالت الرسل: إن محمداً رسول الله يبعث على الوجه
الذي ذكر الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فجاء مطابقاً
لما أخبرت به صار مصداقاً لها {مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ} أي للذي
معكم من الكتب السابقة التي جاؤوا بها.

قال في البحر المحيط: وكثيراً ما وصف بهذا الوصف في
القرآن رسولنا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ألا ترى إلى قوله
{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ }
[البقرة: ١٠١] وكذلك وصف كتابه بأنه مصدق لما في كتبهم،
كقوله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ } [البقرة: ٨٩]

{لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} تعينونه على نشر رسالته، وقاتل
أعدائه؛ لأن النصر هنا يشمل النصر بالعلم وبالسلاح.

فيخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم -عليه السلام- إلى عيسى -عليه السلام-، لَمَهْمَا آتَى اللَّهُ أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ أَيِّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ، لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّبُوءَةِ مِنْ اتِّبَاعٍ مِنْ بَعَثَ بَعْدَهُ وَنَصْرَتَهُ. وَإِنْ لَمْ يَدْرِكْهُ أَنْ يَأْمَرَ قَوْمَهُ بِنَصْرَتِهِ إِنْ أَدْرَكَوهُ.. قَالَ طَاوُوسٌ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَقَتَادَةُ: "أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يَصْدُقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا".

وقال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لَنْ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ: لَنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ.

واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى: **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} إلى قوله: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ} [النحل: ١١٢ - ١١٣]**

وإلى هذا يرجع ما ورد في القرآن من دعوة إبراهيم عليه السلام **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} [البقرة: ١٢٩]**

وَقَدْ جَاءَ فِي سِفْرِ التَّشْيِيعِ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قَالَ لِي
الرَّبُّ أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي
فَمِهِ فَيَكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ». وَإِخْوَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ بَنُو
إِسْمَاعِيلَ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ نَبِيًّا إِسْرَائِيلِيًّا لَقَالَ أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْهُمْ
عَلَى مَا فِي تَرْجَمَةِ التَّوْرَةِ مِنْ غُمُوضٍ وَلَعَلَّ النَّصَّ الْأَصْلِيَّ أَصْرَحَ
مِنْ هَذَا الْمُتَرْجَمِ.

وَالْبِشَارَاتُ فِي كُتُبِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَفِي الْأَنَاجِيلِ كَثِيرَةٌ..
فَفِي "مَتَّى" قَوْلُ الْمَسِيحِ «وَتَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذِبَةٌ كَثِيرُونَ وَيُضِلُّونَ
كَثِيرِينَ وَلَكِنَّ الَّذِي يَصْبِرُ - أَيُّ يَبْقَى أَخِيرًا - إِلَى الْمُنْتَهَى فَهَذَا
يَخْلُصُ وَيَكْرَزُ [وَيَحْسَنُ تَبْلِيغَ الدِّينِ] بِبَشَارَةِ الْمَلَكُوتِ هَذِهِ فِي
كُلِّ الْمَسْكُونَةِ شَهَادَةً لِجَمِيعِ الْأُمَمِ ثُمَّ يَأْتِي الْمُنْتَهَى».

وَفِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا قَوْلُ الْمَسِيحِ «وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْأَبِ
فَيُعْطِيكُمْ مُعْزِيًّا آخَرَ لِيَمَكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ - وَأَمَّا الْمُعْزِي
الرُّوحُ الْقُدُسُ الَّذِي سِيرَسَلَهُ الْأَبُ بِاسْمِي فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ
وَيَذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ - وَمَتَّى جَاءَ الْمُعْزِي رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي
مِنْ عِنْدِ الْأَبِ يَنْبَتِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِي» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَفِي أَخْذِ الْعَهْدِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ زِيَادَةٌ تَنْوِيهِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَبِهِ فَسَّرَ مُحَقِّقُو

المُفسِّرينَ من السلف منهم علي بن أبي طالب، وابن عباس، وطاووس، والسدي.

**** وفيه:** أنه إذا كان واجباً على الأنبياء والأمم السابقين أن يؤمنوا برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وينصرونه، كان إيماننا نحن به ونصرته من باب أولى؛ لأننا نتسبب إليه وننتمي إليه، ونعتقد إمامنا، عليه الصلاة والسلام، فكان واجباً علينا أن نصره. ومن المعلوم أن نصره في حياته هو الجهاد معه جنباً إلى جنب، وأما نصره بعد وفاته فهو نصر سنته ونشرها، وبيانها للناس، والدفاع عنها، والجهاد في نصرتها، كل هذا واجب على الأمة الإسلامية. وبناء على ذلك يجب على الأمة الإسلامية أن ترفض كل وارد إليها من أعداء الله إذا كان مخالفاً للسنة؛ كل شيء يرد علينا من الكفار من عقائد وأخلاق وأعمال ومعاملات وغيرها إذا كان مخالفاً لسنة الرسول، فإن أقل ما يقال في النصر أن يرفض هذا الشيء، وأن يضرب به وجه مورده، وأن لا يكون له مكان بين الأمة الإسلامية؛ لأنه كيف يكون نصره ونحن نستورد من أعداء هذه النصر ما يخالف هذه النصر؟! من ادعى ذلك فهو كاذب. فإن فعله يكذب قوله، ولو كان قوله صادقاً

لكان أول ما يقوم به من نصره شريعة الله أن يرفض كل ما خالف شريعة الله.

{قَالَ أَقَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي} عهدي وميثاقي الشديد المؤكد **{قَالُوا أَقَرَرْنَا}** بالإيمان به وبنصرته، وقبلنا ذلك والتزمناه **{قَالَ فَاشْهَدُوا}** فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم وأممكم **{وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}** عليكم وعليهم.

{فَمَنْ تَوَلَّى} يعني من أمم هؤلاء الأنبياء، ولا ترد هذه الشرطية على الأنبياء، إذ لا يجوز على الأنبياء التولي والفسق ولكن المقصود أممهم كقوله: **{لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ}** [الزمر: ٦٥]

{بَعْدَ ذَلِكَ} عن هذا الإقرار والعهد والميثاق.. ولم يقل: "فمن تولى بعد ذلك منكم" كما قال في الآية التي خوطب فيها بنو إسرائيل في سورة المائدة **{فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}** [المائدة: ١٢]

** وفيه: أن من تولى قبل قيام الحجة عليه، لم يحكم عليه بالفسق؛ لقوله: **{فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ}** ويتفرع على هذا فائدة مهمة وهي: أن الشرائع لا تلزم قبل العلم.

وهذه مسألة عظيمة جداً، اختلف فيها العلماء اختلافاً طويلاً عريضاً، لكن من تأمل نصوص الكتاب والسنة، وتأمل أيضاً ما لله من صفات عظيمة، تبين له أن الشرائع لا تلزم قبل العلم؛ لأن الله كتب على نفسه أن رحمته سبقت غضبه. ولو قلنا بوجوب الشرائع قبل العلم لكان الغضب سابقاً على الرحمة؛ لأننا نلزم الإنسان بشيء لم يعلمه. لكن ربما يكون من الإنسان تفريط في السؤال، أي لا يسأل فحينئذ قد نلزمه قبل أن يعلم من أجل تفريطه. أما لو لم يكن مفراطاً كإنسان نشأ في بادية، ولا يعلم شيئاً عن الدين، وليس عنده عالم، ولا طراً على باله، فكان يصلي على جنابة بدون اغتسال مثلاً، وبقي على ذلك عشر سنوات أو أكثر، فجاء يسأل نقول له: ليس عليك شيء؛ لأنك لم تعلم بوجوب الغسل من الجنابة. لكن لو كان في البلد، ويسمع ويستطيع أن يسأل، فربما نلزمه بقضاء ما مضى.

ومن ذلك ما يحدث لكثير من النساء التي تبلغ بالحيض وهي صغيرة، ولكنها لا تصوم بناء على أنها صغيرة، وأن الصوم لا يلزم إلا من تم لها خمس عشر سنة، ثم تأتي تسأل، فإذا علمنا من حالها أنها معذورة بالجهل فإننا لا نلزمها بقضاء ما فات من الصيام لأنها معذورة.

وهذا في الذي ينتسب إلى الإسلام نعدره، ونحكم بإسلامه، ونصلي عليه إذا مات، أما من لا ينتسب إلى الإسلام فهذا كافر في الدنيا، وأما في الآخرة فعلمه عند الله، فالقوم الذين لم تبلغهم الدعوة وهم كفار، هؤلاء كفار في الدنيا لو ماتوا لا نصلي عليهم، ولا ندعو لهم. لكن في الآخرة، الصحيح أن أمرهم إلى الله، وأن الله تعالى يمتحنهم بما يشاء من تكليف. فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وهذه مسألة يجب الانتباه إليها.

أما من ينتسب إلى الإسلام ولكنه على حال تكفره؛ من تَرَكَ واجب، أو فعل محرم، وهو لم يبلغه الشرع فإن القول الراجح أنه لا يحكم بكفره؛ لأنه معذور. ولهذا تجد في نصوص الكتاب والسنة كلها أو غالبها مقيداً ببلاغ الرسالة بالعلم، أو بالتبيين وما أشبه ذلك. وهذا - كما تقدم - هو مقتضى صفة الله عز وجل وهي أن رحمته سبقت غضبه، والحمد لله رب العالمين.

{فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ووجه الحصر أنه للمبالغة لأن فسقهم في هذه الحالة أشد فسق، فجعل غيره من الفسق كالعدم.

والفاسقون العاصون الخارجون عن الإيمان، والمراد بالفسق هنا فسق الكفر؛ لأن الفسق يطلق على فسق المعاصي وعلى فسق الكفر؛ فمن الأول قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦] هذا فسق المعصية.

ومن الثاني قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ} * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [السجدة: ٢٠-١٨]

{أَفْغَيْرَ دِينِ اللَّهِ} يعني شريعته التي شرعها لعباده، وأضافها الله لنفسه تشريفا لها، وبيانا لأهميتها، وأنها الشريعة العادلة النافعة التي لا يقوم الخلق إلا بها؛ لأنها شريعة الله، فهي أكمل الشرائع.

{يَبْغُونَ} يطلبون.. بياء الغيبة فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجب من أهل الكتاب. وهذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ. وفيها قراءة سبعية {تبغون} بتاء خطاب لأهل الكتاب.

**** وفيه أن من ابتغى غير دين الله، ولو في التنظيم، وما يسمى بالقانون الوضعي، فإنه مستحق لهذا التوبيخ العظيم. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل: {أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ} [المائدة: ٥٠]، وحكم الجاهلية كل ما خالف حكم الشرع، فهو حكم جاهلية؛ لأن حكم الشرع مبني على علم وما سواه مبني على جهل. وهذا في غاية ما يكون من التوبيخ والتقريع أن تبتغي حكماً جاهلياً وتدع حكم العليم الخبير، {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]، وبه نعرف أن من ابتغى حكماً غير حكم الله فهو من أضل عباد الله، وأسفه عباد الله، وأخسر عباد الله، وأنه لن تصلح له أمور دينه ولا دنياه والعياذ بالله.**

{وَلَهُ أَسْلَمَ} استسلم وانقاد وخضع وذل، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم، وفيه عموم ملك الله وسلطانه. فمن تمام السلطان والملك أن كل من في السموات والأرض مستسلم لله، طائعا كان أم مكرهاً.

الواو هذه للحال، يعني: والحال أنه أسلم له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وهو إسلاماً كونياً وليس إسلاماً شرعياً؛ لأن الإسلام الشرعي ليس فيه إكراه؛ ولأن الإسلام

الشرعي لا يعم من في السماء والأرض بل يعم من في السماء، ولا يعم من في الأرض، وإنما قال: **{وَلَهُ أَسْلَمَ}** بعد قوله: **{أَفْغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}** لإقامة الحجة على من لم يسلم لله شرعاً ولم يتبع دينه.

{مَنْ} أتى بمن الدالة على العاقل تغليباً لجانب العقلاء؛ لأننا لو قسنا من في السموات والأرض لكان الأكثر العقلاء؛ لأن السموات ما من موضع أربعة أصابع إلا وملك قائم لله أو راع أو ساجد، وفي الترمذي بسند حسن قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : (أُطَّتِ السَّمَاوُتُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ) والسماء واسعة جداً، ما يعلم سعتها إلا الله، قال تعالى: **{وَالسَّمَاءُ بَنِينَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}** [الذاريات: ٤٧] السماء الدنيا أوسع بكثير من الأرض، والسماء الثانية أوسع بكثير من السماء الدنيا، وهلم جرا.. كل سماء أوسع مما تحتها.

{فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مفرد لكن المراد بها الجنس فيشمل الأرضين وهي سبع، لكن لم يفصح الله تعالى بها في القرآن، بل قال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}** [الطلاق: ١٢]، وفي مسلم قال -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ).

{طَوْعًا} الطوع: الانقياد والاتباع بسهولة.

{وَكْرَهًا} الكره: ما كان فعله بمشقة وإباء من النفس، وما
فعل بغير الاختيار.

قال قتادة: أسلم المؤمن طوعا والكافر عند موته كرها ولا
ينفعه ذلك؛ لقوله: **{فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}**
[المؤمن: ٨٥].

وقال مجاهد: إسلام الكافر كرها بسجوده لغير الله وسجود
ظله لله. وفي رواية عنه: سجود ظل المؤمن طائعا وسجود ظل
الكافر كارهًا، كما قال الله تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ
شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ}**
[النحل: ٤٨] **{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكْرَهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}** [الرعد: ١٥] بانقيادها لله تعالى
في طولها وقصرها، وميلها من جانب إلى جانب، وخُصَّ هذان
الوقتان وإن كان سجودهما دائماً؛ لأن الظلال إنما تَعْظُم وتكبر
فيهما.

{وَالِيهِ يُرْجَعُونَ} أسند الفعل إلى المجهول لظهور فاعله، ومناسبة ذكر هذا عقب التوبيخ والتحذير، أن الرب الذي لا مفر من حكمه لا يجوز للعاقل أن يعدل عن دين أمره به، وحقه أن يسلم إليه نفسه مختاراً قبل أن يسلمها اضطراراً.

يعني كما أنه له السلطان الكامل عليهم في الدنيا فإنهم أيضاً يرجعون إليه في الآخرة. وفيه إثبات البقاء لله؛ لأنه إذا كان مرجع كل الخلق لزم من ذلك أنه سيقى -عز وجل- ليكون مرجعاً لجميع الخلق.

وفي قراءة: (ترجعون) بقاء المخاطبة، بناءً على القراءة في: (تبغون).

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة قالوا: لو اختلفت القراءة في آية فهل لك أن تقرأ في أولها بقراءة وفي آخرها بقراءة أخرى؟.

أ - فمن العلماء من قال: نعم يصح؛ لأن الكل وارد ولكن الراوي أو القارئ الذي رواها هو الذي يبقى على ما روى، أما أنا فمقول إلي، وقد ثبت أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قرأ أول الآية على هذا الوجه وآخر الآية على هذا الوجه، فلي أن

أقرأها بالوجهين، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الصحيح.

ب - وبعضهم قال: لا، إذا قرأت بقراءة واحدة لا تقرأ بقراءة الثاني في آخر الآية.

عن مجاهد عن ابن عباس قال: إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت شموسا فليقرأ في أذنها هذه الآية: {أَفْغَيْرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

{قُلْ} الخطاب في هذه الآية للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والخطاب للنبي خطاب له وللأمة، ما لم يَقم دليل على أنه خاص به.

والمأمل في الخطاب الموجه لنبي الله يتبين له أنه على ثلاثة أقسام:

قسم دل الدليل على أنه خاص به، وقسم دل الدليل على أنه له وللأمة، وقسم ليس فيه دليل.

أما ما دل الدليل على أنه خاص به فهو له، يختص به، مثل قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} [الإنسان: ٢٣]، وقوله: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]

وأما ما دل الدليل على العموم، فهو على العموم، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} [الطلاق: ١]، وما سوى ذلك فإنه يكون عاما له وللأمة، لكن وجه الخطاب إليه باعتباره الإمام لأُمَّته -عليه الصلاة والسلام-، والخطاب الموجه للإمام موجه له ولمن كان مؤتماً به. ويؤيده قوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]

** وفيه وجوب الإقرار بالإيمان باللسان، كما هو واجب بالقلب، فاللسان معبر عن القلب.

{آمَنَّا بِاللَّهِ} والإيمان بالله يتضمن أموراً: الأمر الأول: الإيمان بوجوده. الثاني: الإيمان بربوبيته. الثالث: الإيمان بألوهيته. الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

لكن الثلاثة الأخيرة لا بد من توحيده بذلك أي توحيده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات. أما الوجود فشامل له ولغيره، وإن كان وجود الخالق يختلف عن وجود المخلوق.

فمن لم يؤمن بوجود الله فهو ليس بمؤمن. ومن آمن بوجوده ولم يؤمن بربوبيته على وجه عام شامل، فهو لم يؤمن بالله. ومن آمن بالله وربوبيته ولكن لم يؤمن بالألوهية فليس بمؤمن. ومن آمن بذلك كله ولم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن. لكن الأخير فيه تفصيل، قد يخرج من الإيمان بالكلية وقد لا يخرج.

{وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا} وجمع الضمير في قوله تعالى: **{وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}** وهو القرآن لما أنه منزلٌ عليهم أيضاً بتوسط تبليغه إليهم، أو لأن المنسوب إلى واحد من الجماعة قد يُنسب إلى الكل، أو عن نفسه فقط وهو الأنسب بما بعده والجمع لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك، ويجوز أن يكون الأمر عاماً، والإفراد لتشريفه عليه

السلام والإيذان بأنه عليه السلام أصل في ذلك كما في قوله

تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق: ١]

{وَمَا أُنْزِلَ} من الصحف والوحي {عَلَى} والنزول كما يعدى

بإلى لانتهاؤه إلى الرسل، يعدى بعلى لأنه من فوق.

{إِبْرَاهِيمَ} الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو أبو الأنبياء،

والذي نعرف مما أنزل إليه الصحف، كما ذكر الله ذلك في

موضعين من القرآن في سورة النجم، وسورة الأعلى، فقال تعالى:

{أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}

[النجم: ٣٦-٣٧] وقال: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى: ١٨-١٩]

{وَإِسْمَاعِيلَ} وإسماعيل، لم يصل إلينا كتابه الذي نزل إليه،

ولم نعرف إلا أنه أنزل إليه، ولكن مع هذا يجب علينا أن نؤمن

بما أنزل على إسماعيل.

وإسماعيل هو الولد الأول لإبراهيم، وهو أبو العرب، وهو

الذي صبر ذلك الصبر العظيم حين قال له أبوه: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ

السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا

تَرَى} [الصافات: ١٠٢]، فقال هذا الابن الحليم: {قَالَ يَا أَبَتِ

افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ {
[الصافات: ١٠٢]

ولله دره من ابن لم يبلغ، ولكنه بلغ مع أبيه السعي، وهو
أشد ما تكون النفس تعلقاً به؛ لأن الكبير من الأولاد قد زلت
النفس عنه، والصغير لم تتعلق به بعد ذلك التعلق. ومع ذلك فإن
إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - نفذ ما أمره الله به، قال
الله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

لكن أرحم الراحمين سبحانه وتعالى نسخ هذا الأمر حين
أسلما وتله للجبين.. أسلما: يعني استسلما وانقادا لأمر الله، وتله
للجبين: كاباً له على الأرض، لئلا يرى وجهه حين يذبحه، فلما
قارب أن يذبحه جاء الفرج من الله عز وجل. وهكذا يكون
الفرج، كلما اشتدت الكرب، فانتظر الفرج. كما قال النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا
كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ
الْعُسْرِ يُسْرًا) [أحمد] ولن يغلب عسر يسرين، كما قال تعالى:
{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥-٦]

والحاصل أن إسماعيل هو الولد الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح بلا شك؛ لأن الله لما ذكر قصة الذبح في سورة الصافات قال بعد هذا: **{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}** [الصافات: ١١٢].

{وَأِسْحَاقَ} ذكر بعده للترتيب الزمني، والظاهر -والله أعلم- أنه للترتيب المنزلي أيضاً؛ لأن إسماعيل أفضل من إسحاق؛ فإسماعيل أب لأشرف الخلق محمد، وإن كان إسحاق أباً لأكثر الأنبياء.. فالأنبياء من ولد إسحاق أكثر من الأنبياء من ولد إسماعيل، لكن العبرة بالأفضلية. محمد أشرف الخلق من ذرية إسماعيل فالظاهر -والعلم عند الله- أنه آخره ذكراً؛ لأن إسماعيل أفضل منه وأسبق.

أفضل منه قدراً، وأسبق زمنياً.. ومع ذلك فكل منهم في المرتبة الأولى من مراتب الخلق، **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [النساء: ٦٩] أسأل الله أن يجعلنا من رفقاءهم.

{وَيَعْقُوبُ} ابن إسحاق وهو الملقب بإسرائيل، والذي ينسب إليه بنو إسرائيل. وأخره عن الاثنين؛ لأنه متأخر عنهما زمنًا.

{وَالْأَسْبَاطُ} والأسباط جمع سبط وهو الحفيد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الاثنا عشر وذرايرهم فإنهم حفدة إبراهيم عليه السلام

يقول العثيمين: **وَالْأَسْبَاطُ**: جمع سبط. وأصل السبط في اللغة ابن البنت، ولهذا يقال في الحسن والحسين رضي الله عنهما سبطا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وابن الابن يسمى حفيداً، قال تعالى: **{وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُ بَنِينَ وَحَفَدَةً}** [النحل: ٧٢] أي أبناء الابن.

وفي المراد بهم قولان:

القول الأول: أن المراد بالأسباط أولاد يعقوب وأنهم أنبياء.
القول الثاني: أن المراد بهم شعوب بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء، وعلى هذا فيكون في الآية على هذا المعنى، تقدير: أي وما أنزل على أنبياء الأسباط.

ويؤيد القول الأول أنه لا يحتاج إلى تقدير؛ لأن الثاني يحتاج إلى تقدير، وتقديره أنبياء الأسباط. وإذا دار الكلام بين أن يكون

ذا تقدير أو خالياً منه حمل على الخالي منه لأنه الأصل،
والأصل عدم التقدير.

لكن يضعفه أن الأسباط هم أبناء البنات وهنا لا يتناسب مع
الآية؛ لأن أولاد يعقوب أحفاد لإسحاق أو أحفاد لإبراهيم
وليسوا أسباطاً، والقرآن نزل باللغة العربية فيجب أن تحمل
الكلمة في القرآن على المعنى اللغوي ما لم تكن حقيقة شرعية
تمنع من حمله على المعنى اللغوي، فإذا وجد حقيقة شرعية
تمنع من حمله على المعنى اللغوي اتبعنا الحقيقة الشرعية،
كالصلاة -مثلاً- في اللغة: الدعاء، وفي الشرع هي: التعبد لله
تعالى بذات الأقوال والأفعال المعلومة المفتحة بالتكبير،
المختتمة بالتسليم.

يضعفه كذلك أنه لم يقم دليل على نبوة أولاد يعقوب إلا
يوسف، ويوسف من الأنبياء لا شك، أما أولاده الآخرون الأحد
عشر فإنه لم يقم دليل على كل واحد منهم بخصوصه أنه نبي،
والنبوة وصف عظيم يحتاج إلى بينة ودليل وبرهان تدل على أن
هذا الشخص متصف بها.

ثم يضعفه أمر ثالث وهو فعل أبناء يعقوب بأخيهم يوسف،
وما حصل منهم من الكذب حيث جاءوا على قميصه بدم كذب،

وقالوا: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} [يوسف: ١٧]، ثم اتهامهم لأبيه: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: ١٧]، المهم أن هناك قرائن تدل على ضعف أن يكون المراد بالأسباط أولاد يعقوب، ويخرج منهم يوسف بدلالة الكتاب والسنة على أنه نبي.

إذن يترجح القول الثاني أن المراد بالأسباط الشعوب، يعني وما أنزل على الأسباط بواسطة أنبيائهم؛ لأن المنزل على أنبيائهم منزل عليهم، كما قال تعالى: {وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ} [العنكبوت: ٤٦]

وإنما قدم المُنزل على الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدّمه عليه نزولاً لأنه المعروف له والعيار عليه.

{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما.. فالعدول عن التعبير بالإنزال إلى الإيتاء لأن ما أُوتيه موسى وعيسى نوعان: وحي، وآيات كونية محسوسة بقي ذكرها إلى نزول القرآن الكريم، وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى.

{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى}: وحي وآيات، أما الوحي فالتوراة التي هي أفضل كتاب بعد القرآن، وأشمل كتاب وأعم كتاب وأهدى كتاب بعد القرآن: **{قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ}** [القصص: ٤٩] فقرنها الله مع القرآن.

هذه التوراة نزلت على موسى، وهذا إيتاء الوحي، وأما إيتاء الآيات، فمن أعظم ما حصل له العصا واليد، وقد حصل في العصا ثلاث آيات عظيمة: ألقاها على سحرة آل فرعون فالتهم جميع حبالهم وعصيهم، فالتهمها التهاماً، وهي ثعبان والحبال والعصي قد ملأت الأرض، ومع ذلك هذا الثعبان يأكلها، ولا يدرى أين تذهب؛ لأنها أكبر منه حجماً، ولكن مع ذلك - قدرة الله فوق كل شيء - ولم يتماسك السحرة لما رأوا هذه الآية العظيمة، حتى خروا ساجدين **{وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}** [الأعراف: ١٢٠] انظر كلمة **{أُلْقِيَ}** كأنهم جاءوا وسجدوا من غير عقل، لقوة ما ورد على قلوبهم من الآيات التي يعرفون أنها ليست سحراً.

والآية الثانية في العصا: أنه ضرب بها البحر فانفلق، فصار اثني عشر طريقاً، بين كل طريق وآخر كُتِل من الماء كأنها جبال، كل جبل كالطود العظيم. وقد ذكر بعض العلم أن الله جعل في

هذا الماء فُرْجاً من أجل أن يطمئن الناس بعضهم إلى بعض،
يُشاهد بعضهم بعضاً من هذه الفرج .. هذا الماء الذائب المائع
كأنه مسلح، وبلحظة {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي
فَاصْرُبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى}
[طه: ٧٧]

لو اجتمعت نيران الدنيا كلها لتيبس أرض البحر في هذه
اللحظة ما تمكنت، أو رياح الأرض كلها، أو المخترعات، ما
تمكنت، ولكن قدرة من يقول للشيء كن فيكون، جعلت هذا
أمراً ممكناً واقعاً.

الثالث من الآيات العظيمة للعصا: أنهم إذ استسقوا، يعني
حصل عليهم نقص في الماء، ضرب موسى الحجر بهذه العصا
فتفجر اثنتا عشرة عيناً، كل عين لسبط من أسباط بني إسرائيل
حتى لا يقع النزاع بينهم والمزاحمة والمشاقة.. هذه من الآيات
التي أوتيها موسى.

أما عيسى فأوتي أيضاً وحياً، وآيات الوحي: الإنجيل الذي
كان متمماً للتوراة مبنياً عليها. وآيات حسية منها: أنه يخلق من
الطين كهية الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً يطير، ويُبرئ الأكمه
والأبرص، ويُحيي الموتى، ويُخرجهم من القبور، بإذن الله.

{وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ} أي وما أوتي النبيون من المذكورين وغيرهم.

{لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض، بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم، وبأحقية ما أنزل إليهم في زمانهم، وأنا لا نعادي الأنبياء، ولا يحملنا حب نبينا على كراحتهم، وهذا تعريض باليهود والنصارى.

وهذه الآية شعار الإسلام، وقد قال الله تعالى: **{وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ}** [آل عمران: ١١٩] أي بالكتب كلها، ولكنهم لا يؤمنون بكتابكم.

ويذكر أن شخصاً حاج عالماً من علماء المسلمين، فقال له: لماذا تجيزون لأنفسكم أن تتزوجوا بناتنا، ولا تجيزون لنا أن نتزوج بناتكم؟، فقال له العالم: لأننا نؤمن برسولكم ولا تؤمنون برسولنا، فألقمه حجراً.

فكل هؤلاء الرسل نؤمن بهم على سبيل السواء، بدون تفریق، والإيمان بهؤلاء إيمان مجمل، ولكن كل ما صح عنهم أنهم أخبروا به وجب علينا الإيمان به، ولو تفصيلاً.. هذا في الأخبار، لكن في الأحكام لا نتبع إلا ما حكمت به شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم-، فهو الذي كلفنا به، ووجب علينا اتباعه، كما

قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]

فالاتباع لمحمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أما الإيمان فهو عام لجميع الرسل بدون تفريق، فإذا صح عن موسى مثلاً أنه أخبر بخبر يتعلق بالله، أو بخبر يتعلق بيوم القيامة، أو بالجنة، أو بالنار، وجب علينا أن نؤمن به إذا صح. أما ما يُروى من الإسرائيليات فقد يكون صحيحاً وقد لا يكون.

واعلم أن شريعتنا في الأحكام بالنسبة لمن سبق على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما وردت شريعتنا بخلافه فهذا لا نعمل به؛ لأن شريعتنا ناسخة لجميع الأديان، مثال ذلك: القصاص في النفس والأطراف كان في التوراة واجباً مفروضاً، ولا عفو، لكن في الشريعة الإسلامية كان مخيراً فيه، فتبع القرآن.

القسم الثاني: ما ورد شرعنا بوفائه فإننا نعمل به اتباعاً لشريعتنا المصدقة لما سبق من الشرائع، ولا نخالفه، وهذا كثير

مثل الطيبات، أحل الله الطيبات لنا ولغيرنا، لكن حرّم على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم.

القسم الثالث: ما لم يرد في شرعنا له وفاق ولا خلاف. هذا محل نزاع بين أهل العلم، وبحثه موجود في أصول الفقه، فمن العلماء من قال: إنه شرع لنا، ومنهم من قال: إنه ليس بشرع، والصحيح أنه شرع لنا، لدلالة شرعنا عليه.

قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهِ} [الأنعام: ٩٠]

وقال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الشورى: ١٣]

وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١]

وكذلك النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحياناً كان يسند الحكم إلى أنه فعله أخي فلان من الأنبياء، وما أشبه ذلك، والمعنى يقتضي ذلك أيضاً، لأنه لولا أن لنا فائدة من قصص الأنبياء السابقين -ومن الفوائد أن نعتبر ونعمل بما عملوا- لم يكن

هذه القصص شيء من الفائدة كثير.

{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} أي منقادون أو مخلصون أنفسنا له تعالى لا نجعل له شريكاً فيها، وفيه تعريضٌ بإيمان أهل الكتاب فإنهم بمعزل من ذلك. وقدم المتعلق على المتعلق لإفادة الحصر، يعني ونحن له لا لغيره مسلمون.

فالمؤمن إذا تعارض عنده أمر الله وأمر الخلق قدم أمر الله مهما كان الأمر، حتى أبوك وأمك، لو أمراك بخلاف أمر الله فقدم أمر الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "لا تجب طاعة الوالدين في ترك أمر ينفعك ولا يضرهما". .. هذا كلام جيد يُكتب بماء الذهب، فكل شيء ينفعك ولا يضرُ والديك فإنه لا تجب طاعتهما فيه. كما لو طلبت العلم. ولا يرد على هذا مسألة الجهاد - أن بر الوالدين أفضل من الجهاد - لأن الجهاد فيه تعريض للنفس بالقتل، والقتل يقلق راحة الوالدين.

{وَمَنْ} شرطية {يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ} غير شريعة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فالمراد بالإسلام هنا: الإسلام الخاص وهو الذي جاء به النبي محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وإن كان الإسلام في الأصل يُطلق على: الاستسلام لله في كل زمان

ومكان، كما ذكر عن الأنبياء السابقين أنهم يُطلقون الإسلام على الدين: **{قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [النمل: ٤٤]، والآيات في هذا كثيرة، أن الرسل وأتباعهم مسلمون، ولكن هذا هو الإسلام العام، أما بعد بعثة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فكل ما يُسمى إسلاماً فهو ما جاء به الرسول محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقط.

{دِينًا} أي عملاً يدين به الله، ويرجو أن يدان به بالثواب من عند الله؛ لأن الدين يُطلق على العمل والجزاء. ففي قوله تعالى: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون] المراد به العمل، وفي قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}** [الانفطار: ١٧ - ١٨] المراد به الجزاء، وفي قوله هنا: **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا}** المراد به العمل.

لكن الدين لا يكون إلا في عمل يرجو الإنسان ثوابه، أي يرجو أن يُدان به، ولهذا يُقال: "كما تدين تدان".

{فَلَنْ يُقْبَلَ} ذلك **{مِنْهُ}** أبداً بل يُردُّ أشدَّ ردِّ وأقبحه.

لم يقل: "فلن يقبل الله منه"، ليعم الرفض والرد من الله عز وجل، ومن الرسول، ومن المسلمين، ولهذا لا يجوز للمسلمين أن يُقرُّوا أحداً على دين خلاف شريعة الرسول، والمراد بالقبول

هنا قبول الصحة، ودليل ذلك قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
فيما أخرجه الشيخان عن عائشة -رضي الله عنها-: (مَنْ عَمِلَ
عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)، أي: مردود.

فمن دان بغير الإسلام، سواء في الأصل أو في الفرع، فإن
دينه هذا مرفوض، ومردود ولن يُقبل منه، ولا يُعطى ثواباً في
الآخرة على عمله.. ولهذا قال:

{وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} والمعنى أن المعرض عن
الإسلام والطالب لغيره فاقْدُ للنفع واقع في الخسران بإبطال
الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، وفي ترتيب الرد
والخسران على مجرد الطلبِ دلالة على أن حال من تدين بغير
الإسلام واطمأن بذلك أفضح وأقبح.

واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم
يقبل، والجواب أنه ينفي قبول كل دين يُغايِره لا قبول كل ما
يغايِره.

وهذه والله هي الخسارة العظيمة، أن يعيش الإنسان في الدنيا
ما شاء الله أن يعيش ثم لا يكتسب ما ينفعه في الآخرة، فإذا قدم
إلى ربه لم يجد شيئاً كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ
كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً**

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {
[النور: ٣٩]}

وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

{كَيْفَ} الاستفهام هنا للاستبعاد، فإنهم آمنوا وعلموا ما في
كتب الله، ثم كفروا بعد ذلك بأنبيائهم، إذ عبد اليهود الأصنام
غير مرة، وعبد النصارى المسيح، وقد شهدوا أن محمداً صادق
لقيام دلائل الصدق، ثم كابروا، وشككوا الناس. وجاءتهم الآيات
فلم يتعظوا، فلا مطمع في هديهم بعد هذه الأحوال، وإنما تسري
الهداية لمن أنصف وتهاياً لإدراك الآيات دون القوم الذين ظلموا
أنفسهم.

كما روى أحمد عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شَجَّ فِي وَجْهِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَرُمِيَ
رَمِيَّةً عَلَى كَتِفَيْهِ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُهُ عَنْ
وَجْهِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: (كَيْفَ تُفْلِحُ أُمَّةٌ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ
إِلَى اللَّهِ؟)

{يَهْدِي اللَّهُ} إلى الإيمان واتباع الحق.. والهداية الخروج من
الضلال، وهي هداية خاصة ناشئة عن عناية الله بالعبد ولطفه به،
وإسنادها إلى الله ظاهر.

{قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} نزلت في أهل الكتاب آمنوا
بالتوراة والإنجيل وفيهما ذكر محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
فغيروا وكفروا بعد إيمانهم بنبوته.. قاله الحسن.

وقيل: هم يهود قُرَيْظَةَ والنَّصِيرِ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مَبْعَثِهِ.

{وَشَهِدُوا} عطفٌ على {بعد إيمانهم} كما في قوله تعالى:
{إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا}
[الحديد: ١٨]

{أَنَّ الرَّسُولَ} محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.. (ال) للعهد الذهني؛ لأنه لم يسبق له ذكر، لكنه معلوم ذهنياً، ف «ال العهدية» تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ / العهد الذكري: أن تكون داخلة على ما سبق ذكره، مثل قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}** [المزمل: ١٥-١٦]

٢ / العهد الحضورى: أن تكون داخلة على شيء حاضر. وهذه أكثر ما تكون في (ال) الواقعة بعد اسم الإشارة للحضور، للعهد الحضورى؛ لأن الإشارة تدل على المشار إليه. والمشار إليه يكون حاضراً، فنقول: "هذا اليوم شديد الحر" أي اليوم الحاضر. وقوله تعالى: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}** [المائدة: ٣] اليوم يعني اليوم الحاضر.

٣ / العهد الذهني: أن تكون داخلة على شيء معلوم في الذهن. مثل قوله تعالى هنا: **{وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ}** فالمراد به رسول الله محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لأن قوله: **{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}** معناه أن يستبعد أن يهدون، وهذا لا يمكن بعد نزول القرآن إلا أن يكون الرسول محمد.

وتقول مثلاً وأنت في البلد: "جاء القاضي"، أي قاض هو؟ قاضي البلد المعروف.

وقسمة لـ «ال» العهدية هي «ال» الجنسية والتي تكون لبيان الحقيقة وبيان استغراق الحقيقة.

فإذا قلت: الرجال أكمل من النساء، هذه لبيان الحقيقة (الجنس)؛ جنس الرجال أفضل من جنس النساء. ولا يعني أن كل واحد من الرجال أكمل من كل امرأة من النساء. ففي النساء من هي خير من كثير الرجال.

وتكون للعموم مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ} [العصر: ٢] يعني كل إنسان، وهذه علامتها أن يحل محلها «كل» بتشديد اللام.

{حَقٌّ} حق ثابت صادق فيما أخبر، عادل فيما حكم به.
{وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} الْحُجُجُ والبراهين من معجزات الرسل وآيات القرآن المبيّنة للحق في المعتقد والعمل، ثم ارتدوا إلى ظُلْمَةِ الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تَلَبَّسُوا به من العماية؟!

وهذا استبعادٌ لأن يهديهم الله تعالى، فإن الحائد عن الحق بعد ما وُضِحَ له منهْمُكَ في الضلال بعيدٌ عن الرشاد.

فكيف هنا استفهام بمعنى الاستبعاد، أي: يبعد جداً - إن لم
يمنع - أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، يعني: ارتدوا بعد
أن آمنوا، وعرفوا الحق، فإن هدايتهم بعيدة، وذلك لأن من عرف
الحق ثم ارتد عنه، فهو أعظم جرماً ممن لم يعرف الحق، ولم
يدخل فيه وبقي على كفره، فالكافر المرتد أعظم من الكافر
الأصلي في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يترك الكافر الأصلي
على دينه ولا يُجبر على تركه، لكن المرتد لا يُقر على رده، بل
يُجبر على أن يعود إلى الإسلام أو يُقتل؛ لقول النبي -صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ) [البخاري]

فالله -عز وجل- يبعد أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم،
أما من كانوا على الكفر أصلاً فما أكثر الذين اهتدوا بعد أن
كانوا على الكفر وشهدوا أن الرسول حق.

** وفيه أن الكفر بعد الإيمان أغلظ من الكفر الأصلي؛ لأن
الله تعالى استبعد أن يهدي هؤلاء. وأما الكافرون فإن الله
سبحانه وتعالى ذكر في سورة الممتحنة أن الله تعالى قد يهديهم
فقال: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ
مَوَدَّةً}

وذلك بالإيمان، {وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة: ٧].

**** وفيه أن الهداية والإضلال بيد الله؛ لقوله: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا} فنسب الهداية إليه. وفي آيات أخرى أن الله نسب الإضلال إليه مثل: {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧].**

ولكن يجب أن يعلم أن هداية الله وإضلاله لحكمة؛ فمن كان أهلاً للهداية هداه الله، ومن كان أهلاً للضلال أضله الله.. قال الله تعالى: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤]** وقال تعالى: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]**

والله عز وجل يعلم.. إذا علم من المرء أنه لا يريد الهداية أضله. وإذا علم أنه يريد الهداية، وأنه حريص عليها يطلبها أينما كانت، ويسلك ما دل عليه الدليل، فإن الله تعالى يهديه ويعينه ويوفقه ويفتح بصيرته حتى يرى الحق كأنما يتلقاه عن في رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

**** وفيه أن الله سبحانه وتعالى لم يدع الخلق هملاً، بل أقام لهم الحجج، وأقام البيّنات، حتى لا يكون للناس على الله حجة؛ لقوله: {وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}.**

هذه البيّنات تنقسم إلى أقسام: شرعية، وعقلية، وحسية؛ أما الشرعية فهي القرآن، وأما العقلية فهي أن كل عاقل يتدبر ما جاء

به الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم أنه حق، فإنه ما أمر بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته لم ينه عنه. وأما الحسية فظاهرة، انتصاراته العظيمة في هذه المدة الوجيزة، وانتصار أصحابه حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها مع أنهم كانوا أذلة مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس.. هذا من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقا.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} جملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها من حيث المعنى كأنه يقول: إنما لا يهديهم الله لأنهم ظلمة.

أي والله حسب سنته في خلقه لا يهدي من أسرف في الظلم وتجاوز الحد فيه فأصبح الظلم طبعاً من طباعه، فلهذا كانت هداية من هذه حاله مستبعدة للغاية، وإن لم تكن مستحيلة. فإن قيل في ظاهر الآية أن من كفر بعد إسلامه، لا يهديه الله، ومن كان ظالماً لا يهديه الله، وقد رأينا كثيراً من المرتدين، أسلموا وهداهم الله، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم؟!.

قيل له: لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم، ولا يُقْبَلُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فأما إذا جاهدوا، وقصدوا الرجوع،

وفقهم الله لذلك لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]

{أُولَئِكَ} أتى بصيغة الإشارة على وجه البعد إشارة إلى انحطاط مرتبتهم؛ لأن الإشارة إلى القريب بصيغة البعد قد تكون إشارة إلى علو المرتبة، وقد تكون إشارة إلى انحطاط المرتبة، وهنا إشارة إلى انحطاط مرتبتهم، فهم لانحطاط مرتبتهم بعيدون، يُشار إليهم إشارة البعد.

وقيل: الإشارة للتنبيه على أنهم أحرىء بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم عليهم

{جَزَاؤُهُمْ} جزاء كفرهم **{أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ}** ولعنة الله هي طردهم وإبعادهم عن رحمته مع الخذلان.

{وَالْمَلَائِكَةُ} الملائكة هم جنس من المخلوقات، عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور وجعلهم صمداً، لا يأكلون ولا يشربون. وإذا لم يأكلوا، ولم يشربوا، فهم لا يبولون ولا يتغوطون، ولهذا وصفهم الله بأنهم مطهرون فقال: **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** [الواقعة: ٧٧-٧٩]

{وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} توكيد لما قبلها.

وفي البقرة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [البقرة: ١٦١] لأنه جاء
الإخبار عن من مات كافراً، فلذلك تحتمت اللعنة عليهم، وهنا
ليس كذلك، ألا ترى إلى سبب النزول؟ وأن أكثر الأقوال إنها
نزلت في قوم ارتدوا ثم راجعوا الإسلام.

{خَالِدِينَ فِيهَا} أي في تلك اللعنة الموجبة لهم عذاب النار،
أو خالدين في النار وإن لم تُذكر لدلالة الكلام عليها.
{لَا يُخَفَّفُ} لا يهون {عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} ولا
هم يمهلون ويؤخرون، بل يبادرون بالعذاب.. من أنظره إذا أمهله
ولم يعجل بعذابه، فلا يُفْتَر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم ساعة
واحدة.

وتأمل قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ
إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ} [الزمر: ٧١]. وقال في أهل الجنة: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}
[الزمر: ٧٣].. جاءوها وفتحت، فصار هناك فرق بين هؤلاء
وهؤلاء؛ لأن أهل النار يبادرون لفتحها فيقابلهم العذاب أول ما
يقدمون عليها.

وأما أهل الجنة فإنهم إذا وصلوا إلى الجنة وقفوا على قنطرة بين الجنة وبين النار، فيقتص لبعضهم من بعض، اقتصاصاً خاصاً، غير الاقتصاص الأول الذي يكون في عَرَصات القيامة [جمع عَرْصة.. المكان الواسع الذي يقف فيه الناس للحساب] من أجل أن يزال ما في قلوبهم من الغل والحقد، حتى يدخلوا الجنة وهم على أصفى ما يكونون من المودة، إخواناً على سرر متقابلين.

بل إنهم يبادرون به قبل أن تقوم الساعة. كما قال الله تعالى في آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦]

ويبادرون بالعذاب قبل أن يموتوا: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠]

ويوبخون قبل أن يموتوا: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا

كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ {
[الأنعام: ٩٣].

ثم لم تكن توبتهم مستحيلة ولأن الله تعالى يحب توبة عباده
ويقبلها منهم قال تعالى فاتحاً باب رحمته لعباده مهما كانت
ذنوبهم:

{إِلَّا الَّذِينَ} استثناء متصل {تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} الكفر
والظلم والارتداد {وَأَصْلَحُوا} أصلحوا ما أفسدوه من أنفسهم
بالتوبة والإيمان وصالح الأعمال، ومن غيرهم فأصلحوا من
أفسدوا من الناس.

فمثلاً إذا كان هؤلاء أئمة قادة، لما كفروا كفر من يتبعهم،
فإن توبتهم لا تكفي حتى يصلحوا من فسد على أيديهم، وذلك
بمحاولة إرجاع الذين كفروا تبعاً لهم إلى الإيمان. إذا كان
الإنسان كفر بكتابة ما يخالف الدين، فلا يكفي أن يقول:
"أستغفر الله وأتوب إليه، ولن أعود إلى كتابة ما يخالف الدين"،
حتى يصلح ما أفسد بأن يكتب رداً على ما كتب أولاً؛ لأن
المفاسد المتعدية لا بد فيها من إصلاح.

{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وهما صيغتا مبالغة دالتان على سعة رحمته، أي: فيقبلُ توبتهم ويتفضلُ عليهم وهو تعليلٌ لما دل عليه الاستثناء.

وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

والجواب هنا قد يبدو غير مطابق لما سبق؛ لأنه قد يتوقع السامع أن يكون الجواب فإن الله يتوب عليهم، ولكن الجواب كان ثناء على الله باسمين من أسمائه وهما الغفور والرحيم، قال: **{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** فيؤخذ من هذين الاسمين أن هؤلاء الذين تابوا وأصلحوا يغفر الله لهم؛ لأن مقتضى هذين الاسمين يعمهم فيغفر الله لهم ويرحمهم.

ومغفرة الذنوب هو سترها والتجاوز عنها. والرحيم هو من يرحم العباد. والرحمة صفة تقتضي الإحسان والإنعام. وفي الجمع بين الغفور والرحيم زيادة معنى على ما يتضمنه الاسمان، وهو أن الله تعالى قد جمع بين المغفرة التي بها زوال المكروه، وآثار الذنب، والرحمة التي بها حصول المطلوب وهو النعمة والإحسان.

قيل: نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على ردّته، فأرسل إلى قومه أن يسألوا: هل لي من توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس الآية فرجع إلى المدينة فتاب.

وقال مجاهد: حمل الآيات إلى الحارث رجل من قومه فقرأها عليه. فقال له الحارث: "إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله تعالى لأصدق الثلاثة". قال فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه.

** وفيه إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: الغفور والرحيم.. وكل اسم من أسماء الله فإنه دال على ثلاثة أشياء: على ذات الله، وعلى الصفة، وعلى الأثر الذي يترتب على هذه الصفة. لكن هذا الثالث لا يطرد في كل اسم من أسماء الله؛ لأن الأسماء غير المتعدية لا يدخل فيها إثبات الأثر.

فالعلي مثلاً فيه إثبات الاسم والصفة، والعظيم كذلك، والكبير كذلك، لكن السميع فيه إثبات الاسم والصفة والأثر؛ الاسم: السميع، والصفة السمع، والأثر: أنه يسمع.

ومن هنا نعلم أن كل اسم فلا بد أن يكون متضمناً لصفة بدون استثناء، وليس كل صفة مستلزمة لاسم.. قد يوصف الله

بالشيء ولا يسمى بما دلت عليه هذه الصفة. فالصفات أوسع من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، ولا عكس.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا} يعني أنهم صاروا والعياذ بالله ينحدرون في دركات الكفر، فكلما تمالى الإنسان في الكفر، ولم يتب، فإنه يزداد كفراً؛ لأن كل وقت يمر عليه يزداد وزراً إلى وزره، كما أن المؤمن يزداد أيضاً بزيادة الأيام إيماناً؛ لأن كل يوم يمر عليه وهو مؤمن فإنه يضيف إيماناً إلى إيمانه.

وقال قتادة، وعطاء، والحسن: "نزلت هذه الآية في اليهود"، وعن أبي العالية أنها في اليهود والنصارى.

فاليهود بعد أن آمنوا بموسى كفروا بعيسى وازدادوا كفراً بمحمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والنصارى آمنوا بعيسى ثم

كفروا فعبدوه وألهوه ثم ازدادوا كفرا بمحمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} باب التوبة مفتوح لكل أحد كافراً كان أم عاصياً، كافراً أصلياً أم مرتداً، وهذا أصل قد دلت عليه نصوص كثيرة، وشواهد متعددة. فتأويل الآية متعين: لأن ظاهرها تعارضه الأدلة القاطعة على أن إسلام الكافر مقبول. ولو تكرّر منه الكفر، وأن توبة العصاة مقبولة، ولو وقع نقضها على أصح الأقوال.

ولما كان الأمر كذلك فإن العلماء -رحمهم الله- قد وجهوا المراد في الآية في قوله: **{لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}** وللمفسرين فيه عدة أقوال:

الأول: **{لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}** إذا أخرجوا التوبة إلى الموت، قال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: "نفي توبتهم مختص بالحرشجة والغرغرة والمعينة" قال النحاس: وهذا قول حسن.. وقال الشنقيطي -رحمه الله- ويستشهد له قوله تعالى: **{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}** [النساء: ١٨] وعلى هذا التوجيه اقتصر ابن كثير رحمه الله.

الثاني: {لن تقبل توبتهم} إذا ماتوا على الكفر، ويدل عليه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} فكُنِيَ عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة.

قال الزمخشري: كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة للتغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها. ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة؟

الثالث: أن المراد أنهم لا يوفقون للتوبة، فهم لا يتوبون فتقبل توبتهم، وقد قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء: ١٣٧]

وإذا علم الله تعالى من قلوبهم عدم الاعتراض خذلهم، ونزع عنهم توفيقه؛ عدلاً منه وحكمة جل وعلا {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]

الرابع: أن علة عدم قبول التوبة كونهم عزموا على إظهارها مع الكفر بقلوبهم، فهو إما تحذير من شأنهم أو بيان بأن الله تعالى

لا يقبلها منهم ولو أظهروها بألسنتهم لكفر قلوبهم. ولذلك لم تدخل فيه الفاء فقال {لن تقبل توبتهم} وفي الآية التالية قال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ} لأنه لما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية زادت الفاء هاهنا للإشعار به.

قال ابن حيان: ولم تدخل: «الفاء»، في: لن تقبل، هنا، ودخلت في: فلن تقبل، لأن الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السابق، وهناك قال: وماتوا وهم كفار وهنا لم يصرح بهذا القيد. وبهذا يتبين أن هذه الآية لا تتعارض مع الأصل المقرر، وهو قبول توبة الكافر والعاصي ولو تكرر كفره وعصيانه إذا استوفت الشروط.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي، أو: الهالكون، من: "ضل اللبن في الماء" إذا صار هالكا.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ} قرأ عكرمة: فلن نقبل {مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ الْأَرْضَ} قدر ما يملؤها، كناية عن الكثرة المتعددة، لأن الأرض لا يملؤها شيء من الموجودات المقدرة، وهذا كقولهم عدد رمال الدَّهْنَاءِ، وعدد الحصى {ذَهَبًا}

وميز هذا المقدار بذهبا لعزة الذهب وتنافس الناس في اقتنائه وقبول حاجة من بذله.

{وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} هو على سبيل الفرض والتقدير أي: لو أن الكافر قدر على أعز الأشياء، ثم قدر على بذله، لعجز أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله.

فمن مات على الكفر لن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً في الدنيا فيما يراه قربة، كما سئل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن عبد الله بن جُدعان -وكان يُقري الضيفَ، وَيُقَلِّعُ العاني، وَيُطْعِمُ الطعامَ-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: (لَا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [مسلم].

وكذلك لو افتدى في الآخرة بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: **{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}** [البقرة: ١٢٣]، وقال **{لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ}** [البقرة: ٢٥٤] وقال: **{لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ}** [إبراهيم: ٣١] وقال **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [المائدة: ٣٦]

ولهذا قال تعالى هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} فعطف {وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم.

وقيل: التقدير: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً إذا بذله من غير أن يصرح بأنه افتداء. وقوله: {وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} يعني ولو صرح بأنه افتداء. والفرق بينهما أنه قد يعطي الأول تزلفاً لا معاوضة، وأما إذا أعطاه افتداء فهو معاوضة. هذا هو الفرق بينهما، إذن سواء أعطاه من باب التودد والتحبب، أو أعطاه على أنه فداء ومعاوضة، لن يقبل منه.

ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرّها وبحرّها. روى البخاري عن أنسٍ يَرْفَعُهُ: (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشَّرْكَ)

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مُفتدياً به؟، فيقول: نعم يا رب، قال: فيقال: لقد سئلت أيسر من ذلك فذلك قوله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} [آل عمران: ٩١])

وروى أحمد عن أنس -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يُؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب خير منزل، فيقول: سل وتمن، فيقول: ما أسأل وأتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا، فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول له: يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب، شر منزل، فيقول له: أفتدي منه بطلاع الأرض [أي: بملئها] ذهباً؟ فيقول: أي رب، نعم، فيقول: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك وأيسر، فلم تفعل فيرد إلى النار)

والأمر يسير على المؤمن؛ لأنه يفتدي من عذاب الله بما هو أقل من ملء الأرض ذهباً. فإذا آمن وقام بالعمل الصالح، وأدى ما يجب عليه من الحقوق المالية نجا من هذا العذاب مع أنه أقل بكثير من ملء الأرض ذهباً.

{أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} هذا إخبار ثانٍ عن من مات وهو كافر، لما بينَّ تعالى في الإخبار الأول أنه لا يقبل منه شيء حتى يخلص به نفسه، بينَّ في هذا الإخبار ما له من العذاب الموصوف بالمبالغة في الآلام له، إذ الافتداء، وبذل الأموال إنما يكون لما يلحق المفتدي من الآلام حتى يبذل في الخلاص من ذلك أعز الأشياء.

{وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ} وهذا إخبار ثالث لما بينَّ أنه لا خلاص له من العذاب ببذل المال، بينَّ أيضاً أنه لا خلاص له منه بسبب النصرة، واندرج فيها النصرة بالمغالبة، والنصرة بالشفاعة.

فهو تكميل لنفي أحوال الغناء عنهم وذلك أن المأخوذ بشيء قد يعطي فدية من مال، وقد يكفله من يوثق بكفالتهم، أو يشفع له من هو مسموع الكلمة، وكل من الكفيل والشفيع ناصر. وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أي ليس لواحد منهم ناصرٌ واحد.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُتَفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُتَفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

{لَنْ} تفيد النفي {تَنَالُوا} لن تحصلوا عليه وتظفروا به، مِنْ ناله نيلاً إذا أصابه {الْبِرُّ} كلمة جامعة لكل خير، وقيل: المراد به هنا ثوابه وهو الجنة. والتعريف في البر تعريف الجنس: لأن هذا الجنس مركب من أفعال كثيرة منها الإنفاق المخصوص، فبدونه لا تتحقق هذه الحقيقة.

والخطابُ للمؤمنين وهو كلامٌ مستأنفٌ وقع معترضاً بين جملة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} [آل عمران: ٩١] الآية، وبين جملة: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} [آل عمران: ٩٣] سيق هذا الاستئناف لبيان ما ينفع المؤمنين ويُقبلُ منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يُقبل منهم.. أي: لن تبلغوا حقيقة البر الذي يتنافس فيه المتنافسون، ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزُمرة الأبرار، أو لن تنالوا برَّ الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته.

قال ابن عاشور: وافتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البر إيدان بأن شرائع الإسلام تدور على محور البر، وأن البر معنى نفساني

عظيم لا يخرم حقيقته إلا ما يفضي إلى نقض أصل من أصول الاستقامة النفسانية، فالمقصود من هذه الآية أمران: أولهما التحريض على الإنفاق والتنويه بأنه من البر، وثانيهما التنويه بالبر الذي الإنفاق خصلة من خصاله.

وقال أيضا: والبر كمال الخير وشموله في نوعه: إذ الخير قد يعظم بالكيفية، وبالكمية، وبهما معا، فبذل النفس في نصر الدين يعظم بالكيفية في ملاقات العدو الكثير بالعدد القليل، وكذلك إنقاذ الغريق في حالة هول البحر، ولا يتصور في ذلك تعدد، وإطعام الجائع يعظم بالتعدد، والإنفاق يعظم بالأمرين جميعا، والجزاء على فعل الخير إذا بلغ كمال الجزاء وشموله كان برا أيضا.

{حَتَّى تُنْفِقُوا} تتصدقوا في سبيل الله، والإنفاق: إعطاء المال والقوت والكسوة.

وقد جعل الإنفاق من نفس المال المحب غاية لانتفاء نوال البر، ومقتضى الغاية أن نوال البر لا يحصل بدونها، وهو مشعر بأن قبل الإنفاق مسافات معنوية في الطريق الموصلة إلى البر، وتلك هي خصال البر كلها، بقيت غير مسلوكة، وإن البر لا يحصل إلا بنهايتها وهو الإنفاق من المحبوب، فظهر لـ «حتى»

هنا موقع من البلاغة لا يخلفها فيه غيرها: لأنه لو قيل إلا أن تنفقوا مما تحبون، لتوهم السامع أن الإنفاق من المحب وحده يوجب نوال البر، وفاتت الدلالة على المسافات والدرجات التي أشعرت بها حتى الغائية.

قال أبو السعود: على أن المراد بالإنفاق مطلق البذل وفيه من الإيذان بعزة منال البر ما لا يخفى.

{مِمَّا} من، في: مما تحبون، للتبعض، ويدل على ذلك قراءة عبد الله: حتى تنفقوا بعض ما تحبون.

ويحتمل أن تكون لبيان الجنس، والفرق بينهما: أننا إذا جعلناها لبيان الجنس شمل المدح من تصدق بجميع ماله، وإذا جعلناها للتبعض صار مختصاً بمن تصدق ببعض ماله. ويمكن أن نقول إنها صالحة للأمرين، فأحياناً يكون التصدق ببعض المال أفضل من التصدق ب كله، وأحياناً يكون العكس.

****** وفيه: جواز إنفاق المرء جميع ماله، بناء على أن «من» للجنس. وهذه المسألة اختلف فيها العلماء: هل يثاب الإنسان إذا تصدق بجميع ماله ويمدح، أو الأفضل أن لا تصدق بجميع المال؟؛ لأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ)

[البخاري]، فجعل إبقاء بعض المال للورثة لئلا يتكفوا الناس خيراً من أن يحرموا من المال فيتكفوا الناس. وإذا كان هذا بالنسبة للورثة فهو بالنسبة للنفس من باب أولى.

ولما قال كعب بن مالك: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنِّي أَنْخَلِعُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) [البخاري]

ومن العلماء من قال: بل يمدح الإنسان إذا تصدق بجميع ماله؛ لأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما حث على الصدقة ذات يوم جاء عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بشر ماله، أي بنصفه. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [أبو داود]

والصحيح في هذه المسألة أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال، فمن علم من نفسه أنه إذا تصدق بماله لم يخنع لأحد، ولم يذل لأحد، وكان عنده من قوة التوكل على الله والعمل ما يغنيه عن السؤال فهذا يمدح على الصدقة بجميع ماله.

وكذلك لو فرض أن الحال تحتاج إلى الصدقة بجميع المال،
لكون الناس في ضرورة إلى ذلك، كانت الصدقة بجميع المال
أفضل.

وأما إذا كان الإنسان يخشى على نفسه أن يتصدق بماله،
ويتكف الناس فلا يتصدق؛ لأنه لا يمكن أن يفعل شيئاً
مستحباً، ويدع شيئاً واجباً؛ لأن إعفاف نفسه وأهله واجب،
فكونه يتصدق ثم يسأل الناس، لا شك أن هذا إذلال لنفسه.
فالصحيح أن المسألة تختلف باختلاف الأحوال واختلاف
الأشخاص.

{ تُحِبُّونَ } من المال الذي تختارونه لأنفسكم وهو أفضل
أموالكم وأطيبها وأنفسها وأحبها إليكم. والمقصود نفائس المال
وطيبه لا رديئه وخبيثه.

أي مما تهوون ويحببكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم كما
في قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ }**
[البقرة: ٢٦٧]

والظاهر: أن المحبة هنا هو ميل النفس وتعلقها التعلق التام
بالمنفق، فيكون إخراجها على النفس أشق وأصعب من إخراج ما

لا تتعلق به النفس ذلك التعلق. كقوله تعالى: **{وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}** [الإنسان: ٨]

ولكن كلما كان المال أحب كان إنفاقه أقوى إيماناً، وأدل على محبة الإنسان للخير؛ لأن الشيء الذي تكون الرغبة فيه قليلة يسهل على الإنسان أن ينفقه، لكن الشيء الذي تتعلق به النفس كثيراً هو الذي تشح النفس في إنفاقه، فإذا أنفقه الإنسان مع قوة تعلق نفسه به كان ذلك دليلاً على قوة إيمانه؛ لأنه لا يدفع القوي إلا بما هو أقوى منه.

قال ابن عاشور: والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاق منه أي التصدق دليل على سخاء لوجه الله تعالى، وفي ذلك تركية للنفس من بقية ما فيها من الشح، قال تعالى: **{وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر: ٩] وفي ذلك صلاح عظيم للأمة إذ تجود أغنيائها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال فتشتد بذلك أواصر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع.

والذي يظهر أن الإنفاق هو في الندب، لأن المزكي لا يجب عليه أن يخرج أشرف أمواله ولا أحبها إليه، وأبعد من ذهب إلى

أن هذه الآية منسوخة، لأن الترغيب في الندب لوجه الله لا ينافي الزكاة.

** وفيه: إثبات الأسباب، حيث إن الله أثبت للبر سبباً وهو الإنفاق مما يحب. وأنه كلما أنفق الإنسان مما هو أحب إليه، كان أكثر لبره وينقص بحسب ذلك الوصف.

{وَمَا} شرطية تفيد العموم يؤكد بها قوله من شيء **{تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ}** قلّ أو كثر **{فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}** تعليلٌ لجواب الشرط واقع موقعه، أي فمجازيكم بحسبه كثيراً كان أو قليلاً.

وهو تذييل قصد به تعميم أنواع الإنفاق، وتبيين أن الله لا يخفى عليه شيء من مقاصد المنفقين، وقد يكون الشيء القليل نفيساً بحسب حال صاحبه كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ}** [التوبة: ٧٩].

وقوله: **{بِهِ عَلِيمٌ}** قدم الجار والمجرور على متعلقه. والمعروف أن تقديم المعمول يفيد الحصر. فقدم المعمول لفائدتين:

الفائدة الأولى: لفظية، وهي مراعاة فواصل الآيات.. والفائدة الثانية معنوية، وهي بيان الاعتناء بهذا المقدم حتى كأن الله تعالى

حصر علمه به. فتقديم المعمول هنا يدل على العناية والاهتمام بهذا الشيء الذي قدمه الإنسان لنفسه وأن الله به عليم.

وإن الله تعالى لم يذكر هذا العلم إلا لما يترتب عليه من المجازاة. فإن الله إذا علمه لا يمكن أبداً أن يضيعه {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧-٨]

وكان السلف -رضي الله عنهم- إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله عز وجل:

روى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ [حديقة] وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بَخِ

ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى
أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ) فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ
فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. [حسان بن ثابت وأبي
بن كعب]

وفيه دلالة على أن إنفاق أحبِّ الأموال على أقرب الأقارب
أفضل.

وروى مسلم عن نافع عن ابن عمر قال أصاب عمر أرضاً
بخيبر فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- يستأمره فيها فقال يا
رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أَصِبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنْفَسُ
عِنْدِي مِنْهُ فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ: (إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا
وَتَصَدَّقْتَ بِهَا) قَالَ فَتَصَدَّقْ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لَا يُبَاعُ أَصْلُهَا وَلَا يُبْتَاعُ
[يشترى له] وَلَا يُورَثُ وَلَا يُوهَبُ قَالَ فَتَصَدَّقْ عُمَرُ فِي الْفُقَرَاءِ
وَفِي الْقُرْبَى وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ لَا
جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يُطْعِمَ صَدِيقًا
غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ [أي غير متخذ منها مالاً ، أي ملكاً]. وفي
رواية: (حَبَسِ الْأَصْلَ، وَسَبَّلِ الثَّمَرَةَ)

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله
تصدق به يتأول قوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ { فقال الحافظ أبو بكر البزار بسنده: قال عبد الله بن عمر: حضرتني هذه الآية: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}** فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحبَّ إليَّ من جارية رومية، فقلتُ، هي حُرَّة لوجه الله. فلو أنني أعود في شيء جعلته الله لنكحْتُها، يعني تزوّجْتُها. [وفي رواية: فأنكحها نافع فهي أم ولده]

وجاء زيد بن حارثة بفرسٍ له كان يحبُّها فقال: "هذه في سبيل الله" فحمل عليها رسولُ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أسامة بن زيد فكان زيداً وجَدَ في نفسه وقال: "إنما أردتُ أن أتصدق بها"، فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أما إن الله تعالى قد قبلها منك)

وكتب عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاً يوم فُتِحَتْ مدائنُ كسرى فلما جاءت إليه أعجبته فقال: إن الله تعالى يقول: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}** فأعتقها.

وروي أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان عمرٌ راغباً فيها وكان قد طلبها منها مراراً فلم تُعْطِها إياه، ثم لما ولي الخِلافة زَيَّنَتْها وأرسلتها إليه فقالت: قد وهبْتُكها

يا أمير المؤمنين فلتخدمك، قال: من أين ملكتها، قالت: جئتُ بها من بيت أبي عبد الملك، ففتش عن كيفية تملكها إياها، ف قيل: إنه كان على فلانِ العاملِ ديونٌ فلما تُوفي أخذت من تركته، ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً بإعطاء المال ثم توجه إلى الجارية وكان يهواها هوىً شديداً، فقال: أنت حرة لوجه الله تعالى، فقالت: لم يا أمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كلَّ شبهة؟ قال: لستُ إذن ممن نهى النفس عن الهوى.

وتصدق ابن عمر بالسكر واللوز لأنه كان يحبه، وأبو ذر بفحل خير إبله، وتلا الآية، والربيع بن خيثم بالسكر لحبه له.

روى البغوي في شرح السنة عن الحارث بن سويد، قال: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ؟) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ، قَالَ: (اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ؟)، قَالُوا: مَا نَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ إِلَّا مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ) قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ (إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ). [قال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ] يعني معناه أنك إذا بخلت بالمال وأبقيته فإنك سوف

تذهب عنه وسوف يورث من بعدك. لكن إذا تصدقت به
وأَمْضِيته تجده أَمَامَكَ. ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية
ولو مرة واحدة، إذا أعجبه شيء من ماله فليصدق به لعله ينال
هذا البر.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ
عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ
فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ
صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

{كُلُّ} من صيغ العموم {الطَّعَامُ} ما يطعم. فإن قرن
بالشراب صار المراد به ما يحتاج إلى مضغ، والشراب ما لا
يحتاج إلى مضغ، إذا قيل: "طعام وشراب". وأما إذا أطلق وقيل:
"طعام" صار شاملاً لما يؤكل وما يشرب.. قال الله تعالى: {فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ
فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} [البقرة: ٢٤٩] فسمى
شرب الماء طعماً أو طعاماً.

{كَانَ حَلَالًا} حلالاً، وسمي حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه.
{لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} هم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم،
وإسرائيل بمعنى «عبد الله»، وبنو عمهم هم بنو إسماعيل بن
إبراهيم، فإسماعيل وإسحاق أخوان أبوهما إبراهيم، ويعقوب هو
ابن إسحاق، وقد بشر الله به جدته على لسان الملائكة:
**{وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
يَعْقُوبَ} [هود: ٧١]**

قال القفال: لم يبلغنا أنّ الميتة والخنزير كانا مباحين لهم مع
أنّهما طعام، فيحتمل أن يكون ذلك على الأطعمة التي كانت
اليهود في وقت الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تدّعي أنها
كانت محرمة على إبراهيم، فيزول الإشكال يعني إشكال العموم.
{إِلَّا مَا حَرَّمَ} حظر ومنع.

{إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} استثناء متصل من اسم كان، أي كان
كلُّ المطعومات حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل.. وحرمة
باجتهاد منه لا بتحريم من الله تعالى.

{مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ} فيها قراءتان: «تُنْزَلُ» بتشديد الزاي
و«تُنْزَلُ» بالتخفيف، وكلتا القراءتين سبعيتان، يعني أنه يجوز أن
نقرأ بهذه وهذه، والقاعدة في القراءتين أن السنة أن تقرأ بهذه

مرة، وبهذه مرة؛ لأن كلتا القراءتين ثبتت عن رسول الله -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإذا قرأت بواحدة، وهجرت الأخرى، لم تأت
بالسنة كاملة. بل اقرأ بهذا مرة، وهذا مرة، لكن بشرط أن تكون
متأكداً من القراءة؛ لأن القرآن كلام الله. فلو قرأت شيئاً لم
تتأكد، وكان على خلاف ما أنزل الله، كنت مفترياً على الله كذباً.

الشرط الثاني: أن لا يحصل في ذلك تشويش. فإن حصل
في ذلك تشويش، كما لو قرأت بقراءة ثانية عند العامة الذين لا
يعرفون إلا ما في مصاحفهم، فإن ذلك حرام، لا يجوز لأنه يؤدي
إلى تشكك العامة، وإلى رميك أنت بالسوء، تقول: هذا الرجل
يحرف كلام الله، يقرأ بغير ما أنزل الله، فتكون عرضة لسب
الناس واغتيالهم، فإياك، ورحم الله امرأ كف الغيبة عن نفسه.

أما فيما بينك وبين نفسك فاقراً بها، اقرأ بالقراءة الثانية إذا
كنت متقناً لها وعارفاً بها. وكذلك إذا كنت بين طلبة علم، حتى
يعرفوا القراءات وينتفعوا بها.

{التَّوْرَةُ} وبين إسرائيل وبين نزول التوراة دهور طويلة،
وأزمان كثيرة، فهو تصريح بمحل الحجة من الرد إذ المقصود
تنبيههم على ما تناسوه فنزلوا منزلة الجاهل بكون يعقوب كان
قبل موسى.

والتوراة هي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى. وقد نزلت التوراة مكتوبة، كتب الله تعالى التوراة في الألواح، فأخذها موسى، وتلاها على الناس وعلمهم إياها، وبقيت التوراة إلى أن جاء محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لكن صار فيها تحريف، كما قال الله تعالى: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تَبْذُوثَهَا وَتُخَفُونَ كَثِيرًا}** [الأنعام: ٩١] أي يكتبونه في دفاتر مقطعة.

وهذه على أن دين اليهودية ليس من الحنيفية في شيء، فإن الحنيفية لم يكن ما حرم من الطعام بنص التوراة محرما فيها، ولذلك كان بنوا إسرائيل قبل التوراة على شريعة إبراهيم، فلم يكن محرما عليهم ما حرم من الطعام إلا طعاما حرمه يعقوب على نفسه.

ويحتمل أن اليهود مع ذلك طعنوا في الإسلام، وأنه لم يكن على شريعة إبراهيم، إذ أباح للمسلمين أكل المحرمات على اليهود، جهلا منهم بتاريخ تشريعهم، أو تضليلا من أحبارهم لعامتهم، تنفيرا عن الإسلام، لأن الأمم في سذاجتهم إنما يتعلقون بالمألوفات، فيعدونها كالحقائق، وقيمونها ميزانا للقبول والنقد، فبين لهم أن هذا مما لا يلتفت إليه عند النظر في بقية

الأديان، وحسبكم أن ديناً عظيماً وهو دين إبراهيم، وزمرة من الأنبياء من بنيه وحفدته، لم يكونوا يحرمون ذلك.

{قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا} أنتم أيضاً لا نحن حتى لا تتهمونا بأننا حذفنا شيئاً وأضفنا شيئاً، اتلوها أنتم بأنفسكم حتى يتبين لكم أن ما جئت به هو الحق. وهو أمر للتعجيز، إذ قد علم أنهم لا يأتون بها إذا استدلوا على الصدق.

وهكذا ينبغي أن تكون المخاصمة بحجة دامغة دافعة بعيدة عن الأمور المشتبهة، فإذا أتيت بالشيء المشتبه فقد تكون خاذلاً للحق والحق معك. فلا بد أن تأتي بشيء قوي لا يستطيع الخصم أن يقف أمامه. كقول إبراهيم **{فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [البقرة: ٢٥٨]

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} وخرج قوله: **{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** مخرج الممكن، وهم معلوم كذبهم. وذلك على سبيل الهزء بهم.

وكان سبب هذا أن اليهود كانوا ينكرون ما جاء به النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ويقولون: إنك أحللت شيئاً، وحرمت شيئاً، والشرائع لا تتبدل ولا تتغير؛ لأنها من عند الله، ولهذا كانوا يُنكرون النسخ، ويقولون: إن النسخ في أحكام الله مستحيل؛ لأن

النسخ إما أن يكون لحكمة أو عبثاً، فإن كان عبثاً فالله منزه عنه، وإن كان لحكمة لزم منه أن الله تعالى تظهر له الحكمة بعد أن كانت خافية عليه، وهذا يلزم منه الظهور بعد الجهل، وهو أيضاً مستحيل على الله، ولهذا كذبوا عيسى وكذبوا محمداً، لأن في شريعتهما نسخ والنسخ على الله مستحيل، ولا يمكن أن تنسخ الشرائع، ف قيل لهم: هاتوا التوراة فاتلوها، والتوراة تثبت وتقرر أن الطعام كان حلاً لبني إسرائيل - كل ما يُطعم - ثم حرم إسرائيل على نفسه أشياء، ومعلوم أن الله أقره على ذلك، وهذا تشريع من الله، وبقي هذا التحريم في ذريته حرام عليهم.

وفي هذا إقامة الحجة عليهم بما ادعوه من أنه لا يمكن أن تنسخ الشرائع، فأراد الله أن يبين كذبهم من كتبهم.

وما ادعاه اليهود من أن النسخ يستلزم وصف الله بالنقص إما في الحكمة وإما في العلم فهو كذب. لأن النسخ لا يستلزم لا هذا ولا هذا، بل إن النسخ لحكمة، لكن هذه الحكمة تتبع مصالح العباد، والعباد مصالحهم تختلف فقد يكون من المصلحة أن يُشرع لهم الحل في هذا الزمن والتحريم في زمن آخر، وقد تكون هذه الأمة من المصلحة أن يُشرع لها الحل، والأمة الأخرى من المصلحة أن يُشرع لها التحريم، فهنا الحكمة

لا تتعلق بفعل الله، ولكن تتعلق بالمخلوق الذي شرع له هذا الحكم، وهذا أمر يختلف بلا شك.

{فَمَنْ} من عامة، يعني أي إنسان **{افْتَرَى}** والافتراء معناه: القول بغير حق، يعني أن تنسب إلى الشخص ما لم يقله، أي: اختلقه وزوره وقاله.

والافتراء مرادف الاختلاق. وهو مأخوذ من الفري، وهو قطع الجلد قطعاً ليصلح به مثل أن يحذي النعل ويصنع النطع أو القربة. وافتري افتعال من فري لعله لإفادة المبالغة في الفري، يقال: افتري الجلد كأنه اشتد في تقطيعه أو قطعه تقطيع إفساد، وهو أكثر إطلاق افتري. فأطلقوا على الإخبار عن شيء بأنه وقع ولم يقع اسم الافتراء بمعنى الكذب، كأن أصله كناية عن الكذب وتلميح، شاع ذلك حتى صار مرادفاً للكذب، ونظيره إطلاق اسم الاختلاق على الكذب، فالافتراء مرادف للكذب، وإردافه بقوله هنا الكذب تأكيد للافتراء، وتكررت نظائر هذا الإرداف في آيات كثيرة.

{عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ} هو الإخبار بخلاف الواقع **{مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}** من بعد هذا البيان أنه لا يمكن أن تنسخ الشرائع بعضها ببعض.

{فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} نهاية لتسجيل كذبهم أي فمن استمر على الكذب على الله، ومن افتري منكم بعد أن جعلنا التوراة فيصلاً بيننا.. إذ لم يبق لهم ما يستطيعون أن يدعوه شبهة لهم في الاختلاق، وجعل الافتراء على الله لتعلقه بدين الله.

والظلم في الأصل النقص، كما قال تعالى: **{كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا}** [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً، وهو في الحقيقة إما تفريط في واجب، وإما انتهاك لمُحرَّم، وكلاهما نقص؛ لأن المنتهك للمُحرَّم، أو المفرط في الواجب قد نقص الأمانة والرعاية؛ لأنه أمين على نفسه، وراع عليها، فإذا أقدم على فعل المحرم، فقد أخل بما يجب عليه من الرعاية، وخان الأمانة. فإذا فرط في الواجب فكذلك.

**** وفيه: أنه متى ظهر الحق فحاد الإنسان عنه صار أشد ظلماً؛ لقوله: {فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** كأنه لا ظالم سواه، وكأنهم هم الذين أخذوا الظلم كله؛ لأنه إذا قامت الحجة لم يبق للإنسان محجة، يعني لم يبق له أي طريق يمكن أن يتوصل إليه، أو أن يفر منه.

**** وفيه أيضا: أنه لا إثم مع الجهل؛ لقوله: {مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}**
أي من بعد أن يتبين الحق فهذا هو الظالم، أما من ارتكب
محرمًا قبل أن يتبين له الحق فإنه لا يلحقه إثم ذلك المحرم، لا
في الواجبات ولا في المحرمات.

من ارتكب شيئاً بغير علم فإنه لا إثم عليه، ما لم يفرض في
الواجبات ولا في المحرمات، ولكن بالنسبة للمحرمات لا يترتب
عليه شيء من آثارها أبداً، لا إثم ولا كفارة. فلو أن رجلاً فعل
محظوراً من محظورات الإحرام وهو جاهل أنه محظور، فلا شيء
عليه، بل لو أن الإنسان جامع وهو محرم، يظن أنه لا شيء عليه
في الجماع، فلا شيء عليه، لا كفارة، ولا فساد حج، ولا غير
ذلك.

أما في الواجبات إذا فعل شيئاً محرماً عليه في الواجب يعني
بأن ترك واجباً أو فعل ما يُبطل ذلك الواجب وهو جاهل، فلا إثم
عليه، لكن يجب أن يتدارك هذا الواجب ما دام في وقته.

مثال ذلك: رجل جاءنا وقال: إنه صلى صلاة الظهر، ولكنه
لم يقرأ الفاتحة، لم يعلم أن الفاتحة واجبة، نقول: لا إثم عليك،
مع أنك لو تركت الفاتحة وأنت تعلم أنها واجبة لأثمت بلا شك؛
لأن هذا من اتخاذ آيات الله هزواً، لكن يجب عليه أن يعيد

الصلاة؛ لأن ذمته الآن مشغولة بهذه الصلاة.. فلا بد أن يُعيدها.
أما الصلوات الماضية، فإنه لا يجب عليه إعادتها، ولو كان قد
ترك الفاتحة فيها، لأنه جاهل، ودليل ذلك حديث المسيء في
صلاته، حيث قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (ارْجِعْ فَصَلِّ
فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) [البخاري] ولم يأمره بإعادة أو بقضاء ما سبق
من الصلوات.

روى أحمد عن ابن عباس، قال: أَقْبَلْتُ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ
خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ، فَأَخَذَ
عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا: اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ، قَالَ: (هَاتُوا) قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلَامَةِ النَّبِيِّ؟، قَالَ: (تَنَامُ
عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ) قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةَ، وَكَيْفَ
تُذَكِّرُ؟ قَالَ: (يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءُ الْمَرْأَةِ
أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءُ الرَّجُلِ آنَثَتْ) قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا
حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: (كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النِّسَاءِ [وهو
عرق يمتد من الورك إلى القدم في الرجل، ويؤلم كثيراً ويتعب]،
فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَاقِيهِ إِلَّا أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا - قَالَ أَبِي: " قَالَ

بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ " - فَحَرَّمَ لُحُومَهَا، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالُوا:
أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: (مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ
بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ - أَوْ فِي يَدِهِ - مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ
السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ) قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي
نَسْمَعُ؟ قَالَ: (صَوْتُهُ) قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي
نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ
بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: (جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، قَالُوا:
جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا، لَوْ
قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ لَكَانَ، فَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ} [البقرة: ٩٧] إِلَى آخِرِ

الآيَةِ [حديث حسن دون قصة الرعد فهي منكورة]

وفي رواية وقال: (أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى:
هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سُقْمُهُ، فَنَذَرَ
لِلَّهِ نَذْرًا لِيُنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سُقْمِهِ لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ
وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانِ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ
الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا) فقالوا: اللهم نعم. قال: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ
عَلَيْهِمْ).

وقال ابن جُرَيْجٍ وَالْعَوْفِيُّ، عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-
: كان إسرائيل -وهو يعقوب عليه السلام- يَغْتَرِيهِ عِرْقُ النَّسَا
بالليل، وكان يقلقه وَيُزَعِّجُه عن النوم، وَيُقْلَعُ الْوَجَعُ عنه بالنهار،
فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عِرْقًا ولا يأكل ولد ما له عِرْق.
قيل: فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق يخرجونها من اللحم.
وقيل: لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حق
الفخذ إلى هذا اليوم.

وهكذا قال الضحاك والسدي. كذا حكاه ورواه ابن جرير
في تفسيره. قال: فاتَّبعه بَنُوهُ في تحريم ذلك استئانًا به واقتداء
بطريقه.

قال ابن عاشور: وقد استدل القرآن عليهم بهذا الحكم لأنه
أصرح ما في التوراة دلالة على وقوع النسخ فإن التوراة ذكرت
في سفر التكوين ما يدل على أن يعقوب حرم على نفسه أكل
عرق النسا الذي على الفخذ، وقد قيل: إنه حرم على نفسه لحوم
الإبل وألبانها، فقيل: إن ذلك على وجه النذر، وقيل: إن الأطباء
نهوه عن أكل ما فيه عرق النسا لأنه كان مبتلى بوجع نسا.

قال أبو السعود: التوراة مشتملة على تحريم ما حُرِّمَ عليهم
لظلمهم وبغيهم عقوبةً لهم وتشديدًا وهو ردُّ على اليهود في

دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} [النساء: ١٦٠] وقوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ} [وهو كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام] وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا [الشروب وشحم الكلي] إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا [أي ما علق بها منه] أَوْ الْحَوَايَا [الأعضاء] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ [منه وهو شحم الألية والجنب فإنه أحل لهم] ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ { [الأنعام: ١٤٦]، بأن قالوا: لسنا أول من حرّمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا، وتبكيّ لهم في منع النسخ والطعن في دعوى الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- موافقته لإبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها.

قال ابن كثير: "ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان:

إحداهما: أن إسرائيل -عليه السلام- حرّم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهي، كما قال:

{وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة: ١٧٧] وقال: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ
عَلَى حُبِّهِ} [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لَمَّا تقدّم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زَيْف ما ذهبوا إليه. وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيتته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى - شرع في الرد على اليهود، قَبَّحهم الله، وبيان أن النَّسَخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله - عز وجل - قد نصّ في كتابهم التوراة أن نوحا - عليه السلام - لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرّم إسرائيل على نفسه لُحْمَان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله - عز وجل - قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرّم ذلك بعد ذلك. وكان التَّسْرِي على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرّى بها على سارة، وقد حرّم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعا وقد فعله يعقوب - عليه السلام -، جمع بين الأختين، ثم حرّم ذلك عليهم في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة

عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح -عليه السلام-، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الدين القويم، والصراط المستقيم، ومِلَّةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ فما بالهم لا يؤمنون؟! "

وبعد أن فرغ من إعلان كذبهم بالحجة القاطعة قال: **{قُلْ}** قل يا محمد، وللأمة بالتبع؛ لأن الخطاب الموجه لإمام القوم خطاب للجميع.

{صَدَقَ اللَّهُ} فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن.. جملة تتضمن الثناء على الله بالصدق، وإذا كانت تتضمن الثناء على الله فهي عبادة. وهو تعريض بكذبهم لأن صدق أحد الخبرين المتنافيين يستلزم كذب الآخر، فهو مستعمل في معناه الأصلي والكنائي.

وقد قال الله تعالى: **{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}** [النساء: ١٢٢] فلا أحد أصدق من الله، والصدق مطابقة الخبر للواقع، والكذب مخالفة الخبر للواقع.

ولم يذكر الخبر الذي حكم عليه بالصدق فيكون ذلك عاماً شاملاً، أي صدق الله في كل شيء، كل ما أخبر الله به فهو

صدق، ومن ذلك ما أخبر به مما أحل لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه.

{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ} دين وشريعة، فالإسلام ملة، واليهودية ملة، والنصرانية ملة، وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى) أي: مفترقتين.

{إِبْرَاهِيمَ} أي: اتبعوا ملة إبراهيم في التوحيد، وعدم الشرك، وهي التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مَرِيَّة، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم.

{حَنِيفًا} مائلا عن الشرك إلى التوحيد **{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** تأكيد لما قبلها.

وفيه تعريضٌ بإشراك اليهود في اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وتصريحٌ بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقةٌ دينيةٌ قطعاً، والغرضُ بيانُ أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على دين إبراهيم عليه السلام في الأصول لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبودٍ سواه سبحانه وتعالى.

ولذلك يسمى إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: «إمام الحنفاء».. كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١] وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٣].

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ} البيت: بناء يأوي واحدا أو جماعة، فيكون بيت سكني، وبيت صلاة، وبيت ندوة، ويكون مبنيا من حجر أو من أثواب نسيج شعر أو صوف، ويكون من آدم فيسمى قبة، قال تعالى: {وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا} [النحل: ٨١].

{وُضِعَ} أسس وأثبت، ومنه سمي المكان موضعا، وأصل الوضع أنه الحط ضد الرفع.

{لِلنَّاسِ} أي: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسُكهم، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ. والواضع هو الله تعالى.

وهذا البيت كان أول بيت وضع للهدى وإعلان توحيد الله ليكون علما مشهودا بالحس على معنى الوجدانية ونفي الإشراك، فقد كان جامعا للدلائل الحنيفية، فإذا ثبت له شرف الأولوية ودوام الحرمة على ممر العصور، دون غيره من الهياكل الدينية التي نشأت بعده، وهو ماثل، كان ذلك دلالة إلهية على أنه بمحل العناية من الله تعالى، فدل على أن الدين الذي قارن إقامته هو الدين المراد لله، وهذا يؤول إلى معنى قوله: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}** [آل عمران: ١٩].

قال ابن عاشور: والمقصود إثبات سبق الكعبة في الوجود قبل بيوت آخر من نوعها. وظاهر الآية أن الكعبة أول البيوت المبنية في الأرض، فتمسك بهذا الظاهر مجاهد، وقتادة، والسدي، وجماعة، فقالوا: هي أول بناء، وقالوا: أنها كانت مبنية من عهد آدم عليه السلام ثم درست، فجددها إبراهيم، قال ابن عطية: "ورويت في هذا أقاصيص أسانيد ضعاف فلذلك تركتها"، ولكن المحققين وجمهور أهل العلم لم يأخذوا بهذا الظاهر، وتأولوا الآية. قال علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "كان قبل البيت بيوت كثيرة" ولا شك أن الكعبة بناها إبراهيم، وقد تعدد في القرآن ذكر ذلك، ولو كانت من بناء الأنبياء قبله لزيد ذكر

ذلك زيادة في التنويه بشأنها، وإذا كان كذلك فلا يجوز أن يكون أول بناء وقع في الأرض كان في عهد إبراهيم، لأن قبل إبراهيم أمما وعصورا كان فيها البناء، وأشهر ذلك برج بابل، بني إثر الطوفان، وما بناه المصريون قبل عهد إبراهيم، وما بناه الكلدان في بلد إبراهيم قبل رحلته إلى مصر، ومن ذلك بيت أصنامهم، وذلك قبل أن تصير إليه هاجر التي أهداها له ملك مصر، وقد حكى القرآن عنهم {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} [الصافات: ٩٧] فتعين تأويل الآية بوجه ظاهر، وقد سلك العلماء مسالك فيه: وهي راجعة إلى تأويل الأول، أو تأويل البيت، أو تأويل فعل وضع، أو تأويل الناس، أو تأويل نظم الآية. والذي أراه في التأويل أن القرآن كتاب دين وهدى، فليس غرض الكلام فيه ضبط أوائل التاريخ، ولكن أوائل أسباب الهدى، فالأولية في الآية على بابها، والبيت كذلك، والمعنى أنه أول بيت عبادة حقة وضع لإعلان التوحيد، بقرينة المقام، وبقرينة قوله: {وُضِعَ لِلنَّاسِ} المقتضي أنه من وضع واضع لمصلحة الناس، لأنه لو كان بيت سكنى لقليل وضعه الناس، وبقرينة مجيء الحاليين بعد؛ وهما قوله: {مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}.

وهذا تأويل في معنى بيت، وإذا كان أول بيت عبادة حق، كان أول معهد للهدى، فكان كل هدى مقتبسا منه فلا محيص لكل قوم كانوا على هدى من الاعتراف به وبفضله، وذلك يوجب اتباع الملة المبنية على أسس ملة بانية، وهذا المفاد من تفريع قوله: **{ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }** [البقرة: ٩٥] وتأول الآية علي بن أبي طالب، فروى عنه أن رجلا سأله: أهو أول بيت؟ قال: "لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا وهدى" فجعل مباركا وهدى حالين من الضمير في {وضع} لا من اسم الموصول، وهذا تأويل في النظم لا ينساق إليه الذهن إلا على معنى انه أول بيت من بيوت الهدى كما قلنا.

وعندي أنه يجوز أن يكون المراد من الناس المعهودين وهم أهل الكتب أعني اليهود والنصارى والمسلمين، وكلهم يعترف بأصالة دين إبراهيم عليه السلام فأول معبد بإجماعهم هو الكعبة فيلزمهم الاعتراف بأنه أفضل مما سواه من بيوت عبادتهم.

** وفيه أن تقدم المكان في العبادة له أثر في تفضيله؛ لقوله: **{ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ }**. وهذا يراد به التفضيل، ولهذا قال العلماء: إن المسجد الأسبق في إقامة الجماعة فيه أفضل من المسجد الحديث. فإذا كان حول الإنسان مسجدان

الأول قديم، والآخر جديد، ولم يتميز أحدهما عن الآخر بفضيلة أخرى، فإن القديم أفضل من الجديد لسبقه من العبادة فيه. قال ابن عاشور: وإنما كانت الأولوية موجبة التفضيل لأن مواضع العبادة لا تتفاضل من جهة العبادة، إذ هي في ذلك سواء، ولكنها تتفاضل بما يحف بذلك من طول أزمان التعبد فيها، ونسبتها إلى بانيها، وبحسن المقصد في ذلك، وقد قال تعالى في مجسد قباء: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} [التوبة: ١٠٨].

وقد جمعت الكعبة جميع هذه المزايا فكانت أسبق بيوت العبادة الحق، وهي أسبق من بيت المقدس بتسعة قرون. فإن إبراهيم بني الكعبة في حدود سنة ١٩٠٠ قبل المسيح وسليمان بني بيت المقدس سنة ١٠٠٠ قبل المسيح، والكعبة بناها إبراهيم بيده فهي مبنية بيد رسول. وأما بيت المقدس فبناها العملة لسليمان بأمره.

{لَلَّذِي بِكَّةَ} لغة في مكة، والعرب تعاقب بين الباء والميم، تقول: "ضربة لازم ولازب"، "وأربد وأرمد" أي في لون الرماد، وسُميت بذلك لأنها تَبُكُّ [تدق وتقطع] أعناق الظلمة

والجبابرة، بمعنى: يُبْكَون [يذلون] بها ويخضعون عندها. لم يقصدها جبارٌ إلا قصمه الله عز وجل.

وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى، فعدل عن تعريف البيت باسمه العلم بالغلبة، وهو الكعبة، إلى تعريفه بالموصلية بأنه الذي ببكة: لأن هذه الصلة صارت أشهر في تعيينه عند السامعين، إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره، بخلاف اسم الكعبة: فقد أطلق اسم الكعبة على القليس الذي بناه الحبشة في صنعاء لدين النصرانية ولقبوه الكعبة اليمانية.

والكلام شروعٌ في بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام إثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلالاً له عليه السلام. بالرد على اليهود الذين قالوا إن بيت المقدس هي أول قبلة شرع للناس استقبالها فلم يعدل محمد وأصحابه عنها إلى استقبال الكعبة، وهي متأخرة الوجود؟ فأخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس هو الكعبة لا بيت المقدس. ولذلك سمي بالبيت العتيق.

روى البخاري عن أبي ذرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى) قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟

قَالَ: (أَرْبَعُونَ) [أي سنة] ثُمَّ قَالَ: (حَيْثُمَا أَدْرَكْتِكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ) وفي رواية للبخاري أيضا: (أَيْنَمَا أَدْرَكْتِكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ فَصَلِّهِ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ) أي في فعل الصلاة إذا حضر وقتها، فنبه على أن إيقاع الصلاة إذا حضرت لا يتوقف على المكان الأفضل.

ولا يشك أحد أن باني المسجد الحرام إبراهيم كما لا يشك أحد بأن باني المسجد الأقصى داود وابنه سليمان من بعده، وكان بين إبراهيم وبينهما من المدد ما يتجاوز عن الأربعين بأمثالها، ولكن الوضع غير البناء والسؤال عن مدة ما كان بين وضعهما لا عن مدة ما بين بنائهما، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان ثم بناه داود وابنه في الوقت الذي بنياه فيه، وكذلك يجب أن يحمل تأويل مثله عليه.. قال علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إذا حدثتم عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حديثا فظنوا برسول الله اهناه وانقاه واهداه".

قال ابن عاشور: لا شك أن بيت المقدس من بناء سليمان كما هو نص كتاب اليهود، وأشار إليه القرآن في قوله: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ} [سبأ: ١٣] الآية، فالظاهر أن إبراهيم

لما مر ببلاد الشام ووعدده الله أن يورث تلك الأرض نسله عين الله له الموضع الذي سيكون به أكبر مسجد تبنيه ذريته، فأقام هنالك مسجدا صغيرا شكرا لله تعالى، وجعله على الصخرة المجعلولة مذبحا للقربان. وهي الصخرة التي بنى سليمان عليها المسجد، فلما كان أهل ذلك البلد يومئذ مشركين دثر ذلك البناء حتى هدى الله سليمان إلى إقامة المسجد الأقصى عليه، وهذا من العلم لذي أهملته كتب اليهود، وقد ثبت في سفر التكوين إن إبراهيم بنى مذبح في جهات مر عليها من أرض الكنعانيين لأن الله أخبره أنه يعطي تلك الأرض لنسله، فالظاهر أنه بنى أيضا بموضع مسجد أورشليم مذبحا.

{مُبَارَكًا} البركة: زيادة في الخير.. أي بركة تدوم بدوام الدنيا ولا تفارقه، وجعلت البركة فيه بجعل الله تعالى، إذ قدر أن يكون داخله مثابا ومحصلا على خير يبلغه على مبلغ نيته، وقدر لمجاوريه وسكان بلده أن يكونوا ببركة زيادة الثواب ورفاهية الحال، وأمر بجعل داخله آمنا، وقدر ذلك بين الناس فكان ذلك كله بركة.

وبركاته متعددة، فمن ذلك:

** من بركة ذاته أن حجارتها وضعتها عند بنائه يد إبراهيم،
ويد إسماعيل، ثم يد محمد -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولا سيما
الحجر الأسود.

** قال ابن جرير: "بركته تطهيره الذنوب".. فَمَنْ حَجَّ فَلَمْ
يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.

** ومن ذلك أن الحسنات فيه مضاعفة، ولهذا قال أهل
العلم: إن العبادة فيه أفضل من العبادة في غيره، سواء كانت
صلاة، أم صدقة، أم صياماً، أم غير ذلك.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ -صَلَّى
اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا [أي: سبع
مرات] لَا يَضَعُ قَدَمًا وَلَا يَرْفَعُ أُخْرَى إِلَّا حَطَّ اللّهُ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً،
وَكُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ) [ابن حبان وفيه ضعف]
وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ
مَا أَرَاكَ تَسْتَلِمُ إِلَّا هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ -
صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (إِنَّ مَسْحَهُمَا يَحُطُّانِ الْخَطِيئَةَ)
وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: (مَنْ طَافَ سَبْعًا فَهُوَ كَعَدَلٍ رَقَبَةٍ) [صحيح]

**** ومن بركته دوام العبادة فيه ولزومها، لأن البركة لها معنيان: النمو والثبوت، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وتبارك الله: ثبت ولم يزل.**

**** ومن بركاته أيضاً أنه تجبى إليه ثمرات كل شيء. فإن مكة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان.**

**** ومن بركاته أيضاً أن بمكة ماءً من شربه لأي شيء بنية صادقة فإنه يكون له، وهو ماء زمزم، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مَاءُ زَمَزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ) [رواه أحمد عن جابر]**

**** ومن بركته ما يحصل من المكاسب التي تكون فيه في أيام المواسم، وغير أيام المواسم.**

**** ومن بركته أنه بعث في مكة محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي جعل الله تعالى شريعته أفضل شريعة كانت إلى الخلق.**

**** ومن بركته أن من دخله أمن حتى الوحش، فيجتمع فيه الطيب والكلب.**

قال ابن عاشور: هي ما يسره الله لسكان الحرم وزائريه من طرق الخير، وما دفع عنهم من الأضرار، على حالة اتفق عليها سائر العرب، وقمعوا بها أنفسهم وشهواتهم، مع تكاليفهم على

إرضاء نفوسهم. وأعظمها الأمن، الذي وطن عليه نفوس جميع العرب في الجاهلية مع عدم تدينهم، فكان الرجل يلاقي قاتل أبيه في الحرم فلا يناله بسوء، وتواضع مثل هذا بين مختلف القبائل، ذات اختلاف الأنساب والعوائد والأديان، آية على أن الله تعالى وقر ذلك في نفوسهم. وكذلك تأمين وحشه مع افتتان العرب بحب الصيد. ومنها ما شاع بين العرب من قصم كل من رامه بسوء، وما انصرف الأحباش عنه بعد امتلاكهم جميع اليمن وتهامة إلا آية من آيات الله فيه. ومنها انبثاق الماء فيه لإسماعيل حين إشرافه على الهلاك. وافتداء الله تعالى إياه بذبح عظيم حين أراد أبوه إبراهيم عليه السلام قربانه. ومنها ما شاع بين العرب وتوارثوا خيره أبا عن جد من نزول الحجر الأسود من السماء على جبل أبي قبيس بمرأى إبراهيم، ولعله حجر كوكبي. ومنها تيسير الرزق لساكنيه مع قحولة أرضه، وملوحة مائه.

{وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ} هدى أي مناراً يهتدى به لأنه قبلتهم ومُتَعَبِّدُهُمْ، فالمصلون في مشارق الأرض ومغاربها يستقبلونه في صلاتهم، وفي ذلك من الحصول على الثواب وذكر الله والتقرب إليه، وذلك أكبر هداية.

والمؤمنون يأتون حجاجاً وعماراً ويأوون إليه من كل فج عميق، فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية ويزدادون تقى وإيماناً.

{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} استئناف ثناء على هذا البيت بما حف به من المناقب والمزايا فغير الأسلوب للاهتمام.

{مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} وهو الحجر الذي قام عليه أثناء بناء البيت، والآية في ذلك أن قدميه دخلتا في حجر صلد فارتسمت قدماه بقدرة الله عز وجل، ليكون ذلك آية ودلالة على توحيد الله، وصدق نبوة إبراهيم. هذا مع إبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الأعداء آية مستقلة.

وقد كان ملتصقا بجدار البيت، حتى أخره عُمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطَّوَّاف، ولا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده.

ومن الآيات البينات أيضا: امتناع الطير من العلو عليه، وإنما يطير حوله لا فوقه. وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة -وقد كانت العادة جارية بذلك- ومن جملة ذلك: هلاك أصحاب الفيل.

وقيل: **{آيَاتُ بَيِّنَاتٌ}** أي علامات بينات واضحات. وهي المواضع التي يشرع فيها من المناسك، وهي قائمة لم تزل من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا، فعرفة هي عرفة، ومزدلفة هي مزدلفة، ومنى.. لم تزل بهذا من عهد إبراهيم إلى اليوم. والكعبة هي الكعبة ليس هذا البيت خفياً لا يعلم الناس به، بل لم يزل مشهوراً بيناً واضحاً من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا. هذا فضلا عن الحجر الأسود الذي قال فيه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الحجر الأسود من حجارة الجنة) [صحيح الجامع]

قال في البحر المحیط: وقوله: **{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ}**، الضمير في فيه عائد على البيت، فينبغي أن لا يذكر من الآيات إلا ما كان في البيت. لكنهم توسعوا في الظرفية، إذ لا يمكن حملها على الحقيقة لأنه كان يلزم أن الآيات تكون داخل الجدران. ووجه التوسع أن البيت وضع بحرمة وجميع فضائله، فهي فيه على سبيل المجاز.

{وَمَنْ دَخَلَهُ} أي الحرم الذي حول البيت بحدوده المعروفة. **{كَانَ آمِنًا}** من أبناء جنسه، وليس آمناً من عذاب الله.. لا يخاف على نفس ولا مال ولا عرض، كما قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا}**

أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ {
[العنكبوت: ٦٧] وقال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي

أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٣-٤]

قال الشافعي: لما ذكر الله تعالى أن فيها آيات بينات جعل من جملتها: "أن من دخله كان آمناً"، وإن كان من الآيات في أن الله تعالى جعل لذلك الموضع هيبة ووقاراً وعظمة في نفوس المفسدين المتمردين.

قال الزمخشري: "ويجوز أن يذكر هاتين الآيتين ويطوي ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما".

وظاهر الآية وسياق الكلام أن هذه الجملة هي مفسرة لبعض آيات البيت، ومذكرة للعرب بما كانوا عليه في الجاهلية من احترام هذا البيت، وأمن من دخله من ذوي الجرائم. كما قال الحسن البصري وغيره: "كان الرجل يَقْتُلُ فيَضَعُ في عُنُقِهِ صُوفَةً ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يُهَيِّجُهُ حتى يخرج".

وروى البخاري عن أَبِي شَرِيحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَحَدْتُكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْغَدَ يَوْمَ الْفَتْحِ

سَمِعْتُهُ أَذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ. إِنَّهُ حَمِدَ
اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ
لَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا
يَعْصِدَ بِهَا شَجَرًا فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيهَا فَقُولُوا لَهُ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ
وَأِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ
كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ وَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ) فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ مَاذَا
قَالَ لَكَ عَمْرُو؟ قَالَ: قَالَ: "أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ إِنَّ
الْحَرَمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا وَلَا فَارًّا بِدَمٍ وَلَا فَارًّا بِخَرْبَةٍ". قَالَ أَبُو عَبْدِ
اللَّهِ: الْخَرْبَةُ الْبَلِيَّةُ

فالرجل لو جرَّ كلَّ جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُطلب. وعن
ابن عباس قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى ولا
يُطعم ولا يُسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

وعن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لو ظفرتُ فيه بقاتل الخطاب ما
مسستُهُ حتى يخرج منه.

ولذلك قال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى-: من لزمه القتل في
الحلِّ بقصاص أو ردّة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يُتعرّضْ له إلا

أنه لا يؤوى ولا يُطعم ولا يسقى ولا يُباع حتى يُضطرَّ إلى الخروج.

وانعقد الإجماع على أنّ من جنى فيه لا يؤمن، لأنه هتك حرمة الحرم وردّ الأمان.

فبقي حكم الآية فيمن جنى صار خارجاً منه ثم التجأ إليه. وقيل: هذا خبر معناه الأمر. أي ومن دخله فأمنوه. وهو عام فيمن جنى فيه أو في غيره ثم دخله، لكن صدّ الإجماع عن العمل به فيمن جنى فيه وبقي حكم الآية مختصاً بمن جنى خارجاً منه ثم دخله.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ السَّلَاحَ بِمَكَّةَ) [ابن حبان: صحيح]

{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ} حكم أعقب به الامتنان: لما في هذا الحكم من التنويه بشأن البيت فلذلك حسن عطفه. والتقدير: مباركا، وهدى، وواجبا حجه. فهو عطف على الأحوال.

وهي أبلغ صيغ الإيجاب للحج: [لام الاستحقاق، وحرف "على" الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها]، يعني أنه حق

واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهده.

فدلت هذه الآية على تأكيد فرض الحج، إذ جاء ذلك بقوله: **{وَلِلَّهِ}** فيشعر بأن ذلك له تعالى، وجاء بعلى الدالة على الاستعلاء، وجاء متعلقاً بالناس بلفظ العموم وإن كان المراد منه الخصوص ليكون من وجب عليه ذكر مرتين.

{حَجُّ الْبَيْتِ} والألف واللام في البيت للعهد، فمتى ذكر البيت لا يتبادر إلى الذهن إلا أنه الكعبة، وكأنه صار كالنجم للشريا.

وحجُّه قصُّده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود، وكسر الحاء لغةً نجد.

{مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} طريقاً، وهو تقييد حال الوجوب، والمراد وجد سبيلا وتمكن منه، والكلام بأواخره.

والسبيل هنا مجاز فيما يتمكن به المكلف من الحج من القدرة على السير إلى البيت والقيام بالمناسك، بأي طريق قدر عليه من: مشي، وركوب بحر، وإيجار نفسه للخدمة.. واختلف فيمن لا زاد له ويستطيع الاحتراف في طريقه: فقال مالك: إذا

كان ذلك لا يزري فليسافر ويكتسب في طريقه، وقال بمثله ابن الزبير، والشعبي، وعكرمة.

وقال عمر، وابنه، وابن عباس، وعطاء، وابن جبير: هي حال الذي يجد زاداً وراحلة، وعلى هذا أكثر العلماء.

وقال مالك: السبيل القدرة والناس على قدر طاقتهم وسيرهم وجلدهم.

فإن قال قائل: هذا الشرط ثابت في كل عبادة؛ لقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [التغابن: ١٦] فلماذا قيد وجوب الحج بالاستطاعة مع أنه شرط مفهوم معلوم؟

فالجواب: أنه لما كان الوصول إلى البيت شاقاً، أشق بكثير من سائر العبادات نص على اشتراط الاستطاعة، وإلا فلا شك أن كل العبادات لا تجب إلا بالاستطاعة. قال -صلى الله عليه وسلم-: (فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ) [مسلم]

وهذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: **{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}** [البقرة: ١٩٦] والأول أظهر.

وفيه وجوب الحج على الفور لمن لم يكن له مانع يمنعه من ذلك. روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال

رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ -يَعْنِي:

الْفَرِيضَةَ- فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْزِضُ لَهُ) [حديث حسن]

وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحُجَّ، فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ تَضَلَّ الضَّالَّةُ، وَيَمْرُضُ الْمَرِيضُ، وَتَكُونُ الْحَاجَةُ) [أحمد، حسن] وفي رواية ابن ماجه: (وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ)

وقال أبو عمر بن عبد البر: ويدل على التراخي إجماع العلماء على ترك تفسيق القادر على الحج إذا أخره العام الواجب عليه في وقته، بخلاف من فوت صلاة حتى خرج وقتها فقضاها.

والقادر هو القادر بماله فقط فينبى عنه أو بدنه واستطاع الوصول للحج ولو ماشيا أو بهما. وهذه القدرة هي القدرة الحسية.

أما القدرة الشرعية ففيها خلاف؛ فمنهم من قال إنه يشترط أيضاً القدرة الشرعية، أو الاستطاعة الشرعية، فلو كان هناك امرأة غنية قادرة ببدنها، لكن ليس لها محرم فإن الحج لا يجب عليها؛ لأنها عاجزة شرعاً عن الحج، لعدم وجود المحرم، وسفر المرأة بلا محرم ولو للحج غير جائز؛ لأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما خطب وقال: (لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو

مَحْرَمٌ وَلَا تُسَافِرُ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ) فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَةً وَإِنِّي اكْتُبْتُ فِي غَزْوَةٍ كَذًا وَكَذَا. قَالَ: (انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ) [مسلم]

واختلف العلماء في مسألة الاستطاعة الشرعية، هل هي شرط للوجوب أو شرط للأداء؟ ويختلف الحكم باختلاف القولين، فإذا قلنا: إنها شرط للأداء فقط لزم المرأة أن تنيب من يحج عنها إذا كانت قادرة بمالها أو بمالها وبدنها.

وإذا قلنا: إنها -أي الاستطاعة الشرعية- شرط للوجوب، فإن هذه المرأة لا يلزمها أن تنيب من يحج عنها. هذا فرق.

الفرق الثاني: لو ماتت هذه المرأة القادرة بمالها وبدنها على الحج لكن ليس لها محرم، فهل يكون الحج ديناً في تركتها فيلزم الورثة أن يقيموا من يحج عنها أو لا؟.

إن قلنا بأن الاستطاعة الشرعية شرط للوجوب فإنه لا يلزم الورثة أن يقيموا من يحج عنها؛ لأن هذه المرأة كالمراة الفقيرة سواء، ليس عليها حج. أو أن يحجوا هم بأنفسهم عنها. وإن قلنا إنه شرط للأداء لزم الورثة أن ينيبوا من يحج عنها.

{وَمَنْ كَفَرَ} فيه الإشارة إلى كفر من يترك الحج وهو قادر عليه، ولا مانع يمنعه منه غير عدم المبالاة. وفيه من أنواع

التأكيد والتشديد قوله: **{وَمَنْ كَفَرَ}** مكان "وَمَنْ لَمْ يَحْج" تغليظاً على تارك الحج.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: "مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ وَلَمْ يَحْجَّ حَتَّى مَاتَ فَأَقْسِمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا". [أبو نعيم في الحلية] وفي رواية عنه: "من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا".
واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الكفر، هل هو الكفر المطلق «كفر جحود» أو هو نوع من الكفر «كفر معصية»؟
على قولين لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد:
الأولى: فعلى القول بأنه الكفر المطلق، يكون من ترك الحج وهو مستطيع مرتداً خارجاً عن الإسلام، يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

الثانية: وعلى القول الثاني، بأن المراد بالكفر هنا نوع من الكفر فإنه لا يكفر. وهذا القول هو الذي عليه جمهور أهل العلم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وهو ظاهر ما روي عن الصحابة.

قال عبد الله بن شقيق: "كان أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة"،

وعلى هذا فيكون الكفر هنا نوعاً من الكفر، كقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ) [البخاري]
وقتل المسلم لا يُخرج من الإيمان، كما قال الله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩]
إلى قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠]

{فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} بيان غنى الله عز وجل عن كل أحد. ولم يقل: "عنه".

وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهانه، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء عنه لا محالة فهو سبحانه لم يأمر عباده بالعبادة من أجل أن ينتفع بها، وإنما أمرنا ونهانا لتستقيم أمورنا، وتصلح أحوالنا، ونسعد في الدنيا والآخرة.

وفي هذا اللفظ وعيد شديد لمن كفر، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان.. قال ابن عطية: "والقصد بالكلام: فإن الله غني عنهم، ولكنَّ عَمَّ اللفظ ليبرع المعنى ويتنبه الفكر على قدرة الله وسلطانه واستغنائه عن جميع الوجوه، حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا ربَّ سواه" انتهى.

وكما أنه إذا كان الله غنياً عن العالمين، لزم أن يكون العالمون مفتقرين إليه، وليس بهم غنى عن الله. وهو كذلك، فإن الخلق مفتقرون إلى الله تعالى غاية الافتقار، ولهذا ينبغي لك أن تسأل ربك في كل أمورك بلسان الحال أو لسان المقال، واستعن بالله في كل أمورك {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] لا يغفل عن بالك تعلقك بالله سبحانه وتعالى في كل شيء، وقد جاء في الحديث: (لَيْسَ أَلْأَحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ كُلَّهَا، حَتَّى شَسَعَ نَعْلُهُ إِذَا انْقَطَعَ) [ابن حبان]، أي شراك النعل الزهيد الذي لا يساوي شيئاً، لا تغفل عن سؤال الله إياه، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

{قُلْ} أمر الرسول -عليه الصلاة والسلام- بالصدع بالإنكار على أهل الكتاب، بعد أن مهد بين يدي ذلك دلائل صحة هذا

الدين، ولذلك افتتح بفعل الأمر {قل} اهتماما بالمقول، وافتتح المقول بنداء {يا أهل الكتاب} تسجيلاً عليهم.

وقد جاء النداء تارة: {يا أهل الكتاب} دون {قل}، وجاء هنا {قل}. فبدون {قل} هو استدعاء منه تعالى لهم إلى الحق، فجعل خطابهم منه استلانة للقوم ليكونوا أقرب إلى الانقياد.

ولما قصد الغض منهم ذكر {قل} تنبيهاً على أنهم غير مستأهلين أن يخاطبهم بنفسه، وإن كان كلا الخطابين وصل على لسان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} أمره أن يناديهم بـ {أهل الكتاب} للمبالغة في التوبيخ والاستنكار وتقبيح حالهم؛ لأن علمهم بالكتاب كان يتقاضاهم الإيمان، وأن يذعنوا للحق، فلا يناسب مَنْ ينتسب إلى كتاب الله أن يكفر بآياته، بل ينبغي طواعيته وإيمانه به، إذ له مرجع من العلم يصير إليه إذا اعترته شبهة. فإنه لا يستوي من يعلم ومن يجهل؛ فإن كانوا مع علمهم بأخبار النبوات يكفرون، فهو دليل على فساد قلوبهم.

وأطلق {أهل الكتاب} على المدح تارة، وعلى الذم أخرى. فأهل القرآن والسنة لا ينطبق إلا على المدح، لأن الكتاب قد يراد به ما افعلوه دون ما أنزل الله نحو: **{يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}**

بأيديهم} [البقرة: ٧٩] وقد يراد به ما أنزل الله. وأيضاً فقد يصحُّ أن يُقال على سبيل الذمّ والتهكم، كما لو قيل: يا أهل الكتاب لمن لا يعمل بمقتضاه.

{لَمْ} استفهام استنكاري **{تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}** هي العلامات التي نصبها الله دلالة على الحق. وهي إما القرآن، وإما دلائل صدق الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فالآيات هنا هي الآيات القرآنية التي من جملتها ما تُلي في شأن الحجّ وغيره وما في التوراة والإنجيل من شواهد نبوّته عليه السلام، والكفر بها هو عدم الإذعان لأحكامها وإنكار صدقها، ومنازعة أهل الحق في معانيها.

أو آيات الله تعالى هي الأمارات التي ساقها الله سبحانه وتعالى لإثبات الحق في الرسالة المحمدية، فهم لإيغالهم في الجحود والإنكار لا يكتفون بإنكار الحق، بل ينكرون الدليل الذي قام عليه، وثبت به، وهم بذلك يغلقون قلوبهم، فلا يصل إليها نور الحق، وإذا كانوا ينكرون كل دليل يصلهم بالهداية، فقد سارعوا إلى الكفر.

{وَاللَّهُ} إظهار اسم الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب.

{شَهِيدٌ} صيغة مبالغة للتشديد في الوعيد. كما أن أعمالهم كثيرة، وإذا كثرت المشهود عليه كثرت الشهادة.

{عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} جملة حالية فيها تهديد ووعيد.. أي عالم علم المعايين الحاضر القائم الحاكم على ما يعملون دائماً، سواء أكان العمل عمل القلب أم كان العمل عمل الجوارح. وإذا كان شهيداً على ما يعملون فسوف يجازيهم عليه في الدنيا وفي الآخرة بما يستحقون.

**** وفيه: أنه سبحانه لا يحاسب العبد على ما حدث به نفسه، كما روى البخاري عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ) قَالَ قَتَادَةُ: إِذَا طَلَّقَ فِي نَفْسِهِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ.**

فحديث النفس -أي الوسوس التي تكون في الصدر- لا يؤاخذ عليها الإنسان إلا إذا عمل، وركن إليها، واعتقدها، وجعلها من أعمال القلب. فحينئذ يحاسب عليها، وكذلك إذا نطق بها لسانه، أو عمل بمقتضاها بجوارحه، فحينئذ يحاسب عليها.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثر توبيخهم بالضللال، فإن ذلك العنوان {أَهْلَ الْكِتَابِ} كما يستدعي الإيمان بما هو مصدق لما معهم يستدعي أيضا ترغيب الناس فيه، فصدهم عنه في أقصى مراتب القباحة والوقاحة. والتكرير للمبالغة في حملة -عليه السلام- على تفريعهم وتوبيخهم، وترك عطفه على الأمر السابق للإيدان باستقلالهم بالقصد.

{لَمْ تَصُدُّونَ} قطع قوله تعالى: {لَمْ تَصُدُّونَ} عن قوله تعالى: {لَمْ تَكْفُرُوا} للإشعار بأن كل واحدٍ من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة في استتباع اللائمة والتفريع.

{عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وسمي الدين سبيلاً لله لأنه موصل إليه **{مَنْ آمَنَ}** فهم لا يكتفون بكفرهم، بل ييغون في غيرهم إبعاده عن الحق، فيصدون عن سبيله، فجمعوا بين الضلال والإضلال. والمعنى: لم تصرفون الناس عن سبيل الله تعالى وهو سبيل النور وسبيل الحق، فالصد هو الصرف والمنع، والحيلولة بين الشخص والوصول إلى الأمر.

وإنما ذكر {مَنْ آمَنَ} مع أنهم يصدون من آمن حتى يترد عن إيمانه، ويصدون كذلك من لم يؤمن حتى لا يدخل في

الإيمان؛ وذلك لأن صد من آمن أشد عدواناً من صد من لم يؤمن؛ لأن من آمن يصدونه ليكون مرتداً، ومن لم يؤمن يصدونه عن سبيل الله من أجل أن يبقى على كفره والبقاء على الكفر أهون من الردة كما هو ظاهر.

** وفيه إثبات أن الشياطين ليست شياطين الجن فقط، فكما أن للجن شياطين يصدون عن سبيل الله، ففي الإنس أيضاً شياطين يصدون عن سبيل الله، وإلى هذا يقول الله تبارك وتعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}** [الأنعام: ١١٢]

{تَبْغُونَهَا} أي تبغون السبيل فأنت ضميره لأن السبيل يذكر ويؤنث، والبغي الطلب أي: تَطْلُبُونَ لَهَا، فحذف اللام، مثل: **{وَإِذَا كَالُوهُمْ}** [المطففين: ٣] يُقَالُ: بَغَيْتُ لَهُ كَذَا أَيِ تَلَبَّيْتُهُ.

{عَوَجًا} العَوَجُ بكسر العين وفتح الواو: الْمَيْلُ وهو ضد الاستقامة، وهو اسم مصدر عوج كفرح، ومصدره العوج كالفرح. وقد خص الاستعمال غالباً المصدر بالاعوجاج في الأشياء المحسوسة، كالحائط والقناة. وخص إطلاق اسم المصدر

بالاعوجاج الذي لا يشاهد كاعوجاج الأرض والسطح،
وبالمعنويات كالدين.

والقصد الميل وَالزَّيْغُ فِي الدِّينِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَمَا خَرَجَ عَنْ
طَرِيقِ الْإِسْتِوَاءِ، أي: تريدون أن تكون ملتوية غير واضحة ولا بيّنة
في أعين المهتدين، كما التوت نفوسكم، وحالت عيونكم، فلم
تدرك الحق مستقيماً بعد أن قامت بيناته.

وقيل: تصدون عنها بالكذب كبرا وحسداً، وإلقاء الشبهات
الباطلة مكابرة وبغيا والكيد للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
والمؤمنين بغيا وعدواناً.. فتبغونها عوجاً: أي لم تصدون عنها
قاصدين بصدكم أن تكون معوجة في نظر من يؤمن لكم ويغتر
بكيدكم.

والعوج عن شريعة الله يشمل معنيين: المعنى الأول في
الأوامر، والثاني في النواهي. أما في الأوامر فاعوجاجها إما
بالتهاون بها والتفريط، وإما بالإفراط فيها والغلو فالناس بالنسبة
لأوامر الله ثلاثة أقسام: قسم وسط، وقسم مُفْرِط، وقسم مُفَرِّط،
يعني غال متجاوز للحد. فالوسط هو المستقيم. والمفرط عوج،
والزائد عوج أيضاً. هذا في الأوامر.

أما في النواهي فالعوج هو انتهاكها وارتكابها، هذا عوج؛ لأن الصراط المستقيم في النواهي أن تدعها، وأن تتجاوزها. فإذا أنت فعلتها وانتهكتها فهذا هو العوج فيها. فهؤلاء اليهود والنصارى أهل الكتاب يريدون من الناس العوج في الأوامر وفي النواهي في الأوامر بالتفريط والتهاون، أو بالغلو والإفراط. وفي النواهي بانتهاكها، والتهاون بها.

{وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ} والحال أنكم شهداء عالمون بالحق علم من يعاين ويشاهد ويحكم بأنه الحق والصواب، فهو جحود عن علم، وكفر ليس عن جهل، وإيغال في الكفر بالصد عن سبيل الله، وبيّنات الحق بين أيديكم وأماراته مُعلنة له في أيديكم.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} اعتراضٌ تذييليّ فيه تهديدٌ ووعدٌ شديدٌ، ونفيٌ مؤكدٌ لعدم إهمال الله تعالى عملهم، وعدم غفلته عنهم ومما يضمرون ويفعلون، وقد تأكد النفي بالباء الزائدة التي تفيد تأكيد النفي، وكان ذلك النفي المؤكد لبيان عاقبة أعمالهم، فإذا كان ما يفعلون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فإنهم مجزيون به، محاسبون عليه.

قيل: لما كان صدُّهم للمؤمنين بطريق الخُفية خُتِمت الآيةُ الكريمة بما يحسِّمُ مادةَ حيلتهم من إحاطة علمه تعالى

بأعمالهم،، كما أن كفرهم بآياتِ الله تعالى لمّا كان بطريق العلانية خُتِمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون.

إلا أن التهديد هنا أغلظ في التوبيخ لما فيه من إبطال اعتقاد غفلته سبحانه، لأن حالهم كانت بمنزلة حال من يعتقد ذلك.

والغفلة من الصفات السلبية؛ لأن صفات الله قسمان: ثبوتية وسلبية؛ يعني شيء ثابت لله، وشيء منفي عنه. فهنا الصفة سلبية نفت عن الله تعالى: الغفلة. والقاعدة عند أهل السنة أن الصفات السلبية تتضمن شيئين:

الأول: انتفاء هذه الصفة التي نفاها الله عن نفسه.

والثاني: ثبوت الكمال في ضدها؛ لأنها ما نفيت عنه إلا لأنه كامل، فيكون قوله: **{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** متضمناً لنفي الغفلة عن الله، والثاني ثبوت كمال المراقبة؛ لأن من كان كامل المراقبة فإنه ليس عنده غفلة، فتكون هذه الآية مثبتة لله تعالى كمال المراقبة، كما قال تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا}** [الأحزاب: ٥٢]

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ**

تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ
يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} صدر الخطاب بندااء المؤمنين تنبيها
لخطر ما يدعوهم إليه، ولتحريك عناصر الإيمان في قلوبهم،
فيكون منهم الحذر واليقظة، فإن الإيمان فطنة، ولا يلدغ المؤمن
من جحر مرتين، ولأن علة الإجابة للطلب هي الإيمان.
وقيل: تنبيهاً على تباين ما بينهم وبين الكفار، ولم يأت بلفظ
«قل» ليكون ذلك خطاباً منه تعالى لهم تأنيساً وتفضلاً عليهم.
وأبرز نهيه عن موافقتهم وطواعيتهم في صورة شرطية، لأنه لم
تقع طاعتهم لهم.

قال ابن عثيمين: هذا الحكم مُصدّر بالنداء، وتصدير الحكم
بالنداء يدل على الاهتمام به، والعناية به، وذلك لأن النداء
يتضمن تنبيه المخاطب، والتنبيه لا يكون إلا لأمر هام تجب
العناية به. ثم صار النداء موجهاً للذين آمنوا من باب الإغراء
لقبول ما يأتي تصديقاً به إن كان خيراً، وامتنالاً له إن كان طلباً
أمراً ونهياً، لأن وصفهم بالإيمان يقتضي أن يقوموا بمقتضى هذا
الخطاب الموجه لهم.. ويقتضي أيضاً أن مخالفته نقص في

الإيمان؛ لأن المؤمن يقتضي إيمانه أن يقوم بما أمر به، وأن يدع ما نُهي عنه.

{إِنْ} عبر في الشرط بـ «إِنْ» للإشارة إلى بعد وقوع الطاعة منهم لهؤلاء مع إيمانهم، لأن «إِنْ» الشرطية تفيد الشك في وقوع الشرط، وبالتالي ترتب الجواب عليه، بخلاف «إِذَا» فإنها تفيد وقوع الشرط أو تؤذن بوقوعه وترتب الجواب عليه، كقوله تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}** [الانشقاق: ١]، وقوله تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ}** [الانفطار: ١-٢]، وقوله تعالى: **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** [التكوير: ٨-٩]

{تُطِيعُوا فَرِيقًا} طائفة من الحاقدين على الإسلام العاملين على الكيد له والمكر به وبأهله، وسماهم فريقا لأنهم لم يكونوا كلهم، ولأنه يرجى الإيمان من بعضهم.

{مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم أوتوا الكتاب للإشارة إلى أن تضليلهم مقصود، وأنهم أهل معرفة، ولكنهم استخدموها للضلال والتضليل، فصاروا بهذا كالأنعام بل أضل سبيلا؛ لأن المعرفة إن لم تكن لنصرة الحق كان الجهل خيرا منها؛ لأنه أدنى إلى المعذرة.

والآية تلويحٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعاً لهم عن ذلك.

فسيق النداء لتحذيرهم من ذلك العدو الذي اختلط بهم، وأخذ ينفث سموم الشر، وسموم التفرقة بينهم، وأنهم يعودون إلى الكفر إذا استجابوا لدعوته، ومكنوا لسمومه من أن تصل إلى قلوبهم.

{يَرُدُّوكُمْ} ولم يقل (ترتدوا) والمعنى متلاق، ولكن الأول في بيان تسلط الكفار على قلوب أهل الإيمان في حال تلك الطاعة، فهو نوع آخر من التحذير منهم؛ لأنهم كالشياطين، فعلى كل مؤمن أن يحذرهم. أما الارتداد فإنه يكون انبعاثاً من نفس المرتد، بضالاله هو لا بتأثير من غيره.

{بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} تأكيداً لما أفاده قوله: **{يَرُدُّوكُمْ}** والقصد من التصريح توضيح فوات نعمة عظيمة كانوا فيها لو يكفرون.

{كَافِرِينَ} كما قال تعالى: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}** [البقرة: ١٠٩] وقال: **{وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ}** [آل عمران: ٦٩] ومن ود شيئاً سعى في تحصيله.

والردة بعد الإيمان أعظم من عدم الإيمان من أصله؛ لأنها إخراج من الإيمان إلى الكفر، ومن المعلوم أن الإنسان لن يخرج من الإيمان إلى الكفر إلا بمحاولات شديدة، إذ إن إبعاد من لم يدخل في الشيء أهون ممن دخل فيه وآمن به.

والمراد به الكفر المخرج عن الملة، لكنهم قد لا يستطيعون أن يُخرجونا من الإيمان بالكلية، لكن بالتدريج مما يُلقونه أمامنا من معوقات كمال الإيمان، حتى ينحل الإيمان شيئاً فشيئاً، ولا يبقى في القلوب شيء، وحينئذ يكون الكفر المحض.

وقد يراد الكفر بالاعتقال فيما بينكم، وقد رُوي أن نفراً من الأوس والخزرج كانوا جُلوساً يتحدثون فمرّ بهم شاسُ بن قيس اليهودي وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين، فغاضه ما رأى منهم من تآلف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأي بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن، فأمر شاباً يهودياً كان معه بأن يجلس إليهم ويذكّرهم يوم بُعث وكان ذلك يوماً عظيماً اقتتل فيه الحيان، وكان الظفر فيه للأوس، ويُشدّهم ما قيل فيه من الأشعار، ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى توثبوا وقالوا: "السلاح السلاح" فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فعند ذلك جاءهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه فقال: «أتدعون

الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟» فعلموا أنها نزعاً من الشيطان وكيداً من عدوهم، فآلقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

**** وفيه: أن الكفار -ولو كانوا أهل كتاب- يحاولون غاية المحاولة أن يردوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر. وأن هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منا بما دون الكفر، إلا أن يكون وسيلة إلى الكفر.**

وقائل هذا الله -عز وجل- العالم بما في صدورهم.. قد يتظاهرون لنا بالمسالمة والمداينة، وأنهم أولياء، وأنهم أصدقاء، ولكن في قلوبهم الحقد والغل ومحبة أن نرتد على أعقابنا كافرين.. من أين نعلم هذا الذي في قلوبهم وهم يبدون لنا الود والصدقة والمحبة؟ نعلم هذا من القرآن الكريم.

فإن قال قائل: إن الله يقول: {فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، والفريق مبهم ما ندري ربما بعضهم على خلاف ذلك، وإذا وجد الاحتمال بطل الاستدلال، فلا يمكن أن تعين طائفة من أهل الكتاب نقول: هؤلاء يُحبون أن نرتد على أعقابنا كافرين،

لا يمكن أن تعين ما دام الله يقول: {فريقاً}، فإذا قلت: إنهم هؤلاء، قلنا لك: بل هؤلاء، بل أولئك، فما هو الميزان إذن؟
وهنا جوابان:

الجواب الأول: أن الله ذكر في آيات أخرى أن جميع الكفار يودون منا أن نكفر، وهو شامل لأهل الكتاب وغيرهم: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء: ٨٩] وقال: {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [المتحنة: ٢]

وتارة يصرح في موطن آخر بالكثرة: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقرة: ١٠٩]

الجواب الثاني: أن نقول هذا الفريق المبهم، يبينه الواقع، وهو أن من أهل الكتاب من آمن ومن آمن لا يمكن أن يحب من غيره أن يكفر، وحينئذ نقول: المراد بالفريق هنا من لم يؤمن منهم، فكل من لم يؤمن فهو داخل في هذا الفريق.

قال ابن عثيمين: وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جداً ومتنوعة، منها: أن يفتحوا عليهم باب الشهوات. فإن باب الشهوات باب واسع، والضيق من أبواب الشهوات يتسع بسرعة، ودليل ذلك قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ-: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)
[البخاري] ، ولهذا هم - قبحهم الله، ولعنة الله على اليهود
والنصارى جميعاً - يسعون جادين على أن يُعطوا المرأة ما يُسمى
بالحرية، وهي في الحقيقة الرق وليست حرية؛ لأن المرأة -
ومثلها الرجل - إذا خرجت عن حدود الله خرجت من رق الدين
إلى رق الشيطان، تخرج من رق الدين وهو الرق الحقيقي؛ لأنه
عبودية الله، إلى رق الشيطان، وإذا خرجت إلى رق الشيطان
واسترقها الشيطان صارت عبداً له، هلكت وأهلك، قال ابن
القيم -رحمه الله- في نونيته: "فروا من الرّق الذي خلقوا له ...
وبلّوا برق النفس والشيطان"

(الرق) الذي خلقنا له هو: عبادة الله عز وجل. (وبلّوا): يعني
ابتلاهم الله برق النفس والشيطان، ولهذا تجدهم يركزون على
المرأة على أن تتدهور، وتحرر من عبودية الله لتقع في عبودية
الشيطان؛ لأنهم يعلمون أن أشد فتنة على الرجال هي المرأة،
فيسعون بكل جهدهم على أن تختلط بالرجال، وتشاركهم في
الأعمال، ويلصق منكبها بمنكبها، وساقها بساقها، ويشم رائحتها،
وتشم رائحته وتصافحه، وربما تعانقه؛ لأنهم يعلمون أن الإنسان
إذا وصل إلى هذه الدرجة بقي حيوانياً بهيمياً ليس له أي غرض

إلا أن يُشبع غريزته - والعياذ بالله - وحينئذ ينسى الدين وما وراء الدين، ويرجع بعد ذلك إلى الكفر.

ثانياً: يلقون الأفكار الرديئة الإلحادية الكفرية بين المسلمين باسم الناس أحرار.. دعوا كل أحد يعتنق ما شاء. دعوا كل أحد يقول ما شاء. لا تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وما أشبه ذلك من الكلمات الرنانة التي إذا سمعها الإنسان قال: هذا هو الدين، ثم تحلل الناس وصار كل يعمل على ما يريد، ولكن ما هي الطريق التي يتوصلون بها إلى هذا؟ الطريق: أن يضربوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجعلوا الناس لا يأمرن بمعروف، ولا ينهاون عن منكر؛ لأنهم يعرفون أنه إذا أمر بالمعروف قام المعروف، وإذا نهى عن المنكر غاب المنكر، فيحاولون أن يقللوا ويضعفوا هذه الناحية، حتى يبقى الناس لا أمر ولا ناهي، كل يركب ما شاء.

وهناك شيء آخر يضربون عليه وهو مسألة الحدود والتعزيرات، يشوهون الإسلام بأنه يقطع اليد - يد السارق - ويرجم الزاني، يشوهون هذا حتى يُضعفوا هذه الناحية، ومن المعلوم أنه إذا ضعف الإيمان فلا بد من رادع السلطان، فإن ضعف الإيمان وعدم رادع السلطان، صارت المسألة فوضى، كل

يفعل ما شاء، يكفر، يزني، يسرق يشرب الخمر.. ؛ لأنه لا توجد حدود رادعة، والإيمان ضعيف بناء على أنهم يقولون: اجعلوا كل إنسان حراً في نفسه، ويتحلل الناس من الدين بمثل هذه الطرق من إلقاء الأفكار الرديئة في المسلمين. هذه من أساليب اليهود والنصارى التي يُضللون بها الناس، ويردونهم بعد إيمانهم كافرين .

كذلك أيضاً من أساليبهم التي يردون بها الناس عن الإيمان أن يزينوا للناس محبة المال، وجباية المال، بكل ما يكون بحلال أو حرام، فيزينوا لهم المكاسب الربوية بشتى أنواعها، والمكاسب الميسرية بشتى أنواعها التي تتمثل في التأمينات وما أشبهها، فإن التأمينات لا شك أنها من الميسر؛ لأن المؤمن والمؤمن له عقدهما دائر بين الغنم والغرم، وهذا هو الميسر تماماً، والنفوس إذا اعتادت ذلك نسيت كل شيء صار أكبر همها أن تكتسب هذا المال بالربا لأن الربا يوجب زيادة المال باطراد، وزيادة الظلم باطراد، زيادة المال لأخذ الربا، والظلم لموكل الربا، فتأخذ النفس على الجشع والشح، وحب المال، وتنسى ما خلقت له.

كذلك الميسر وعلى رأسه القمار، يجلس المتقاربان في مجلس كل واحد عنده خمسة ملايين من الأموال مثلاً فتحصل لعبة القمار فإذا بأحدهما يكتسح مال الآخر كله، خمسة ملايين فيصبح هذا عنده عشرة ملايين والثاني ما عنده إلا ثيابه يخرج من قاعة المقامرة ليس عليه إلا ثيابه.

يجب على المسلمين أن يستمدوا حياتهم ومنهجهم من كتاب الله وسنة رسوله، وأنا واثق كل الثقة، أنهم إذا اعتمدوا في ذلك على الكتاب والسنة، فسيطئون أعناق هؤلاء الكفار؛ لأن الله يقول: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** [التوبة: ٣٣] هذا كلام الله -عز وجل-.. كلام الله الذي يقدر على كل شيء، هو وعد من الله، من قادر صادق في وعده، فإذا كان كذلك فلماذا لا نتمسك بدينه؟!

لماذا لا نتمسك تمسكاً تاماً، وتظهر الأمة الإسلامية من جديد، نتمسك بدينها نصاً وروحاً، لا نصاً فقط؛ لأن التمسك بالدين نصاً فقط لا روحاً، ليس بشيء.. هو تمسك ظاهري يتلشى عند حدوث النوازل، وأما التمسك نصاً وروحاً فهو الذي ينتفع به الإنسان في دنياه وآخرته.

{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ} الاستفهام لاستنكار وقوع الكفر، فهو إما نفي للوقوع أي أنه لا يمكن أن يقع منكم الكفر، ورسول الله بينكم، وآيات الله تتلى عليكم، لذلك كانت الردة في حياته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قليلة جدا.

وإما أنه نفي للواقع، فيكون للعب، والمعنى كيف سوغتم لأنفسكم أن تفتحوا قلوبكم لأسباب الكفر التي ابتغاهم اليهود بالاستماع إلى كلماتهم المفرقة، فيكون الإنكار لما وقع باعتباره كان يؤدي إلى الكفر، فيعودون إلى ما كانوا عليه في الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض.

وقد يكون الاستفهام للتعجب، ومعنى التعجب فيه هو أنه لا يُتَصَوَّر أن يكون منكم كفر، ولو تصور لكان موضعا للتعجب والاستغراب.

والمقصود أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، كما في قوله تعالى: **{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ}** [التوبة: ٧] لا بمعنى إنكار الواقع كما في قوله تعالى: **{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمَواتاً}** [البقرة: ٢٨]

{وَأَنْتُمْ تُثَلِّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ} صباح مساء في الصلوات وغيرها، وهي جملة مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما فيها من الشؤون الداعية إلى الثبات على الإيمان، الرادعة عن الكفر.

{وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} معطوف عليها داخل في حكمها، فإن تلاوة آيات الله تعالى عليهم، وكون رسوله -عليه الصلاة والسلام- بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر، وعدم إسناد التلاوة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للإيدان باستقلال كل منهما في الباب.

والخطاب في الآية: **{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُثَلِّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ}** -كما يبدو من عبارات الزمخشري وغيره- خاص بالمؤمنين في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم الذين شاهدوا النور المحمدي وشافهوا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وإن ساعة في حضرة النبي -صلى الله عليه وسلم- تغني عن اجتهاد سنين، كما قال أبو حنيفة -رضي الله عنه-.

قال ابن عاشور: والظرفية في قوله **{وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}** حقيقة ومؤذنة بمنقبة عظيمة، ومنّة جليلة، وهي وجود هذا الرسول العظيم بينهم، تلك المزية التي فاز بها أصحابه المخاطبون، وبها

يظهر معنى قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما رواه الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) النصف: نصف مد.

وفي الآية دلالة على عظم قدر الصحابة وأن لهم وازعين عن مواجهة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول عليه السلام، فإن وجوده عصمة من ضلالهم. قال قتادة: أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر. ويصح أن يكون الخطاب لكافة المؤمنين، وتكون الآيات تتلى على لسان القراء والعلماء من بعده، وهي ستتلى إلى يوم القيامة: {إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩] وأما وجود الرسول في الأخلاف فإنه يكون بوجود سنته النبوية الشريفة، وإنه إن كان الاحتياط يكون أشد لا يخلو من فضل ثواب إن سلم القلب واهتدى العقل وتحصنت النفس.

وكما جاء في الحديث: أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال يوما لأصحابه: (أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟) قالوا: الملائكة. قال: (وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!) وذكروا الأنبياء قال: (وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟)

قالوا: فنحن. قال: (وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟!). قالوا:
فأيّ الناس أعجب إيماناً؟ قال: (قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ
صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا) [الطبراني في المعجم الكبير]

وهذا فيه ما يومئ إلى إلقاء اليأس في قلوب اليهود من أن
يصلوا إلى ما يبتغون من إيجاد الفرقة والانقسام بأمر جاهلي.

** وفيه: أن كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال عليهما أعظم
مانع يمنع من الكفر؛ يؤخذ من قوله: **{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ}** يعني
بعيد منكم الكفر إذا كانت تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله،
آيات الله تتلى علينا الآن، ورسوله ليس فينا ولكن فينا سنته،
فنأخذ من هذا أنه كلما تمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله، فإن
ذلك سيكون حصناً منيعاً دون الكفر.

{وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ} الاعتصام معناه الامتناع والالتجاء
والاستمسك، وهو من عصم بمعنى منع، يقال عصمه الطعام أي
منع عنه الجوع، وعصمته النبوة أي منعه من أن يقع في إثم قط،
والمعنى: ومن يعتصم بالله أي يجعل الله تعالى عاصماً له ومانعاً
وملجئاً، يستنصح بكتابه، ويلجأ إلى كلام رسوله إذا ادلهمت
الظلمات.. وقيل: الاعتصام به توكلأً عليه، والاعتصام به تعبداً
له؛ لأن في كل منهما عصمة.

قال في زهرة التفاسير: "والاعتصام بدين الله قول أكثر المفسرين، وإني أرى الاعتصام بالله هو الاعتصام بذاته سبحانه، وإن كان الاعتصام بالذات العلية يستلزم حتما الاعتصام بدينه الحق الخالد إلى يوم القيامة، ولكني اخترت الاعتصام بالله، وأن يكون الإسناد إلى ذاته سبحانه من غير تقدير مضاف؛ لأن الاعتصام بالله يقتضي ألا يحب أحدا إلا الله، ويقتضي أن يكون الشخص ربانيا لا ينظر إلى عصبية جاهلية، ولا لهوى ولا لعرض من أعراض الدنيا، فيلجأ إلى الله، ويحب الشيء لذات الله، ويقتضي أن يتجه إلى الله ويتذكره عندما ينزغ في النفس نازغ، كما قال تعالى: **{وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [الأعراف: ٢٠٠]

ويقتضي الاعتصام بالله أن يتوكل على الله حق توكله، فيدبر الأمور ويعتزمها ثم يفوض أمر مصايرها إليه سبحانه وتعالى، ويقتضي الاعتصام بالله أن يبتعد عن مواطن الريب، ولا يتبع الشبهات، كما قال تعالى: **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ}**

إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ { [آل عمران: ٧-٨].

ذلك بعض مظاهر الاعتصام بالذات العلية، ولذا نجد أنه لا حاجة إلى تقدير مضاف هو لفظ «دين»، وفوق ذلك فإن هذا التقدير لا يستقيم معه نسق القول في نظري؛ لأن الصراط المستقيم هو دين الله القويم، فكيف يكون دين الله هو الذي يهدي إلى دين الله، إنما الذي يهدي إلى دين الله هو الاعتصام بذات الله العلية".

{فَقَدْ} قد تفيد معنى التحقيق كأن الهدى قد حصل فهو يُخْبَرُ عنه حاصلًا.

{هُدًى} عبر فيه بالماضي للإشارة إلى التحقق والتأكد والثبوت، فقد ثبت له الهدى سابقاً وواقعاً، سابقاً في اللوح المحفوظ، وفي الكتابة حينما تنفخ فيه الروح في بطن أمه، وواقعاً؛ لأنه اعتصم بالله.

وحذف الفاعل وذلك لتعدد طرق الهداية، فأعلى الهداة الله عز وجل، ثم الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم ورثة الرسول الله وهم العلماء، فهنا حذف الفاعل؛ ليشمل كل الهداة، وأولهم الله -عز وجل-: **{يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [البقرة: ١٤٢]، ثم الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [الشورى: ٥٢]، ثم ورثة الرسول وهم العلماء: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِبَيِّنَاتٍ يُوقِنُونَ { [السجدة: ٢٤]

لكن هداية التوفيق خاصة بالله عز وجل، لو اجتمع جميع الخلق على أن يهدوا أحداً هداية توفيق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكنهم يدلُّون ويحثون ويُرغبون.

قال أهل العلم: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمدة في الهداية، والعُدَّة في مباحدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

{إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي غير معوج، بل هو مستقيم، وهو يشمل الاستقامة نزولاً وارتفاعاً، والاستقامة انحرافاً واعتدالاً. إذن هو معتدل وليس فيه نزول ولا ارتفاع؛ لأن الصراط -وهو الطريق- إذا كان فيه انحراف واعتدال لم يكن مستقيماً، ويُبطئ الوصول إلى الغاية. كذلك إذا كان مختلفاً نزولاً وارتفاعاً، فإنه ليس بمستقيم؛ لأنه تطول المسافة، ويحصل مشقة عند الارتفاع وعند النزول.

**** وفيه: أن دين الله عز وجل دين مستقيم؛ لقوله: {إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} والمراد به صراط الله، وهو مستقيم في كل شيء، إن نظرت إلى الحقوق وجدته مستقيماً فيها ليس فيه جور، فله علينا حقوق، ولأنفسنا علينا حقوق، ولأهلنا علينا حقوق، ولزائرنا علينا حقوق، ولكل أحد حق على الآخر، كما قال سلمان لأبي الدرداء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ" فَاتَى أَبُو الدَّرْدَاءِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (صَدَقَ سَلْمَانُ) [البخاري]**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } صدر سبحانه الكلام بهذا الموصول الذي كانت الصلة فيه الإيمان، للإشارة إلى أن المطلوب من مقتضيات الإيمان ومن نتائجه، وهو غاية الغايات فيه، والثمرة الدانية له.

{ اتَّقُوا اللَّهَ } وما أكثر ما أمر الله تعالى بالتقوى في كتابه في آيات كثيرة، بل جعلها الله وصية لجميع الخلق: **{ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ }** [النساء: ١٣١]

والوقاية اتخاذ الإنسان ما يقيه الذي يضره. ولهذا أجمع تفسير للتقوى أن يقال: التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال ابن عاشور: وهذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية. وحاصل التقوى امتثال الأمر، واجتناب المنهي عنه، في الأعمال الظاهرة، والنوايا الباطنة. وحق التقوى هو أن لا يكون فيها تقصير، وتظاهر بما ليس من عمله.

{ حَقُّ تَقَاتِهِ } اتقوا الله تعالى «واجب تقواه» أي اتقوا الله تعالى بالقدر الذي يجب أن يتقى به، وهو الحق الثابت المستقر الذي ينبغي أن يستمر ولا ينقطع.

أو اتقوا الله بقدر ما تستطيعون وابدلوا كل الجهد في تحقيق لك.

ومثل هذا قولنا -ولكلام الله المثل الأعلى-: أكرم فلانا حق الإكرام، أو أدب ولدك حق التأديب.

وإضافة تقاة إلى الله تعالى في قوله تعالى: {حَقُّ تَقَاتِهِ} تفيد علو الواجب المطلوب له سبحانه وتعالى من التقوى، فالمطلوب هو التقوى الواجبة التي تليق بذي الجلال والإكرام الواحد القهار، والمالك لكل شيء، القاهر فوق عباده، الغالب على كل أمر.. وهو استفراغ الوُسْع في القيام بالواجبات واجتناب المحرمات.

عن عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر".
وروي عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: "لا يتقي العبد الله حق تقاته حتى يخزن من لسانه".

وقد ذهب سعيد بن جُبَيْر، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم، والسُّدِّي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] لأن حق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى طرفة عين، وأن

يُشْكِرُ فلا يُكْفِرُ، وأن يذكر فلا ينسى - والعباد لا طاقة لهم بذلك. فنسخت أول هذه الآية، ولم ينسخ آخرها، وهو قوله: **{وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}**.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: **{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** قال: "لم تُنسخ، ولكن **{حَقَّ تُقَاتِهِ}** أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم".

والمقصود بقدر الطاقة والوسع. وإذا كان كذلك صار معنى هذه الآية ومعنى قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** واحداً؛ لأن من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته؛ ولأن حق تقاته ما استطاع من التقوى؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، والوسع دون الطاقة، ونظير هذه الآية قوله: **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}** [الحج: ٧٨].

فالحق أن قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** بيان لا نسخ، كما حقه المحققون، ولكن شاع عند المتقدمين إطلاق النسخ على ما يشمل البيان.

فإن قيل: أليس قد قال تعالى: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}** [الأنعام: ٩١]؟

فالجواب: أن هذه الآية وردت في ثلاثة مواضع في القرآن، وكلها في صفة الكفار، لا في صفة المسلمين.

وأما الذين قالوا: إن المراد هو "أن يُطاع فلا يُعصى" فهذا صحيح، والذي يصدر عن الإنسان كان سهواً، أو نسياناً فغير قاذح فيه؛ لأن التكليف مرفوع عنه في هذه الأحوال، وكذلك قوله: "أن يشكر فلا يكفر"؛ لأن ذلك واجب عليه عند حضور نعم الله بالبال، فأما عند السهو فلا يجب، وكذلك قوله: "أن يذكر فلا ينسى"، فإن ذلك واجب عند الدعاء والعبادة، وكل ذلك مما يطاق، فلا وجه للقول بالنسخ.

ولدينا قاعدة مهمة جداً توجب أن لا يتسرع الإنسان في دعوى النسخ؛ لأن دعوى النسخ ليست دعوى بسيطة، فإن النسخ يتضمن «إبطال حكم من الأحكام الشرعية»، وإبطال الحكم من الأحكام الشرعية ليس بالأمر السهل؛ وإن كان بعض الناس وبعض العلماء يتساهل، وإذا عجز أن يوفق بين النصوص، أو يرجح ادعى النسخ. وهذا غلط.

فما دام النص من القرآن أو السنة يمكن أن يحمل على وجه صحيح لا يعارض النصوص الأخرى، فهذا هو الواجب؛ لأننا إذا سلكنا هذا المسلك عملنا بكل النصوص. أما إذا قلنا: إن

أحدهما منسوخ فإننا نلغي نصا جاء به الوحي. وهذا ليس بالأمر الهين.

{وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} النهي ليس منصبا على الموت، وإنه بضم النهي إلى الاستثناء يكون المطلوب أمرا إيجابيا، وهو ما بعد أداة الاستثناء، فيكون المعنى الإجمالي: كونوا على حال الإسلام المستمرة إلى الموت.

إنه نَهْيٌ في الصورة عن موتهم إلا على هذه الحالة، والمراد: دوامهم على الإسلام؛ وذلك أن الموت لا بدّ منه، فكأنه قال: «دوموا على الإسلام حتى الموت». فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعيّذاً بالله من خلاف ذلك.

والنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة، ولو كان المراد به معناه الأصلي لكان ترخيصا في مفارقة الإسلام إلا عند حضور الموت، وهو معنى فاسد.

وتوجيهُ النهي إلى الموت للمبالغة في النهي، فإن قولك: "لا تُصلِّ إلا وأنت خاشعٌ" يفيد في المبالغة في إيجاب الخشوع في الصلاة ما لا يفيدُه قولك: "لا تترك الخشوع في الصلاة"، ومفيدٌ

لكون الخشوع هو العمدة في الصلاة وأن الصلاة بدونه حُقُّها أن لا تُفعل، وفيه نوعٌ تحذيرٍ عما وراء الموت.

عن مجاهد أنَّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس جالس معه مَخَجَن، فقال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لِأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُّومُ}. [أحمد والترمذي وقال حسن صحيح]

وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَخَّرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْيُذِرْكَهُ مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ). [إسناده صحيح على شرط مسلم]

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)

وروى أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: (أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنَّ ظَنِّي بِي خَيْرٌ فَلَهُ، وَإِنْ ظَنُّ شَرًّا فَلَهُ) [حديث صحيح]

وروى الترمذي عن أنس -رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: (كَيْفَ تَجِدُكَ؟)، قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ) [حسنه الألباني]

ومعنى الإسلام هو الإخلاص لله سبحانه وتعالى وحده، والإذعان له تبارك وتعالى، وألا يستمعوا إلا إليه، وأن يصموا أذانهم عن كل دعوة تخالف ما يأمر به وما ينهى عنه؛ فذلك هو الإسلام المطلوب ممن تشرفوا بذلك النعت الكريم.

وفي آيات كثيرة الدعاء بأن يموت الإنسان مسلماً: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: ١٢٦]، {أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

لكن جاء في السنة أن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقول في الدعاء للميت: (اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ) [أحمد والترمذي] ، ففرق بين حال الحياة وحال الموت.

والجواب: إنما غاير النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بينهما لأن صلاح الأمة على سبيل العموم بالإسلام؛ إذا حيت الأمة مسلمة انتظم أمرها؛ لأن الإسلام معناه الاستسلام، ولم يكن فيها ما يوجب العناد والاستكبار. ولما قال: (أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ)، قال: (وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ)، لأن المدار عند الموت على ما في القلب. لكن في هذه الآية وكذلك في الآيات الأخرى التي أشرنا إليها لم يذكر الإيمان معها فيكون الإسلام هنا شاملاً للإيمان.

{وَأَعْتَصِمُوا} العصمة: المنعة، ومعنى اعتصموا: اجعلوا أنفسكم في عصمة ومنعة عن الزلل **{بِحَبْلِ اللَّهِ}** الحبل " في أصل معناه اللغوي «السبب» الذي يوصل إلى الغاية، وله بعد هذا المعنى الأصلي اللغوي معان أخرى مشتركة، فيطلق على الرسن [الحبل، ورسن الفرس، إذا شدّه]، والحبل وهو ما يشد

به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق، أو نحوه، كما يطلق على العهد.

والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفاتهم على دين الله ووصاياه وعهوده بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقى إليهم منقذ لهم من غرق أو سقوط.

أو المعنى اعتصموا بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقُّوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ}** [آل عمران: ١١٢] أي بعهد وذمة. ومن كلام الأنصار رضي الله عنهم: "يا رسول الله، إنّ بيننا وبين القوم حبلاً ونحن قاطعوها" - يعنون العهود والحلف.

قيل: والسبب فيه أن الرجل كان إذا سافر خاف، فيأخذ من القبيلة عهداً إلى الأخرى، ويُعطى سَهْماً وَحَبْلاً، ويكون معه كالعلامة، فسُمِّيَ العهدُ حَبْلاً لذلك.

وقيل: **{بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ}** يعني: القرآن، كما في حديث الحارث الأعور، عن عليّ مرفوعاً في صفة القرآن: "هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ".

وتحقيقه: أن النازل في البئر لما كان يعتصم بالحبل، تحرّزاً من السقوط فيها، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته، وموافقة

جماعة المؤمنين حِزّاً لصاحبه من السقوط في جهنم - جعل ذلك حبلاً لله، وأمروا بالاعتصام به.

{جَمِيعاً} تأكيد.. أي مجتمعين في الاعتصام. على القول الأول أي: كونوا جميعاً مستمسكين بحبل الله، ولا يصح أن ينفصل منكم طائفة لا تأخذ بذلك الحبل؛ لأن الشيطان ينفذ إليكم عن طريق هذه الطائفة التي شذت وعصت أمر ربها.

وعلى القول الثاني: خذوا بالقرآن كله، ولا تجعلوه عضينا تؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه، أو خذوا بشريعته كلها ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء، فإنها كل لا يقبل التجزئة.

{وَلَا تَفَرَّقُوا} تأكيد أيضاً.. أي لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً أو لا تُحدِثوا ما يوجب التفرق ويُزيل الألفة التي أنتم عليها.

وقيل: أي لا تتفرقوا في أنفسكم، فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا تتنادوا بنداء الجاهلية، ولا تتفرقوا في دينكم، فتذهبوا في فهمه شيعاً وفرقاً مختلفة، فتضلوا عن سبيل الله، ولا شيء يذهب بنور الحق المبين أكثر من اختلاف الأنظار في فهمه وإدراكه، والنظر إليه بروح التعصب الذي يغفل عن الاتجاه إلى

الحق في كل جوانبه، ولذلك جاء النهي عن التفرق في الدين،
فقد قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ
فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}
[الأنعام: ١٥٩]

** وفيه وأن الشيء قد يؤكد بنفي ضده كما في قوله تعالى:
{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١٤٠]
وفي الآية دليل على أن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده.
وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر
بالاجتماع والاتلاف كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (إِنَّ
اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ
وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا،
وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ،
وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ).

وروى الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي
مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ

مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفَتَّرَقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) [حسنه الألباني]

فَضُمِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ مِنَ الْخَطَا عِنْدَ اتِّفَاقِهِمْ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ أَيْضًا، وَخِيفَ عَلَيْهِمُ الْإِفْتِرَاقُ وَالْإِخْتِلَافُ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَافْتَرَقُوا عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَمُسْلِمَةٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ.

قال القرطبي: وليس في الآية دليل على تحريم الاختلاف في الفروع؛ فإن ذلك ليس اختلافًا؛ إذ الاختلاف يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد، فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابة مختلفين في أحكام الحوادث، وهم -مع ذلك- متآلفون وإنما منع الله الاختلاف الذي هو سبب الفساد، قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (تَفَرَّقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ

فِرْقَةً -أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً- وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ
أُمَّتِي ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً).

{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} هي نعمة الهداية والتأليف
القلبي، وهو أعظم النعم على الجماعات والأمم. وفي ذلك
تحريض على إجابة أمره تعالى إياهم بالاتفاق.

**** وفيه: وجوب تذكر نعمة الله، وهذه مسألة مهمة؛ لأن**
الغفلة عن تذكر النعمة يستلزم الغفلة عن الشكر، والشكر
واجب. قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}
[البقرة: ١٥٢] فالغفلة عن تذكر النعمة موجب أو مستلزم للغفلة
عن الشكر.

والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواظب الرسل. قال
تعالى حكاية عن هود **{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ**
نُوحٍ} [الأعراف: ٦٩] وقال عن شعيب **{وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا**
فَكَثَرْتُكُمْ} [الأعراف: ٨٦] وقال الله لموسى: **{وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ**
اللَّهِ} [إبراهيم: ٥]

{إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً} كما كان في الجاهلية بينكم من الإحن
والعداوات والحروب المتواصلة، فيذكر أن الأوس والخزرج كانا

أَخَوَيْنَ لِأَبٍ وَأُمٍّ فَوَقَعَتْ بَيْنَ أَوْلَادِهِمَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ وَتَطَاوَلَتِ الْحُرُوبُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً.

{فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} ولم يقل: "بينكم"؛ لأن الائتلاف في القلوب. وهذا هو الذي عليه المدار، ليس المدار الائتلاف بالأجسام. كم من أمة ائتلفت بأجسامها ولكن قلوبها متفرقة، كما قال الله تعالى عن اليهود: **{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}** [الحشر: ١٤] فلا فائدة من اجتماع الأبدان مع تفرق القلوب.

ومن الذي يستطيع أن يؤلف بين قلوب الناس إلا الله عز وجل، فلا أحد يستطيع أبداً سواه. يقول الله تعالى لنبه محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **{لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}** [الأنفال: ٦٣]

ولقد حاول حکماؤهم وأولو الرأي منهم التآليف بينهم، وإصلاح ذات بينهم، بأفانين الدعاية من خطابة وجاه وشعر فلم يصلوا إلى ما ابتغوا حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام فصاروا بذلك التآليف بمنزلة الأخوان.

**** وفيه: تحريم التفرق في القلوب، لأن المدار على التفرق في القلوب، أما التفرق في الأبدان فضروري أن يتفرق الناس، وفي الأقوال أيضاً يتفرقون، وما أكثر الخلاف بين أهل العلم**

قديماً وحديثاً في المسائل العلمية، لكن الذي يجب على المسلمين أن يبعدوا عنه، هو التفرق بينهم في القلوب لأنه هو الذي عليه المدار، ولهذا قال الرسول -عليه الصلاة والسلام-: (اسْتَوْوَا وَلَا تَخْتَلَفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ) [مسلم] فالمدار على القلوب.

ففي هذه الآية دليل على تحريم التفرق في القلوب حتى لو تفرقت الأبدان أو تفرقت الأقوال، فالواجب أن القلوب لا تتفرق، وكان اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد المؤدي إلى التفرق في الأقوال لكن القلوب واحدة، لا يكره بعضهم بعضاً إذا خالفه في الرأي.

{فَأَصْبَحْتُمْ} أصل الإصباح الدخول في الصباح الذي هو أول النهار. لكنه يطلق أحياناً مجرداً من الزمان ويراد به «الصيرورة»، أي صرتم إخواناً.

قال ابن عطية: {فَأَصْبَحْتُمْ} عبارة عن الاستمرار -وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت- وإنما خُصَّت هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث مبدأ النهار، وفيه مبدأ الأعمال، فالحال التي يحبها المرء من نفسه فيها هي التي يستمر عليها يومه في الأغلب.

{بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} والتآلف معنى نفسي، والأخوة مظهر اجتماعي عملي.. وهي ليست أخوة النسب إنما المراد أخوة الدين والصداقة. قال الزجاج: أصل الأخ في اللغة من التوخي وهو الطلب؛ فإن الأخ مقصده مقصد أخيه، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين ما في قلبه، ولا يُخْفِي عنه شيئاً.

ولم يبين هنا ما بلغته معاداتهم من الشدة، ولكنه بين في موضع آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمراً عظيماً حتى لو أنفق ما في الأرض كله؛ لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يقد ذلك شيئاً، وذلك في قوله: **{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقد امتن الله عليهم بتغيير أحوالهم من أشنع حالة إلى أحسنها: فحالة كانوا عليها هي حالة العداوة والتفاني والتقاتل، وحالة أصبحوا عليها وهي حالة الأخوة، ولا يدرك الفرق بين الحالين إلا من كانوا في السوأى فأصبحوا في الحسنى، والناس إذا كانوا في حالة بؤس وضنك واعتادوها صار الشقاء دأبهم،

وذلت له نفوسهم فلم يشعروا بما هم فيه، ولا يتفطنوا لوخيم عواقبه، حتى إذا هبى لهم الصلاح، وأخذ يتطرق إليهم استفاقوا من شقوتهم، وعلموا سوء حالتهم، ولأجل هذا المعنى جمعت لهم هذه الآية في الامتنان بين ذكر الحالتين وما بينهما فقال: **{إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}**.

والخطاب عام لكل المؤمنين في كل الأجيال وكل الأعصار، ويدخل في عمومه كل الأجناس وكل الشعوب، فالدعوة إلى التذكر دعوة عامة، وهي تذكر لماضي الانقسام، ثم من بعد الاتفاق والوئام، والطريق إلى الوحدة، ولكن إذا كان التذكير عاما، فإن الاختلاف الذي أشار إليه النص الكريم كان خاصا بطائفة من المؤمنين، وهم الذين عاصروا النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المهاجرين والأنصار، فالأنصار أكلتهم الحرب التي قامت بين الأوس والخزرج حتى أتم الله عليهم نعمة الهداية، والعرب جميعا كانوا في تنابد وتنافر حتى كادت بعض قبائلهم تفنيها الحروب التي لا تبقي ولا تذر.

ولماذا اعتبر الاختلاف السابق الخاص كأنه اختلاف عام، وخطب به المؤمنون جميعا؟ والجواب عن ذلك أن هذا للدلالة على وحدة الأمة، فما كان من ماضيها يخاطب به حاضرها

للاعتبار والاتعاظ، ولأن سبب الاختلاف في كل نفس لا يقي منه إلا الهداية، فما وقع من الماضين يتوقع أن يقع من الحاضرين، لأن الإنسان ابن الإنسان، ولأن الخلاص طريقه واحد، فما خلص به الماضون يخلص به الحاضرون، إن اعتزموا سلوك ما سلكه الذين من قبلهم.

{وَكُنْتُمْ} قبل الإسلام **{عَلَى شَفَا}** شفا الحفرة وشفّتها: حَرَفَهَا **{حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ}** واختيار النار مشبه بها هنا لأن النار أشد المهلكات إهلاكاً وأسرعها، وهذا هو المناسب في حمل الآية ليكون الامتنان بنعمتين محسوستين هما: نعمة الأخوة بعد العداوة، ونعمة السلامة بعد الخطر.

وقال جمهور المفسرين: أراد نار جهنم؛ ويكون الامتنان على هذا امتناناً عليهم بالإيمان بعد الكفر لأنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام والأوثان، فهم على شفا حفرة، لو ماتوا على تلك الحال لسقطوا في الحفرة. لكن قبل أن يسقطوا في الحفرة أنقذهم الله بالإسلام، والله الحمد والمنة.

فبين الله عز وجل هنا حالهم الاجتماعية، وحالهم الدينية، حالهم الاجتماعية كانوا أعداء مختلفين متفرقين، فألف بين قلوبهم. وحالهم الدينية أنهم على شفا حفرة من النار، لم يبق

عليهم أن يتساقطوا في النار إلا أن يموتوا على الكفر، ولكن الله تعالى أنقذهم بنعمته بهذا الدين.

{فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} والإنقاذ: التخليص والتنجية.

وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحْنٌ وذُخُولٌ طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى. وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أَنْ هَدَاهُمْ للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم قَسَمَ غنائم حُنَيْنٍ، فَعَتَبَ من عتب منهم لَمَّا فَضَّلَ عليهم في الْقِسْمَةِ بما أراه الله، فخطبهم فقال: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي؟) كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أَمَنَ.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ} أي دلائله **{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}**

نعمة أخرى.. وهي نعمة التعليم والإرشاد، وإيضاح الحقائق حتى

تكمل عقولهم، ويتبينوا ما فيه صلاحهم. والبيان هنا بمعنى الإظهار والإيضاح.

والآيات يجوز أن يكون المراد بها النعم، ويجوز أن يراد بها دلائل عنايته تعالى بهم وتثقيف عقولهم وقلوبهم بأنوار المعارف الإلهية. وأن يراد بها آيات القرآن فإنها غاية في الإفصاح عن المقاصد وإبلاغ المعاني إلى الأذهان.

والمعنى: يبين الله لكم تبييناً مثل تبيينه لكم الآيات الواضحة، لكي تهتدوا بها.

أي كهذا البيان الذي بينه الله سبحانه وتعالى لكم في محكم القرآن، وبين لكم به سبيل هدايتكم، وبين لكم به نعمة هدايتكم ونعمة أخوتكم، يبين سبحانه وتعالى دائماً الآيات البينات سواء كانت تلك الآيات قرآنية أم كانت كونية، وذلك لتقربوا دائماً من الهداية، ولتكون بين أيديكم أسبابها، لعلكم تنالون الثمرة وهي الاهتداء الدائم، والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل.

**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا**

تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

{وَلْتَكُنْ} اللام لام الأمر، لما أظهر لهم نعمة نقلهم من
حالي شقاء وشناعة إلى حالي نعيم وكمال، كانوا أحرىء بأن
يسعوا بكل عزمهم إلى انتشال غيرهم من سوء ما هم فيه إلى
حسنى ما هم عليه حتى يكون الناس أمة واحدة خيرة.

ولذلك كان هذا الكلام حريا بأن يعطف بالفاء، ولو عطف
بها لكان أسلوبا عربيا إلا أنه عدل عن العطف بالفاء تنبيها على
أن مضمون هذا الكلام مقصود لذاته بحيث لو لم يسبقه الكلام
السابق لكان هو حريا بأن يؤمر به فلا يكون مذكورا لأجل التفرع
عن غيره والتبع.

وصيغة {وَلْتَكُنْ} صيغة وجوب وهي أصرح في الأمر من
صيغة «افعلوا» لأنها أصلها. فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر غير معلوم بينهم من قبل نزول هذه الآية، فالأمر
لتشريع الوجوب، وإذا كان ذلك حاصلًا بينهم من قبل كما يدل
عليه قوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١١٠] فالأمر لتأكيد ما كانوا
يفعلونه ووجوبه، وفيه زيادة الأمر بالدعوة إلى الخير، وقد كان

الوجوب مقررا من قبل بآيات أخرى مثل: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣]، أو بأوامر نبوية. فالأمر لتأكيد الوجوب أيضا للدلالة على الدوام والثبات عليه، مثل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ} [النساء: ١٣٦].

{مِّنْكُمْ} «مِنْ» قيل: إنها بيانية أي بيان الجنس، وقيل: إنها تبعيضية، وهي تحتملها معا.

فعلى أنها بيانية يكون المعنى: ولتكونوا أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، أي أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون التخريج اللفظي لقوله تعالى -تقدس كلماته-: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} مثل قول القائل: ليكن منك رجل خير، أو ليكن منك رجل جهاد، أي ليكن منك رجل خير ورجل جهاد.

فالمعنى أن يكونوا هم الأمة، أي: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإذا كان ذلك الواجب على الأمة كلها، فهو متفاوت بتفاوت مقدار ما أوتيته كل واحد من العلم والقوة، فعلى أولياء الأمر أن يرتبوا أمر الدعوة الإسلامية، وبيان الحقائق، ووضع النظم الزاجرة المانعة من الشر، أن يتفاهم أمره، ويشتد سيله، ويكون على العلماء واجب

بيان الشرع في دروس عامة وخاصة، وبيان الحق في كل أمر يجدّ في شئون الناس، وبيان طرق الدعوة إلى سبيل الله، ويكون على العامة كل في محيط وجوده وبمقدار طاقته أن يرشد وأن ينصح، فمن رأى رجلاً يرفث في القول، أو يجرح كرامات الناس، أرشده ونهاه، ومن رأى رجلاً يفطر في رمضان وعظه وهداه، ومن رأى رجلاً لا يصلي حثه على الصلاة، على أن يكون ذلك برقيق القول، لا بالجفوة والعنف، فإن الجفوة لا تجدي بل تبعد، والمودة تجدي وتقرب، وبهذا تكون الأمة كلها تتواصى بالحق، وتتواصى بالصبر والهداية.

وأما القول على أن «مِنْ» تبعية، فيكون المعنى: ليكن بعض منكم أمة - أي طائفة - تؤم وتقصد وتكون مجابة الدعوة، إذ تدعو إلى الخير من كل ما هو نافع في ذاته، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقي، ولو أخل بها الكل أثموا جميعاً لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما يُنبىء عنه قوله عز وجل: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ

لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢] ، ولأنها من عظام الأمور وعزائمها التي
لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية
إقامتها، فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن
معروف، ويغلط في مقام اللين ويُلين في مقام الغلظة، وينكر على
من لا يزيده الإنكار إلا التماذي والإصرار.

وعلى ذلك يكون في الآية الكريمة طلبان: أحدهما موجه إلى
الأمة كلها، وهو إعداد هذه الطائفة التي تقوم بالإرشاد العام
والتوجيه الفكري والنفسي، وتزويدها بكل ما يمكنها من أداء
مهمتها، والقيام بالواجب عليها على الوجه الأكمل، وثاني
الواجبين هو واجب هذه الطائفة التي تكونت، والوجوب عليها
أخص من الوجوب الأول، وكذلك الشأن في كل الفروض
الكفائية، فيها وجوبان: وجوب خاص على من عندهم الأهلية
الخاصة للواجب الكفائي، ووجوب عام على الأمة كلها، وهو
تمكين هؤلاء الخاصة من القيام بواجبهم وتزويدهم بما يحتاجون
إليه.

وقد رجح الزمخشري أن تكون «مَنْ» تبعيضية، وقال في
ذلك: "«مَنْ» للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته، وكيف يباشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف، وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه، وجهله في مذهب صاحبه، فنهاه عن غير منكر، وقد يغلط في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار إليه عبث، كالإنكار على الجلادين وأضرابهم".

قال الرازي: في قوله {مَنْكُم} قولان أحدهما: أن {مِنْ} ههنا ليست للتبويض لدليلين الأول: أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١١٠]

والثاني: هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس إذا ثبت هذا فنقول: معنى هذه الآية: كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما كلمة {مِنْ} فهي هنا للتبيين لا للتبويض كقوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [الحج: ٣٠] ويقال أيضاً:

لفلان من أولاده جند وللأمير من غلمانہ عسكر يريد بذلك جميع أولاده وغلمانہ لا بعضهم، كذا ههنا، ثم قالوا: إن ذلك وإن كان واجباً على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقيين، ونظيره قوله تعالى: {انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا} [التوبة: ٤١] وقوله: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [التوبة: ٣٩] فالأمر عام، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقيين.

والقول الثاني: أن {مِنْ} ههنا للتبعض، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضاً على قولين أحدهما: أن فائدة كلمة {مِنْ} هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين.

والثاني: أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان: الأول: أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فإن الجاهل ربما عاد إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلط في موضع اللين ويلين

في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً،
فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء، ولا شك أنهم بعض
الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ
طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} [التوبة: ١٢٢]

والثاني: أنا جمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية
بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقيين، وإذا كان كذلك
كان المعنى ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة هذا إيجاباً
على البعض لا على الكل، والله أعلم.

وفيه قول رابع: وهو قول الضحاك: إن المراد من هذه الآية
أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأنهم كانوا يتعلمون
من الرسول عليه السلام ويعلمون الناس، والتأويل على هذا الوجه
كونوا أمة مجتمعين على حفظ سنن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وتعلم الدين.

{أُمَّةٌ} الأمة هي الجماعة التي يؤمُّها فِرْقُ الناسِ أي
يقصدونها ويقتدون بها، وقيل بل أصل الأمة من كلام العرب:
الطائفة من الناس التي تؤم قصداً واحداً: من نسب أو موطن أو
دين، أو مجموع ذلك، ويتعين ما يجمعها بالإضافة أو الوصف
كقولهم: أمة العرب وأمة غسان وأمة النصارى.

والأمة في القرآن الكريم وردت على معان متعددة، منها الطائفة، ومنها الملة والشريعة، ومنها الإمامة، ومنها الزمن والسنين.

فمثالها في الطائفة أو الجماعة هذه الآية {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}، وقوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨] {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩] {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٨١] ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقاً، وإنما هي بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع يعتبرون بها واحداً.

ومثالها في الملة [أي: العقائد وأصول الشرائع] قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٢]، أي على ملة، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: ٥١-٥٢] أي أن جميع الأنبياء ورسول الله على ملة واحدة ودين واحد.

ومثالها في الإمامة: قوله جل ذكره: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا
لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٠] أي إماما
يقتدى به.

ومثالها في الزمن والسنين: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ
بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} [يوسف: ٤٥]، وقوله {وَلَئِنْ
أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ}
[هود: ٨] أي بعد زمن أو بعد فترة.

{يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} كل إنسان تتوجه الدعوة إليه فليدعوه،
ولهذا كان المفعول محذوفاً من أجل العموم، والخير كل ما جاء
به الشرع فهو خير، ويشمل ما كان خيراً في الدين وما كان خيراً
في الدنيا، قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}
[الزلزلة: ٧]

{وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} المعروف كل ما عرفه الشرع وأقره من
العبادات والمأمور بها فعلاً. وقيل: هو ما يعرف، وهو مجاز في
المقبول المرضي به، لأن الشيء إذا كان معروفاً كان مألوفاً
مقبولاً مرضياً به، وأريد به هنا: ما يقبل عند أهل العقول، وفي
الشرائع، وهو الحق والصلاح، لأن ذلك مقبول عند انتفاء
العوارض.

{وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} المنكر ما أنكره الشرع من الأعمال والأخلاق. وقيل: المنكر مجاز في المكروه، والكروه لازم للإنكار لأن المنكر في أصل اللسان هو الجهل ومنه تسمية غير المألوف نكرة، وأريد به هنا الباطل والفساد، لأنهما من المكروه في الجبلّة عند انتفاء العوارض.

ولام التعريف في: الخير، والمعروف، والمنكر.. تعريف الاستغراق، فيفيد العموم في المعاملات بحسب ما ينتهي إليه العلم والمقدرة فيشبه الاستغراق العرفي.

وجعل الأمر بالمعروف بعد الدعوة إلى الخير؛ لأن الدعوة سابقة على الأمر، فأنت تدعو أولاً ثم تأمر ثانياً ثم تغير ثالثاً، وهذا يلتبس على كثير من الدعاة، يظنون أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر شيء واحد، والأمر ليس كذلك، فالدعوة إلى الخير عامة.. الخطيب إذا خطب الناس في الجمعة وأمر ونهى يقال: داع إلى الخير، الرجل إذا قال: يا أخي صل، اتق الله يا أخي لا تغش الناس، اتق الله، فهذا أمر بمعروف ونهي عن منكر. ولي الأمر إذا رأى آلة عزف وكسرها هذا تغيير منكر، ولكل درجات.

فبعد أن أمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله تعالى؛
والاستمسك بالقرآن الكريم، والالتفاف حوله، وعدم التفرق
والانقسام - بين سبحانه وتعالى السبيل لهذا الاعتصام، والطريق
للوحدة الفاضلة، التي لا تفرق فيها، ولا اختلاف يفك عراها،
ويهدم بنيانها، وذلك السبيل هو الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر

قال أبو السعود: أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده إثر
أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهي تشبيهاً
للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبتها
ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن
الإخلال بها.

والدعاء إلى الخير عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني
أو دنيوي، فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه بقوله
تعالى: {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} مع اندراجهما
فيه من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلهما وشرفهما
وعلوّهما على سائر الخيرات، كعطف جبريل وميكال على
الملائكة عليهم السلام.

والمعروف هو الأمر الذي تعارفته العقول ولم تختلف فيه
الأفهام؛ وهو الذي يكون متفقا مع الفطرة الإنسانية التي لا
تختلف في الناس، والمنكر هو ما تضافرت العقول الإنسانية
على إنكاره وقبحه، وهو مناقض للفطرة الإنسانية. وإن العقول
من بدء الخليقة تضافرت على أمور أقرتها، وعلى أخرى أنكرتها،
فلم تختلف العقول في مدح الصدق والعدل والحياء والعفة، ولم
تختلف العقول في استنكار الظلم والكذب والفجور والاعتداء
بكل ضروبه، ومهما يحاول الذين يريدون حل المجتمعات
الفاضلة وهدم بنيانها، من إنكار لتلك الحقائق، وادعاء أنها
ليست مقومات الإنسانية، وأنها اتفاقات زمنية، وأوهام سيطرت
على العقول - فلن يصلوا إلى غاياتهم، وإن ادعوا أن ما يقولونه
هو طبيعة الوجود، ولذا سمو أنفسهم وجوديين، وذلك لأن
كلامهم ضد طبائع النفوس، وضد السمو الإنساني عن الطبيعة
الحيوانية، وضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإن الأعرابي
الذي سئل: لماذا آمنت بمحمد؛ فقال: ما رأيت محمدا يقول
في أمر: افعل، والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدا يقول في
أمر: لا تفعل، والعقل يقول افعل - أكبر إدراكا من هؤلاء
المتفلسفة، وأكثر اتصالا بطبائع الوجود الإنساني منهم، وهم في

حقيقة أمرهم وتفكيرهم أكثر اتصالاً بالطبائع البهيمية منهم بالطبائع الإنسانية. خاصة وأن كل الاتجاهات الوجودية أسقطت العقل وإنتاجه الفكري واعتباره النسخة المزيفة للإنسان. والأمة التي تُقصد وتكون من صفوة الأمة لها عمالان متمايزان بنص الآية؛ أحدهما: الدعوة إلى الخير، وثانيهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما الأول فهو توجيه الأمة إلى النفع العام، فالخير هو كل أمر نافع في الدنيا أو في الآخرة، كتنظيم الاقتصاد، وترتيب العمران، وتنظيم حقوق الفقراء، وربط العلاقة بين الأغنياء والفقراء بوثائق من الدين والنصوص المحكمة التي لا تقبل التخلف، وإنشاء المساجد ودور التعلم وتوجيهها لتوجيه السليم، فكل هذا دعوة إلى الخير، وبعبارة عامة شاملة الدعوة إلى الخير تشتمل على كل ما يقوم عليه بناء الاجتماع من الناحية المادية والأدبية.

أما الثاني وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمراد به نشر الفكر الإسلامي، وبيان الحقائق الدينية، وتوجيه النفوس إليها وجذبهم نحوها، ودفع كل ما ليس بإسلامي، وإقامة الحق والعدل، وهو مقام سام لا يصل إليه إلا ذوو الهمة والتقى من

الرجال، وهو شاق إن أدي على وجهه، بحيث يرشد الحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، لا يخشى في الله لومة لائم، لا يحجم إذا كان المنكر من قوي ظالم، ويغلظ ويعنف إن كان المنكر ممن لا يخشى بطشه ولا يرجى عطاؤه، ولا يتأول لتصرفات من يخاف شره ويطمع في خيره.

فإن كان، المرشد على ذلك النحو فقد سار في طريق النبين، ولقد قال أبو الدرداء: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما، لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وينتصرون فلا ينصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم".

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب، تعلو كل مرتبة عن الأخرى بمقدار ما يكون فيها من مشقة وتعرض للعت مع الجدوى والفائدة، ولذا كان أعلاه ما يوجه إلى الجائرين من الحكام والأمراء؛ فروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةً عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ). وبذلك اعتبر النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه المرتبة جهادا.

واعتبر من يقتل في سبيلها شهيدا، كمن يقتل في الحرب، بل اعتبره في أعلى درجات الشهداء، فعن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله). [الحاكم، وفي صحيح الجامع: حسن]

وإن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -وخصوصا للأمرء والحكام- هو الذي أضاع المسلمين في الماضي، وأضاع بني إسرائيل قبلهم، ففي سنن أبي داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسْقُونِ} ثُمَّ قَالَ: (كَأَلَا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرْنَهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا) وفي زيادة (أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم) [ضعيف]

ولما كان تعيين الكفاءة للقيام بهذا الفرض، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتوقفه على مراتب العلم بالمعروف والمنكر، ومراتب القدرة على التغيير، وإفهام الناس ذلك، رأى أئمة المسلمين تعيين ولاية للبحث عن المناكر وتعيين كيفية القيام بتغييرها، وسموا تلك الولاية بـ «الحسبة»، وقد أولى عمر بن الخطاب في هاته الولاية أم الشفاء، وأشهر من وليها في الدولة العباسية ابن عائشة، وكان رجلا صلبا في الحق، وتسمى هذه الولاية في المغرب: «ولاية السوق» وقد ولياها في قرطبة الإمام محمد بن خالد بن مرتيل القرطبي المعروف بالأشج من أصحاب ابن القاسم توفي سنة ٢٢٠. وكانت في الدولة الحفصية ولاية الحسبة من الولايات النبيهة وربما ضمت إلى القضاء كما كان الحال في تونس بعد الدولة الحفصية.

{وَأُولَئِكَ} فيه من معنى البُعد للإشعار بعلو طبقتهم وبُعد منزلتهم في الفضل.

{هُمُ} ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة، ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه.

{الْمُفْلِحُونَ} الناجون من الكربات، الحاصلون على المطلوبات، ففيه أمران: «سلامة، وكسب» ولهذا تعتبر كلمة

«الفلاح» من أجمع الكلمات، فالمفلح هو الفائز بمطلوبه
الناجي من مرهوبه.

والتعريف في {المفلحون} إما للعهد أو للإشارة إلى ما يعرفه
كلُّ أحدٍ من حقيقة المفلحين.

وهو تبشير عظيم، ووعد كريم لمن اتصف بما قبل هذه
الجملة.. أي أولئك الذين قاموا بهذا الواجب هم الأحقّاء بكمال
الفلاح، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب،
ففي النص قصر، أي نفي وإثبات، فهو يثبت الفلاح لهم، وينفي
الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس، فهو مناط
عزة الأمة ورفعتها وقوتها وتقدمها، ونشر العدل والحق والإيمان
في ربوعها.

والإشارة هنا إلى الأمة كلها سواء اعتبرنا (من) بمعنى بعض؛
أم اعتبرناها بيانية، وإذا كانت بيانية فالأمر ظاهر لا يحتاج إلى
بيان؛ لأن الأمة هي في جملتها الآمرة بالمعروف الناهية عن
المنكر الداعية إلى الخير، وأما على أن الأمة التي تدعو إلى
الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر هي طائفة معينة من
مجموع المؤمنين، فإن النتيجة من حيث الفوز والفلاح لا يعود
على الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر وحدهم، بل الفائدة

تعود عليهم أجمعين، إذ إن ضرر الترك يعود عليهم أجمعين، وإنه لا نجاة للأمة إلا إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ضرب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مثلاً لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوم يركبون سفينة، ووجدوا واحدا يخرق السفينة، فإن تركوه غرق وغرقوا معه، وإن أخذوا على يده نجا ونجوا معه.

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ فَقَالَ قَدْ تَرَكَ مَا هُنَالِكَ فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).

وروى مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا

لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ
وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ
وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ).

وروى أحمد عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ
بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ
عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ).

ثم بعد أن بيّن سبحانه وجوب الاعتصام بحبل الله، وأن
الاعتصام به مدعاة الوحدة والقوة والاجتماع على الحق، وبيّن
طريقه وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أخذ سبحانه
وتعالى يشير إلى نتائج التفرق ناهيا عنه محذرا منه، مبينا نتائج
في الدنيا والآخرة، وأول نتائج التفرق هي العمى عن الحق مع
وضوحه وقيام البيّنات عليه.

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} تفرقوا في أبدانهم ولم
يجتمعوا، وصاروا أحزاباً، واختلفوا في قلوبهم وفي مناهجهم،
فصار لكل حزب منهج معين يفرح به ولا يتزحزح عنه، ويرى أن
من سواه على ضلال.

وقدم الافتراق على الاختلاف للإيدان بأن الاختلاف علة التفرق وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام وذكر الأشياء مع مقارنتها، وفي عكسه قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ}** [البقرة: ٢٨٢].

وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف إذ تكثر النزعات والنزغات وتنشق الأمة بذلك انشقاقا شديدا.

{مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} البيّناتُ على قول ابن عباس: "آياتُ الله التي أنزلت على أهل كل ملة". وقيل: الدلائل التي فيها عصمة من الوقوع في الاختلاف لو قيضت لها أفهام.

فنهى سبحانه وتعالى بهذا عن التفرق بأبلغ تعبير، وألطف إشارة، فقد كان النهي عن أن يكونوا كمن سبقوهم في التفرق، وذلك نهى مع الدليل الموجب للنهي، والغاية التي ترتبت على النهي عنه، وذلك بالإشارة إلى ما كان ممن سبقوهم؛ إذ تفرقوا أحزابا وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون، فتفرق اليهود طوائف، وتفرق النصارى طوائف مثلهم، وكل طائفة تُكفّر الأخرى، أو ترميها بالزيغ والضلال، وقد ترتب على التفرق وتوزع أهوائهم ومنازعتهم أن اختلفوا في إدراك الكتاب مع وضوحه، ومع ما

جاءهم من البيانات الموضحة المبينة التي قامت مثبتة للحق، وهو واحد لا يتعدد، وإن ذلك فيه بيان نتيجة التفرق، وهو الاختلاف مع وجود الحق، وهو تأكيد لمضمون النهي؛ لأنه إذا كان التفرق مؤدياً إلى استبهام الحق أمام المختلفين مع وضوحه في ذاته، فإن الافتراق في ذاته أمر قبيح، وإن هذه الصيغة فوق ذلك فيها الاعتبار بمن سبقوا، ووضع صورة واقعية لنتائج الافتراق.

ولذا كان قوله تعالى: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا}** أكثر معاني من (ولا تتفرقوا) وهي في هذا المقام أبلغ وأبين، ولأن الآيات السابقة فيها كلام عن أحوال اليهود والنصارى، ومناقضتهم للحقائق الإسلامية، ومحاولتهم تضليل المسلمين عن الحق الصريح، فكان من المناسب أن يشار إلى حالهم، ونتائج تفرقهم، وإعراضهم عن الحق بعد إذ تبين لهم.

وقد يقول قائل: إن الاختلاف يؤدي إلى التفرق مع أن ظاهر الآية أن الافتراق هو الذي أدى إلى الاختلاف، ونقول في ذلك: إن الاختلاف الذي لا ينشأ عن التفرق ولا يؤدي إليه هو اختلاف تفكير، ولا بد أن يصل فيه المختلفون إلى الحق ولا يضلون، وأما الاختلاف الذي يؤدي إلى الافتراق، فهو بلا شك

يؤدي إلى الضلال، ويترتب عنه ضلال مع وجود بينات الحق؛ إذ التفرق معناه انحياز كل جماعة إلى ناحية وفرق معين، وكذلك التفرق السابق على الاختلاف، فإنه يكون نوعاً من تحكم الهوى، أو العصبية النسبية، أو العصبية الإقليمية، فيكون كل تفكير تحت سلطان هذه العصبية، فلا تستقيم الحقائق، ولا تدركها العقول، مع قيام البينات.

قال ابن عاشور: وفيه إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق، هو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضاً، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبينة على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد. ونحن إذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقاً نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول، دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة.

{وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} وهو بيان منه سبحانه لنتائج هذا الضلال في الآخرة. وهذا التهديد الشديد مقابل للنتيجة الحسنة التي تكون ثمرة التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهي

الثابتة بقوله تعالى: **{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**. فالافتراق نتيجته
خسران في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة.

روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ، قال:
حَجَجْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَامَ حِينَ صَلَّى
صَلَاةَ الظُّهْرِ، فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:
(إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ
هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ -،
كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ فِي أُمَّتِي
أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا
يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ) وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَئِنْ لَمْ
تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لَغَيْرُكُمْ مِنَ
النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ [إسناده حسن]

قال الرازي -عفا الله عنه- اعلم أنه تعالى في الآيات
المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين أحدهما: أنه عابهم على
الكفر، فقال: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ}** [آل
عمران: ٧٠] ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في
الكفر، فقال: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** [آل
عمران: ٩٩] فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولاً

بالتقوى والإيمان، فقال: {اتقوا الله حقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا} [آل عمران: ١٠٢-١٠٣] ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة، فقال: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل.

ثم قال.. هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء، أولها: الدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف، ثم النهي عن المنكر، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة، فنقول: أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات وإنما قلنا إن الدعوة إلى الخير تشتمل على ما ذكرنا لقوله تعالى: {ادْعِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ} [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨].

إذا عرفت هذا فنقول: الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعية مبالغة في البيان، وأما شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمذكورة في كتب الكلام.

يقول سيد قطب: فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته. فهناك «دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف. وهناك «نهي» عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر.. فتطاع.. والله يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [النساء: ٦٤] فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان. فهذا شرط. أما الشرط الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد

الجماعة الخيرة من أن يعث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعماً أن هذا هو الخير والمعروف والصواب!

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم. وفيهم الجبار الغاشم. وفيهم الحاكم المتسلط. وفيهم الهابط الذي يكره الصعود. وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهم المنحل الذي يكره الجد. وفيهم الظالم الذي يكره العدل. وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة.. وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر. ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً.. وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى.. وتطاع..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين: الإيمان بالله والأخوة في الله، لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة، وكلتاهما ضرورة من

ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به: **{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [البقرة: ٥]

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

{يَوْمَ} يعني به يوم القيامة، أي اذكروا يوم.

{تَبْيَضُّ وُجُوهٌ} نظير هذه الآية قوله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ}** [القيامة: ٢٢-٢٣] وقوله: **{وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ}** [يونس: ٢٦]

{وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} كقوله تعالى: **{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ}** [الزمر: ٦٠] وقوله: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ}** [القيامة: ٢٤-٢٥]

وفي تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه تهويل لأمره، وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة، والوجوه المسودة ترعيبا لفريق وترغيبا لفريق آخر. والأظهر أن علم السامعين بوقوع تبيض وجوه وتسويد وجوه في ذلك اليوم حاصل من قبل في الآيات النازلة قبل هذه الآية، مثل قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ} [الزمر: ٦٠] وقوله: {وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [عبس: ٣٨-٤١].

والجمهور على أن ابيضاض الوجوه واسودادها على حقيقة اللون. والبياض من النور، والسواد من الظلمة. قال الزمخشري: "فمن كان من أهل نور الدين وُسِمَ ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابتضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسِمَ بسواد اللون وكسوفه وكمدته واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب".

وأَسَدُ الْبَيْضِ وَالْأَسْوَدِ إِلَى الْوَجْهِ وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ
الْجَسَدِ أَبْيَضَ أَوْ أَسْوَدَ، لِأَنَّ الْوَجْهَ أَوَّلُ مَا يَلْقَاكَ مِنَ الشَّخْصِ
وَتَرَاهُ، وَهُوَ أَشْرَفُ أَعْضَائِهِ.

وَهَذَا الْبَيَاضُ يَكُونُ عَلَى قَسْمَيْنِ بَيَاضٍ عَامٍ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ،
وَبَيَاضٍ خَاصٍّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَتَخْتَصُّ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِأَنَّهَا يَكُونُ
لِابْيَاضِهَا نُورٌ تَعْرِفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
قَالَ: (إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةٍ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ
الْتَّلَجِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ وَلَا نَيْتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي
لَأُصِدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يُصِدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ) قَالُوا: يَا
رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: (نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ
الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ).. فَهَذِهِ الْأُمَّةُ
تَكُونُ وَجُوهُهَا بَيَاضًا وَلَكِنْ لَهَا نُورٌ بِخِلَافِ غَيْرِهَا، وَأَيْضًا هَذِهِ
الْأُمَّةُ يَكُونُ النُّورُ لَهَا حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ، أَيَّ يَكُونُ فِي الْيَدَيْنِ
وَفِي الرَّجْلَيْنِ.

قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود
وجوه أهل البدعة والفرقة.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي غالب قال: سَمِعْتُ أَبَا
أَمَامَةَ يُحَدِّثُ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي قَوْلِهِ عَزَّ
وَجَلَّ: "**{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}** [آل
عمران: ٧] قَالَ: هُمْ الْخَوَارِجُ، وَفِي قَوْلِهِ: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [آل عمران: ١٠٦] قَالَ: هُمْ الْخَوَارِجُ "

[في رفعه نكارة، لكنه ثابت موقوفاً عن أبي أمامة، فقد روي من
طريق حسن كذلك؛ وقال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" بعد ما أورد
هذا الحديث من طريق "المسند": وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون
موقوفاً من كلام الصحابي ومعناه صحيح؛ فإن أول بدعة وقعت في
الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول
الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- غنائم حُنَيْنٍ، فكأنهم رأوا في عقولهم
الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، ففاجئوه بهذه المقالة، فقال قائلهم
-وهو ذو الحُويصرة- بقر الله خاصرته -اعدل فإنك لم تعدل، فقال له
رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَقَدْ خَبْتُ وَخَسَرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ
أَعْدِلُ، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي". فلما قفا الرجل استأذن
عمر بن الخطاب -وفي رواية: خالد بن الوليد- ولا بُعْدَ فِي الْجَمْعِ -
رسول الله في قتله، فقال: "دَعُهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئٍ هَذَا -أي: من
جنسه- قَوْمٌ يَخْفِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ،

وقراءته مع قراءتهم، يَمْرُقُونَ من الدين كما يَمْرُقُ السهم من الرميّة،
فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم.

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب، وقتلهم بالنّهروان، ثم
تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة
منتشرة]

وروى الترمذي عن أبي غالب، قال: رأى أبو أُمّامة رُءوساً
منصوبةً على درج دِمَشْقَ، فقال أبو أُمّامة: «كِلَابُ النَّارِ شَرُّ
قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ»، ثُمَّ قرأ: {يَوْمَ
تَبْيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٦] إلى آخر الآية،
فُلْتُ لِأَبِي أُمّامة: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا
حَتَّى عَدَّ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ. قال الترمذي "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ،
وَأَبُو غَالِبٍ اسْمُهُ: حَزْرُورٌ، وَأَبُو أُمّامةَ الْبَاهِلِيُّ اسْمُهُ: صُدْيُّ بْنُ
عَجْلَانَ وَهُوَ سَيِّدُ بَاهِلَةَ "

قال القرطبي: "يعني يوم القيامة حين يعيشون من قبورهم تكون
وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة. ويقال: إن ذلك
عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته
استبشر وابيض وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه
سيئاته اسود وجهه. ويقال: إن ذلك عند الميزان إذا رجحت

حسناته ابيض وجهه، وإذا رجحت سيئاته اسود وجهه. ويقال: ذلك عند قوله تعالى: **{وَأَمَّا زُورَ الْيَوْمِ أَتْيَا الْمُجْرِمُونَ}** [يس: ٥٩]. ويقال: إذا كان يوم القيامة يؤمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا انتهوا إليه حزنوا واسودت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للمؤمنين: "من ربكم؟" فيقولون: ربنا الله عز وجل فيقول لهم: "أتعرفونه إذا رأيتموه". فيقولون: سبحانه! إذا اعترف عرفناه. فيرونها كما شاء الله.

فيخر المؤمنون سجدا لله تعالى، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضا، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرّون على السجود فيحزنوا وتسود وجوههم؛ وذلك قوله تعالى: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}**.

ثم قال -رحمه الله-:

فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله مالا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبتدعين منه المسودي الوجوه، وأشدّهم طردا وإبعادا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم؛ كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها؛

فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع؛ كل يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بالآية، والخبر كما بينا، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. وقد قال ابن القاسم: وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء. وكان يقول: تمام الإخلاص تجنب المعاصي".

{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} من سوء ما عاينوه من أهوال الموقف وما أيقنوا أنهم صائرون إليه من عذاب النار. وهو تفصيلٌ لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً. وابتدئ بالذين اسودَّت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم والتشبه بهم، ولمجاورة قوله: **{وتسودَّ وجوه}**، والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بُدئ بذلك عند الإجمال، فيكون مطلع الكلام وخاتمته شيئاً يسر الطبع، ويشرح الصدر.

وقال ابن عاشور: وقدم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشریفاً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله

ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم، عقب وعيد غيرهم بالعذاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السامع أن لهم عذابا عظيما في يوم فيه نعيم عظيم. ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءتهم.

{ أَكْفَرْتُمْ } أي: فيقال: أكفرتم؟. ويحتمل أن القائل هو الله عز وجل، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة.

والاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعجيب من حالهم. وتلوين الخطاب وهو أحد أنواع الالتفات، لأن قوله: **{ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ }** غيبة، و **{ أَكْفَرْتُمْ }** مواجهة بما كنتم.

{ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } والخطاب في أكفرتم إلى آخره يتفرع على الاختلاف في الذين اسودت وجوههم:

فإن كانوا الكفار فالتقدير: بعد أن آمنتم بالإيمان الفطري حين أخذ عليكم الميثاق وأنتم في صلب آدم كالذرّ حين أشهدهم الله تعالى على أنفسهم: **{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا }** [الأعراف: ١٧٢]

وإن كانوا أهل البدع فتكون البدعة المخرجة عن الإيمان.

وإن كانوا بني قريظة والنضير فيكون إيمانهم به قبل بعثه، وكفرهم به بعده، أو إيمانهم بالتوراة وما جاء فيها من نبوته ووصفه والأمر باتباعه ثم تنكرهم لهذا.

وإن كانوا المنافقين فالمراد بالكفر كفرهم بقلوبهم، وبالإيمان الإيمان بألسنتهم.

وإن كانوا الحرورية أو المرتدين فقد كان حصل منهم الإيمان حقيقة ثم ارتدوا على أعقابهم.

{فَذُوقُوا الْعَذَابَ} يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً، فيجمع لهم بين الألم القلبي النفسي بالتوبيخ **{أَكْفَرْتُمْ}** والألم البدني **{فَذُوقُوا الْعَذَابَ}**.. أي ذوقوا العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على أن الأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة مترتب على كفرهم المذكور.

والكفار يوبخون في عرصات القيامة ويوبخون عند دخول النار: **{تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}** [الملك: ٨-٩]،

ويوبخون أيضاً في حال دخولهم النار ومكثهم فيها ما شاء الله وطلبهم أن ينجوا منها فيقال لهم: **{قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}** [المؤمنون: ١٠٨]

والذوق هنا ليس ذوقاً باللسان بل هو ذوق بالبدن كله؛ لأن الذوق قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالبدن، فقول الرسول عليه الصلاة والسلام: (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا) [مسلم] المراد به ذوق القلب لا ذوق اللسان، وإذا قيل: ذاق الثمرة فهذا ذوق اللسان.. ذاق العذاب: هذا ذوق البدن.. فلكل مقام مقال.

{بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} صريح في أن نفس الذوق معلل بكفرهم بالله وشرائعه. فالباء سببية.

****** وفيه: أن من فيه خصلة من خصال الكفر فله من عذاب الكافرين بقدرها؛ لأن لدينا قاعدة وهي أن الحكم المعلق بوصف يقوى ويضعف بحسب ذلك الوصف، إن وُجد فيه جملة كبيرة من الوصف استحق من الحكم الذي رتب عليه بقدر هذه الجملة الكبيرة وإلا فبحسبها.

{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ} «في» للظرفية، ورحمة الله هنا ليست الرحمة المذكورة في قوله تعالى:

{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} [الكهف: ٥٨] لأن هذه صفة الله،
أما هنا **{فِي رَحْمَةِ اللَّهِ}** فهي مخلوق الله والمراد بها «الجنة»
كما جاءت في الحديث الصحيح: إن الله قال لها - أي الجنة -
(أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي) [البخاري]،
ويمتنع أن يكون المراد بها الصفة؛ لأن الصفة لا تكون ظرفاً
للشئ، وإذا امتنع أن تكون ظرفاً للشئ امتنع أن يراد بالرحمة
هنا الرحمة التي هي صفة الله تعالى، بل هي الرحمة المخلوقة لله،
وأطلق عليها اسم الرحمة لأنها كانت برحمة الله يرحم الله بها من
يشاء من عباده.

وعُبر عن الجنة بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق
عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى.
وانظر تفاوت ما بين التقسيمين هناك جمع لمن اسودت
وجوههم بين التعنيف بالقول والعذاب، وهنا جعلهم مستقرين في
الرحمة، فالرحمة ظرف لهم وهي شاملتهم.

{هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} لما أخبر تعالى أنهم مستقرون في رحمة
الله بين أن ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود لا زوال منه ولا
انتقال، فذكر الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر إشعاراً بأن
جانب الرحمة أغلب.

وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

وأضاف الرحمة هنا إليه ولم يضيف العذاب إلى نفسه، بل قال: **{فَذُوقُوا الْعَذَابَ}** ولما ذكر العذاب علّله بفعلهم **{بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}**، ولم ينص هنا على سبب كونهم في الرحمة.

والخلود في الجنة أبدي لأنه جاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار. كما ذكره تعالى في آيات كثيرة، ولم يثبت الخلود لمقابله، وقد صرح به في غير هذا الموضع.

فإن قال قائل: إذا قلت إنه أبدي فما جوابك عن قوله تعالى: **{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ}** [هود: ١٠٨] فاستثنى فقال: **{إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}**؟

فالجواب: لا تعارض الآيات الدالة على الأبدية هذه الآية؛ لأنها من المشكل الذي يجب رده إلى المحكم، والعلماء لهم في هذه الآية أقوال.

ولكن القول الذي يريح الإنسان أن يجعل هذا القيد، والقيد الذي في أهل النار: **{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ}**

وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ { [هود: ١٠٦-١٠٧] من الأمور المتشابهة، ويحمل على النصوص المحكمة فنقول:

إن الله قال: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} مع أنه قد شاء أن يبقى هذا أبد الآبدين، وهو كقول الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في زيارة القبور: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ) [مسلم] فعلقه بالمشيئة مع أن الحقوق بهم لا بد منه، وهذا القول يستريح به الإنسان، ولا يعترض عليه معترض كما اعترض ابن القيم رحمه الله بأن قال: فاختلاف ختم الآيتين يدل على أن أهل النار ليس خلودهم أبدياً بخلاف أهل الجنة؛ لأنه قال في أهل الجنة: {عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ} وقال في أهل النار: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}.

وهذا في الحقيقة يدل أن الإنسان مهما بلغ في العلم والذكاء فلن يسلم من الغلط، والفرق بين الآيتين ظاهر؛ لأن آية (السعادة) فضل فقال: {عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ} وآية النار (الشقاء) عدل فقال: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} وهذا من فعله الذي أراد، وليس المعنى أنه فعال لما يريد سيفعل في المستقبل خلاف ذلك كما فهمه ابن القيم رحمه الله، فإن هذا فهم غير سليم بلا

شك، بل إن مناسبة ختم الآية بقوله: **{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** هو أنه لما كان الشقاء غير محمود قال: هذا من فعل الله، والله يفعل ما يريد مع أنه لم يظلمهم.

{تِلْكَ} الإشارة بتلك قيل: إلى القرآن كله، وقيل إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيب الكفار، ومعنى البُعد للإيدان بعلو شأنها وسُمُو مكانها في الشرف.

{آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا} التلاوة اسم لحكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظة، وهي كالقراءة إلا أن القراءة تختص بحكاية كلام مكتوب. والالتفات إلى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل -عليه السلام- لإبراز كمال العناية بالتلاوة، ولما في إسناد التلاوة للمعظم ذاته من الفخامة والشرف.

{عَلَيْكَ} شرف الله تعالى نبيه محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بخطابه والوحي إليه.

{بِالْحَقِّ} هو الأمر الثابت الذي لا مجال للشك فيه، ولا تختلف فيه العقول السليمة، والمدارك القويمة، ولا يوجد أمر ثابت كالحق، وهو ميزان الأفكار ومقياس الأشياء، وعليه قامت السماوات والأرض وما بين الناس.

وقد تكون الباء للمصاحبة يعني أنها مصحوبة بالحق ونازلة بالحق، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، ملتبسة بالحق والعدل ليس في حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسيء، أو بالعقاب من غير جرم، بل كل ذلك مؤفّى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد.

وقد تكون الباء للملابسة أنها نزلت من عند الله نزولا حقا لا شبهة فيه ولا باطل ولا شك وهو يشمل المعنيين جميعاً.

والقاعدة في علم التفسير أن الآية إذا تضمنت معنيين لا يتنافيان فالواجب حملها على المعنيين، فإن كانا يتنافيان طلب المرجح، فما ترجح منهما فهو المراد.

{وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا} نكرة في سياق النفي لإفادة العموم فلا يخص نوعاً دون نوع، وانتفاء جنس الظلم عن أن تتعلق به إرادة الله، فكل ما يعد ظلماً في مجال العقول السليمة منتف أن يكون مراد الله تعالى.

وأصل الظلم: «النقص»، ومن ذلك قوله تعالى: **{كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا}** [الكهف: ٣٣]، ثم أطلق على نقص الحقوق وهضمها، ومن ذلك قوله تعالى: **{فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}** [طه: ١١٢]، وقوله تعالى: **{وَمَنْ يَعْمَلْ}**

سُوءًا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ [النساء: ١١٠]، ثم أطلق الظلم على وضع الأمر في غير موضعه، حتى لقد قالوا فيمن حفر الأرض، ولم تكن موضعاً للحفر إنه ظلمها، ويقال عن التراب المظلوم، وعن الأرض المظلومة، وقال الراغب في معنى الظلم: "الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته ومكانه".

{لِلْعَالَمِينَ} هم العقلاء في هذا الكون، لأنهم هم الذين يحسون بوقع الظلم وآلامه، ويشعرون بمتاعبه وآثامه. يعني أنه لا يعذبهم بغير ذنب. وفيه تنبيه على أن تسويد الوجوه عدل.

أي: ليس بظالم لهم بل هو الحَكَمُ العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه فلا يعذب إلا بعد الإعلام والإنذار. فنفي عن نفسه سبحانه وتعالى أن يريد ظلماً للعالمين، فهؤلاء الذين اسودت وجوههم لم يُظلموا.. الذين ابيضت وجوههم نالوا هذا بعملهم أي بسببه، والذين اسودت وجوههم نالوه أيضاً بعملهم، فالأولون عملوا صالحاً فأثيبوا هذا الثواب،

والآخرون عملوا سيئاً فأثيبوا هذا العقاب؛ لأن الله تعالى لا يمكن أن يظلمهم.

قال أبو السعود: تذييلٌ مقررٌ لمضمون ما قبله على أبلغ وجهٍ وَاكَّده، فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليقَ الحكم بآحاد الجمع المعروف، والالتفات إلى الاسم الجليل إشعارٌ بعلّة الحكم وبيانٌ لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيدَ عليه أي ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يظلمهم، فإن المضارع كما يفيد الاستمرار في الإثبات يفيد في النفي بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدلُّ بمعرفة المقام على دوام الثبوت، وعند دخول حرفِ النفي تدلُّ على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام، وفي سبك الجملة نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** [يونس: ٤٤]

{وَلِلَّهِ} الخبر هنا مقدم لفائدة وهي الحصر، يعني التخصيص؛ لأنك إذا قدمت ما حقه التأخير كان بذلك حصر، سواءً كان خبراً أو مفعولاً به أو جاراً ومجروراً. فمثلاً: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { الفاتحة: ٥ } قدم المفعول به لإفادة الحصر، أي لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا إياك، وهنا **{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** أي: لا لغيره. فقدم الخبر لأجل الحصر.

{مَا} اسم موصول يشمل كل ما في السموات والأرض يشمل كل هذا، ما فيها من الملائكة، وما في الأرض من البشر والجن والأشجار والأحجار وكل شيء.

وأتى بـ «ما» تغليباً لغير العاقل؛ لأنهم الأكثر فغلبوا هذا من وجه، ومن وجه آخر أنه إذا أريدت الصفة فإنه يعبر بـ «ما» بدل «من» ولو في العاقل، ومثلوا لذلك بقوله تعالى: **{فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}** [النساء: ٣] ولم يقل: "من طاب" لأنه لم يقصد عين الشخص العاقل بل قصد الوصف والجنس والكم.. انكح ما طاب من جميل وقبيح وواحد ومتعدد من النساء.

{فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي له تعالى وحده من غير شَرَكَة أصلاً، ما فيهما من المخلوقات الفاتنة للحصر مُلكاً وخلقاً إحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً، وإيراد كلمة **{مَا}** إما لتغليب غير العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى.

ووجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلماً للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما في السموات وما في الأرض في قبضته، ولأنه إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض فهو يريد صلاح حالهم، ولا حاجة له بإضرارهم إلا للجزاء على أفعالهم. فلا يريد ظلمهم، واليه ترجع الأشياء كلها فلا يفوته ثواب محسن ولا جزاء مسيء.

وقيل: هو ابتداء كلام، بين لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره.

{وَالِلّٰهِ} أي إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شريكاً أو استقلالاً. وهذه الآية مفيدة للحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق وهي {ترجع}

وتكرير اسم الجلالة ثلاث مرات في الجمل الثلاث التي بعد الأولى بدون إضمار للقصد إلى أن تكون كل جملة مستقلة الدلالة بنفسها، غير متوقفة على غيرها، حتى تصلح لأن يتمثل بها، وتستحضرها النفوس وتحفظها الأسماع.

{تُرْجَعُ الْأُمُورُ} أي الشئون.. فيجازي كلاً منهم بما وعد له وأوعده من غير دخلٍ في ذلك لأحد قط فيقضي فيها بما يشاء ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} كلامٌ مستأنفٌ سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير.

أو يتنزل هذا منزلة التعليل لأمرهم بالدعوة إلى الخير وما بعده في قوله تعالى: **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**

[آل عمران: ١٠٤]

كنتم من «كان» الناقصة التي تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق، أي لا يراد بها هنا الدلالة على مضي الزمان وانقطاع النسبة نحو قولك: "كان زيد قائماً"، بل المراد دوام النسبة كما في قوله

تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الساء: ٩٦] {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢] أي تدل على الدوام ومرادفه: "لم يزل".

وقيل: كنتم كذلك في علم الله تعالى أو في اللوح المحفوظ أو فيما بين الأمم السالفة أي فيما أخبر به الأمم قديماً عنكم، وقيل: معناه «أنتم خير أمة».

قال في زهرة التفاسير: «كان» يصح أن تكون بمعنى وُجد، أي: "وجدتم خير أمة" لهذه الأوصاف ما تحققت فيكم، ويصح أن تكون ناقصة، ويكون المعنى قدرتم في علم الله تعالى خير أمة إن قمتم بهذه الأمور، ويصح أن تكون بمعنى صار، أي تحولتم معشر المؤمنين الذين عاصرتهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من جاهليتكم إلى أن صرتم خير أمة أخرجت للناس بسبب الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

{أُخْرِجَتْ} أظهرت وأبرزت كقوله تعالى: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ} [طه: ٨٨] أي أظهر بصوغه عجلاً جسداً.

{لِلنَّاسِ} لهداية الناس ونفعهم، والمراد بالناس جميع البشر من أول الخليقة.

ومخرجها هو الله تعالى، وحُذِفَ للعلم به، وقيل: خير أمةٍ
أي كنتم خيرَ الناسِ للناس، فهو صريحٌ في أن الخيريةَ بمعنى
النفع للناس وإن فهم ذلك من الإخراج لهم أيضاً أي أخرجتُ
لأجلهم ومصلحتهم.

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: {كُنْتُمْ خَيْرَ
أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قَالَ: "خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي
السَّلَاسِلِ فِي أَغْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ".
وقال قتادة: "هم أمةٌ محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- لم
يؤمر نبيُّ قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الإسلام
فهم خيرُ أمةٍ للناس".

وروى الترمذي عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، أنه
سَمِعَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠] قَالَ:
(أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ) هَذَا
حَدِيثٌ حَسَنٌ.

قال ابن كثير: "وإنما حازت هذه الأمة قصبَ السبق إلى
الخيرات بنبيها محمد -صلى الله عليه وسلم- فإنه أشرفُ خلق

الله أكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطه نبياً قبله ولا رسولا من الرسل.

فالعَمَل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد: عن محمد بن علي -وهو ابن الحنفية- أنه سمع علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ). فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ الشَّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ). تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن.

وروى أحمد عن شُرَيْحُ بْنُ عُبَيْدٍ: مَرَضَ ثَوْبَانُ بِحِمَصَ وَعَلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قُرْطٍ الْأَزْدِيُّ، فَلَمْ يَعْذُهُ فَدَخَلَ عَلَى ثَوْبَانَ رَجُلٌ مِنَ الْكَلَاعِيِّينَ عَائِدًا. فَقَالَ لَهُ ثَوْبَانُ: أَتَكْتُبُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: اكْتُبْ. فَكَتَبَ لِلْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ مِنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لِمُوسَى وَعِيسَى مَوْلَى بِحَضْرَتِكَ لَعُدَّتْهُ. ثُمَّ طَوَى الْكِتَابَ وَقَالَ لَهُ: أَتُبَلِّغُهُ إِيَّاهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ بِكِتَابِهِ فَدَفَعَهُ إِلَى ابْنِ قُرْطٍ، فَلَمَّا قَرَأَهُ قَامَ فَرَعًا فَقَالَ النَّاسُ: مَا شَأْنُهُ أَحَدَثَ أَمْرًا، فَأَتَى ثَوْبَانَ حَتَّى دَخَلَ

عَلَيْهِ، فَعَادَهُ وَجَلَسَ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَ فَأَخَذَ ثَوْبَانُ بَرْدَائِهِ وَقَالَ: اجْلِسْ حَتَّى أُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا) [صحيح] عبد الله بن قرط الأزدي: صحابي، أمره أبو عبيدة على حمص فلم يزل عليها حتى توفي أبو عبيدة، وقيل: إنه كان من قبل معاوية. استشهد بأرض الروم سنة (٥٦)

وروى مسلم عن حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ أَنَا ثُمَّ قُلْتُ أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ قَالَ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ اسْتَرْقَيْتُ قَالَ فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ قُلْتُ حَدِيثٌ حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ فَقَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ لَا رُقِيَّةَ [أي لا رقية أولى وأنفع] إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ [هي سم العقرب وشبهها] فَقَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَوْمُهُ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخِرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ) ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: (مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟) فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ: (أَنْتَ مِنْهُمْ) ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ)

وروى مسلم عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) قَالَ فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) قَالَ فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ

الْجَنَّةِ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ
بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ).

وفي صحيح ابن حبان عن ابنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ
صَفٌّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا) [صحيح]

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ} فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في
هذا الشاء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بَلَّغْنَا أَنْ عَمْرَ بْنَ
الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي حِجَّةٍ حَجَّهَا رَأَى مِنَ النَّاسِ سُرْعَةَ
فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} ثُمَّ قَالَ: مَنْ
سَرَّهَ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا. [رواه ابن
جرير].

وقال مجاهد: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} عَلَى الشَّرَائِطِ
الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ.

وعلى قول مجاهد: كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر.

وقيل: إنما صارت أمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى.

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: **{كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** [المائدة: ٧٩] ولهذا لما مدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم.

{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} استئناف مبين لكونهم خير أمة.. وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.. وخطاب المشافهة وإن كان خاصاً بمن شاهد الوحي من المؤمنين لكن حكمه عام لكل الأمة.

ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف مع كونه من فروض الكفايات لا تقوم به جميع أفراد الأمة أنه لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر، على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة، فمن التغيير على أهل الولد إلى التغيير على جميع أهل البلد، أو لأن وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمة أوجب فضيلة لجميع الأمة، لكون هذه الطوائف منها كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها، وفي هذا

ضمان من الله تعالى بأن ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله تعالى.

{وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} أي إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء.. وإنما لم يصرّح به تفضيلاً لظهور أنه الذي يؤمن به المؤمنون، وللايذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان بالله تعالى في شيء، كما قال تعالى: **{وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}** [النساء: ١٥٠-١٥١].. فجعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله.

وإنما أُخِّرَ الإيمان وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبةً، لأنّ الإيمان مشترك بين جميع الأمم، وأن إيمانهم ثابت محقق من قبل فليس هو المؤثر لحصول هذه الزيادة، بل المؤثر كونهم أقوى حالاً في الأمر

والنهي. وليقترن به قوله تعالى بعده: **{وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}**.

وإنما ذكر الإيمان بالله في عداد الأحوال التي استحقوا بها التفصيل على الأمم، لأن لكل من تلك الأحوال الموجبة للأفضلية أثرا في التفصيل على بعض الفرق، فالإيمان قصد به التفصيل على المشركين الذين كانوا يفتخرون بأنهم أهل حرم الله وسدنة بيته، وقد رد الله ذلك صريحا في قوله: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ}** [التوبة: ١٩] وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قصد به التفصيل على أهل الكتاب، الذين أضاعوا ذلك بينهم، وقد قال تعالى فيهم: **{كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ}** [المائدة: ٧٩].

ولم يثبت أن صالحی الأمم كانوا يلتزمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما لأنه لم يكن واجبا عليهم، أو لأنهم كانوا يتوسعون في حال التقية، وهذا هارون في زمن موسى عبت بنو إسرائيل العجل بمرأى منه ومسمع فلم يغير عليهم، وقد حكى الله محاوره موسى معه بقوله: **{قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِدِخْتِي وَلَا**

بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي} [طه: ٩٢-٩٤]

قال في زهرة التفاسير: وهنا قد يسأل سائل: لماذا قدم الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؟ ولماذا اقتصر في
الإيمان على الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان بالرسول والملائكة
واليوم الآخر والحساب والعقاب وغير ذلك مما يوجبه الإيمان،
ولا يعد الشخص مؤمناً إلا به؟

ويجاب عن السؤال الأول: بأن ذكر الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر مقدماً لبيان أنه مطلوب لذاته، وأنه فضيلة لا تختلف
فيها الأمم ولا الجماعات، فهو كالصدق والعدل والحق تتفق
عليها الأفهام، بل ولا يمكن أن يتحقق ببيان جماعة من غير
تحققه، وإلا كانت كالدئاب الضارية، أو كانت كالوحوش في
الغابة، والإيمان سياج الجماعة وحمايتها من أن تضل، وكأن
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي يقوم به بناء
الجماعة، والإيمان هو الذي يحميها ويسدد خطاها، فذكر ما
يقوم به البناء ثم ذكر ما يكون به ذلك البناء في دائرة الفضيلة
والأخلاق الكريمة وهو الإيمان، وفي الحقيقة هما متلازمان،
فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق يتبعه إيمان

الشذاذ الخارجين، والإيمان الحق بالله تعالى والإذعان لأوامره ونواهيه يتبعه حتما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما لماذا اقتصر على ذكر الإيمان بالله؟ فهو لأن الإيمان بالله هو لب الإيمان بكل أجزائه وعناصره، فالإيمان بالله هو الإذعان المطلق لقوة غيبية تسيّر هذا الكون وتدبره، وتقوم على كلائته وحمايته، والإيمان بقوة غيبية يقتضي الإيمان برسالتها للناس، ويقتضي الإيمان بالأرواح الطاهرة المطهرة من الملائكة، والإيمان بأن الله لم يخلق هذه الأشياء عبثا، وإن ذلك يقتضي الإيمان بقدرة الله على الإعادة كما بدأ الخلق بالكوين، وبأن هنالك يوما آخر فيه الحساب، وإن من يؤمن بالله ولا يؤمن بهذه العناصر كلها لا يكون مؤمنا بالله حق الإيمان، ولا مدعنا لأحكامه حق الإذعان، ولذا كان أهل الكتاب الذين أعلنوا إيمانهم بالله، وأنكروا رسالة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع قيام البيّنات عليها غير مؤمنين، وغير مدعين للحق الذي ارتضاه الله.

إذن فهذه الخيرية التي قدرها سبحانه لهذه الأمة منوطة بتحقيق أمرين أحدهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثاني: الإيمان المطلق بالله والإذعان له وتفويض الأمور إليه بعد الأخذ في الأسباب، واعتقاد أنه لا قوة في هذا الوجود غير

قوته، ولا معبود بحق سواه، ولا خضوع لأحد كائنا من كان غيره تعالت قدرته، فليست الخيرية التي خاطب الله بها المهاجرين والأنصار والذين يتبعونهم؛ لأنهم مسلمون فقط، أو لأشخاصهم وذواتهم، بل لأنهم متصفون بأوصاف هي علة هذه الخيرية، ومناط تلك الرفعة الإلهية، وتلك الأوصاف هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى.

ولذلك لا ينطبق الحكم بالخيرية على من لا يتصف بهذه الصفات، فالجماعات التي تهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يكون فيها إيمان، لا يمكن أن تكون خير أمة، بل لا توصف بالخيرية قط؛ لأنه لا خير إلا في الفضائل والحق والعدل، ولا تقوم هذه الأمور إلا بالإيمان وقيام رأى عام مُهذَّب لائم يقوم المعوج، وتنزوي فيه الرذائل انزواء، إذ يقتلها نوره المشرق وشمس الحقيقة الناصعة.

{وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ} أي لو آمن عامتهم وسائرهم كإيمانكم إيماناً تاماً لكان ذلك خيراً لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام، فلهم في هذا حظ دنيوي.

{لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} لأن إيمانهم يحصل به الحظ الدنيوي من كونهم يصيرون رؤساء في الإسلام ولازادات رياستهم وتمتعهم

بالحفظ الدنيوية، والحظ الأخروي الجزيل بالفوز بما وُعدوه
على الإيمان من إيتائهم أجرهم مرتين.

كما روى البخاري في صحيحه، قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-: (وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي فَلَهُ
أَجْرَانِ)

وقيل: لكان خيرا لهم مما هم فيه من الكفر، فالخيرية إنما
هي باعتبار زعمهم، وفيه ضربٌ تهكمٌ بهم.

وإنما لم يتعرَّضْ للمؤمن به أصلاً للإشعار بظهور أنه الذي
يُطلق عليه اسمُ الإيمان لا يذهب الوهمُ إلى غيره ولو فُصِّلَ
المؤمنُ به هاهنا أو فيما قبلُ لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضاً
إيماناً في الجملة لكن إيمانَ المؤمنين خيراً منه وهيئات ذلك.

وقال ابن عاشور: ولم يذكر متعلق آمن هنا لأن المراد لو
اتصفوا بالإيمان الذي هو لقب لدين الإسلام وهو الذي منه
أطلقت صلة «الذين آمنوا» على المسلمين فصار كالعلم بالغلبة،
وهذا كقولهم أسلم، وصبأ، وأشرك، وألحد، دون ذكر متعلقات
لهاته الأفعال لأن المراد أنه أتصف بهذه الصفات التي صارت
أعلاماً على أديان معروفة، فالفعل نزل منزلة اللازم.

و «لو» هنا هي التي يقول عنها علماء النحو: إنها حرف امتناع لامتناع، أي امتنع الخير فيهم لأنفسهم لامتناع الإيمان الكامل، وقد ذكر نفي الإيمان عنهم مطلقاً مع أنهم يقولون إنهم يؤمنون بالله، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وذلك لأنهم إذ لم يذعنوا لأحكام الله تعالى وأوامره -وقد فسروها على حسب أهوائهم ومنازعتهم العصبية والجنسية، واعتقادهم أنهم شعب الله المختار- قد فقدوا الإيمان، إذ الإيمان كل لا يقبل التجزئة، فليس بمؤمن بالله من يكذب رسالة الله التي جاءت بها البينات، وقامت عليها الدلائل؛ وفي نفي الإيمان نفياً مطلقاً ما يؤول إلى أن الذين يجعلون هواهم مسيراً لاعتقادهم وفكرهم لا يؤمنون بحقيقة من الحقائق إلهية كانت أو إنسانية.

وقد نفى سبحانه عنهم الإيمان بأي شيء، ولذلك لم يكن ثمة حاجة بعد هذا إلى نفي القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ذلك يقتضي الإيمان بالفضائل والمعاني الإنسانية، وهم لا يؤمنون بشيء منها، وإن ذلك ليس خيراً لهم في شيء؛ لأنهم بذلك تنحل جماعتهم، وتتفرق وحدتهم.

{مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ} جملة مستأنفة سبقت جواباً عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم كأنه قيل:

هل منهم من آمن أو كلُّهم على الكفر؟ فقل: منهم المؤمنون
المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه .
{وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} المتمردون في الكفر الخارجون عن
الحدود.

واللام في {المؤمنون} وفي {الفاستقون} يدل على المبالغة
والكمال في الوصفين

والمؤمن هو المذعن للحق إذا قامت بيناته أو دلت أماراته،
وهو ينشأ عن استقامة القلب، والتزام الجادة، والاتجاه دائما إلى
الطريق المستقيم بإخلاص ونزاهة نفس عن الهوى، ولذلك كان
غير المؤمن خارجا عن الاستقامة، ولذا يسمى فاسقا، باعتباره
خرج عن منهاج الاستقامة، وترك طريق الحق، وسلك سبل
الشیطان، ويسمى كافرا باعتباره جحد الحق، وستر ينابيع الإدراك
في نفسه، وناسب أن يذكر وصف الفسق بالنسبة لغير المؤمنين
من أهل الكتاب، لأنهم خرجوا عن منهاج الكتاب المنزل،
وفسقوا عن أمر ربهم وتركوه وراءهم ظهريا.

يقول الأستاذ محمد قطب -رحمه الله-:

ونقف قليلا عند قضية «الخيرية» التي وصف الله بها هذه الأمة.

ما الفرق بينها وبين دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار إلى هذه اللحظة، ودعوى كل قومية أنها أفضل الأمم جميعا وأرقاها؟ هناك عدة فوارق، تنطلق كلها من فارق أساسي: أن خيرية هذه الأمة ليست خيرية عنصرية ولا عرقية كدعوى بني إسرائيل، وليست منبثقة من عصبية جنس ولا انتماء لأرض معينة كعصبية القومية الحمقاء.

إنها خيرية أعمال.. خيرية مبادئ.. خيرية قيم.. خيرية سلوك، ناشئة من الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك فهي ليست حكرا على شعب معين ولا عنصر معين ولا دم معين، إنما هي ملك لكل مسلم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل بمقتضى إيمانه، أيا كان جنسه أو لغته أو أرضه أو منشؤه، كما كانت ملكا لبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، على المستوى نفسه الذي كانت فيه ملكا للمؤمنين من قريش، وإنما يتفاضل الناس فيما بينهم بالتقوى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا

لَعَجَمِيَّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا
بِالتَّقْوَى) [رواه أحمد]

ولذلك أيضا لم تكن صفة لاصقة بشخص معين ولا شعب
معين ولا عنصر معين، مهما يعمل من السيئات، ومهما يقع منه
انحرافات، كدعوى بني إسرائيل أنهم ما زالوا شعب الله المختار،
وقد كفروا بالله ورسله، وارتكبوا من الموبقات ما ارتكبوا،
وكدعوى كل قومية أنها أفضل الأمم، مهما ارتكبت من الجرائم،
ومارست من حماقات. بل تذهب الخيرية عن الأمة - كما هو
حال الأمة المسلمة اليوم - إن هي نكلت عن رسالتها ولم تقم
بتكاليها، ولا تسترد استحقاقها لها حتى تعود إلى العمل
بمقتضياتها.

تلك هي الفوارق..

فهي ليست «عصبية» لقوم ولا لجنس ولا لأرض ولا
لشعار..

(لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ
وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ) [رواه أبو داود]

وليست كذلك دعوى بلا دليل. إنما هي قيم ومبادئ، وعمل
وسلوك، إن وجدت، وجدت معها الخيرية، وإن زالت، زالت

الخيرية، وإن بقي الناس الذين يحملون أسماء إسلامية، ويقولون بأفواههم لا إله إلا الله، محمد رسول الله!

وما أعظم الفارق في واقع الأرض، وعند الله في اليوم الآخر، بين دعوى لا تحمل رصيда من الحق، ودعوى تحمل الرصيد:

{لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا* وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: ١٢٣-١٢٤]

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

{لَنْ يَضُرُّوكُمْ} أهل الكتاب {إِلَّا أَذًى} والأذى هو الألم الخفيف لا يبلغ حد الضر الذي هو الألم الشديد، وقد قيل هو الضر بالقول فقط.

أي لن يضرّوا المؤمنين ضرراً يبقى أثراً في جماعتهم، ويؤثر في قوتهم، بالغلبة أو الاستئصال، أو ضرراً لا نكاية فيه، ولا إجحاف لكم، وإن وقع منهم أذى؛ وذلك لأن الضرر قسمان: ضرر يترك أثراً في الأمة، فيضعف قوتها، ويوهن أمرها. وضرر لا أثر له: كالأذى بالقول أو الفتنة في الدين تتناول الآحاد، أو محاولة التأثير في ضعف الإيمان، أو محاولة بث روح النفاق بين الجماعة من غير أن يعم ويشيع.

وقد نفى الله سبحانه وتعالى النوع الأول من الضرر نفياً مؤكداً بلفظ (لَنْ) فإنها تدل على تأكيد النفي باتفاق علماء اللغة، وقال الزمخشري وطائفة كبيرة من اللغويين: إنها تدل على تأييد النفي. وعلى ذلك يكون «الاستثناء متصلًا»، ولا يكون منقطعاً، لأن الأذى مهما ضؤل نوع من الضرر، وإن لم يبق أثراً.

والقول الثاني: أن الاستثناء هنا منقطع، وعلى هذا القول يكون المعنى: لن يضرّوكم ولكن يؤذونكم والأذية لا يلزم منها الضرر، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [الأحزاب: ٥٧] فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله. وقال تعالى: {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} [آل عمران: ١٧٦]. وفي الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَن

تَبَلَّغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي) [مسلم] فالضرر منتف عن الله، والأذية
حاصلة، ومن أمثلتها قوله تعالى في الحديث القدسي: (يُؤْذِينِي
ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ) [البخاري]، ويوضح هذا أنه
لو صلى إلى جانبك رجل قد أكل بصلاً أو ثوماً فإنك تتأذى
برائحته ولكن هل يضرّك؟ لا يضرّك، وهذا القول أصح وهو أن
«الاستثناء منقطع»، وهو وإن كان خلاف الأصل لكنه أعلى في
البلاغة.. لن يضرّوكم ولكن الأذى ستصبرون عليه والأذى ليس
بضرر.

والآية وعد من الله لرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
وللمؤمنين، أن أهل الكتاب لا يغلّبونهم وأنهم منصورون عليهم لا
ينالهم منهم اضطلام إلا إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة
فتكون للمؤمنين.

**والشرط في نفي الضرر الذي يؤثر في الجماعة الإسلامية
أن تكون مؤمنة بالله حق الإيمان آخذة بتعاليمه مهتدية بهديه،
وأن يسودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو
خاصتها، ورباط وحدتها، وإلا فإن الضرر البالغ يصيبها؛ لأنها
فقدت مشخصاتها ومكوناتها.

في تفسير العثيمين: "فإن قال قائل: يرد على دعواكم أن أن اليهود يعملون بنا اليوم ما هو من أشد الأضرار، ومعلوم أن خبر الله تعالى لا يخلف؟".

فالجواب أن نقول: الخطاب للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه، ومن كان على مثل ما كان عليه نبي الله وأصحابه فلن يضره اليهود ولا النصارى، أما من يعتقد أن الدين الإسلامي دين رجعية وتخلف ويبدله بغيره من القوانين الرجعية الوضعية، فهؤلاء لا يكتب لهم النصر، ويضرونهم بالأذى القولي والفعل والالاقتصادي وفي كل شيء، وإلا فإن كلام الله تعالى لا يخلف أبداً.

فقوم يقاتلون قتالاً جاهلياً مبنياً على القومية المتمزقة وعلى أسس باطلة مضادة لدين الله فهؤلاء لا يستحقون النصر، ولذلك كانت اليهود الآن يفعلون الأفاعيل بنا، من يقدر على الفعل ببدنه فعلوا، ومن لا يقدر فإنهم يفعلون به ما يفعلون من المضار الاقتصادية العالمية.

وحينئذ تبقى الآية محكمة غير منسوخة باقية إلى يوم القيامة، لكن المشروط يتوقف على الشرط، فانتفاء الضرر موقوف على

وجود شرطه وهو أن نطبق سيرة من وعدوا بهذا الوعد وهم الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه".

** وفيه ترغيب المؤمنين في تصلبهم في دينهم وتشبثهم عليه، وعلى تحقير شأن الكفار، إذ صاروا ليس لهم من ضرر المسلمين شيء إلا ما يصلون إليه من إسماع كلمة بسوء.

{وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَدْبَارُ} يفرون منهزمين، فيجعلون الأدبار تليكم، وهو كناية عن الانهزام؛ لأن المنهزم يولي ظهره للمنهزم منه، ولسان حاله يقول: "النجاء النجاء".

وأتى بلفظ الإِدْبَار لا بلفظ الظهور، لما في ذكر الإِدْبَار من الإهانة دون ما في الظهور، ولأن ذلك أبلغ في الانهزام والهرب، وفيه إشارة إلى جنبهم، وأنهم يفرون فرارا أمام خصومهم، وكذلك كان الشأن في قتال المسلمين الأولين للكفار اليهود والنصارى، فقد قاتل المؤمنون بني النضير وبني قريظة ويهود خيبر وغيرهم، وكانوا يفرون فرارا، وقد كتب الله على بعضهم الجلاء، وعلى بعضهم الفناء، وعلى بعضهم البقاء في ذلة، وكذلك كان الشأن مع النصارى بالشام ومصر.

وهذه الجملة جاءت كالمؤكد للجملة قبلها، إذ تضمنت الإخبار أنهم لا تكون لهم غلبة ولا قهر ولا دولة على المؤمنين،

لأنَّ حصول ذلك إنما يكون سببه صدق القتال والثبات فيه، أو النصر المستمد من الله، وكلاهما ليس لهم.

{ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} «ثم» هنا ليست للمهلة في الزمان، وإنما هي للتراخي في الإخبار، ويسمى «التراخي الرتبي» وهو كون رتبة معطوفها أعظم من رتبة المعطوف عليه في الغرض المسوق له الكلام.. فالإخبار بتوليهم في القتال وخذلانهم والظفر بهم أبهج وأسرّ للنفس.. قال الزمخشري: التراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الإدبار.

و **{لَا يُنْصَرُونَ}** فيها النون وهو محل إشكال؛ لأن «ثم» حرف عطف و **{يُؤْلَوُكُمْ الْأَذْبَارُ}** معطوف عليه، والمعطوف على المجزوم يكون مجزوماً.

ولكن (ثم) هنا ليست للعطف ولكنها للاستئناف والتقرير ولا بد من هذا التقدير؛ لأنها لو كانت عطفاً على قوله: **{يُؤْلَوُكُمْ الْأَذْبَارُ}** لجزمت ولقيط: "ثم لا ينصروا" وحينئذ يفسد المعنى؛ لأنه لو كان انتفاء النصر عنهم حين يقاتلوننا لأمكن لقائل أن يقول: إنهم ينتصرون بعد ذلك، ولصار انتفاء النصر مقيداً بما إذا قاتلونا، ولكن الأمر ليس كذلك، فالنصر منفي عنهم أبداً سواء قاتلوا أم لم يقاتلوا، إذ منع النصر سببه الكفر، ولهذا قال:

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ} فتبين الآن أن «ثم» هنا ليست عاطفة ولكنها استئنافية، والفعل بعدها مرفوع لأنها جملة مبتدأ بها لم تعطف على منصوب ولا مجزوم.

فهذه الجملة {ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} خبرية ليس لها صلة لفظية بالجملة الشرطية، فليست معطوفة على جواب الشرط، فهي إخبار عن نفي الانتصار غير مرتبط بكونه في قتال أو غير قتال. وكان العطف الخبري بـ «ثم» على مضمون الجملة الشرطية كلها، وكان التراخي لتقرير عدم النصر، إذ إنَّ عدم النصر المطلق الذي يكون بالقتال وغيره ينشأ من توالي الانهزام، إذ إن توالي الانهزام يلقي في قلوبهم بروح اليأس فلا تكون لهم من بعد ذلك نصره في أية ناحية من النواحي.

قال أبو السعود: "وإنما لم يُعْطَفْ نفيُ مَنْصُورِيَّتِهِمْ على الجزاء لأن المقصودَ هو الوعدُ بنفي النصرِ مطلقاً، ولو عطف عليه لكان مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وكم بين الوعدين، كأنه قيل: ثم شأنهم الذي أخبركم عنه وأبشركم به أنهم مخذولون مُنتَفٍ عنهم النصرُ والقوةُ لا ينهضون بعد ذلك بجناحٍ ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمرٌ، وكان كذلك حيث لقي بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهودُ خيبرَ ما لُقُوا".

****** فهذه الحال التي ذكرها الله سبحانه تفصيل لبيان ما تضمنته الجملة السامية **{لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى}** من قبل، فإنها تضمنت أن هؤلاء لا يمكن أن يصيبوا المسلمين بضرر بليغ يبقى له أثر، وإنه من تفصيل بعض ذلك أنهم يهزمون في قتال المسلمين.

****** والخطاب للمسلمين حين كانوا يمثلون الإسلام بالعقيدة والقول والفعل، وهم في هذه الحال سينتصرون على اليهود والنصارى والمجوس وسائر الكفار، وحينئذ لا يشكل علينا تغلب النصارى الصليبيين على المسلمين، ولا يشكل علينا تسلط اليهود على العرب؛ لأن القتال مع اليهود في راية العروبة قتال جاهلية وقتال طائفة لطائفة، لا لدين، بل ربما اعتقد اليهود أنهم يقاتلون للدين، وهم على باطل وأن الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم مكتوبة لهم إلى يوم القيامة: **{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}** [المائدة: ٢١] ويذكر أنه لما كانت هزيمة عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧م) لما دخلوا سيناء وما استولوا عليه من بلاد العرب صار الواحد من الجنود يأخذ التراب ويقبله ثم يسجد عليه.

****** وفيه تثبيتٌ لمن آمن منهم فإنهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم، وبشارةٌ لهم بأنهم لا يقدرّون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يُعبأ به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم، وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذلُّ.

{ضُرِبَتْ} لم يبين الضارب ولكنه معلوم وهو «الله» عز وجل، فأبهمه للعلم به كقوله تعالى: **{وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}** [النساء: ٢٨] مع أن الله هو الذي خلقه، ولكن من طريقة القرآن أن الأشياء غير المرغوبة يعبر الله عنها بصيغة الفعل المبني للمجهول، بخلاف الأشياء المرغوبة فيعبر عنها باسم الفاعل كقوله تعالى: **{وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}** [الجن: ١٠]

فالذي ضربها هو الله عز وجل، وسمى ذلك ضرباً كالضرب على النقود الذي يبقى منطبعاً لا يزول بمسح الأيدي، فكأن هذه الذلة مطبوعة عليهم لا يمكن أن تتغير.

وقيل: هي جملة بيانية لذكر حال شديد من شقائهم في الدنيا. ومعنى ضرب الذلة اتصالها بهم وأحاطتها، ففيه استعارة مكنية شبهت الذلة، وهي أمر معقول، بقبة أو خيمة شملتهم، وشبه اتصالها وثباتها بضرب القبة وشدة أطناها.

{عَلَيْهِمْ} اليهود والنصارى **{الذَّلةُ}** الذَّلةُ هنا بمعنى الإهانة، أي: أن الله تعالى أهانهم، وهي تختلف عن الذُّل لأنها تدل على ذلة معينة مخصوصة فهذه الذلة -والعياذ بالله- لا تخرج من قلوبهم.

أي: أحاطت بهم الذلة كما يحيط السرادق بمن فيه، وكما تحيط القبة بما في داخلها، فهم في نشاطهم وحركتهم في ذلة، لا ينتقلون من ذل إلا إلى ذل.

{أَيْنَ مَا} ظرف مكان تدل أيضاً على عموم الأمكنة، ويؤكد عمومها «ما» الزائدة.

{تَقْفُوا} وجدوا، وأينما كانوا.. كما في قوله تعالى: **{وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ}** [البقرة: ١٩١] يعني حيث وجدتموهم.

فأينما وجدوا جماعات ووحداً، فجماعاتهم في ذلة، وآحادهم في جبن، ذلك بأنهم فقدوا الإيمان بالله، والاعتزاز بعزته، فاعتمدوا على عزة من الناس، ومن اعتمد على أن يستمد عزته من غير الله فهو الذليل، فأولئك الذين فقدوا الإذعان لأحكام الله تعالى قد استعانوا بغير الله فحقت عليهم كلمة الذلة.

{إِلَّا} استثناء منقطع ليس من الأول، لأن الذلة لا تفارقهم، لكن اعتصامهم بحبل من الله وحبل من الناس ينجيهم من القتل والأسر وسبي الذراري واستئصال أموالهم.

وذهب الزمخشري وغيره إلى أنه استثناء متصل. قال: "وهو استثناء من أعم عام الأحوال"، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل من الله وحبل من الناس، يعني: ذمة الله وذمة المسلمين. أي لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية.

{بِحَبْلِ} بسبب **{مَنْ اللَّه}** أي: بعهد وبذمة، يعني أن يكونوا من أهل الذمة وذلك أن الإسلام يحمي أهل الذمة ويدافع عنهم، ولهذا يجب علينا بالنسبة لأهل الذمة حمايتهم ممن يعتدي عليهم في مال أو دم أو عرض؛ لأنهم تحت رعايتنا وهم يبذلون لنا الجزية ما لم ينقضوا الذمة، فإن نقضوا الذمة فإنهم يعودون كالحريين يُقتلون لانتقاض عهدهم.

والحبل معناه في أصل اللغة: ما يربط بين شيئين، ويطلق على العهد، وقد فسره جمهور المفسرين هنا بهذا المعنى وهو «العهد»، فالمعنى لا ترفع الذلة عن هؤلاء اليهود إلا بعهد من الله تعالى، وذلك العهد هو «عقد الجزية» الذي يربط بينهم وبين

المسلمين، فهو حبل من الله تعالى يصلهم بأهل الإيمان إذ هي بأمر الله تعالى، والوفاء بها وفاء بعهد الله ورسوله، إذ يقول سبحانه: **{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . . }** [النحل: ٩١].

فالجزية حبل يربطهم بالمؤمنين؛ إذ يكونون بهذا العهد بين المسلمين، ترعى حقوقهم وتحفظ أموالهم ودمائهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وهذا تفسير حسن، وهو مشتق من قواعد الإسلام ذاتها وأحكامه المقررة الثابتة، ولكن يلاحظ أن الله سبحانه قرر في الاستثناء أن حبل العزة هو حبل من الناس، ولم يذكر أنه حبل من المؤمنين، بل قال:

{وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ} أي: أمانٌ منهم ولهم. ولذلك يصح أن يفسره بما هو أعم من الجزية، فإن حبل الناس أوسع من معنى الجزية، وإن ذلك يفسره بعض الوقائع التي تجري في العصور الأخيرة، فقد كانت لهم عزة وقتية بسبب اتصالهم ببعض الناس، وتخاذل المسلمين عن الأخذ بحكم الكتاب والسنة والهدى الإسلامي.

ومعلوم أنه إذا صلح اللفظ للعموم فإن الأولى أن يبقى على عمومته، فيكون المراد بالحبيل من الناس أي مساعدة منهم وحماية كالعهد والأمان والنصرة والولاية وما أشبهها.

والعهد: هو الذي يجري بين المسلمين وبين الكفار فيحصل بينهم عهد أن لا يعتدي أحد على أحد وأن تبقى هدنة كما حصل في غزوة الحديبية، وهو لا يكون إلا بين أهل الحل والعقد يعني بين الإمام أو قائد الجيش أو ما أشبه ذلك.

أما الأمان: فهو أن يدخل رجل من المشركين أو من اليهود والنصارى بأمان من أحد من المسلمين يؤمنه، وهو يصح من كل واحد من المسلمين؛ لحديث أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تسترهُ قالت فسلمت عليه فقال: (من هذه؟) فقلت أنا أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: (مرحبا بأم هانئ) فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفا في ثوب واحد فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابن أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فَلَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمَّ هَانِئِ) قالت أم هانئ: وَذَاكَ ضُحَى [البخاري]

****** وفيه أن الناس قد ينصر بعضهم بعضاً بالباطل، وهذا الواقع المحسوس أن من الناس من ينصر غيره بالباطل؛ لأن الناس ليسوا كلهم أهل عدل بل فيهم أهل الجور وأهل العدوان الذين يساعدون أهل العدوان.

{وَبَاؤُوا} أي رجعوا، وأصله في اللغة أنه لزمهم، أي: أُلزموا، ومنه قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}** [الحشر: ٩] أي سكنوها، فهذه المادة (الباء، والألف والهمزة) تدل على الرجوع والاستقرار، والمعنى أنهم رجعوا بغضب من الله أي مصطحبين للغضب.

{بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} مستوجبين غضب من الله، وهم يستحقونه، والتكثير للتفخيم والتهويل و «من» للابتداء متعلقة بمحذوف وقع صفةً لغضب مؤكدةً لما أفاده التكثير من الفخامة والهول، أي: كائنٍ وصادر من الله عز وجل.

****** والغضب: صفة انفعالية لا فعلية، والفرق بين الانفعالي والفعلية أن الفعلية يكون باختيار الإنسان وبالجوارح الظاهرة كالبطش مثلاً، والانفعالية يكون بغير اختيار الإنسان وهو من القوى الباطنة؛ ولهذا تأتي للإنسان بغير اختياره، يستثيره أحد من الناس فيغضب، ويحمر وجهه، وتنتفخ أوداجه، ويقف شعره وربما

يقتل مَنْ أَمَامَهُ، وربما يطلق نساءه، وربما ينتحر أيضاً، نسأل الله العافية.

وهو كما قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (أَلَا وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أُودَاجِهِ) [الترمذي]

هذا بالنسبة لغضب الإنسان الآدمي البشر، أما غضب الله عز وجل فهو صفة من صفاته التي يجب إثباتها له على الوجه اللائق به جل وعلا، فهو سبحانه وتعالى يغضب ويرضى ويسخط ويكره ويحب، وكل هذه الصفات ثابتة الله تعالى على الوجه الذي يليق به جل وعلا.

**** وهذه الآية مما يؤيد القول بأن المراد بقوله: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ} اليهود لأنهم هم المغضوب عليهم.**

وربما يقول قائل: إنها أعم من أن يكون الغضب صادر من الله، بل بغضب من تقدير الله، وعلى هذا تكون «من» للسببية ويكون المراد بالغضب غضب الله وغضب غيره، وهذا هو السر في قوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧] ولم يقل: (غير الذين غضبت عليهم) لأن هؤلاء مغضوب عليهم من قبل الله ومن قبل أولياء الله.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} الفقر، مشتقة من اسم المسكين وهو الفقير، ولعل اشتقاقه من السكون وهو سكون رمزي أطلق على قلة الحيلة في العيش.

أي: أُلْزِمُوا الْمَسْكَنَةَ قَدْرًا وَشَرْعًا، فالله تعالى قَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْإِذْلَالَ بسبب كفرهم وفسادهم، وحكم به عليهم شرعاً بما ضربه عليهم من الجزية.

والمسكنة ضعف نفسي، وصغار ينال القلب، فيستصغر الشخص نفسه، ويحس بهوانها مهما تكن لديه أسباب القوة متوافرة متضافرة، والفرق بينها وبين الذلة أن الذلة هوان تجيء أسبابه من الخارج بأن يكون بفرض من قوى، أو يكون نتيجة انهزام حربي، أما المسكنة فهي هوان ينشأ من النفس لعدم إيمانها بالحق، واتباعها للمادة، وإن توارث الذلة قروناً طويلة يورث هذه المسكنة.

فبواء اليهود والنصارى بغضب الله، وضرب المسكنة عليهم، لَا استثناء فيه، بل هو أمر مستمر إلى يوم القيامة ما داموا على حالهم، ولا يغرنك ما عند النصارى وتقلبهم في البلاد، بل انظر إليهم إن أصابت فريقاً منهم هزيمة فإنهم يخرون للأذقان يكون

صاغرين، مما يدل على أن المسكنة في طبيعتهم؛ إذ عزة الحق قد فارقتهم.

وقيل: المسكنة هي الفقر، فهم أذلاء ليس عندهم شجاعة، فقراء ليس عندهم غنى، ولكن يجب أن نعلم أن الغنى ليس كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس والقلب، فهؤلاء قد ضربت عليهم المسكنة فهم دائماً في فقر حتى لو حصل الإنسان منهم ملايين الملايين فهم في فقر، ولذلك حتى الآن نجد أن اليهود أحرص الناس على المال، وأنهم لا يمكن أن يبدلوا فلساً إلا وهم يؤملون أن يحصلوا درهماً، ولا يبدلون درهماً إلا ويؤملون أن يحصلوا ديناراً، وهذه حالهم، ومن ثم صاروا من أغنياء العالم إن لم نقل هم أغنى أغنياء العالم، لكنهم أغنى العالم بكثرة العرض لا بالقلب والنفس، فهم أشد الناس فقراً.

**** والذلة التي ضربها الله على اليهود تشمل الذلة القدرية التي قدَّرها الله عليهم، والذلة الشرعية، بمعنى أن الله تعالى أمرنا بإذلالهم، بضرب الجزية عليهم.**

قال الطبري رحمه الله: «الذلة» هي الصغار الذي أمر الله – جل ثناؤه – عباده المؤمنين أن لا يعطوهم أماناً على القرار على

ما هم عليه من كفرهم به وبرسوله، إلا أن يبذلوا الجزية عليهم لهم.

وقال رحمه الله: أخبرهم الله - جل ثناؤه - أنه يبذلهم بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاء منه لهم على كفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءه ورسله، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق، وعصيانهم له، وخلافاً عليه. انتهى

ومن هذا الباب قول تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأعراف: ١٦٧].

ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك، من اليونانيين، والكشديانيين، والكلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى، وإذلالهم إياهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت صغاره، وذمته، يؤدون الخراج، والجزية. انتهى.

وهذا هو واقع اليهود على مرّ الأزمان؛ وحتى في هذا العصر الحديث لا تجد لهم محبة، ولا قبولاً في الأرض، وما مذابح

الأوربيين لهم في أوربا بعيد، وهم يؤمنون بذلك، ولذلك لا يعيشون إلا منعزلين منطوين، أو أذلاء يستجدون النصر من دول الكفر، والمنظمات الدولية.

قال ابن القيم رحمه الله في وصف اليهود: "فالأمة الغضبية هم اليهود، أهل الكذب، والبهت، والغدر، والمكر، والحيل، قتلة الأنبياء، وأكلة السحت - وهو الربا، والرشوة - أخبث الأمم طوية، وأرداهم سجية، وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النعمة، عادتهم البغضاء، وديدنهم العداوة والشحناء، بيت السّحر، والكذب، والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، ولا لمن وافقهم حق، ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل، ولا نَصَفَة، ولا لمن خالطهم طمأنينة، ولا أمانة، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة، بل أخبثهم: أعقلهم، وأحذقهم: أغشهم، وسليم الناصية - وحاشاه أن يوجد بينهم: ليس بيهودي على الحقيقة، أضيق الخلق صدوراً، وأظلمهم بيوتاً، وأنتنهم أفنيةً، وأوحشهم سجيةً، تحيتهم: لعنة، ولقاؤهم: طيرة، شعارهم: الغضب، ودثارهم: المقت". انتهى

وهذه صفات اتفق عليها القاصي والداني، والقريب والبعيد،
ولذلك لوحقوا، وطوردوا، على مر الزمان؛ وحتى في هذا العصر
لا ينعمون بالأمان حتى في دولتهم المزعومة.

أما ما يراه البعض من وجود «الغنى» و «العز» لليهود في
زماننا هذا: فهو لا يخالف معنى الآية، وبيان ذلك من وجهين
مُجملين:

١ / ضرب الذلة والمسكنة على اليهود لازم لا يتخلف، وقد
استثنى الله تعالى في «الذلة» - لا المسكنة - بقوله: **{إِلَّا بِحَبْلِ**
مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ} فما تراه هو من هذا، وأما بمجردهم:
فهم أحقر من أن يكون لهم عز ونصر، ولذلك لا يُعرف لهم
انتصار في معركة دخلوها وحدهم، ولا يزالون في حاجة إلى
الشرق والغرب لتثبيت دولتهم، فإما مددهم من الله ليدل بهم من
تركوا دينه، أو حبل من الناس: عهد وميثاق مع المؤمنين، أو
تحالف مع دول الكفر لنصرتهم، وتأيدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما كون اليهود كانوا
ينتصرون على العرب: فهذا لا يُعرف، بل المعروف خلافه، والله
تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك، فقال تعالى: **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ**
الدِّلَّةُ أَيَّنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا

بَغْضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: ١١٢]، فاليهود من حين ضربت
عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله، وحبل من الناس: لم
يكونوا بمجردهم ينتصرون، لا على العرب، ولا غيرهم، وإنما
كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من
حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه، قال تعالى: {إِذْ قَالَ
اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي تُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [آل
عمران: ٥٥]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ
كََمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ
طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}
[الصف: ١٤] .

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: والمعنى: لا يسلمون من
الذلة، إلا إذا تلبسوا بعهد من الله، أي: ذمة الإسلام، أو إذا
استنصروا بقبائل أولى بأس شديد، وأما هم في أنفسهم: فلا نصر

لهم، وهذا من دلائل التُّبُوَّة ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا أَعَزَّةَ بِشْرَبٍ،
وخيبر، والنضير، وقريظة، فأصبحوا أذلةً، وعمَّتْهم المذلة في
سائر أقطار الدنيا.

٢ / أن «المسكنة» ليست هي «الفقر»، بل لعلهم أغنى
الناس، لكن المسكنة التي ضربها الله عليهم هي إظهار فقرهم،
وبُخلهم بما في أيديهم، وقد أخبرنا نبينا محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- أنه: (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى
النَّفْسِ) [البخاري ومسلم]، وأنى لهؤلاء هذا الغنى؟!

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -:
{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} خبرٌ من الله عن بني إسرائيل
أنه ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، «الذلة» هذه في الشجاعة،
أذلة، لا يقابلون عدوًّا، قال الله تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا
فِي قُرَىٍّ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ} [الحشر: ١٤]

و «المسكنة» يعود إلى الفقر، فليس عندهم شجاعة، وليس
عندهم غنى، لا كرمًا بالمال، ولا كرمًا بالنفس؛ لأن الشجاعة كرم
بالنفس، يجود الإنسان بنفسه لإعلاء كلمة الله، والكرم: جود
بالمال، ثم - والعياذ بالله - ما حصل لهم هذا، ولا هذا، بل
العكس {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ} فلا شجاعة عندهم، وضربت

عليهم المسكنة فلا جود عندهم، ولهذا لا يوجد أمة أفقر من اليهود، ولا أبخل، أي: لا أفقر قلباً منهم، وليس مالاً، وإلا فأموالهم كثيرة.

****** فهذه الذلة - والعياذ بالله - عليهم مضروبة، وكذلك المسكنة، فإذا قال قائل: الواقع خلاف هذا الأمر؟! قلنا: لا يمكن أن يكون الواقع مخالفاً لكلام الله، ورسوله، وإنما الخطأ في الفهم، والتصور، أما كلام الله: فلا يختلف، فنقول:

هذه الآية مطلقة - أي: قوله تعالى: **{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}** [البقرة: ٦١] - وفي قوله تعالى في آل عمران: **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ}** [آل عمران: ١١٢]: يقيّد هذه الآية، ويصير المعنى: "ضربت الذلة والمسكنة إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس"، فإذا وصلهم الله تعالى، أو وصلهم الناس: فإنهم تزول عنهم الذلة، ويكون معهم شجاعة، وقوة.

****** الحبل من الله ما هو؟ قيل: إنه الإسلام، والحبل من الناس: أن يمدّهم الناس غير اليهود بما يمدونهم به، فاليهود الموجودون الآن في حبلٍ من الناس يمدّهم، وهم النصارى في كل مكان، يمدّونهم ؛ لأن الله يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا**

تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ {
[المائدة: ٥١]، وهذا خبر، والخبر من الله: لا يُخلف، النصارى
تمدهم من جميع أقطار الدنيا، إما علناً وإما سرّاً، وإما مباشراً أو
غير مباشرٍ.

الحبل من الله قلنا: إنه الإسلام – على ما ذكره كثير من أهل
العلم – ويحتمل أنه أعم من الإسلام؛ لأنهم إذا أسلموا: زال
عنهم وصف اليهودية، وصاروا من المسلمين، لكن عندي أنه
{حبل من الله}: أن الله قد يسلطهم على غيرهم؛ عقوبةً لهم، قد
يُسَلِّطُونَ على غيرهم، وتكون لهم الغلبة، عقوبة على الآخرين؛
لعلهم يرجعون إلى الله عز وجل، لاسيما إذا كانوا من أمة محمد
عليه الصلاة والسلام، وعصوا وأبعدوا عن هذه الملة: فإن الله
عز وجل يسلط عليهم مَنْ شاء مِنْ خلقه؛ لعلهم يرجعون، وهذا
الأمر هو الواقع، لو نظرنا إلى الذين جعلوا أنفسهم في مسير
هؤلاء اليهود – وهم العرب – لوجدنا أكثرهم ضالين – ولاسيما
ذوي القيادات منهم – منحرفين عن الحق، بل ربما يصل أمر
بعضهم إلى الكفر – والعياذ بالله –، فلذلك يسلط عليهم
هؤلاء، ويحصل ما يحصل.

{ ذَلِكَ } إشارة إلى ما ذكر من ضَرْب الدِّلَّةِ والمسكنةِ عليهم
والبؤءِ بالغضب العظيم.

{ بِأَنَّهُمْ } معناها السببية أي ذلك بسبب أنهم **{ كَانُوا يَكْفُرُونَ }**
{ بآيَاتِ } جمع آية وهي: العلامة على الشيء التي إذا وجدت كان
الشيء موجوداً لأنها علامته، كالضوء مثلاً آية بزوغ الشمس.

{ اللَّهُ } أي بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله أي بأمارات
الحق وأدلتها التي يقيمها الله سبحانه وتعالى عليهم في كتبه وخلقه
وعلى السنة رسله، وأنهم لَا يكتفون بجحود الحق بعد قيام
البيئات عليه، وإنما حملهم على ذلك: الكبر، والبغى، والحسد.
{ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ } هذه الصفة ليست قيداً ولكنها
كشف وإيضاح، لو قلنا إنها قيد لزم من ذلك أن ينقسم قتل
الأنبياء إلى قسمين قسم بحق وقسم بغير حق، وهذا لا يكون؛
لأن قتل الأنبياء كله يكون بغير حق.

ولو قلنا إنها للإيضاح والكشف صار المعنى يختلف فلا
تكون قيداً بل تكون لبيان الواقع أي أن قتل الأنبياء بغير حق،
فيكون المقصود بذلك شدة التوبيخ لهؤلاء، وأنهم يقتلون أشرف
الخلق بغير حق.

والحكمة في ذكر هذا أنهم لم يكونوا في اعتدائهم لهم أية شبهة حق، ولذا نكر كلمة حق.

عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار.

وإسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم يُنسب إلى كل من يسير بسيرتهم.

{ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله، وقتل رُسل الله، وقبضوا لذلك: أنهم كانوا يُكثرون العصيان لأوامر الله عز وجل، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله.

فارتكاسهم في المعاصي، وتعودهم الاعتداء على الناس، جعل المعاصي تنكت نكتا سوداء في القلب، فإذا استمر الشخص عليها وضعت عليه أغلفة من الظلمة تمنع أن يصل الحق إليه، فعمى القلب عن الحق وصم، ولذا قال تعالى: **{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا. . .}** [نوح: ٢٥]

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ
آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)
وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ
(١١٥)

{لَيْسُوا} الواو في ليسوا هي لأهل الكتاب السابق ذكرهم
في قوله: **{وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}** [آل عمران: ١١٠]

{سَوَاءً} غير متساوين، فليسوا جميعا أشرارا، وأن الله
سبحانه وتعالى لم يخلق طائفة كبيرة من الناس اجتمعت على
الشر اجتماعا مطلقا، بحيث يرتضيه الجميع ويقصدونه ويريدونه
ويبتغونه عامدين مريدين معتدين، بل إن منهم الضال، ومنهم
المضل، ومنهم الناطق بالحق الذي لا يجد داعيا، أو يحمل على
السكوت في وسط نكران الضالين.

ففي وسط طغيان فرعون، وانقماع قومه في إرادته، وجُد
مؤمن آل فرعون، ينطق فيهم قائلا كما حكى الله تعالى عنه:
{وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ

يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ { غافر: ٢٨ -
٢٩ }.

وبعد أن ذكر سبحانه أنهم ليسوا سواء، وقد ذكر أحوال
أشرارهم، أخذ يبين أحوال أخيارهم:

{ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ } طائفة تُؤْم وتُقصد **{ قَائِمَةٌ }** موجودة
حاضرة ليست ماضية خالية، فمعنى قائمة على هذا موجودة.
وفسر الزمخشري كلمة قائمة بمعنى: مستقيمة على العدل
والحق، مأخوذة من قولهم أقمت العود فقام واستقام، أي ثابتة
على الإيمان والعمل الصالح، فهي قائمة يعني مستقيمة، قال ابن
عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يُضَيِّعُوهُ ولم يتركوه.

{ يَتْلُونَ } التلاوة تارة يراد بها القراءة، وتارة يراد بها الاتباع،
فإن صلح المقام للمعنيين جميعاً حمل عليهما، وإن اختص
بأحدهما اختص به، فإذا قلت: تلا علي آية من القرآن فالمراد
القراءة. وإذا قلت: هذا الرجل يتلو آيات الله إخلاصاً وتعبداً،

فهذا يحتمل القراءة ويحتمل الاتباع، وإذا كان يحتمل المعنيين وهما لا يتنافيان حمل عليهما.. إذن قوله: **{يَتْلُونَ}** يشمل تلاوة اللفظ وتلاوة العمل بآيات الله.

{آيَاتِ اللَّهِ} وما هو الكتاب الذي يتلونه كما أشار الوصف الأول؟

الجواب عن هذا السؤال يستدعي بيان مَنْ هذه الطائفة التي استحقت تلك الأوصاف الجليلة التي وصفها الله تعالى بها، ونقول في ذلك: إن العلماء قد اختلفوا في ذلك على رأيين:

أحدهما: أنها طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأذعنوا للحق الذي جاء به ودعا إليه، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام وطائفة من اليهود الذين كانوا يقيمون مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو ينطبق على النصارى أيضا وغيرهم الذين يهتدون بهدي الإسلام، ويرتضونه عن بيّنة دينا لهم، وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيهم وفي أمثالهم ممن يكونون في قابل الأيام ما رواه البخاري: قَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا

أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ: أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيهَا دُونَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ.

وعلى هذا الرأي يكون تفسير {قَائِمَةٌ} بمعنى موجودة؛ لأنها قد وجدت حقيقة، وارتضت الإسلام ديناً، تالية آيات القرآن آناء الليل.

الرأي الثاني: أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ولم تعتنق الإسلام، وكانت قبله أو بعده ولم تبلغها الدعوة على وجهها، ولم تحرف التوراة أو الإنجيل أو لم تأخذ بالمحرف منهما، وقد أثر ذلك الرأي عن بعض السلف، فقد روي عن ابن عباس أنه قال في معنى أمة قائمة: "أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه". وروي عن قتادة أنه كان يقول في الآية: "ليس كل القوم هلك، لقد كان فيهم بقية".

ويكون معنى {قَائِمَةٌ} على هذا التفسير بمعنى مستقيمة مهتدية مؤمنة بالحق مذعنة له.

وآيات الكتاب التي يتلونها على ذلك هي البقية الصحيحة من كتبهم التي تشتمل على أدعية كلها توحيد وضراعة ونحو

ذلك من أمثال بعض مزامير داوود، مثل ما جاء في المزمور الخامس والعشرين: "إليك يا رب أرفع نفسي، عليك توكلت، فلا تدعني أخزى، لا تسمت بي أعدائي، كل منتظريك لا يخزون، ليخز الغادرون بلا سبب، طرقتك يا رب عرفني، سبلك علمني، وربني في حقك وعلمني". وأمثال هذه الأدعية والمناجاة لعلها البقية الباقية من تلك الكتب التي حرف فيها الكلم عن مواضعه.

{ آثَاءَ اللَّيْلِ } أوقاته وساعاته، واحدها: إنِّي، وإنِّي وآثاء مثل: معي وأمعاء.

{ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } يصلون، لأن التلاوة لا تكون في الركوع والسجود. وصفهم بتلاوة آيات الله وهي أفضل الذكر وأعلى «أوصاف القول»، وبالسجود وهو أفضل «أوصاف الفعل»؛ لأن السجود أفضل من القيام، وأفضل من الركوع حيث إن الساجد أقرب ما يكون من ربه.

والثناء عليهم بالسجود لأنه أعظم مظاهر الخضوع لله، واختلفوا في توقيته فقال بعضهم: هو في قيام الليل، وقال ابن مسعود: هي صلاة العتمة يصلونها ولا يصلوها من سواهم من أهل الكتاب.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: أَخَّرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَيْلَةَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ غَيْرَكُمْ قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} إِلَى {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}.
[إسناده حسن]

وقيل: ومعنى يسجدون أي يخضعون ويتطامنون للحق ولا يجحدون، ويتجهون إلى ربهم. يرجون رضاه، ولا يستكبرون عن نداء الحق إذا دعوا، فكفى بالسجود عن الخضوع المطلق الذي يعد السجود مظهره.

وقد ذكر ذلك الوصف مصدراً بـ {هم} إذ يقول: {وَهُمْ يَسْجُدُونَ}، فلم يقل: ويسجدون؛ للإشارة إلى أن الخضوع والإذعان للحق شأن من شئونهم، وليس حالا تعرض لهم، إذ إن ذكر الضمير فيه تقوية الإسناد وتوثيق لدوامه واستمراره.

{يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} بيان حال من أحوالهم، وهي الحال الدائمة المستمرة التي جعلتهم مستقيمين على الحق مهتدين بهديه، فإن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان يجعل المؤمن يذعن للحق، ويخلص في كل ما يطلب، ولا يحب الشيء إلا لله،

ويكون الله تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،
ويده التي يبطش بها، فلا يكون منه إلا ما يكون للحق جل
جلاله، وتكون كل مشاعره وأهوائه تبعاً لأوامر الله تعالى ونواهيه.
هذا هو الإيمان بالله.

أما الإيمان باليوم الآخر، فإنه يعرف به حقيقة هذه الدنيا،
وأنها لعب ولهو، وزينة وتفاخر، وأنه في هذه الحياة الآخرة يلقي
الله سبحانه وتعالى، وأنه إذ يلقاه يجد كل ما عمل من خير
محضراً، وما عمل من سوء يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، وإذا
عمل حساب ذلك اللقاء ما أقدم على شر إلا مضطراً أو لمأماً.

وفي الآية تعريض بأن إيمان اليهود والنصارى بهما مع
قولهم: عزيزٌ والمسيح ابنا الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل
ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما في
شيء أصلاً، ولو قيد بوصف الإيمان فقط فربما تُوهَّم أن المنتفي
عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم
بالأصل وهيئات.

{وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} هذا هو العمل
الذي يفيضون به على غيرهم، ويشعرون بأن عليهم حقاً بالنسبة
للحق الذي أدركوه، وهو أن يتواصوا بالحق، ويتناهوا عن الباطل،

ويأمرُوا بالمعروف الذي تقره العقول، ولا تنكره الفطرة
المستقيمة، فإن المؤمن المذعن للحق يدعو إليه، ولا يسكت
على باطل ولا يرتضيه، وتلك صفة أهل الخير من أهل الكتاب،
وعلى عكس ذلك أهل الشر، فإنهم كانوا لا يتناهون عن منكر
فعلوه. ولذا قال تعالى في أهل الشر منهم: **{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ}** [المائدة: ٧٨-٧٩]

فهما صفتان أُخْرِيَانِ لأُمَّةٍ أُجْرِيَتَا عَلَيْهِمَ تحقيقاً لمخالفتهم
اليهودَ في الفضائل المتعلقة بتكميل الغيرِ إثرَ بيانِ مُبَايِنَتِهِمَ لَهُمَ
في الخصائص المتعلقة بتكميل النفس، وتعرضاً بمداهنتهم في
الاحتساب بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناسِ وصدّهم عن
سبيل الله فإنه أمرٌ بالمنكر ونهيٌ عن المعروف.

{وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} التي يعملونها مبادرين في فعل
أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية غير متناقلين خشية الفوات
لمعرفتهم بقدر ثوابهم.

وأصل المسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في
الأمر سارع في تولّيه والقيام به وآثر الفور على التراخي.

فهذه حال من أحوالهم المستمرة، وهي أنهم في خير مستمر، لا يجدون لحظة إلا يقومون فيها بخير، ولا تلوح لهم فرصة خير إلا يقدمون عليها.

ولقد ذكر بعض العلماء هنا وجه البلاغة في التعبير بـ (في) دون (إلى) إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال يسارعون إلى الخيرات، ولكنه سبحانه وتعالى قال: يسارعون في الخيرات، للإشارة إلى أن هؤلاء يسرون في كل أعمالهم في سبيل الخير، فهم ينتقلون من خير إلى خير، في دائرة واحدة هي دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها، ولا يخرجون منها، فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير، بل إنهم ينتقلون من خير إلى خير، فكان التعبير بـ (في) له موضعه من البيان.

قال أبو السعود: وإيثارُ كلمة {في} على ما وقع في قوله تعالى: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** [آل عمران: ١٣٣] للإيذان بأنهم مستقرّون في أصل الخير متقلّبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها.. وفيه تعريضٌ بتباطؤ أهل الكتاب فيها بل مبادرتهم إلى الشرور.

{وَأُولَئِكَ} فيه من معنى البعد للإيذان بعلوّ درجتهم وسموّ طبقتهم في الفضل، وإيثاره على الضمير للإشعار بعلّة الحكم

والمَدح أي أولئك المنعوتون بتلك الصفاتِ الفاضلة بسبب اتصافهم بها.

{مِنَ الصَّالِحِينَ} وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: **{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [آل عمران: ١٩٩]

فهذه الأوصاف كلها سلكتهم في عداد الصالحين، ولم تجعلهم في زمرة الفاسقين الذين ذمهم الله سبحانه وتعالى: والصالحون الذين دخل هؤلاء في جماعتهم هم الذين صلحت أحوالهم واستقامت أمورهم، وفي التعبير بقوله تعالى: **{مِنَ الصَّالِحِينَ}** إشارة إلى أنهم بهذه المزايا، وتلك الصفات قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى: وذكر أن أكثرهم فاسقون، فهم قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين.

{وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ} أي لن يعدموا ثوابه ألبتة، ولن يجحدوه بل يعترف له به ويجزون به وافياً.

والكفر: ضد الشكر، وهو إنكار وصول النعمة الواصلة. عبّر عنه بذلك إظهاراً لكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك إثابتهم

بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح، وإيثار صيغة البناء للمفعول للجري على سنن الكبرياء.

و {مِنْ} هنا تفيد العموم، أي: إن يفعلوا أي خير كائناً ما كان مما ذكر أو لم يُذكر، قليلاً كان أو كثير فلن يحرموا ثوابه، وقد أكد احتسابه بـ {لَنْ}، لأن النفي بها يفيد التوكيد.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} تذييلٌ مقررٌ ما قبله، فإن علمه تعالى بأحوالهم يستدعي توفية أجورهم لا محالة، والمراد بالمتقين إما الأمة المعهودة، وضع موضع الضمير العائد إليهم مدحاً لهم وتعييناً لعنوان تعلق العلم بهم، وإشعاراً بمناط إثابتهم هو التقوى المنطوية على الخصائص السالفة، وإما جنس المتقين عموماً وهم مندرجون تحت حكمه اندراجاً أولياً.

وتخصيص العلم بالمتقين من أجل الحث على التقوى والحذر من مخالفتها وعدم القيام بها وإلا فإن الله عليم بالمتقين وبضدّهم.

وفيه إشارة إلى أن النية الطيبة في الخير مع سلامة العقيدة ونزاهة النفس تجعل العمل طيباً مرجو الثواب دائماً، لأن الأساس دائماً تقوى القلوب.

وفي هذا التذييل الكريم إشارات إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن تقوى القلوب هي أساس لكل خير، وهي المجنب من كل شر.

والثاني: أن التقوى إذا كانت شأنا من شئون النفس، صار الشخص لا يوصف إلا بأنه من المتقين، وصار عمل الخير كسجية له من السجايا.

والثالث: أن الله عليم بكل ما تخفيه القلوب وهو يجزي بما يعلم.

اللهم وفقنا لتقواك، وأنر بصيرتنا، وطهر قلوبنا من رجس الهوى، إنك سميع الدعاء.

** ومجمل هذه الآيات من إنصاف القرآن، فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكركم، وكذلك كان الشأن في ذكر أهل الكتاب، فيقول: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٥].

ويقول سبحانه: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩].

وفي هذه الآية يذكر بالخير العظيم طائفة من هؤلاء فيقول
الحكم العدل تعالت كلماته: {لَيْسُوا سَوَاءً}.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ
فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} بما يجب أن يؤمن به {لَنْ} تفيد تأكيد
النفي {تُغْنِيَ عَنْهُمْ} لن تدفع عنهم {أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ} ذكر
الأموال لأن الأموال يفتدي بها الإنسان نفسه في مواطن الحرج،
والأولاد لأنهم أشد الناس حماساً في الدفاع عن آبائهم
وأمهاتهم، فالإنسان لا يمكن أن يدع عدوه يبطش بأبيه أو أمه
أبداً وهو على قيد الحياة.

وكرر حرف النفي مع المعطوف في قوله: {وَلَا أَوْلَادُهُمْ}
لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم لدفع توهم ما هو متعارف من أن
الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم.

و {لَا} هنا تفيد ثلاثة أمور:

أولها - مزيد تأكيد للنفي الثابت بـ «لن».

وثانيها - أن تكرار «لا» يفيد أنهم كانوا يعتزون بالأموال والأولاد مجتمعين ويعتزون بأحدهما منفردا، فنفى سبحانه وتعالى الغناء عنهما مجتمعين ومنفردين أيضا.

وثالثها - أن المال يكون قوة في مواضع، والولد يكون قوة في مواضع، فتكرار النفي يستبين أنه لا قوة تدفع مقت الله وغضبه لا من المال ولا من الولد.

{مَنْ اللَّه} من عذابه تعالى، أي لا يُردّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراد بهم.

{شَيْئًا} نكرة في سياق النفي **{لَنْ تُغْنِي}**، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي شيء كان سواء كان هذا الشيء شديداً أم كان ضعيفاً.

وإن كان التصديق بالأموال يطفى غضب الرب في حق المؤمنين، ويغفر لهم بموت أولادهم، أو استغفارهم.

ولم يبين هنا في هذه الآية هل نفيه لذلك تكذيب لدعواهم أن أموالهم وأولادهم تنفعهم، وبين في مواضع آخر أنهم ادعوا ذلك ظنا منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلا

لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأن الآخرة كالدينا يستحقون فيها ذلك أيضا فكذبهم في آيات كثيرة.

فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ} [سبأ: ٣٥]، وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا} [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدنيا. وقوله: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ} [فصلت: ٥٠]، أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: {وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: ٣٦]، قياسا منه للآخرة على الدنيا. ورد الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ} [آل عمران: ١١٦]، وقوله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقوله: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآتِي تَقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ} [سبأ: ٣٧]، وقوله: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنََّّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ،

وَأْمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم: ٤٤-٤٥]. إلى غير ذلك من الآيات.

والكفار ما كانوا يعتزون إلا بالمال والولد، فهذا قائلهم يقول: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: ٣٤]. ولقد كانوا يربطون بين المال وكل المعاني السامية، فكانوا يظنون أن كل الخير وكل الفضائل للأغنياء، وكل الرذائل للفقراء، فلا يتصور من الأغنياء إلا الخير، ولا يتصور من الفقراء إلا الشر، ولقد أخذ منهم العجب عندما أرسل الله محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو فقير، فقد قال الله تعالى عنهم: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: ٣١-٣٢].

وفي هذا بيان خطأ نظرهم، فالغنى والفقر لا يتجاوز كل منهما أنه قسمة الله تعالى للمعاش في هذه الحياة، أما رفع الدرجات فأمر آخر ليس مرتبطاً بالمال قلة أو كثرة، ويشير إلى أن الرفعة تكون للفقراء ليسخر الأغنياء منهم، فيزداد الأولون من الله قرباً، ويزداد الآخرون من الله بعداً.

ولماذا اعتبر النص الكريم الكفر سببا لعدم غناء الأموال والأولاد، مع أن طبيعة هذا الوجود تجعلها غير مغنية مؤمنا أو كافرا؟

والجواب عن ذلك أن المؤمنين لَا يعتقدون أن أموالهم وأولادهم تغني عنهم من الله شيئا، فلم يكن ثمة حاجة للنفي بالنسبة لهم، وفوق ذلك فإن المؤمنين يتخذون من الأموال والأولاد سبيلا لرفع منار الحق وعزته، فهي تكفيهم بعض الكفاء، وإن كانت لَا تغنيهم عن الله تعالى، ولأن كلمة {تغني} في معناها دفع الأذى، والله سبحانه وتعالى منزل الأذى بالكافرين عقابا لجرائمهم ولشروورهم، وما تعرض المؤمن لهذا الأذى، فلا حاجة لهذا الدفع.

{وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} مصاحبوها على الدوام وملازموها، فمعنى المصاحبة هنا الملازمة الدائمة المستمرة.

ولعل في هذا التعبير إشارة إلى أنهم بعد أن كانوا يصطحبون في الدنيا أموالهم مفاخرين بها وأولادهم مستنصرين بهم، يصاحبون بدلهم في الآخرة نار الله الموقدة، وعذابه الأليم، وبعد أن تركوا نعيمًا غير مقيم استقبلهم شقاء دائم مستمر.

{هُمْ} الضمير هنا لتأكيد الحكم **{فِيهَا خَالِدُونَ}** أبدا.

وصرح في موضع آخر أن كونهم وقود النار {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ
وَقُودُ النَّارِ} [آل عمران: ١٠] والمذكور هنا على سبيل الخلود
وهو قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل
عمران: ١١٦].

{مَثَلٌ} هذا تشبيه تمثيلي؛ لأن التشبيه يقولون إنه نوعان:
«تشبيه إفرادي» مثل أن نقول: فلان كالبحر. فلان كالأسد. و
«تشبيه تمثيلي» بمعنى أن تشبه الهيئة بالهيئة يكون المشبه شيئاً
مؤلفاً من عدة أمور، والمشبه به كذلك يكون شيئاً مؤلفاً من عدة
أمور، فيسمى عند البلاغيين تشبيهاً تمثيلاً.

{مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} من المكارم ويواسون فيه
من المغارم.. بيان لكيفية عدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون
عليها في جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم
الفارغة.

{كَمَثَلِ رِيحٍ} وأفرد ريحاً لأنها مختصة بالعذاب، كما أفردت
في قوله تعالى:

{بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف: ٢٤] {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} [الروم: ٥١] {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ} [فصلت: ١٦] {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} [القمر: ١٩] {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١].

كما أن الجمع مختص بالرحمة:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} [الروم: ٤٦] {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [الحجر: ٢٢] {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٥٧]

{فِيهَا صَرْصَرٌ} واختلف في الصر فقليل: البرد الشديد، وقيل: النار قاله ابن عباس، وقيل الصر الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها.. والأقوال الثلاثة متلازمة فهو برد شديد محرق يبسه للحرث كما تحرقه النار وفيه صوت شديد.

قال ابن عاشور: والصر: البرد الشديد المميت لكل زرع أو ورق يهب عليه فيتركه كالمحترق، ولم يعرف في كلام العرب إطلاق الصر على الريح الشديد البرد وإنما الصر اسم البرد. وأما الصرصر فهو الريح الشديدة وقد تكون باردة.

وفي هذا التشبيه بين سبحانه أن هذا الإنفاق ليس خالصا من الضرر في ذاته، فهو يحمل في ذاته ما يفسده ويجعله ضارا لا نفع فيه، وشرا لا يمازجه خير، فقد شبه سبحانه إنفاقهم في هذه الحياة من حيث اشتماله على الضار، وعدم إثماره وإنتاجه، بالريح التي لا ترسل لواقح، ولا تكون نسيما عليلا تلقي في النفوس بالبشر والحبور، ولا تكون ريحا يحمل للزرع عوامل النماء إذ يكون فيها غذاء، بل يكون فيها ما يميت الزرع والضرع، وهي الريح التي يكون فيها صرٌّ، والصر معناه البرد الشديد المميت للنبات، ومعنى اشتمالها على الصر وصفها به أي أنها ريح صر فهي ريح قارة باردة مهلكة مفسدة وليست منمية مبقية.

والتعبير بقوله تعالى: {فِيهَا صِرٌّ} يشير إلى أن الرياح فيها بطبيعتها رجاء، ولكنها اشتملت على ما يذهب بخيرها، وفي ذلك وصف من أوصاف من المشبه، وذلك لأن الإنفاق في ذاته

قد يرجى منه النفع، ويظن فيه، ولكنه اشتمل في ذاته ما يذهب بخيره، ولا يثبت إلا باطلا، وذلك أنه بمقاصده التي لا يقصد بها وجه الله ولا نفع الناس، ولكن يقصد التفاخر والتباهي والتنافر، والاستطالة على الناس بفضول القول، يذهب كل خيره، فالتعبير بقوله سبحانه: **{فِيهَا صِرٌّ}** فيه إيماء إلى أن الأذى والضرر الذي لابس المشبه وهو الإنفاق لم يكن من ذاته، ولكن من قلب المنفق ونيته، وغايته من الإنفاق، وإن هذا الإنفاق – كما أشار النص القرآني الكريم – يحمل في ذاته موجب رده.

{أَصَابَتْ حَرْثٌ} هو الزرع، وأصل كلمة «حَرْث» فَلَح الأرض وإلقاء البذر فيها، ثم أطلقت في مجاز مشهور على ما هو نتيجة ذلك وهو الزرع، وقد أطلق على كل موضع يكون فيه إنتاج ولو لم يكن أرضاً وزرعاً، كما قال تعالى: **{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}** [البقرة: ٢٢٣].

{قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} بالكفر والمعاصي فباءوا بغضب من الله، وإنما وُصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سَخَطٍ أَشَدُّ وَأَفْظَعُ. **{فَأَهْلَكْتُهُ}** عقوبة لهم ولم تدع منه أثراً ولا عِثْراً، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يحق الله ثواب أعمالهم وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحَرْث بذنوب صاحبه.

{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ} بما بينه من ضياع ما أنفقوا من الأموال.
{وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} **{أَنْفُسَهُمْ}** مفعول به مقدم، لأن
نظم الكلام المعتاد: "ولكن يظلمون أنفسهم" وفائدة التقديم
الحصر، يعني أنهم ما ظلموا الله عز وجل، والله أيضاً ما ظلمهم
ولكنهم ظلموا أنفسهم.
وصيغة المضارع في **{يَظْلِمُونَ}** للدلالة على التجدد
والاستمرار.

****** فهذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته
ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم
والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبتغون به وجه الله، وما
ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله، بالزرع الذي زرعه
صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريح شديدة البرد جدا يحرق
بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار فأهلك ذلك الزرع
وأبسته.

قال ناصر الدين في "الانتصاف": والأقرب أن يقال أصل
الكلام - والله أعلم - مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا
كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته،
ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة، وهو

تقديم ما هو أهم، لأن الريح التي هي مثل العذاب، ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث. فقدمت عنايةً بذكرها، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه. ومثل هذا، في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة، قوله تعالى: **{فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا}** [البقرة: ٢٨٢] الآية. ومثله أيضاً: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه، والأصل: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت. وأن أدعم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة والله الموفق.

في النص القرآني إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب بالريح من يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي، فقال سبحانه: **{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتُهُ}**، فإن هذا النص السامي يومئ إلى أن الله تعالى يرسل في الدنيا عقاباً على أموال الظالمين فيهلكها، ولو اتخذوا الأسباب وما يجب اتخاذه من احتياطات لحفظ الأموال، وإن ذلك التخريج لا يوجد ما يمنع من قبوله، بل الإذعان له لأن تدبير العبد واحتياطه، لا يمنع تقدير الرب وقضاءه، وإن الريح كانت سبباً في نصرته النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في غزوة الأحزاب، فإن الله تعالى أرسل على

المشركين ريحا أَلْقَت الرعب في قلوبهم مع كمال العدة والعدد، وقال تعالى في ذلك: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب: ٢٥]. ولقد روي عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتُ عَادَ بِالذَّبُورِ) [البخاري].

وإذا كان ذلك ثابتا فلماذا نستبعد أن يعاقب بعض الظالمين في الدنيا بإصابة حرثهم بريح، لفساد نياتهم، ولاستخدامهم المال في غير مواضعه، وإن الذين يستبعدون ذلك هم الذين يُفَرِّطُونَ في الإيمان بالأسباب العملية، ولا يذعنون للأحكام القدريّة، وإن الزرع بالذات ليس لأحد أن يدّعي أنه يستطيع حمايته من الرياح والآفات، مهما يتخذ من الاحتياط، فإن للأجواء أثرها، وللآفات الوبائية حكمها، ولا سبيل إلى التوقي الكامل منها.

إذن فالأمر في الريح يصيب الله بها بعض الظالمين لظلمهم حق لا ريب فيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ

أَفَوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

لما أخبر تعالى عن مصير الكافرين في الآخرة، وأن ذلك المصير المظلم كان نتيجة كفرهم وظلمهم حذر المؤمنين من موالاته دون المؤمنين، وهو أيضا متصل بما سبق من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: ١٠٠]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبياً ورسولاً.. وصدر النداء بوصف الإيمان للإشارة إلى أن مقتضى الإيمان ألا يستعينوا بأولئك الذين كفروا بآيات الله تعالى، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، فقضية إيمانكم وكفرهم توجب ألا تأمنوهم في خاصة أموركم.

وقيل: تصديره بالنداء يدل على أهميته والتنبيه له، وتوجيهه إلى المؤمنين للحث على الامتثال كأنه يقول: إن كنتم مؤمنين فافعلوا كذا وكذا، وإن كنتم مؤمنين فلا تفعلوا كذا وكذا، ففيه توجيه للمؤمنين وإغراء بالامتثال.

كما أن امتثالهم من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يخاطب الشخص بوصف ثم يوجه إليه حكم متعلق بهذا الوصف إلا كان ذلك دليلاً على أن امتثال هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يصح أن توجه لفاسق كلمة تتعلق بالمؤمن. وبالمقابل أيضاً فإن الإخلال به نقص في الإيمان.

{ لَا } الناهية { تَتَّخِذُوا بَطَانَةً } بطانة الرجل: خاصته الذين يعرفون خفايا أمره، ومكنون سره، ويستبطنون ما يخفى على غيرهم، فيعرفون موضع قوته وضعفه، ويتخذ منهم مستشاريه الذين يستشيرهم، ويستنصحهم إن احتاج إلى نصيحة، وأصل البطانة خلاف الظهارة، وتطلق على الثوب الخفي الذي يكون باطنا غير ظاهر، وقد استعير اللفظ للدلالة على الذين يختصون بالاطلاع على باطن أمر الشخص، وكأنه شبه الذين يختصون بشئون الشخص خفيها وظاهرها ببطانة الثوب التي تلاصق الجسم أو تقاربه، لقوة الاتصال في كل منهما، ولأن كليهما

يمس ذاته وشخصه: بطانة الثوب تمسه حسا، وبطانة الرجل تمسه معنى، وكما أن الأولى أدرانها تكون أمكن في الأذى وتكون أسرع، كذلك الثانية تكون أمكن وأقوى تأثيرا وأسرع.

قال أهل اللغة: البطانة في الأصل داخل الثوب، وجمعها بطائن، وفي القرآن {بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤] وظاهر الثوب يسمى الظهارة.. والبطانة أيضا الثوب الذي يجعل تحت ثوب آخر، ويسمى الشعار، وما فوقه الدثار، وفي الحديث النبوي: (الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ) [البخاري] واستعمال اللفظين مجاز عن قربهم واختصاصهم وتمييزهم على غيرهم في ذلك. فأطلقت البطانة على صديق الرجل وخصيصه الذي يطلع على شؤونه، تشبيها ببطانة الثياب في شدة القرب من صاحبها. والحاصل أن بطانة الرجل ووليجه: هم خاصة أهله الذين يطلعون على باطن أمره، الذي يخفيه على الناس للمصلحة. أو مَنْ يُعَرِّفُهُ أَسْرَارَهُ ثَقَّةً بِهِ.

{مَنْ دُونَكُمْ} يجوز أن تكون «من» فيه زائدة و «دون» اسم مكان بمعنى «حولكم»، وهو الاحتمال الأظهر، كقوله تعالى في نظيره: {وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً} [التوبة: ١٦] وهذا يشمل المنافقين وأهل الكتاب والكفار.

ويجوز أن تكون «من» للتبغيض و «دون» بمعنى «غير»
كقوله تعالى: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧]
أي غير فتح مكة فتح خير.. يعني من غير أهل ملتكم، وقد
علم السامعون أن المنهي عن اتخاذهم بطانة هم الذين كانوا
يموهون إلى المؤمنين بأنهم منهم، ودخائلهم تقتضي التحذير من
استبطانهم.

وعلى معنى من سواكم، أو من غيركم أي من غير المسلمين
كالكفار وأهل الكتاب. الذين لم يبلغوا ما أنتم فيه من قوة
الإيمان والإخلاص للحق، أو في السيرة وحسن المذهب. كما
قال تعالى: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ
ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} [المؤمنون: ٦٣] أي سوى ذلك. وقوله:
{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ} [يس: ٧٤] أي من
غيره.

قال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: كان رجال من المؤمنين
يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والمخالفة فأنزل
الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون
المنافقين فنُهِوا عن ذلك.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي الدُّهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إن هاهنا غُلّاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً؟ فقال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين.

وروى أن أبا موسى الأشعري استكتب ذميا فكتب إليه عمر يعنفه وتلا عليه هذه الآية.

وقدم أبو موسى الأشعري على عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- بحساب فرفعه إلى عمر فأعجبه، وجاء عمر كتاب فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال: إنه لا يدخل المسجد. فقال لم! أجنب هو؟! قال: إنه نصراني؛ فانتهره وقال: لا تدنهم وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خونهم الله.

وعن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرِّشأ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيّكم بالذين يخشون الله تعالى.

وقيل لعمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم. أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين.

ففي هذه الآثار مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التي يُخشى أن يُفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب.

قال القرطبي: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء.

قال ابن كثير: وقد قال الحافظ أبو يعلى.. عن الأزهري بن راشد قال: كانوا يأتون أنسًا، فإذا حَدَّثَهم بحديث لا يدرون ما هو، أتوا الحسن -يعني البصري- فيفسره لهم. قال: فحدَّث ذات يوم عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (لا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا) فلم يدروا ما هو، فأتوا الحسن فقالوا له: إن أنسًا حَدَّثَنَا أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (لا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا) فقال الحسن: أما قوله: (ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا): محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وأما قوله: (لا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الشُّرْكِ) يقول: لا تستشيروا

المشركين في أموركم. ثم قال الحسن: تصديق ذلك في كتاب الله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ}**.

وهذا التفسير فيه نظر، ومعناه ظاهر: (لا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا) أي: بخط عربي، لئلا يشابهه نقش خاتم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فإنه كان نَقْشُهُ محمد رسول الله؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن يَنْقُشَ أَحَدٌ عَلَى نَقْشِهِ.

وأما الاستضاءة بنار المشركين، فمعناه: لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم، بل تَبَاعَدُوا مِنْهُمْ وَهَاجَرُوا مِنْ بِلَادِهِمْ؛ ولهذا روى أبو داود -رحمه الله- (لا تَتَرَايَ نَارَاهُمَا) وفي الحديث الآخر: (مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ أَوْ سَكَنَ مَعَهُ، فَهُوَ مِثْلُهُ)؛ فَحَمَلُ الْحَدِيثِ عَلَى مَا قَالَهُ الْحَسَنُ -رحمه الله- والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر، والله أعلم. أهـ

ثم بين تعالى الوصف الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال: **{لَا يَأْلُونَكُمْ}** «الألي»: بمعنى بذل الجهد، ثم استعمل مُعَدَّى إلى مفعولين في قولهم: "لا آلوكُ نُصْحًا" و "لا آلوكُ جُهدًا" على تضمين معنى المنع والنقص، أي لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه.. فالألو: التقصير والترك، فلا يألون جهداً في خبالكم يعني أنهم يبذلون كل جهد ولا يقصرون في إفساد الأمور عليكم.

{خَبَالًا} الخبل: اختلاف الأمر وفساده، ومنه سمي فساد العقل خبالاً.. يعني لا يتركون الجهد في فساد في أمور دينكم وديناكم، وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة.

{وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} أحبوا وتمنَّوا عَنَّتْكم، أي: مشقتكم وشدة ضرركم، كما قال الله تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ}** [البقرة: ٢٢٠] أي ألحق بكم المشقة، وقال تعالى: **{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}** [التوبة: ١٢٨] أي شديد عليه ما شق عليكم.

فلذا هم لا يشيرون عليكم إلا بما يفسد عليكم أموركم ويسبب لكم الكوارث والمصائب في حياتكم.

وهذا هو الوصف الثاني، أو الحال الثانية من أحوالهم، أو العلة الثانية لعدم اتخاذهم بطانة: وهي سبب لإرادتهم البوار والفساد للمسلمين، فالأولى مظهر ونتيجة، والثانية باعث ودافع، فهم لا يودُّون للمسلمين السعادة والرفاهية والخير والقوة بل يودون لهم الشقاء والتعس والأذى، وليس لعاقل أن يطلع خفايا أموره ويستنصح من لا يود له إلا الشر والأذى.

{قَدْ بَدَتِ} ظهرت **{الْبَغْضَاءُ}** البغضاء: البغض الشديد المستمكن الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، فهي صفة ثابتة،

وفرق بين البُغض والبغضاء فالْبغض حال تقبل الزوال، وأما
البغضاء فهي كراهية يبعد زوالها، وهي على ذلك أخص من
البغض المطلق، إذ هي بغض مقيد، وهي تظهر من عباراتهم
وكلماتهم، كما قال تعالى: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}**
[محمد: ٣٠] أي فلتات أقولهم.

{مِنْ} لبيان محل البدو **{أَفْوَاهِهِمْ}** قد ظهرت البغضاء في
كلامهم لما أنهم لا يتمالكون مع مبالغتهم في ضبط أنفسهم
وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يُعلم به بغضهم
للمسلمين.

وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة وإشعاراً بأن ما
تلفظوا به يملأ أفواههم، كما يقال: كلمة تملأ الفم إذا تشدق
بها، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه.

****** وفي هذه الآية دليل على أن شهادة العدو على عدوه لا
يجوز، وبذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز؛ وروى عن أبي
حنيفة جواز ذلك. وحكى ابن بطل عن ابن شعبان أنه قال:
أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدو على عدوه في شيء
وإن كان عدلاً، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر.

{وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} مما بدا لأن بُدُوّه ليس عن رَوِيّة واختيار.

أي قد لاح على صَفَحَات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، وعندهم من البغضاء في القلوب أكثر بكثير مما تبديه الألسن ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، مما لا يخفى مثله على لبيب عاقل.

وليس معنى ذلك أن البغضاء لا تبدو إلا في الأقوال، بل تظهر أيضا في الأفعال، ولكن عند الفحص الدقيق، والوزن الصحيح، وإن ما يظهر على اللسان هو طفح مما امتلأ به القلب، فهي فيض الإناء وما يسيح منه، وما في الإناء أكثر وأغزر، وهو المادة الوفيرة التي كان منها طفح الكيل، ولذلك قال تعالى: **{وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ}** أي ما يطورون في صدورهم وتنطوي عليه نفوسهم أكثر مما يظهر، إذ إن ما يظهر هو الجزء الذي انبثق من الوكاء، أو هو في الحقيقة الرشح الذي ظهر من المسام التي تخفى ما وراءها.. وهذا الوصف هو في الحقيقة توبيخ لأولئك الذين يأتمنونهم، وحالهم في البغضاء ظاهرة مكشوفة، غير مخفية ولا مستورة.

وهذه الخلال الثلاث ثابتة لهم فهي صالحة للتوصيف، ولتعليل النهي. ذلك لأن العداوة الناشئة عن اختلاف الدين عداوة متأصلة لاسيما عداوة قوم يرون هذا الدين قد أبطل دينهم، وأزال حظوظهم.

{قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ} أظهرناها حتى صارت بينة مثل فلق الصبح **{الآيات}** دلائل سوء نوايا هذه البطانة، المتضمنة لبيان أعدائكم وأحوالهم وصفاتهم لتعتبروا وتأخذوا حيظتكم.

أو قد بينا لكم علامات عداوتهم بتلك الصفات إن كنتم تعقلون فتتوسمون تلك الصفات، كما قال تعالى: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}** [الحجر: ٧٥]

****** ولم يزل القرآن يربي هذه الأمة على إعمال الفكر، والاستدلال، وتعرف المسببات من أسبابها، في سائر أحوالها: في التشريع، والمعاملة لينشئها أمة علم وفطنة.

****** وفيه دلالة على أن الله تعالى له عناية خاصة بالمؤمنين

يبين	لهم	الآيات

التي قد تخفى عليهم، بل هي خافية عليهم. وختم الله تعالى هذه الأحوال بهذا النص الكريم، ليدعوهم إلى التفكير فيما هم مقبلون عليه، وليدعوهم إلى الحذر وتخير

خاصتهم وبطانتهم، وخصوصا الحكام منهم، فإن البطانة تكون خيرا إن حضت على الخير، وتكون شرا إن حرضت على الشر، والعميق النظر المدرك المتعقل فيما يفعل هو الذي يدرك الأخيار من الأشرار، ولقد روى البخاري، والنسائي، وغيرهما، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ).

{إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} إن كنتم تعقلون ما بُيِّنَ لكم من الآيات، فلا تتخذوا بطانة من دونكم.. وقد علم تعالى أنهم عقلاء، لكن علقه على هذا الشرط على سبيل الهزّ للنفوس كقولك: إن كنت رجلاً فافعل كذا. ولكون هذه الآيات آيات فراسة وتوسم، قال: **{إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}** ولم يقل: إن كنتم تعلمون أو تفقهون، لأن العقل أعم من العلم والفقه.

والمشاهد على مر العصور والأزمنة وواقع الحال أن ذلك حق، فما وجد حاكما يتخذ خاصته من غير المؤمنين إلا إذا كان ممن غلبت عليه شهواته وأردته ودولته وأهوائه، وما رأيت حاكما

مسلمًا يتجنب هؤلاء إلا إذا كان ممن غلب عقله هواه، وممن جنبه الله الزلل في الحكم.

{هَآأَنُتُمْ} استئناف ابتدائي، قصد منه المقابلة بين خلق الفريقين، فالمؤمنون يحبون أهل الكتاب، وأهل الكتاب يبغضونهم، وكل إناء بما فيه يرشح، والشأن أن المحبة تجلب المحبة إلا إذا اختلفت المقاصد والأخلاق.

(ها) للتنبيه.. وفيها قراءتان: المد (هَآأَنُتُمْ) أو القصر (هَآَنُتُمْ) وكلاهما قراءتان سبعيتان ينبغي للقارئ أن يقرأ بهذه أحياناً وبهذه أحياناً إلا أمام العامة، فأمام العامة لا ينبغي أن تقرأها إلا بقراءة المصحف الذي بين أيديهم؛ لأنك لو قرأت بغير قراءة المصحف الذي بين أيديهم اتهموك بالخطأ أو شككوا في القرآن. يقولون: أنت غيرت كتاب الله؛ لأن العامة الدهماء لا يميزون.

{أُولَآءِ} منادى وأصله يا هؤلاء، حذفت منه هاء التنبيه لوجودها في **{هَآأَنُتُمْ}** قبلها.. جملة من مبتدأ وخبرٍ صُدَّرت بحرف التنبيه إظهاراً لكمال العناية بمضمونها أي أنتم أولاء المخطئون في موالاتهم.

{تُحِبُّونَهُمْ} هذه البطانة الذين لا يألونكم خبالاً، والذين ودوا ما عنتهم، والذين قد بدت البغضاء من أفواههم، والذين ما تخفيه صدورهم أكبر، تحبونهم وذلك لأن المؤمنين يغلب عليهم سلامة القلب وطهارته وعدم ظن السوء في غيرهم، وكان هؤلاء يتوددون إليهم ويدعون أنهم يصلونهم فيحبهم المؤمنون بناء على تغييرهم بهم.

{وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} نفاقاً، لا باطنا ولا ظاهراً.. والمحبة هنا بمعنى المصافاة، أي أنتم أيها المسلمون تصافونهم ولا يصافونكم لنفاقهم.

{وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ} الكتاب هنا اسم جنس يشمل جميع الكتب، تؤمنون بالكتاب القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم.

{كُلُّهُ} أي: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، كما قال تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ}** [البقرة: ٩١] فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم.

وفيه توبيخٌ بأنهم في باطلهم أصلبُ منكم في حقكم.. لأن المؤمنين لما آمنوا بجميع رسل الله وكتبهم كانوا ينسبون أهل

الكتاب إلى هدى ذهب زمانه، وأدخلوا فيه التحريف بخلاف أهل الكتاب إذ يرمقون المسلمين بعين الازدراء والضلالة واتباع ما ليس بحق. وهذان النظران -منا ومنهم- هما أصل تسامح المسلمين مع قوتهم، وتصلب أهل الكتابين مع ضعفهم. وقيل: هو تعجيب وليس فيه شيء من التغليظ، ولكنه مجرد أيقاظ للفئة المؤمنة.

{وَإِذَا لَقُّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا} نفاقاً ومداهنة.. هذا في شأن المنافقين واضح، أما في شأن الكافرين فإنهم يظهرون الرضا بحكم الإسلام والاطمئنان إليه، وأنهم يريدون قوة الدولة الإسلامية وعزتها، فليس الإيمان على حقيقته، بل معناه الرضا بقبول الحكم الإسلامي.

ولم يذكروا متعلق الإيمان، ولكنهم يوهمون المؤمنين بهذا اللفظ أنهم مؤمنون.

{وَإِذَا خَلَوْا} أي خلا بعضهم ببعض وانفردوا دونكم. والمعنى: خلت مجالسهم منكم، فأسند الخلو إليهم على سبيل المجاز.

{عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ} وعض الأنامل كناية عن شدة الغيظ والتحسر، وأن لم يكن عض أنامل محسوسا، ولكن كني به عن

لأزمه في المتعارف، فإن الإنسان إذا اضطرب باطنه من الانفعال صدرت عنه أفعال تناسب ذاك الانفعال، فقد تكون معينة على دفع انفعاله كقتل عدوه، وفي ضده تقبيل من يحبه، وقد تكون قاصرة عليه يشفي بها بعض انفعاله، كتخبط الصبي في الأرض إذا غضب، وضرب الرجل نفسه من الغضب، وعضه أصابعه من الغيظ، وقرعه سنه من الندم، وضرب الكف بالكف من التحسر، والخط في الأرض للمهموم، ومن ذلك التأوه والصياح ونحوها، وهي ضروب من علامات الجزع، وبعضها جبلي كالصياح، وبعضها عادي يتعارفه الناس ويكثر بينهم، فيصيرون يفعلونه بدون تأمل.

وظاهره فعل ذلك، وأنه يقع منهم عض الأنامل لشدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذ ما يريدون.

{مِنَ الْغَيْظِ} من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً.. وذلك أشد الغيظ والحنق، ويحتمل أن يكون العض كناية عن شدة الغيظ بل مظهر لأعلى وأقصى درجات الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه.

{قُلْ} الخطاب للرسول -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو لمن يتأتى خطابه وهو الأقرب؛ لأنه كان يخاطب المؤمنين **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}** يعني: قل يا أيها المؤمن لهؤلاء.

{مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ} الباء قيل: إنها للغاية والمصاحبة أي ابقوا على غيظكم إلى أن تموتوا، وقيل: إنها للسببية أي موتوا بسبب غيظكم فإنه لا يهمنا، والثاني أقرب، فالأول دعاء عليهم ببقاء الغيظ إلى الموت، والثاني دعاء عليهم بتعجيل الموت بسبب الغيظ، فيكون هذا أقرب للصواب وأشد في التحدي والبعد عنهم، وصيغة الأمر هنا للتهكم عليهم.

وقيل: صورته أمر، ومعناه الخبر، والباء للحال أي تموتون ومعكم الغيظ وهو على جهة الذم والتقريع والتوبيخ على قبيح ما عملوه.

وفي البحر المحيط: قال بعض شيوخنا: هذا ليس بأمر جازم، لأنه لو كان أمراً لماتوا من فورهم كما جاء: **{فَقَالَ لَهُمُ اللّٰهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ}** [البقرة: ٢٤٣].

وليس بدعاء، لأنه لو أمره بالدعاء لماتوا جميعهم على هذه الصفة، فإن دعوته لا ترد. وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير.

وليس بخبر لأنه لو كان خبر لوقع على حكم ما أخبر به،
يعني ولم يؤمن أحد بعد.

وإنما هو أمر معناه التوبيخ والتقريع كقوله تعالى: **{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}** [فصلت: ٤٠]، وقول: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.
وقيل: ويجوز أن لا يكون ثم قول، وإن يكون أمراً بطيب
النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعده الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز
الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

والمعنى: فمهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغظكم ذلك
منهم، فاعلموا أن الله مُتَمِّ نِعْمَتِهِ على عباده المؤمنين ومُكَمِّلُ
دينه، ومُعَلِّ كَلِمَتِهِ ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ} تأنيث «ذي» بمعنى صاحب
{الصُّدُورِ} أي بالقلوب صاحبة الصدور. فيعلم ما في صدوركم
من العداوة والبغضاء والحقق.. فهو عليم بما تنطوي عليه
ضمائركم، وتُكِنُّهُ سَرَائِرُكُمْ من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين،
وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي
الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا
خروج لكم منها.. فحالهم في الدنيا شر حال، وفي الآخرة
العذاب الأليم، فلهم كمد الدنيا، وعذاب الآخرة.

ويحتملُ أن يكون من جملة المَقول أي: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه.

ويحتمل أن يكون خارجاً عن المقول بمعنى: لا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو مضمرات صدورهم لم يظهروه بألسنتهم فإني عليمٌ بذات الصدور.

وقيل: هو أمرٌ لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم بقوته من غير أن يكون ثمة قولٌ كأنه قيل: حدّث نفسك بذلك.

والظاهر الأول، فأورد ذلك على أنه وعيد مواجهون به.

ثم زاد الله كشفاً لما في صدورهم بقوله: **{إِنْ تَمَسَّكُمْ}** هنا أتى بصيغة الجمع، وأتى بصيغة المفرد في قوله: **{قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ}** وسبق أن جاء بصيغة الجمع **{هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءِ}**، وهذا من التفنن في الخطاب، ومن فوائده الانتباه، إن الإنسان إذا اختلف

الأسلوب عنده انتبه، وليس كما إذا كان الأسلوب على وتيرة واحدة.

{حَسَنَةٌ تَسُوُّهُمْ} الحسنة: ما يحسن من أنواع الخير كالنصر والغنيمة والتأييد والقوة والخير والرخاء والخصب.. والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فأى حسنة تصيب المؤمنين فإنها تسوؤهم.

{وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ} ما يسوءكم كالهزيمة أو الموت أو المجاعة أو اختلاف بينكم.. وهذه الأقوال في الحسنة والسيئة هي على سبيل التمثيل، وليست على سبيل التعيين. وليس المراد بهما هنا الاصطلاح الشرعي.

{يَفْرَحُوا بِهَا} بيان لتناهي عداوتهم إلى حدٍّ أن حسدوهم على ما نالهم من خير ومنفعة وشمّتوا بما أصابهم من ضرر وشدة.. وقابل الحسنة بالسيئة، والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة.

وفي الحسنة قال: **{إِنْ تَمَسَّنْكُمْ}** وفي السيئة قال: **{وَإِنْ تُصِيبْكُمْ}**.. فهل هذا من باب اختلاف التعبير أو هناك فرق معنوي؟

قال فريق من المفسرين: المعنى واحد، والتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالأخر في جانب السيئة، تفنن في الخطاب، وأن المعنى في قوله: {إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ} أي إن تصبكم حسنة، قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]. {إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} [التوبة: ٥٠] {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ٢٠-٢١]

وقال الفريق الثاني: بل بينهما فرق لأن المس أخف من الإصابتة، وبنى على ذلك أنهم يساؤون من الحسنة وإن كانت قليلة جداً ويفرحون بالسيئة إذا أصابت وأوجعت.

قال الفريق الأول: وهذا الفرق بالنسبة لقوله: {إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ} وجهه، لكن بالنسبة لقوله: {وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ} لو قلنا بهذا الفرق لكان فرحهم بالسيئة لا يكون إلا إذا كانت شديدة، وهذا فيما يظهر خلاف حالهم، وبناءً على ذلك يترجح القول بأن «مس وأصاب» بمعنى واحد، لكن اختلف التعبير لفائدة وهي التنبيه؛ لأنه إذا اختلف الأسلوب لا بد أن يحدث للإنسان المخاطب انتباه بخلاف ما إذا كان على وتيرة واحدة.

لكن أصحاب القول الثاني قالوا: وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة، للإشارة إلى تمكن الحقد والحسد في قلوبهم بحيث إن أي حسنة ولو مست ولم تغمر وتعم - تسوهم؛ لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمن مهما ضؤل كالشأن في كل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يفرحون بالمصيبة التي تمس، فإنها لا تشفي غيظهم بل لا يفرحون إلا بالمصيبة التي تغمر وتعم وتستمر.

قال ابن عطية: ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليعين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة، وهي عبارة عن التمكن. لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه، أو فيه. فدل هذا النوع البليغ على شدة العداوة، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين. انتهى كلامه

** وفيه: أن العدو إذا أصابت عدوه حسنة ساءته، وإذا أصابته سيئة فرح بها، وقد جعل الفقهاء رحمهم الله هذا ضابطاً في العداوة حينما تكلموا في باب الشهادات على أن العدو لا تقبل شهادته على عدوه، قالوا في ضابط العدو: هو من سره مساءتك وساءه مسرتك مأخوذ من هذه الآية.

{وَإِنْ تَصْبِرُوا} فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا في محبة من لا يستحق المحبة، وتحملوا مشاق التكاليفات، وتقاوموا العداوة بمثلها، وتردوا اعتداءهم بمثله.

{وَتَتَّقُوا} ما حرّم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه، فلا تتخذوا منهم بطانة وتتقوا مبايعتهم.

{لَا يَضُرُّكُمْ} فيها قراءتان: إحداهما (لَا يَضُرُّكُمْ) والثانية (لَا يَضُرُّكُمْ) من الضَّيْر، والضَّيْر بمعنى الضرر وبمعنى الضيم فهو ضرر بضم، أي لا يلحقكم ضرر، فتكون القراءتان كل واحدة منهما أفادت معنى غير الأخرى؛ لأن مطلق الضرر دون مطلق الضير، فالضير أشد.. فهم لا يلحقونا بضرر ولا بضير.

{كَيْدُهُمْ} والكيد هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم بالأسباب الخفية، وهو بمعنى المكر وبمعنى الخداع.

{شَيْئًا} نكرة في سياق النفي فتكون عامة، يعني أي شيء يكون.

فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى، فكان ذلك تسليّة للمؤمنين وتقوية لنفوسهم. أي لا يضرركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المُجِدَّ في الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئاً على الخصم.

يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الْفُجَّارِ،
بإستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط
بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان،
وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره
ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

{إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ} في عداوتكم من الكيد {مُحِيطٌ}
إحاطة العلم والقدرة والسلطان، فهو محيط بهم كإحاطة السور
بمن في داخله، أي لا يتمكنوا أن يفروا من قضاء الله عز وجل
وعلمه وسلطانه وقدرته وهو معاقبهم على ذلك.

ذَيْلَ اللَّهِ سبحانه الآية بهذا النص، ليطمئن المؤمنين ويهدد
الكافرين، فالمعنى: الله تعالى محيط بما يعملون إحاطة علم
وإحاطة قدرة، وإحاطة العلم فيها بيان أنه لا تخفى عليه خافية
من كيدهم، وإحاطة القدرة مؤداها أنه محيط كل ما يدبرون

{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠]

هذه وصايا الله تعالى للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
وللمؤمنين بالنسبة لسياسة أمورهم مع مخالفيهم، يحترسون
منهم، ولا يفرطون في الثقة بهم، فلا يتخذوا منهم بطانة وخاصة،

وإلا كان الدمار والبوار والخيال، وهكذا نحن الآن للأسف،
اللهم هب لنا من أمرنا رشداً.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا
وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ
نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِيَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(١٢٣)

لما حذر الله تعالى المؤمنين من اتخاذ بطانة من أهل الكفر
والنفاق، وأخبرهم أنهم متى صبروا واتقوا لا يضرهم كيد أعدائهم
شيئاً، ذكرهم بموقفين أحدهما لم يصبروا فيه ولم يتقوا فأصابتهم
الهزيمة وهو غزوة أحد، والثاني صبروا فيه واتقوا فانتصروا وهزموا
عدوهم وهو غزوة بدر.

{وَإِذْ} واذكر إذ {غَدَوْتَ} الغدو: الذهاب أول النهار.
ويذكر الغدو مقابلاً بالآصال أي وقت العصر وقبل المغرب، كما
قال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ
لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [النور: ٣٦].

وأيضاً قوبلت الغداة بالعشي.. وقد يطلق الغدو على الذهاب ويكون مقابلاً للروح، ومن ذلك قوله تعالى في الرياح: **{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}** [سبأ: ١٢]، وذلك لأن الذهاب عادة يكون في البكور.

{مِنْ أَهْلِكَ} من منزلك من عند عائشة، وأهل الرجل زوجه وأولاده. ومن لا ابتداء الغاية، أي أن مبتدأ هذه الغدوة من أهله، من المدينة حيث خرج -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشعب غدوة يوم السبت حيث نزل المشركون به يوم الأربعاء.

فسر أكثر العلماء غدوت بأصلها، وهو الخروج غدوة، أي: بكرة. ثم استشكلوا أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خرج إلى أحد بعد صلاة الجمعة كما اتفقت عليه كلمة أهل السير.

وأجاب ابن جرير بأن "غدوه ليوئهم مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار".. فهي حال مقدرة، أي خرجت قاصدة التبوءة، لأن وقت الغدو لم يكن وقت التبوءة.

وقال في فتح البيان: "وعبر عن الخروج بالغدو الذي هو الخروج غدوة مع كونه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خرج بعد صلاة الجمعة، لأنه قد يعبر بالغدوة والروح عن الخروج والدخول من

غير اعتبار أصل معناه، كما يقال: أضحي وإن لم يكن في وقت الضحي".

{تَبَوُّؤُ الْمُؤْمِنِينَ} تنزل المجاهدين الأماكن التي رأيتها صالحة للنزول فيها من ساحة المعركة.

وأصل التبوء اتخاذ المنزل.. بؤأته منزلاً إذا أسكنته إياه؛ ومن ذلك قول الله تعالى: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا}** [يونس: ٨٧]، ومنه قوله عليه السلام: (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) [مسلم] أي ليتخذ فيها منزلاً.

وفيه شهادة الله سبحانه وتعالى للذين خرجوا في أحد بأنهم مؤمنون؛ لأن المنافقين انخلوا قبل أن يصلوا إلى مكان القتال فقد رجعوا في أثناء السير.

{مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} المقاعد: جمع مقعد وهو مكان القعود، وهذا بمنزلة: مواطن ومواقف، ولكن لفظ القعود دال على الثبوت؛ ولا سيما أن الرماة كانوا قعوداً، وكذلك كانت صفوف المسلمين أولاً.

وقد شاع استعمال المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: **{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ}** [القمر: ٥٥]

{قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} [النمل: ٣٩]

وجمع المقاعد لأنه عيّن لهم مواقف يكونون فيها: قلب وميمنة وميسره ومقدمة وساقة، وذلك هو الخميس. وبين لكل فريق منهم موضعهم الذي يقفون فيه.

فعبّر عن المواقف بالمقاعد للإشارة إلى وجوب الثبات والسكون، حتى لا يتحركوا إلا بأمر من القائد الأعظم وهو النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وقد كان الثبات سبب النصر في غزوة أحد، والهزيمة كان سببها عدم استمرار الرماة في البقاء في مواقعهم.

والمقصود المواقع للجماعات من الجيش وهي التعبئة حسب ظروف الموقعة كما فعل -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في وضع الرماة في أعلى الجبل حماية لظهورهم من التفاف العدو بهم لطبيعة المكان، وكما فعل في غزوة بدر حيث رصهم وسواهم بقضيب في يده أيضا لطبيعة المكان.. وهكذا فلا بد من كل وقعة من مراعاة موقعها بل وظروف السلاح والمقاتلة.

وهذه الآية هي افتتاح قصة غزوة أحد، وقد أنزل فيها ستون آية، وأشار في هذه السورة إلى بعض الحكم والغايات المحمودة

التي في هذه الواقعة، وكانت وقعةُ أحد يومَ السبت الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة.

وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يومَ بدر، وسلّمت العيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سُفيان، فلما رجع قفلُهم إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان: "ارصد هذه الأموال لقتال محمد"، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحايش [هم جماعات من قبائل شتى] وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، فنزلوا عند أحد على شفير الوادي بقناة تلقاء المدينة، يوم الأربعاء الثامن من شوال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة، فأقاموا هنالك، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ليحاموا عنهن.

وكان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رأى رؤيا وهو بالمدينة أن في سيفه ثلثة، ورأى أن بقراً تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة. فتأول الثلثة في سيفه: برجل يصاب من أهل بيته، وتأول البقر: بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الدرع: بالمدينة. [أخرجه مسلم]. فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة.

فصلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوم الجمعة، فلما
فَرَّغَ منها صلى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن
عَمْرُو، واستشار الناس: أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟
وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة. وأن يتحصنوا بها، فإن
دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء والأطفال
من فوق البيوت بالحجارة، ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن
أبي بن سلول [والمنافقون كان رأيهم هذا ليس نصحا ولكن جبنا
وخوفا من حر القتال]، وكان هو الرأي، فبادر جماعة من فضلاء
الصحابة ممن فاتته الخروج يوم بدر، وأشاروا عليه بالخروج،
وألحوا عليه في ذلك، فنهض ودخل بيته، ولبس لأمته [وهو ما
يوضع على الرأس للحرب]، وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك
الملحين، وقالوا: أكرهنا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
على الخروج، فقالوا: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في
المدينة فافعل.

فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا
لَيْسَ لِأَمَّتِهِ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ).

فسار، عليه السلام يوم الجمعة في ألف من أصحابه،
واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة.

فلما كان بالشَّوط بين المدينة وأحد رجع عبد الله بن أبي في ثُلث الجيش مُغْضَبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله وقال: "أطاعهم، وعصاني.. يا قوم على ما نقتل أنفسنا وأولادنا"، فتبعهم عبد الله بن عَمْرٍو، والد جابر، يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله، أو ادفعوا. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع. فرجع عنهم وسبهم، وسأل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى، وسلك حرة بني حارثة، ومر بين الحوائط، وأبو خيثمة من بني حارثة يدل به، حتى نزل الشَّعب من أحد في عُدْوَةِ الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: (لا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ).

فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال وتهيأ رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جُبَيْر أخا بني عَمْرٍو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم: (انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا نُؤْتَيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ. وَالزَّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ).

وظاهر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بين درعين،
وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَيْر أَخا بني عبد الدار.
وأجاز رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعض الغلمان
يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم
بقريب من سنتين.

قيل: أجاز من أجاهه، لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة، ورد
من رد لصغره عن سن البلوغ. وقالت طائفة: إنما أجاز من أجاز
لإطاقته، ورد من رد لعدم إطاقته، ولا تأثير للبلوغ وعدمه في
ذلك. قالوا: وفي بعض ألفاظ لحديث ابن عمر: فلما رأي مطيقاً
أجازني.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها
فجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عِكْرَمَةُ
بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء.

ودفع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سيفه إلى أبي
دجانة " سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ "، وكان شجاعاً بطلاً يختال عند
الحرب، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق،
واسمه: عبد بن عمرو بن صيفي، وكان يسمى الراهب لترهبه
وتنسكه في الجاهلية، فسماه رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وَسَلَّمَ- الفاسق. وكان رأس الأوس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه. فكان أول من لقي من المسلمين فنادى قومه وتعرف إليهم. قالوا: لا أنعم الله لك عينا يا فاسق!

فقاتل المسلمين قتلاً شديداً، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديداً، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين واشتد القتال، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزمت أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم.

فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزم الذي أمرهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بحفظه، وقالوا: يا قوم! الغنيمة! الغنيمة! فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخلوا الثغر، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة، فكّر المشركون وقتلوا من بقي من الرماة، ثم أتوا الصحابة من

ورائهم وهم ينتهبون، فأحاطوا بهم، واستشهد منهم من أكرمه الله، ووصل العدو إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل. وفيها جرح رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في وجهه وكسرت ربايعته اليمنى السفلى بحجر وهشمت البيضة من على رأسه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكان الذي تولى ذلك من النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عمرو بن قَمِيَّة الليثي، وعتبة بن أبي وقاص.

قال الواقدي: والثابت عندنا أن الذي رمى في وجه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ابن قميئة، والذي دمی شفته وأصاب ربايعته عتبة بن أبي وقاص.

وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله، فاعترضه شَدَاد بن الأسود الليثي، من شعوب، فقتله. وكان جنبا. فأخبر سول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن الملائكة غسلته.

وأكبت الحجارة على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى سقط من بعض حفر هناك، فأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة حتى قام، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري، والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفرة في وجهه -

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح. فندرت
ثنياته فصار أهتم.

ولحق المشركون برسول الله -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وكرّ
دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم وكان آخرهم عمار بن يزيد
بن السكن، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون.
وأبو دجانة يلي النبي -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بظهره وتقع
فيه النبل فلا يتحرك، وأصابت عين قتادة بن النعمان. فرجع وهي
على وجنته، فردها عليه السلام بيده فصحت. وكانت أحسن
عينيه.

وانتهى النضر بن أنس جماعة من الصحابة وقد دهشوا،
وقالوا: قتل رسول الله، فقال: فما تصنعون في الحياة بعده؟!
قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل الناس وقاتل حتى
قتل، ووجد به سبعون ضربة، وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف
عشرين جراحة بعضها في رجله فخرج منها.

ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، لأن عمرو بن قميئة
كان قد قتل مصعب بن عمير، يظن أنه النبي -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-. ووهن المسلمون لصريخ الشيطان.

ثم إن كعب بن مالك الشاعر، من بني سلمة، عرف رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. فنادى بأعلى صوته يبشر الناس. ورسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول له: أنصت.

فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب، وأدركه أبي بن خلف في الشعب، فتناول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الحربة من الحارث بن الصِّمَّة وطعنه بها في عنقه، فكرَّ أبي منهزماً. وقال له المشركون: ما بك من بأس. فقال: والله! لو بصق علي لقتلني، وكان -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد توعدده بالقتل. فمات عدو الله بسرف، مرجعهم إلى مكة. ثم جاء علي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالماء فغسل وجهه ونهض. فاستوى على صخرة من الجبل. وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين. وقتل من المهاجرين يوم أحد أربعة، ومن الأنصار سبعون رضي الله عنهم.

أما الشهداء فحملهم أهلهم إلى المدينة ليدفنوهم في البقيع ولكن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمر أن يردوا إلى مصارعهم، ويدفنوا هناك في أحد ففعلوا.

فصل:

ما أصاب سيد الخلق نبينا -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد؛
فليس فيه معارضة، أو منافاة لشجاعته، وقوته، وشدة بأسه -
عليه الصلاة والسلام-، فما بارزه -صلى الله عليه وسلم-
رجل، أو صارعه فغلبه مثلاً، وإنما كان ما أصابه -صلى الله عليه وسلم-
ناجماً عن رمي، ونحوه، ومن حكمة ذلك تعظيم أجر
رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فقد جاء في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد
للصالحين: تحت عنوان: «ذكر تعظيم أجر رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- بما فعله معه المشركون»، قال -رحمه الله تعالى-:
تكاثر المشركون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،
وأرادوا قتله. رمى عتبة بن أبي وقاص -لعنه الله- رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- بأربعة أحجار، فكسر حجر منها رباطه
اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى... ورماه عبد الله بن قمية
فشجّ وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وعلاه
بالسيف. وكان عليه درعان، فوقع -صلى الله عليه وسلم- في
حفرة أمامه على جنبه، وهي من الحفر التي عملها أبو عامر
الفاسق، ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأغمي عليه -
صلى الله عليه وسلم-، كما رواه ابن جرير عن قتادة، فأخذ علي

بن أبي طالب بيده، ورفع طلحة، حتى استوى قائما، فجحشت ركبته، ولم يصنع سيف ابن قمئة شيئا، إلا وهن الضربة بثقل السيف، ومكث يجد وهن الضربة على عاتقه شهرا، أو أكثر من شهر. ورمته جماعة كثيرة بالحجارة، حتى وقع لشقه. وروى الطبراني عن أبي أمامة -رضي الله عنه- أن ابن قمئة لما رمى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: خذها، وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أقمأك الله)، فسلب الله -تعالى- عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه، حتى قطعه؛ قطعة، قطعة. وروى أبو نعيم عن نافع بن عاصم قال: الذي أدمى وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عبد الله بن قمئة، رجل من هذيل، فسلب الله تعالى عليه تيسا، فنطحه حتى قتله. اهـ.

وأما أنه -صلى الله عليه وسلم- أوتي قوة أربعين: فقد رواه الطبراني في المعجم الأوسط: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أُعْطِيتُ قُوَّةَ أَرْبَعِينَ فِي الْبَطْشِ وَالنِّكَاحِ). وهو حديث ضعيف، قال عنه الهيثمي -رحمه الله- في مجمع الزوائد: وفيه الْمُغِيرَةُ بْنُ قَيْسٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. اهـ.

وقال العراقي -رحمه الله- في تخريج أحاديث الإحياء: سنده ضعيف. اهـ.

ولكنه ثبت عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كما في صحيح البخاري: أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أوتي قوة ثلاثين.

وأما قوة أربعة آلاف: فلم يرد التصريح به في حديث مرفوع، لكن استنبطه بعض العلماء من جملة روايات، جاء في فتح الباري لابن حجر -في شرح للحديث الذي رواه البخاري عن أنس بن مالك قال: كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يدور على نسائه في الساعة الواحدة، من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة. قال: قلت لأنس، أوكان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين: ووقع في رواية الإسماعيلي من طريق أبي موسى عن معاذ بن هشام، أربعين بدل ثلاثين، وهي شاذة من هذا الوجه، لكن في مراسيل طاووس مثل ذلك، وزاد في الجماع، وفي صفة الجنة لأبي نعيم من طريق مجاهد مثله، وزاد من رجال أهل الجنة، ومن حديث عبد الله بن عمرو رفعه أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع. وعند أحمد والنسائي، وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه. إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة في الأكل، والشرب، والجماع والشهوة. فعلى هذا يكون حساب قوة نبينا أربعة آلاف.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} السميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بما هو أعم، بما يدرك بالسمع وما يدرك بالبصر وغير ذلك، فالعليم هو من أوسع الأسماء دلالة.

وجاءت هاتان الصفتان هنا لأنَّ في ابتداء هذه الغزوة مشاورة ومجاوبة بأقوال مختلفة، وانطواء على نيات مضطربة حسبما تضمنته قصة غزوة أحد.

فدَيَّلَ الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النص السامي لبيان أنه تعالى مطلع على ما كان يجري بين المؤمنين وبين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من مشاورات، وما استقر عليه رأى كثرتهم، ثم نزوله عليه الصلاة والسلام عند رأى الكثرة، ثم عدول الكثرة إلى رأى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثم قول النبي لهم معترضا إمضاء ما قرروا أولا، وإن كان غير رأيه الذي مال إليه، ليعلمهم أن التردد ولو للصواب المحتمل ضرره أكثر من المضي ولو في الرأي المحتمل للخطأ، فإن صواب الحروب وخطأها لا يتبين، وإن التردد فيها يقتل، والمضاء فيها ينصر.

وبين بهذا التذييل أيضا أن الله تعالى عليم بخفايا القلوب، فهو يعلم ما تهم به قلوب المؤمنين، وما توسوس به قلوب

المنافقين، وما ييثونه من روح الذعر والهلع في نفوس المؤمنين،
وبحديثهم مستجابا في قلوب ضعفاء الإيمان.

{إِذْ} أذكر إذ **{هَمَّتْ}** حدثت نفسها بالرجوع إلى المدينة
وتوجَّهت إرادتها إلى ذلك.

وتقول العرب: هممتُ وهَمَّتْ يحذفون أحد المضعفين كما
قالوا: أحست أحسست.

وأوَّل ما يمر الأمر بالقلب يسمى خاطراً، فإذا تردد صار
حديث نفس، فإذا ترجَّح فعله صار همّاً، فإذا قوي واشتد صار
عزماً، فإذا قوي العزم واشتدَّ حصل الفعل أو القول.

والحاصل أن «الهمَّ» حديث النفس واتجاهها إلى أمر معين
من غير تنفيذ، فإذا أخذ طريق التنفيذ فهو إرادة وعزيمة، ومن
ذلك قوله تعالى: **{وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا}** [التوبة: ٧٤]

{طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ} هما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من
الأوس، وكانا جناحي العسكر يوم أحد.

وقوله: **{طَائِفَتَانِ}** إشارة لطيفة إلى الكناية عن من يقع منه ما
لا يناسب والستر عليه، إذ لم يعين الطائفتين بأنفسهما، ولا
صرح بمن هما منه من القبائل ستراً عليهما.

{أَنْ تَفْشَلَا} تجبنا وتضعفا وتعودا إلى ديارهما وتُحجما عن ملاقات العدو تاركين الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومن معه يخوضون المعركة وحدهم.

وقيل: الفشل في البدن: الإعياء. وفي الحرب: الجبن والخور، وفي الرأي: العجز والفساد.

فالفشل ضعف مع جبن، ومن ذلك قوله تعالى: **{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}** [الأنفال: ٤٦]، ومن ذلك أيضا قوله تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ}** [آل عمران: ١٥٢].

وفيه أن الدعاية ولو كانت باطلة ربما تؤثر حتى على المؤمن. **{وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}** متولي أمرهما وناصرهما ولذا عصمهما من ترك السير إلى المعركة، وفيه أن ولاية الله تعالى للعبد تقيه مصارع السوء، وتجنبه الأخطار.

وهذه ولاية خاصة، فولاية الله تعالى تنقسم إلى ولاية عامة وخاصة، فالولاية بمعنى التدبير للشئون ولاية عامة، والتي بمعنى العناية ولاية خاصة، لأن الإنسان إذا هم بمعصية ثم حصل له من عند الله ما يمنعه فهذه ولاية خاصة.

روى البخاري: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ
عَمَرُو سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ فِينَا نَزَلَتْ
{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} قَالَ: نَحْنُ
الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ وَمَا نُحِبُّ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً وَمَا
يَسُرُّنِي - أَنَّهَا لَمْ تُنَزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}.

أي لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله
تعالى، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية. وأن تلك الهمة ما
أخرجتهم عن ولاية الله تعالى.

والهم من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد الله بن أبي
بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله
تعالى: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} يعني قلوبهما عن تحقيق هذا الهم.

وقيل: إن عبد الله بن أبي سلول دعاهما إلى الرجوع عن لقاء
المشركين يوم أحد، فهما به ولم يفعلوا.

وقيل: أرادوا التقاعد عن الخروج، وكان ذلك صغيرة منهم.

وقيل: كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم فأطلع الله
نبيه عليه السلام عليه فازدادوا بصيرة؛ ولم يكن ذلك الخور
مكتسبا لهم فعصمهم الله، وذم بعضهم بعضا، ونهضوا مع النبي

—صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— فمضى رسول الله —صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— حتى أطل على المشركين.

والمعنى: اذكر أيها النبي الكريم أنت وأمتك أثر إفساد المنافقين إذ اتخذتم منهم بطانة، اذكر ذلك إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا، أي إذ حدثت نفسها طائفتان من المؤمنين لا من المنافقين أن تفشلا وتضعفا في وقت الشديدة والكريهة، مع أن الله تعالى وليهما وناصرهما، ومن يكون الله معه لا يهزم إلا إذا خالف أوامر الله وأوامر نبيه وقائده الأعلى، فذكر ولاية الله تعالى في هذا المقام لسببين:

أحدهما: أن المنافقين استطاعوا أن يؤثروا في المؤمنين ذلك التأثير مع أن المؤمن يشعر دائما بولاية الله تعالى وعزته، وأنه سبحانه وتعالى ينصر من ينصره، وهو القوي العزيز، وأن هذا يوجب أن يعمل الهادي والمرشد على أن يصون نفوس المؤمنين من أن يدخل إليها شياطين الإنس من المنافقين والمخادعين.

الثاني: أن ذلك فيه معنى التوبيخ لأولئك الذين تأثرت نفوسهم بأولئك المنافقين لأنه ما كان ينبغي لهم أن يستمعوا إلى دعاية المنافقين، أو أن يفتحوا لها بابا تدخل منه إلى قلوبهم،

ولكن هكذا البشر تتسرب إلى نفوسهم وسوسة الشيطان من حيث لا يشعرون.

{وَعَلَى اللَّهِ} قدمت لإفادة الحصر، أي: يتوكلون على الله لا على غيره **{فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** وأتى به عاماً لتندرج الطائفتان الهامتان وغيرهم في هذا الأمر، وأن متعلقة من قام به الإيمان. والتوكل: تفعل من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد في كفايته عليه، ولم يتوله بنفسه بل فوض غيره فيه.

وقول عامة الفقهاء: التوكل على الله هو الثقة بالله بأنه سيعينك ويكفيك، والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة.

فتوكلت الطائفتان على الله وواصلتا سيرهما مع رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فسلمهما الله من أشر ذنب وأقبحه.

وفيه أنه إذا قوي الإيمان قوي التوكل على الله؛ لقوله: **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** بناء على قاعدة معروفة وهي أن ما علق على وصف يقوى بقوته، ويضعف بضعفه.

هذا الموقف في غزوة أحد المقصود منه التذكير بعاقبة عدم الصبر وترك التقوى.

قال الواقدي بإسناده عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلا من المهاجرين يقول: شهدت أحدا فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسطها كل ذلك يصرف عنه.

ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. وإن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع! خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك.

وأكبت الحجارة على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى سقط في حفرة، كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للمسلمين، فخر عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام، ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري من جرح رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الدم، وتشبث حلقتان من درع المغفر في وجهه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فانتزعهما أبو

عبدة بن الجراح وعض عليهما بشنيتيه فسقطتا؛ فكان اهتَم يزينه
هَتَمُه رضي الله عنه.

وفي هذه الغزاة قتل حمزة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-،.. قتله وحشي،
وكان وحشي مملوكا لجبير بن مطعم. وقد كان جبير قال له: إن
قتلت محمدا جعلنا لك أعنة الخيل، وإن أنت قتلت علي بن أبي
طالب جعلنا لك مائة ناقة كلها سود الحديق، وإن أنت قتلت
حمزة فأنت حر.

فقال وحشي: أما محمد فعليه حافظ من الله لا يخلص إليه
أحد. وأما علي ما برز إليه أحد إلا قتله. وأما حمزة فرجل
شجاع، وعسى أن أصادفه فأقتله. وكانت هند كلما تهيأ وحشي
أو مرت به قالت: إيها أبا دسمة اشف واستشف.

فكَمِنَ له خلف صخرة، وكان حمزة حمل على القوم من
المشركين؛ فلما رجع من حملته ومر بوحشي زَرَقَه بالمِزراق
فأصابه فسقط ميتا رحمه الله ورضي عنه.

قال ابن إسحاق: فبقرت هند عن كبد حمزة فلاكتها ولم
تستطع أن تسيغها فلفظتها، لإحنة كانت في قلبها عليه إذ قتل
أباها عتبة يوم بدر ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى
صوتها فقالت:

نحن جزييناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له
من مكروه وآفة بالتوكل على الله، وأن يصرف الجزع عن نفسه
بذلك التوكل.

{وَلَقَدْ} هذه الجملة مؤكدة بأمور ثلاثة: الأول: القسم
المقدر. الثاني: اللام. والثالث: قد.. لأن التقدير: "والله لقد
نصركم الله".

{نَصْرُكُمْ اللَّهُ} ذكر تعالى في هذا الموقف النصر لأنه خير،
ولم يقل في الموقف الأول "ولقد هزمكم الله بأحد وأنتم أعزة"،
لأنه تعالى حيي كريم فاكتفى بتذكيرهم بالغزوة فقط وهم يذكرون
هزيمتهم فيها ويعملون أسبابها وهي عدم الطاعة وقلة الصبر.

والنصر المشار إليه ببدر بالملائكة، أو بإلقاء الرعب، أو
بكف الحصى التي رمى بها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
أو بإرادة الله لقوله: **{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}**
[الأنفال: ١٠].. أقوال

والنصر ببدر هو اليوم المشهور الذي قتل فيه صناديد وسادة
قريش، وأئمة الشرك، وحسبك بأبي جهل ابن هشام، وعلى يوم
بدر انبنى الإسلام.

{بَدْر} الباء هنا بمعنى (في)، كما في قوله تبارك وتعالى:
{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ} [الصافات: ١٣٧-
١٣٨] يعني في الليل.

وبدر موضع بين الحرمين، إلى المدينة أقرب، تُعرف ببئرها،
منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: "بدر بن النارين" وهي الآن قرية
تبعد عن المدينة النبوية بنحو من مائة وخمسين ميلاً «كيلو متر
واحد».

وعلى العكس ففي غزوة بدر صبر فيها المؤمنون واثقوا
أسباب الهزيمة فنصرهم الله وأنجز لهم ما وعدهم لأنهم صبروا
واثقوا، فقتلوا سبعين رجلاً من المشركين وأسروا سبعين وغنموا
غنائم طائلة.

وقد كانت غزوة بدر وليس بين المؤمنين منافقون، لأن أولئك
المنافقين ما دخلوا إلا بعد أن وجدوا أن كلمة الله هي العليا،
فأظهروا الإسلام وأبطنوا غيره، وكان منهم يهود ومنهم مشركون،
فكان المسلمون قلة، ولكن لأنه لم يكن بينهم منافقون، ولم
يتخذوا بطانة من غيرهم نصرهم الله سبحانه وتعالى.

وفيه أن القلة مع نقاء القلوب وتلاقي الغزائم يكون معها
النصر، لأن توحيد الغرض قوة في ذاته تكافئ قوة العتاد والعدة.

ويوم بدر كان في جمعة وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرّب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم فرس واحد وسبعون بعيرا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبَيَّضَ وَجْهَ النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله.

{وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} لقلة عددكم وعددكم وتفوق العدو عليكم.. فاسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم في أعين غيرهم وأنهم يغلبون. وذلك أنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس.

وأذلة جمع ذليل وجمع الكثرة ذلّان، فجاء على جمع القلة ليدل أنهم كانوا قليلين عددا وعدة.

وفيه استحسان التذكير بالنعم والنقم للعبارة والاعتاظ.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ} إذا كان النصر من عنده تعالى، وهو ولي المؤمنين، فعليهم أن يتقوه، والتقوى معناها استشعار هيئته وجبروته وعظمته وقوته، وأنه إن أراد بقوم خيرا فلا يستطيع أهل الدنيا أن يمنعه، وإذا أراد بقوم سوءا فلا يستطيع أن يمنعه من قوة الله تعالى، فلا عزة إلا منه، ولا ذلة إلا في عصيانه، وأن التقوى على هذا المعنى توجب الشكر، ولذلك قال بعد الأمر بالتقوى: **{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**

وهذه الفاء للتفريع يعني بهذا النصر الذي نصركم الله يجب عليكم أن تتقوا الله، وألا تجعلوا النصر سبباً للأشر والبطر كما يفعله من ليس عنده إيمان إذا انتصر على عدوه جعل هذا سبباً للأشر والبطر، ودخل البلد وهو يغني ويطرب، كما ذكر عن بعض مذيبي العرب أيام حربهم مع اليهود يقول: غداً تُغني الأغانى في تل أبيب فهل هذا جزاء وشكر النعمة؟!

أما الرسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه دخل مكة عام الفتح وهو من أعظم الانتصارات مطأطأاً رأسه خاضعاً لله سبحانه وتعالى متقياً الله.

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} وضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له. وقيل: (لعلّ) هنا: للتعليل أي: لأجل أن تنالوا درجة الشاكرين.. أي اتقوا الله تعالى وهابوه، وأقروا بأن الكبرياء له وحده في السماوات والأرض، رجاء أن تشكروه بهذه التقوى، والرجاء من العبيد لا من الله تعالى، فهو الغني الحميد، فالتقوى هي في الحقيقة شكر الله تعالى، لأنه سبحانه هو المنعم وهو المتفضل في كل ما يتعلق بالإنسان من نعم هذا الوجود، وشكره أن تعرف حق ما أسدى، وما تدل عليه النعم من جلال الله وعظمته، فاللهم وفقنا لتقواك، ليتحقق منا شكرك، إنك أنت العلي الوهاب.

روى الإمام أحمد عن سَمَاكِ قَالَ: سَمِعْتُ عِيَاضَ الْأَشْعَرِيَّ قَالَ شَهِدْتُ الْيَرْمُوكَ وَعَلَيْنَا خَمْسَةُ أُمَرَاءَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَابْنُ حَسَنَةَ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعِيَاضُ -وَلَيْسَ عِيَاضُ هَذَا بِالَّذِي حَدَّثَ سَمَاكًا- قَالَ وَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إِذَا كَانَ قِتَالٌ فَعَلَيْكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ قَالَ فَكَتَبْنَا إِلَيْهِ إِنَّهُ قَدْ

جَاشَ إِلَيْنَا الْمَوْتُ [تدفق وفاض] وَاسْتَمَدَدْنَاهُ فَكَتَبَ إِلَيْنَا إِنَّهُ قَدْ
جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا
وَأَحْضَرُ جُنْدًا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْصِرُوهُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلِّ مِنْ عِدَّتِكُمْ فَإِذَا أَتَاكُمْ
كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تُرَاجِعُونِي قَالَ فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ
وَقَتَلْنَاهُمْ أَرْبَعَ فَرَاسِخَ قَالَ وَأَصَبْنَا أَمْوَالًا فَتَشَاوَرُوا فَأَشَارَ عَلَيْنَا
عِيَاضٌ أَنْ نُعْطِيَ عَنْ كُلِّ رَأْسٍ عَشْرَةَ قَالَ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَنْ
يُرَاهُنِّي فَقَالَ شَابٌّ أَنَا إِنْ لَمْ تَغْضَبْ قَالَ فَسَبَقَهُ فَرَأَيْتُ عَقِيصَتِي
أَبِي عُبَيْدَةَ [العقيصه: الشعر المقصوص، وهو نحو من
المضفور] تَنْقُزَانِ [تهتران وتهتان من شدة العدو والجري] وَهُوَ
خَلْفَهُ عَلَى فَرَسٍ عَرَبِيٍّ.

وفيه أن تقوى الله تعالى من الشكر لله؛ لقوله: {لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ} وهذا أمر لا شك فيه أن التقوى من الشكر بل هي
الشكر حقيقة؛ لأن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل
أوامره واجتناب نواهيه، والشكر هو القيام بطاعة المنعم بالقلب
واللسان والجوارح.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
 آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ
 آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا
 بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ
 شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ
 (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ
 لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

{إِذْ تَقُولُ} الخطاب للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا
 من الخطابات التي تختص برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
 .. فالخطابات الموجهة لرسول الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دل الدليل على أنه خاص به.. مثل هذه الآية،

وقوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** [الشرح: ١]

والثاني: ما دل الدليل على أنه عام للأمة. كقوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١]

والثالث: ما لم يدل الدليل لا على هذا ولا هذا. فهو عام بلا شك، حكمه عام. كقوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }** [التوبة: ٧٣]

{لِلْمُؤْمِنِينَ} المراد بهم الصحابة -رضي الله عنهم-، ووصفهم بالإيمان دون الصحبة لأن الوصف بالإيمان هو مناط النصر في كل وقت حتى فيما بعد الصحابة، فإن الله ينصر الذين آمنوا.

وتذكير الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والمؤمنين بما تم لهم من النصر في موقف الصبر والتقوى في غزوة بدر، فهذه الآية متعلقة بقوله: **{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ }** [آل عمران: ١٢٣] **{أَلَّنْ}** استفهام استنكاري، والمعنى إنكارُ عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيه. أو استفهام تقريرى جيء في النفي بحرف «لن» الذي يفيد تأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا يوم بدر لقلتهم وضعفهم، مع كثرة عدوهم وشوكته، كالأيسين من كفاية هذا المدد من الملائكة، فأوقع الاستفهام التقريرى على ذلك ليكون تلقينا لمن تخالج نفسه اليأس من كفاية ذلك العدد من الملائكة،

بأن يصرح بما في نفسه، والمقصود من ذلك لازمه، وهذا إثبات أن ذلك العدد كاف.

وكان حرف النفي «لن» الذي هو أبلغ في الاستقبال من «لا» أبلغ في وصف الشعور باليأس من النصر.

قال في زهرة التفاسير: الآية تومئ إلى أن حالا من الخور قد اعترت نفوس بعض المحاربين، إذ إن الاستفهام كان منصبا على «لن» التي تفيد النفي المؤكد، والمعنى: أمن المؤكد أنه لا يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وهذا فرق ما بين الاستفهام إذا دخل على «لا» والاستفهام إذا دخل على «لن» فالأول استفهام منصب على نفي غير مؤكد، والثاني استفهام منصب على نفي مؤكد، وذلك يدل على خور قد اعترى بعضهم، فكانت الحال في الابتداء عن بعض المحاربين تومئ إلى احتمال هزيمة.. وفي مصحف أبي: {ألا يكفيكم}

{يَكْفِيكُمْ} الكفاية سدُّ الخَلَّةِ والقيامُ بالأمر، أي يكون كافياً لكم هذا الأمر {أَنْ يُمدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}

ومعنى يكفيكم يسد حاجتكم، فقال لهم ذلك رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عندما بلغهم وهم حول المعركة أن كُرِزَ

بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين برجاله يقاتلون معهم فشق ذلك على أصحابه.

{أَنْ يُمِدَّكُمْ} أي بالملائكة عوناً لكم على قتال أعدائكم المتفوقين عليكم بالعدد والعتاد.

والإمدادُ في الأصل إعطاءُ الشيءِ حالاً بعد حال. قال المفضل: ما كان منه بطريق التقوية والإعانة يقال فيه: أمدّه يُمدّه إمداداً، وما كان بطريق الزيادة يقال فيه: مده يمدّه مدّاً ومنه: **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [لقمان: ٢٧] وقيل: المَدّ في الشر كما في قوله تعالى: **{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}** [البقرة: ١٥] وقوله: **{وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً}** [مريم: ٧٩] والإمدادُ في الخير كما في قوله تعالى: **{وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ}** [الإسراء: ٦]

{رَبُّكُمْ} التعرُّضُ لعنوان الربوبية هاهنا وفيما سيأتي مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار العناية بهم والإشعار بعلّة الإمداد.

{ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} هم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، ووجه لهم عبادات وأعمالاً يقومون بها لا يعصون الله

فيها ويفعلون ما يؤمرون، فليس عندهم استكبار تكون به المعصية، وليس عندهم عجز يكون به تخلف الفعل، بل هم سامعون مطيعون قادرون على تنفيذ أمر الله بخلاف البشر، فإنه يكون عندهم استكبار فيعصون الله، ويكون عندهم عجز فلا يقدرون على تنفيذ أمر الله، أما الملائكة فعندهم قوة لا يعجزون عن امتثال أمر الله، وعندهم انقياد تام فلا يعصون الله سبحانه وتعالى.

{مُنْزِلِينَ} ووصف الملائكة بمنزليين للدلالة على أنهم ينزلون إلى الأرض في موقع القتال عناية بالمسلمين، قال تعالى: **{مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ}** [الحجر: ٨]

{بَلَى} حرف إجابة، للإثبات أو لتقرير للاستفهام السابق يفيد إيجاب لما بعد «لن»، فكانت {بلى} إبطالا للنفي، وإثباتا لكون ذلك العدد كافيا، وأوجب الكفاية، وفيها معنى الإضراب عن الإمداد الكثير إلى الإمداد الأكثر.. أي بلى يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ووعدهم الزيادة أيضا بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال:

{إِنْ تَصْبِرُوا} على لقاء العدو ومناهضتهم، فالصبر هو قوة الحروب، والصبر يتقاضى أن يضبط المجاهد نفسه فلا ينساق وراء الأراجيف والمخاوف.

{وَتَتَّقُوا} معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام. والتقوى تتقاضى التوكل بعد الأخذ في الأسباب، والاعتماد على القوي القهار الغالب على كل شيء.

{وَيَأْتُوكُمْ} أي المشركون.. موقع وعد، فهو في المعنى معطوف على **{يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ}** وكان حقه أن يرد بعده، ولكنه قدم على المعطوف عليه، تعجيلا للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين.

{مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} من ساعتهم، يأتوكم من الجهة التي جاءوكم منها في مبادرة سريعة؛ لأن الفور معناه المبادرة بالشيء، فالمعنى أنهم إذا باغتوكم وأتوكم من فورهم، فإنه يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة.

وإضافة الفور إلى ضمير الآتين **{فَوْرِهِمْ}** لإفادة شدة اختصاص الفور بهم، أي شدة اتصافهم به حتى صار يعرف بأنه فورهم. والإشارة بقوله **{هَذَا}** إلى الفور تنزيلا له منزلة المشاهد القريب.

وشروط المدد ثلاثة: الصبر والتقوى، وأن يأتوهم من فورهم هذا.

قال أبو السعود: "أي من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدرُ فارتَ القدرُ أي اشتد غليانها ثم استُعير للسرعة ثم أُطلق على كل حالةٍ لا ريث فيها أصلاً، ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه.

ونظم إتيانهم بسرعة في سلك شرطي الإمداد المستبَعين له وجوداً وعدماً أعني الصبر والتقوى مع تحقق الإمداد لا محالة سواءً أسرعوا أو أبطأوا لتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أي حال فرض، على أبلغ وجهٍ وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليُعلم تحققه على سائرهما بالطريق الأولى، فإن هجوم الأعداء وإتيانهم بسرعة من مظانّ عدم لُحوق المددِ عادةً، فعُلّق به تحقق الإمداد إيداناً بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادةً فلائُن يتحقق بدونه أولى وأحرى، كما إذا أردتَ وصفَ درعٍ بغاية الحصانة تقول: إن لبستها وبارزت بها الأعداءَ فضربوك بأيدي شدادٍ وسيوفٍ حدادٍ لم تتأثر منها قطعاً".

{يُمَدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ} في إسناد الإمداد إلى لفظة **{ربكم}** دون غيره من أسماء الله إشعارٌ بحسن النظر لهم، واللفظ بهم، فهذه ربوبية خاصة.

{بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} زائد على الثلاثة التي تكفل الله بها.. والأعداد المذكورة هنا مناسبة لجيش العدو فإنهم لما خشوا كثرة عدد عدوهم وعدهم الله بثلاثة آلاف أي بجيش له قلب وميمنة وميسرة كل ركن منها ألف، ولما لم تنقشع خشيتهم من إمداد المشركين لأعدائهم وعدهم الله بخمسة آلاف، وهو جيش عظيم له قلب وميمنة وميسره ومقدمة وساقة، وذلك هو «الخميس»، وهو أعظم تركيباً وجعل كل ركن منه مساوياً لجيش العدو كله.

****** وفيه أن من نعمة الله على العبد أن يكون الذي يتولاه الملائكة؛ لأن الملائكة تثبت على الخير بخلاف الشياطين فإنها تثبت على الشر، ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا امتنعت الملائكة عن دخول بيت فإنه نوع من العقوبة كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (الْمَلَائِكَةُ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ) [البخاري]

{مُسَوِّمِينَ} أي مُعَلِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ أو خِيَلَهُمْ، وتطلق السومة على علامة يجعلها البطل لنفسه في الحرب من صوف أو ريش

ملون، يجعلها على رأسه أو على رأس فرسه، يرمز بها إلى أنه لا يتقي أن يعرفه أعداؤه، فيسددوا إليه سهامهم، أو يحملون عليه بسيوفهم، فهو يرمز بها إلى أنه واثق بحمايته نفسه بشجاعته، وصدق لقائه، وأنه لا يعبأ بغيره من العدو. ووصف الملائكة بذلك كناية على كونهم شدادا.

رُوي أنهم كانوا بعمائم بيضٍ إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام، وروي أنهم كانوا على خيل بُلقٍ. [فيها سواد وبياض]

قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بُلق عليهم عمامٌ بيضٌ قد أرسلوها بين أكتافهم.

وقال قتادة والضحاك: كانوا قد أعلموا بالعِهن في نواصي الخيل وأذنايها.

فهم معلمين بعلامات تعرفونهم بها. علم الجهاد وعلم القتال، وهذا أبلغ من مجرد الإنزال. لأن العادة أن الشجعان يجعلون لهم علامات فوق لأمة الحرب حتى يعرف بها الشجاع من غيره.

ولما انهزم كرز يوم بدر قبل تحركه وقعد عن إمداد قريش بالمقاتلين لم يمد الله تعالى رسوله والمؤمنين بما ذكر من

الملائكة فلم يزدتهم على الألف الأولى التي أمدهم بها لما استغاثوه في أول المعركة.. فهذه الألف هي التي نزلت فعلاً وقاتلت مع المؤمنين وشوهد ذلك وعلم به يقيناً، أما الوعد بالإمداد الأخير فلم يتم لأنه كان مشروطاً بإمداد كرز لقريش فلما لم يمدهم، لم يمد الله تعالى المؤمنين.. هذا على قول من قال أن هذا الوعد بالإمداد بثلاثة ثم خمسة آلاف كان يوم بدر.

{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ} أي هذا الإمداد من إنزال الله الملائكة وإعلامكم بإنزالها. وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار للتنويه بهذه العناية من الله بهم.

{إِلَّا بُشْرَى} ما جعل الله هذا الإمداد لشيء إلا أنه بشرى **{لَكُمْ}** بالنصر، فتزداد قوة قلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم.. والبشرى: الخبر السار الذي يتهلل له الوجه بالبشر والطلاقة.

و**{لكم}** متعلق ببشرى. وفائدة التصريح به مع ظهور أن البشرى إليهم هي الدلالة على تكريمه الله تعالى إياهم بأن بشرهم بشرى لأجلهم، كما في التصريح بذلك في قوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** [الشرح: ١].

والجملة استثناءً مفرغٌ وهو من أعم العلل التي تفيد التخصيص، والاستثناء المفرغ هو ما حذف فيه المستثنى منه وتقدمه نفي أو نهي أو استفهام، ولهذا سمي ناقصاً، ولم تعد فيه «إلا» أداة للاستثناء بل تصبح «أداة حصر»، وسمي مفرغاً لأن الفعل قبل «إلا» فرغ من معموله وهو الفاعل أو المفعول.

وتلوينُ الخطابِ لتشريف المؤمنين وللايذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة، وأن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غني عنه بما له من التأييد الروحاني.. أي وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عياناً لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تُنصرون.

{وَلِتَطْمَئِنَّ} تسكن {قُلُوبُكُمْ بِهِ} أي بالإمداد، فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم.. فإن الله لما وعدهم بالنصر أيقنوا به فكان في تبين سببه وهو الإمداد بالملائكة طمأنة لنفوسهم لأن النفوس تركز إلى الصور المألوفة.

وأصل اطمئنان القلوب: سكونها وذهاب الخوف والقلق عنها، كما كانت السكينة لبني إسرائيل كذلك.

اختلف المفسرون في هذه الآيات، أهي في غزوة بدر الكبرى التي جعل الله فيها الكلمة العليا للمسلمين، والكلمة السفلى للمشركين، والتي خرجت بالمؤمنين من حال الضعف في الأرض إلى حال القوة فيها؛ أم هي في غزوة أحد التي اختبر الله المؤمنين إذ لم يتبعوا أمر الله تعالى الذي يتضمن الطاعة للرسول ولأولي الأمر، فبين لهم سبحانه وتعالى نتيجة المخالفة بذلك الاختبار الشديد.

قال بعض المفسرين: إن الآية في غزوة بدر الكبرى، لأن الله تعالى يقول قبل هذه الآية مباشرة: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**. فقد ذكر النصر مجملاً في هذه الآية فيكون ما بعدها تفصيلاً لمجملها، وتكون هذه الآيات الكريمة التي نتكلم في معانيها السامية بياناً لأسباب هذا النصر، وهذا يتفق مع السياق.

وقال أكثر المفسرين: إن هذه الآيات في غزوة أحد، فقوله: **{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ}**، في موضع البيان أو البدل من قوله تعالى: **{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**.

وأما قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} معترضاً بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكل والثبات للقتال.

وقوله تعالى: {وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} ويوم بدر ذهب المسلمون إليهم.

وأن الرواية تؤيد ذلك، إذ روي عن كثيرين من التابعين أن إمداد الله بالملائكة كان في بدر بألف، كما قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ}.

وقد ذكر الضحاك في قوله تعالى: {أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ} أن هذا كان موعداً من الله يوم أحد، عرضه الله على نبيه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. ورجح شيخ المفسرين ابن جرير أن هذه الآية في غزوة أحد.

وفي زاد الميعاد لابن القيم: "القصة في سياق أُحُد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، ثم قال: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ} فذكرهم نعمه عليهم، لما نصرهم
ببدر وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، وأخبر عن قول رسوله
لهم: {أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنزِلِينَ} ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف.
فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا
بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وفي أحد معلق على شرط،
وفي بدر مطلق.

والقصة في سورة آل عِمْرَان، هي قصة أحد مستوفاة مطولة،
وبدر ذكرت فيها اعتراضاً .

والقصة في سورة الأنفال قصة غزوة بدر مستوفاة مطولة،
فالسباق في آل عِمْرَان غير السياق في الأنفال، يوضح هذا أن
قوله: {وَيَأْتُوَكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} قد قال مجاهد: هو يوم أحد،
وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله إن
الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم
أحد. [زاد الميعاد بتصرف]

وقال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: قال سبحانه في قصة
بدر: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}

[الأنفال: ٩-١٠]، فوعدهم بالإمداد بألف وعدًا مطلقًا، وأخبر أنه جعل إمداد الألف بشري ولم يقيده، وقال في قصة أحد: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]، فإن هذا أظن فيه قولين:

أحدهما: أنه متعلق بأحد؛ لقوله بعد ذلك {لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الآية [آل عمران: ١٢٧]؛ ولأنه وعد مقيد، وقوله فيه: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ} [آل عمران: ١٢٦]، يقتضى خصوص البشرى بهم.

وأما قصة بدر، فإن البشرى بها عامة، فيكون هذا كالدليل على ما روى من أن ألف بدر باقية في الأمة، فإنه أطلق الإمداد والبشرى وقدم {به} على {لكم} عناية بالألف، وفي أحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط.

وعن الخلاف بين المفسرين عن هذا الإمداد كان ببدر أم أحد يقول ابن جرير: "وغير جائز، أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم به الحجة، ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله.

غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة... فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا. وذلك أنهم لو أمدوا، لم يهزموا، وينال منهم ما نيل منهم".

أما حديث البخاري عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمَ أُحُدٍ وَمَعَهُ رَجُلَانِ يُقَاتِلَانِ عَنْهُ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ... يعني جبريل وميكائيل وإنما كان ذلك للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خاصة، لأنه صبر ولم ينهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد.

بل إن الإمداد ثابت في غير هذين الموطنين ففي البخاري عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السَّلَاحَ وَاغْتَسَلَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ فَقَالَ وَضَعْتَ السَّلَاحَ فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَيْنَ؟ قَالَ هَا هُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ قَالَتْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{وَمَا النَّصْرُ} أي حقيقة النصر على الإطلاق، فيندرج في
حكمة النصر المعهود اندراجاً أولياً.. يعني نصر المؤمنين، ولا
يدخل في ذلك نصر الكافرين؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو
إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخسران.

{إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} وحده من غير أن يكون فيه شركة لغيره،
والذي لو شاء تعالى لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج
إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: **{ذَلِكَ
وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ
قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ.
وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ}** [محمد: ٤-٦]

والنصر أيضاً - وإن كانت له عوامله من كثرة العدد وقوة
العدة - فإنه بيد الله تعالى، فقد ينصر الضعيف ويخذل القوى،
فلذا وجب تحقيق ولاية الله تعالى أولاً قبل إعداد العدد. وتحقيق
الولاية يكون بالإيمان والصبر والطاعة التامة لله ولرسوله ثم
التوكل على الله عز وجل.

فحقيقة النصر مختصٌّ به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا
يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته. فنصره سبحانه من غير أن

يكون فيه شِرْكَةٌ من جهة الأسبابِ والعدد، وإنما هي مظاهرُ له بطريقِ جَرَيَانِ سنتِه تعالى.

****** وفيه ثبوت قتال الملائكة مع أصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بدر قتالاً حقيقياً، لأنهم نزلوا في صورة بشر يقاتلون على خيول، وعليهم شاراتهم وعلاماتهم، ولا يقولنَّ قائل أن المَلَك الواحد يقدر على أن يهزم ملايين البشر، فكيف يعقل اشتراك ألف ملك في قتال المشركين وهم لا يزيدون عن الألف رجل، وذلك أن الله تعالى أنزلهم في صورة بشر فأصبحت صورتهم وقوتهم قوة البشر، ويدل على ذلك ويشهد له أن ملك الموت لما جاء موسى في صورة رجل يريد أن يقبض روحه ضربه موسى عليه السلام ففقأ عينه، وعاد إلى ربّه تعالى ولم يقبض روح موسى عليهما معاً السلام. كما في صحيح البخاري.

وقيل: وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين.

وقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه، وتكون الملائكة

مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده. والله فاعل الجميع".

قال القرطبي: "نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله وليثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب؛ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]. ولكن أخبر بذلك ليمثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢]، ولا يقدر ذلك في التوكل.

وهو رد على من قال: إن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء لا للأقوياء؛ فإن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء؛ وهذا واضح".

قال بعض الحكماء: "ذكر تعالى في هذه الآية حكمة إخبارهم بالنصر، وأنه يريد بشراهم وطمأنينتهم وتوكلهم عليه، وهو أدعى إلى قوة العزيمة، فإن العامل إذا أيقن بأن معه قاهر الكون رفعته تلك الفكرة، وجعلته أقوى الناس، وأقدرهم على صعب الأمور، لا كما يظنه المنتكسون الجاهلون الكسالى

اليائسون من روح الله، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة، فباؤا بغضب على غضب".

{العَزِيزُ} أي الغالب الذي لا يغالب في حكمه وأقضيته، وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعله اختصاص النصر به تعالى.

{الْحَكِيمُ} الذي يضع النصر في موضعه لكمال علمه، فيعطيه مستحقه من أهل الصبر والتقوى.

{لَيَقْطَعُ} أي يُهْلِكُ وَيَنْقُصُ، واللام هنا للتعليل، وفيه إثبات الحكمة الله عز وجل في أفعاله وتشريعاته، وذلك لأن التعليل هو الحكمة.

{طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الطرف: الطائفة والتنكير للتفخيم، فعل ذلك ليهلك طائفة من جيش العدو، فأهلك من المشركين سبعين يوم بدر واثنتي وعشرون رجلاً يوم أحد، وكان قتلى المشركين يوم بدر سادة قريش، وأئمة الشرك، وحسبك بأبي جهل ابن هشام.

وطرف الشيء هو منتهاه من أسفل أو من أعلى، والمراد الطرف الذي يلي المسلمين؛ وذلك لأن المسلمين مطالبون بقتال من يليهم من الكفار حتى يفتحوا بلاد الكفار بلداً بلداً،

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]

فأمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار: ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وليس كل الذين كفروا؛ لأن من حكمة الله أن يبقى الإيمان والكفر متصارعين دائماً حتى يتبين المؤمن الخالص من غيره.

{أَوْ يَكْبِتْهُمْ} يخزيهم ويذلهم، وإن لم يحصل فيهم قتل، إذ أُسِرَ منهم سبعون يوم بدر.

والمكبوت المحزون وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة "يكبدهم" أي يصيبهم بالحزن والغيط في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء. من كبته بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيط والحرقه. والعرب تتخيل الغم والحزن مقره الكبد. وقيل هو وهن يقع في القلب.

{فَيَنْقَلِبُوا} يعودوا {خَائِبِينَ} الخائب: المنقطع الأمل. خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب، والخياب: القدح لا يوري.. أي رجعوا إلى ديارهم منقطعي الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء

ولم يحرزوا النصر الذي أمّلوه. كما حدث يوم الأحزاب {وَرَدَّ} **الله الذين كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا** {الأحزاب: ٢٥}

قال في «زهرة التفاسير»: "في هذا النص الكريم بيان لثمرات نصر الله تعالى، وفيه يتبين أن نصر الله لعبادة المؤمنين ينتهي إلى غايات منها:

أن يقطع طرفا من الذين كفروا، وفسر العلماء ذلك بأن يقتل فريق منهم ويؤسر فريق، فإن ذلك قطع لهم، وعندي أن قطع طرف من الذين كفروا يتحقق بذلك، ويتحقق بما هو أقوى منه، وهو أن تنقص عليهم الأرض من أطرافها، ويستولي على جزء من أرضهم، حتى يتحقق قوله تعالى: **{وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}** {الأحزاب: ٢٧}.

ومن غايات النصر ونتائجه أن يكبت الله تعالى الذين كفروا بسبب كفرهم، والكبت يطلق بعدة معانٍ، فيراد به الرد العنيف، ويراد به شدة الغيظ، وقيل: إن أصله الكبد، أي إصابة الكبد وتقريحه بالغيظ الشديد، ويطلق ويراد به الخزي، والمعنى أن من غايات نصر الله تعالى للمؤمنين أن يصاب الذين كفروا بالغيظ الشديد والخزي والألم النفسي، حتى يخبو صوت الكفر، ويعلو

صوت الإيمان، ويصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعند الناس.

وفي التعبير عن العودة بالانقلاب إشارة إلى أن مقاصدهم قد انقلبت، فقد أرادوا اقتلاع الإسلام فما وهن المسلمون، وأرادوا أن يطفئوا النور فما انطفأ، فالانقلاب عودة من غير تحقق المقاصد، وفي هذا إشارة إلى أن الجراحات التي أصابت المؤمنين لم تكن نصراً للكافرين، بل قد كانت ثمرة النصر للمؤمنين، إذ قد انقلب الكفار خائبين: **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}** [الأحزاب: ٢٥].

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ} اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيرى لنفسه تأثيراً في بعض هذه الأمور، فيحتجب عن التوحيد، أي: ليس لك من أمرهم شيء، كيفما كان، ما أنت إلا بشر مأمور بالإنذار. إن عليك إلا البلاغ، إنما أمرهم إلى الله -أفاده القاشاني- وفي الاعتراض تخفيف من حزنه -صلى الله عليه وسلم- لكفرهم، وحرصه على هدايتهم، كما قال: **{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [البقرة: ٢٧٢]

يعني الأمر الكوني، أما الأمر الشرعي فإن الرسول عليه الصلاة والسلام له منه شيء؛ لقوله تعالى: **{من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}** [النساء: ٨٠] أما الأمر الكوني فلا.. والأمر هو الشأن، والمراد هنا توبة الله على الكافرين أو تعذيبهم.

وفيه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يملك شيئاً من الأمر الكوني. والآية رد على الذين يتعلقون بالرسول عليه الصلاة والسلام في الدعاء والاستعانة به والاستغاثة به حتى بعد موته، فتجدهم عند قبره الشريف يدعون الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة، بل إنهم عند الدعاء ولو كانوا بعيدين يتجهون إلى القبر لا إلى القبلة.

وتخصيصُ النفي برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى.

{شَيْءٌ} شيء نكرة متوغلة في الإبهام. وأصل الشيء: ما يعلم ويخبر به.. فالأمر كله إلى الله.

وفيه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مكلف، يأمره الله سبحانه وتعالى وينهاه، وعليه فيكون في هذا إبطال لدعوى من يقولون: إن الإنسان إذا وصل إلى حالة معينة من العبودية سقطت

عنه التكليف، وهذا قول طائفة من الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان يترقى في اليقين حتى إذا وصل إلى الدرجة العليا سقط عنه التكليف، وصار كل شيء حرام حلالاً له، وكل شيء واجب ليس بواجب عليه، فلا يوجبون عليه الصلاة، ولا يحرمون عليه الزنا ولا شرب الخمر؛ فيقال لهم: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق لا يصل إلى هذه المرتبة فما بالك بمن دونه؟!

{أَوْ} هنا بمعنى «حتى»، أي فاصِرٌ حتى يتوب عليهم أو حتى يعذبهم.

{يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} أي على الكافرين، وتوبة الله على الكافر أن يهديه للإسلام، وتوبته على الفاسق أن يرده عن الفسق إلى الطاعة.

وتوبة الله على العبد قسمان: توبة سابقة، وتوبة لاحقة، وتوبة العبد متوسطة بينهما، وهذا مذكور في سورة التوبة، قال الله تعالى: **{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ**

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا {
[التوبة: ١١٨-١١٧]

تاب عليهم ليتوبوا هذه التوبة السابقة، والتوبة السابقة معناها التوفيق للتوبة، والتوبة اللاحقة معناها قبول التوبة، وتوبة العبد تكون بينهما.

{أَوْ يُعَذِّبُهُمْ} والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخرى المخصوص بأشد الكفرة كفرا. وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على إصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور.

{فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} تعليل لعذابهم عند إصرارهم، فالسبب في التعذيب بعد هذا الإصرار أنهم ظالمون، لأنهم اعتدوا على المؤمنين ففتنهم عن دينهم الذي ارتضوا، واعتدوا على النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بإيذائه والسخرية منه، واعتدوا مرة ثالثة بقتال المؤمنين، ومحاولة اقتلاع مدينتهم الطاهرة، واعتدوا على الحقائق فموهوها وزيفوها، واعتدوا على أنفسهم فأضلوها وأفسدوها؛ اعتدوا كل هذه الأنواع من الاعتداء فكانوا ظالمين ومستحقين للعذاب، وقد أكد سبحانه وتعالى وصفهم بالظلم بـ "إِنَّ" المؤكدة للحكم، وبالجملة الاسمية، وبوصفهم بالظلم كأنه

شأن من شئونها وطبيعة في نفوسهم، إذ لم تهدمهم إلى الحق الحجاج الدامغة، ولا الآيات البينة، ولا القوة الغالبة.

****** وفيه أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب إلا بذنب؛ والظالم مستحق لأن ينكل الله به؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب الظلم، بل إنه قال في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا) [مسلم]

****** روى مسلم عن ثابت عن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسأل الدم عنه ويقول: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ [استبعاد لفلاحهم] شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}

روى البخاري عن الزُّهْرِيِّ حَدَّثَنِي سَالِمٌ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ الْعَنَ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا) بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}.

وَعَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ سَمِعْتُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ
كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ
أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَزَلَتْ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ} إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}.

وروى أحمد عن سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا، اللَّهُمَّ الْعَنْ
الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ [أخو أبي جهل]، اللَّهُمَّ الْعَنْ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو،
اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ). قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {لَيْسَ لَكَ
مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل
عمران: ١٢٨] قَالَ: فَتَيَّبَ عَلَيْهِمْ كُلَّهُمْ.

وروى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو عَلَى أَحَدٍ أَوْ
يَدْعُو لِأَحَدٍ قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ فَرُبَّمَا قَالَ إِذَا قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ
حَمِدَهُ اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ
بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ
وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ يَجْهَرُ بِذَلِكَ وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ
صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا لِأَحْيَاءٍ مِنْ
الْعَرَبِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}

والحكمة في منعه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الدعاء عليهم ظهرت من توبتهم أخيراً، والإلحاح في الدعاء مظنة الإجابة، ولا سيما من أشرف خلقه. فاقضت حكمته تعالى إمهالهم إلى أن يتوبوا لسابق علمه فيهم. وفيه طلب التفويض في الأمور الملمة، لما في طيها من الأسرار الإلهية.

وفي هذا إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يدعو على شخص مهما بلغ في الكفر والطغيان باللعنة، بل لا يجوز أن يدعو عليه باللعنة؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولا يحل لك أن تتحجر رحمة الله، فقد يمن الله على هذا الكافر المجرم فيتوب، كما أنه سبحانه وتعالى قد يمن على الفاسق الذي لم يصل إلى حد الكفر فيستقيم وتصلح حاله.

قال القرطبي: "قال علماؤنا: قوله عليه السلام: (كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم) استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به. وقوله تعالى: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أطمع في ذلك قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ

الدَّم عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). قال علماءنا: فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكى عنه.

ولما ذكر أن النبي -عليه الصلاة والسلام- ليس له من الأمر شيء فمن دونه من الخلق من باب أولى بين لمن يكون له الأمر فقال:

{وَلِلَّهِ} اللام هنا للاستحقاق والاختصاص والملك يعني الله ملكاً واستحقاقاً واختصاصاً.. وخلقاً وعبيداً يتصرف كيف يشاء ويحكم كما يريد.

والجار والمجرور مقدم على المبتدأ لإفادة الحصر، فمن طرق الحصر تقديم ما حقه التأخير، يعني: لله لا لغيره.

{مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} تقرير وتأكيد لما قبله من قوله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}**، أي: له ما فيهما ملكاً وأمراً.

و«ما» اسم موصول يشمل كل ما في السموات وما في الأرض من إنس وجن وحيوان وجماد وغير ذلك، وعبر بـ «ما» إما لأن غير العاقل أكثر من العاقل فصار هذا من باب التغليب، وإما لأن المقصود الأعيان والأوصاف، وإذا كان المقصود الأعيان والأوصاف يؤتى بـ «ما» لا بـ «من» ومنه قوله تعالى:

{فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النساء: ٣] ولم يقل (مَنْ) لأنه ليس المقصود العين، وإنما المقصود الوصف يعني الذي يطيب لكم وتركنون إليه.

وَالسَّمَوَاتِ جمع قد صرح الله سبحانه في القرآن بأن السموات سبع كما قال تعالى: **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [المؤمنون: ٨٦] أما الأرض فليس في القرآن نص على أنها سبع، وإنما فيه ظاهر، يعني ما يدل ظاهراً على أن الأرضين سبع، ومنه قوله تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}** [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا لا يمكن أن تكون مثلية الجنس والنوع والصفة؛ لأن الأرض مختلفة عن السماء اختلافاً ظاهراً؛ فتعين أن يكون مراد المثلية بالعدد.

وقد جاءت السنة مصرحة بأن عدد الأرضين سبع، من قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ) [مسلم]

والحاصل أن الأمر في السماوات والأرض كله لله تعالى، وسلطانه تعالى على ما في السماوات والأرض سلطان المنشئ والمدير والمالك والعالم بماضي ما فيها وحاضره ومستقبله، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وهو يعلم بما يجري فيه، وما سيكون من

شأن له في المستقبل فهو علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا كان كذلك فلا سلطان لأحد سواه، وليس لأحد مهما أعلى الله تعالى منزلته، واختصه بفضله ورحمته، شيء من الأمر، وهو سبحانه وتعالى يعلم توبة التائب قبل أن يتوب، وإصراره على الذنب قبل أن يموت، وهو الذي يغفر إن شاء، ويعذب من يشاء، ولذا قال بعد ذلك للدلالة على كمال سلطانه:

{يَغْفِرُ} المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يوضع على الرأس عند القتال، فإنه ساتر للرأس وواق له.

{لِمَنْ يَشَاءُ} هذه الآية مقيدة بالحكمة أي من اقتضت حكمته أن يغفر له غفر له، ومقيدة كذلك بما عدا الشرك، فإن الله يقول: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}** [النساء: ٤٨] لكن المشرك لو أسلم لغفر الله له لقوله: **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}** [الأنفال: ٣٨]

{وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} ممن يستحق التعذيب.. ولا يستثنى منها المشرك؛ لأن المشرك قد أعلمنا الله أنه لا يشاء أن يغفر له فلا

يكون داخلاً في المشيئة بل هو يعذب المشرك قطعاً؛ لأن وعده لا يخلف سبحانه وتعالى، فالمشرك لا بد أن يعذب: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: ٧٢] لكن لو تاب فإن الله يغفر له ويتوب عليه.

ويتفرع من هاتين الصفتين إثبات تمام سلطانه سبحانه في ملكه، وأن الأمر له في التعذيب والمغفرة. ولما تقدّم قوله: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ}، أتى بهذه الجملة موضحاً أن تصرفاته تعالى على وفق مشيئته، وناسب البداءة بالغفران، والإرداف بالعذاب ما تقدم من قوله: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ}، ولم يشترط في الغفران هنا التوبة. إذ يغفر تعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب، ما عدا ما استثناه تعالى من الشرك.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} في هذه الجملة ترجيح لجهة الإحسان والإنعام، فحُتِمَ الآية بهذين الاسمين الكريمين مناسب جداً؛ لقوله: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} فلكونه غفوراً صار يغفر لمن يشاء. والرحيم معناه ذو الرحمة المقتضية للإحسان والإنعام، فالإحسان والإنعام من مقتضى الرحمة وليس هو الرحمة.

كما وصف سبحانه وتعالى ذاته العلية بصيغة المبالغة في الغفران، فقال {غَفُورٌ} أي كثير المغفرة يحبها ويريدها، وهو {رَحِيمٌ}، والرحمة أوسع معنى وأشمل من مطلق التجاوز عن الذنب، بل إن الرحمة قد تعم العقاب كما تعم الثواب، فاقتران الرحمة بالغفران يدل على ثلاثة أمور.

أولها: أن الله تعالى لا يكتفي بغفران الذنوب عن العصاة التائبين، بل يشيهم على ما يفعلون من حسنات، وإن الحسنات عنده سبحانه وتعالى يذهب السيئات.

ثانيها: أن الغفران من الرحمة، وما دام من الرحمة فلا قيد يقيده، والله أعلم بمن يكون موضع رحمته، ومكان مثوبته.

ثالثها: أن العذاب للمصر على الذنب الذي يعيث في الأرض فسادا، ويفتن الناس عن دينهم يعد من الرحمة؛ لأن رحمة الله تعالى عامة لا خاصة، ومن الرحمة بالعامة عقاب العصاة المفسدين، وثواب الطائعين الأبرار.

قال ابن عاشور في هذه الآية: تذييل لقوله: {أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ} أو يُعَذَّبُهُمْ} مشير إلى أن هذين الحالين على التنويع بين المشركين، ولما كان مظنة التطلع لمعرفة تخصيص فريق دون فريق، أو تعميم العذاب، ذيله بالحوالة على إجمال حضرة

الإطلاق الإلهية، لأن أسرار تخصيص كل أحد بما يعين له،
أسرار خفية لا يعلمها إلا الله تعالى، وكل ميسر لما خلق الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (١٣٢)

مما يعلم به حكمة نظم هذه الآية في سلك قصة أحد، ما
رواه أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن عمرو بن
أقيش، كان له ربا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه،
فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا بأحد، قال: أين
فلان؟ قالوا بأحد، قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمنته
وركب فرسه، ثم توجه قبلهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك
عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح، فحمل إلى
أهله جريحا، فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه حمية
لقومك، أو غضبا لهم أم غضبا لله؟ فقال: بل غضبا لله
ولرسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة " [حسنه
الألباني]

وفي مسند أحمد عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كَانَ يَقُولُ: حَدَّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ: مَنْ هُوَ؟ فَيَقُولُ: أَصِيرِمُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ عَمَرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَفْشٍ، قَالَ الْحُصَيْنُ: فَقُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الْأُصِيرِمِ؟ قَالَ: كَانَ يَأْبَى الْإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى أُحُدٍ بَدَأَ لَهُ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَعَدَا حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ، فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لِلْأُصِيرِمِ، وَمَا جَاءَ؟ لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكَرٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ، فَسَأَلُوهُ مَا جَاءَ بِهِ؟ قَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمَرُو، أَحَدَبًا [حنوا وعطفوا] عَلَى قَوْمِكَ، أَوْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: بَلْ رَغْبَةٌ فِي الْإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَعَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: (إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) [قال شعيب الأرنؤوط: حسن]

وذكر القفال -من علماء الشافعية- "أن بين هذه الآية
الناهية عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وغزوة أحد مناسبة ظاهرة،
وذلك أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالاً
كثيرة جمعوها من الربا، ولعل ذلك يدعو بعض المسلمين إلى
الإقدام على الربا، حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر
ويتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم عن ذلك".
وكان أيضاً أكل الحرام له مدخل عظيم في عدم قبول
الأعمال الصالحة والأدعية.

وقال في «الظلال»: "وقبل أن يدخل السياق في صميم
الاستعراض للمعركة - معركة أحد - والتعقيبات على وقائعها
وأحداثها.. تجيء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى.. المعركة
في أعماق النفس وفي محيط الحياة.. يجيء الحديث عن الربا
والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله. وعن
الإنفاق في السراء والضراء والنظام التعاوني الكريم المقابل
للنظام الربوي الملعون. وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس
وإشاعة الحسنى في الجماعة. وعن الاستغفار من الذنب
والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة".

وقال أبو السعود: "ولعل إيراد النهي عن الربا في أثنائها لما أن الترغيب في الإنفاق في السراء والضراء الذي عُمدته الإنفاق في سبيل الجهاد متضمن للترغيب في تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس طرق الاكتساب ومن جملتها الربا، فنهوا عن ذلك".

ويتجه أن يسأل سائل عن وجه إعادة النهي عن الربا في هذه السورة بعد ما سبق من آيات سورة البقرة بما هو أوفى مما في هذه السورة، فالجواب: أن الظاهر أن هذه الآية نزلت قبل نزول آية سورة البقرة فكانت هذه تمهيدا لتلك، ولم يكن النهي فيها بالغا ما في سورة البقرة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ندائهم باسم الإيمان من باب الإغراء والحث على ما تضمنه الخطاب؛ لأن مناداة هؤلاء باسم الإيمان يدل على أن ذلك من أجل أن يثير همهم. ويفيد أيضاً: أن الالتزام بما دل عليه الخطاب من مقتضيات الإيمان، فمثلاً ترك أكل الربا من مقتضيات الإيمان؛ لأن الخطاب وجه للمؤمنين، ويستفاد أمر ثالث: وهو أن المخالفة في هذا منقصة للإيمان وسبب لنقصانه.

فابتدأ الله سبحانه وتعالى الآية بهذا النداء لبيان أن أكل الربا ليس من شأن أهل الإيمان، وإنما هو من خواص أهل الكفر والعصيان، فإذا كان المشركون يأكلون الربا ويتقوون به، ويكاثرون أهل الإيمان بأموالهم التي اكتسبوها من السحت فليس لأهل الحق أن يجاروهم، بل عليهم أن يحرموه على أنفسهم، ولا يأكلوا إلا حلالاً طيباً.

وكل نهي جاء مصحوباً بنداء المؤمنين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فهو من المحرمات؛ التي يَأثم فاعلها، ويثاب تاركها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ} [النور: ٢١] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخوانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: ١٥٦] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [النساء: ٢٩] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧]

{لَا تَأْكُلُوا} عبر بالأكل لأنه أخص ما يكون في ملابسة الإنسان، فالذي يدخل إلى جوفك ليس كالذي تلبسه ظاهر

جسدك، وليس كالبیت الذي تسكنه، فإن أبلغ ما يكون في ملامسة الإنسان هو الأكل، ولهذا نهى عنه، والإنسان عندما لا يكون لديه شيء وهو جائع عار وليس عنده سكن يقدم الأكل فهو أشد ما يكون ضرورة للإنسان.

ولذلك قالوا: لا مفهوم للأكل بل كل تصرف بالربا حرام سواء كان أكلاً أو شرباً أو لباساً.. فالمراد بأكله أخذه، وإنما عُبر عنه بالأكل لما أنه مُعظم ما يقصد بالأخذ، ولشيعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع.

{الربا} الربا لغة: الزيادة، وفي الشرع نوعان: «ربا فضل» و «ربا نسيئة».. ربا الفضل: يكون في الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح، فإذا بيع الجنس بمثله يحرم الفضل - أي الزيادة - ويحرم التأخير، وربا النسيئة: هو أن يكون على المرء دين إلى أجل فيحل الأجل ولم يجد سداداً لدينه فيقول له: "أخربي وزد في الدين".

وقد تقدم في البقرة من المبالغة في النهي عنه ما يروع من له أدنى تقوى. ويوجب لمن لم يتركه وما يقاربه الضمان بالخذلان في كل زمان: **{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}**
[البقرة: ٢٧٩]

{أَضْعَافًا} نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها،
وأشار بقوله:

{مُضَاعَفَةً} إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام..
والأضعاف: جمع ضعف، وهو من جموع القلة. فلذلك أردفه
بالمضاعفة التي هي صفة للأضعاف أي هي أضعاف يدخلها
التضعيف.

وهذه الحال لا مفهوم لها، لأن شرط استفادة المفهوم من
القيود أن لا يكون القيد الملفوظ به جرى لحكاية الواقع، بل
ذكرت لمراعاة عاداتهم، فلا مفهوم لهذا لأنه خرج مخرج العادة
الغالبة، إذ الدرهم الواحد حرام كالألف، وإنما كانوا في الجاهلية
يؤخرون الدين ويزيدون مقابل التأخير حتى يتضاعف الدين
فيصبح أضعافاً كثيرة.

فما جاء على وفق العادة الغالبة فإنه لا مفهوم له، وهذه
قاعدة من قواعد أصول الفقه، أن القيد إذا كان من أجل أنه
الأمر الغالب فإنه لا مفهوم له، وله أمثلة منها قوله تعالى:
{وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}
[النساء: ٢٣] فإن قوله: **{اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم}** قيد على وفق
العادة والغالب، ولهذا تحرم الريبة وإن لم تكن في حجره، ومنه

قوله تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [النور: ٣٣] فإن هذا لا يدل على أن الأمة إذا امتنعت من الزنا لأن الرجل الذي طلب منها أن تزني به لا يعجبها أنه يجوز إكراهها عليه.

وهذه الحال في الربا أيضا ليست قيداً في النهي بل هي للتشجيع، إذ ما لا يقع أضعافاً مضاعفة مساوٍ في التحريم لما كان أضعافاً مضاعفة، لما هو معلوم من تحريمه على كل حال.

وفي حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، مِثْلٌ بِمِثْلٍ، مَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرَبَى، الْآخِذُ وَالْمُعْطِي سَوَاءٌ) [أحمد] أي وقع في الربا مع أنه لم يأكل أضعافاً مضاعفة.

وفي البخاري عن عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَاثِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ -رضي الله عنه- قَالَ جَاءَ بِلَالٌ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ أَيْنَ هَذَا؟) قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ ذَلِكَ: (أَوْهَ أَوْهَ، عَيْنُ الرَّبِّ عَيْنُ الرَّبِّ لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ الثَّمَرِ بَيْعٍ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِهِ) والصاع بالصاعين وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأنه عين الربا، وليس فيه ظلم، وليس فيه أضعافاً مضاعفة، ومع ذلك سماه رباً بل عين الربا.

إذن هذا القيد لا مفهوم له خلافاً لمن قال إنه قيد شرطي، وأن الربا لا يحرم إلا إذا كان في هذه الصورة، وأجازوا الربا إذا كان ليس فيه ظلم وإنما هو استثماري ترداد به أموال الدولة وينشط به الاقتصاد، فإن من العلماء ولا سيما المتأخرون من زعم ذلك ولكنه زعم باطل، الربا محرم بأي نوع من أنواعه سواء كان أضعافاً مضاعفة أو ضعفاً واحداً أو دون الضعف.

قال عطاء: كانت ثقيف تداين بني المغيرة في الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون.

وقال زيد بن ثابت: إنما كان ربا الجاهلية في التضعيف يكون للرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول: "تقضيني أو تزيدني". وبهذه الأخبار الصحاح تبين أن ربا الجاهلية كان أساسه الزيادة في الدين للزيادة في الأجل من غير نظر إلى سبب الدين،

وأن هذا الربا المنصوص عليه في الآية هو «ربا الجاهلية»، وهو الذي ذكره النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في خطبة الوداع، إذ قال: (وَإِنَّ كُلَّ رَبًّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ اللَّهَ قَضَى أَنْ أَوَّلَ رَبًّا يُوضَعُ، رَبًّا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) [أحمد، صحيح لغيره]

وربا الجاهلية المنصوص عليه في الآية يحرم كل زيادة قلت أو كثرت، أيا كان سبب الدين، إذ يقول سبحانه في آخر البقرة وهي آخر آيات الربا نزولا: {وَإِنْ تُبْتِمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ}.

قال في زهرة التفاسير: وقد ادعى بعض الذين يريدون أن يطوعوا الشريعة لتخضع للنظام الربوي اليهودي القائم - أن ربا القرآن هو «ربا الديون الاستهلاكية» أي الديون التي تقترضها لغرض: ليأكل أو ليسكن أو ليشتري ثيابا، وذلك قول باطل؛ لأن تخصيص عموم القرآن لا يكون بالتحكم في عباراته، بل يكون تخصيصه بنصوص، أو بقواعد مستمدة من نصوص الدين عامة، ولأن العرب لم تكن حياتهم عريضة؛ لأن عيشهم كان ساذجا ولم يكن معقدا، إذ حياتهم تقوم على التمر واللبن وسكنى الأخبية، فلماذا يكون الاقتراض للاستهلاك؟!

ولأن ربا الجاهلية كان حيث التجارة، فقد كان في مكة والمدينة وهما يتجران كما هو ثابت في التاريخ إذ ينقلان بضائع الروم إلى الفرس، وبضائع الفرس إلى الروم عن طريق القوافل في الصحراء، وقد قال الله تعالى: **{لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِيْلَا فِيْهِمْ رِحْلَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ}** [قریش: ١-٢]

ولأن الدائنين الذين كانوا يرابون في الجاهلية لا يتصور منهم أن يجيئهم محتاج للمال ينفقه في حاجاته الضرورية فيمتنع عن إعطائهم إلا بربا، فهذا العباس الذي كان يسقي الحجاج جميعا نقيع الزيب والتمر لا يتصور منه أن يجيء إليه محتاج، فلا يعطيه إلا بفائدة، إنما يتصور أن يعطي تاجرا يتجر في ماله ولا يحد له الكسب إلا بزيادة محدودة مستمرة لا بنسبة من الربح؛ ولأن المدينين الذين جاءت الأخبار بذكرهم لم يكونوا من الفقراء، بل كانوا من التجار، فبنو المغيرة الذين كانوا مدينين لبعض ثقيف هم تجار لا فقراء.

وبهذا يتبين أن تحريم الربا في الإسلام لإيجاد نظام اقتصادي تمنع فيه الأزمات".

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} فيما نُهيتم عنه من الأعمال التي من جملتها الربا. وهذا من باب التوكيد يعني أن أكلكم مجانيب للتعوى.

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} «لعلّ» هنا للتعليل؛ لأن الكلام صادر من الله، والترجي في حق الله مستحيل؛ لأن الترجي طلب ما فيه مشقة، والله سبحانه وتعالى لا يشق عليه شيء، كل شيء عليه هين، فتكون «لعلّ» للتعليل يعني من أجل أن تفلحوا.

و «لعلّ» تأتي كثيراً للتعليل وللإشفاق، ولترجي ولتمني أحياناً والفرق بين التمني والترجي أن الترجي فيما يرجى حصوله، والتمني فيما لا يرجى حصوله إما لعسره وإما لتعذره.

والفلاح قال أهل العلم: إنه كلمة جامعة لحصول المطلوب وزوال المكروه، وتقوى الله -عز وجل- من أسباب الفلاح في القيام بطاعته واجتناب نهيه، وهو أمر يسير على من يسره الله عليه، افعل ما أمرت به، واترك ما نهيت عنه وبذلك يحصل لك الفلاح.

ولما نهاهم عن أمر صعب عليهم فراقه وهو الربا، أمر بتقوى الله إذ هي الحاملة على مخالفة ما تعودده المرء مما نهى الشرع عنه. ثم ذكر أنّ التقوى سبب لرجاء الفلاح وهو الفوز، وأمر بها مطلقاً لا مقيداً بفعل الربا، لأنه لما نهى عن الربا كان المؤمنون أسرع شيء لطواعية الله تعالى، فلم يأت واتقوا الله في أكل الربا

بل أمروا بالتقوى، لا بالنسبة إلى شيء خاص منعه من جهة الشريعة.

وهذه إشارة إلى أن تحريم الربا فيه صلاح الدنيا، وأن أولئك الذين يزعمون أن المصلحة في إباحته في عصرنا ويتأولون الشريعة ليخضعوها لتلك المدنية الآثمة، واهمون في معنى المصلحة، لأن علماء الاقتصاد يقررون أن نظام الفائدة هو سبب الأزمات، وهو نظام مؤقت حتى يجدوا ما يحل محله، وعندنا نظامنا، وأكثر البلاد الخاضعة للنظام الروسي أو آخذة به حرمة، والاشتراكية الوطنية الألمانية قبل الحرب حرمة، ولم يضر مصلحتها شيء، بل حمت مصالح البلاد.

** وفيه أن أكل الربا منقص للإيمان، وهذا أمر لا شك فيه عند أهل السنة والجماعة؛ لأنه كبيرة من كبائر الذنوب، وفعل الكبائر عند أهل السنة ينقص الإيمان، وعند الخوارج يخرج من الإيمان ويدخل الكفر، وعند المعتزلة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، فهو خارج من الإيمان غير داخل في الكفر. وعند المرجئة مؤمن كامل الإيمان، لو يأكل الربا ليلاً ونهاراً فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن نحن نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان.

{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ} هيئت وأحضرت.. فلما تقدم
{وَاتَّقُوا اللَّهَ} والذوات لا تتقى، فإنما المتقي محذوف أوضحه
في هذه الآية. فقال: **{وَاتَّقُوا النَّارَ}**.

{لِلْكَافِرِينَ} الذين لا يطيعون الله فيما أمر، ولا يعباون
بتهديده ووعيده، وقيل: بالتحرز عن متابعتهم في الربا ونحوه.
قيل: توعده أكلة الربا بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات: العليا
منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار، والدرك الأسفل
للمنافقين. فأكلة الربا يعذبون بنار الكفار، لا بنار العصاة.

وقال ابن عباس: هذا تهديد للمؤمنين لئلا يستحلوا الربا.
وقال الزجاج: واتقوا أن تحلوا ما حرم الله فتكفروا.
وقيل: اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان وتستوجبون به
النار.

أي اجعلوا بينكم وبين النار التي أعدها الله تعالى للكافرين
وقاية من الطاعة، ولا تنحرفوا عن الشرع ومقاصده إلى أهواء
الكافرين ومنازعهم، وقد اقترنت هذه الآية بآية تحريم الربا
لتهديد المعاندين أو الذين يمارون في الشرع ويجادلون فيه،
وهذا كقوله تعالى في آية تحريم الربا في البقرة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ {
[البقرة: ٢٧٨]

روي عن أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - أنه كان يقول: هي
أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة
للكافرين إن لم يتقوه.

وفيه إشعار بأن النار موجودة؛ إذ لا يُعدُّ المعدوم، وأنها
بالذات معدة للكافرين، وبالعرض للعاصين.

قال الورتجبي: في الآية إشارة إلى أن النار لم تعد للمؤمنين،
ولم تخلق لهم، ولكن خوفهم بها زجراً وعظة، كالأب البار
المشفق على ولده يخوفه بالأسد والسيف، وهو لا يضربه
بالسيف، ولا يلقيه إلى الأسد، فهذه الآية تُلطف وشفقة على
عباده.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ} في كل ما أمركم به ونهاكم عنه.. وأصل
الطاعة من الطوع وهو الانقياد، ومنه قولهم: هذه ناقة طوع أي
منقادة لقائدها لا تستعصي عليه.

{وَالرَّسُولَ} الذي يبلغكم أوامره ونواهيه، «ال» فيه للعهد
الذهني. وذلك أن العهد ثلاثة أنواع: ذكرى وحضوري وذهني،
فإن كانت «ال» تشير إلى شيء مذكور فهي للعهد الذكري مثل

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا} [المزمل: ١٥-١٦]

وإن كانت تشير إلى شيء حاضر فهي للعهد الحضوري مثل قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣] وهكذا كل «ال» تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري مثل: هذا الرجل، هذا الإنسان، وما أشبهه.

والثالث العهد الذهني الذي يكون معلوماً بالذهن، فهنا الرسول هو محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو معهود ذهنياً. قال ابن إسحاق: هذه الآية هي ابتداء المعاتبة في أمر أحد، وانهزام من فرّ، وزوال الرماة من مركزهم.

وقيل: صيغتها الأمر ومعناها العتب على المؤمنين فيما جرى منهم من أكل الربا، والمخالفة يوم أحد.

** وفيه جواز اقتران اسم الرسول باسم الله في الأمر الذي يكون مشتركاً بينهما؛ لقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} أما الأمر الذي لا يكون مشتركاً بينهما، وهو الأمر الكوني القدرى، فهذا لا يذكر فيه الرسول مع الله إلا بحرف يدل على الترتيب، وبهذا نعرف الفرق بين إسناد الشيء الشرعي إلى الله ورسوله، وبين

إسناد الكوني إلى الله ورسوله، فإسناد الشيء الشرعي يجوز بالواو، وأما الكوني فلا يجوز إلا بـ «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، فإذا قلت في أمر شرعي: الله ورسوله أعلم فهذا صحيح وجائز، وقد أقره النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نفسه فإنه في حديث زيد بن خالد الجهني أن النبي صلى بهم صلاة الصبح على إثر سماء كانت من الليل فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فأقرهم لأن المراد هنا العلم الشرعي، لكن في المسائل الكونية لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت أنكر عليه وقال: أجعلتني الله عدلاً؟! بل ما شاء الله وحده.

{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} المراد الرحمة الخاصة؛ لأن الرحمة العامة حاصلة لنا على كل حال حتى الكفار لهم رحمة من الله لكنها رحمة عامة، فالمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة التي بها سعادة الدنيا والآخرة.

عَقَّبَ الوعيدَ بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، وإيرادُ {لَعَلَّ} في الموضعين للإشعار بعزة منالِ الفلاح والرحمة.

**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي**

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً
أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ
يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ (١٣٦)

هذه الآيات موصولة بالآيات التي قبلها إذ الآيات التي قبلها
ختمت بالأمر بطاعة الله ورسوله، فقد قال سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ} وفي هذه الآيات بيان معنى هذه
الطاعة المطلوبة التي تؤدي إلى التراحم والتواصل والتواد،
ولذلك كانت هناك رواية بالقراءة من غير وصل بالواو {سَارِعُوا}
بدل {وَسَارِعُوا}. وإن رواية القراءة من غير وصل واضحة من
حيث النسق في أنها تفصيل لمعنى الطاعة المطلوبة، والقراءة
المشهورة التي عليها القراء السبعة فيها ما يدل على أنها لبيان
معنى الطاعة بالمعاني لا بالنسق.

{وَسَارِعُوا} المسارعة إلى الشيء المبادرة إليه بدون توانٍ ولا تراخ، مجاز في الحرص والمنافسة والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة.

ويجوز أن تكون السرعة حقيقة، وهي سرعة الخروج إلى الجهاد عند التنفير كقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الشريف (وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا) [متفق عليه].. والمسارة على التقادير كلها تتعلق بأسباب المغفرة، وأسباب دخول الجنة.

ولم يقل سبحانه: أسرعوا؛ لأن المفاعلة تكون من اثنين في الغالب، والمعنى: ليسبق بعضكم بعضاً أو ليسبق بعضكم بعضاً إلى هذا الأمر: المغفرة والجنة.

وهل الأمر بالمسارة فيما يجب فواجب، وأما فيما لا يجب فليس بواجب، ولكن المرء يؤمر بأن يسارع، وفيه دليل على أنه لا ينبغي للمسلم أن يؤثر غيره بالقربات؛ لأنه إذا أثر غيره بالقربات فهذا يعني التأخر، ومن أمثلة ذلك أن يؤثر غيره بمكانه الفاضل في الصف بأن يتأخر عن مكانه في الصف الأول لرجل آخر، فإن هذا خلاف المسارعة إلى الخيرات.

ولكن إذا ترتب على إثارة غيره بهذا المكان مصلحة أكبر من مصلحة التقدم لم يكن إثارة من باب التأخر عن الخيرات؛

لأنه تنازل عن فضيلة إلى فضيلة أعلى، فلا يكون هذا إيثاراً في الحقيقة، ولا يدل على هذا زهد الإنسان في فعل الخير، بل هو انتقال من خير إلى ما هو خير منه.

والإيثار بالقرب، إما: «إيثار بواجب» فهو حرام، وإما «إيثار بمستحب» فهو مكروه.

مثال الإيثار بالواجب: رجل عنده مال لا يكفي إلا لحج رجل واحد،
فيعطيه
غيره ليحج به ويدع نفسه. ومثال الإيثار بمستحب: أن يؤثره
بالمكان الفاضل في الصف في الصلاة.

{إلى مَغْفِرَةٍ} المغفرة: ستر الذنب وعدم المؤاخذه به،
وليست هي مجرد التجاوز عن الذنب؛ لأن أصلها من «المغفر»
وهو ما يوضع على الرأس حال الحرب يتوقى به السهام
والطعنات، وهو مفيد فائدتين وهما: الستر والوقاية، ويدل لهذا
قوله تعالى حينما يحاسب عبده في الآخرة ويقر العبد بذنوبه
فيقول: (قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم).

ففي صحيح مسلم عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ
كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي
النَّجْوَى قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ -

عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنْفَهُ فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَعْرِفُ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ

فمن ستر الله عليه ذنبه في الدنيا فقد غفره له، فلا تتم المغفرة إلا بالتجاوز عن الذنب وعدم العقوبة عليه، وإلا فإن الستر نوع من المغفرة بلا شك، فإن الإنسان لو فضح بذنبه - والعياذ بالله - لم يكن هذا مغفرة، لكن إذا ستر عليه فإن هذا فيه مهلة أن يجعل الله تعالى الأمر بينه وبين عبده لعله يتوب ولا يعلم بذنبه.

والمسارعة إلى المغفرة إما بالاستغفار، وإما بعمل صالح، فالاستغفار أن يقول: "اللهم اغفر لي"، "أستغفر الله" وما أشبه ذلك، وإما عمل صالح؛ لأن من الأعمال الصالحة ما يكفر الله بها الخطايا مثل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة، فالعمل الصالح يذهب العمل السيئ.

وقيل: هي المبادرة باتخاذ طريقها، بالمسارعة إلى التوبة بترك الذنوب، وكثرة الاستغفار، روى أبو داود بسند صحيح، قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ)، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥]

ويلاحظ أن القرآن يعدي المسارعة في الخير بـ «إلى»، والمسارعة في الشر بـ «في»، فيقول سبحانه: {يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [آل عمران: ١٧٦]، ويقول هنا: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ}، لأن المسارعة في الكفر تنقل في برائته فهم في قبته المظلمة التي تحيط بهم يتنقلون بالضلال في أرجائها، وهم في مرتبة واحدة، أما المسارعة إلى المغفرة، فإنها انتقال من رتبة إلى رتبة، ومن مقام صالح إلى مقام أصلح منه.

وتقدم ذكر المغفرة على الجنة لأنها السبب الموصل إلى الجنة.

{مَنْ رَبُّكُمْ} عظم سبحانه وتعالى شأن المغفرة التي ينبغي طلبها والاتجاه إليها فذكر بأنها تجيء من ربكم الذي خلقكم

ونماكم ورعاكم، فهي مغفرة تعلو بعلو مصدرها وهي الأمان والاعتصام.

فتنكير مغفرة ووصلها بقوله: {مِنْ رَبِّكُمْ} مع عدم تأتي الإضافة بأن يقال: {إلى مغفرة ربكم}، لقصد الدلالة على التعظيم.

{وَجَنَّةٌ} المسارعة إلى الجنة هي المسارعة إلى موجبات دخولها وهي الإيمان والعمل الصالح إذ بهما تزكوا الروح وتطيب فتكون أهلاً لدخول الجنة.

وكما تجب المسارعة للمغفرة، فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة، وإنما فصل بينهما؛ لأن الغُفْران معناه إزالة العقاب، والجنة معناها حصول الثواب، فجمع بينهما؛ للإشعار بأنه لا بُدَّ للمكلف من تحصيل الأمرين لأن الإنسان لا تتم سعادته إلا بأمرين: زوال المكروه، وحصول المطلوب.

** وفيه أن «التخلية قبل التحلية»؛ فبالمغفرة تكون الزحزحة عن النار التي أوجبتها الذنوب، ومن ثم دخول الجنة، قال تعالى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥]

{عَرْضُهَا} أي: كعرض، وخص العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة. ولا يعلم طولها إلا الله تعالى. والمقصود المبالغة في وَصَف سعة الجنة؛ لأنه ليس شيء عنده أعرض منها بالنسبة لنا، ونظيره قوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}** [هود: ١٠٧-١٠٨] فَإِنْ أَطُولَ الْأَشْيَاءُ بَقَاءً لَدَيْنَا هُوَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فخطوبنا على قَدَرِ مَا عرفناه.

وفي هذا إشارة إلى اتساعها تنبيها، كما قال في صفة فرش الجنة: **{بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** [الرحمن: ٥٤] لأن البطانة أقل قيمة من الظَّهارة، فإذا كانت البطائن من الحرير الثمين، فكيف يكون ما فوق البطانة من الظَّهارة مما تراه الأعين ويسر الناظرين. وقيل: ولكن الصحيح أن عرضها وطولها واحد إذ ليس لها عرض وطول وذلك لأنها مستديرة، وليست مربعة، وإذا كانت كذلك فإن عرضها يكون طولها. وهذا القول صححه جماعة من أهل العلم.

{السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} وهذا نظير قوله تعالى: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ**

لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ { [الحديد: ٢١]

والفرق بينهما أن التشبيه هنا بليغ، وأما التشبيه هناك فليس
ببليغ، يعني من حيث الاصطلاح البلاغي -وإلا فكل القرآن
بليغ- لأنهم يقولون: التشبيه غير البليغ إذا ذكرت أداة التشبيه
ووجه الشبه، وإذا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه صار بليغاً،
وهنا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، أما إذا ذكرت أداة التشبيه
فإنه يسمى تشبيهاً مرسلاً، وإذا ذكر وجه الشبه صار مرسلاً غير
مؤكد.

نقول: فلان كالبحر كرمًا، وإن شئت فقل: في الكرم، هذا
التشبيه فيه كل الأركان الأربعة؛ لأن التشبيه له أركان أربعة مثل
القياس مشبه ومشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه، باعتبار ذكر
أداة التشبيه يسمى مرسلاً، وباعتبار ذكر وجه الشبه يسمى غير
بليغ، يعني أن هذا أدنى أنواع التشبيه إذا ذكر المشبه والمشبه به
وأداة التشبيه ووجه الشبه، فهذا أدنى أنواع التشبيه.

وإذا حذفت أداة التشبيه وذكر وجه الشبه صار مؤكداً لكن
غير بليغ؛ لأنك إذا قلت: فلان بحر في الكرم أكدت أنه بحر
في الكرم لكن نقصت قليلاً، فإذا حذفت أداة التشبيه ووجه

الشبه صار تشبيهاً بليغاً، إذا قلت: "فلان بحر"، فإذا قلت: "رأيت بحراً يعطي الدراهم بلا عد"، صار هذا أبلغ من الأول، ويسمى هذا أيضاً استعارة.

{أُعِدَّتْ} هُيئت وأحضرت، فهي موجودة الآن مهياً، وهو نص حديث الإسراء في الصحيحين وغيرهما، خلافاً للمعتزلة، ووافقهم من أهل السنة القاضي منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي الظاهري.

والمُعِد هو الله تعالى، ولكنه ذكر بصيغة المجهول ليوافق قوله فيما سبق: **{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [آل عمران: ١٣١]

{لِلْمُتَّقِينَ} هم الذين اتقوا الله تعالى فلم يعصوه بترك واجب ولا بفعل محرم، وإن حدث منهم ذنب تابوا منه فوراً. وجاء إعدادها للمتقين فخصوا بالذكر تشريفاً لهم، وإعلاماً بأنهم الأصل في ذلك، وغيرهم تبع لهم في إعدادها. وإن أريد بالمتقين متقي الشرك كان عاماً في كل مسلم طائع أو عاص. وقد أخذ بعد ذلك يبين - سبحانه وتعالى - الصفات التي رفعتهم إلى هذه الرتبة، والتي جعلتهم يصلون إلى هذه المنزلة

فذكر خمس صفات كلها ذات صلة وثيقة ببناء مجتمع سليم قوى ثابت.

وقد أجرى على المتقين صفات ثناء وتنويه، هي ليست جماع التقوى، ولكن اجتماع في محلها مؤذن بأن المحل الموصوف بها قد استكمل ما به التقوى، وتلك هي مقاومة الشح المطاع، والهوى المتبع.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ} عبر بالمضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار، وحذف المفعول ليكون دالاً على العموم. أي ينفقون كل ما يمكن إنفاقه من أعيان ومنافع وجاه بأن يتوسط لشخص أو يشفع له، فالإنفاق هنا عام.

ويجب أن نعلم أن الإنفاق ليس خاصاً بالإنفاق على البعيد عنك، بل هو عام يشمل حتى الإنفاق على ابنك وبنتك وأهلك وأبيك وزوجتك بل ونفسك، فحتى الإنفاق على النفس يؤجر الإنسان عليه ويكون صدقة، قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لسعد بن أبي وقاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كلمة جامعة نافعة مانعة: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ) [البخاري].

{ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ } السراء: الحال المسرة كاليسر والغنى،
والضراء: الحال المضرة كالفقر. وهذا وصف لهم بكثرة الإنفاق
في سبيل الله، وفي كل أحيانهم من غنى وفقر وعسر ويسر.
والمعنى: لا يمنعهم حال سرور ولا حال ابتلاء عن بذل
المعروف. كما قال تعالى: **{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً }** [البقرة: ٢٧٤]

وكان الجمع بينهما هنا لأن السراء فيها ملهارة عن الفكر في
شأن غيرهم، والضراء فيها ملهارة وقلة موجدة. فملازمة الإنفاق
في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو
عزيز على النفس، فقد صار لهم خلقا لا يحجبهم عنه حاجب
ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.

قال في زهرة التفاسير: "وهذا يشمل أحوالا كثيرة، فهم
ينفقون في حال الغنى والفقر واليسر والعسر، وكل حال
بمقدارها، وفي حال الصحة والمرض، وفي السرور والحزن،
وحال عرس أو مأتم أو حبس، والمغزى في هذا أنه لا تشغلهم
أنفسهم عن حاجة الناس إليهم أو إلى أموالهم، ولا تشغلهم
همومهم الخاصة عن هموم الناس، والإنفاق منهم ليس لمناسبات
تعرض وتزول، ولا لأحوال تجيء ثم تحول، بل هو لطبيعة ثابتة

فيهم مستقرة غير مفترقة لا ترايلهم. وقدم الإنفاق على غيره من الصفات، لأنه وصف إيجابي وما عداه سلبي أو يتصل به، والإيجابي في أكثر أحواله أشق من السلبي، ولأنه أدل على الإخلاص".

فابتدى بصفة التقوى الشاملة لجميع الأوصاف الشريفة، ثم جيء بعدها بصفة البذل، إذ كانت أشق على النفس فمخالفتها فيه منقبة شامخة، كما أن الإنفاق أدل على الإخلاص. وأعظم الأعمال للحاجة إلى ذلك في الجهاد، ومواساة الفقراء. وروي عن عائشة أنها تصدّقت بحبة عنب. وعن بعض السلف ببصلة.

** وفيه فضيلة الإنفاق على كل حال، فإن قال قائل: إذا كان الإنسان في ضرورة هو وعائلته فهل ينفق؟ نقول: لا ينفق على أجنبي بل ينفق على نفسه وعائلته، وهو داخل في الآية؛ لأن إنفاقه على نفسه وعلى أهله صدقة.

{وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ} وصف لهم بالحلم والكرم النفسي.. أي كافين عن إمضائه بالقول أو الفعل مع القدرة عليه، اتقاء التعدي فيه إلى ما وراء حقه، ونظيره قوله: **{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}** [الشورى: ٣٧]

والغيظ: أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسره بعضهم هنا بالغضب.

وقيل: إنه أشد الغضب، يعني أنهم إذا غضبوا وثاروا حبسوا غيظهم، ومعلوم أن من أشد ما يكون على الإنسان أن يحبس غيظه ويعرف ذلك من يكون سريع الغضب، فإنه إذا أراد أن يكظم الغيظ يجد شدة عظيمة ومعاناة وألم، كأن أحداً يصصره صرعاً.

قال ابن عاشور: وكظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قال المبرد: فهو تمثيل الإمساك مع الامتلاء، ولا شك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا أكبر من قوى الأخلاق الفاضلة.

فالحاصل أن الغضب الشديد جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى لا يدري ما يقول؛ ولهذا كان أصح أقوال أهل العلم أن من غضب غضباً لا يملك نفسه به فإنه لا عبرة بقوله – أيا كان هذا القول – سواء كان طلاقاً أو خلعاً أو لعناً أو قذفاً أو

غير ذلك، فإنه لا عبرة به؛ لأنه ليس له قصد. وبعض الناس -
نسأل الله العافية- إذا غضب تغيب عن الدنيا فلا يرى من أمامه
أبدًا، ولا يسمع قول من يتكلم، وربما يتكلم بكلام مكروه
ويصيحون به وهو لا يسمعهم من شدة غضبه.

ووردت أحاديث في كظم الغيظ وهو من أعظم العبادات:

روى أحمد عن سهل بن معاذ، عن أبيه، أن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- قال: (مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ
يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ
مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول
الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا
الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ).

وفي البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رجلاً قال
للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أَوْصِنِي [وفي رواية: مُرْنِي بِأَمْرٍ،
وَلَا تُكْثِرْ عَلَيَّ حَتَّى أَعْقِلَهُ] قَالَ: (لَا تَغْضَبْ) فَرَدَّدَ مَرَارًا قَالَ:
(لَا تَغْضَبْ). [وفي رواية لأحمد: قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ
النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ
كُلَّهُ]

وفي رواية لأحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَاذَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟
قَالَ: (لَا تَغْضَبْ) [صحيح لغيره]

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: "قَوْلُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (لَا تَغْضَبْ)
أَرَادَ بِهِ أَنْ لَا تَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْغَضَبِ مِمَّا نَهَيْتُكَ عَنْهُ، لَا أَنَّهُ
نَهَاةٌ عَنِ الْغَضَبِ، إِذَا الْغَضَبُ شَيْءٌ جَبَلَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، وَمُحَالٌ أَنْ
يُنْهَى الْمَرْءُ عَنْ جَبَلَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، بَلْ وَقَعَ النَّهْيُ فِي هَذَا
الْخَبَرِ عَمَّا يَتَوَلَّدُ مِنَ الْغَضَبِ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ".

وقال ابن كثير: {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ} أي: لا يعملون غضبهم
في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز
وجل.

وعن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ خَادِمًا لَهَا غَاظَهَا فَقَالَتْ:
"لِلَّهِ فِي التَّقْوَى مَا تَرَكْتُ لَذِي غَيْظٍ شَفَاءً".

وروى أبو داود بسند صحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَنَا: (إِذَا غَضِبَ
أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا
فَلْيَضْطَجِعْ).

وروى أحمد - بسند ضعيف - حَدَّثَنَا أَبُو وَائِلٍ صَنَعَانِيُّ
مُرَادِيٌّ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: إِذْ أُدْخِلَ
عَلَيْهِ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ أَغْضَبَهُ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ غَضِبَ قَامَ، ثُمَّ
عَادَ إِلَيْنَا وَقَدْ تَوَضَّأَ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عَطِيَّةٍ - وَقَدْ كَانَتْ
لَهُ صُحْبَةٌ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (إِنَّ
الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ
النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ).

{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} هو عدم المؤاخذه للمسيء على
ذلك.. وصف لهم بالصفح والتجاوز عن زلات الآخرين تكرمًا
مع القدرة على العقوبة، وفعلهم هذا إحسان ظاهر ومن هنا
بشروا بحب الله تعالى.

فأنتم إن عفوتهم عن السوء قد تعفون عن قدرة وقد تعفون عن
عجز. أما الله - عز وجل - فإنه يعفو عن قدرة، وهذا هو محل
المدح، أما مجرد العفو فليس بمدح حتى يكون عفواً عن قدرة.
فترك المؤاخذه على الذنب عفو وهو محمود، وخير منه
الإحسان، ولكن يشترط في الأمرين أن يكون ذلك عن قدرة لا
عن عجز.

والعفو ثمرة لكظم الغيظ، وإنه يجب أن يكون معه لأن الغيظ الشديد إذا لم يصحبه عفو فإنه يمض القلب، ويفسد النفس، وينهك القوى فلا بد أن يقترن بالكظم العفو لمصلحة الشخص ولمصلحة الناس، ولكيلا تتولد الإحـن، وتتكاثر المحـن.

وقوله: **{عَنِ النَّاسِ}** شامل يشمل حتى عن الكفار إذا لم يكونوا حربيين، فإن الإنسان إذا عفا عنهم فيما يتعلق بحق خاص، وكان في العفو إصلاح؛ فإنه يدخل تحت الآية الكريمة. ولكن «العفو» ليس على عمومـه لكل الناس بالاتفاق، فإن الإساءة إذا كانت في حق الله تعالى فهي لله عز وجل وليس لأحد أن يعفو عنها.

فليس العفو هو الستر على الجرائم العامة، فإن الجرائم العامة إذا ظهرت وجب العقاب لأنه تقليم لأظفارها، وقطع لآثارها فلا يصح العفو عن زان يعلن جريمته، ولا عن سارق اعتاد السرقة واستهان بالحرمانات، وروع الآمنين، كما لا يصح العفو عن فساق الألسنة، الذين يقذفون الناس، ويرمونهم بالسوء، ويعملون بذلك على إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فإن العفو في هذه الأمور استهانة بـحرمانات الله تعالى، إنما العفو المطلوب هو الذي يكون في أنواع الأذى الشخصي وهي التي ينطبق عليها قول الله

تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، وقوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]

روى البخاري عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: "مَا خَيْرَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْتُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ، وَاللَّهُ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ".

قال ابن عاشور: العفو عن الناس فيما أساءوا إليهم تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس لأن كظم الغيظ قد تعرضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل ذلك على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم. وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دونها لديها. وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بقوله:

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} يعني الذين يحسنون إلى الناس، ولكن هل المراد بذلك المحسنين فيما سبق أو المحسنين فيما يستقبل؟ بمعنى هل قوله: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} عائد على قوله: {لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ} وأن هؤلاء من

المحسنين؟ أو أنه لما ذكر العفو وهو إسقاط الإنسان حقه عن
المؤاخذه ذكر حالاً أخرى أكمل منها وهي الإحسان فقال:
{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} يعني فإذا أحسنوا مع العفو كان ذلك
سبباً لمحبة الله؟ .. الثاني له وجه والأول أعم.

ولقد ختم سبحانه هذه الآية بقوله تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ} وهي الصفة الرابعة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى
بهذه الصفة لتوجيه النظر إليها، وليبين أنها أعلى منازل التقوى،
وأنها تنال بها محبة الله تعالى، والإحسان معناه الإتيان والإجادة،
وهو يطلق في عبارات القرآن الكريم بإطلاقين:

أحدهما أن يراد به الإجادة المطلقة في كل ما يطلب الله
تعالى به عباده، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠]،
وقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في إحسان العبادة: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ
كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [متفق عليه].

والثاني: أن يكون العمل أكثر من المكافأة، فهو لا يكافئ
بالعدل بل يزيد، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعْظُمُ لَعَنُكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: {وَأَحْسِنِ

كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ { [القصص: ٧٧]، وقال الحسن:
"الإحسان أن تعم ولا تخص، كالريح والمطر والشمس والقمر".
والإحسان بالإطلاق الأول يتعدى بنفسه ويذكر بجواره
العمل، والثاني يتعدى بـ «إلى» ويذكر بجواره المحسن إليه.
وأقرب الإطلاقين في لآية الكريمة هو الثاني، فإنها تومئ إلى
أن البر التقي يكظم غيظه، ويعفو عمن ظلمه بل يحسن إليه إن
كان للإحسان موضع، وإن الله سبحانه وتعالى أمر أهل الفضل
بألا يذهب غيظهم بإحسانهم فقد قال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو
الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢]، فقد نزلت هذه الآية عندما حلف أبو
بكر ألا يعطي بعض قرابته الذين خاضوا في حديث الإفك
بالنسبة لعائشة زوج رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإن هذه
الدرجة هي أقصى ما تصل إليه السماحة البشرية، وهي لا تكون
إلا لنفس محبة للناس، ولذلك كانت المكافأة هي حب الله
تعالى.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا
زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ).

** وفي الآية الحث على الإحسان، فإن كل إنسان يعلم أن
الله يحب الإحسان سوف يحسن ويتقدم إلى الإحسان ويحرص
عليه؛ لأن محبة الله للعبد هي غاية ما يريد.

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} هذا هو الوصف الخامس من
أوصاف المتقين الذين أعدت لهم الجنان التي عرضها كعرض
السموات والأرض.

والواو هذه حرف عطف، والأصل في المعطوف أن يكون
مغايراً للمعطوف عليه، وليس المراد إذا قلنا إن العطف يقتضي
المغايرة أن تكون المغايرة في الذات فقط، بل قد يكون التغاير
في «الذات» وفي «اللفظ» وفي «الصفة» وفي «المعنى».

فإذا قلنا: قدم زيد وعمرو، فهنا عطف يقتضي المغايرة في
الذات؛ لأن هذا غير هذا بلا شك.

والتغاير في اللفظ مثل قول الشاعر: فألفي قولها كذباً ومينا

فاليمين هو الكذب، ولكنه عطف عليه من باب عطف المترادفين، ولهذا لا يأتي في اللغة العربية كذباً وكذباً، إنما يأتي كذباً وميناً، فلا بد من التغير في اللفظ.

وفي هذه الآية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} المغيرة في الصفة، فهي كقوله: {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [الأعلى: ١-٤] فالذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى هو الله سبحانه، لكن هذا عطف صفة على صفة.

والتغير في المعنى قريب من التغير في الصفة

وأصل الفُحْش: القُبْح الخارج عن الحد شرعاً أو عرفاً. أي الفعلة القبيحة الشديدة القبح.

وكثر استعمال الفاحشة في الزنا، ولذلك قال جابر حين سمع الآية: "زنوا ورب الكعبة". وهذا كقوله تعالى: {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نُسَائِكُمْ} [النساء: ١٥] وقوله: {وَلَا تَقْرُبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢]

فالزنا فاحشة شرعية وفاحشة عرفية. كذلك اللواط فاحشة شرعية وعرفية، قال لوط لقومه: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ}

[الأعراف: ٨٠] كذلك نكاح ما نكح الآباء هو أيضاً فاحشة:
{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} [النساء: ٢٢]

{أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} المراد به ما دون الفاحشة.

قال الزمخشري: "الفاحشة: ما كان فعله كاملاً في القُبْح،
وظَلَمُ النفس هو أي ذَنْب كان، مما يؤاخذ الإنسانُ به".
وقال النخعي: "الفاحشة القبائح، وظلم النفس من الفاحشة
وهو لزيادة البيان".

وقيل: "جميع المعاصي، وظلم النفس العمل بغير علم ولا
حجة".

وقيل: الفاحشة ما تظوهر به من المعاصي، وظلم النفس: ما
أخفى منها.

وقيل: الفاحشة الذنب الذي فيه تبعة للمخلوقين، وظلم
النفس ما بين العبد وبين ربه.

وقال الباقر: الفاحشة النظر إلى الأفعال، وظلم النفس رؤية
النجاة بالأعمال.

فكل من خالف أمر الله بفعل محرم أو ترك واجب فقد ظلم
نفسه، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}

[الطلاق: ١] لأن النفس عندك أمانة تجب عليك رعايتها، وقد أوصاك الله بها فقال: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. وقال: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [التوبة: ٣٦] فهي عن قتل النفس وعن ظلم النفس لأنها أمانة عندك.

والتعبير بصيغة الشرط {إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ} يفيد اقتران الجواب بالشرط، أي أن ذكر الله يكون عند الارتكاب ولا يكون بينهما تراخ يجعل الشر يفرخ في النفس، فالتوبة إلى الله تكون فور الارتكاب لا تراخي بينهما ولا يستمر في المعصية حتى تحيط به خطيئته.

{ذَكَرُوا اللَّهَ} هو ذكر القلب وهو ذكر ما يجب لله على عبده، وما أصابه، وهو الذي يتفرع عنه طلب المغفرة، وأما ذكر اللسان فلا يترتب عليه ذلك.

ولذكر الله تعالى مرتبتان:

(إحداهما) ذكر أوامره ونواهيه وما أعده للمذنبين وما أعده للمتقين.

(والثانية) وهي العليا ذكر جلاله وعظمته وعلمه بما تخفي
الصدور وهذه لا ينالها إلا الأبرار المقربون.

فذكر الأول من باب «الهرب» وذكر الثاني من باب
«الطلب»، والعايد بمقتضى الطلب أعلى حالاً من العايد
بمقتضى الهرب، قالوا: لأن الطالب ناصح في غيبة المطلوب
وفي حضوره، والهارب ناصح في حضور المخوف لكن في غير
حضوره لا يهتم.

{ فَاسْتَغْفِرُوا لِدُنُوبِهِمْ } والاستغفار: طلب المغفرة أي الستر
للدنوب، وهو مجاز في عدم المؤاخظة على الذنب، ولذلك صار
يعدي إلى الذنب باللام الدالة على التعليل كما هنا، وقوله تعالى:
{ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ } [غافر: ٥٥].

ولما كان طلب الصفح عن المؤاخظة بالذنب لا يصدر إلا
عن ندامة، ونية إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه، كان
الاستغفار في لسان الشارع بمعنى «التوبة»، إذ كيف يطلب
العفو عن الذنب من هو مستمر عليه، أو عازم على معاودته، ولو
طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب، فلذلك
عد الاستغفار هنا رتبة من مراتب التقوى. وليس الاستغفار مجرد
قول أستغفر الله باللسان والقائل ملتبس بالدنوب.

عن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: بلغني أن إبليس حين نزلت: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** الآية، بكى.

{وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} جملة اعتراض بين المتعاطفين. فيها بيان إجابة الاستغفار وفيها بيان أنه لا مفرغ من الله إلا إليه، وفيها ترفيق للنفس، وداعية إلى رجاء الله وسعة عفوه، واختصاصه بغفران الذنب، لأنه استثناء مفرغ وهو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه وسبق بنفي أو نهي أو استفهام. فإذا قلت: ما قام إلا زيد، فهنا الاستثناء مفرغ لم يذكر فيه المستثنى منه. وإذا قلت: ما قام أحد إلا زيد، فهذا غير مفرغ؛ لأنه ذكر المستثنى منه.

قال البقاعي: ولما كان هذا مفهوماً أنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب، أتبعه بتحقيق ذلك، ونفى القدرة عليه عن غيره، مرغباً في الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين.

قال الزمخشري: وصف ذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وأنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفرغ للمذنبين إلا فضله وكرمه، وفيه تطيب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط. وأنَّ الذنوب وإنَّ

جلت فإنَّ عفوه أجل، وكرمه أعظم. والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة.

روى البخاري عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاعْفُرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاعْفُرْهُ فَقَالَ أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ آخَرَ فَاعْفُرْهُ لِي فَقَالَ أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ)

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا إِذَا رَأَيْنَاكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبَتْنَا الدُّنْيَا، وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ قَالَ: (لَوْ تَكُونُونَ - أَوْ قَالَ: لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ - عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ بِأَكْفِهِمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيِّ يَغْفِرُ لَهُمْ) قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بَنَؤُهَا؟ قَالَ: (لَبْنَةُ ذَهَبٍ وَلَبْنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ،

وَحَصَبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ. ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَا أَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ [حديث صحيح بطرقه وشواهده]

وروى أحمد بسند صحيح عن عليٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ مِنْهُ، وَإِذَا حَدَّثَنِي عَنْهُ غَيْرِي اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حَدَّثَنِي - وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ - أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ، قَالَ مِسْعَرٌ : وَيُصَلِّي، وَقَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ، فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غُفِرَ لَهُ).

وروى أحمد بسند حسن عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي

بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَزْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَبِعِزَّتِي وَجَلَّالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي).

وقيل للحسن ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود؟ فقال: "ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا فلا تملوا من الاستغفار".

وروي عنه أنه قال: "ما أرى هذا إلا من أخلاق المؤمنين" يعني أن المؤمن كلما أذنب تاب.

{وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا} أي ولم يقيموا على قبيح فعلهم.. قال قتادة: الإصرار المضي في الذنب قدماً.

وأصل الإصرار: الثبات على الشيء. أو هو الشد على الشيء والربط عليه مأخوذ من الصر، والصرة معروفة.

وقوله: **{وَلَمْ يُصِرُّوا}** إتمام لركني التوبة لأن قوله: **{فَاسْتَغْفَرُوا}**

{لِذُنُوبِهِمْ} يشير إلى الندم، وقوله: **{وَلَمْ يُصِرُّوا}** تصريح بنفي

الإصرار، وهذان ركنا التوبة. وفي الحديث: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ)

[أحمد: حسن]

{وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي يعلمون سوء فعلهم، وعظم غضب

الرب، ووجوب التوبة إليه، وأنه تفضل بقبول التوبة فمحا بها الذنوب الواقعة.

والمعنى: وليسوا ممن يصِرّ على الذنوب وهم عالمون بقبحها
وبالنهي عنها والوعيد عليها، لأنه قد يعذر من لم يعلم قبح
القيح.

وقال مجاهد وأبو عمار: يعلمون أن الله يتوب على من
تاب. وهذا كقوله تعالى: **{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ**
عِبَادِهِ} [التوبة: ١٠٤]

وقيل: يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها، أطلق اسم العلم على
الذكر لأنه من ثمرته.

وهذه الجملة معطوفة على **{فاستغفروا}**، فهي من بعض
أجزاء الجزاء المترتب على الشرط.

وروى أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص -
رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال
وهو على المنبر: (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُلِّ
لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيُلِّ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ)

وقد انتظم من قوله: **{ذَكِّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا}** وقوله: **{وَلَمْ**
يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا} وقوله: **{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** الأركان الثلاثة التي
ينتظم منها معنى التوبة في كلام أبي حامد الغزالي في كتاب التوبة

من «إحياء علوم الدين» إذ قال: وهي علم، وحال، وفعل. فالعلم هو معرفة ضر الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين ربه، فإذا علم ذلك ييقن ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات ما يحبه من القرب من ربه، ورضاه عنه، وذلك الألم يسمى ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث منه في القلب حالة تسمى إرادة وقصد إلى فعل له تعلق بالحال والماضي والمستقبل، فتعلقه بالحال هو ترك الذنب بالإقلاع، وتعلقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل، وتعلقه بالماضي بتلافي ما فات.

{أُولَئِكَ} إشارة إلى الصنفين، وجيء باسم الإشارة لإفادة أن المشار إليهم صاروا أحرىء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة، لأجل تلك الأوصاف التي استوجبوا الإشارة لأجلها.

{جَزَاؤُهُمْ} على هذه الصفات.

{مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} فاستحقوا برحمة الله تعالى جزاءهم وهو ثلاثة: أعلاها مغفرة من ربهم الذي خلقهم وهذه المغفرة دليل رضاه، وهو أعلى جزاء، والثاني الجنات التي تتوافر فيها أنواع النعيم، وثالثها

الخلود، فهو نعيم ليس على مظنة الانتهاء، إذ إن توقع الزوال ينقص من قدره.

****** وفيه أن مغفرة الله -عز وجل- للمرء من أعظم الثواب، فلا تغفل أن تكثر من سؤال المغفرة.. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما نزلت عليه سورة النصر يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي).

{وَنِعْمَ} فيه إشارة إلى عظم هذا الأجر؛ لأن العظيم إذا أثنى على شيء دل على عظمه، والله سبحانه وتعالى هو العظيم جل وعلا وقد أثنى على هذا النعيم.

{أَجْرُ الْعَامِلِينَ} أي ثوابهم، وجعله ذو الفضل والإحسان أجراً ليكون الإنسان مطمئناً على الحصول عليه إذا قدم العوض وإلا فالمنة لله عز وجل أولاً وآخراً، لكن يمن علينا والحمد لله بالعمل ثم يمن علينا ثانياً بالجزاء، ويقول: **{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}** [الرحمن: ٦٠] كأننا نحن محسنون استقلالاً وابتداءً، فإذا أحسنا فجزأونا أن يحسن إلينا مع أنه سبحانه وتعالى هو الذي أحسن إلينا أولاً وآخراً، كذلك يقول جل وعلا: **{إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}** [الإنسان: ٢٢]

سبحان الله يمن علينا بالسعي ويوفقنا له ويعيننا عليه ثم يشكرنا عليه، هذا والله هو غاية الفضل والإحسان فله الحمد والشكر. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك، أي المغفرة والجنة.

والمعنى: أن المطلوب بالتوبة أمران:

الأول: الأمن من العقاب، وإليه الإشارة بقوله: {مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ}.

والثاني: إيصال الثواب إليه، وهو المراد بقوله: {وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}.

قال ابن عطية: أوجب على نفسه بهذا الخبر الصادق قبول توبة التائب، وليس يجب عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكم الملك لا معقب لأمره.

وروي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى -عليه السلام-: ما أقلّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من ييخل بطاعتي؟!.

وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة.

وعن الحسن يقول الله يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوي،
وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ
قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)

هذه الآيات رجوعٌ إلى تفصيل بقية قصة أحد بعد تمهيد
مبادئ الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح، فيقول
تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أُصيبوا يوم أُحُد، وقُتل منهم
سبعون:

{قَدْ خَلَتْ} تقدمت ومضت.. كقوله تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران: ١٣٧].

جملة محققة بـ {قد} لأن قد إذا دخلت على الفعل الماضي
تفيد التحقيق، وإذا دخلت على الفعل المضارع تفيد التقليل،
وقد تفيد التحقيق بالقرائن، فقول القائل: "قد يجود البخيل"،
هذه للتقليل. وقوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ}
[الأحزاب: ١٨] هذه تفيد التحقيق. أما إذا دخلت على الماضي
فإنها تكون للتحقيق كقول مقيم الشعائر: "قد قامت الصلاة".

فجيء بقـد، الدالة على تأكيد الخبر، تنزيلا لهم منزلة من
ينكر ذلك لما ظهر عليهم من انكسار الخواطر من جراء الهزيمة
الحاصلة لهم من المشركين، مع أنهم يقاتلون لنصر دين الله،
وبعد أن ذاقوا حلاوة النصر يوم بدر، فبين الله لهم أن الله جعل
سنة هذا العالم أن تكون الأحوال فيه سجالا ومداولة، وذكرهم
بأحوال الأمم الماضية، والله قادر على نصرهم، ولكن الحكمة
اقتضت ذلك لئلا يغتر من يأتي بعدهم من المسلمين، فيحسب
أن النصر دوما حليفهم.

{مَنْ قَبْلَكُمْ سُنْنَ} جمع سنة وهي الوقائع، والسيرة، والطريقة
التي يكون عليها الفرد أو الجماعة، وسنن الله تعالى في خلقه:
قانونه الماضي فيهم.

والمعنى أنه قد مضت وتقررت من قبلكم سنن ثابتة ونظم محكمة فيما قدره الله - سبحانه وتعالى - من نصر وهزيمة، وعزة وذلة، وعقاب في الدنيا وثواب فيها، فالحق يصارع الباطل، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنّه سبحانه من سنته في النصر والهزيمة، من طاعة للقائد، وإحكام في التدبير، وقوة إيمان، واستعداد للفداء، وهكذا، **{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}** [الرعد: ٨-٩]

وإن من سنن الله تعالى الثابتة ألا يمكن من الظلم وأن ينتصر أهل الحق إذا عملوا على نصرته، وتضافروا على إقامته ولم ينحرفوا عن طاعته، وأن أهل الباطل قد ينتصرون إن اتحدوا واستعدوا، فينالون الظفر لتخاذل أهل الحق وانقسامهم، أو إرادتهم عرض الدنيا، أو عدم الصبر على طاعة القائد العظيم كما كان الشأن في أحد.

وأنه قد جرى نحو هذه المحن على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين. كما في قوله تعالى: **{مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُحْذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}** [الأحزاب: ٦١-٦٢] وقوله: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي**

الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَالْكَافِرِينَ أََمْثَالُهَا} [محمد: ١٠] يعني أهلكهم وأبادهم
وَالْكَافِرِينَ أََمْثَالُهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّة.

{فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا} والمراد به هنا سير القلوب
وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو بالتفكير، أن يتفكر الإنسان
في الأمم السابقة عليه زمنًا، وكذلك يتفكر في الأمم السابقة
عليه مكانًا، كما قال تعالى: **{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ *
وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}** [الصفات: ١٣٨-١٣٧] فانظروا بعين
البصر وبعين البصيرة جميعاً.

****** والسير بالقدم قد يكون أشد وقعاً من السير بالقلب؛ لأن
الإنسان يصل به إلى حق اليقين والمشاهدة بالعين، والسير
بالقلب أعم وأشمل؛ لأن الإنسان يصل به إلى ما لا يمكنه
الوصول إليه بالسير قدماً.

****** وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ لأن فيه فائدة
السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح
الأمم وفسادها. قال ابن عرفة: "السير في الأرض حسي
ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل
لنظار العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به

من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره".

وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علماً وتقوى علم من قرأ التاريخ أو قص عليه.

** قال في زهرة التفاسير: وفي هذه الآية وأمثالها من الآيات التي تدعو إلى السير في الأرض والبحث لمعرفة أحوال السابقين دعوة إلى أمرين:

أحدهما- دراسة تاريخ الأمم بشكل عام، فإن التاريخ كتاب العبر، وسفر المعبر، وهو رباط الإنسانية التي يربط حاضرها بماضيها.

والأمر الثاني- دراسة أحوال الأمم من آثارها فإنها أصدق من رواية الرواة وأخبار المخبرين، فقد يكون التاريخ المكتوب أكاذيب، أما الآثار فصادقة لمن يعرف كيف يستنطقها، وإن الملوك وأشباههم يزيفون الأخبار المنقولة، وإنه ليحكى أن أحد الملوك كلف كاتباً أن يكتب تاريخ دولته فسأل بعض أصحاب الكاتب عما يكتب فقال: "أكاذيب ألقها وأباطيل أنمقها".

**** والسير في الأرض التي أهلك أهلها هو من الأمور الجائزة، إذا كان المقصود بهذا الاعتاظ، أما إذا كان المقصود بهذا التفرج على قوة القوم، وما أشبه ذلك، فإنه لا يجوز؛ لأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما مر بديار ثمود في ذهابه إلى تبوك مر مسرعاً مقنعاً رأسه -عليه الصلاة والسلام- خائفاً، وفي البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لِأَصْحَابِ الْحَجَرِ: (لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ) وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس الذين ماتت قلوبهم، يذهبون إلى ديار ثمود من أجل الاطلاع على مآثرهم وآثارهم وقدرتهم، فهذا لا شك أنه حرام.**

{كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} أي مآل أمرهم، وعاقبة الشيء ما يعقبه ويعود إليه الشيء. والمُكَذِّبِينَ هنا المراد بهم: المكذبين الله ورسله، فماذا كان عاقبتهم؟

كان عاقبتهم الهلاك والدمار، وعقوبتهم على حسب ذنوبهم كما قال تعالى: **{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ**

يَظْلُمُونَ { [العنكبوت: ٤٠] حاصبا: ريحا عاصفة فيها حصباء،
أهلك قوم لوط، والصيحة أهلكتمود، والخسف لقارون،
والغرق لقوم نوح.

والتعبير بلفظ (كيف) الدال على الاستفهام يقصد به
التصوير وتوضيح الحال في صورة تدعو إلى العجب وتشير
الاستغراب، أي أن عاقبتهم التي انتهوا إليها من تدمير ديارهم،
وتعفية آثارهم بعد أن طغوا وبغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد،
تشير العجب والدهشة لمن ضعف إيمانه، وتلقي بالطمأنينة
والصبر والرضا لمن قوى إيمانه.

قال ابن عثيمين: والعقول قاصرة غالباً عن معرفة تناسب
العقوبة والعمل. وأقول غالباً، لأنها أحياناً قد تعرف المناسبة،
فمثلاً: نحن نعرف مناسبة إهلاك عاد بالريح، وهي أنهم كانوا
يقولون: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [فصلت: ١٥] فأراد الله عز وجل أن
يريهم أنه يهلكهم بما هو من أطف الأشياء وهو الريح، فالهواء
لطيف ومع ذلك دمر الله به هذه الأمة التي تفخر بقوتها.

وفي آل فرعون؛ كان فرعون يعتز بالأنهار التي تجري من
تحتة، ويقول لقومه: **{وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ
لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}**

[الزخرف: ٥١] فأهلكه الله عزّ وجلّ بجنس ما افتخر به وهو الماء.

وأما الباقي فلا أستطيع أن أحدد التناسب بين العمل وبين العقوبة، لكن قوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ} [العنكبوت: ٤٠] يدل على أن العقوبة تناسب العمل، ومن الأمثال المشهورة عند الناس: «كما تدين تدان».

{هَذَا بَيَانٌ} البيان الإيضاح وكشف الحقائق الواقعة.. وهذا من باب المبالغة أن يجعل الموصوف هو الصفة نفسها، كأننا سلبنا اتصافه بها حتى جعلناه هو نفس الصفة، ولهذا يقولون: إن قول القائل: "فلان عدل" أبلغ من قولهم: "فلان ذو عدل" كأنه جعل هذا الموصوف هو الصفة. إذن القرآن ليس فيه البيان، بل هو نفسه البيان.

في هذا قولان للمفسرين:

أ – فمنهم من قال: إنه عائد إلى القرآن، لجريان ذلك كثيراً في كتاب الله، كقوله تبارك وتعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩] وما أشبه ذلك

من الآيات التي فيها الإشارة التي تعود إلى القرآن نفسه فتكون
{هذا} أي القرآن بياناً للناس.

ب - ومنهم من قال: إنه عائد إلى أقرب ما ذكر؛ لأن اسم
الإشارة والضمير كلاهما يعودان على أقرب مذكور، إشارةً إلى ما
لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصرين من قوله تعالى:
{قَدْ خَلَتْ} إلى آخره.

ولكن الأول أولى أن يكون عائداً إلى القرآن كله، ومنه هذه
الآية؛ لأن هذه الآية من القرآن، فإذا جعلنا هذا يعود على القرآن
كله صار من ضمنه ما ذكر.

{لِلنَّاسِ} وصف عام يشمل عموم الناس.
{وَهُدًى} الهدى: الإرشاد إلى ما فيه خير الناس في الحال
والاستقبال.

{وَمَوْعِظَةٌ} الموعظة: التحذير والتخويف، والحال التي يتعظ
بها المؤمن فيسلك سبيل النجاة.

** وفيه أن من لم يتعظ بالقرآن فليتهم نفسه فإن فيه بلاء،
كما أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليتهم نفسه،
فإن صلاته قاصرة.

{لِلْمُتَّقِينَ} وصف خاص.. للإيدان بعله الحُكم فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم.

ولذلك جعل سبحانه البيان للناس جميعا، والهداية والموعظة للمتقين منهم فقط؛ إذ إن الهداية بالبيان تقتضي إشراقا روحيا، واستعدادا قلبيا، وإخلاصا في طلب الحقيقة، والموعظة -وهي الاستفادة من العبر- تقتضي قلبا مفتحا لإدراك الحقائق والاتجاه إليها بقصد سليم، وذلك كله لا يتوافر إلا للمتقين الذين أخلصوا أنفسهم لله، وطلبوا الحق، وسلكوا سبيله لا يبغيه عوجا. أما من عمى فكره وقسا فؤاده لا يهتدي ولا يتعظ.

كما قال تعالى: **{وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}** [التوبة: ١٢٤-١٢٥]

ومثل البيان مثل البذر يلقي في الأرض، فإذا أصاب صحراء قاحلة جف ولم ينتج، وإذا أصاب أرضا خصبة أنبت نباتا حسنا. وفي البخاري عن أبي موسى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ

الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ
أَمْسَكْتَ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا،
وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا
تُنْبِتُ كَلًّا. فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ
بِهِ فَعِلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ
الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ).

****** والآية بيان لما غفلوا عنه من عدم التلازم بين النصر
وحسن العاقبة، ولا بين الهزيمة وسوء العاقبة، وهي هدى لهم
لينتزعوا المسببات من أسبابها، فإن سبب النجاح حقا هو
الصلاح والاستقامة، وهي موعظة لهم ليحذروا الفساد ولا يغتروا
كما اغتر عاد إذ قالوا من أشد منا قوة.

****** وفيه فضيلة التقوى، وأنها سبب للاهتداء والاعتزاز
بالقرآن. وأنه كلما ازداد الإنسان تقوى ازداد هدى وموعظة؛ لأن
الحكم المعلق بوصف يقوى بقوته، ويضعف بضعفه، فإذا كان
الهدى والموعظة معلقاً بالتقوى فإنه لا بد أن يزداد ويقوى
بالتقوى، ويضعف وينقص بعدم التقوى.

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} الوهن: ضعف النفس، وقد يؤدي إلى
ضعف الجسم عن العمل، والحزن ألم نفسي يصيب الإنسان

عند فقد ما يحب أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يهّم النفس، ويجعلها في هم دائم، ومعنى النهي عن الوهن والحزن -وهما أمران نفسيان- هو النهي عن الاسترسال في الألم مما أصابهم، والمغزى: لا تسترسلوا في الهم والألم مما كان يوم أحد، فإن ذلك يؤدي إلى ضعفكم عن القتال، فليس النهي منصبا على أصل الوهن والحزن، ولكنه منصب على سببهما الذي هو في قدرة المؤمن وهو الاسترسال في الوهن والحزن.

والآية تشجّع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسليّة عما أصابهم يوم أحدٍ من القتل والقرح، وروي أنه قد قُتل يومئذ خمسة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعبدُ الله بن جحش ابنُ عمّة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعثمان بن مظعون وسعدٌ مولى عتبة رضوانُ الله تعالى عليهم أجمعين، ومن الأنصار سبعون رجلاً رضي الله عنهم.. أي لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولا تحزنوا على مَنْ قُتل منكم.

فذكر الله -سبحانه وتعالى- حال إقدامهم وحال إدبارهم، حال إقدامهم نهاهم عن الضعف، وهذا يعطيهم قوة وإقداماً،

وحال إدبارهم نهاهم عن الحزن، وهذا يعطيهم إعراضاً عما وراءهم وعدم الالتفات إليه.

ومعلوم أن الحزن يكون فيما يسوء، والحزن على ما مضى لا يفيد الإنسان، بل يفتر عزيمته، ويقلق راحته ولا يستفيد منه بشيء، فلهذا نهاهم الله - سبحانه وتعالى - عما يعوقهم حال الإقبال، وعما يعوقهم حال الإدبار.

{وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} علو المنزل.. أي والحال أنكم الأعْلَوْنَ الغالبون دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم، فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق.

أو وأنتم المعهودون بغاية علو الشأن لما أنكم على الحق وقتالكم لله - عز وجل - وقتلاككم في الجنة، وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلهم في النار.

والمعنيان متلازمان؛ لأنه من كانت حاله العلو فإنه لن يضعف ولن يحزن، ومن اعتقد أنه الأعلى فسوف لا يجبن ولا يحزن.
قال في زهرة التفاسير: تسلية للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه من حيث إن فيها بيانا لأنهم أعلى، ومعنى العلو أنهم قد كان لهم غلب أكثر مما كان للمشركين، فقتلى المشركين يوم

بدر أكثر من قتلى المؤمنين يوم أحد، والمؤمنون في أحد ذاتها قد كانوا أعلى منزلة من الكفار؛ لأن قتلى المؤمنين في الجنة، وقتلى المشركين في النار؛ ولأن قتال المؤمنين في سبيل الحق، وقتال المشركين في سبيل الطاغوت، وأي علو للإنسان أكثر من أن يشعر بأنه يقاتل لنصرة الحق، ويغالب في سبيله، فإن الحق في ذاته عزة وعلو، وفوق ذلك في النص بشارة بأن العاقبة للمتقين، وهو العلو في الأرض، كما قال تعالى: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}** [القصص: ٥].

{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} هذا شرط للعلو؛ يعني أنتم الأعلون في حال كونكم مؤمنين، والإيمان أخص من الإسلام؛ لأن الإسلام يقع من المنافق وضعيف الإيمان، والإيمان لا يكون إلا من كامل الإيمان، من المؤمن حقا، ولهذا قال الله تعالى: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}** لماذا؟ **{وَلَمَّا}** حرف نفي يدل على قرب المنفي؛ يعني أن الإيمان قريب ما يدخل قلوبكم أما الآن فلا **{يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** [الحجرات: ١٤]

أي إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه.

وقيل: **{وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}** يعني الغالبين على الأعداء بعد أحد. فلم يخرجوا بعد ذلك عسكرياً إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت.

****** وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى: **{قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}** [طه: ٦٨] وقال لهذه الأمة: **{وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}**. وهذه اللفظة مشتقة من اسمه «الأعلى» فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: **{وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}**.

قال منذر بن سعيد: "يجب بهذه الآية ألا يوادع العدو ما كانت للمسلمين قوة وشوكة، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم في الأصلح".

{إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ} القرَح: أثر السلاح في الجسم كالجرح، وتضم القاف (قَرْحٌ) فيكون بمعنى الألم. فالقرح على هذا أثر الجراحات في الظاهر، وبالضم أثرها في الباطن.

وقيل: وهو هنا مستعمل في غير حقيقته، بل هو استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإن الهزيمة تشبه بالثلمة وبالانكسار، فشبهت هنا بالقرح حين يصيب الجسد، ولا يصح أن يراد به الحقيقة لأن الجراح التي تصيب الجيش لا يعبأ بها إذا كان معها النصر، فلا شك أن التسلية وقعت عما أصابهم من الهزيمة.

{فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ} مشركو مكة ومن معهم **{قَرْحٌ مِثْلُهُ}** أي إن مسكم قتل أو جراح في أحد فقد مس الكفار مثله في بدر.. قال تعالى: **{أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران: ١٦٥] ففي أحد قتل منكم سبعون لكن في بدر قتل من عدوكم سبعون وأسر سبعون، أي الضعف.

والتعبير عما أصاب المسلمين بصيغة المضارع في **{يَمَسُّكُمْ}** لقربه من زمن الحال، وعما أصاب المشركين بصيغة الماضي **{مَسَّ}** لبعده لأنه حصل يوم بدر.

وقيل: قد مس الكفار يوم أحد مثل ما مسكم فيه، فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قتلوا منهم نيفاً وعشرين رجلاً منهم صاحب لوائهم وجرحوا عدداً كثيراً وعقرُوا عامة خيلهم بالنبل، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ}** [آل عمران: ١٥٢].

والمعنى: فإنهم نالوا منكم ونلتهم منهم، وذلك تسليّة للمؤمنين بالتأسي «والتأسي فيه أعظم مسلاة». وأن ذلك غير عجيب في الحرب، إذ لا يخلو جيش من أن يغلب في بعض مواقع الحرب.

قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي . . . على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن . . . أعزي النفس عنه بالتأسي
ولهذا أشار القرآن:

- **{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً
حَكِيماً}** [النساء: ١٠٤]

– {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}
[الزخرف: ٣٩] فاشتراكم في العذاب لم ينفعكم ولم يخفف
عنكم الألم.

{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ} والمراد بها ما يجريه الله من تصارييف الحياة
من خير وغيره وإعزاز وإذلال.

{نُذَاوِلَهَا} الدُّوَلَةُ الكرة، وصيغة المضارع الدالة على التجدد
والاستمرار للإيدان بأن تلك المداولة سنةً مسلوكةً فيما بين
الأمم قاطبةً سابقتها ولا حقيتها.

وأنت بصيغة «نون العظمة» إشارة إلى أن الله – عز وجل –
لكمال سلطانه وكبريائه يدل الناس بعضهم على بعض، فتارة
تكون أياماً لهؤلاء، وتارة تكون أياماً لهؤلاء.

{بَيْنَ النَّاسِ} نُصَرَّفُهَا بينهم: نُذِيلُ لهؤلاء تارةً ولهؤلاء أخرى.
وفيه ضربٌ من التسلية.

قال في البحر المحيط: "أخبر تعالى – على سبيل التسلية –
أن الأيام على قديم الدهر لا تبقى الناس على حالة واحدة.
والمراد بالأيام أوقات الغلبة والظفر، يصرفها الله على ما أراد تارة
لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كما جاء: «الحرب سجال»".

فسنة الله قائمة، لا نصر يدوم، ولا هزيمة تدوم، لأنه لو دام النصر لكان الغرور، ومع الغرور الطغيان، ووراء ذلك الترف، وإذا أصاب الترف نفوس الشعوب ذهبت نخوتها وضوّلت قوتها كما توقع الصّدّيق خليفة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للعرب عندما توالى انتصارهم: "والله لتألمن من النوم على الصوف الأذري [أي صوف أذريحان] كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان [نبات شوكي وهو من أفضل مرعى الإبل]"

{وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ} تعليل للجملة التي قبلها **{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}** **{الَّذِينَ آمَنُوا}** علم وجود، وعلم يترتب عليه الجزاء.. فعلم الله تعالى لا يتجدد، بل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها إذ علمه لا يطرأ عليه التغير.

والمعنى: ليعلم ذلك علماً ظاهراً لكم تقوم به الحجة إذ هو الذي يدور عليه فلكُ الجزاء.

أو ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم أزلاً أنهم يؤمنون، ويساوق علمه إيمانهم ووجودهم، وإلا فقد علمهم في الأزل.

أو: ليعلم صبر المؤمنين، العلم الذي يقع عليه الجزاء كما علمه غيباً قبل أن كلفهم".

وقال القرطبي: "وإنما كانت هذه المداولة ليُرى المؤمن من المنافق فيميز بعضهم من بعض؛ كما قال: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

إذن علم الله في هذا المقام على وجهين:

أحدهما: أن يكون علم الله الذي ثبت بالواقعة هو علم الجزاء أي يتحقق فيهم جزاء الله تعالى.

والوجه الثاني: أن يراد تمييز قوى الإيمان من ضعيف الإيمان فيتميز الخبيث من الطيب، ويكون هذا من قبيل التمثيل، أي فعل الله تعالى ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت... والمؤدى في الأقوال كلها واحد.

والمؤمن يرضى بمداولة الله الأيام بين الناس رضا تاماً؛ إن أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر، ويعلم أن ذلك بتقدير الله فيرضى ويسلم، لكن غير المؤمن بالعكس إن أصيب بالسراء أشر وبطر، وإن أصيب بضراء ضجر وتسخط، يقول الله سبحانه وتعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ { [الحج: ١١] وكم من إنسان ارتد لأنه أصيب بمصيبة والعياذ بالله.

{وَيَتَّخِذَ} في لفظ الاتخاذ المُنْبِئ عن الاصطفاء والتقريب من تشریفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى.

فلم يقل: وليوجد. بل قال: **{وَيَتَّخِذَ}** فهؤلاء الشهداء اتخذهم الله واصطفاهم لنفسه جل وعلا. لأن الشهادة فضيلة من الله، واقتراب من رضوانه.

{مِنْكُمْ شُهَدَاءٌ} ويكرم ناساً منكم بالشهادة فيقتلون في سبيله، ويبدلون مهجهم في مرضاته.

قيل: سمي شهيدا لأنه مشهود له بالجنة.

وقيل: سمي شهيدا لأن أرواحهم احتضرت دار السلام، لأنهم أحياء عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح.

والشهادة فضلها عظيم، ويكفيك في فضلها قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ}** [التوبة: ١١١] الآية. وقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}** إلى قوله: **{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [الصف: ١٠ - ١٢]

وفي سنن النسائي - بسند صحيح - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (الشَّهِيدُ لَا يَجِدُ مَسَّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ الْقَرْصَةَ يُقْرِصُهَا) وفي رواية الترمذي: (مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ)

وروى النسائي - بسند صحيح - عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: (كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً)

وفي البخاري: «بَابُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْهُمْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَالْيَمَانُ وَأَنْسُ بْنُ النَّضْرِ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ».

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: مَا نَعْلَمُ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَكْثَرَ شَهِيدًا أَعَزَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ.

قَالَ قَتَادَةُ وَحَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ وَيَوْمَ بَرْ مَعُونَةَ سَبْعُونَ وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ سَبْعُونَ. قَالَ: وَكَانَ بَرْ مَعُونَةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ.

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مَنْ قَتَلَ أَحَدًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: (أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟) فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدٍ قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ. وَقَالَ: (أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُغَسَّلُوا.

وَقَالَ أَبُو الْوَلِيدِ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَبْكِي وَأَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ فَجَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَنْهَوْنِي وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَنْهَ. وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَبْكِيهِ أَوْ مَا تَبْكِيهِ مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ)

وَعَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ جَدِّهِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أُرِيَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (رَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ بِهِ اللَّهُ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقْرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ)

وَعَنْ خَبَّابٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَنَحْنُ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ،
فَمِنَّا مَنْ مَضَى أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ
مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمْرَةً كُنَّا إِذَا غَطَيْنَا
بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ وَإِذَا غُطِّي بِهَا رِجْلَاهُ خَرَجَ رَأْسُهُ. فَقَالَ
لَنَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى
رِجْلَيْهِ الْإِذْخَرَ أَوْ قَالَ أَلْقُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ) وَمِنَّا مَنْ
أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدُبُهَا. [صحيح البخاري]

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} اعتراضٌ مقررٌ لمضمون ما قبله،
ونفي المحبة كناية عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريضٌ
بمحبه تعالى لمقابلتهم.

وفيه إشارة إلى أن من انخدل يوم أحد كعبد الله بن أبي
وأتباعه من المنافقين، فإنهم بانخدالهم، لم يطهر إيمانهم بل
نجم نفاقهم، ولم يصلحوا لاتخاذهم شهداء بأن يقتلوا في سبيل
الله.

وذلك إشارة أيضاً إلى أن ما فعل من إدالة الكفار، ليس
سببه المحبة منه تعالى، بل ما ذكر من الفوائد من ظهور إيمان
المؤمن وثبوتته، واصطفائه من شاء من المؤمنين للشهادة. وأن

مناط انتفاء المحبة هو الظلم، وهو دليل على فحاشته وقبحه من سائر الأوصاف القبيحة.

{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} يختبر أو يطهر أو يخلص..
ثلاثة أقوال.

قال الخليل: يقال مَحِّصَ الحبل إذا انقطع وبره؛ ومنه "اللهم محص عنا ذنوبنا" أي خلصنا من عقوبتها. وقال أبو إسحاق الزجاج: قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل: التمحيص التخليص؛ فالمعنى عليه: ليبثي المؤمنين ليشبههم ويخلصهم من ذنوبهم. فيطهرهم من الذنوب، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وهو معطوف على ما تقدم من تعزية المؤمنين لما أصابهم يوم أحد.

وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض.
وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص.

وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قُدمت في الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان.

ولعل تأخيرِ العلةِ الأخيرةِ عن الاعتراضِ لئلا يُتَوَهَّم اندراجُ
المدنبيين في الظالمين. والمعنى على هذا أن هذا القرع الذي
أصاب المؤمنين خلصهم مما كان يشوب قلوبهم من أعراض
الدنيا، وخلصهم ممن كانوا يخالطونهم من ضعاف الإيمان
والمنافقين، إذ تبين خبثهم، فصاروا لا يجدون لقولهم سامعاً، ولا
لدعوتهم إلى التردد والهزيمة مجيباً.

{وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ} أي يستأصلهم بالهلاك. فالتمحيص فيه
محو الآثار وإزالة الأوضار، والمَحَقُّ عبارة عن النقص والإذهاب.
قال المفضل: هو أن يذهب الشيء بالكلية حتى لا يرى منه
شيء، ومنه قوله تعالى: **{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا}** [البقرة: ٢٧٦] أي
يستأصله.

وقيل: أي ينقصهم، إذ المحق معناه النقصان، ومنه المُحَاق
لهلال آخر الشهر، لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان
فيختفي.

فهو تعالى إذا نصرهم يكون سبباً لمحقتهم، لأنهم إذا انتصروا
علوا واستكبروا وانتفخوا في أنفسهم، وظنوا أن لهم السيطرة
دائماً، فحينئذ يعيدون الكرة مرة أخرى لقتال المسلمين، وبذلك

يكون محققهم لأن العزائم قد تحفرت حذرة لمنازلتهم، فكانت الهزيمة سبيلا للنصر، وكان الجرح سبيلا لإعلاء كلمة الله تعالى. قيل: وقابل تمحيص المؤمن بمحق الكافر، لأن التمحيص إهلاك الذنوب، والمحق إهلاك النفوس، وهي مقابلة لطيفة في المعنى.

وقد سأل هرقل أبا سفيان: فقال هرقل: "وكذلك الرسل تبلى وتكون لهم العاقبة".

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)
وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا
فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

{أُمٌ حَسِبْتُمْ} أم ظننتم، والاستفهام المقدر بعد «أم»
مستعمل في التعليل والنهي. ولذلك جاء بـ «أم» للدلالة على
التعليل: أي لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة دون أن تجاهدوا
وتصبروا على عواقب الجهاد.

وهو كلام مستأنف سيق لبيان ما هي الغاية القصوى من
المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم
واتخاذ الشهداء وإظهار عزة منالها.

وقال بعض المفسرين: وافتتح الكلام بذكر «أم» التي هي
أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين يشك في أحدهما، لا
يعينه، يقولون: أزيد ضربت أم عمراً؟ مع تيقن وقوع الضرب
بأحدهما، وعادة العرب أن يأتوا بهذا الجنس من الاستفهام
توكيداً، فلما قال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [آل عمران: ١٣٩]
كأنه قال: أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدةٍ وصبرٍ؟

وقيل: «أم» هنا تكون للإضراب، ويكون المعنى: بل حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والإضراب هنا معناه الانتقال من طريق للبيان إلى طريق آخر، ففي الأول بين العبر والسنن بطريق التقرير {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}، وفي هذه الآية يبين سنة أخرى بطريق الاستفهام الإنكاري، وفيه فضل تنبيه وفضل تقرير، والمعنى: أن سنة الله تعالى في نعيمه أنه لا يستحقه على كماله إلا من بذل المهجة في حياته، وصبر في السراء والضراء [زهرة التفاسير]

{أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} وتفوزوا بنعيمها.. هذه الآية وما بعدها عتب شديد لمن وقعت منهم الهفوات يوم أحد. واستفهام على سبيل الإنكار أن يظن أحد أن يدخل الجنة وهو مخل بما افترض عليه من البلاء والجهد والصبر عليه.

{وَلَمَّا} حرف نفي أخت «لم» إلا أنها أشد نفيا من «لم».

{يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} ولما يقع ذلك منكم فيستبين لكم أمركم، ويظهر لكم جهاد المجاهدين وصبر الصابرين، فيعلمه علم ظهور وشهادة حتى يقع عليه الجزاء، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه.

وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم
المبني على لزوم تحقق الأول لتحقيق الثاني، وضرورة استحالة
تحقق شيء بدون علمه تعالى به.. فالمراد بنفي العلم انتفاء
متعلقه، لأنه منتف بانتهائه كما قال تعالى: **{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ**
خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال: ٢٣] والمعنى: لم يكن فيهم خير، لأن
ما لم يتعلق به علم الله تعالى وجوداً لا يكون موجوداً أبداً.

كأنه قيل: والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم، وإنما
وجه النفي إلى الموصوفين مع أن المنفي هو الوصف فقط، وكان
يكفي أن يقال: "ولما يعلم الله جهادكم" كناية عن معنى "ولما
تجاهدوا" للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً،
وفي كلمة **{وَلَمَّا}** إيذان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يُستقبل إلا
أنه غير معتبر في تأكيد الإنكار.

وقد تكلّموا في الحكمة في أن الله تعالى عبر في نفي
المعلوم الواقع بنفي العلم الثابت، فقال: **{وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ}** ولم
يقُل: "ولا يقع معلوم الله"، ونقول: إن حكمة ذلك هو تعليمنا
بألا نحكم إلا بما يظهر ويقوم عليه الدليل المحسوس، ولا
يحكم أحد بما يتوقع، فالله العليم بكل شيء يرشد إلى أنه يترك
الحكم في الأمر حتى يقع ما حكم به محسوساً ملموساً.

وقد نفى الله تعالى «العلم» بكلمة {وَلَمَّا} وهي في معنى «لم»، بيد أنها تمتاز عنها بأنها تنفي الأمر في الماضي والحاضر، وتومئ إلى وقوعه في المستقبل، ففي الآية إيماء إلى أن المعلوم وهو المجاهدون، لم يكونوا معلومين قبل الاختبار، وكانوا بعد الاختبار، وظهرت تلك الصفة فيهم.

**** وفيه أن الجهاد سبب لدخول الجنة؛ ولا فرق بين الجهاد بالسلاح والجهاد بالعلم فكلاهما جهاد، بل قد تحتاج الأمة الإسلامية إلى جهاد العلم أكثر مما تحتاج إلى جهاد السلاح، وقد يكون بالعكس، وقد يتساويان. ولكن لا بد من وجودهما في الأمة الإسلامية، لا بد من وجود علماء، ولا بد من وجود طلبة علم، ولا بد من وجود مسلحين يقاتلون الكفار بالسلاح؛ لأن الجهاد لا ينزل علمه إلى يوم القيامة، فلا بد أن يكون قائماً.**

{وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ} أي: لا تظنوا أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر على القتل والجرح؛ حتى يقع العلم ظاهراً بجهادكم وصبركم.

ويثار اسم الفاعل {الصَّابِرِينَ} على الموصول "الذين صبروا" للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر، وللمحافظة على الفواصل.

والمعنى: أي ويقع المعلوم الثاني الذي قدره الله تعالى، وهو أن يتميز الصابرون من غيرهم، فالابتلاء الشديد أظهر نوعين من الرجال:

أولهما- المجاهدون الذين يجالدون ولا يفرون ولا يولون الأدبار، ولا يذهب ببأسهم قوة عدوهم، وفشل فريق من إخوانهم.

والفريق الثاني- الذي أظهره هم الذين صبروا ولم تذهب قلوبهم شعاعا، ولم يذهب تفكيرهم، ولم يضع رشدهم، ولم تطش أحلامهم.

والجهاد يتضمن الصبر، بل الصبر عدة الجهاد الأولى، لكن خُصَّ الصابرون بالذكر، وخص الصبر بالتنويه، وهذا لأن الصبر -ولو أنه عدة الجهاد- ينفرد بمعنى آخر غير الجلد والصبر تحت حر القتال وفي بريق السيوف، فإن الصبر يتضمن ثبات الفكرة واطمئنان القلب إلى الحقائق المقررة، وعدم طيش الأحلام، فإن الأخبار التي تثبط العزائم في الحروب إذا كانت كاذبة قد يصدقها المجاهد، ولكن شجاعته تدفعه إلى مواصلة القتال، وعدم التأثر، والصابر المطمئن النفس يحص الأخبار

في وسط الاضطراب النفسي، فإذا أشيع في ميدان القتال أن القائد قد قتل، كان الأبرار من الجند فريقين:

أحدهما- المجاهدون الشجعان الذين يستمرون على القتال، ولو كان الخبر صادقاً، ويندفعون في الميدان.

والفريق الثاني- المجاهدون الذين نالوا حظ الأولين وكان لهم مع ذلك قدرة على التأمل أصادق الخبر أم كاذب، وإذا كان صادقاً حثوا غيرهم على الاستمرار وبينوا لهم أن الواجب صار أشد وأقوى وألزم، فهذا فريق الصابرين، وإن هذا النوع من الصبر هو أعلى أنواع الصبر؛ لأنه ثبات الجنان، وتحمل التبعات بأبلغ أحوالها وأشد صورها، فهو صبر في جهاد الفكر، وجهاد النفس، وتحمل عبء الجاهلين الأغرار، وتولى إرشادهم وتوجيههم.

** وفيه بيان أن التمني الخال من الفعال رأس مال المفاليس، وهو عين الخسران.. قال الحسن البصري -رحمه الله-: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي؛ [أي ليس بالتمني بالقلب، ولا بالتحلي بالمظهر]، وإنما ما وقر في القلب وصدقه العمل".

فالنص يفيد أن الطريق إلى الجنة ليس سهلاً يسلكه كل إنسان، إنما هو محفوف بالمكاره والشدائد، ولا يصل إلى غايته

إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا، ولذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُقَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) [مسلم] وذلك لأن المعاصي أسبابها اندفاع الشهوات الإنسانية، وانطلاق الغرائز المنحرفة، فليس فيها جهاد بأي نوع من أنواعه، بل فيها تلذذ وانحراف، وأما الجنة فسييلها جهاد للنفس ومغالبة للهوى، ومنازلة بين الحق والباطل، وتكليفات يجب القيام بها، وكل هذه مشاق يحتاج احتمالها إلى جهد في دائرة الطاقة، و { لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . } [البقرة: ٢٨٦].

قال الشنقيطي-رحمه الله-: أنكر الله في هذه الآية، على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يتلى بشدائد التكليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه، وبين غيره وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله:

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]
وقوله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٦]

وقوله: {الم، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ١-٣].

وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة، وذلك أن أبانا آدم كان في الجنة يأكل منها رغدا حيث شاء في أتم نعمة وأكمل سرور، وأرغد عيش. كما قال له ربه: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى} [طه: ١١٨-١١٩]، ولو تناسلنا فيها لكنا في أرغد عيش وأتم نعمة، ولكن إبليس عليه لعائن الله احتال بمكره وخداعه على أبويننا حتى أخرجهما من الجنة، إلى دار الشقاء والتعب.

وحينئذ حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكاليف. فعلى العاقل منا معاشر بني آدم أن يتصور الواقع ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال ابن القيم:

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نرد إلى أوطاننا ونسلم

ولهذه الحكمة أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر قصة إبليس مع آدم لتكون نصب أعيننا دائماً. [أضواء البيان]

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ} قبل خروجكم إلى الجهاد.. أكد هذه الجملة لإقامة الحجة عليهم، والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: بالقسم المقدر، وباللام الواقعة في جوابه، وبـ «قد» كنتم فيما مضى تمنون الموت من قبل أن تلقوه.

{تَمَنُّونَ الْمَوْتَ} أي: الحرب؛ لأنها سبب الموت في سبيل الله.. عبر عن ملاقاته الرجال ومجالدتهم بالحديد بالموت، إذ هي حالة تتضمن في الأغلب الموت، فلا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت.

والموت شهادة أغلى أمنية الشجاع صادق الإيمان، ولقد وُصِفَ فارس الإسلام علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بأنه كان إذا تقدم إلى الميدان لا يدري أيقع على الموت أم يقع الموت عليه، فكان يقع -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- على الموت يصيب به أعداء الله وأعداءه.

وتمني الموت في الجهاد ليس متمنياً لغلبة الكافر المسلم، إنما يجيء ذلك في الضمن لا أنه مقصود، إنما مقصده نيل رتبة الشهادة لما فيه من الكرامة عند الله تعالى.

****** وفيه أنه لا ينبغي للإنسان أن يتمنى المكروه؛ لأنه إذا تمناه ووقع ربما ينكص ولا يصبر، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ). وهكذا الإنسان ينبغي له أن يسأل الله دوما العافية لكن إذا ابتلي فليصبر.

{مَنْ قَبْلَ أَنْ تَلْقَوْهُ} أي من قبل أن تشاهدوا شدائده وأحواله، والضمير في **{تَلْقَوْهُ}** عائد على الموت، وقيل: على العدو، وأضمر لدلالة الكلام عليه. والأوّل أظهر، لأنه يعود على أقرب مذكور.

{فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} فاء فصيحة عن قوله: **{كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ}**.. أي عاينتم أسبابه في الحرب المستعر من لَمَعَانِ السُّيُوفِ وَحَدَّ الْأَسِنَّةِ واشتباك الرِّمَاحِ، وصفوف الرجال للقتال.

والفاء الفصيحة هي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببا للمعطوف، وسميت فصيحة لأنها تفصح عن محذوف وتفيد بيان سببته. فهذه الفاء يؤتى بها للإفصاح عن شيء مقدر لابد من تقديره ليستقيم المعنى.

ومن أمثلة الفاء الفصيحة قوله تعالى:

{فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} [الفرقان: ١٩]

{فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ} [الروم: ٥٦].

{فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}

[الفرقان: ٣٦]

{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}

[البقرة: ٥٤]

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ}

{فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة: ٦٠]

{وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} وفي إشار الرؤية على الملاقاة وتقييدها

بالنظر مزيدُ مبالغةٍ في مشاهدتهم له، وتأكيد لحال الرؤية أو تصوير لرؤيتهم؛ لأن الجملة حالية والتعبير بالمضارع يفيد التصوير، وإحضار الصورة الواقعة في الماضي كأنها واقعة في الحاضر، فيستحضرها العقل كما وقعت، وكما ظهرت في الوجود.

والمقصود: أي معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا، فعلى هذا يكون متعلق النظر متعلق الرؤية. وهو توبيخ أو عتب أو لوم لهم على تمنّيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم.

والخطاب للمؤمنين، وظاهره العموم والمراد الخصوص.
وذلك أن جماعة من المؤمنين لم يحضروا غزوة بدر، إذ كان
رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إنما خرج مبادراً يريد غير
القريش، فلم يظنوا حرباً، وفاز أهل بدر بما فازوا به من الكرامة
في الدنيا والآخرة، فتمنوا لقاء العدو ليكون لهم يوم كيوم بدر،
وهم الذين حرضوا على الخروج لأحد.

فلما كان في يوم أحد ما كان، رمى عبدُ الله بنُ قميئةَ
الحارثيُّ رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بحجر فكسر
رَبَاعِيَّتَهُ وشج وجهه الكريم، فذَبَّ عنه مصعبُ بنُ عميرٍ -رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ- وكان صاحبَ الراية حتى قتله ابنُ قميئة وهو يزعم أنه
قتل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقال: "قتلت محمداً"
وصرخ بذلك صارخ قيل إنه إبليسُ، وفشا ذلك فانكفأ الناسُ
فَارَيْنَ، فدعاهم الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ)
قال كعبُ بنُ مالك: كنت أولُ من عرف رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المسلمين فناديت بأعلى صوتي: يا معشرَ
المسلمين هذا رسولُ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فانحاز إليه
ثلاثون من أصحابه وحملوه حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرَّق
الباقون وقال بعضهم: "ليت ابنُ أُبَيٍّ يأخذ لنا أماناً من أبي

سفيان"، وقال ناس من المنافقين: "لو كان نبياً لما قُتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم"، فنزلت هذه الآية تلومهم على ما صدر منهم مع ما كانوا قرروا على أنفسهم من تمني الموت.

وتجوزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى: **{والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}** [المائدة: ٦٧] لما أن كل آية ليس يسمعها كلُّ أحدٍ، ولا كلُّ من يسمعها يستحضرها في كل مقام لاسيما في مثل ذلك المقام الهائل.

{وَمَا مُحَمَّدٌ} - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سماه به جده عبد المطلب وقيل له: لم سمّيته محمدا وليس من أسماء آبائك؟ فقال: "رجوت أن يحمده الناس". وقد قيل: لم يسم أحد من العرب محمدا قبل رسول الله، وقيل غير هذا. وأكرم الله تعالى نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصفه باسمين مشتقين من اسمه: «محمد وأحمد»، تقول العرب: "رجل محمود ومحمد" إذا كثرت خصاله المحمودة.

{إِلَّا رَسُولٌ} يصيبه ما أصابهم **{قَدْ خَلَتْ}** مضت **{مِنْ قَبْلِهِ}** **{الرُّسُلُ}** هذا استمرار في عتبهم أن محمداً رسول كمن مضى من الرسل، بلّغ عن الله كما بلغوا، وليس بقاء الرسل شرطاً في بقاء

شرائعهم، بل هم يموتون وتبقى شرائعهم يلتزمها أتباعهم. فكما مضت الرسل وانقضوا، فكذلك حكمهم هو في ذلك واحد.

** وفيه إثبات أن محمداً -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خاتم الرسل؛ لقوله: **{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}** و (ال) هنا للعموم ولم يقل: "قد خلت من قبله رسل" بل قال: **{الرُّسُلُ}**، وإذا كان الرسل كلهم قد خلوا من قبله لزم من ذلك أن يكون هو آخرهم.

{أَفَإِنْ} استفهام استنكاري **{مَاتَ أَوْ قُتِلَ}** وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت أشهر في الوقوع فزجرُ الناس عن النكوص عنده وحملهم على التثبت هناك أهم، ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام وهو الخلؤ بالموت دون القتل.

** وفيه أنه ينبغي الدليل بذكر النظائر ليقنع الإنسان بما سمع؛ لقوله: **{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}** فإن من سمع هذا اقتنع وقال: ما دام الرسل السابقون قد ماتوا أو قتلوا فإن ذلك يكون تسليّة له.

{انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} رجعتم القهقري. تصوير لمن يرجع إلى الوراء وبصره إلى الأمام، وأعقابه هي التي تقوده، وهو منكس

جعل رأسه في أسفل وعقبه في أعلى، وذلك أقبح منظر يكون للإنسان.

يروى أنه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل، تزلزلت أقدام المؤمنين ورعبت قلوبهم وأمعنوا في الفرار، وكانوا ثلاث فرق:

فرقة قالت: ما نصنع بالحياة بعد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟ قاتلوا على ما قاتل عليه، فقاتلوا حتى قتلوا، منهم: أنس بن النضر عم أنس بن مالك، فإنه قال لما انكشف المسلمون: "اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء"، وباشر القتال وقال: إيها إنها ريح الجنة! إني لأجدها، ومضى حتى استشهد. قال أنس: فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بضعا وثمانين جراحة. وفيه وفي أمثاله نزل: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣].

وقد مر بعض المهاجرين بأنصاري يتشحط في دمه [يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ]، فقال له: أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا على دينكم، ولقد صاح بعض المجاهدين في وسط ذلك البلاء: يا معشر المؤمنين إن

كان محمد قد أصيب أفلا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به.

وفرقه قالوا: نلقي إليهم بأيدينا فإنهم قومنا وبنو عمنا.
وفرقه أظهرت النفاق، وقالوا: ارجعوا إلى دينكم الأول، فلو كان محمد نبياً ما قتل.

وظاهر الانقلاب على العقبين هو الارتداد. وقيل: هو بالفرار لا الارتداد. وقد جاء هذا اللفظ في الارتداد والكفر في قوله: {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ} [البقرة: ١٤٣] والانقلاب على الأعقاب أو على العقبين أو العقب من باب التمثيل مثل من يرجع إلى دينه الأول بمن ينقلب على عقبيه.

** وفيه رد على الملحدين الذين زعموا أن التمسك بالإسلام رجعية، فنقول لهم: إن التمسك بالإسلام هو التقدم، والتخلف عن الإسلام هو الرجعية.

** ولقد قرر سبحانه هذه الحقيقة ومعها دليلها، وذلك ببيان مقدمتين كل واحدة منهما تصلح مقدمة في دليل لإثبات أنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ميت لا محالة كما قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠].

المقدمة الأولى: أن محمدا رسول فقط فليس أكبر من رسول، ولذا قال تعالى: **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ}** أي ليس له صفة تميزه على الناس إلا الرسالة، والحقيقة.

المقدمة الثانية: أن الرسالة لا تقتضي البقاء، فقد مضى رسل من قبله وماتوا، وقد قررها سبحانه بقوله: **{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}**.

ومن مجموع المقدمتين يثبت أن محمدا سيموت؛ لأنه إذا كان ليس إلا رسولا، والرسول من قبله قد ماتوا، فهو سيموت لا محالة.

وإذا كان محمد سيموت لا محالة فإن رسالته لا تموت من بعده، ولا يصح أن ينقلب المؤمنون من بعده، بل عليهم أن يحملوا العبء من بعده.

{وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا} بل يضر نفسه ويعرضها للعقاب بسبب المخالفة، والله تعالى لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية لغناه.

فالارتداد عن الدين إبطال لما فيه صلاح الناس، فالمرتد يضر بنفسه وبالناس، ولا يضر الله شيئا. ومثل هذه الحقائق تلقى في المقام التي يقصد فيها مداواة النفوس من عاهات ذميمة.

وهي جملة شرطية عدل من صيغة الخطاب إلى العموم دون أن يقول: "وإن انقلبتم على أعقابكم فلن تضروا الله شيئاً" من أجل أن يكون الحكم عاماً شاملاً. و {شَيْئاً} نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم.

** قال ابن عثيمين: وفيه انتفاء الضرر عن الله، وأنه لن يضره شيء، ولكن إذا قال قائل: أليس الله تعالى قد قال في كتابه: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [الأحزاب: ٥٧] وفي الحديث القدسي: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر) فأثبت الأذية لله؟

فالجواب: أنه لا يلزم من الأذية الضرر. فالله تعالى قد يتأذى ولكن لا يتضرر، فإذا رأيت شيئاً مكروهاً فإنك تتأذى ولكن لا تتضرر، إذن لا يلزم من كون الله تعالى يتأذى أن يتضرر. ولم تقع ردّة من أحد من المسلمين في ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين.

** وفي هذا تنبيه إلى ثلاثة أمور:

أولهما: أن من يجاهد عليه أن يجاهد لحقيقة من الحقائق الثابتة الخالدة التي لا تفنى ولا تنتهي، ولا يقاتل لأجل

الأشخاص الذين ينتهون ويفنون، فالمعاني خالدة، والأشخاص ميتون.

الثانية: أن من يفسد قلبه فيرتد بعد إيمان ويكفر بعد يقين، لا يضر دين الله بل يضر نفسه؛ لأن الضال المضل يضر نفسه قبل أن يضر غيره.

ثالثها: إخبار الله تعالى بأن هذا الدين خالد ثابت باقٍ إلى يوم القيامة؛ لأنه سبحانه قد قرر أنه لا يضره من يخرج عنه أو يمرق عن أحكامه، أو يتركها مستهيناً، فإن للإسلام ربا يحميه، ورجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

{وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} وعد عظيم بالجزاء. وجاء بالسين وهي تحوّل الفعل المضارع من كونه صالحاً للحال والاستقبال إلى كونه للاستقبال، أما «سوف» فتدل على المهلة والسين تدل على الفورية، أي: لا يتأخر جزاء الله إياهم عنهم.

وجاء **{وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}** بعد قوله: **{فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا}** فهو اتصال وعد بوعيد.

والشاكرين هم الذين ثبتوا على دينه، وصدقوا الله فيما وعدوه، وشكروا الله تعالى في السراء والضراء، فلم يزعجهم البلاء كما لم تبطّرهم النعماء، فصفة الشكر كصفة الصبر كلتاها

تظهر في السراء والضراء معا، فالصبر يكون في النعمة بالقيام بحقها، وفي الكريهة باحتمالها، من غير تملل وتضجر.

فالشكر هو القيام بطاعة المنعم بالقلب واللسان والجوارح، وفيه إيماءٌ إلى كُفران المنقلين.

وإظهارُ الاسمِ الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم.

وعبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين، رغم أن الصبر هنا هو الأظهر لأن الشكر في هذا المقام هو أعلى درجات الصبر، وذلك أنهم لم يحتملوا البلاء فقط، بل تجاوزوا حد الصبر إلى حد الشكر على هذه الشديدة، فالشكر هنا صبر وزيادة، وقليل من يكون على هذه الشاكلة، ولذا قال تعالى: **{وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}** [سبأ: ١٣].

**** قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-:** ومن الغايات في هذه الغزوة أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. فأنبهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو قتل.

بل الواجب له عليهم أن يشبوا على دينه وتوحيده، يموتوا عليه ويقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت.

فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إليهم ليُخَلِّدَ، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه، فسواء مات رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل، فقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} الآية

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا وقتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وارتد من ارتد على عقبه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم، وأظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم. [زاد الميعاد]

** قال القرطبي: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فظهرت عنده شجاعته وعلمه.

قال الناس: لم يمت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر

فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنَّة،
الحديث؛ كذا في البخاري. وفي سنن ابن ماجه عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ
لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَ
امْرَأَتِهِ ابْنَةِ خَارِجَةَ بِالْعَوَالِي فَجَعَلُوا يَقُولُونَ لَمْ يَمُتِ النَّبِيُّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِنَّمَا هُوَ بَعْضُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عِنْدَ الْوَحْيِ فَجَاءَ
أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَبَلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى
اللَّهِ مِنْ أَنْ يُمِيتَكَ مَرَّتَيْنِ قَدْ وَاللَّهِ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعُمِرُ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ يَقُولُ وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَا يَمُوتُ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي أَنْاسٍ
مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَثِيرٍ وَأَرْجُلَهُمْ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ مَنْ
كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ
مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ
فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} قَالَ عُمَرُ فَلَكَا نِي
لَمْ أَقْرَأَهَا إِلَّا يَوْمَئِذٍ.

ورجع عن مقالته التي قالها فيما ذكر الوائلي أبو نصر عبيد
الله في كتابه «الإبانة»: عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن
الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - واستوى على منبر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تشهد قبل أبي بكر فقال: أما بعد فإني قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إلي رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى يدبرنا - يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتا - فاختار الله - عز وجل - لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

قال الوائلي أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها هي "أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم" وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبي بكر، وتفوهه بقول الله عز وجل: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}** [آل عمران: ١٨٥] وقوله: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** [الزمر: ٣٠] وما قاله ذلك اليوم - تنبه وتثبت وقال: كأني لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر. وخرج الناس يتلونونها في سكك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم.

ثم قال القرطبي: قد خرج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه: فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، ثم دخل الناس على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أرسالا يصلون عليه، حتى إذا فرغوا أدخلوا النساء، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحد.

في تغيير الحال بعد موت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، عَنْ أَنَسٍ قَالَ لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا [أخرجه ابن ماجه]

وقال: .. عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا نَتَّقِي الْكَلَامَ وَالْإِنْبِسَاطَ إِلَى نِسَائِنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَخَافَةَ أَنْ يُنْزَلَ فِيْنَا الْقُرْآنُ فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَكَلَّمْنَا.

وأسند ابن ماجه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا قَامَ الْمُصَلِّي يُصَلِّي لَمْ يَعُدْ

بَصَرُ أَحَدِهِمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ، فَلَمَّا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَكَانَ النَّاسُ إِذَا قَامَ أَحَدُهُمْ يُصَلِّي لَمْ يَعُدْ بَصَرُ أَحَدِهِمْ مَوْضِعَ جَبِينِهِ، فَتُوفِّي أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ عُمَرُ فَكَانَ النَّاسُ إِذَا قَامَ أَحَدُهُمْ يُصَلِّي لَمْ يَعُدْ بَصَرُ أَحَدِهِمْ مَوْضِعَ الْقِبْلَةِ، وَكَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَكَانَتْ الْفِتْنَةُ فَتَلَفَتِ النَّاسُ يَمِينًا وَشِمَالًا.

{وَمَا كَانَ} ينبغي.. معناه انتفاء الفعل وامتناعه. فتارة يكون الامتناع في مثل هذا التركيب لكونه ممتنعاً عقلاً، كقوله تعالى: **{مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ}** [مريم: ٣٥] وقوله: **{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}** [النمل: ٦٠]

وتارة لكونه ممتنعاً عادة نحو: "ما كان لزيد أن يطير".
وتارة لكونه ممتنعاً شرعاً كقوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا}** [النساء: ٩٢]

وتارة لكونه ممتنعاً أدباً، كقول أبي بكر: "ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-".
ويفهم هذا من سياق الكلام.

{لِنَفْسٍ} نكرة في سياق النفي فتعم كل نفس من الآدميين وغير الآدميين.

{أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} بأمره وإرادته.. استثناءً مفرغاً من أعم الأسباب، أي بتمكينه وتسويغه ذلك.

وهو كلامٌ مستأنفٌ سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذراً من قتلهم، وبناءً على الإرجاف بقتله -عليه الصلاة والسلام- بيان أن موت كلِّ نفسٍ منوطٌ بمشيئة الله -عز وجل- لا يكاد يقع بدون تعلقها به وإن خاضت موارد الحتوف واقتحمت مضايق كلِّ هولٍ ومخوفٍ.

وفيه أيضاً تحريضهم على الجهاد، وتقوية نفوسهم وتشجيعهم على لقاء العدو، بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لن يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك. فالجبن لا يزيد في الحياة والشجاعة لا تنقص منها.

وفيها الإشارة إلى حفظ الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وقد تربص به الأعداء، وأحاطوا به من كل جانب، وصار قريباً من نهضة المختلس، ولكن الله تعالى أحاطه بكلاءته وعنايته، وفيها أيضاً بيان أن الله سبحانه وتعالى قابض نبيه -صلى الله عليه وسلم- مهما يطل الأمد أو يقصر.

{كِتَابًا} أي كتبه الله كتاباً.. مصدر مؤكد للجمله التي قبله.

{مُؤَجَّلًا} مؤقتاً بوقت وأجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة، والكتابة هنا عبارة عن القضاء، وقيل: مكتوباً في اللوح المحفوظ مبيناً فيه.

وهذا كقوله تعالى: **{وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ}** [فاطر: ١١] وكقوله **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ}** [الأنعام: ٢].

وروى ابن كثير في تفسيره عن حبيب بن صُهبان، قال: قال رجل من المسلمين -وهو حُجْرُ بن عَدِيٍّ-: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو، هذه النطفة؟ -يعني دجلة- **{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا}** ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو قالوا: ديوان، فهربوا.

{وَمَنْ يُرِدْ} أي بعمل الآخرة **{ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا}** وهذا الجزاء من إيتاء الله من أراد ثواب الدنيا مشروط بمشيئة الله تعالى، كما جاء في الآية الأخرى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}** [الإسراء: ١٨-١٩] ولم يقل: "عجلنا له ما يريد".

{وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} ولا نعطيه الآخرة كلها؛
لأن الآخرة درجات يختلف فيها الناس، ولا يمكن أن يعطى
الإنسان جميع درجات الناس ولكن يعطى من الآخرة. ولكنها
تختلف عن عطية الدنيا، كما قال الله تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [الأعلى: ١٦-١٧] فعطية الآخرة
ليست كعطية الدنيا بل هي أعظم.

والآية تعريض بالدين رغبوا في الغنائم يوم أحد واشتغلوا بها،
والذين ثبتوا على القتال فيه ولم يشغلهم شيء عن نصره الدين.
وظاهر التقسيم يقتضي اختصاص كل واحد بما أراد، لأن من
كانت نيته مقصورة على طلب دنياه لا نصيب له في الآخرة،
لكن من كانت نيته مقصورة على طلب الآخرة قد يؤتى نصيباً من
الدنيا.

واعلم أن الآية وإن كان سياقها في الجهاد ولكنها عامة في
جميع الأعمال، وذلك لأن المؤثر في جلب الثواب أو العقاب
هو النيات والدواعي، لا ظواهر الأعمال.

وليس المراد أن من أراد ثواب الدنيا وحظوظها يحرم من
ثواب الآخرة وحظوظها، فإن الأدلة الشرعية دلت على أن إرادة

خير الدنيا مقصد شرعي حسن، وهل جاءت الشريعة إلا لإصلاح الدنيا والإعداد لحياة الآخرة الأبدية الكاملة.

والنص الكريم يثبت أن الدنيا لها وسائل، والنجاح فيها له أسباب توصل إلى النتائج، والآخرة لها أسباب وذرائع، وعلى ذلك لا يكون النجاح في شئون الدنيا دليلاً على القرب من الله تعالى، ولا الفشل فيها دليلاً على البعد عن الله تعالى، ذلك قول الفجار، الذين يتخذون من سطوة الكفار مع كفرهم دليلاً على أنهم أقرب إلى الله من المؤمنين، ويغفلون عن قول الله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٣٣-٣٥].

** وفيه أن الإخبار عن الشيء أو عن وقوع الشيء لا يدل على حله، فقوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} لا يدل على حلّ إرادة الإنسان الدنيا بعمله، إنما هو خبر عن أمر وقع، والحل والحرمة يؤخذ من دليل آخر من الشرع.

ومن ثم يتبين خطأ من قال: إنه لا يشترط للمرأة محرم في السفر؛ لأن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخبر (لَيْتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ) [أحمد]، لأن هذا إخبار عن الواقع وليس إقراراً له شرعاً، ألم يقل الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا شَبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ) قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: (فَمَنْ). بلى قال ذلك، فهل يعني هذا أنه يجوز أن نتبع سنن اليهود والنصارى لأن الرسول أخبر بأننا سنتبعهما؟! أبداً ... فالإخبار عن الشيء وقوعاً لا يدل على جوازه شرعاً، إنما يؤخذ جوازه أو عدم جوازه من أدلة أخرى.

{وَسَنَجْزِي} وقوله: **{نَوْتُهُ}** بالنون فيهما، وفي: **{سَنَجْزِي}** التفات، إذ هو خروج من غيبة إلى تكلم بنون العظمة. وفي تصديرها بالسين وإبهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصُر عنه البيان ما لا يخفى. **{الشَّاكِرِينَ}** وعدُّ لمن شكر نعم الله فقصر همه ونيته على طلب ثواب الآخرة. وفيه إيثار إرادة الآخرة على الدنيا.

قال ابن فورك: وفيه إشارة إلى أنهم يُنعمهم الله بنعيم الدنيا، ولا يقصرهم على نعيم الآخرة.

وشكر النعمة القيام بحققها، وأداء ما ينعم الله تعالى به من نعم في مواضعه، فإذا أُعطي فشكر العطاء بإنفاقه في مواضع الإنفاق، وإذا منح القوة فشكرها أن يجعلها لنصرة الحق وخفض الباطل، وإذا أُعطي نعمة الحكمة والفكر السليم، فيكون الشكر بتسخير ذلك لنفع العباد، وهدى الناس، وإرشادهم إلى طرق البحث وتذليل الأرض لهم، وأن يكون ما ينتجه للعمارة لا للخراب.

وهنا نجد النص لم يبين الجزاء، ولم يبين من الذين يتصفون بالشكر من طلاب الدنيا أو طلاب الآخرة، وقد ترك الجزاء من غير بيان ليعم الجزاء الدنيوي، والجزاء الأخروي، فمن طلبوا الدنيا واتخذوا أسبابها، ونصروا الضعيف، وخذلوا القوى، وعمروا الأرض ولم يفسدوها، ولم يطرحوا ما عند الله تعالى بل طلبوه، كانوا من الشاكرين. واستحقوا الجزاءين: جزاء الدنيا بأن يصلوا إلى النتائج التي قصدوها، وهي العلو في الأرض من غير طغيان، والجزاء في الآخرة عند تجلي الرحمن.

**** فائدة:** اعلم أن بين الشكر والحمد عمومًا وخصوصًا من وجهين أي أن أحدهما أعم من الآخر من وجه، فباعتبار أن الحمد يكون لكمال المحمود ولإنعام المحمود يكون أعم من الشكر، وباعتبار أن الحمد يكون باللسان يكون أخص من الشكر، والشكر باعتبار كونه متعلقًا بالقلب واللسان والجوارح أعم من الحمد وباعتبار أنه في مقابلة نعمة أخص من الحمد.

وبهذا التقرير نعرف أنه ليس بين الحمد وبين الشكر ترادف بل هما متباينان يتفقان فيما إذا حمد الله سبحانه وتعالى على نعمته كما لو أكل أو شرب فقال: "الحمد لله"، فهذا يعتبر شكرًا وحمدًا، ويختلفان فيما إذا حمد الله على كماله فهذا لا يكون هذا من باب الشكر، وإذا شكر الله بجوارحه فليس هذا من باب الحمد.

{وَكَايْنٌ} أصله: أي، دخلت كاف التشبيه عليها حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير فصارت بمعنى «كم»، وأثبت التنوين نونًا في الخط على غير قياس.

كلامٌ مبتدأ ناعٍ عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم في صدورهم عن سنن الربانيين المجاهدين في سبيل الله مع الرسل الخالين عليهم السلام. أو للاعتبار بحال الماضين الذين قاتلوا من قبل

مع الأنبياء، فما ضعفوا عندما أصابهم القرح، فكذلك أنتم ما كان يليق أن تضعفوا.

{مِنْ نَبِيٍّ قَاتِلٍ مَعَهُ} قال الحسن: ما قتل نبي في حرب قط. وقال ابن جبير: ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال.

ومن أسماء ممن قتل من الأنبياء: أرمياء قتله بنو إسرائيل، وحزقيال قتلوه أيضا لأنه وبخهم على سوء أعمالهم، وأشعيا قتلته منسا بن حزقل ملك إسرائيل لأنه وبخه ووعظه على سوء فعله فنشره بمنشار، وزكريا، ويحيى، قتلتهما بنو إسرائيل لإيمانهما بالمسيح، وقتل أهل الرس من العرب نبيهم حنظلة بن صفوان في مدة عدنان.

{رَبِّيُّونَ كَثِيرٌ} جموع كثيرة، أو علماء أتقياء أو الذين يعبدون الرب تعالى.

.. والرَّبِّيُّ المتبع لشريعة الرب، منسوبٌ إلى الرب كالرَّبَّاني، وقيل: هو منسوبٌ إلى الرِّبَّة وهي الجماعة، أي كثيرٌ من الأنبياء قاتلٌ معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه: الجماعاتُ كثيرةٌ أو العلماءُ الأتقياءُ أو العابدون المؤمنون الصادقون الإيمان الذين يقاتلون ابتغاء ما عند الرب، فهم منسوبون للرب سبحانه وتعالى لخلوصهم له، واتجاه قلوبهم إليه وحده.

{فَمَا وَهْنُوا} فما فتروا: ولم ينكسر جندهم؛ لأجل ما أصابهم من قتل بعضهم، والمراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما في قولك: "وعظته فلم يتعظ، وصححت به فلم ينزجر" أي فما فتروا وما انكسرت هممتهم.

والمقصود هنا الرييون إذ من المعلوم أن الأنبياء لا يهنون فالقدوة المقصودة هنا، هي الاقتداء بأتباع الأنبياء.

{لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} من الجراح وشهادة بعضهم.. وهو علة للمنفى ويشعر أيضا بعلته قوله تعالى: **{فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** فإن كون ذلك في سبيله - عز وجل - مما يقوي قلوبهم ويُرِيلُ وهنهم.

{وَمَا ضَعُفُوا} عن جهاد عدوهم ولا عن دينهم.

{وَمَا اسْتَكَانُوا} وما خضعوا لعدوهم، من السكون؛ لأن الخاضع يسكن لعدوه يفعل به ما يريد، والألف إشباع زائد، أي: فما سكنوا لعدوهم، بل ثبتوا على دينهم وجهاد عدوهم وصبروا له.

والوهن اضطراب نفسي، وانزعاج قلبي، فهو يبتدىء في الداخل، وإذا وصل إلى الخارج كان ضعفا وتخاذلا، وإذا أنتج الضعف نتائجه كانت الاستكانة والذل.

وقد نفى سبحانه هذه الأوصاف الثلاثة مع أن واحدا يكفي
نفيه لنفيها، لأنها متلازمة، لبيان قبح ما يقعون فيه لو سلطوا
وصفا منها على نفوسهم فاستمكن فيها.

وإذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء، وكانت النبوة هديا وتعلিما،
فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم، وأتباع الحق، أن لا
يوهنهم، ولا يضعفهم، ولا يخضعهم مقاوم، ولا أذى حاسد، أو
جاهل، وفي البخاري أن خبَّابًا قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنْ
الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ فَقَعَدَ وَهُوَ
مُحَمَّرٌ وَجْهُهُ فَقَالَ: (لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ لَيْمَشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ
مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،
وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ
عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ
إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ)

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} أي على مقاساة الشدائد ومعاناة
المكاره في سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم.

والمراد بالصابرين إما المعهودون، والإظهارُ في موضع الإضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والإشعار بعلّة الحُكم، وإما الجنسُ وهم داخلون فيه دخولاً أولاً والجملة تذييل لما قبلها. والصبر ليس هو احتمال الشدائد فقط، بل هو ألا يتضعع عند نزولها، وألا يضطرب التفكير عند اشتداد الشديدة، وأن تنفي مطامع النفس إلا ما كان منها إجابة لداعي الحق ونصرته، وأن تخلص القلوب عن شوائب الشهوات فلا تخضع لها ولا تذلل، بل تتحكم كل نفس في أهوائها، وألا يكون أنين ولا شكوى ولا ضجيج، وهذا هو الذي يسمى «الصبر الجميل»، والصبر على هذا المعنى هو أجل الصفات الإنسانية وأكملها؛ لأنه ضبط النفس، وكمال العقل، وسيطرة الحكمة وقوة الجنان، وهو يتضمن في ثنياه معنى الشكر، فهو عنصر من عناصره، ومظهر من مظاهره، وكان الجزاء أعلى جزاء، وهو المحبة من الله، ومحبة الله تعالى تتضمن رضوانه، وتتضمن ثوابه، وهي مرتبة أعلى منهما، ولا ينالها إلا الصابرون.

{وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ} قصر إضافي لرد اعتقاد من قد يتوهم أنهم قالوا أقوالاً تنبئ عن الجزع، أو الهلع، أو الشك في النصر، أو الاستسلام للكفار. وفي هذا القصر تعريض بالذين جزعوا من

ضعفاء المسلمين أو المنافقين فقال قائلهم: لو كلمنا عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان.

أي وما ثبت وتحقق لهم من قول إلا أن قالوا.. كلامٌ مبينٌ لمحاسنهم القولية معطوفٌ على ما قبله من الجمل المبيّنة لمحاسنهم الفعلية.

وهو ما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم بتقصيرهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على عدوهم.

{إِلَّا أَنْ قَالُوا} والاستثناء مفرغٌ من أعم الأشياء أي ما كان قولاً لهم عند لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال لشيءٍ من الأشياء إلا أن قالوا:

{رَبَّنَا} يعني يا ربنا، فهو منادى حذف منه ياء النداء تخفيفاً وتيمناً بالبداة باسم الله.

ونادوا الله تعالى عند الدعاء باسم الربوبية؛ لأن الربوبية هي التي فيها التصرف، وإجابة الدعاء من باب الربوبية، فتوسلوا باسم الله الذي يناسب ما يطلبون وهو إجابة الدعاء.

{اغْفِرْ} استر وتجاوز **{لَنَا ذُنُوبَنَا}** أصل مادة «الذال والنون والباء» تدور حول معان متعددة منها النصيب كما قال تعالى: **{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ}** [الذاريات: ٥٩] أي نصيباً. ومنه سمي ذنوب الماء، أي: «الدلو»؛ لأنه شيء مقدر من الماء، ويطلق الذنب على الإثم؛ لأنه نصيب العامل: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة: ٧-٨]

وقدم طلب الاستغفار على طلب تثبيت الأقدام والنصرة، ليكون طلبهم ذلك إلى الله عن زكاة وطهارة. فيكون طلبهم التثبيت بتقديم الاستغفار حرياً بالإجابة.

{وَإِسْرَافَنَا} الإسراف مجاوزة الحد، ومجاوزة الحد هي إما في غلو وإما في تقصير.. أما مجاوزة الحد في الغلو فظاهر، وأما في التقصير فلأن المطلوب من المكلف ألا يتعدى حدود الله تجاوزاً ولا يقربها أيضاً، فإذا كان الإنسان فاعلاً للمحرم فهو مسرف؛ لأنه تجاوز حد العبودية إذ مقتضى العبودية أن يكون محتجباً لما حرم الله. وإذا فرط في الواجب كان مسرفاً أيضاً فيما تقتضيه العبودية؛ لأن مقتضى العبودية أن يكون قائماً بالواجب، فالإنسان قد يسرف في الواجب وفي المحرم وفي المباح أيضاً،

كما لو أسرف في الإنفاق على نفسه وعلى أهله فإنه داخل في الإسراف.

{فِي أَمْرِنَا} المراد بالأمر هنا «الشأن» أي في شأننا، وهو مفرد مضاف فيعم جميع الأمور.

قيل: {ذنوبنا} {وإسرافنا} متقاربان من حيث المعنى، فجاء ذلك على سبيل التأكيد.

وقيل: الذنوب ما دون الكبائر من لصغائر، والإسراف الكبائر.

وقال أبو عبيدة: الذنوب هي الخطايا، وإسرافنا أي تفریطنا. والإسراف: الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي وَخَطِيئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون.

ولقد وصفهم بعد ذلك بما يدل على الثبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع.. أي أن ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردد في صدق وعد الله، ولا بدر منهم تدمير، بل علموا أن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعله كان جزاء على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}** خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم.

وقيل: أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين بُرَاءً من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لهم واستصغاراً لهممهم وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم:

{وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا} عند ملاقة الأعداء - كما هو سياق الآيات - وعند حلول الشبهات وعند ورود الشهوات، والإنسان

محتاج إلى أن يشبهه الله في مواطن القتال، إذ لو لم يشبهه الله لفر.
ومحتاج إلى أن يشبهه الله عند الشبهات، إذ لو لم يشبهه الله لزاغ
ومحتاج إلى أن يشبهه الله عند الشهوات، إذ لو لم يشبهه الله
لهلك.

دعوا بتثبيت الأقدام في مواطن الحرب ولقاء العدو كي لا
تزل. وثبوت القدم في الحرب لا يكون إلا من ثبوت صاحبها في
الدين. وكثيراً ما جاءت هذه اللفظة دائرة في الحرب ومع النصر
كقوله تعالى: **{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}** [البقرة: ٢٥٠]
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}
[محمد: ٧]

{وَانصُرْنَا} لما ذكر ما كانوا عليه من الجلد والصبر وعدم
الوهن والاستكانة للعدو، وذلك كله من الأفعال النفسانية التي
يظهر أثرها على الجوارح، ذكر ما كانوا عليه من الإنابة
والاستغفار والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء، وحصر قولهم في
ذلك القول، فلم يكن لهم ملجأ ولا مفرع إلا إلى الله تعالى، ولا
قول إلا هذا القول.

فنفى الله تعالى عنهم كل قول إلا الاستغفار وطلب النصر، فلم تكن منهم صيحات الفرع والاضطراب، ولا صيحات الأخذ من الأسلاب والغنائم، إنما قولهم هو في علاج نفوسهم والطب لأدوائها، وطلب النصر من ربهم على أعداء الحق الكافرين به، وتلك غاية الغايات عندهم.

{عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} تقريباً له إلى حيز القبول، فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة، والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدين. وفيه من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى.

قال ابن القيم: "لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد. وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}**. ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى، وإن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدرُوا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يشبوا ولم ينتصروا. فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضى، وهو

التوحيد، والالتجاء إليه سبحانه. ومقام إزالة المانع من النصر، وهو الذنوب والإسراف". أه

قال القاضي: وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن، سواء كان في الجهاد أو غيره.

{فَاتَاهُمُ اللَّهُ} بسبب دعائهم ذلك **{ثَوَابِ الدُّنْيَا}** من النصر والغنيمة، وقهر العدو، والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان، وكفارة السيئات.

قال الزمخشري: ثواب الدنيا من النصر والغنيمة والعز وطيب الذكر.

وقال النقاش: ليس إلا الظفر والغلبة، لأن الغنيمة لم تحل إلا لهذه الأمة.

وهذا صحيح ثبت في الحديث الصحيح: (وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي) [مسلم]

{وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ} لما تقدم في دعائهم ما يتضمن الإجابة فيه الثوابين وهو قولهم: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}**، فهذا يتضمن ثواب الآخرة **{وَوَثِّبْتَ أقدامنا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}** يتضمن ثواب الدنيا، أخبر تعالى أنه منحهم الثوابين.

وهناك بدأوا في الطلب بالأهم عندهم، وهو ما ينشأ عنه ثواب الآخرة، وهنا أخبر بما أعطاهم مقدماً.

ذكر ثواب الدنيا ليكون ذلك إشعاراً لهم بقبول دعائهم وإجابتهم إلى طلبهم، ولأن ذلك في الزمان متقدم على ثواب الآخرة.

وحسن ثواب الآخرة: الجنة بلا خلاف. قاله ابن عطية. وقيل: الأجر والمغفرة.

وخص ثواب الآخرة بالحسن للإيذان بفضله ومزيته، وأنه المعتمد به عنده تعالى، بخلاف الدنيا؛ لقلتها وامتناعها بالمضار، وكونها منقطعة زائلة: {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [الأنفال: ٦٧] وترغيباً في طلب ما يحصله من العمل الصالح ومناسبة لآخر الآية.

وقيل: ووصف ثواب الآخرة بالحسن؛ لأنه الثواب الذي لا يعكره معكر، ولا تكليف فيه، ولا مشقة تحتمل في سبيله، فهو حسن بإطلاق، وأما ثواب الدنيا فحسنه إضافي إذ فيه تكاليفات ومشقات، إذ الدنيا قد اختلط حلوها بمرها، وسراؤها بضرائها، وشقاؤها براحتها، ولذلك كان ثوابها غير حسن إلا حسناً إضافياً نسبياً، أما ثواب الآخرة فحسن باستمرار وإطلاق.

قال علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "من عمل لدنياه أُضِرَّ بآخرته، ومن عمل لآخرته أُضِرَّ بدنياه، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام".

****** وفيه أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ فهو يشيب الطائع بثوابين ثواب في الدنيا وثواب في الآخرة، بخلاف العقوبة فإن الله تعالى لا يجمع بين عقوبتين، فإذا شرع عقوبة في الدنيا على ذنب فإنه لا يعاقب به في الآخرة، لأن «الحدود كفارة لأهلها» والحدود هي العقوبات كحد الزنا والسرقه إنها كفارة لأصحابها، وقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للمتلاعنين: (عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ) [الترمذي: صحيح]، بل إن الله تعالى قال: **{وَمَا أَصَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ}** [الشورى: ٣٠]، فلن يجمع الله للإنسان عقوبتين على معصية، عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة، لكن يجمع بين ثوابين في الطاعة ثواباً في الدنيا وثواباً في الآخرة؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه.

فإن قال قائل: في بعض الآيات رتب الله عز وجل على بعض الأعمال - مثل من حارب الله عز وجل أو سعى في الأرض فساداً - عذابين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: **{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ**

يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ
ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {
[المائدة: ٣٣]

فالجواب: صحيح أن هذا الخزي ينالهم في الدنيا، ولكن
لعل هذا لعظم أفعالهم صار لهم الحد في الدنيا، والعذاب في
الآخرة، وإلا فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: (وَمَنْ أَصَابَ مِنْ
ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ
شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ)
ولقوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَن كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] وأن الله لا يجمع للإنسان عقوبتين
على المعصية. وقد يقال: لشدة جرمهم وذنوبهم يجمع لهم بين
هذا وهذا.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ} كل {الْمُحْسِنِينَ} في عبادة الله والمحسنين
إلى عباد الله.

تذييلٌ مقررٌ لمضمون ما قبله، فإن محبة الله تعالى للعبد
عبارة عن رضاه عنه وإرادة الخير به، فهي مبدأ لكل سعادة.
واللام إما للعهد، وإنما وُضع المظهر موضع ضمير
المعهودين للإشعار بأن ما حُكي عنهم من الأفعال والأقوال من

باب الإحسان، وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً وهذا أنسبُ بمقام ترغيب المؤمنين في تحصيل ما حُكي عنهم من المناقب الجليلة.

والله تعالى وصف المؤمنين بثلاث صفات، وكل واحدة منها قد استحقت جزاء، فالوصف الأول أنهم شاكرون، فقال: **{وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}**؛ لأن الشكر أول أبواب الطاعة، والرغبة في الفداء؛ إذ هو الإحساس بحق المنعم فيما أنعم به.

والوصف الثاني: الصبر؛ لأن الإيمان الذي هو أول ثمرات الشكر يقتضي ضبط النفس عن أهوائها ومنع الاضطراب في الصدمات والرضا بكل شديدة من غير أنين، والصابرون يحبهم الله عز وجل.

والوصف الثالث: الإحسان، وهو نتيجة للصبر، وهو أن تكون النفس كلها لله، تراقبه في كل عمل تعمله، وكل قول تقوله، وكأنها ترى الله، وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [البخاري ومسلم] وبذلك يكون ممن يحبهم الله

قال الرازي: فيه دققة لطيفة، وهي أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا..}** { الآية - سماهم

الله محسنين، كأن الله تعالى يقول لهم: إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسي حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ
خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه ولإظهار
الاعتناء بما في حيّزه.

ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار
مباينتها لحال أعدائهم.

وفيه أيضاً من الإغراء والتشجيع على قبول ما يلقي؛ لأن
الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على قبول ما أمره الله به، وعلى
ترك ما نهى الله عنه. وأن قبول المذكور من مقتضيات الإيمان،
وعدم قبوله نقص في الإيمان.

{إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا} الذين جحدوا ألوهيتي، ولم يؤمنوا برسلي من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين والملاحدة. والوصف بالكفر قصداً إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم.

وفي آية أخرى سبقت: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ}** [آل عمران: ١٠٠]، لكن هنا قال: **{الَّذِينَ كَفَرُوا}** لأن الذين أوتوا الكتاب بعضهم فيه خير، كما قال تعالى: **{لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}** [آل عمران: ١١٣]. أما الكفار فكلهم على ضلال يريدون منا أن نكفر، وأن ننقلب على أعقابنا خاسرين.. وهذا من بلاغة القرآن.

قال علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب، فرجع إلى مكة، فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ). [رواه ابن أبي حاتم].

وقال ابن جريج والحسن: هم اليهود والنصارى.

وفيه بيان أنه لا يليق بهم بوصف كونهم مؤمنين أن يطيعوا الذين كفروا؛ فإن الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان، ولا يكونان في قلب رجل واحد.

ولقد أشار سبحانه إلى بعد احتمال أن يطيع المؤمنون الكافرين بالتعبير في أداة الشرط بـ (إن) دون (إذا)؛ إذ إن: (إذا) للتحقق أي تحقق الشرط، وتحقق الجزاء، أما (إن) فإنها لا تفيد تحقق الشرط، وبالتالي لا يتحقق الجزاء.

والمعنى في هذا هو التحذير من مسايرة الكافرين بأي نوع من أنواع المسايرة؛ إذ كل مسايرة طاعة، ولا يليق بالمؤمن أن يطيع كافراً؛ لأنه يجب أن يكون في حذر دائم، وإنه لو فرض وأطاعوهم فإنهم يرتدون على أعقابهم خاسرين.

وقال أبو بكر الرّازي: "فيها دلالة على النهي عن طاعة الكفار مطلقاً، لكن أجمع المسلمون على أنه لا يندرج تحته من وثقنا بنصحه منهم، كالجاسوس والخريّت الذي يهدي إلى الطريق، وصاحب الرأي ذي المصلحة الظاهرة، والزوجة تشير بصواب".

وقال ابن عثيمين: "وقوله: **{إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا}** أي فيما يتعبد به الله، أما في المسائل الأخرى كمسائل الصناعة مثلاً فإنه لا يدخل في الآية بلا شك، فلو أن مهندساً من الكفار أمر أن تصنع كذا لتكون النتيجة كذا فإنه لا يدخل في الآية، إنما يقصد به ما يكون على سبيل التعبد كأن يأمر بالفحشاء مثل شرب الخمر والسرقة وسوء الأخلاق، أو ينهاك عن المعروف.. ينهاك عن الصلاة، أو ينهاك عن الإخلاص لله وما أشبه ذلك.

{يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ} جمع عقب، وهو مؤخرة القدم، ويقال له: العرقوب.. يعني: يجعلونكم تمشون إلى الخلف، ومعلوم أن الذي يمشي إلى الخلف سوف يقع في الحفر ويطأ الشوك والحصى.

والمعنى: يضلوكم عن طريق الحق، وترتدوا عن دينكم، فيردوكم إلى الكفر بعد الإيمان، والارتداد على عقب علم في انتكاس الأمر، ومثلاً في الحور بعد الكور.

{فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ} في الدنيا والآخرة، غير فائزين بشيء منهما.

أما خسران الدنيا فلأن أشق الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد إلى العدو، وإظهار الحاجة إليه.

وأما خُسْران الآخرة فالحرمان من الثواب المؤبّد، والوقوع في العقاب المخلّد.

{بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ} إضرابٌ لإبطال ما تضمنه ما قبله عما يفهم من مضمون الشرطية، كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصرُكم لا غيره فأطيعوه واستغنوا به عن موالاتهم.

وهو إضراب انتقالي؛ إذ هو انتقال من الكلام في موالة الكافرين، وما يترتب عليها من نكوص على الأعقاب، واضطراب بين الحق والباطل، واستكانة وذلة وخسران مبين، إلى الكلام فيما هو سبب العزة والرفعة والكرامة والقوة والسؤدد والنصر المؤزر الثابت، وهو موالة الله تعالى.

{بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ} أي أن الله الخالق لكل ما في الوجود، والذي بيده مقاليد كل شيء، والمسيطر القوي الجبار القاهر فوق عباده.. هو مولاكم، فعليكم أن تطلبوا ولايته، ومن اعتصم به فقد آوى إلى ركن ركين، وحصن حصين.

وذكر هذا الأمر بصيغة الخبر للإشارة إلى أن المؤمن بمقتضى كونه مؤمناً هو في ولاية الله تعالى فلا يخرج عنها. وهذه «ولاية خاصة»؛ لأن ولاية الله للخلق نوعان:

ولاية عامة لكل أحد، وهذه معناها تولى الأمور سواء بنصر أو بخذلان أو غير ذلك، ومنه قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦١-٦٢]

أما الولاية الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧] {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٦٨]

فهو -عز وجل- ولي المتقين، فالولاية هذه خاصة، ومعناها أو مقتضاها أن الله سبحانه وتعالى يتولى هذا الذي استحقها باللفظ والعناية ويوفقه.

ويفسر هذا حديث أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: (قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا

فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ
[البخاري] يعني أن الله يسدده في جميع تصرفاته.

وولاية الله تعالى تقتضي أن يكون في ولاية المؤمنين، لا يخرج عن جماعتهم ولا يسلك غير سبيلهم، ولا يطيع أعداءهم، أو يمالئهم، أو يسايرهم، فإن ذلك يكون محادة لله ولرسوله ومشاقة لله ولرسوله، والله تعالى يقول: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. . } [المجادلة: ٢٢]، ويقول سبحانه جلت حكمته: { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء: ١١٥].

فالمولى هنا هو النصير، وإذا كان الله ناصره، فإنه لا محالة غالب، فهو نعم المولى ونعم النصير. والمولى لا تدل على النصره فقط، بل تدل على كمال الصلة والمحبة والقرب، والنصرة تجيء لازمة لهذه المعاني.

{وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} فالنصر لا يخلو من مدحة لأن فيه ظهور الشجاعة وإباء الضيم والنجدة، وهو عز وجل خير الناصرين لوجوه :

أولها: أنه تعالى هو القادرُ على نصرتك في كلِّ ما تريدُ،
والعالم الذي لا يَخْفَى عليه دعاؤك وتضرُّعك، والكريم الذي لا
يبخل في جوده.. ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك في
كل هذه الوجوه.

ثانيها: أنه ينصرك في الدُّنيا والآخرة، وغيره ليس كذلك..
وإن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، فلا تظنوا أن الخلاف الذي
يقع بين أهل الحق وأهل الباطل ينتهي بالدنيا.. كلا، سوف
يحكم الله بينهم يوم القيامة وينصر أهل الحق، قال تعالى: {لَن
تَنفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ}
[المتحنة: ٣]، {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨] {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١-٣٠]، {إِنَّا لَنَنصُرُ
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}
[غافر: ٥١].. إذن إذا حكم الله لأهل الحق على أهل الباطل
يوم القيامة فهذا نصر.

ثالثها: أنه ينصرك قبل سُؤالك ومعرفتك بالحاجة، كما قال:
{قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [الأنبياء: ٤٢] وغيره ليس
كذلك.

رابعها: ينصركم نصرا خيراً من نصرهم لو نصروكم، وكيف لا يكون خير الناصرين وهو ينصركم بغير قتال كالرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليكم والإقدام على حرمكم كما في الآية التالية.

أي أن الله تعالى هو الذي ينصر المؤمنين، ونصره هو المؤكد المحتوم الباقي، وهو نصر مالك القوى كلها، والمسيطر على العالم بكل ما فيه ومن فيه وما تجري به الأسباب، وما ارتبطت به شؤون الناس والكون.

ولذلك كان نصره خير نصر، إذ هو أدومه وأقواه، وما عند الناس من نصر فهو ظاهري، ولا يتحقق إلا بأسباب قدّرها، فهو المسيطر المرید لكل ما يقع في الكون.

ونصر الله تعالى معه العزة، ونصر الناس معه الذلة، فمن استنصر بالله عز، ومن استنصر بالناس ذل، وهذا على أن «خير» وهي من أفعال التفضيل على بابه، وقيل: إن أفعال التفضيل هنا على غير بابه، وأن المعنى أنه لا ناصر إلا الله، ولا ناصر سواه، فنصره هو النصر، ونصر غيره ليس بنصر.

واعلم أن ظاهر قوله: **{وَهُوَ خَيْرُ الناصرين}** يقتضي أن يكون من جنس سائر الناصرين، وهو منزّه، عن ذلك، وإنما ورد الكلام

على حسب تعارفهم، كقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]

وفي هذا دلالة على أن من قاتل لنصر دين الله لا يخذل ولا يغلب لأن الله مولاة.

ومع أن الخطاب ابتداء لهؤلاء له وجه عام، وهو نداء المؤمنين في كل الأجيال وفي كل الأحوال بألا يسايروا الكافرين، رجاء نصر، أو تحقق نفع، وألا يمالئوهم بأي نوع من أنواع الممالة، فإن الكافرين في كل العصور لا يريدون بالمؤمنين إلا خبالا، ولا يرجون لهم إلا أن يكونوا قوما بورا.

فالآية الكريمة تحذر المؤمنين تحذيرا عاما بألا يطيعوا الكافرين، ولا يستنصروا بهم، ولا يجعلوا لهم ولاية عليهم، لأن ولايتهم غير ولاية الله، وولاية الله هي الولاية الحق، وهم موضع غضب الله تعالى دائما، والذي يتولاهاهم ويستنصر بهم، فإنما يتولى قوما غضب الله عليهم، والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُوءُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [المتحنة: ١٣].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة إطاعة الكافرين في أي عصر من العصور إن كان هناك احتمال لذلك.

فذكر في جواب الشرط نتيجتين، كلتاهما مترتبة على الأخرى، أولاهما: أشار إليها بقوله سبحانه: **{يَرُدُّوَكُمْ عَلَىٰ** **أَعْقَابِكُمْ}**، والثانية المترتبة عليها: أشار إليها بقوله عز من قائل: **{فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ}**.

فالنتيجة الأولى، وهي ردهم على أعقابهم، معناها أن يرجعوا إلى موضع الذلة الذي كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه في غير انتظام وفي اضطراب، والمضطرب دائما لا يملك زمام نفسه، والأعقاب جمع عقب، وهو مؤخر القدم، والتعبير بـ: **{يَرُدُّوَكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ}**، فيه إشارات إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن هذا مطلب للكافرين، فإن أطعموهم فقد حققتم لهم مقصدهم، وهو أن يردوكم، ولذا أسند الرد إليهم، ولم يقل ارتددتم.

وثانيها: أن طاعتهم التي يترتب عليها ما ذكره سبحانه هي أقصى الهزيمة وهي الكبوة التي لا قيام بعدها، ولذلك عبر عن هذا بالرجوع على الأعقاب، فهو رجعة إلى الوراء وليس وثبة إلى الأمام.

ثالثها: أن زمام المؤمنين يكون نهائيا بأيدي الكافرين إذا أطاعوهم، وهذا هو ما آل إليه أمر المسلمين في العصور الأخيرة، وفي هذا تذكرة لمن يخشى.

والنتيجة الثانية هي الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب في قوله سبحانه: **{فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ}** يفيد أن إطاعة الكافرين يكون حتما فيها تغيير حال أهل الإيمان، ولكنه تغيير هو انقلاب، وجعل أعلى ما فيهم أسفل، فهو نكسة تصيبهم، ويعز عليهم من بعد أن يعودوا مستقيمين يضعون أعلى ما فيهم وهو الإيمان في موضعه، وإن ذلك الانقلاب تلابسه لا محالة الخسارة المؤكدة التي لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: **{خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}** [الحج: ١١]

وإن أولئك الذين يستخذون للكافرين ويسايرونهم، بل يطيعونهم وينقلون من العزة والكرامة إلى الذلة والمهانة ويعتقدون القوة في الكافرين فيعطونهم الولاية.. ينسون الله تعالى وولايته، ولذلك قال سبحانه مطمئنا المؤمنين الصادقين الذين لا يرضون بولاية الكافرين: **{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}**

{سَنُلْقِي} سنقذف.. بنون العظمة على طريقة الالتفات من الغيبة، في قوله: **{وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}** جرياً على سنن الكبرياء لتقوية المهابة.

قال ابن عثيمين: "وعبر عن نفسه تعالى بفعل يقتضي الجمع مريداً بذلك التعظيم (أي سنلقي نحن)، ولا يمكن أن يراد به إلا ذلك؛ لأن الله واحد ليس متعددًا، فلا يمكن أن يكون معه أحد بخلاف غيره، فإنك إذا قلت لشخص: سنأتيك يحتمل أنك أردت التعظيم، ويحتمل أنك أردت الجمع، أما بالنسبة لله عز وجل فلا يمكن أن يراد الجمع الذي هو التعدد وإنما يراد به التعظيم.

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة الأنفال: **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ}** [الأنفال: ١٢]، فالله سبحانه وتعالى هو الملقى لكنه يذكر نفسه تعالى أحياناً بصيغة الإفراد لأنه واحد، وأحياناً بصيغة الجمع لأنه عظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ويحتمل أنه يذكر نفسه بصيغة الجمع لما له من الجنود العظيمة التي لا يعلمها إلا هو، فيكون

هذا إشارة إلى أنه ذو عظمة وسلطان وجنود تفعل ما يأمر به جل وعلا".

والسين تدخل على الفعل المضارع وتفيد أمرين: القرب، والتحقيق.. وهي تفيد القرب من وجه وتفيد التحقيق من وجه آخر، بخلاف «سوف» فإنها تفيد التحقيق وتفيد الإمهال، ولهذا تكون «سوف» للتسويق والسين للتنفيس أي القرب.

والإلقاء حقيقته: رمي شيء على الأرض {فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ} [الشعراء: ٤٤]، أو في الماء {فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ} [القصص: ٧] ويطلق على الإفضاء بالكلام: {يُلْقُونَ السَّمْعَ} [الشعراء: ٢٢٣] وعلى حصول الشيء في النفس كأن ملقيا ألقاه أي من غير سبق تهيو {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ} [المائدة: ٦٤] وهو هنا مجاز في الجعل والتكوين كقوله: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [الأحزاب: ٢٦].

{فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا} قدم المجرور على المفعول به؛ اهتماماً بذكر المحلّ قبل ذكر الحال.

{الرُّعْبَ} أشد الخوف.. وأصله من الملاء مع الاضطراب، يقال سيل راعب، يملأ الوادي ويضطرب به، ورعبت الحوض ملأته، والمعنى: سنملأ قلوب المشركين خوفاً وفزعاً.

ومن حكمته تعالى أن رتب على الأمور الخبيثة آثار خبيثة، فإن الشرك لما كان اعتقاد تأثير ممن لا تأثير له، وكان ذلك الاعتقاد يركز في نفوس معتقديه على غير دليل، كان من شأن معتقده أن يكون مضطرب النفس، متحيراً في العاقبة في تغلب بعض الآلهة على بعض، فيكون لكل قوم صنم هم أخص به، وهو في تلك الحالة يعتقدون أن ليس لغيره من الأصنام مثل ما له من القدرة والغيرة. فلا تزال آلهتهم في مغالبة ومنافرة. كما لا يزال أتباعهم كذلك، والذين حالهم كما وصفنا لا يستقر لهم قرار في الثقة بالنصر في حروبهم، إذ هم لا يدرون هل الربح مع آلهتهم أم مع أضدادها.

وإنما يذكر الله عز وجل أنه يلقي الرعب في القلب؛ لأن القلب إذا دخله الرعب فإنه لا يمكن أن يثبت البدن، ولو ثبت البدن أو حاول الإنسان الثبات فإن قلبه من شدة الرعب سوف يحمله عن الأرض حملاً ويفر ولا يمكن أن يبقى، فالرعب أقوى سلاح يكون على العدو، فإذا ألقى الله الرعب في قلوب العدو؛ فإنه لن يبقى.

وهذا من تمام ما تقدم من وجوه الترغيب في الجهاد وعدم المبالاة بالكفار.

قيل: هذا الوعدُ مخصوصٌ بيومٍ أُحد؛ لأن الآياتِ المتقدمة إنما وردت في هذه الواقعة. وأن الكفار لما ذهبوا متوجهين إلى مكة -وكانوا في بعض الطريق- ندموا، وقالوا: ما صنعنا شيئاً، قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا الشديد، ثم تركناهم ونحن قاهرون، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكُلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرُّعبَ في قلوبهم.

وقيل: إنَّ هذا الوعد غير مختصَّ بيومٍ أُحد، بل هو عام. قال القفال: كأنه قيل: إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يومٍ أُحدٍ، إلا أنَّ الله تعالى سيُلقي الرُّعبَ منكم بعد ذلك في قلوب الكُفار حتى يقهر الكفار، ويُظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل. ونظير هذه الآية قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ). [البخاري].

فهل هذه سنة أهل الإيمان مع المشركين وأشباههم دائماً؟ والجواب عن ذلك: أنه شأن المؤمنين حقاً وصدقاً إذا لم يضعفوا ولم يذلوا، ولم يوالوا أعداء المؤمنين على المؤمنين، بل يأخذون الأهبة، ويغلبون الهدى على الضلال، ويجعلون الله مولاهم.

فإذا رأينا الحال قد تغيرت، فليس ذلك لتغير سنة الله في خلقه، ووعدته لأنبيائه والصديقين معهم، بل لتغير حال المؤمنين، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١]

ولقد تنبأ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بما آل إليه المسلمون، وبين أن ذلك سببه الوهن الذي يتولد عن حب الدنيا، وكراهية الموت، وإنه عندما تصاب القلوب بهذه الإصابة ذكر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن الله ينزع من قلوب أعدائهم المهابة منهم.

روى أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا)، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: (حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ).

فإذا كنا نرى المؤمنين قد أُلقي في قلوبهم الرعب بدل الكافرين، فليس في هذا مخالفة لوعده الله؛ لأن بعض المسلمين

في هذه الأيام وَالْوَا الكافرين على المؤمنين، وذُلُّوا تحت ولايتهم واستخذوا لهم واستَعْدُوهم على أهل الإسلام، فنزع الله المهابة من أهل الإيمان، فكان ما كان، وشرط إلقاء الرعب في قلوب الكافرين ألا نطيعهم، فقد وقعنا إذن في المنهي عنه في قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ كَفَتَنَقَلِبُوا خَاسِرِينَ }**.

ولقد أطعناهم وواليناهم دون المؤمنين، ولم نتخذ الله مولى لنا، فخسرنا خسرانا مبينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله. **{ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ }** بسبب إشراكهم بالله آلهة مزعومة فإنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم.

والسببية التي أشار إليها سبحانه وتعالى في قوله: **{ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ }** لها توجيهان:

أحدهما: أن الله تعالى يلقي الرعب في قلوبهم لأنهم عاندوا الله سبحانه، وحادوه، وأشركوا معه في العبادة، ولأنهم ينشرون بهذا التفكير الفاسد الشر والفساد في الأرض، والله تعالى لا يحب الفساد، وهو ينصر الخير على الشر، والصلاح على الفساد، فالسببية هي إرادة الله تعالى التي بها قوام كل معوج وصلاح كل فاسد.

وثانيهما: أن السبب في إلقاء الرعب من حالهم هم، ذلك لأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، ولا تقوم عندهم حجة ولا شبه حجة على صلاحية ما يعبدون للعبادة، ويكون الوهم هو الذي سيطر، والهوى هو الذي تحكم، ومن تتحكم فيه أهواؤه وأوهامه يكون مضطرب النفس منزلزل القلب تزعجه الكوارث، ويضطرب عند نزول أي حادث، فكان الشرك وتحكمه في النفس هو السبب في الرعب والخوف والفرع، إذ هم يخافون من غير مخوف، ويفزعون في غير مفزع.

وقال في البحر المحيط: لأنهم يكرهون الموت ويؤثرون الحياة، إذ لم تتعلق آمالهم بالآخرة ولا بثواب فيها ولا عقاب، فصار اعتقادهم ذلك مؤثراً في الرغبة في الحياة الدنيا كما قالوا: {إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [المؤمنون: ٣٧]

** وفيه: أنه إذا كان الرعب يلقي في قلوب الذين كفروا لإشراكهم، فإن الأمن يلقي في قلوب الذين آمنوا لتوحيدهم؛ لأن ما ثبت للشيء ثبت ضده لضده، فإذا ثبت الرعب للكفار بسبب إشراكهم ثبت الأمن للمؤمنين بتوحيدهم، ويدل لهذا قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

مُهِتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، والظلم هو الشرك كما فسرهُ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لما نزلت هذه الآية. قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: (لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ **{لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}** بِشِرْكِ أَوْلَمَ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ **{يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [لقمان: ١٣])

فكلما كان الإنسان أشد إيماناً بالله وأشد توحيداً له كان أشد أمناً واستقراراً، وهذا شيء مجرب؛ لأنه من كان أشد إيماناً بالله وأشد توحيداً لله كان أقوى توكلًا عليه، ومن أقوى أسباب الأمن ومصابرة الأعداء التوكل على الله عز وجل حتى إن من الناس من يقوم توكله على الله مقام الدواء في الشفاء، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو واقع.

فبعض الناس يكون عنده قوة توكل على الله ويشفى بدون علاج بسبب قوة توكله على الله، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حينما ذكر أن الدواء بالمحرم ليس ضرورياً، حتى يقال: إن الدواء بالمحرم جائز للضرورة، قال: هذا ليس للضرورة؛ لأن المريض قد يشفى بدواء آخر وقد يشفى بالقراءة، قال: وقد يشفى بقوة التوكل على الله.

{ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ } أي بإشراكه، ونفي تنزيله وأريد نفي وجوده، وكان نفي تنزيل السلطان على الإشراف كناية عن نفي السلطان نفسه.

{ سُلْطَانًا } حجة وبياناً وعذراً وبرهاناً على استحقاقها للعبادة مع الله.

والسلطان هو ما كان له سلطة لأنه يتسلط على النفس، فالدليل يسمى سلطاناً، والأمير على القوم يسمى سلطاناً، وولاية الرجل على أهله سلطان، وهكذا كل من كانت له سلطة فإنه يسمى سلطاناً.

وأصل السلطان القوة، فإنه يقهر بها كما يقهر بالسلطان، وقد يكون السلطان بمعنى القدرة على الشيء مثل قوله تعالى: **{ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ }** [الرحمن: ٣٣] أي بقدرة، ولا قدرة لكم على نفوذ أقطار السموات والأرض. والسلطة المرأة الصخابة. والسلط الرجل الفصيح اللسان.

فقيد «السلطان» هنا لبيان الواقع وليس للاحتراز، أي أن واقع هؤلاء الشركاء أنه لا سلطان لشركهم ولا دليل، وليس المعنى أنهم يشركون ما لم ينزل به سلطاناً ولو أشركوا ما نزل به

سلطان لكانوا على صواب.. لا؛ لأنه لا يمكن أن يأتي سلطان –
أي حجة– على أن الله له شركاء.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من ذكره هذا الوصف الذي يبين
الواقع؟

قلنا: الفائدة في ذلك إقامة الحجة على أنه ليس لهم دليل
في إشراكهم به؛ لأنهم بنوا على غير سلطان وعلى غير حجة، إذا
كان كذلك فالغرض من هذا «التنفير» عن هذا الإشراك.

عكس ذلك أن يأتي وصف لبيان الواقع من أجل «الحث
والإغراء» على لزوم الحكم كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤]
فإن الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لا يدعو الخلق إلى ما
يميتهم، وإنما يدعوهم إلى ما يحييهم.. فالقيد إذن لبيان الواقع
ولكن جيء به للحث والإغراء على إجابة دعوته، كما أن القيد
الذي في الآية هذه {مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا} لبيان بطلان هذا
الإشراك وأنه ليس له دليل.

** وفيه إيذان بأن المتَّبِع في الباب هو البرهان السماويُّ
دون الآراء والأهواء الباطلة.

فحالتهم في الدنيا: رعب وهلع من المؤمنين. **{وَمَاوَاهُمْ النَّارُ}** في الآخرة... والنار هي الدار التي أعدها الله -عز وجل- لأعدائه يعذبهم بها، وهي موجودة الآن عرضت على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في صلاة الكسوف حتى إنه تأخر مخافة أن يصيبه من وهجها عليه الصلاة والسلام، ورأى فيها من يعذب. وقال: (مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِئَءَ بِالنَّارِ، وَذَلِكَمُ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا) [مسلم]

{وَبِئْسَ مَثْوًى} والمثوى: مَفْعَل، من ثَوَيْتُ أي: أقمت، وقدم المأوى [وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان] على المَثْوَى [وهو مكان الإقامة] لأن الترتيب الوجودي أن يأوي، ثم يئوي، ولا يلزم المأوى الإقامة، بخلاف عكسه. وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوعٌ رمزٍ إلى خلودهم فيها.

{الظَّالِمِينَ} وصف الظلم للتغليظ والتعليل والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه. وقد جعل سبحانه وتعالى الاسم في موضع الإضمار، فلم يقل تعالت كلماته: وبئس النار مثواهم، بل قال: **{وَبِئْسَ مَثْوًى}**

الظَّالِمِينَ { للإشارة إلى أن هذا المآل جزاء وفاقا لظلمهم فهو عقاب يستحقونه بسبب الظلم؛ إذ قد ظلموا أنفسهم فأضلوا وصدوها عن الحق وسبيله بسبب الغواية التي ارتضوها، وظلموا الحق فصدوا الناس عنه، وظلموا المؤمنين وحاولوا أن يفتنهم عن دينهم واعتدوا عليهم وعثوا في الأرض مفسدين، وخضبوها بالدماء البريئة، فكان ما لقوه من هزيمة ورعب وخسران في الدنيا بعض الجزاء، والجزاء الأوفى في الآخرة.

وصدق الله -عز وجل- فإن أبأس دار وأقبح دار وأخبث دار هي النار، ولهذا استحققت هذا الوصف من الله عز وجل.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

{وَلَقَدْ} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر؛ لأن التقدير: (والله لقد)، والثاني: «اللام». والثالث: «قد» التي تفيد التحقيق.

وهذا التأكيد لأنه قد يتبادر من كون الهزيمة في آخر الأمر بأحد على المسلمين أن الله لم يصدقهم وعده، فأكد ذلك بأن النصر كان ابتداء وفق وعد الله تعالى.

{صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ} صدقكم في وعده، كقولهم: صدقته الحديث وصدقته في الحديث.

أي أنجزكم ما وعدكم على لسان رسوله بقوله للرماة: (اثبتوا أماكنكم فإننا لا نزال غاليين ما ثبتم مكانكم).

وقيل الوعد في قوله تعالى: **{وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ}** [آل عمران: ١٢٠].

وقيل: بين وضع هذا الصدق بقوله:

{إِذْ تَحْسُونَهُمْ} تقتلونهم قتلاً كثيراً فاشياً وتستأصلونهم.. وأصله من الحس الذي هو الإدراك بالحاسة، فمعنى حسه أذهب حسه بالقتل.

وصيغ الفعل بصيغة المضارع ليصير الماضي كأنه حاضر، وهذا ما يعبر عنه النحويون بـ «حكاية الحال»، حكاية الحال للماضي كأنها الآن واقعة من أجل أن يكون ذلك أقرب لحضورها في الذهن.

**** وفيه: شدة عزيمة الصحابة -رضي الله عنهم- في طلب العدو؛ لأنه قال: {إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ} والحس: القتل أو أشده كأنه يسمع له صوت عند القتل.**

وكان لعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب والزبير وأبي دجانة وعاصم بن أبي الأفلح بلاء عظيم في ذلك اليوم، وهو مذكور في السير.

وكان المشركون في ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس، والمسلمون في سبعمائة رجل، وقتل من المشركين اثنين وعشرين رجلاً.

وهكذا ينبغي للمسلمين أن يأتوا أعداءهم الحربيين على شدة وغلظة، كما قال الله تعالى: **{وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ}** [النساء: ١٠٤] يعني: لا تضعفوا في طلبهم.

{بِإِذْنِهِ} يا ذنه لكم في قتالهم، وبإعانته لكم على ذلك. وقيل: بقضائه وأمره.. ومعنى الإذن هنا يتضمن معنى التأيد والتقوية والتشيت.

وقيل: بإذن الله الكوني والشرعي.. بإذنه الكوني لأنه قد وقع، وكل شيء قد وقع فإن الله قد أذن به كوناً.. وبإذنه الشرعي لأن الله تعالى قد شرع لنا أن نقاتل الكفار فيكون قتلنا لهم

مأذوناً فيه شرعاً، ففي هذه الآية اجتمع الإذنان: الكوني والشرعي.

{حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} ضعفتم، وقيل: جبنتم عن القتال، وليس بصحيح؛ لقوله تعالى: **{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا}** [الأنفال: ٤٦] أي: فتضعفوا، ولا يليق أن يكون المعنى فتجبنوا.

وقيل: ضَعُفَ رأيكم أو ملتم إلى الغيمة، فإن الحرص من ضعف القلب.

{وَتَنَازَعْتُمْ} المنازعة: المخاصمة والاختلاف.. يريد تنازع الرماة مع قائدهم عبد الله بن جبير حيث نهاهم عن ترك مقاعدهم وذكرهم بأمر رسول الله فنازعوه في فهمه وخالفوا الأمر ونزلوا، وكان ذلك بعد أن رأوا إخوانهم قد انتصروا وأعداءهم قد انهزموا.

{فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ} أي: وعصيتم الرسول لكن لم يذكر المفعول به كراهة لذكره حيث إنه يكون أشد وقعاً وتوبيخاً، وكأن الله عز وجل أراد أن يوبخهم بطريق لين.

وقدم ذِكْرَ الفشل على التنازع والمعصية لأن القوم لما رأوا هزيمة الكفار، وطمعوا في الغيمة، فشلوا في أنفسهم عن

الثبات، طمعاً في الغنيمة، ثم تنازعوا - بطريق القول: هل نذهب لطلب الغنيمة، أم لا؟ ثم اشتغلوا بطلب الغنيمة.

وكانت تلك المخالفة عن اجتهاد لا عن استخفاف. وإنما سميت هنا عصياناً لأن المقام ليس مقام اجتهاد، فإن شأن الحرب الطاعنة للقائد من دون تأويل، أو لأن التأويل كان بعيداً فلم يعذروا فيه، أو لأنه كان تأويلاً لإرضاء حب المال، فلم يكن مكافئاً لدليل وجوب طاعة الرسول.

{مَنْ بَعْدَ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تُحِبُّونَ} من الظفر والغنيمة وانهزام العدو.. وذلك أنه كان الظفر ابتداء للمسلمين حيث قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء، وانتشر أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصاروا كتائب متفرقة فحاسوا العدو ضرباً حتى أجهضوهم عن أثقالهم. وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك تُنضح بالنبل فترجع مغلوبة، وحمل المسلمون فنهكوهم قتلاً.

قال الزبير بن العوام: لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل،

فأتينا من أدبارنا وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا.

والمقصودُ منه التنبيهُ على عِظَمِ المعصية؛ لأنهم لمَّا شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقِّهم أن يمتنعوا عن المعصية. فلما أقدموا عليها، سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم.

وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام.

**** وفيه: أن المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل**

النعمة

والرماة لم يذهبوا جميعاً إلى الغنائم يجمعونها، بل بقي منهم عدد قليل - قيل إنهم عشرة - ولكن نسب العصيان إليهم جميعاً، بل نسب إلى الجيش كله، مع أن غير الرماة كانوا الفريسة لعصيان كثرة الرماة؛ وذلك لأن ما يعم أثره ينسب إلى الجميع، باعتبار ذلك الأثر، وأنهم جميعاً كان عليهم أن يتواصوا بالطاعة المطلقة للقائد الخبير، وذلك كقوله تعالى: **{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ**

العِقَابُ { [الأَنْفَال: ٢٥] }، فعلى كل جماعة أن تتضافر في منع ما يضر أثره بها كلها، لا بالظالمين فقط منها، وإن إثم الآثمين في الجماعات والأمم، ينشأ من سكوت أهل الحق والعدل، ويعيش في ظل صمتهم، ولذلك ينسب العصيان إلى الجميع.

{مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} وهم الذين نزلوا إلى الميدان يجمعون الغنائم. وكان الرماة خمسين ذهب منهم نيف على أربعين للنهب وعصوا الأمر.

{وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} وهم عبد الله بن جبير والذين صبروا معه في مراكزهم حتى استشهدوا فيها.. والجملة اعتراض بين المتعاطفين.

****** وفيه أن المدار كله على ما في القلب، وأن سبب الجبن والنزاع والمعصية سوء النية من بعض من كان فيهم، وأنه متى كان القلب صالحاً صلح العمل، ومتى كان فاسداً فسد العمل.

****** والعتاب لمن انهزم لا لمن ثبت، فإن من ثبت فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون؛ ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة، بل هو سبب المثوبة.

**** قال عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: وما شعرت أن أحداً من أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يريد الدنيا، حتى كان يومُ أحدٍ، ونزلت هذه الآية.**

**** وفيه: أنه قد يكون في خير القرون من يعاب عليه الفعل؛ ولكن الصحابة رضي الله عنهم بخاصة لهم من الفضائل والسوابق والصحبة ما يكفر ما حصل منهم من الآفات وغيرها، ولهذا فللصحابة مزية على غيرهم، غير المكفرات العامة لكل أحد مثل قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا) [البخاري]**
هذه عامة لكل أحد.

لكن للصحابة أشياء خاصة توجب محو ما حصل منهم من السيئات، ويدلك على هذا أن من أعظم المصائب وأكبر المعايب التجسس لحساب المشركين، ووقعت من حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ولما استأذن عمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قتله قال له النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُذَرِّبُكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) [البخاري]، مع أن التجسس لحساب الكفار مصيبة عظيمة توجب القتل ولو

كان الإنسان مسلماً؛ لأن هذا من السعي في الأرض فساداً، ولهذا لم يقل الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا تقتله لأنه مسلم بل قال: لا تقتله لأنه شهد بداراً. وقد قال الله تعالى: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، ولهذا كان القول الصحيح الذي لا شك فيه أن الجاسوس يقتل ولو كان مسلماً، ولو كان يصلي ليلاً ونهاراً فإنه يقتل.

{ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} أي جعلكم تنصرفون، وكفكم عنهم حتى حالت الحال، ودالت الدولة.

وذلك إخبار عن ترك القتال لما أصابهم من الضعف حينما رأوا أنفسهم محصورين بين رماة المشركين ومقاتليهم فأصعدوا في الوادي هارين بأنفسهم، وحصل هذا بعلم الله تعالى وتدبيره، وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى.

قال في زهرة التفاسير: أي النتيجة التي صرتم إليها غير المقصد الذي قصدتم إليه، لقد خرجتم إليهم من مدينتكم لتقتلوهم وتناولوا منهم ما نلتموه في بدر، ولم تريدوا أن تكونوا في المدينة يأتون إليكم، بل أردتم أن تواجهوهم في الميدان لا في الأزقة وبين الجدران، ولكن بسبب ذلك العصيان من بعضكم صرفكم الله عنهم، أي انصرفتم عنهم بإرادة الله تعالى، ورضيتهم

أن تعودوا مقهورين، وقد خرجتم لتعودوا منصورين بتأييد الله تعالى.

{لِبَيِّنَاتِكُمْ} أي يختبركم ويمتحنكم بالمصائب لِيُظْهَرَ ثَبَاتُكُمْ على الإيمان عندها فيرى المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، والصابر من الجزع.

وقيل: أي لينزل بكم ذلك البلاء من القتل والتمحيص. وكان التعبير بكلمة **{صَرْفَكُمْ}** بدل (هزمتكم) لأن ما حدث في أحد لم يكن هزيمة، وإن لم يكن نصراً؛ لأن الهزيمة تقتضي أن يولي المسلمون الأدبار، وأن يتحكم الأعداء، وليس ما حدث أكثر من أن القتلى في المؤمنين كانوا أكثر من القتلى في المشركين، ولم ينل المشركون بذلك مأرباً، فكأن الله سبحانه وتعالى يشير لهم بأن ما حدث لا يصح أن تبتئسوا له، ولا يصيبكم الحزن؛ لأنه ليس هزيمة، بل هو نوع من الصرف عن الغاية التي من أجلها خرجتم. وكان هذا لا بد منه ليمحص قلوبكم، وليختبركم بالشدائد التي تصقل نفوسكم، وتجعلها مستعدة لما يأتي به القدر، وليبان أن الطاعة للقائد الحكيم هي أساس الظفر، والعصيان سبب للاندهار.

{وَلَقَدْ} وهذا التأكيد الثلاثي كالذي في أول الآيات، لأنه لما ابتلوا بهذه البلوى قد يتبادر إلى الذهن بأن الله سوف يعاقبهم على معصيتهم وتنازعهم وجبنهم.

{عَفَا عَنْكُمْ} أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة بتسليط المشركين عليهم فقتلوهم أجمعين ولم يُبقوا منهم أحداً إذ تمكنوا منهم تماماً ولكن الله سلم.

قال الحسن البصري: "قتل منهم جماعة سبعون، وقتل عم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وشج وجهه وكسرت رباعيته. وإنما العفو إن لم يستأصلهم هؤلاء مع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وفي سبيل الله غضاب لله يقاتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فضيعوه، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم. يا فسق الفاسقين اليوم يحل كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه فسوف يعلم" انتهى كلام الحسن.

والظاهر أن العفو إنما هو عن الذنب، أي لم يؤاخذكم بالعصيان. ويدل عليه قرينة قوله: **{وَعَصَيْتُمْ}**. والمعنى: أن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بكم، فعفا عنكم، فهو إخبار بالعفو عما كان يستحق بالذنب من العقاب.

كما يبين سبحانه عفوه ليرفع من نفوسهم، ويذهب الحسرة من قلوبهم، ويحيي موات العزة التي اختفت في وسط ذلك المضطرب، ولقد أكد سبحانه وتعالى عفوه بعدة تأكيدات أولها: بالتعبير بـ «قد»، فإنها للتحقيق، واستعمالها في أكثر آي القرآن للتحقيق، وثانيها: باللام. وثالثها: بالتعبير بالماضي.

وأكد سبحانه وتعالى عفوه بهذا التأكيد؛ لأن أولئك الأبرار الذين أخلصوا دينهم لله تعالى قد تجسم في نفوسهم خطوهم، حتى توهموا أنه غير قابل للغفران، فإن المؤمن التقى يستكثر هفوته، ويستصغر حسنته؛ لأنه يحس بحق الله تعالى عليه، ووجوب شكر النعم التي أنعم بها، وبمقدار قوة الإيمان يغلب المؤمن خوف العقاب على رجاء الثواب.

قال في التحرير والتنوير: وعقب هذا الملام بقوله: **{وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ}** تسكينا لخواطرهم، وفي ذلك تلميح معهم على عادة القرآن في تقرير المؤمنين، وأعظم من ذلك تقديم العفو على الملام في ملام الرسول عليه السلام في قوله تعالى: **{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ}** [التوبة: ٤٣]. فتلك رتبة أشرف من رتبة تعقيب الملام بذكر العفو، وفيه أيضا دلالة على صدق

إيمانهم إذ عجل لهم الإعلام بالعفو لكيلا تطير نفوسهم رهبة وخوفا من غضب الله تعالى.

{وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ} أي صاحب فضل، والمرمى أن الفضل يلازمه، ولا ينقطع عنه سبحانه وتعالى أبداً.

{عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} في الأحوال كلها، إما بالنصرة وإما بالابتلاء، فإن الابتلاء فضل ولطف خفي، ليتمرنوا بالصبر على الشدائد، والثبات في المواطن، ويتمكنوا في اليقين، ويجعلوه ملكة لهم، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها، ولا يذهلوا على الحق، وليكون عقوبة عاجلة للبعض، فيتمحصوا عن ذنوبهم، وينالوا درجة الشهادة، فيلقوا الله طاهرين.

وقيل: **{وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}** بالعفو والمغفرة.. تذييلٌ مقررٌ لمضمون ما قبله ومؤذنٌ بأن ذلك العفو بطريق التفضل والإحسان لا بطريق الوجوب عليه، والتكثير في **{فَضْلٍ}** للتفخيم. والإظهار في **{الْمُؤْمِنِينَ}** في موقع الإضمار للتشريف والإشعار بعله الحكم.

قال ابن عثيمين: إظهار في موضع الإضمار، إذ مقتضى السياق أن يقول: "والله ذو فضل عليكم" والإظهار في مقام الإضمار له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التسجيل على محل الإضمار أو على مرجع الضمير بأنه من أهل هذا الوصف، يعني إثبات هذا الوصف بمرجع الضمير، مثلاً: "والله ذو فضل عليكم" إذا قال: «على المؤمنين» بدل «عليكم» أفاد بأنهم مؤمنون.

الفائدة الثانية: العموم؛ لأنه لو قال: "والله ذو فضل عليكم" اختص الفضل بمرجع الضمير، وإذا قال: «على المؤمنين» شملهم وغيرهم.

الفائدة الثالثة: علة الحكم، فالحكم كون الله ذو فضل، والعلة - وهي الإيمان - في هذه الآية.

وهنا مناسبة لفظية في الإظهار، وهي تناسب رؤوس الآيات، لأنه لو قال: (والله ذو فضل عليكم) لم تتناسب مع ما بعدها ومع ما قبلها.

** والفضل راجع إلى ما تقدّم من ذكر النعم؛ فإنه نصرهم - أولاً - ثم عفا عنهم - ثانياً - وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

وقال ابن عاشور: والظاهر أنه عفو لأجل التأويل. فلا يحتاج إلى التوبة، ويجوز أن يكون عفوا بعدما ظهر منهم من الندم والتوبة.

**** فإن قال قائل: وهل لله فضل على غير المؤمنين؟**

فالجواب: نعم، إن الله لذو فضل على الناس {والله ذو فضلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٢٥١] على كل أحد.

لكن الفضل نوعان: فضل خاص، وفضل عام، فالخاص للمؤمنين، والعام للجميع، وإلا فكل أحد قد تفضل الله عليه بالصحة والعافية والطعام والشراب واللباس والأزواج والبنين وغير ذلك، أما الفضل الخاص الذي يتصل بفضل الآخرة فهو للمؤمنين فقط.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

{إِذْ} اذكروا **{تُصْعِدُونَ}** تفرون مصعدين، من الإصعاد وهو الإبعاد في صعيد الأرض، و «صعدة»: اسم من أسماء الأرض.

قال القرطبي: فالإصعاد: السير في مستو من الأرض وبطون الأودية والشعاب. والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح والسالام والدرج.

والمعنى: **{إِذْ تُصْعِدُونَ}**: تذهبون في صعيد الأرض فارين من المعركة حيث وقعتم في الفوضى والاضطراب، وأصبحتم تسيرون في بطن الوادي لا تقصدون، ولا تبتغون أمرا، ولا تتبعون غاية أيا كانت، بل تضربون في الأرض وتخطون خط عشواء.

{وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ} لا تلوون رؤوسكم -من الدهش والروعة- على أحد تلتفتون إليه هربا؛ فهو هو من ليّ العنق فلا يلوي أحد على أحد منكم -فأوجز بالحذف- ولا يرحم أحد أحدا ولا يرفق به، وهذا تمثيل للجذ في الهروب حتى إن الواحد ليدوس الآخر لو تعرض في طريقه.

{وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} في آخر الجيش من ورائكم.. أي يناديكم من خلفكم: إلی عباد الله، ارجعوا إلی عباد الله ارجعوا.

** وفيه: حسن رعاية النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأمته في قيادته العظيمة حيث يكون في أخريات القوم، وهذا شأنه صلوات الله وسلامه عليه، أن يكون في أخريات القوم من أجل

أن يتفقدتهم، وليس كالمملوك الذين يتقدمون الناس، بل هو يتأخر، كما حصل في قصة جمل جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حيث كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أخريات القوم وقد أعيا جمل جابر، فلحقه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وضربه ودعا له فمشى الجمل.

** وفيه دلالة عظيمة على شجاعة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإن الوقوف على أعقاب الشجعان وهم فرار والثبت فيه إنما هو للأبطال الأنجاد، وكان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أشجع الناس.. قال سلمة: كنا إذا احمرّ البأس اتقىناه برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{فَأَثَابَكُمْ} أثاب معناه: أعاد وأعقب ما ارتكبه كنتيجة غما بغم، فمعنى الثوب عودة الشيء ورجوعه إلى الأمر الذي كان مقدرا له على أنه غايته ونتيجته.. والمعنى: فجازاكم الله تعالى بما صنعتكم من الهرب والفرار.

قال أهل العلم: "لفظ «الثواب» لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضاً استعماله في الشر، قال تعالى: **{هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** [المطففين: ٣٦] لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله، أي: رجع إليه.

قال تعالى: **{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ}** [البقرة: ١٢٥]
والمرأة تسمى ثيباً لأن الواطئ عائد إليها. وأصل الثواب كل ما
يعود إلى الفاعل من جزاء فعله، سواء كان خيراً أو شراً، إلا أنه
بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير.

فإن حملنا لفظ الثواب هاهنا على أصل اللغة استقام الكلام،
وإن حملنا على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل
التهكم، كما يقال: تحيته الضرب وعتابه السيف، أي: جعل الغم
مكان ما يرجون من الثواب على حد: **{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ}** [آل
عمران: ٢١] وقال ابن عاشور: "وفي هذا الوجه من التهكم
بعد: لأن المقام ملام لا توبيخ، ومقام معذرة لا تنديم".

{غُمًّا بِغَمٍّ} والغم أصل معناه في اللغة التغطية، ومنه غُم
الهلال إذا غطاه الغمام فلم يُرَ، والغم ألم النفس وضيق الصدر،
ويطلق على الألم الذي يغطي العقل والإحساس والمشاعر،
والذي يكون الشخص معه في حال استسلام لا يدري ما
الخلاص منه، فهو من الغُمَّة.

{غُمًّا بِغَمٍّ} فيه قولان: أحدهما: غمًّا على غم ولا يلزم أن
تكون متتابعة بل كلما فات غم أتى غم آخر.

والثاني: غمّاً مع غم «باء المصاحبة»، أي غما موصولا بغم فهي غموم متتابعة لم يفصل بينهما فاصل.

فعلى الأول: جازاكم على معصيتكم وفراركم غمّاً على غم. وسبب الغم الأول فوات النصر والغنيمة، والثاني: القتل والجراحات وخاصة جراحات نبيّهم، وإذاعة قتله -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وعلى الثاني: قال القفال: وعندنا أن الله تعالى ما أراد بقوله: **{غَمّاً بِغَمٍّ}** اثنين، وإنما أراد مواصلة الغموم وطولها، أي: أن الله عاقبكم بغموم كثيرة، مثل قتل إخوانكم وأقاربكم [ومن شجعانهم حمزة -رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ-]، ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم، بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم [وجرح النبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإشاعة قتله]، ومثل إقدامكم على المعصية، فكأنه تعالى قال: أثابكم هذه الغموم المتعاقبة؛ ليصير ذلك زاجراً لكم عن الإقدام على المعصية، والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى.

{لَكَيْلًا تَحْزَنُونَ} لتتمرنوا بالصبر على الشدائد، والثبات فيها، وتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة **{عَلَى مَا فَاتَكُمْ}** من الغنائم **{وَلَا مَا أَصَابَكُمْ}** من الموت والجراحات والآلام والاعتاب.

أي: ألهاكم بذلك الغم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، وما أصابكم من القتل والجراح، فهو أنسأهم بمصيبة صغيرة مصيبة كبيرة لأن الغم الأكبر ينسي الغم الأصغر فمثلاً: إذا فاتهم النصر فهذا غم بلا شك، لكن إذا قتل نبيهم عليه الصلاة والسلام هذا أشد غماً، فلما أشيع أنه قتل نسوا الغم الأول ولم يحزنوا عليه لأنهم أصيبوا بغم أكبر. فإذا جاء الفرج وتبين أن الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد بقي زالت الغشاوة كلها، فيكون هذا من لطف الله بهم أنه يصيبهم بمصائب تنسيهم المصائب الأولى، ثم بعد ذلك تنفرج، وهذا من رحمته -عز وجل- وعنايته بالصحابة والنبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{وَاللّهُ خَيْرٌ} خير مأخوذ من الخبر وهو العلم ببواطن الأمور، ومنه سمي الزارع خيراً لأنه يدفن الحب ويخفيه. فالأصل أن هذه المادة تدل على الخفاء، فالخير هو العليم ببواطن الأمور، والعليم ببواطن الأمور عليم بظواهر الأمور من باب أولى.

{بِمَا تَعْمَلُونَ} لأن المراد بالخبرة هنا ما يترتب عليها من الحساب، فهي جملة خبرية تفيد التهديد؛ لأن الله عز وجل لا يحاسب إلا على العمل. أما حديث النفس فلا يحاسب عليه،

ولو حدث الإنسان نفسه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات ثم لم ينفذ فإنه لا يحاسب.

والمعنى: عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم، قادرٌ على مجازاتها، وهذا زَجْرٌ لِلْبُعْدِ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وخص العمل هنا وإن كان تعالى خبيراً بجميع الأحوال من الأعمال والأقوال والنيات، تنبيهاً على أعمالهم من تولية الأدبار والمبالغة في الفرار، وهي أعمال تخشى عاقبتها وعقابها.

يخبرهم تعالى أنه بكل ما حصل منهم من معصية وتنازع وفرار، وترك للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المعركة وحده وانهزامهم وحزنهم .. هو تعالى خبير مطلع عليه عليهم به وسيجزي به المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يعفوا عنه، والله عفو كريم.

وقال في زهرة التفاسير: "ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النص للإشارة إلى أن ما وقع كله كان في علم الله، يعلمه علماً دقيقاً قد أحصى فيه كل أعمالكم قبل وقوعها، وقدر نتائجها ونهاياتها، وما يعقبه بعد ذلك من عبرة يحملكُم على الطاعة المطلقة للقائد الحكيم الذي يهديكم سبيل الرشاد، وأنه

لا نصر مع المعصية، ولا هزيمة مع الطاعة واحتساب النية، والله بكل شيء محيط".

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ} نعاسا يغشى.. يدل على تجلل النعاس واستعلائه وغلبته، وسمي الإغشاء إنزالا لأنه لما كان نعاسا مقدرا من الله لحكمة خاصة، كان كالنازل من العوالم المشرفة كما يقال: "نزلت السكينة".

{مَنْ بَعْدَ الْغَمِّ} كل الغموم السابقة، فالمراد بالغم هنا جنس الغم فشمّل الغم بعد الغم.

{أَمْنَةٌ} الأمانة والأمن سواء. وقيل: الأمانة أمن مؤقت يكون معه أسباب الخوف، والأمن: يكون أمناً مطرداً مع عدم الخوف، كما في قوله تعالى: **{أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}** [الأنعام: ٨٢] أي في الجنة.. والظاهر القول الأول وأنه لا فرق بينهما.

وقد بين سبحانه نوع الأمن أو مظهره، بقوله:
{نُعَاسًا} استرخاء يصيب الجسم قبل النوم «مقدمة النوم». وهو يزيل التعب ولا يغيب وعي صاحبه بالكلية، فلذلك كان أمانة إذ لو ناموا ثقيلًا لأخذوا.

أمتن وتفضل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم في يوم أحد بالنعاس حتى نعس أكثرهم؛ وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام. حيث اطمأنت فيه النفوس واسترخت الأعضاء واستسلمت لمقادير الله تعالى وإرادته في خلقه ونصره دينه، مطرحين الماضي مكثفين منه بالعبرة ومتخذين منه نورا يضيء للمستقبل بخطئه وبصوابه.

وكان مقتضى الظاهر أن يقدم النعاس ويؤخر أمانة: لأن أمانة بمنزلة الصفة كما جاء في آية الأنفال **{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ}** ولكنه قدم المنة هنا تشريفا لشأنها لأنها جعلت كالمنزل من

الله لنصرهم، فهو كالسكينة، فناسب أن يجعل هو مفعول أنزل،
ويجعل النعاس بدلا منه.

{يَغْشَى} يغطي الحس، ويستر الإدراك والتنبه **{طَائِفَةٌ}**
{مِّنْكُمْ} أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم
الجازمون بأن الله سينصر رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وينجز
له مأموله.

عن عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "النعاس في
القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان".

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى النعاس مظهرا للاطمئنان قبل
واقعة بدر: **{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى
قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ}** [الأنفال: ١١].

قال ابن كثير رحمه الله: "روى البيهقي بإسناده - عن قتادة،
حدثنا أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة قال: غشنا النعاس ونحن في
مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه، ويسقط
وأخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا
أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذله للحق **{يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ**

الْحَقُّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ { كَذَبَةٌ، أهل شك وريب في الله عز وجل... هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة رحمه الله. والمصاف الذي أخبر عنه أبو طلحة كان في الجبل بعد الكسرة، أشرف عليهم أبو سفيان من علو في الخيل الكثيرة، فرماهم من كان انحاز إلى الجبل من الصحابة بالحجارة، حتى أنزلوهم، وما زالوا صافين حتى جاءهم خبر قريش أنهم عزموا على الرحيل إلى مكة، فأنزل الله عليهم النعاس في ذلك الموطن، فأمنوا ولم يأمن المنافقون.

{وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ} حملتهم على الهم، فلا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف من أن يعود إليهم أبو سفيان وجيشه وعدم رضاهم بقدر الله تعالى، وهم أهل الشك والنفاق الذين حرمهم الله تعالى من تلك الأمانة، فما زال الخوف يقطع قلوبهم والغم يُسَيِّطِر على نفوسهم، وهم لا يفكرون إلا في أنفسهم: كيف ينجون من الموت، غير مكترئين بما أصاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه.

لكن من هم الطائفة التي أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، ونحن نعلم من خلال كتب السير أن رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول كان لا يريد أن يقاتل مع

المؤمنين في معركة أحد، فرجع هو وثلث الجيش معه إلى المدينة، وتابع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ومعه المؤمنون إلى الحرب، حيث جرت معركة أحد مع الكفار، ولهذا أستبعد أن تكون الطائفة التي أهتمّهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية هم من المنافقين، لأن المنافقين لم يشاركوا في القتال مع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ولقد رجعوا من منتصف الطريق إلى المدينة بأمر من عبد الله بن أبي بن سلول، هل يعقل أن هذه الطائفة كانت مؤمنة؟!!

والجواب: لا.. فرجوع رأس المنافقين ومن تبعه منهم، لا يمنع أن يكون بعض المنافقين بقوا مع المسلمين ولم يرجعوا، مثل مُعْتَب بن قُشَيْر وأصحابه وكانوا خرجوا طمعا في الغنيمة وخوف ملامة المؤمنين.. وهذا هو الذي تدل عليه الآيات

{يَظُنُّونَ} والظن هنا ليس هو الاعتقاد الجازم، بل هو الوهم الملازم للضعف، المسيطر على النفس.

{بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ} كأنه قيل «الباطل»، فبدأ ببطلان هذا الظن أولاً.. أي ليس هو الحق، ولا الذي يجب أن يظن بالله تعالى، وهو سبحانه أهل المعاونة الصادقة، والتأييد عند الثبات.

ثم بين أن هذا الظن صادر عن جهل، فقال: **{ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ}** أي ظن أهل الجاهلية، فلا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله.. ظنا ينافي اليقين بالقدر، وظنا ينافي بأن الله ينصر رسوله، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك أن كشف الله تعالى عن سرائرهم، مما يعتقدون أن الإسلام باطل وأن محمداً ليس رسولاً، وأن المؤمنين سينهزمون ويهلكون وينتهي الإسلام ومن يدعوا إليه.

كما قال تعالى: **{بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}** [الفتح: ١٢]، وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

****** وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم ولم يخلصوا الدين لله، فهم الذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً، والمتظاهرون بالإيمان في قلوبهم فبقيت معارفهم كما هي من عهد الجاهلية.

والجاهلية صفة جرت على موصوف محذوف يقدر بالفئة أو الجماعة، وربما أريد به حالة الجاهلية في قولهم: أهل الجاهلية، والظاهر أنه نسبة إلى الجاهل أي الذي لا يعلم الدين والتوحيد، فإن العرب أطلقت الجهل على عدم العلم.

ولفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيرا من الجهل، وترغيبا في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: {أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} [المائدة: ٥٠] {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: ٣٣] {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: ٢٦] ولم يسمع ذلك كله إلا بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين.

** وفيه: أنه لا يظن أحد بالله ظناً غير الحق إلا وهو جاهل؛ لقوله تعالى: {ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} فكل من ظن بالله غير الحق فإنه بلا شك جاهل لم يقدر الله حق قدره.

{يَقُولُونَ} في تلك الحال.. والأصل في القول إذا أطلق فهو قول اللسان، وإذا كان قول النفس فلا بد أن يقيد، كما قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}

[المجادلة: ٨]، فإذاً تكون الآية دالة على أن هذا القول صادر منهم بالسنتهم.

{هَلْ لَنَا} استفهام إنكاري بمعنى النفي المطلق الشامل، كأنهم يقولون: هل نحن روجعنا، هل أخذت مشورتنا.

{مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ} أي من أمر الخروج، وإنما خرجنا كرها، وقولهم **{مِنَ شَيْءٍ}** زيادة للتأكيد.

وهذا القول قالوه سراً فيما بينهم، ومعناه ليس لنا من الأمر من شيء، ولو كان لنا ما خرجنا ولا قاتلنا ولا أصابنا الذي أصابنا، فهو وإن كان ظاهره صورة العتاب عن ترك مشورتهم فنيتهم منه تخطئة النبي في خروجه بالمسلمين إلى أحد، وأنهم أسد رأيا منه.

فأطلع الله تعالى سرهم وقال له: رد عليهم بقولك: **{قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}** وأفعال الله تعالى لا تخلو أبداً من حكم عالية فيجب التسليم لله تعالى والرضا بأفعاله في خلقه. ولما أكد في كلامهم بزيادة **{مِنَ}** في قوله: **{مِنَ شَيْءٍ}**، جاء الكلام مؤكداً بـ **{إِنَّ}**، وبولغ في توكيد العموم بقوله: **{كُلَّهُ لِلَّهِ}**. فكان الجواب أبلغ.

أي أن تقدير الأمور كلها لله سبحانه وتعالى، لا أمر النصر والهزيمة فقط، فكل شيء عنده بمقدار، ولكنه سبحانه وتعالى خلق كل شيء بحكمته ومشيئته وإرادته وحده، وهو الذي قدر الأسباب ومسبباتها، وربط بين الأفعال ونتائجها، فمن اختلفوا ولم يطيعوا قائدهم، وأقدموا على الغنائم في غير الوقت المعلوم فلا بد أن يحدث عن فعلهم الهزيمة والاضطراب، لأن هذا هو النظام الذي سنه رب البرية في الارتباط بين الأسباب ومسبباتها، فكون الأمر كله لله لا ينفي عنكم التبعة، بل يؤكدتها.

قال ابن عاشور: "وهذا الجواب جار على حقيقة جريان الأشياء على قدر من الله والتسليم لذلك بعد استفراغ الجهد في مصادفة المأمول، فليس هذا الجواب ونظائره بمقتضى ترك الأسباب، لأن قدر الله تعالى وقضائه غير معلومين لنا إلا بعد الوقوع، فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفا عن مصادقة الله لمأمولنا، فإن استغفرنا جهودنا وحرمنا المأمول، علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا، فأما ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منا، وإعراض عما أقامنا الله في هذا العالم وهو تحريف لمعنى القدر".

وهذه الجملة معترضة بين متلازمين، وهو قولهم: **{هَلْ لَنَا مِنْ
الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ}** وقوله تعالى بعد ذلك: **{يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا
لَا يُبْدُونَ لَكَ..}**

{يُخْفُونَ} يضمرون **{فِي أَنْفُسِهِمْ}** من الشرك والكفر
والتكذيب **{مَا لَا يُبْدُونَ}** يظهرون **{لَكَ}** ثم هتك تعالى مرة
أخرى سترهم وكشف سرهم في أنهم يخفون في أنفسهم من
الكفر والبغض والعداء لك ولأصحابك ما لا يظهرونه لك. ثم
فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله:

{يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} أي:
يسرون هذه المقالة عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-..
يريدون لو كان الأمر بأيدهم ما خرجوا لقتال المشركين لأنهم
إخوانهم في الشرك والكفر، ولا قتلوا مع من قتل في أحد..
وهذه المقولة تشير إلى أنهم ما كانوا يريدون القتال، ولكنه قدر
الله وأمره لهم الذي جعلهم يقعون في هذا الخطأ.

**** وفيه: أن لو بعد القدر لا تفيد شيئاً، وهي من عمل
الشیطان.**

قال محمد بن إسحاق بن يسار: فحدثني يحيى بن عباد بن
عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: قال

الزبير: لقد رأيته مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعْتَب بن قُشَيْر، ما أسمعُه إلا كالحلم، يقول: **{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}** فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى: **{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}** لقول مُعْتَب. [رواه ابن أبي حاتم] ومُعْتَب هذا شهد بداراً، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره، وكان مغموصاً عليه بالنفاق.

{قُلْ} أمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم **{لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ}** لظهر **{الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ}** في كتاب المقادير أي «اللوح المحفوظ».

وهذه كتابة قدرية لا كتابة شرعية، فهي كقوله تعالى: **{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}** [الأنبياء: ١٠٥] هذه كتابة قدرية.

أما قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة: ١٨٣] فهي كتابة شرعية بمعنى فرض.

{إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} وصرعوا فيها وماتوا، لأن قدر الله نافذ على كل حال، ولا حذر مع القدر.

والمضاجع جمع مضجع وهو مكان النوم والاضطجاع والمراد مصارعهم والمكان الذي صرعوا فيه قتلى.

قال في زهرة التفاسير: "وفي هذا يدعوهم رب البرية أن يستسلموا لحكمه، ويخضعوا لقدره، ويرضوا به، ويطمئنوا إليه؛ لأن الاطمئنان إلى القدر بعد أخذ الأسباب رضا بحكم الله وقبول لإرادته في خلقه، وعدم الرضا بالقدر تمرد على الخالق، وانزعاج نفسي لا علاج له؛ وإذا كان من الناس من يعيب الرضا بالقدر فهي نزعة إلحاد في النفس، والذين يشكون من المقادير، ويتمردون عليها لا يرضون برب المقادير حكما عدلا وهو اللطيف الخبير، السميع البصير.

والرضا بالقدر يلقي في النفس بالاطمئنان والصبر والرضا والقدرة على الاحتمال، والاستعداد للقابل وعدم الالتفات إلى الوراء، فمن لا يؤمن بالقضاء قصير النظر، ومن يؤمن به متجدد الفكر؛ نظره إلى الأمام دائما".

**** وفيه: أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن الشهداء يدفنون في مكان استشهادهم؛ لقوله: {لَبَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى**

مَضَاجِعِهِمْ { أي في أماكن قتلهم. وهذا إن لم تفده هذه الآية فقد استفيد من السنة، فإن قوماً من الصحابة حملوا قتلاهم في أحد لدفنهم في المدينة فأمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بردهم إلى مصارعهم يدفنون هناك فدفنوا.

وَلَيْتَلِي { لام التعليل **{اللَّهُ}** يختبركم بما جرى عليكم، فيقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً، كقوله: **{فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}** [الأعراف: ١٢٩]

{مَا فِي صُدُورِكُمْ} وهي القلوب، لقول الله تعالى: **{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج: ٤٦]

{وَلِيْمَحَّصَ} التمحيص: التمييز أو التخليص وهو إظهار شيء من شيء كإظهار الإيمان من النفاق، والحب من الكره. **{مَا فِي قُلُوبِكُمْ}** ليظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال.

فالابتلاء للقلب نفسه، والتمحيص لما في القلب. **{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** جملة استئنافية.. أي: عليم بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر.

فهو سبحانه إذ يفعل ذلك يعلم بما في صدوركم، يعلم ما يخالطها وما توسوس به، ويعلم مَوَاضِعَ أدوائها، وما تنطوي عليه نفوس الأبرار الأقوياء، ونفوس الضعفاء ونفوس الأشرار، وقد أكد سبحانه وتعالى علمه بخفايا النفوس، بثلاثة تأكيدات:

– التأكيد الأول: التعبير بالجملة الاسمية.

– التأكيد الثاني: التعبير بوصف عليم، فهو يعلم صغائر الأمور وجليها، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

– التأكيد الثالث: التعبير بذات الصدور، فهذا من قبيل ما يشبه التأكيد المعنوي، فمعناه يعلم الصدور ذاتها، فلا يقتصر علمه على ما في الوعاء، بل يعلم الوعاء ذاته.

**** وفيه: التحذير من إضمار ما لا يرضى به الله؛ لأنك إذا أضمرت ما لم يرض به الله فسوف يحاسبك عليه وإن كان لا يبدو للناس، فعلى المرء أن يحاسب نفسه دائماً وينظر ما في قلبه، هل في قلبه الخير وإرادة ما يرضي الله أو أن الأمر بالعكس؟ فليصحح الوضع.**

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا} فروا وأدبروا وهربوا، وظاهر {تولوا} يدل
على مطلق التولي يوم اللقاء، سواء فرّ إلى المدينة، أم صعد
الجبـل.

{مِنْكُمْ} وهم أكثر الجيش حتى إنه لم يبق مع النبي -صلى
الله عليه وسلم- لم يـنـهـزـمـوا إلا ثلاثة عشر رجلاً، منهم خمسة
من المهاجرين: أبو بكر، وعلي، وطلحة، وعبد الرحمن بن
عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار منهم: أبو
طلحة.

{يَوْمَ التَّقَى} أي تلاقوا وجهاً لوجه **{الْجَمْعَانِ}** جمع
المؤمنين وجمع الكافرين بأحد.

{إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ} أوقعهم في الزلل وهو الخطيئة بالفرار من
الجهاد **{الشَّيْطَانُ}** الشيطان: اسم جنس، مشتق من شَطَنَ إذا
بَعُدَ؛ لبعده عن رحمة الله تعالى.

واستزلهم بمعنى أزلهم أي جعلهم زالين، والزلل مستعار لفعل
الخطيئة، والسين والتاء فيه للتأكيد، مثل استفاد واستبشر

واستشق. ومنه قوله تعالى: **{وَاسْتَغْنَى اللَّهُ}** [التغابن: ٦] وقوله: **{أَبَى وَاسْتَكْبَرَ}** [البقرة: ٣٤]. ولا يحسن حمل السين والتاء على معنى الطلب لأن المقصود لومهم على وقوعهم في معصية الرسول، فهو زلل واقع.

وقيل: المراد بالزلل الانهزام، وإطلاق الزلل عليه معلوم مشهور كإطلاق ثبات القدم على ضده وهو النصر قال تعالى: **{وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا}** [آل عمران: ١٤٧].

{بِبَعْضٍ مَا كَسَبُوا} الباء هنا للسببية، أي: ببعض ذنوبهم، من مفارقة موقفهم، وعصيان أمر الرسول، والتنازع، والتعجيل إلى الغنيمة.

والمعنى أن ما أصابهم كان من آثار الشيطان، وما هم فيه ببعض ما كسبوا من صنيعهم، والمقصد من هذا إلقاء تبعة ذلك الانهزام على عواتقهم، وإبطال ما عرض به المنافقون من رمي تبعة على أمر الرسول عليه الصلاة والسلام والخروج، وتحريض الله المؤمنين على الجهاد. وذلك شأن ضعاف العقول أن يشتبه عليهم مقارن الفعل بسببه.

ولم يجيء (بما كسبوا)، لأنه تعالى يعفو عن كثير كما قال تعالى: **{وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}** [المائدة: ١٥] فلاستزلال كان بسبب بعض الذنوب، فجعلت سبباً للاستزلال.

ومناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها أنه تعالى بعد أن بين لهم مرتبة حق اليقين بقوله: **{قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ}** انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبين لهم أنه إن كان للأسباب تأثير، فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلهم، فلم يتفطنوا إلى السبب، **وَالْتَبَسَ عَلَيْهِمُ بِالْمُقَارَنِ**، ومن شأن هذا الضلال أن يحول بين المخطئ وبين تدارك خطئه، ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض من العلم الصحيح، وتزكية النفوس، وتحبيب الله ورسوله للمؤمنين، وتعظيمه عندهم، وتنفيرهم من الشيطان، والأفعال الذميمة، ومعصية الرسول، وتسفيه أحلام المشركين والمنافقين.

**** قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنه بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها.**

وقال العلماء: «المعاصي بريد الكفر»، يعني تنتقل بالإنسان مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى قمة المعاصي وهي الكفر.

****** والخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، ومعنى هذا أن الشيطان لا يفتح معاقل النفس، ويغزو مواضع الفضيلة، إلا بالصغائر التي تسهل الرذائل، فإذا فتح النفس من هذا المعقل هجم بكل أسلحته، فتحكم الهوى والشيطان واستضعفت النفس وذلت، وأحاطت بها الخطايا، وسدت عنها منافذ الهداية والنور.

****** وفيه: أن الذنب يولد الذنب، والسيئة تتولد عنها سيئة أخرى فلذا وجبت التوبة من الذنب فوراً.

****** ويتفرع على هذا أيضاً فائدة وهي: أن العقوبة لا تختص بالألم البدني أو فوات الشهوات، بل قد تكون العقوبة بخذلان المرء عن الطاعات، ويذكر عن الحسن البصري -رحمه الله- أنه قال: "إن الرجل ليحرم قيام الليل بالذنب يصيبه".

يؤيدها أيضاً قوله تعالى: **{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ}** هذه عقوبة بدنية **{وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}** وهذه عقوبة دينية، **{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}** وهذه أيضاً عقوبة دينية **{وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}** [المائدة: ١٣]

{وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} فعفا عما كان منهم من الفرار، ولم يؤاخذهم بهذه الزلة.

وهذه كالتى سبقت في قوله: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٢] فكرر الله العفو مرتين تأنيسا لهم.

والعفو: ترك المؤاخذه على الذنب، ويكون في الغالب في ترك الواجبات يعني أن الله عفا عمن ترك الواجب، والمغفرة وتكون فيمن فعل المحرم.

روى الإمام أحمد في مسنده عن شقيق، قال: لقي عبدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَبْلَغُهُ أَنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ - قَالَ عَاصِمٌ: يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ - [وعينين جيل تحت أحد بينهما وادي] وَلَمْ أَتَخَلَّفْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ. قَالَ: فَانْطَلَقَ فَخَبَّرَ ذَلِكَ عُثْمَانَ، قَالَ: فَقَالَ: أَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ، فَكَيْفَ يُعِيرُنِي بِذَنْبٍ وَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} [آل عمران: ١٥٥]، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنِّي كُنْتُ أَمْرَضُ رُقِيَّةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى مَاتَتْ وَقَدْ ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَهْمِي، وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَهْمِهِ فَقَدْ شَهِدَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي لَمْ أَتْرُكْ
سُنَّةَ عُمَرَ، فَإِنِّي لَا أَطِيقُهَا وَلَا هُوَ، فَأَتَتْهُ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ.

وروى البخاري عن عُثْمَانَ بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ حَجَّ
الْبَيْتَ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا فَقَالَ مَنْ هَؤُلَاءِ الْقُعُودُ قَالُوا هَؤُلَاءِ
قُرَيْشٌ قَالَ مَنْ الشَّيْخُ قَالُوا ابْنُ عُمَرَ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ
شَيْءٍ أَتُحَدِّثُنِي قَالَ أَنْشُدُكَ بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَتَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ
عَفَّانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَتَعَلَّمَهُ تَغْيِيبَ عَنْ بَدْرِ فَلَمْ
يَشْهَدْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فَتَعَلَّمُ أَنَّهُ تَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ
يَشْهَدْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فَكَبَّرَ قَالَ ابْنُ عُمَرَ تَعَالَ لِأَخْبِرَكَ وَلِأُبَيِّنَ
لَكَ عَمَّا سَأَلْتَنِي عَنْهُ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ،
وَأَمَّا تَغْيِيبُهُ عَنْ بَدْرِ فَإِنَّهُ كَانَ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَانَتْ مَرِيضَةً فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ، وَأَمَّا تَغْيِيبُهُ عَنْ
بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ
عَفَّانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ فَبَعَثَ عُثْمَانَ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَمَا
ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ
الْيُمْنَى هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ فَقَالَ هَذِهِ لِعُثْمَانَ
اذْهَبْ بِهَذَا الْآنَ مَعَكَ.

قال القرطبي: "ونظير هذه الآية توبة الله على آدم عليه السلام. وقوله عليه السلام: (فحج آدم موسى) أي غلبه بالحجة؛ وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدم ولومه في إخراج نفسه وذريته من الجنة بسبب أكله من الشجرة؛ فقال له آدم: (أفتلومني على أمر قدره الله تعالى علي قبل أن أخلق بأربعين سنة تاب علي منه) ومن تاب عليه فلا ذنب له، ومن لا ذنب له لا يتوجه عليه لوم، وكذلك من عفا الله عنه.

وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك، وخبره صدق. وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم على وجل وخوف ألا تقبل توبتهم، وإن قبلت فالخوف أغلب عليهم إذ لا علم لهم بذلك. فاعلم".

ولما كان مذهب الزمخشري أن العفو والغفران عن الذنب لا يكون إلا لمن تاب، وأنَّ الذنب إذا لم يتب منه لا يكون معه العفو، دسَّ مذهبه في هذه الجملة، فقال: "ولقد عفا الله عنهم لتوبتهم واعتذارهم".

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} ذو المغفرة، وهي ستر الذنب والتجاوز عنه.
{حَلِيمٌ} الحلم هو التأني وعدم السرعة، فلا يعاجل عبده بعقوبة بل يمهل حتى يتوب فيتوب عليه ويغفر له، ولو لم يكن

حليماً لكان يؤاخذ لأول الذنب والزلة فلا يمكن أحداً من التوبة والنجاة. قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: ٤٥]

قيل: وقد أكد سبحانه عفوهُ بأربعة تأكيدات أولها: بالواو واللام فهي تنبئ عن القسم، والثاني: «قد»، فإنها تفيد تأكيد تحقق القول، والثالث: وصف الله تعالى بالمغفرة فإنه يؤكد أن العفو شأن في شئونه سبحانه، والرابع: الوصف بالحلم فإنه سبحانه لا يسارع بالعقاب.. والتأكيد من أجل زيادة طمأنينة المخاطب.

** وفيه بيان فضل الله على عباده وإلا فإن الفرار الذي حصل من الصحابة عظيم، لكن رحمة الله أوسع، فمن أجل سعة رحمة الله عفا الله عنهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ
اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ
قُتِلْتُمْ لِلَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

ما زالت النصوص القرآنية الكريمة تذكر العبر في هزيمة
أحد، وكأن هذه الهزيمة التي لم تكن فاصلة، بل رجع فيها
المنتصرون لم يلووا على شيء - فيها دروس فائدتها أكبر من
فائدة النصر، وفيها كشف لأحوال نفسية، ومعرفتها ذريعة إلى
الاستمرار على القتال والانتصار فيه.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرا به
من وعد ووعد.

والنداء للتنبيه والتلطف والحث والإغراء على قبول ما يوجه
إليهم وامتناله، وأن ما يأتي بعدها من مقتضيات الإيمان،
ومخالفته نقص في الإيمان.

وفيه أيضا تعلية شأن المؤمنين بإيمانهم لأن المخاطب لا
ينادي إلا بأحب الأوصاف إليه.

والإيمان شرعاً: هو الإقرار المتضمن للقبول والإذعان،
فالإقرار المجرد لا يسمى شرعاً إيماناً، بل لا بد من قبول
وإذعان.. القبول ضد الرفض، والإذعان ضد الاستكبار.

{ لَا تَكُونُوا } تفيد تباعد ما بين المقامين: مقام الإيمان، ومنزل الكفران، وأنه لا يصح بالمؤمن أن ينزل إلى المرتبة الدون، بعد أن علا بالإيمان إلى مقام الأعلين الأبرار، وفي هذا تقبيح المنهي عنه بأبلغ تعبير، وأرق تصوير.

{ كَالَّذِينَ كَفَرُوا } وفي التعبير بالذين كفروا إشارة إلى أن الجزع للحاضر أو الماضي، والالتفات إلى الماضي، والنظر إلى وجوب تغييره، وقد سجل في الوجود، وأصبح لا سبيل إلى تغييره - كل هذا من شأن الكافرين الذين يأسرهم ما يقع، ويتخذون «لو» التي هي سبيل الشيطان دائماً وسواساً لنفوسهم، يكررون ما كان يجب، وقد وقع ما وجب، والبصير الذي آتاه الله نعمة الهداية والتوفيق لا يفكر إلا فيما يجب في المستقبل على ضوء ما وقع في الماضي.

****** وفيه الإشارة إلى النهي عن التشبه بالكفار؛ والتشبه بالكفار اختلف فيه العلماء، فذهب أصحاب الإمام أحمد - رحمه الله - في المشهور عنهم إلى أن التشبه بالكفار مكروه، والمكروه عند الفقهاء كراهة تنزيه، أي يثاب تاركه امتثالاً، ولا يعاقب فاعله، لكن قولهم هذا ضعيف والصواب أن التشبه بالكفار حرام، ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

حديث: (مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) [أبو داود] في كتابه القيم «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» لما ذكر هذا الحديث قال: وأقل أحوال هذا الحديث التحريم؛ وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم؛ لأن قوله: (مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) ظاهره أنه كافر، فالإقتصار على الكراهة التي يراد بها كراهة التنزيه عند الفقهاء فيه نظر ظاهر.

وضابط التشبه أن يأتي بما يختص بالكفار من لباس أو تحلية جسم أو غيره، بحيث يقول من رآه: "هذا من الكفار"؛ لأنه لا يمكن أن يقول هذا من الكفار إلا إذا كان الشيء مختصاً بهم، أما إذا كان عاماً فإنه لا يمكن أن يقال هذا من الكفار.

ولا يشترط في التشبه القصد؛ لأن الإنسان لو قصد التشبه لكان الخطر عظيماً؛ لأنه لا يقصد التشبه بهم إلا من ملئ قلبه - أو كاد يملأ - بمحبتهم وتعظيمهم، بل إن التشبه حاصل بصورة التشبه سواء قصد أم لم يقصد.

هذا نقوله باعتبار الشخص نفسه، أما باعتبار إنكارنا عليه فإننا ننكر عليه مطلقاً، لأننا لو سكتنا عن الإنكار عليه لأمكن كل واحد أن يقول إنني لم أقصد التشبه، فنحن نقول: الإنكار على المتشبه مطلقاً سواء قصد أم لم يقصد.

والتشبه في الأمور الدينية بالكفار أعظم بكثير من التشبه في الأمور العادية؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم الباطل لذاته لكونه من خصائصهم. ولهذا ذكر ابن القيم -رحمه الله- في أحكام أهل الذمة أنه حرام بالاتفاق، وقال: هذا إن سلم فاعله من الكفر فقد أتى محرماً لا شك فيه؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم دينهم ودينهم منسوخ بدين محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بإجماع المسلمين.

{وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} أخوة عقيدة النفاق والضلال وليست أخوة النسب.

واللام هنا ليست لتعدية القول؛ لأن إخوانهم قد ماتوا وقتلوا، فلا يمكن أن يوجه القول لهم لكنها بمعنى (في) أي: قالوا في إخوانهم. أو بمعنى (عَنْ) أي: قالوا عن إخوانهم أيضاً.

{إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ} سافروا وأبعدوا في السفر، ولم يكن سفراً قاصداً، بل كان سفرهم فيه مشقة وجهد، وتعرض فيه المسافرين للأذى.

وأصل الضرب في الأرض: الإبعاد فيها، والذهاب لحاجة الإنسان. فالضرب مستعمل في السير لأن أصل الضرب هو

إيقاع جسم على جسم وقرعه به، فالسير ضرب في الأرض بالأرجل، فأطلق على السفر.

{أَوْ كَانُوا غَزَى} جمع غَزٍ، كَرَكِع وراكع، وهو من يخرج لقتال ونحوه من شؤون الحرب، فمات من مات منهم أو قتل من قتل بقضاء الله وقدره.

قال الرازي: "وذكر الغزو بعد الضرب، لأن من الغزو ما لا يكون ضرباً، لأن الضرب الإبعاد، والجهاد قد يكون قريب المسافة، فلذلك أفرد الغزو عن الضرب".

يعني: أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا فتغايراً، فصح إفراده، إذ لم يندرج من جهة تحته.

وقيل: لا يفهم الغزو من الضرب، وإنما قدم لكثرتة.

{لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا} أي ما فارقونا وبقوا في ديارنا.

{مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} هذا فيه ما يسمى عند البلاغيين: "لفاً

ونشراً مرتباً"، (ما ماتوا) مقابل (إذا ضربوا)، (وما قتلوا) مقابل (كانوا غزى).. فلو كانوا عندنا ولم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا.

وهذا القول ينبعث من قلوب غير مؤمنة يسيطر عليها غم حاضر وهم غابر، وهو يدل على ضيق العقول، ومصادمة لكل

معقول تحت تأثير الهوى الجامح المسيطر، فإنهم ما داموا قد خرجوا مختارين، فليس لكلمة «لو» مقام بعد ذلك في اعتبارهم، ثم إن هذا الكلام يضعف العزيمة، ويفتح القلوب للخور، فالمأسور بهزيمة الماضي لا ينتصر في المستقبل، وفوق هذا فإن ذلك القول يدل على عدم تفويض الأمور لله سبحانه، فهو مسير كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، وعلى المؤمن أن يعمل ويجد، ويترك تقدير الأمور لرب العالمين، لأن الذي يتيقن أن كل موت وقتل بأجل سابق يجد برد التسليم لله تعالى على قلبه.

وهذا القول لا يصدر أيضا إلا عن قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يرجون ما عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك ذكر سبحانه أنه من خواص الذين كفروا بالله واليوم الآخر، وأن تلك الحال اليأس القاتلة شأن من شئون الذين يلحدون في الله دائما، وهي عقاب دنيوي لهم، ولذا قال سبحانه:

{لِيَجْعَلَ اللَّهُ} اللام للعاقبة لا للتعليل، يعني قالوا هذا القول ليجعل الله هذا القول حسرة في قلوبهم. وأنهم لو ظنوا أن هذا القول سيكون حسرة وأنه لا فائدة منه إلا التحسر والندم وتكرار المصيبة ما قالوا هذا.

فاللام هنا هي التي تسمى «لام العاقبة»، وهي تدل على المال، ولا تدل على التعليل الباعث، وذلك مثل قوله تعالى: **{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...}** [القصص: ٨]، فإنه ما كان الباعث على الالتقاط هو أن يكون لهم عدوا وحزنا، بل كانت النتيجة هي العداوة.

ويصح أن تكون اللام للتعليل، ويكون المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق الكفار على هذه الأخلاق اليائسة، أو قدر لهم هذه الأحوال المؤسفة ليلقي الحسرة في قلوبهم، والغم في نفوسهم، والضلال بهذه الأقوال في عقولهم.

{ذَلِكَ} القول **{حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}** الحسرة: هم وألم وحزن مستمر يأخذ بخناق النفس بسبب فوت مرغوب أو فقد محبوب. وقيل: الاهتمام [من الهم] على فائت لم يقدر بلوغه. قال الأصبهاني في هذه المادة: "الحاسر من لا درع له، والحاسر المَعْيَا لانكشاف قواه، ويقال للمُعْيَا حاسر ومحسور، أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله عز وجل: **{يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}**، يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور، وقال تعالى: **{فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}**،

والحسرة الغم على ما فاته، والندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، وانحسرت قواه من فرط غم، وأدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، قال تعالى: **{لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} {وَأِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ}**."

ومن هذا يتبين أن معنى الحسرة يتضمن هما وحرنا وإعياء، وتكشفا للآلام يلقي تشاؤما وارتياحا وانزعاجا مستمرا.

وفي هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى الفرق بين النفس المؤمنة إذا فقدت أحبابها أو أصفياءها في جهاد أو ما يشبهه، والنفس الكافرة إذا أصيبت بمثل هذه الإصابة.

وفي هذه الآيات أيضا يبين سبحانه أن النظر إلى الماضي المؤلم من غير الاقتصار على الاعتبار يؤدي إلى الحسرة والحزن الدائم، فالنفس الدبرية التي تلاحقها دائما بآلام الماضي لا تسعد في ذاتها، ولا تتأهب لعمل يحتاج إلى تضافر الهمم وتحفز العزائم، فإن تقرّح القلب بآلام الماضي كفر بالله، وعدم تفويض إليه سبحانه، وعدم إيمان بالمستقبل الذي يكون يوم القيامة، ويكون الأمر فيه كله لله تعالى، وإن هذه الروح الدبرية هي روح الكافرين، وقد نهى الله سبحانه عن أن يكونوا مثلهم.

وهذا القول يكون حسرة في قلوبهم لأنه لا يغني شيئاً لأن الأمر بيد الله تعالى، ولهذا قال:

{وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} تقوية لمعنى النهي السابق، وتأکید لضلال الكفار ومن يحاكونهم في انشغال أنفسهم بمن ماتوا، وظنهم أن الخروج هو الذي كان سببا في قتل من قتلوا.

فهو سبحانه بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزَاد في عُمر أحد ولا يُنْقَص منه إلا بقضائه وقدره، فلا السفر ولا القتال يميّتان، ولا القعود في البيت جبناً وخوراً يحيى.

وإنه إذا كانت الحياة والموت بيد الله وحده قد جعل لكل أجل كتابا ومن جاء أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وأن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب ومسبباتها، وهو الذي يربط بينهما برباط السببية لحكمة يراها، والأسباب لا تلزمه سبحانه، فلا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله سبحانه في أفعاله كلها بالإحياء والإماتة يتصرف تصرف العليم الخبير.

قال خالد بن الوليد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عند موته: "ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

****** وفيه أن هذا الدين رحمة؛ لأن نهي الله عن الندم على ما مضى مصلحة للإنسان، لأنه يطمئن قلبه ولا يتحسر ولا يحزن فإنه يقول لنفسه: هذا الأمر لا بد أن يقع كما وقع، فلا حاجة لأن تقول: لو أني فعلت لما حصل؛ إنما تقول: لو أني فعلت في أمر تكون فرطت فيه، أما شيء لم يكن بتفريطك فهذا لا يحل لك أن تندم عليه.

إذن من قال : (لو) معترضاً على القدر فقد شابه الكفار وقد فتح على نفسه باب من عمل الشيطان.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} قال الراغب: "علق ذلك بالبصر لا بالسمع، وإن كان الصادر منهم قولاً مسموعاً لا فعلاً مرئياً. لما كان ذلك القول من الكافرين قصداً منهم إلى عمل يحاولونه، فخص البصر بذلك، كقولك لمن يقول شيئاً وهو يقصد فعلاً يحاوله: أنا أرى ما تفعله".

فعلمه وبصره سبحانه نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.. يعلم البواعث والنتائج ويعلم الحقائق والوقائع، فلا تذهب أنفسكم حشرات على الماضي.

{وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمَ} قدم (قُتِلْتُمْ) في هذا المقام لأنه المناسب؛ لأن الكلام الكريم في أعقاب مقتلة

أصابَت المسلمِين وأصابَهُم هم بسببِها فَناسبَ تقديمَ (قَتَلْتُمْ) على (مَتَّ) كما أَنَّ الخطابَ هنا للمُؤمِنِينَ الذينَ جاهدوا، وهو مبينٌ لجزائِهِم.

{لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} أخبر سبحانه أنه إن تم ما يحذرونه من القتل في سبيل الله أو الموت فيه، فما يحصل لهم من مغفرة الله ورحمته بسبب ذلك خير مما يجمعون من حطام الدنيا ومنافعها، لو لم يهلكوا بالقتل أو الموت.

فموتة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ورحمة الله تعالى تتضمن الثواب، والنعيم المقيم يوم القيامة، وذكر رحمة الله تعالى في هذا المقام لكيلا تذهب نفوس المؤمنين حسرة على ما ماتوا منهم، فإنهم ليسوا في شقاء بل هم في نعيم.

وظاهر الآية يدل على أنه جعلت المغفرة والرحمة لمن اتفق له أحد هذين: القتل في سبيل الله، أو الموت فيه.

{وَلَيْنَ مُتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ} الخطاب الأول للتبشير بالنسبة للمجاهدين فقدّم الأشرف الأهم في تحصيل المغفرة والرحمة، إذ القتل في سبيل الله أعظم ثواباً من الموت في سبيله، والخطاب هنا يعم المجاهدين وغيرهم، بل هو خطاب عام

للمؤمن والكافر لأنه لم يقيدا بـ {في سبيل الله}، ولذا قدم فيه
(متم) على (قتلت).

{لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُحْشَرُونَ} وعظ.. وعظهم الله بهذا القول، أي: لا
تفروا من القتال ومما أمركم به، بل فروا من عقابه وأليم عذابه،
فإن مردكم إليه لا يملك لكم أحد ضرا ولا نفعا غيره.

فالتعبير بالحقير إشارة إلى أن الجميع يجتمعون لا يفلت
منهم أحد، فالمنافقون والمشركون والمؤمنون الذين قتلوا والذين
نجوا مجموعون عند ربهم، وسيلقاهم، وسيحاسب كل امرئ بما
كسب، للمجاهدين مقامهم، ولغيرهم مهوَاهم الذي هووا إليه،
ففي هذا إنذار وتبشير وتذكير بلقاء الله العلي الكبير.

****** وفيه: زيادة التسلية للمؤمنين؛ لأن المؤمن إذا علم أن
مرجه إلى الله فإنه سوف يطمئن وسوف يستبشر وينشرح صدره
بذلك.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ
فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

{فَبِمَا رَحْمَةٍ} فبرحمة من الله، الباء للسببية و (ما) صلة دخلت لحسن النظم وزيادة المعنى وتأكيده وتقويته، أي: رحمة عظيمة فياضة، أفاضها المولى العلي القدير.

ومثل هذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: **{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ}** [النساء: ١٥٥] أي فبنقضهم ميثاقهم، ومنه قوله تعالى: **{قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ}** [المؤمنون: ٤٠] أي عن قليل.

والتنوين للتفخيم، أي: ما لنت هذا اللين الخارق للعادة، مع ما سبب فعلهم من الغضب الموجب للعنف والسطوة، لاسيما مع اعتراض من اعترض على ما أشار به، إلا بسبب رحمة عظيمة.

وتقديم المجرور مفيد للحصر الإضافي، أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظة عليهم، ولكن الله ألان خلق رسوله رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمة.

{مِنَ اللَّهِ} أسند الرحمة إلى الله عز وجل لأنه المتفضل بها، ولأن إسنادهما إليه يفيد عظمتها وأنها رحمة عظيمة.

{لَنْتَ لَهُمْ} سهلت لهم أخلاقك، وكثر احتمالك، ولم تسرع إليهم باللوم والعتاب فيما كان منهم يوم أُحُدٍ، وللمؤمنين عموماً كما قال تعالى: **{بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ}** [التوبة: ١٢٨].

ودل الفعل الماضي في قوله: {لَنْتَ} على أن ذلك وصف تقرر وعُرف في خلقه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله إذ خلقه كذلك.

فلقد أرسل محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مفطوراً على الرحمة، فكان رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينة مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه، إذ هو بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغ الشريعة للعالم.

والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة. وسرعة الفهم، وهم المتلقون الأولون للدين، فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استئزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق.

وورد أن صفح النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعفوه ورحمته كان سببا في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك عياض في كتاب «الشفاء».

وكان لينه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ذلك كله لنا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقا باسم الرحمة.

** وفيه: أنه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لنا ليتعرض لرحمة الله عز وجل، وأن اللين أولى بكثير من الفظاظة والشدة؛ لأن الله جعله من الرحمة، ولكن الفقهاء رحمهم الله لما ذكروا ما ينبغي للقاضي أن يتأدب به قالوا: "ينبغي أن يكون لنا من غير ضعف"؛ لأن بعض الناس قد يكون لنا ويكون بسبب لينه ضعيفا غير حازم، وهذا نقص في اللين، لكن ينبغي أن يكون لنا مع الحزم والقوة في موضعها؛ لأن القوة في موضعها حكمة، فاللين إن ضاعت منه الحكمة فهو مذموم، وإن اجتمع مع الحكمة فهو محمود.

{وَلَوْ كُنْتَ فَظًا} جافيا سيء الخلق، والفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلاً، وهو مستعار من الفَظ، وهو ماء الكرش، وهو مكروه مستقذر شربه.

{ غَلِظَ الْقَلْبُ } الغلظُ: كبر الإجرام، ثم تجوز به في عدم الشفقة، وكثرة القسوة في القلب فيكون قاسياً لا يرحم ولا يُنزل الناس منازلهم.

ولذلك قالت جوارى الأنصار لعمر حين انتهرهن: "أنت أفظ وأغلظ من رسول الله" يردن أنت فظ وغلِظ دون رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

روى البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا. فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ قَالَ: (مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ).

وقد تمت الفظة رغم أنها تنشأ عن الغلظة، لتقدم ما هو ظاهر للحس على ما خاف في القلب.. وجمع بينهما تأكيداً.

{ لَا نَفْضُؤُا مِنْ حَوْلِكَ } لنفروا وتفرقوا عنك، وأصل الفض تفرُّق الأجزاء وانتشارها، ومنه فضَّ ختم الكتاب، ثم استُعير منه انفضاض الناس، قال تعالى: **{ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا }** [الجمعة: ١١] ومنه قولهم: لا فض فوك.

وذلك أن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله تعالى إلى الخلق، وذلك لا يتم إلا بميل قلوبهم إليه، وسكون نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيماً بهم، كريماً، يتجاوز عن ذنوبهم، ويعفو عن سيئاتهم، ويخصهم بالبر والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مُبرّئاً عن سوء الخلق، وغِلظة القلب، ويكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، وكثير القيام بإعانة الفقراء.

قال في زهرة التفاسير: "والفظاظة خشونة المظهر، والعشرة السيئة، وسوء القول، وتجهّم الوجه.. وغلظ القلب قسوته، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن نبيه الغلظة في المظهر والباطن، فالغلظة في المظهر هي الفظاظة، والغلظة في الباطن قسوة القلب وكلا الوضعين من شأنه أن ينفر، ولقد قال الله تعالى في وصف نبيه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

وكان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- باشاً لطيف المعشر متسامحاً رحيماً لا يقسو ولا يُعَنِّت أحداً ولا يغضب ولا يسب، وما ضرب أحداً بيده قط، وكان سهلاً في معاملاته متسامحاً، وكان طلق الوجه دائماً، رآه أعرابي، فاسترعاه بشاشته وطلق

محياه فقال له: أنت الذي تقول عنه قريش إنه كذاب؟! والله ما هذا الوجه بوجه كذاب!. وأسلم إذ دعاه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-".

وفي البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥] قَالَ فِي التَّوْرَةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَلِأُمَمِينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَابٍ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا.

** وفيه: بيان مضار الفظاظ والغلظة، وأن من أعظم مضارها نفور الناس عن الإنسان إذا كان فظاً غليظ القلب. هذا مع أنهم يرجون من قربهم من الرسول عليه الصلاة والسلام ما يرجون، فكيف إذا كان الإنسان لا يرجي منه ما يرجي من الرسول إذا كان فظاً غليظ القلب؟ فالظاهر أنه لا يكفي أن ينفضوا من حوله، فربما رموه بالحجارة؛ لأن الصحابة يرجون من الرسول الخير

بقربهم منه، فإذا قدر أنه غليظ القلب ينفضون من حوله فمن
سواه من باب أولى.

{فَاعْفُ عَنْهُمْ} إذا قصروا في حقك، والعفو هو التسامح
وعدم المؤاخذه.

وحمل القفال هذه الآية على واقعة أُحُد، أي تجاوز عنهم ما
أتوا يوم أُحُد، حين عادُوا إليك بعد الانهزام.

** وفيه: أنه ينبغي للإنسان أن يعفو عن حقه في معاملة
إخوانه؛ لقوله: **{فَاعْفُ عَنْهُمْ}** ولكن هذه الآية مقيدة بما إذا كان
العفو إصلاحاً، قيدها قوله تعالى: **{فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى**
اللَّهِ} [الشورى: ٤٠]، أما إذا كان في العفو زيادة إفساد وطغيان
فإن هذه مصلحة تضمنت مفسدة أعظم، مثل: لو كان الجاني
معروفاً بالشر والفساد فهل الأولى أن نعفو عنه أو أن نؤاخذه
بالذنب؟ الأولى أن نؤاخذه بالذنب.

** والعفو ليس بواجب لأن الله يقول: **{وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ**
ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ} [الشورى: ٤١] فمن انتصر
لنفسه بعد أن ظلم فليس عليه سبيل لكن الأفضل أن يعفو إذا
كان في العفو إصلاح.

{وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} إذا قصرُوا في حق الله عز وجل، فالصحابة قد يقصرون في حق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد يقصرون في حق الله.

أما في حق الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: {اعف عنهم} وما أكثر ما يحصل من جفأة الأعراب أو غيرهم من الكلام المسيء إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولكنه يصبر ويتحمل ويعفو عنهم إلى حد أن رجلاً من الأنصار قال له لما حكم فيه في خصومة بينه وبين الزبير بن العوام قال له: أن كان ابن عمك يا رسول الله؟ وهذا اتهام فظيع. فالزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. فقال هذا الرجل الأنصاري -عفا الله عنه- تلك المقولة. وقال له -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رجل وهو يقسم فيئاً قال: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقال له: اعدل.

كل هذه الكلمات كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يصبر ويحتسب الأجر من الله ويعفو حتى أحياناً يأتيه من زوجاته ما يأتيه مما يحصل بسبب الغيرة بين النساء وهو يعفو عنهن.

**** وفيه: أن القيادة الحكيمة تكون مع العزيمة رحيمة، ومع استقبال الأحداث بقوة تكون خالية من الفظاظة والقسوة، وتلتزم**

الصفح عن الخطأ ليعتزموا الصواب، والاستغفار من الذنب لتجدد التوبة.

قال في زهرة التفاسير: "كنت لنا معهم في كل أحوالك، وكنت لنا لهم بعد الأخطاء التي وقعوا فيها، والكارثة التي نتجت عن مخالفتك، فما لُمْتَهُمْ، ولا عَنَّفْتَهُمْ بل سكت حيث رأيت ما أصابهم من غم استغرقهم، وحزن استولى عليهم، ولقد شكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ذلك اللين؛ إذ لم يؤاخذهم، ولم يفرط في القول معهم؛ لأن اللوم على الماضي يُؤسّس النفس من غير جدوى، وهو رجعة إلى الوراء، والقائد الحكيم يتجه إلى الأمام، ولا يلتفت إلى ورائه إلا بمقدار ما ينير له السبيل أمامه، وبمقدار ما يجنبه خطأ وقع فيه، وبمقدار ما يحفز همة من معه، ويشحذ عزميتهم، وإن المبالغة في اللوم على ما وقع في الماضي يلقي باليأس، وفي اليأس الهزيمة، واليأس والقنوط إسراف على النفس بالهموم، ولا نجاح لمن في هم دائم، وحزن واصل، فكان لئن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- معهم في هذه الآلام التي أصابتهم كالبلسم الشافي لأسقامهم، والقائد الماهر الحكيم يجب أن يجمع إلى العزيمة القوية الموجهة إلى العمل البشّر ولين العريكة، وتسهيل الخروج من أوضاع الخطأ، حتى لا يعنتهم

ولا يبهظهم [بَهَظَ الحِمْل: أثقله وعجز عنه، فهو مبهوظ، وأمر باهظ: أي شاق]، وحسبهم ما أصابهم، وإن الشدة في مثل هذه الأحوال والغلظة في القول والعمل تنفر ولا تجمع".

{وَشَاوِرُهُمْ} والمشورة هي استطلاع الرأي بحيث يعرض الشيء على المستشار ليستطلع الرأي وينظر ما رأيه فيه، والمستشار مؤتمن يجب عليه أن يؤدي الأمانة على الوجه الذي يرى أنه أصح لمستشيريه.

والمشاورة مشتقة من (شار الدابة) إذا اختبر جريها عند العرض على المشتري، وفعل شار الدابة مشتق من (المشوار) وهو المكان الذي تركض فيه الدواب.

فضمير الجمع في قوله: {وَشَاوِرُهُمْ} عائد على المسلمين خاصة: أي شاور الذين أسلموا من بين من لنت لهم، أي لا يصدق خطل رأيهم فيما بدا لهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنما كان ما حصل فلتة منهم، وعشرة قد أقلتهم منها.

{فِي الْأَمْرِ} في الأمر العام المشترك بدليل قوله تعالى: **{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}** [الشورى: ٣٨]، وإنما تكون المشاورة

في الأمر المهم المشكل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمة.

وجاء الكلام على أحسن النسق، وذلك أنه -أولاً- أمر بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه، فإذا انتهوا إلى هذا المقام أمر أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى، لتزاح عنهم التبعات، فلما صاروا إلى هنا أمر بأن يشاوروهم في الأمر إذا صاروا خالصين من التبعتين، مُصَفَّين منهما.

واتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحي من عند الله لم يجز للرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يشاور الأمة فيه، لأن النص إذا جاء بطل الرأي والقياس، فالأمر هنا -وإن كان عاماً- المراد به الخصوص.

قال أبو البقاء: الأمر هنا للجنس، وهو عام يراد به الخاص؛ لأنه لم يؤمر بمشاورتهم في الفرائض، ولذلك قرأ ابن عباس: في بعض الأمر وهذا تفسير لا تلاوة.

قال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يشاورهم في الأمر الذي يريده، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم وأطيب لأنفسهم، وإذا شاورهم عرفوا

إكرامه لهم وأن القوم إذا عزموا وأرادوا بذلك وجه الله تعالى عزم الله لهم على الأرشد.

وقال الشافعي رحمه الله: ونظير هذا قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا) [أحمد] إنما أمرنا استئذانها لاستطابه نفسها وإنها لو كرهت كان للأب أن يزوجهها.

وكمشاورة إبراهيم -عليه السلام- ابنه حين أمر بذبحه .
وقال الحسن: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده.

وقد أثنى الله تعالى على أهل المشاورة من الأنصار فقال جل ذكره: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [الشورى: ٣٨].

قال ابن كثير: "كان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يشار أصحابه في الأمر إذا حَدَثَ، تطييباً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرضَ البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرَكِ الغَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

قاعدون"، ولكن نقول: "اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون".

وشاورهم -أيضا- أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو، بالتقدم إلى أمام القوم.

وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك.

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

وقال عليه السلام في قصة الإفك: (أشيروا عليّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ أَبْنُوا أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ، وَأَيْمُ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ -والله- مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا). واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها. فكان - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يشاورهم في الحروب ونحوها.

**** والفائدة في أمر الله لرسوله بالمشاورة من وجوه:**

الأول: أن مشاورة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إياهم توجب علو شأنهم، ورفعة درجاتهم، وذلك يقتضي شدة محبتهم له، فلو لم يفعل ذلك لكان ذلك إهانة بهم، فيحصل سوء الخلق والفضاظة.

الثاني: أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإن كان أكمل الناس عقلاً، إلا أن عقول الخلق غير متناهية، فقد يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر، لاسيما فيما يتعلق بأمور الدنيا، كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَلِيَّ) [أحمد بسند صحيح]

الثالث: قال الحسنُ وسفيانُ بن عيينة إنما أمر بذلك ليقتدي به غيره في المشاورة ويصير ذلك سنة في أمته.

الرابع: أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شاورهم في واقعة أُحُد، فأشاروا عليه بالخروج، وكان ميله إلى ألا يخرج، فلما خرج وقع ما وقع، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقي في قلبه منهم -بسبب مشاورتهم- بقية أثر، فأمره الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة، ليدل على أنه لم يَبْقَ في قلبه أثرٌ من تلك الواقعة.

الخامس: أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمر بمشاورتهم، لا
ليستفيد منهم رأياً وعِلْماً، بل ليعلم مقادير عقولهم وعلمهم،
فينزلهم منازلهم على قدر عقولهم وعلمهم.

السادس: أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل لأنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- محتاج إليهم، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم في الأمر
اجتهد كل واحد منهم في استخراج الوجه الأصح في تلك
الواقعة، فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصح
الوجوه فيها، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما
يعين على حصوله. وهذا هو السر عند الاجتماع في الصلوات،
وهو السر في أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد.

السابع: قال الخفاجي: "في الآية إرشاد إلى الاجتهاد وجوازه
بحضرته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-".

وقال الرازي: "دلت على أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان
مأموراً بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي. والاجتهاد يتقوى
بالمناظرة والمباحثة، فلهذا كان مأموراً بالمشاورة".

**** أقوال العلماء في حكم الشورى:**

اختلف العلماء في حكم الشورى على قولين:

الأول: ذهب المالكية والأحناف إلى القول بوجوب الشورى وعمومها في كل شيء من مصالح المجتمع ابتداء من رضاعة الطفل عند اختلاف الأبوين: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} [البقرة: ٢٣٣] وانتهاء بأمر الأمة الهامة {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨]

قال ابن عطية في تفسيره: "الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب لا اختلاف فيه".

وقال ابن خويز منداد: "واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، وفيما يتعلق بمصالح العباد والبلاد".

وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب للصواب فقال: "والشورى مسبار العقل وسبب الصواب". يشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة، وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب.

وقال الفخر الرازي: ظاهر الأمر أنه للوجوب. ولم ينسب العلماء للحنفية قولاً في هذا الأمر إلا أن الجصاص قال في كتابه «أحكام القرآن» عند قوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}: هذا

يدل على جلالة موقع المشورة لذكرها مع الإيمان وإقامة الصلاة
ويدل على أننا مأمورون بها. ومجموع كلامي الجصاص يدل أن
مذهب أبي حنيفة وجوبها.

وقال النووي، في صدر كتاب الصلاة من شرح مسلم:
"الصحيح عندهم وجوبها وهو المختار".

وقد شاور الرسول أصحابه في الحرب يوم بدر وأحد،
وتشاور الصحابة في الخلافة من بعده، وفي الحروب، وفي
ميراث الجد، ونفقة المطلقة. الخ.

الثاني: ذهب الشافعية (الأم ٥/١٨) والحنابلة (المغني
١٤/٢٦) أن الشورى مستحبة للحاكم إن احتاج إلى الاجتهاد
لقوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} وإنما أمر بها الرسول -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تطيباً لنفوس أصحابه.

ورد هذا أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي المعروف
بالجصاص بقوله: "لو كان معلوما عندهم أنهم إذا استفرغوا
جهدهم في استنباط الصواب عما سئلوا عنه، ثم لم يكن معمولاً
به، لم يكن في ذلك تطيب لنفوسهم ولا رفع لأقذارهم، بل فيه

إيحاشهم وعدم معاودة الشورى مرة أخرى حيث لم يأخذ بقولهم، فمشاورتهم لم تفد شيئا. فهذا تأويل ساقط".

واستدلوا أيضا بحديث معاذ بن جبل لما بعثه الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى اليمن فسأله: (بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي ولا آلوا. قال رسول الله: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يحب رسوله). [رواه أحمد بسند ضعيف]

والذي يظهر رجحان القول الأول القائل بالوجوب، وما استدل به القائلون الآخرون غير وجيه؛ فإن حديث معاذ مختلف في إسناده والأرجح ضعفه.

وعلى فرض صحته فلا دليل فيه؛ لأن المنصوص عليه في الكتاب والسنة ليس محلا للتشاور، وإنما التشاور فيما لا نص فيه وفيه للرأي مجال. والشورى جاء النص على الأمر بها كما في سورتي آل عمران والشورى.

ويقال أيضا إن حديث معاذ ورد في مجال الحكم بين الخصمين، وهذا أخص من الشورى.

ثم على الفرض والجدل بأن مشاورة الوالي لأهل العلم والرأي غير واجبة إنما هي في حق الوالي العالم المجتهد الذي يعرف الحكم بدليله.

أما الحكام (السياسيون) اليوم فليسوا علماء بالشرع أصلاً فكيف يقال بأن المشاورة في حقهم غير واجبة؟! إن مثل هذا القول هو الذي جرأ حكام اليوم على الظلم والاستبداد.

وفي صحيح البخاري: «باب قول الله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} وَأَنَّ الْمُشَاوَرَةَ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ لِقَوْلِهِ {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ لِبَشَرٍ التَّقَدُّمُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَشَاوَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمَقَامِ وَالْخُرُوجِ فَرَأَوْا لَهُ الْخُرُوجَ فَلَمَّا لَبَسَ لَأُمتَهُ وَعَزَمَ قَالُوا أَقِمْ فَلَمْ يَمَلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ وَقَالَ: (لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ يَلْبَسُ لَأُمتَهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ).

وَشَاوَرَ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ فِيمَا رَمَى بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ عَائِشَةَ فَسَمِعَ مِنْهُمَا حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ فَجَلَدَ الرَّامِينَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَنَازُعِهِمْ وَلَكِنْ حَكَمَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ.

وَكَانَتْ الْأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
يَسْتَشِيرُونَ الْأَمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا
بِأَسْهَلِهَا فَإِذَا وَضَحَ الْكِتَابُ أَوْ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ افْتِدَاءً
بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَرَأَى أَبُو بَكْرٍ قِتَالَ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ فَقَالَ عُمَرُ كَيْفَ تُقَاتِلُ
النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أُمِرْتُ أَنْ
أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لَا أُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ
إِلَى مَشُورَةٍ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ
وَأَحْكَامِهِ وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ
فَاقْتُلُوهُ)

وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةٍ عُمَرُ كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا وَكَانَ
وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. انتهى

وقال ابن عاشور: وأخرج الخطيب عن علي -رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ- قال: قلت: يا رسول الله الأمر ينزل بعدك لم ينزل فيه

القرآن ولم يسمع منك فيه شيء قال: (اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد).

واستشار أبو بكر في قتال أهل الردة، وتشاور الصحابة في أمر الخليفة بعد وفاة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وجعل عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الأمر شورى بعده في ستة عينهم، وجعل مراقبة الشورى لخمسين من الأنصار، وكان عمر يكتب لعماله يأمرهم بالتشاور، ويتمثل لهم في كتبه بقول الشاعر:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد ... أشيرا علي بالذي تريان
هذا والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة
أي فطرة على محبة الصلاح وتطلب النجاح في المساعي،
ولذلك قرن الله تعالى خلق أصل البشر بالتشاور في شأنه إذ قال
للملائكة: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]، إِذْ قَدْ
غَنَى اللَّهُ عَنْ إِعَانَةِ المَخْلُوقَاتِ فِي الرَّأْيِ وَلَكِنَّهُ عَرَضَ عَلَى
المَلَائِكَةِ مَرَادَهُ لِيَكُونَ التَّشَاوُرُ سُنَّةً فِي الْبَشَرِ ضَرُورَةٌ أَنَّهُ مُقْتَرَنٌ
بِتَكْوِينِهِ، فَإِنْ مَقَارَنَةُ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ فِي أَصْلِ التَّكْوِينِ يُوجِبُ إِفْهَ
وَتَعَارُفَهُ. ولما كانت الشورى معنى من المعاني لا ذات لها في
الوجود جعل الله إلفها للبشر بطريقة المقارنة في وقت التكوين.

ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر فقد
استشار فرعون في شأن موسى عليه السلام فيما حكى الله عنه
بقوله: **{فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}** [الأعراف: ١١٠].

واستشارت بلقيس في شأن سليمان عليه السلام فيما حكى
الله عنها بقوله: **{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ
قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}** [النمل: ٣٢]

وإنما يلهي الناس عنها حُبُّ الاستبداد، وكراهية سماع ما
يخالف الهوى، وذلك من انحراف الطباع وليس من أصل
الفطرة، ولذلك يهرع المستبد إلى الشورى عند المضائق.

قال ابن عبد البر في بهجة المجالس: الشورى محمودة عند
عامة العلماء ولا أعلم أحدا رضي الاستبداد إلا رجل مفتون
مخادع لمن يطلب عنده فائدة، أو رجل فاتك يحاول حين
الغفلة، وكلا الرجلين فاسق. ومثل أولهما قول عمر بن أبي ربيعة:

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

قال تعالى: **{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ
شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** [الشورى: ٣٨] هذا خبر
يراد به الأمر. ومجيء (شورى) بين إقامة الصلاة والإنفاق في
سبيل الله فيه إشارة إلى معان لطيفة منها:

١- الصلاة أقوال وأفعال، وكذلك الشورى هي أقوال تعقبها أفعال.

٢- الصلاة تؤدى جماعة وفردى وفي حال انفراد المصلي له أن يؤديها كيف شاء من طول وقصر في القراءة والسجود والركوع والقيام. أما في حال أدائها جماعة فليس له أن يفارقهم قبل تمام الصلاة. وكذلك الشورى فلا يجوز للفرد أن يعتد برأيه ويستقل به عن جماعة أهل الشورى وله بمفرده أن يختار لنفسه أحد الآراء والأقوال ويعمل بها لنفسه.

٣- والصلاة فريضة عامة تجب على الرجل والمرأة على السواء، وكذلك الشورى. ولعل تنكير (شورى) دليل على إطلاقها وعمومها يشمل كل شيء يحتاجه المسلمون مما لم ينص عليه في الشرع.

٤- إذا كانت الصلاة يجب أن يسبقها الطهور والوضوء فإن الشورى يجب أن يسبقها القصد الحسن والنصيحة الصادقة، ولا تكون النصيحة صادقة حتى تخرج من قلب سليم.

٥- الصلاة لها وقت تؤدى فيه، ولا يجوز تأخيرها عن وقتها بل توعده الله من آخرها عن وقتها بالنار فقال: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** [الماعون: ٤-٥] وكذلك

الشورى لا يجوز تأخيرها عن وقتها إذا طلبت، أو حزب المسلمين أمر فتداعوا للنظر فيه. فإن تأخيرها سبب للإثم والفساد.

وتشبه الشورى الإنفاق من وجوه:

١- جعل الله الشورى نفقة ينفق المسلم والمسلمة لمصلحة المسلمين مما عنده من عقل وعلم ومعرفة وأدب وحكمة وفن كما ينفق الرجل من ماله على الضعيف المستحق.

٢- عبرت الآية بـ (الإنفاق) دون (الزكاة)، حيث لم يُجعل للشورى حد أو حال يوقف عنده- كما حدد الله للزكاة نصابا معلوما، بل جعل الله الشورى كالصدقة المطلقة يشاب عليها صاحبها بكل وقت وعند كل مقولة.

٣- وجاءت (ما) التبعية في قوله {مما رزقناهم} أي فكما أنه لا يجوز للإنسان أن يتصدق أو ينفق كل ماله وإنما يبقى لأهله وولده ما يكفيهم، فكذلك في الشورى على المسلم أن لا يشير في مشورته ما لا يخدم الأمر المطروح للتشاور فيشوش الأمر أو يشتته.

٤- من الإعجاز في مجيء الشورى بعد الصلاة في الآية - أن وقوعها عادة في عهد رسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل

الصلاة أو بعدها - عادة - وكان ينادي للأمر المراد التشاور فيه
ب (الصلاة جامعة).

٥- لم تشر الآية ولم تتعرض السنة لشكل أو آلية الشورى
في الإسلام، بل هو متروك للناس يختارون منهما ما يناسب
الحال والزمان والمكان.

وعلى هذا فالمسلمون مطالبون ديانة - كما هم مطالبون
سياسة وتديراً - أن يتشاوروا بينهم في كل ما ينفعهم ويقويهم
ويدفع عنهم الضعف والأذى في أمر الدين والدنيا.

وفي آية آل عمران أمر الرسول بالمشاورة لمن يراه من آحاد
الناس دون الشورى لأنها له غير ملزمة. والمؤمنون أمرهم الله
بالشورى فيما بينهم وجوباً عينياً حيناً كالصلاة والزكاة،
واستحباً حيناً آخر كالنفقة (أي أن الله أمرهم بالشورى عامة
نصاً، وبالمشاورة الخاصة ضمناً).

ووجه ذلك: أن الأنبياء لا يستمدون قيادتهم وسياستهم من
الأمة وإنما يستمدون الأحكام من الله بالوحي؛ لأن ما جاء به
الأنبياء أمر شرعي عقدي {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ
فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء: ٦٥] فطاعتهم طاعة لله {مَنْ يُطِعِ
الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: ٨٠] وبيعة الناس لهم على

السمع والطاعة بيعة لله فيما يحبون ويكرهون {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: ١٠] فولاية الأنبياء على الناس نص من الله لا يتطرق إليها نظر أو اجتهاد.

وفي الحديث: (أما بعد فإني استعمل منكم رجالاً على أمور مما ولاني الله فيأتي أحدكم فيقول وهذا أحب إلي...) ووجه الاستدلال: أن الرسول أسند ولايته مباشرة إلى الله جل جلاله لا إلى الأمة والشعب.

أما غير الأنبياء فيستمدون حكمهم وشرعية سياستهم وإدارة شؤونهم من الخلق لا من الخالق. ومن ادعى منهم أنه يستمد قوته وصلاحياته من الله فهو دجال كذاب كما تقول الكنيسة وأهل التصوف والاتحاد.

وجاءت الدلالة الصرفية للفعل {شاورهم} على وزن (فاعَل) تقول: شاور مشاورة وهذا ما تحمل عليه آية آل عمران، بخلاف كلمة (الشورى) في سورة الشورى فإنها تعني العموم لكل ما تشمله الكلمة (الشورى) ومما يدركه الناس بعقولهم في أمور مصالحهم ومعاشهم {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}: الجملة اسمية تدل على الثبوت والدوام، بخلاف {وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ} فهي جملة فعلية تدل على الحدوث والتجدد حسب الأحوال. واللام في

(الأمر) في آية آل عمران للعموم وتدخل الاستشارة في أمر القتال دخولاً أولياً. وكذلك الضمير في قوله {وشاورهم} يشمل عامة المسلمين ممن في مشورتهم ترضية للنفوس وفي رأيهم مصلحة للناس ولو كانوا منافقين كما هو معلوم من استشارة الرسول لعبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد ..
والخلاصة:

– قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر وعمر: (لو اجتمعما في مشورة ما خالفكما) وهذا يشير إلى أن الأغلبية في الشورى هي الثلثان!

– قال علي بن أبي طالب في تفسير قوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} قال: "مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم". ومعنى هذا إن عدم الأخذ بالأكثرية بالشورى يلغيها.

– والشورى في بناء السلطة واجبة ابتداءً ملزمة انتهاءً.
– مشاورة ولي الأمر لمن دونه فهي واجبة عليه وملزمة له في الأمور الكبيرة العظيمة. التي فيها صلاح المجتمع وقوته، وغير ملزمة له في أمور وصلاحيات لا تضر بالمجتمع .

– قال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن *** برأي نصيح أو نصيحة

حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاظة *** مكان الخوافي قوة

للقوادم

** قال ابن عثيمين: إذا صدر من المستشارين أمر يكون كاشفا للرأي، ليس بملزم لولي الأمر؛ لأنه لو كان ملزماً لكان الحكم بأيدي جماعة، والحكم بيد واحد، لكن يجب على المستشار أن يتبع ما يرى أنه أصلح، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه لأنه رأيه، بل الواجب عليه - لحق الله ولحق من ولاهم الله عليه - أن يتبع ما هو أصلح.

{فَإِذَا عَزَمْتَ} بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك..

والعزيمة: "عقد النية على إتمام الأمر" بعد الاستشارة.

{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} والتوكل حقيقة الاعتماد، وهو هنا مجاز

في الشروع في الفعل مع رجاء السداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتوكل انفعال قلبي عقلي يتوجه به إلى الله راجياً الإعانة ومستعيناً من الخيبة والعوائق، وربما رافقه قول لساني وهو الدعاء بذلك.

فالتقدير فإذا عزمت بعد الشورى على الأمر، أي تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فعزمت على تنفيذه، فتوكل على الله وبادر ولا تتأخر، لأن للتأخير آفات، والتردد يضيع الأوقات، هذا سواء كان على وفق بعض آراء أهل الشورى أم كان رأيا آخر لاح سداذه، فقد يخرج من آراء أهل الشورى رأي، وفي المثل: "ما بين الرأي والرأي رأي".

والتوكل بعد المشورة أمر لابد منه؛ لأن العلم بالحق الأمل من المناهج والأعمال عند علام الغيوب، فمهما يكن علم الإنسان فهو ناقص، فالتوكل عليه سبحانه فيه معنى الشعور بالنقص الإنساني مهما يظهر كماله، ولأن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات، وهو القادر على تغييرها، أو جعل الأمور على غير ما توجه أسبابها، فالتوكل عليه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله تعالى وقدرته الشاملة الكاملة على كل ما خلق، وإن عدم التفويض مع العمل غرور من الإنسان، واستعلاء بغير سبب، وإنه مهما يدبر الإنسان فقد يخطئه التنفيذ كما كان في غزوة أحد.

** ويجب أن نقرر هنا حقيقتين:

إحدهما: أن قدرة الله تعالى واضحة في نتائج الأفعال، فعليه المعتمد. ألم تر إلى رجلين يبذران بذرا، ويلقيانه في قطع متجاورات من الأرض، ويأتي الله لأحدهما بأبرك الثمرات، والآخر تأكل الآفات زرعه وكلاهما احتاط وأخذ بالأسباب.

الثانية: أن الاتكال على الله تعالى ذكر الله، فتطمئن القلوب ويذهب الخوف والجزع ويكون الإقدام.

قال الرازي: "دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقول بعض الجاهل، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق".

ويؤثر عن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كلمة نافعة جداً، وهي قوله: "من بورك له في شيء فليلزمه" .. كلمة عجيبة لو توزن بالذهب لوزنته. يعني إذا عمل الإنسان عملاً ورأى فيه البركة والثمرة فليلزمه.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} لأن التوكل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظيمة الله وقدرته، واعتقاده الحاجة إليه، وعدم

الاستغناء عنه وهذا أدب عظيم مع الخالق يدل على محبة العبد ربه فلذلك أحبه الله.

ولما أمره بالتوكل بين الثمرة العظيمة من هذا التوكل، وله ثمرات كثيرة منها هذه الثمرة التي ذكرها الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}**

وأي منزلة أعلى في الوجود من هذه المحبة التي تتضمن الرضا، ورضوان الله أكبر من كل شيء، فكيف تكون محبته، والمتوكل على الله حق توكله قد تسامى بنفسه عن أعلاق الأرض، ودرج بنفسه في مدارج الروحانية؛ لأنه اعتبر إرادته وعزيمته وتدبيره وعمله ليست بشيء بجوار قدرة الله.

****** وفيه إثبات المحبة لله عز وجل وأن الله يحب، وهي محبة الله حقيقية؛ لأن لدى أهل السنة والجماعة قاعدة أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حقيقة، لكن مذهبهم مبرأ من التمثيل والتكييف والتحريف والتعطيل فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، ولا يُكيفونها.. والمحبة هي المحبة، لا يمكن أن تعرف المحبة بأوضح منها. من لفظها.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)
{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} شرطٌ وجوابه، وجواب الشرط نفْيٌ صريحٌ.

و(لا) هذه نافية للجنس، والنافية للجنس نص في العموم؛ لأن النفي قد يكون للعموم نصاً وقد يكون للعموم ظاهراً، والفرق بين النص والظاهر: أن النص لا يحتمل التخصيص، والظاهر يحتمل أن يكون عاماً أريد به الخصوص.

قالوا: وجعل الجواب بقوله: {فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} دون أن يقول: لا تغلبوا، للتنصيص على التعميم في الجواب، لأن عموم ترتيب الجزاء على الشرط أغلبي وقد يكون جزئياً أي لا تغلبوا من بعض المغالبيين، فأريد بإفادة التعميم دفع التوهم.

{وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ} والخذلان: القعود عن النصر. الخذلان ضد النصر، وهذه من القواعد التي تفيدك في تفسير القرآن، أن الكلمة قد يظهر معناها بما قرن معها من الضد. مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا}

[النساء: ٧١]

{فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر ذاتاً وصفة، وبطريق المبالغة، ومُشَرَّب بمعنى التَّحْدِي.

وكلمة **{مِنْ بَعْدِهِ}** هنا مستعملة في لازم معناها وهو المغايرة والمجاورة: أي فمن الذي ينصركم دونه أو غيره أي دون الله، فالضمير ضمير اسم الجلالة لا محالة، واستعمال (بعد) في مثل هذا شائع في القرآن قال تعالى: **{فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ}** [الجاثية: ٢٣].

وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله، وترغيب في الطاعة، وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد. وتحذير من المعصية، ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان.

وجواب الشرط متضمن للنفي، تلطفاً بالمؤمنين، حيث صرح لهم بعدم الغلبة في الأول، ولم يصرح لهم بأنه لا ناصر لهم في الثاني بل أتى به في صورة الاستفهام، وإن كان معناه نفياً.

وقيل: جاء النفي على صيغة الاستفهام ليوجه أنظار المخاطبين إلى البحث عن قوي تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى في الخذلان، فإنهم سيبحثون عن قوي ولن

يجدوه، فعندئذ يحكمون بأن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصر سواه.

قال ابن عاشور: "ولو حمل هذا الخبر على ظاهر الإخبار لكان إخباراً بأمر معلوم عند المخاطبين إذ هم مؤمنون، ولا يجهل مؤمن أن الله إذا قدر نصر أحد فلا راد لنصره، وأنه إذا قدر خذله فلا ملجأ له من الهزيمة، فإن مثل هذا المعنى محقق في جانب الله لا يجهله معترف بالهيته، مؤمن بوحدانيته، وهل يعد اعتقاد نفي الشريك عن الله في ملكه مجال لاعتقاد وجود ممانع له في إرادته، فيتعين أن يكون هذا الخبر مراداً غير ظاهر الإخبار.

وأحسن ما يحمل عليه أن يكون تقريراً لتسليّة المؤمنين على ما أصابهم من الهزيمة، حتى لا يحزنوا على ما فات لأن رد الأمور إلى الله تعالى عند العجز عن تداركها مسلاة للنفس، وعزاء على المصيبة، وفي ضمن ذلك تنبيه إلى أن نصر الله قوماً في بعض الأيام، وخذله إياهم في بعضها، لا يكون إلا لحكم وأسباب، فعليهم السعي في أسباب الرضا الموجب للنصر، وتجنب أسباب السخط الموجب للخذل كما أشار إليه قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد: ٧] وقوله:

{فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ} [آل عمران: ١٥٣] وقوله الآتي: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ١٦٥]

وعليهم التطلب للأسباب التي قدر لهم النصر لأجلها في مثل يوم بدر، وأضدادها التي كان بها الخذل في يوم أحد، وفي التفكير في ذلك مجال أوسع لمكاشفات الحقائق والعلل والأسباب والحكم والمنافع والمضار على قدر سعة التفكير الجائل في ذلك، ففي هذا الخبر العظيم إطلاق للأفكار من عقالها، وزج بها في مسارح العبر، ومراكز العظات، والسابقون الجياد، فالخبر مستعمل في لازم معناه وهو الحض على تحصيل ذلك.

فجمع لهم كل ذلك في كلام جامع نافع في تلقي الماضي، وصالح للعمل به في المستقبل، أن يكون الإخبار مبنيًا على تنزيل العالم منزلة الجاهل، حيث أظهروا من الحرص على الغنيمة ومن التأول في أمر الرسول لهم في الثبات، ومن التلهف على ما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح، ما جعل حالهم كحال من يجهل أن النصر والخذل بيد الله تعالى. فالخبر مستعمل في معناه على خلاف مقتضى الظاهر".

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} تذييل قصد به الأمر بالتوكل المستند إلى ارتكاب أسباب نصر الله تعالى: من أسباب عادية وهي الاستعداد، وأسباب نفسانية وهي تزكية النفس وإتباع رضا الله تعالى.

وقدم الجارّ إيذاناً بالاختصاص والحصص، أي: ليخص المؤمنون ربّهم بالتوكل عليه والتفويض له؛ لعلمهم أنه لا ناصر لهم سواه.

ولكن التوكل على الله عز وجل ليس كالتوكل على الآدمي، التوكل على الله فيه إنابة وخضوع وذل وتفويض واعتماد تام على الله، بخلاف ما إذا توكل الإنسان على شخص وكيل له، فإنه لا شك يعتمد عليه فيما وكله فيه، لكن لا يجد من قلبه أنه مفوض تفويضاً تاماً، فالتوكل على الله عبادة.

ونحن نعلم علم اليقين أن نبينا محمداً سيد المتوكلين، ومع ذلك كان يتوقى الحر، ويتوقى البرد، ويأكل لدفع الجوع، ويشرب لدفع الظمأ، وفي الغزوات كان يلبس الدرع يتوقى به السهام، وفي غزوة أحد لبس درعين، وفي غزوة الخندق لما أحاط الأعداء بالمدينة حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي - رضي الله عنه -، ولم يقل نتوكل على الله، والوقائع على هذا

كثيرة تدل على أن فعل الأسباب لا ينافي التوكل، ولكن يجب أن نلاحظ شرطاً مهماً، وهو أن تكون الأسباب أسباباً شرعية أو كونية، لا أسباباً وهمية.

أسباب شرعية يعني ثبت بالشرع أنها سبب، أو أسباب كونية أي ثبت بالتجارب أنها سبب. أما السبب الوهمي كتعليق التمام غير الشرعية والتطير وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز الاعتماد عليه.

وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)

{وَمَا كَانَ} صيغة جحود فإذا استعملت في الإنشاء - كما هنا - كانت للمبالغة في النهي.

فإذا جاء (ما كان) في القرآن فإن معناها نفي محقق مثل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [الأنفال: ٣٣] ومثل قوله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} [آل عمران: ١٧٩] وقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].. يعني أن هذا منتف قطعاً، ولا يمكن أن يكون.

{لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ} الغُلُّ والغلول: السرقة من الغنائم قبل قسمتها، وقيل أصل الغلول: الغلل وهو دخول الماء في خلال الشجر، فسميت الخيانة غلولاً لأنها تدخل الملك من غير حله وفي خفاء كجري الماء، ومنه الغل وهو الحقد لأنه يكون دفينا متغلغلا في كيان النفس الإنسانية ويفسدها.

والغلالة: الثوب الذي يلبس تحت الثياب، والغلول الذي هو الأخذ في خفية مأخوذة من هذا المعنى.

والمعنى: ما صح وما تأتى لنبي من الأنبياء أن يخون في المغنم، بعد مقام النبوة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل، وعن تأثير دواعي النفس والشيطان فيهم.

والتنكير هنا للتعميم، فليس من شأن أي نبي يتكلم عن الله تعالى أن يخون، وإذا كان التنكير للتعميم -لأنه تنكير في مقام النفي- فمؤدى الكلام أن النبوة والغلول نقيضان لا يجتمعان، فما كان لأحد أن يظن أن النبي سوف لا يقسم بالسوية، وإذا وقع ذلك الظن فهو من الظن الإثم.

روى أبو داود قال ابنُ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: "نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ}** [آل عمران: ١٦١] فِي قَطِيفَةٍ حُمْرَاءَ، فَقَدْتُ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ: بَعْضُ النَّاسِ لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ

—صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— أَخَذَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا كَانَ
لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ} [آل عمران: ١٦١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ " قَالَ أَبُو
دَاوُدَ: «يَغُلُّ مَفْتُوحَةُ الْيَاءِ» [صححه الألباني]

وهذا تبرئة له —صلوات الله وسلامه عليه— عن جميع وجوه
الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.
{وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يأتي به مشهرا مفضوحا
بالسرقة.. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

والآية دلت على تحريم الغلول وهو أخذ شيء من الغنيمة
بغير إذن أمير الجيش، وهو من الكبائر لأنه مثل السرقة. ومن
غل في المغنم يؤخذ منه ما غله ويؤدب بالاجتهاد، ولا قطع فيه
باتفاق، هذا قول الجمهور.

وقد وردت السنة بالنهي عن الغلول في أحاديث متعددة:
روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ —رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ— قَالَ: قَامَ فِيْنَا
النَّبِيُّ —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ،
قَالَ: (لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثَغَاءٌ، عَلَى
رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ
لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ
اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ

صَامَتْ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ
أَبْلَغْتُكَ أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي
فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ

وقوله: (صَامَتْ) أي الذهب والفضة، وقيل ما لا روح فيه من
أصناف المال.

(رِقَاعٌ تَخْفِقُ) أراد بالرقاع ما عليه من الحقوق المكتوبة في
الرقاع. وخفوقها حركتها، وقيل: تتقعقع وتضطرب إذا حركتها
الرياح.

وروى أحمد عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ
النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كَانَ يَأْخُذُ الْوَبْرَةَ مِنْ جَنْبِ الْبَعِيرِ
مِنَ الْمَغْنَمِ فَيَقُولُ: (مَا لِي فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لِأَحَدِكُمْ مِنْهُ، إِيَّاكُمْ
وَالْغُلُولَ؛ فَإِنَّ الْغُلُولَ خِزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَذُوا الْخَيْطِ
وَالْمَخِيطِ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ
فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِنَّهُ لَيُنْجِي
اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا
تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ) [قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن
وهذا إسناد ضعيف]

وروى أبو داود عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ قَالَ.. ثُمَّ دَنَا يَغْنِي النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ بَعِيرٍ فَأَخَذَ وَبَرَةً مِنْ سَنَامِهِ ثُمَّ قَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذَا وَرَفَعَ أَصْبُعِيهِ إِلَّا الْخُمْسَ وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ فَأَذُوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ) فَقَامَ رَجُلٌ فِي يَدِهِ كُبَّةٌ مِنْ شَعْرِ فَقَالَ أَخَذْتُ هَذِهِ لِأُصْلِحَ بِهَا بَرْدَعَةً لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكَ) فَقَالَ أَمَّا إِذْ بَلَغْتَ مَا أَرَى فَلَا أَرَبَ لِي فِيهَا وَنَبَذَهَا [حسنه الألباني]

وروى البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو قَالَ كَانَ عَلَى ثَقَلِ [المتاع المحمول في السفر مما يستعمله المسافر] النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (هُوَ فِي النَّارِ) فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا.

وروى البخاري عن سَالِمٍ مَوْلَى ابْنِ مُطِيعٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا فِصَّةً إِنَّمَا غَنِمْنَا الْبَقَرِ وَالْإِبِلَ وَالْمَتَاعَ وَالْحَوَائِطَ ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ

لَهُ مِدْعَمٌ أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِي الضَّبَابِ فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ [هُوَ الَّذِي لَا
يَدْرِي مِنْ رَمَاهُ] حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ فَقَالَ النَّاسُ هَنِيئًا لَهُ
الشَّهَادَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بَلْ وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ
تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلْ عَلَيْهِ نَارًا) فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ
مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِشِرَاكِ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ فَقَالَ هَذَا
شَيْءٌ كُنْتُ أَصْبَتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(شِرَاكِ أَوْ شِرَاكَيْنِ مِنْ نَارٍ).

وروى مسلم عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ لَمَّا
كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- فَقَالُوا فُلَانٌ شَهِيدٌ فُلَانٌ شَهِيدٌ حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ
فَقَالُوا فُلَانٌ شَهِيدٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(كَأَنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٍ) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ فِي
النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ) قَالَ فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ:
أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ.

وروى ابن حبان - بسند ضعيف - عن زيد بن خالد الجهني
أن رجلاً من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - توفي يوم
خيبر، فذكروه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال:
(صلوا على صاحبكم)، فتغيرت وجوه القوم من ذلك، فقال:
(إن صاحبكم غل في سبيل الله) ففتحنا متاعه، فوجدنا خرزاً من
خرز اليهود لا يساوي درهمين.

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال كان رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى في
الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمسها ويقسمه فجاء رجل بعد ذلك
بزمام من شعر فقال يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة
فقال: (أسمعت بلالاً ينادي ثلاثاً؟) قال نعم قال: (فما منعك
أن تجيء به؟) فاعتذر إليه فقال: (كن أنت تجيء به يوم القيامة
فلن أقبله عنك) [حسنه الألباني]

وروى مسلم عن أبي حميد الساعدي قال استعمل رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الأسد يقال له ابن اللثبية
على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا لي أهدي لي. قال
فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر فحمد الله
وأثنى عليه وقال: (ما بال عامل أبعته فيقول هذا لكم وهذا

أَهْدِي لِي أَفْلاً قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ
أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ
مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ
بَقَرَةٌ لَهَا خَوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَعِيرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِبْطِيهِ
ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ مَرَّتَيْنِ

قال المحققون: وفائدته أنه إذا جاء يوم القيامة، وعلى رقبتة
ذلك الغلول ازدادت فضيحتة.

وروى أحمد عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ
الْمُسْتَوْدَ بْنَ شَدَّادٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ، فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا،
أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ
لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ
غَالٌ) [صححه الأرئوط]

وروى مسلم عن عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى
عَمَلٍ فَكَتَمْنَا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قَالَ
فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ قَالَ وَمَا لَكَ قَالَ سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا

قَالَ: (وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى)

وروى مسلم عن مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهُ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ خُصُومَةٌ فِي أَرْضٍ وَأَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتْ يَا أَبَا سَلَمَةَ اجْتَنِبِ الْأَرْضَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ).

وروى أحمد في المسند عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ، فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [حسنه الأرنؤوط]

وروى أبو داود بسند ضعيف عن صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ زَائِدَةَ - قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «وَصَالِحٌ هَذَا أَبُو وَاقِدٍ» - قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ مَسْلَمَةَ أَرْضَ الرُّومِ فَأُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ غَلَّ فَسَأَلَ سَالِمًا عَنْهُ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (إِذَا وَجَدْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ غَلَّ فَأَحْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ)

قَالَ: فَوَجَدْنَا فِي مَتَاعِهِ مُصْحَفًا، فَسَأَلَ سَالِمًا عَنْهُ فَقَالَ: «بِعْهُ وَتَصَدَّقْ بِثَمَنِهِ»

وقد قال علي بن المديني، رحمه الله، والبخاري وغيرهما: هذا حديث منكر من رواية أبي واقد هذا. وقال الدارقطني: الصحيح أنه من فتوى سالم فقط، وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ومن تابعه من أصحابه، وخالفه أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، والجمهور، فقالوا: لا يحرق متاع الغال، بل يعزر تعزيز مثله. وقال البخاري: وقد امتنع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الصلاة على الغال، ولم يحرق متاعه، والله أعلم.

قال القرطبي: "دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْغُلُولَ مِنَ الْغَنِيمَةِ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: - فِي مِدْعَمَ - : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَ يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ وَلَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ - لَتَشْتَعِلَ عَلَيْهِ نَارًا) فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقال: (شِرَاكٌ أَوْ شَرِكَانٍ مِنْ نَارٍ) وامتناعه من الصلاة على مَنْ غَلَّ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِ الْغُلُولِ، وَتَعْظِيمِ الذَّنْبِ فِيهِ، وَأَنَّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَهُوَ مِنْ حَقُوقِ

الآدميين، ولا بُدَّ فيه من القصاص بالحسنات والسيئات، ثم صاحبه في المشيئة وقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (شَرَاكَ أَوْ شَرَاكَانِ مِنْ نَارٍ) مثل قوله: (أَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيْطَ) وهذا يدل على أن القليل والكثير لا يحلَّ أخذه في الغزو قبل المقاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم في أرض الغزو والاحتطاب والاصطياد".

{ثُمَّ} وهي تفيد التراخي بين إحضار الأعمال بأوزارها ثم يتولى جزاءها، فإن هذا التراخي يفيد طول الحساب، وطول الحساب عذاب في ذات نفسه، وهو في الوقت ذاته يدل على دقته إذ تقام الموازين بالقسط.

{تُوفَى} تعطى جزاء ما كسبت وافياً، وفيه إشارة إلى أنه لا ينقص شيء مما عملت إن خيراً وإن شراً، إلا أن يتغمده الله برحمته فيعفو عن بعض السيئات وهو العفو الغفور.

{كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ} تنبيه على العقوبة بعد التفضيح. وإنما عمم الحكم ولم يقل: ثم يوفى الغال ما كسب، ليكون كالبرهان على المقصود، والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله، فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى.

وفيها إعلَامُ أن الغَالَّ وغيره من جميع الكاسبين لا بد وأن يُجَازُوا، فيندرج الغَالُّ تحت هذا العموم -أيضاً- فكأنه ذُكِرَ مرتين.

{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} فلا ينقص ثواب مطيعهم، ولا يزداد في عقاب عاصيهم. وفيه نفي للظلم نفياً مؤكداً بالتعبير بالجملة الاسمية.

وصفات الله عز وجل إذا وجدت فيها النفي فهي مدح، فإذا وجدت نفي الظلم فلكمال العدل، وإذا وجدت نفي اللغوب فلكمال القوة، وإذا وجدت نفي العي **{وَلَمْ يَعْ يَخْلِقْهُمْ}** [الأحقاف: ٣٣] فلكمال القوة أيضاً، وإذا وجدت نفي الغفلة **{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** [البقرة: ٧٤] فلكمال العلم والمراقبة، وهكذا.

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُنْسِ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

{أَفَمَنْ} الاستفهام للنفي الإنكاري، أي إنكار الوقوع، فهو
بمعنى لا يستوون.

{اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ} يتبع كل ما يرضي الله عز وجل بالطاعة..
والإتباع هنا «التطلب»: شبه حال المتوخي بأفعاله رضا الله بحال
المتطلب لطلبه فهو يتبعها حيث حل ليقتنصها، وفي هذا التشبيه
حسن التنبيه على أن التحصيل على رضوان الله تعالى محتاج إلى
فرط اهتمام.

{كَمَنْ بَاءَ} رجع **{بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ}** السَّخَطُ: الغضبُ
الشديد الذي يصحبه أو يترتب عليه العقاب بسبب المعاصي
كالغَالِّ ومن شاكله.. تمثيل لحال صاحب المعاصي بالذي خرج
يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، أو رجع بالخيبة.

وقد علم من هذه المقابلة حال أهل الطاعة وأهل المعصية،
أو أهل الإيمان وأهل الكفر.

{وَمَاوَاهُ} أي مرجعه، يأوي إليه إيواء لا مغادرة بعده **{جَهَنَّمُ}**
اسم من أسماء النار - أعاذنا الله منها - وسميت بهذا الاسم

المشتق من الجهمة، وهي تتضمن السواد ولأن جهنم سوداء عميقة بعيدة العمق.

** وفيه التنبيه لأمر يتكلم فيه الناس كثيراً، يقولون: إذا مات الرجل فإنه يرجع إلى مثواه الأخير، وهذا لو أخذنا بظاهره، لكن يتضمن إنكار البعث، مع أن القبر ليس المثلوى الأخير، وإنما المثلوى الأخير الآخرة الجنة أو النار، والقبر مزار.

{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} أي وبئس المصير جهنم.

وهذه لها نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: **{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى}** [الرعد: ١٩] وكقوله: **{أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}** [القصص: ٦١].

{هُمَّ} الضمير يعود على من اتبع رضوان الله، وعلى من باء بسخط من الله.

{دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ} متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة، ودرجاتهم في النار، كما قال تعالى: **{وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا}** [الأنعام: ١٣٢] **{عِنْدَ اللَّهِ}** تشريف لمنازلهم

والدرجة هي الرتبة والمنزلة، ومنها الدرج بمعنى السلم، لأنه
يُعلَى عليه رتبة بعد رتبة، وأكثر ما تكون كلمة الدرجة في القرآن
بمعنى المنزلة الرفيعة، ومن ذلك قوله تعالى: **{وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}** [الزخرف: ٣٢]، وأما المنزلة غير الرفيعة
فيُعبّر عنها سبحانه بالدركة؛ ولذا يقول تعالى: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي
الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}** [النساء: ١٤٥].

قال الراغب الأصفهاني في «المفردات»: "الدرك كالدرج،
لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود، والدرك اعتبارا بالحدور، ولهذا
قليل درجات الجنة، ودركات النار".

وإطلاق {درجات} على الفريقين وفيهم الأشرار من قبيل
التغليب، وهو تغليب له مغزاه؛ إذ هو تغليب الخير على الشر،
وتغليب رضا الله على سخطه، وتغليب الأبرار على الفجار.
والآية الكريمة تشير إلى معنى جليل، وهو تفاوت درجات
الأبرار، وتفاوت دركات الأشرار.

** وفيه أن الناس عند الله منازل مختلفة، ويتفرع على هذه
الفائدة: أن الإيمان يزيد وينقص؛ لأن زيادة الدرجات بعد زيادة
الإيمان باليقين والعمل الصالح، هي زيادة لليقين والأقوال
والأفعال.. فاليقين يتفاضل، والأقوال تتفاضل، ليس من قال: لا

إله إلا الله عشرًا كمن قالها عشرين مثلاً، والأفعال كذلك تتفاضل، ليس من صلى ست ركعات كمن صلى عشر ركعات، وهذا ما جرى عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد باليقين والقول والفعل.

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم عمل كل إنسان علم من يراه ويبصره، فلا يغيب عنه سبحانه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، وأنه سبحانه سيجزي كل نفس بما كسبت، على مقتضى علمه الكامل، وأن هذه الدرجات التي يضع الناس فيها هي بمقتضى علمه جل شأنه.

{لَقَدْ} جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المقدر و(اللام)، و(قد). وتقدير الكلام : والله لقد منّ الله على المؤمنين.

والداعي للقسم ليس هو الإنكار أو الشك من المخاطب، بل قد يكون الداعي للقسم أهمية المقسم عليه، وإن لم يكن هناك شك، وهذه الآية من هذا النوع؛ فالمقصود بذلك بيان أهمية هذه المنّة العظيمة التي لا يُعادلها شيء.

ومن ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} [المؤمنون: ١٥] فأكد مع أن الموت محقق، ولكن يُقال لما كان بعض الناس غافلاً كأنه لن يموت، أكد.

{مَنْ اللَّهَ} المَنَّان - في صفة الله تعالى - : الْمُعْطِي ابتداءً من غير طلب عَوَضٍ، أي: أنعم وأعطى ووهب.

والمنّ إنما كان مذكوماً في البشر لما فيه من إبداء التطاول على المنعم عليه، وتعداد النعمة على المنعم عليه مثل الذي في قوله تعالى: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} [البقرة: ٢٦٤] والكل محمود من الله تعالى لأن طول الله ليس بمجحد.

{عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ} أصل البعث الإنشاء، وسميت الرسالة بعثاً؛ لأنها إخراج للناس من حال إلى حال، فكأنهم بعثوا خلقاً جديداً، وأنشئوا خلقاً جديداً.

{فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به.

كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} [الجمعة: ٢] {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [الكهف: ١١٠] {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠] {وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى {
[يوسف: ١٠٩] يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ {
[الأنعام: ١٣٠] فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسل إليهم
منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه.
قال الرازي : وفي قوله تعالى: {مَنْ أَنْفُسِهِمْ} وجه آخر من
المنّة، وذلك أنه صار شرفاً للعرب، وفخراً لهم، كما قال
سبحانه: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}
[الزخرف: ٤٤].

وذلك لأن الافتخار بإبراهيم -عليه السلام- كان مشتركاً فيه
بين اليهود والنصارى والعرب، ثم إن الأولين كانوا يفتخرون
بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل. فما كان للعرب ما يقابل
ذلك. فلما بعث الله محمداً، وأنزل عليه القرآن، صار شرف
العرب ذلك زائداً على شرف جميع الأمم.

قال ابن عاشور: {مَنْ أَنْفُسِهِمْ} المماثلة لهم في الأشياء
التي تكون المماثلة فيها سبباً لقوة التواصل، وهي هنا: النسب،
واللغة، والوطن.

والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم، أي من
صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق، وكأن هذا وجه

إطلاق النفس عليه التي هي في معنى المماثلة، فكونه من أهل نسبهم أي كونه عربيا يوجب أنسبهم به والركون إليه وعدم الاستيحاش منه.

وكونه يتكلم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به، وكونه جارا لهم وربيا فيهم يُعَجِّلُ لهم التصديق برسالته، إذ يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته.

وعن النقاش: قيل ليس في العرب قبيلة إلا ولها ولادة لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلا تَغْلِبْ، وبذلك فسر: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣].

وهذه المنّة خاصة بالعرب ومزية لهم، زيادة على المنّة ببعثة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على جميع البشر، فالعرب هم الذين تلقوا الدعوة قبل الناس كلهم، لأن الله أراد ظهور الدين بينهم ليتلقوه التلقي الكامل المناسب لصفاء أذهانهم وسرعة فهمهم لدقائق اللغة، ثم يكونوا هم حملته إلى البشر، فيكونوا أعوانا على عموم الدعوة، وَلِمَنْ تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ الْعَرَبِ وَأَتَقَنَ لِسَانَهُمِ وَالتَّبَسَّ بِعَوَائِدِهِمْ وَأَذْوَاقِهِمْ اقْتِرَابَ الْمَزِيَّةِ وَهُوَ مُعْظَمُهَا، إذ لم يفته منها إلا النسب والموطن وما هما إلا مكملان لحسن

التلقي، ولذلك كان المؤمنون مدة حياة رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من العرب خاصة بحيث إن تلقيهم الدعوة كان على سواء في الفهم حتى استقر الدين.

{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} يقرأ عليهم آيات القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية، لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي. وسميت جمل القرآن آيات لأن كل واحدة منها دليل على صدق الرسول من حيث بلاغة اللفظ وكمال المعنى.. فكانوا صالحين لفهم ما يتلى عليهم من غير حاجة لترجمان.

{وَيُزَكِّيهِمْ} يُطهرهم حساً ومعنى. أما الطهارة حساً فقد أمرهم بالوضوء عند الصلاة، وأمرهم بالغسل من الجنابة وأمرهم بإزالة النجاسة، بل حث على النظافة عموماً.

وأما الطهارة معنى فهي أنه طهر قلوبهم من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق، وهذب أخلاقهم عليه الصلاة والسلام، حتى زكت نفوسهم وأخلاقهم.

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} وتعليم الكتاب هو تبين مقاصد القرآن وأمرهم بحفظ ألفاظه، لتكون معانيه حاضرة عندهم.

{وَالْحِكْمَةَ} السنة.. والمراد بالحكمة ما اشتملت عليه الشريعة من تهذيب الأخلاق وتقنين الأحكام لأن ذلك كله مانع

الأنفس من سوء الحال واختلال النظام، وذلك من معنى الحكمة.

وقيل: علمهم الحكمة التي هي أسرار التشريع؛ لأن الشرع كما نعلم أحكام وحكم، فالأحكام ظاهرة. والحكم هي الأسرار والمعاني التي تناط بها هذه الأحكام والإنسان إذا عرف هذه الحكم والأسرار، تبين له أن الشريعة ليست لهواً ولا لعباً، وأن الشريعة ذات معان سامية، لا يدركها إلا من فتح الله عليه.

وعطف الحكمة على الكتاب عطف الأخص من وجه على الأعم من وجه، فمن الحكمة ما هو في الكتاب نحو {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩] ومنها ما ليس في الكتاب مثل قوله عليه السلام (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) وفي الكتاب ما هو علم وليس حكمة مثل فرض الصلاة والحج.

{وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ} من قبل بعثته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتزكيتة.

{لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} ضلال ظاهر جلي لا يلتبس على أحد بشائبة هدى، أو شبهة.. من عبادة الأوثان، وأكل الخبائث، وعدوان بعضهم على بعض، وسواها، فنقلوا بعثته -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة، فعظمت المِنَّة لله تعالى عليهم بذلك. والآية تسلية على مصيبة الهزيمة حذا عظيما، إذ قد شاع تصوير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم، وله مزيد ارتباط بقوله: **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ}** [آل عمران: ١٥٩]

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١٦٥)

{أَوَلَمَّا} الألف للاستفهام، والواو للعطف.. استفهام إنكاري تعجيبى، فيه إنكار تعجبهم من إصابة الهزيمة إياهم.

{أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} المصيبة أصلها في اللغة: "الرمية التي تصيب الهدف، ولا تخطئه"، ثم أطلقت على النائبة التي تنزل، ولا تكاد تستعمل في القرآن في معنى الخير، وأما الفعل «أصاب» فيستعمل في الخير والشر، ومن ذلك قوله تعالى: **{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}**

[النساء: ٧٩]، وقوله تعالى: {إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ} [التوبة: ٥٠]

{قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا} فالمراد بمصيبة المسلمين القرع الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار بمثلها قبل القرع الذي مسهم يوم بدر؛ لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون، وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله وعم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : حمزة بن عبد المطلب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسر سبعون. فسبعون مع سبعين ضعفان، ولهذا قال: {قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا}

والأسر يحصل به من الإذلال مثل ما يحصل بالقتل، وربما يكون أكثر؛ لأن المقتول يقتل ويستريح، ولكن المأسور يستذل، ولهذا يخير الإمام في المأسورين بين أربعة أمور: الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو الرق، أو القتل، أو المَنّ بدون شيء، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَخْتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: ٤]، فالحاصل أن الأسر في الإذلال كالقتل إن لم يكن أشد منه.

وهذا قول الجمهور، وذكر بعض العلماء أن المصيبة التي أصابت المشركين هي ما أصابهم يوم أحد من قتل وهزيمة

ابتداء، حيث قتل حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم
المشركون في أول الأمر هزيمة منكرة وبقي لوائهم ساقطا حتى
رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية، وفي ذلك يقول حسان:
فلولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون في الأسواق بيع الجلائب
وعلى هذا الوجه: فالقرح الذي أصاب المشركين يشير إليه
قوله تعالى: **{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ}** [آل
عمران: ١٥٢]

ومن ألطاف الباري أن الله يُذكر عباده أثناء المصائب ما
يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع، فإنها إذا
قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها
حملها، كما ذكر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من
المشركين ببدر.

وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ
وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [آل عمران: ١٢٣]
{قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} أي من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل،
ونحن نقاتل في سبيل الله، ونحن مسلمون، وفيما النبي والوحي،
وهم مشركون؟!.

وهذا الاستفهام للتعجب، وليس للإنكار؛ لأن الصحابة - رضي الله عنهم - لا ينكرون من قدر الله شيئاً، ولكنهم يتعجبون: كيف يصيبنا هذا، ونحن جند الله، ومع رسول الله؟! **{قُلْ}** يا محمد **{هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}** وقد أكد أنه منهم بإبراز الضمير في الإجابة **{هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}**، وبالإتيان بالظرف وهو {عند}، وبالتعبير بـ **{أَنْفُسِكُمْ}** التي تدل على التوكيد.

فذكر في هذه الآية الكريمة أن ما أصاب المسلمين يوم أحد إنما جاءهم من قبل أنفسهم، ولم يبين تفصيل ذلك هنا، ولكنه فصله في موضع آخر وهو قوله: **{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ}** [آل عمران: ١٥٢]، وهذا هو الظاهر في معنى الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن.

قال القرطبي: "يعني مخالفة الرماة. وما من قوم أطاعوا نبيهم في حرب إلا نصرُوا؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

وقال قتادة والربيع بن أنس: يعني سؤالهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة. وتأولها في الرؤيا التي رآها درعا حصينة.

وعن علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل. وقد قيل لهم: إن فاديتهم الأسارى قتل منكم على عدتهم.

فروى البيهقي عن علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الأسارى يوم بدر: (إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم).

فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة. فمعنى **{مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}** على القولين الأولين بذنوبكم. وعلى القول الأخير باختياركم.

** وفيه تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه فإن الله تعالى يقول: **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}** [الشورى: ٣٠]

وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}**

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره. وفي الدعاء المشهور: (اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ) [البخاري في الأدب المفرد] فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه فما سلط عليه مؤذٍ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال له قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأتاب إلى ربه ثم خرج إليه فقال له ما صنعت فقال تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي.

فليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذي وتسلب عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد وما أبركها من نازلة نزلت

به وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي إن الله قادر على نصركم وعلى خذلانكم، فلما عصيتم وجررتم لأنفسكم الغضب قدر الله لكم الخذلان.

وقد أكد سبحانه قدرته بلفظ {إِنَّ}، وبذكر لفظ الجلالة الذي يربي المهابة من الخلاق العليم في قلب المؤمن، وبعموم قدرته سبحانه على كل شيء **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}** [الأنعام: ١٨]

وختم الآية بهذه الجملة في غاية ما يكون من المناسبة؛ فهو قدير على أن ينتصر من هؤلاء المشركين، ولكنه لم يفعل ذلك لحكمة، كما قال تعالى: **{ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ}** [محمد: ٤]

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

لَا تَبْغَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ
(١٦٧)

{وَمَا أَصَابَكُمْ} يوم أحد من فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم
لجماعة منكم وجراحاتهم لآخرين.

{يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ} وفي ذلك إشارة إلى قوة التجمع في
الفريقين، وأن كل فريق كان مُصر على القتال، مُريد للنصر فيه،
فهزيمة بدر جمعت المشركين في أحد وجعلت لهم عزيمة مريدة
ماضية، وإيمان المؤمنين جعل في أقويائهم رغبة في النصر أو
الاستشهاد.

{فَإِذْنِ اللَّهِ} بقضائه وقدره، وله الحكمة في ذلك.
أي بإذن الله القدري؛ لأن الله هو الذي قدره، وإذن الله
ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني قدري.

فما تعلق بالتكوين والخلق فهو إذن كوني؛ مثل قوله تعالى:
{وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي} [المائدة: ١١٠]، وما تعلق بالشرع
فهو إذن شرعي، مثل قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ
مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَفْتَرُونَ}** [يونس: ٥٩] وقوله تعالى: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ}**

مَنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ { [الشورى: ٢١] أي: إذن شرعي..
والفرق بينهما:

أولاً: الإذن الكوني يكون فيما يحبه الله وما لا يحبه، أما
الإذن الشرعي يكون فيما يحبه الله فقط.

ثانياً: أن الإذن الكوني يقع فيه المأذون به ولا يتخلف،
والإذن الشرعي قد يقع وقد لا يقع.

** وفي الآية تسلية المؤمن بقضاء الله وقدره، لأن المؤمن
إذا علم أنه من عند الله رضي وسلم.

والجمع بين هذا وبين قوله فيما سبق: {أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ
مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}
[آل عمران: ١٦٥] أن إضافتها إلى الأنفس من باب إضافة
الشيء إلى سببه؛ يعني أنتم السبب، وأما إضافتها إلى إذن الله
فهي من باب إضافة الشيء إلى فاعله؛ فالذي قضى هذا هو الله
تعالى لكن السبب أنتم، وإذا انفكت الجهة زال التعارض،
فالجهة في الآية الأولى سبب، والثانية: فعل وتقدير.

** وفيه أن الله قد يقدر على عبده المؤمن ما يكرهه لحكم
عظيمة؛ لقوله: {فَيَاذَنْ اللَّهَ} وفي الحديث القدسي الصحيح أن
الله قال: (وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ

الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ [البخاري] فتأمل الآن أن الله -عز وجل- يفعل ما يكره المؤمن لكن لحكمة، وهو أنه قضى بحكمته بالفناء على كل الخلق: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: ٢٦]

ويتفرع على هذه فائدة: أن المقضي المكروه محنة للعبد، فعليه أن يعتبر وأن يصبر حتى يكون من المؤمنين الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]

{وَلْيَعْلَمْ} اللام للتعليل، ولا يجوز أن تسكن اللام، فتقول: «وَلْيَعْلَمْ» لأن التي تسكن بعد حروف العطف هي لام الأمر، أما لام التعليل فهي مكسورة دائماً.

{الْمُؤْمِنِينَ} الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

والعلم هنا «علم ظهور» وليس «علم إدراك» أي: وليعلمه بعد ظهوره، أما علمه قبل ظهوره فهو ثابت لله عز وجل؛ لأن الله علم كل شيء إلى يوم القيامة.

وأيضاً هذا العلم علم يترتب عليه الثواب، أما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب، ولا يترتب عليه العقاب.

والفرق الثالث: أن هذا العلم علم بالشيء بعد أن يقع، فهو علم بأنه وقع، وأما العلم الأزلي فهو علم بأنه سيقع، وهناك فرق بين العلم بأنه وقع، وبين العلم بأنه سيقع.

{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} فيميز هذا من هذا.. وهم أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق وكانوا ثلاثمائة، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة.

قال في المؤمنين: **{وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ}** فأتى بالوصف، وأما في المنافقين فقال: **{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا}** أتى بالفعل، وذلك لأن النفاق طارئ عليهم، لأن كثيراً من المنافقين كان آمن ثم كفر، قال تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}** [المنافقون: ٣] ولهذا أتى بالفعل الذي يدل على التجدد، وأيضاً

ليناسب قوله: **{وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا..}**

والنفاق في الأصل هو إظهار خلاف الواقع، ومنه سمي نفق الجربوع أو اليربوع؛ فإنه من ذكائه إذا حفر له جحراً جعل له باباً ظاهراً يدخل منه ويخرج منه، ويجعل في أقصى ذلك الجحر

طبقة خفيفة؛ يعني: يخرق إلى أن يصل إلى قريب من الانفتاح، فتبقى طبقة خفيفة جداً من أجل أنه إذا فوجئ من باب الجحر، خرج من هذه القشرة الرقيقة، لأنها تكون سهلة عليه، فيكون هذا مخادعة؛ لأن الصائد إذا أراد صيده وهجم عليه من الباب، لا يدري أن هناك نفقاً يخرج منه.

ولم يبرز النفاق في المدينة إلا بعد غزوة بدر، وغزوة بدر كانت في السنة الثانية في رمضان، وحصل بها للمسلمين من العز ما جعل المنافقين يظهرون نفاقهم؛ لأنهم صاروا يخافون من المؤمنين فصاروا ينافقون، أي: يظهرون أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين.

فالقوة في بدر قد أوجدت النفاق، والتجربة القاسية في أحد قد كشفتها.

{وَقِيلَ لَهُمْ} القائل عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، أبو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

{تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا} كثروا سواد المسلمين، وإن لم تقاتلوا معنا؛ فيكون ذلك دفعا وقمعا للعدو؛ فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو.

قال أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها، وبيده راية سوداء؛ ف قيل له: أليس قد أنزل الله عذرک؟ قال: بلى! ولكني أكثر سواد المسلمين بنفسی. وروي عنه أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله!

وعن سهل بن سعد الساعدي -وقد كف بصره- قال: لو أمكنني لبعث داري ولحقت بشجر من ثغور المسلمين، ف كنت بينهم وبين عدوهم، قيل: كيف وقد كف بصرک؟ قال: لقوله تعالى: **{أَوْ ادْفَعُوا}**.

وقال أبو عون الأنصاري: معنى **{أَوْ ادْفَعُوا}** رابطوا. وهذا قريب من الأول. ولا محالة أن الم رابط مدافع؛ لأنه لولا مكان الم رابطین في الثغور لجاءها العدو.

وقيل: إنما هو استدعاء إلى القتال حمية؛ لأنه استدعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهي أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث الأنفة. أي: أو قاتلوا دفاعا عن الحوزة، والمعنى إن لم تقاتلوا في سبيل الله فقاتلوا دفاعا عن أنفسكم وحریمکم وأوطانکم.

{قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ} قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

قال محمد بن إسحاق: خَرَجَ رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يعني حين خرج إلى أحد، في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشَّوْط -بين أحد والمدينة- انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس، وقال: أطاعهم فخرج وعصاني، ووالله ما ندري علام نَقُتْلُ أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبَوْا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغْنِي الله عنكم. ومضى مع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- واستشهد رحمه الله تعالى.

ولكن الزمخشري فسر بغير هذا الظاهر، فقرر أن المعنى أننا لو نعلم أنكم تخرجون لقتال رتبت أسبابه وأخذ فيه بالاحتياط، ولكنه زل، وإلقاء بالتهلكة، وكان خيرا أن تبقوا بالمدينة، حتى يجيء العدو إليكم، وكأنهم بهذا يرجحون الرأي الأول، وهو

البقاء في المدينة، ولو بقوا في المدينة لوجدوا السبيل لبث الفتنة بطرق أخرى، فهم لا يبعثون إلا الفتنة.

{هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ} أي بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون؛ فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق، فالقرب مجاز في ظهور الكفر عليهم.

وفي زهرة التفاسير: والحكم الذي حكم الله به عليهم، وهو أنهم في هذا اليوم، أقرب للكفر منهم للإيمان، ظهرت بوادره فقد كانوا يتمنون نصر المشركين ويعملون لبث روح الهزيمة في صفوف المسلمين، فهم بلا شك كانوا أقرب للكافرين منهم للمؤمنين بإرادة نصر الأولين، وهزيمة الآخرين، مع أنهم عشراؤهم وخلطاؤهم، ومنهم من تربطه ببعض المؤمنين قرابة قريبة فمنهم من كان أبا لبعض المؤمنين أو أخا، ولكن نفاقهم جعلهم ينسون تلك الوشائج من القربى، فكانوا يقطعون ما أمر الله به أن يصل. فالمراد بـ «الكفر» أهله.

ويصح أن يقال: إن المراد من قربهم إلى الكفر هو بالنسبة لأقوالهم وأفعالهم، فأفعالهم وأقوالهم في يوم أحد كانت تدل بظواهرها على قربهم إلى الكفر وبعدهم عن الإيمان، وإن كانت

لَا تَدُلُّ عَلَى كُلِّ حَقِيقَتِهِمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ تِلْكَ الْحَوَادِثَ قَدْ كَشَفَتْهُمْ، وَبَيَّنَّتْ قُرْبَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، إِذْ حَرَصَهُمْ عَلَى أَلَّا يَظْهَرُوا بِحَقِيقَتِهِمْ جَعْلَهُمْ لَا يَعلَنُونَ كُلُّ أَمْرِهِمْ، وَلَكِنَّ الْجِزْءَ الَّذِي ظَهَرَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْكُلُّ، دَلٌّ عَلَى حَقِيقَةِ النِّفَاقِ الَّذِي يَسْكُنُ قُلُوبَهُمْ، وَكَانَ مَظْهَرُهُمْ بِهِ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ.

{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ} قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: ذَكَرَ الْأَفْوَاهَ تَأْكِيداً؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: **{وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [الأنعام: ٣٨].

لَكِنَّ الْقَوْلَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ مَا تَوَاطَأَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ؛ لَكِنَّ لَمَّا كَانَ هَذَا الْقَوْلُ يَخْتَلِفُ فِيهِ الْقَلْبُ عَنِ اللِّسَانِ قِيْدَهُ بِالْأَفْوَاهِ، وَبِهَذَا التَّقْدِيرِ يَنْدَفِعُ الْقَوْلُ أَنَّ قَوْلَهُ **{بِأَفْوَاهِهِمْ}** مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ.. فَهَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ قَوْلًا مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ الْمَطْلُوقَ مَا تَوَاطَأَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ.

{مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَتِلْكَ طَبِيعَةُ النِّفَاقِ دَائِمًا فَهُوَ سِتْرٌ لِلْبَاطِنِ، وَإِعْلَانٌ مَا يَنْاقِضُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا: **{لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ}** فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، يَتَحَرِّقُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أَصِيبَ مِنْ سَرَاتِهِمْ [سَادَاتِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ] يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ كَائِنٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَا مُحَالَةَ.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} فيه أن المنافقين يحرصون غاية الحرص على كتم نفاقهم، ولكن الله يعلم بذلك، وقد كشفهم الله بقوله: **{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}**
[النساء: ١٠٨]

فالله سبحانه وتعالى عليم بالسرائر وما يبيتونه للمؤمنين، وقد كشف الله تعالى بعض شئونهم، ليحترس المؤمنون منهم، ولكيلا ينخدعوا بهم، ولكي يتجنبوهم في الشدائد حتى لا يحدث لهم بسببهم محنة، وأن أولئك قد كتموا الرغبة الشديدة في الكيد للنبي وأصحابه، وأنهم كلما ثار حقدهم على النبي -صلى الله عليه وسلم- ازداد كيدهم، وما كان يشير حقدهم إلا نصر يؤيد الله تعالى به نبيه، وقد كتموا موالاتهم لأعداء الإسلام من اليهود وغيرهم، وأن أولئك المنافقين لا يكتفون بتخديلتهم والمعرفة قد ابتدأت، بل يظهرون الشماتة بعد أن وقعت، لكي يشبطوا المؤمنين عما يكون من قتال من بعد.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرِعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)

{الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} إخوانهم ظاهراً، لأنهم لا يخاطبون إخوانهم في النسب فقط بل يخاطبون كل من استشهد في غزوة أحد، وليس كل من استشهد أخاً لواحد من المنافقين، فيكون المراد بإخوانهم أي: ظاهراً؛ لأن المنافقين مع المؤمنين كأنهم مؤمنون.

{وَقَعَدُوا} قعدوا عن القتال.. يعني قالوا وقعدوا؛ لأن قولهم حال كونهم قعوداً أشد، فهم جمعوا بين أمرين بين السوء في القول والسوء في الفعل، والله يسمي المتخلفين عن القتال قعوداً، فقال: **{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** [النساء: ٩٥] فسمى المتخلفين عن القتال قعدة. وقال تعالى: **{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}** [التوبة: ٤٦]

{لَوْ أَطَاعُونَا} في عدم الخروج للجهاد، لأن المنافقين أشاروا بعدم الخروج.

{مَا قُتِلُوا} وفي قراءة **{مَا قُتِلُوا}** بالتشديد على سبيل المبالغة؛ لأنه حصل في الذين استشهدوا، حصل فيهم تمثيل مثل حمزة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

وقد قالوا هذه المقولة ليعثوا الريب في جماهير المؤمنين، وليعلنوا تخلي الله عن نصرتهم.. فهم لا يتألمون لإخوانهم وذوي رحمهم، ولكن يلقون باللوم عليهم، وإنهم فرحون بأنهم لم يقتلوا لأنهم لم يخرجوا، ولائمون لمن خرجوا وقتلوا، شامتون فيهم.

****** وفيه الإشارة إلى أن مثل هذا القول عند حلول القدر لا يجوز؛ لأنه سيق في سياق الذم وهو كذلك، ولهذا قال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) [مسلم]، أما لو قاله الإنسان خبراً لا اعتراضاً على القدر ولا ندماً على ما وقع؛ فإن هذا لا بأس به، ومنه قول النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ مَعِيَ) [مسلم]، وليس هذا من باب التمني مثل ما ذهب إليه بعض العلماء، وأن (لو) هناك استخدمت في تمني الخير، بل نقول: هي خبر، وهذا يقع كثيراً. وقد تقول للشخص: لو زرتني بالأمس لأكرمتك وما أشبه ذلك، تريد بذلك خبر ليس فيه منازعة لقدر الله عز وجل، وهو يقع كثيراً في كلام الناس.

{قُلْ} يا محمد **{فَادْرَءُوا}** فادفعوا، فاء الإفصاح وهي تفصح عن شرط مقدر.

{عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} هذا من باب التحدي، وتأکید لكذبهم.. وما وقع التحدي به فإنه لا يمكن وقوعه، إذ لو أمكن وقوعه لم يكن للتحدي به فائدة.

فإن كان القُعود يَسَلِّمُ به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مُشَيِّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

فبين بهذا أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن المقتول يقتل بأجله، وما علم الله وأخبر به كائن لا محالة.

وكلام هؤلاء المنافقين ككلام الكافرين الذي حكاه الله تعالى آنفا في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [آل عمران: ١٥٦]

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلُهُ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ
مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ
(١٧١)

{وَلَا تَحْسَبَنَّ} الخطاب هنا إما للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- أو لكل من يصح توجيه الخطاب إليه، والحسبان هنا
بمعنى «الظن»: أي لا تظن أن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً.
والنون نون «نون التأكيد» ليست لتأكيد الظن المنهي عنه،
بل هي لتأكيد النهي.

{الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي طريقه، وهو من قاتل لتكون
كلمة الله هي العليا، لا قاتل شجاعة ولا حمية ولا رياء.
ولذلك يجب إذا وجهنا جندنا للدفاع عن الوطن أن نقول:
لاحظوا أنكم تدافعون عن وطنكم باعتباره وطناً إسلامياً لا لمجرد
الوطنية أو القومية.. وكذا من قاتل لمجرد طاعة أمير فقط، فليس
في سبيل الله.

وقد يطلق السبيل ويُضاف أحياناً إلى المؤمنين، قال تعالى:
{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى} [النساء: ١١٥]

فهو يُضاف إلى الله باعتبارين باعتبار أنه واضعه، فالله تعالى هو الذي شرع هذا الطريق وباعتبار أنه موصل إليه، أي: أن هذا الطريق موصل إلى الله تعالى. ويُضاف إلى المؤمنين باعتبار واحد، وهو أنهم هم الذين سلكوه.

{أَمْوَاتًا} أي: لا تحسبن أنهم إذا ماتوا انتهوا وذهبوا سدى، بل هم إذا ماتوا انتقلوا إلى حياة أخرى أفضل مما فارقوه.

{بَلْ أَحْيَاءٌ} للإضراب **{عِنْدَ}** العندية تقتضي غاية القرب، وقال سيبويه: هذه عندية الكرامة لا عندية المسافة والقرب.

وإذا كانوا عنده فهم عند من يكرمهم ومن يجازيهم جزاء عاجلا، حتى يكون الجزاء الأوفى والنعيم المقيم، عندما تتصل أرواحهم الطاهرة بأجسامهم التي يعيدها الله سبحانه وتعالى إليهم في سعادة وحبور.

{رَبَّهُمْ يُرْزُقُونَ} أي: يُعطون؛ لأن الرزق في اللغة العطاء، ومنه قوله تعالى: **{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ}** [النساء: ٨] أي: أعطوهم، يعني يعطون من رزق الله في الجنة حيث شاءوا، ولكن هذا العطاء عطاء ناقص بالنسبة للعطاء الأكمل الذي يكون بعد البعث؛ لأن العطاء قبل القيامة عطاء للبدن وعطاء للروح، وكلاهما ناقص

بالنسبة لما بعده. فهو عطاء للبدن؛ لأنه في القبر يُفسح له مد البصر، ويفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها لكنه لا يتمتع التمتع الكامل، كذلك الأرواح لا تتمتع التمتع الكامل في وجودها في الجنة، إنما يكون التمتع الكامل بعد البعث حين تلتقي الأرواح بالأجساد اللقاء الذي لا مفارقة بعده؛ لأنه إذا التقت الأرواح في البعث فلا مفارقة، تبقى أبد الآبدين، وحينئذ يحصل كمال النعيم.

وقيل: إن الأرواح تدرك في تلك الحال التي يسرحون فيها من روائح الجنة وطيبها ونعيمها وسرورها ما يليق بالأرواح؛ مما ترتزق وتتعيش به. وأما اللذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها استوفت من النعيم جميع ما أعد الله لها.. قال القرطبي: وهذا قول حسن، وإن كان فيه نوع من المجاز.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحْدٍ، جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لئلا يَزْهَدُوا فِي

الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ" فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ عَلَى رَسُولِهِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا} [آل عمران: ١٦٩]

وروى الترمذي: عن طَلْحَةَ بْنِ خِرَاشٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ لِي: (يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا، قَالَ: (أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟) قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِيَنِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ: الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ" قَالَ: وَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا} [آل عمران: ١٦٩].. قال الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ [حسنه الألباني]

وروى مسلم عن مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} قَالَ أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: (أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
اطَّلَاعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ
نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا
رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ
أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى
أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا).

وروى أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال
رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ -نَهْرٍ
بِبَابِ الْجَنَّةِ- فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ
بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [إسناده حسن].

قال ابن كثير: وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح
أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة،
وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون
هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

ثم قال: وقد روي في مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة
لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها، وتأكل
من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده
الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه

ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد، رحمه الله، رواه عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي، رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلِقُ [أي: يأكل] فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجَعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ)

وفي هذا الحديث: "إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ". وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يشبثنا على الإيمان. وروى أحمد عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُّهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَسْرُّهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ).

روى البخاري عن مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثُّوبَ عَنْ وَجْهِهِ أَبْكِي وَيَنْهَوْنِي عَنْهُ وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - لَا يَنْهَانِي فَجَعَلْتُ عَمَّتِي فَاطِمَةَ تَبْكِي فَقَالَ النَّبِيُّ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ
تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ).

وروى أحمد عن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ لِي
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَا جَابِرُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ أَحْيَا أَبَاكَ، فَقَالَ لَهُ: تَمَنَّ عَلَيَّ، فَقَالَ: أُرِدُّ إِلَى الدُّنْيَا،
فَأُقْتَلُ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: إِنِّي قَضَيْتُ، أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ).

وهذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل في سبيل الله
والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب؛ كما روى مسلم عن عن
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
قَالَ: (الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ)

قال أهل العلم: ذكر الدين تنبيه على ما في معناه من
الحقوق المتعلقة بالدم، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل
العمد وجراحه وغير ذلك من التبعات، فإن كل هذا أولى ألا يغفر
بالجهاد من الدين فإنه أشد، والقصاص في هذا كله بالحسنات
والسيئات حسبما وردت به السنة الثابتة.

وروى البخاري في «الأدب المفرد» عن جابر بن عبد الله
قَالَ بَلَّغَنِي حَدِيثًا، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَابْتَعْتُ بَعِيرًا فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي ثُمَّ سَرْتُ إِلَيْهِ
شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ فَإِذَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَيْسٍ الْأَنْصَارِيُّ
فَأَتَيْتُ مَنْزِلَهُ فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ أَنَّ جَابِرًا عَلَى الْبَابِ فَرَجَعَ إِلَيَّ الرَّسُولُ
فَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقُلْتُ نَعَمْ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَخَرَجَ فَأَعْتَنَقْتُهُ
وَاعْتَنَقَنِي قَالَ قُلْتُ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْمَظَالِمِ لَمْ أَسْمَعْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (يَحْشُرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
الْعِبَادَ أَوْ قَالَ النَّاسَ -شَكَّ هَمَامٌ- وَأَوْمَى يَدِهِ إِلَى الشَّامِ عُرَاءَ
غُرْلًا بُوْهُمَا قَالَ قُلْنَا مَا بُوْهُمَا قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ
بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيَّانُ
لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ
يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ
وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ حَتَّى اللَّطْمَةُ قَالَ قُلْنَا كَيْفَ
وَأِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةً غُرْلًا؟ قَالَ: (بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ) [حسنه الألباني]

{فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمْ} بمعنى أعطاهم، وأما (أتاهم) فبمعنى
جاءهم.

{اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} الفضل في اللغة الزيادة، والمراد بالفضل هنا ما تفضل الله به عليهم من النعيم الذي لم يكن يخطر على بالهم.

أي أنهم في هذه الحياة التي يحيونها يشعرون بسعادة عظيمة، لأنهم يرون ثمرات أعمالهم من الجهاد في سبيل الله، ويشعرون برضا الله سبحانه وتعالى، وأنهم في تكريم، وقد آتاهم الله تعالى نعمة الطاعة ونعمة الجهاد، وأشعرهم بالسعادة المطلقة في حياتهم الروحية، ورحابه الكريم، وأن الملائكة أولئك الأرواح الطاهرة تحفهم بالتكريم والترحيب.

****** وفي هذا النص الكريم رد على شماتة المنافقين، وتحريض للمؤمنين، وتقرير لحقيقة إسلامية ثابتة، وهي أن الاستشهاد في سبيل الله تعالى ليس فناء، بل هو بقاء، وأن الموت ليس إنهاء للحياة، ولكنه امتداد لها بصورة أكمل وأبقى.

{وَيَسْتَبْشِرُونَ} والاستبشار: حصول البشارة، فالسين والتاء فيه كما في قوله تعالى: **{وَاسْتَغْنَى اللَّهُ}** [التغابن: ٦]

{بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ} رفقائهم الذي كانوا يجاهدون معهم، ولم يستشهدوا فيصيروا إلى الحياة الآخرة.

{مِنْ خَلْفِهِمْ} من بعدهم.. أي: ويُسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مَضُوا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم.

{أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فلا خوف عليهم فيما يستقبل من أمرهم، ولا هم يحزنون على ما قضى من أمرهم؛ لأن الأصل أن الخوف للمستقبل والحزن للماضي.

أما كونهم لا خوف عليهم في المستقبل، فلأنهم قد أحلهم الله الجنات، والجنة من يدخلها ينعم فلا يبأس، ويصح فلا يسقم، ويحيى فلا يموت، وفيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأما كونهم لا يحزنون على ما مضى فلأنهم استكملوا عملاً من أفضل الأعمال، وهو الجهاد في سبيل الله، الذي أدى بهم إلى الشهادة، فلا يحزنون على الماضي، فمن خرج من الدنيا شهيداً فقد خرج أكمل خروج وهو في الطبقة الثانية من طبقات الذين أنعم الله عليهم.

روى البخاري عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَتَاهُ رِجْلٌ وَذَكَوَانٌ وَعُصِيَّةٌ وَبَنُو لَحْيَانَ فَرَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَاءَ
يَحْطُبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بُرْ
مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ فَقَتَلَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِغْلٍ وَذَكَوَانَ
وَبَنِي لَحْيَانَ قَالَ قَتَادَةُ وَحَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّهُمْ قَرَأُوا بِهِمْ قُرْآنًا {أَلَا
بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا بِأَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا} ثُمَّ رُفِعَ
ذَلِكَ بَعْدُ.

{يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ} الجملة استئنافية تبين استبشاراً
آخر سببه غير السبب الأول، الأول سببه أنهم ينتظرون إخواناً
لهم لم يلحقوا بهم، والسبب الثاني للاستبشار ما أنعم الله عليهم
من النعمة والفضل، فاستبشروا وسرّوا لما عاينوا من وفاء
الموعدود وجزيل الثواب.

{وَفَضْلٍ} هذا لزيادة البيان. والفضل داخل في النعمة، وفيه
دليل على اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا. وقيل: جاء الفضل
بعد النعمة على وجه التأكيد.

روى أحمد عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معدي كرب
الكندي، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (إِنَّ
لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا - قَالَ الْحَكَمُ: سِتٌّ خِصَالٍ - [كَذَا
روى وهي في العدد تسع] أَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ،

وَيَرَى - قَالَ الْحَكَمُ: وَيَرَى - مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ
الْإِيمَانِ، وَيُزَوِّجُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ
مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ - قَالَ الْحَكَمُ: يَوْمَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ - وَيُوضَعُ عَلَى
رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوِّجُ
اِثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا
مِنْ أَقَارِبِهِ).

وروي عن مجاهد أنه قال: السيوف مفاتيح الجنة.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} قال عبد الرحمن بن زيد
بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء
وغيرهم، وقلنا ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم إلا
ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

** وفيه أنه إذا ثبت هذا للشهداء فإنه يثبت للأنبياء من باب
أولى، فالأنبياء أحياء، ويمتاز الأنبياء عن الشهداء، بأن الله حرم
على الأرض أن تأكل أجسادهم بخلاف الشهداء، فإن الأرض
تأكلهم، وقد لا تأكل بعضهم إكراماً لهم، وإلا في الأصل أنهم
كغيرهم تأكلهم الأرض.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا
بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ
اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ}

أجابوا وانقادوا لله والرسول حينما دعاهم النبي -عليه الصلاة
والسلام- إلى الغزوة مرة أخرى بعد أحد، مع ما أصابهم من
الجراح والتعب النفسي والتعب البدني.

وهذا كان يوم "حمراء الأسد"، وذلك أن المشركين لما
أصابوا ما أصابوا من المسلمين كثروا راجعين إلى بلادهم، فلما
استمروا في سيرهم تَنَدَّمُوا لم لا تَمَّمُوا على أهل المدينة وجعلوها
الفيصلة. فلما بلغ ذلك رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم لِيُرْعِبَهُمْ ويريهـم أن بهم قُوَّةٌ
وجلدا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد، سوى
جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فانتدب المسلمون على ما

بهم من الجراح والإثخان طاعة لله -عز وجل- ولرسوله -صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قال ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن
أحد قالوا: لا محمدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتهم، بئسما صنعتهم،
ارجعوا. فسمع رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فندب
المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد [وهي من المدينة على
ثمانية أميال] فقال المشركون: نرجع من قابل. فرجع رسول الله
-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله عز وجل:
{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت النصف
من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت
من شوال، أذن مؤذن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في
الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج معنا أحد إلا أحد
حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام
فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع
وقال: "يا بني، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا
رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله -صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على نفسي، فتخلف على أخواتك"، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فخرج معه.

وإنما خرج رسول الله مُرْهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم عن عدوهم. قال ابن إسحاق: عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلاً من أصحاب رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من بني عبد الأشهل، كان شهد أحداً قال: شهدت أحداً مع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنا وأخي فرجعنا جريحين، فلما أذن مُؤَذِّن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي - أو قال لي -: أتفوتنا غزوة مع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثَقِيل، فخرجنا مع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وكنت أيسر جراحاً منه، فكان إذا غلب حملته عُقْبَةٌ ومشى عُقْبَةٌ حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

وروى البخاري عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} قَالَتْ لِعُرْوَةَ يَا ابْنَ أُخْتِي

كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَافَ
أَنْ يَرْجِعُوا قَالَ: (مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟) فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ
رَجُلًا قَالَ كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابن كثير ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة
إسناده، لمخالفته رواية الثقات من وقفه على عائشة كما قدمناه،
ومن جهة معناه، فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة، وإنما قالت
عائشة لعروة بن الزبير ذلك لأنه ابن أختها أسماء بنت أبي بكر
الصديق، رضي الله عنهم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها
الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وقد مر به - كما
حدثني عبد الله بن أبي بكر - معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت
خزاعة - مسلمهم ومشركهم - عيبة نصح لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بتهامة، صَفَقْتُهُمْ معه، لا يخفون عنه شيئاً كان بها،
ومعبد يومئذ مشرك فقال: يا محمد، أما والله لقد عَزَّ علينا ما
أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج
ورسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بحمراء الأسد، حتى لقي أبا
سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى

رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم.. لُنْكَرَنَّ على بقيتهم فَلَنَفْرُغَنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحَقِّ عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك. ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك.

قال: فشئ ذلك أبا سفيان ومن معه. ومر به ركب من بني عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريدُ المدينة. قال: ولم؟ قالوا: بعكاظ إذ وَافَيْتُمونا قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، [وفي رواية: فبلغ أبا سفيان أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يطلبه فلقي عيرا من التجار فقال: ردُّوا محمدا ولكم من الجُعل كذا وكذا، وأخبروهم أنني قد جمعت لهم جموعا، وأنني راجع إليهم] فمر الركب برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو بحمراء

الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين بلغه رجوعهم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبِّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ).

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ} بالاتباع **{وَاتَّقُوا}** بترك المخالفة **{أَجْرٌ عَظِيمٌ}** كثير واسع.. وقد بين الله تعالى شيئاً من أجر الإحسان والتقوى فقال: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ}** [النحل: ١٢٨]

اختص سبحانه وتعالى من أولئك الذين جاهدوا ولم يستشهدوا بعد بأن لهم أجراً عظيماً، وهنا يلاحظ ثلاثة أمور: (أولها) أن الله لم يذكر الأجر لهم جميعاً، لأنهم كانوا أحياء، والحيّ قد يغير ويبدل، فكان لابد من التقييد بالإحسان والتقوى، أي يستمر على ما هو عليه.

(وثانيها) أن الإحسان هنا غير التقوى، إذ الإحسان هو إجادة الخطة، واتباع المنهج المستقيم في القتال، وذلك لابد منه في الانتصار، والطاعة المطلقة للقائد من إحكام الخطة.

(ثالثها) أن التقوى - وهي وقاية النفس من الغرض والهوى والاتجاه إلى الله وإخلاص وقلب سليم خال من الشوائب - أساس الأجر العظيم، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم.

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} نعيم بن مسعود الأشجعي أو أعرابي من خزاعة جعل له جعل على ذلك القول. وقال جماعة من أهل السير: ركب عبد القيس، مارين بمر الظهران قرب مكة قاصدين المدينة للميرة، فدسهم أبو سفيان إلى المسلمين ليشطوهم، وكان مع الركب نعيم بن مسعود الأشجعي.

وقيل: وخرج أبو سفيان في أهل مكة ولكن ألقى الله الرعب في قلوبهم، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمرا، فقال: يا نعيم إني أوعدت محمدا أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جذب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جرأة فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل، ويروى أن الذين دسهم أبو سفيان ليشطوا الهزيمة في قلوبهم هم ركب عبد القيس، ويظهر أنه تكرر ذلك الدس من أبي سفيان.

**** وفيه: جواز إرادة الخصوص بلفظ العموم، وأن هذا أسلوب لغوي لا يخرج به الإنسان عن قواعد اللغة العربية.**

قال صاحب "الإتقان": قال الفارسي: ومما يقوي أن المراد به واحد قوله: **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ}**، ف وقعت الإشارة بقوله: **{ذَلِكُم}** إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى جمعا لقال: إنما أولئكم الشيطان. فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ. اهـ

ومنه قوله تعالى: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [النساء: ٥٤] قال المفسرون: يعني بالناس محمدا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} أي جمعوا أنفسهم وعددهم وأحلافهم كما فعلوا يوم بدر الأول.

قال المفسرون: حذف فيه المفعول، فلم يقل جمعوا جيشا، وذلك ليذهب الخيال كل مذهب في مقدار ما جمعوا من أسلحة، ومقدار من جمعوا من الرجال وأموالهم، فيكون ذلك أشد تخويفا.

{فَاخْشَوْهُمْ} والفرق بين الخوف والخشية أن الخوف يكون من أمر حاضر، والخشية من أمر متوقع، وهي إن كانت في الحاضر تكون خشية من قوي لما يكون منه في القابل.

{فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} أي فزادهم قول الناس إيماناً، أي تصديقاً وبقينا في دينهم، وإقامة على نصرتهم، وقوة وجراءة واستعداداً. فزيادة الإيمان على هذا هي في الأعمال.

وذلك أن المؤمن عند المصائب يزداد إيماناً بالله واعتماداً عليه وتوكلاً عليه، ومن أمثلة ذلك أنه لما أحاط الأحزاب بالمدينة قال تعالى: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}** [الأحزاب: ٢٢]

وقد قال الزمخشري في تصوير ذلك الرأي من هذه الآية: لما أخلصوا النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجاج، ولأن خروجهم على أثر التشييط إلى العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل، وعن ابن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه كان يأخذ بيد الرجل، فيقول: "قم بنا نزدد إيماناً"، وعنه: "لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح".

{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ} أي كافينا الله جل جلاله. وحسب مأخوذ من الإحساب، وهو الكفاية. ومعناها: إنهم اكتفوا بالله ناصرا، وإن كانوا في قلة وضعف.

{وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ليس المراد به المتوكل عن غيره، ولكن المراد المدافع عن غيره؛ لأن الله - عز وجل - لا يتوكل عن أحد، بل بيده الأمر كله، فيكون المراد بالوكيل هنا المدافع. ف (الوكيل) من أسماء الله تعالى، ومعناه المتكفل بشؤون عباده، وليس معناه القائم بالأمر نيابة عنهم.

روى البخاري عن ابن عباس: **{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَام- حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ قَالُوا: **{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}**

وروى أحمد عن ابن عباس، في قوله: **{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ}** [المدثر: ٨] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ اتَّقَمَ الْقُرْنُ، وَحَنَى جَبْهَتُهُ يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ، فَيَنْفُخُ؟) فَقَالَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: (قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا)

وروى الطبراني عن أم المؤمنين عائشة وزينب بنت جحش - رضي الله عنهما-، أنهما تفاخرتا فقالت زينب: زوجني الله وزوجكن أهاليكن وقالت عائشة: نزلت براءتي من السماء في القرآن. فَسَلَّمَتْ لها زينب، ثم قالت: كيف قلت حين ركبت راحلة صَفْوَان بن المعطل؟ فقالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين.

{فَانْقَلَبُوا} عادوا، انقلبوا يعني: عائدین إلى المدينة بعد أن وصلوا إلى حمراء الأسد.

{بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ} النعمة أنهم سلموا من ملاقات العدو ولم يحصل حرب؛ لأن العدو مضى في سبيله ولم يرجع.

{وَفَضْلٍ} المراد به فضل الجهاد، وأن الله كتب لهم بهذا الخروج أجر غزوة كاملة، فسلموا من الحرب ونالوا ثواب المجاهدين.

{لَمْ يَمَسْسْنَهُمْ سُوءٌ} لم يصيبهم ما يسوؤهم لا من جهة عدوهم ولا من جهة أحوالهم، بل كانوا على أحسن ما يرام ذهاباً ورجوعاً.

فلما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهُمْ وَرَدَ عَنْهُمْ بِأَسْ مِنْ أَرَادَ كِيدَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى بِلَدِهِمْ {بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ} مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ.

{وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ} قَالَ عِلْمَاؤُنَا: لَمَّا فَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ، وَاعْتَمَدُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهِ، أَعْطَاهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ: النِّعْمَةُ، وَالْفَضْلُ، وَصَرَفُ السُّوءِ، وَاتِّبَاعُ الرِّضَا. فَرَضَاهُمْ عَنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ.

{وَاللَّهُ ذُو} صَاحِبُ {فَضْلٍ عَظِيمٍ} عَلَى الْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا تَكُنْ حَقِيقَتُهُ، وَلَا يَحْدُهُ الْحَصْرُ، وَقَدْ بَدَأَ فِيهِمَا أَسْبَغَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نَعَمٍ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَا أَنْقَذَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ شَرِّ الْكَافِرِينَ، وَمَا وَفَّقَهُمْ لَهُ مِنْ طَلَبِ رِضْوَانِهِ وَمَا نَصَرَهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرِ مُؤَزَّرٍ، وَالتَّنْكِيرُ فِي الْفَضْلِ وَوَصْفُهُ لِإِفَادَةِ كَثَرَتِهِ وَقُوَّةِ أَثَرِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} قَالَ: هَذَا أَبُو سَفْيَانَ، قَالَ لِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَوْعِدُكُمْ بِدَرٍّ، حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا. فَقَالَ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (عَسَى).

فانطلق رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لموعده حتى نزل بدرًا، فوافقوا السوق فيها وابتاعوا فذلك قول الله عز وجل: **{فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ [وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ] قال: وهي غزوة بدر الصغرى.** **** وفيه: أن الإنسان إذا عمل العمل وسعى فيه ولم يكمله كتب له أجر كامل، ولهذا شواهد منها قوله تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [النساء: ١٠٠]**

ومنها قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا) [البخاري]، فالإنسان إذا سعى في العمل ولكنه لم يدركه فإنه يكتب له أجره كاملاً، حتى طالب العلم لو مات قبل أن يدرك ما يريد من العلم فإنه يكتب له ما نوى؛ لأنه شرع فيه وعمل ما يقدر عليه فينال الأجر.

**** وفيه إثبات اتصاف الله -عز وجل- بالفضل العظيم في كميته العظيم في كميته، أما في كميته فإن الله تعالى يقول: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} [إبراهيم: ٣٤] وجعل جزاء الحسنة عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة.**

وأما في كفيته فقد قال الله - عز وجل -: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧]

**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ
إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)**

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} أي: يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه، ويوهمكم أنهم ذو بأس وذو شدة.. كما قال تعالى: **{لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا}** [الكهف: ٢] أي لينذركم ببأس شديد.

أي: يعظمهم في صدوركم حتى تخافوهم وتتركوا الجهاد وتتركوا الدعوة؛ لأنكم تخافون منهم بسبب تخويف الشيطان. وأولياء الشيطان كل مجرم وفاسق وملحد وكافر، هؤلاء هم أولياء الشيطان.

{فَلَا تَخَافُوهُمْ} لا يؤثر فيكم تخويفه فتخافوا منهم، فيؤثروا عليكم بهذا في ترك الجهاد.

{وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} شرط مؤخر، وهو تذكير وإحماء لإيمانهم، وإلا فقد علم أنهم مؤمنون حقاً.. وفيه أنه كلما قوي إيمان الإنسان بالله قوي خوفه منه.

أي: إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجنوا إلي، فأنا
كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى:

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} إلى
قوله: {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر: ٣٦-
[٣٨

{فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}
[النساء: ٧٦]

{أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ
الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: ١٩]

{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}
[المجادلة: ٢١] {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج: ٤٠]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ} * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الدَّارِ { [غافر: ٥١-٥٢].

والمعنى: أي خافوني في ترك أمري إن كنتم مصدقين
بوعدي. والخوف في كلام العرب الذعر. والخوفاء المفازة لا ماء
بها. ويقال: "ناقة خوفاء" وهي الجرباء.

قال سهل بن عبد الله: اجتمع بعض الصديقين إلى إبراهيم
الخليل فقالوا: ما الخوف؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن.
وقال سهل: وكان الربيع بن خيثم إذا مر بكير يغشى عليه؛
فقيل لعلّي بن أبي طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلموني.
فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده في قميصه فوجد حركته
عالية فقال: أشهد أن هذا أخوف أهل زمانكم.

فالخائف من الله تعالى هو أن يخاف أن يعاقبه إما في الدنيا
وإما في الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح
عينيه، بل الخائف الذي يترك ما يخاف أن يعذب عليه. ففرض
الله تعالى على العباد أن يخافوه بهذه الآية الشريفة.

قال أبو علي الدقاق: دخلت على أبي بكر بن فورك -رحمه
الله- عائدا، فلما رأني دمعت عيناه، فقلت له: إن الله يعافيك
ويشفيك. فقال لي: أترى أني أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما
وراء الموت.

روى الترمذي بسند حسن عن أبي ذرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنِّي أَرَى مَا لَا
تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَطَّ، مَا
فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ
لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ
بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ).

**وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَ يَصُرُّوا
اللَّهُ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)**

أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة
التي كانت في وقعة أحد، وهو أن يتميز المؤمن الصادق من
المنافق الكاذب. فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم
يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من
ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله -عز وجل- أن سبب
لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون
رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتُمونه، وظهر
مخباتهم، وعاد تلويحهم صريحاً، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن

ومنافق انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم.

{وَلَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} يدخلون في الكفر مسرعين من غير تريث وتدبر وتفكير، ويحرصون على أعماله، وينتقلون من درجة إلى درجة، فينتقلون من الضلال والجحود إلى التضليل ومن التضليل إلى الفتنة ثم القتال، فضلاً عن التدبير الخبيث والمكر السيئ.. فهم يتوغلون فيه ويعجلون إلى إظهاره وتأييده والعمل به عند سnoch الفرص.

وهي استعارة تمثيلية: شبه حال حرصهم وجدهم في تكفير الناس وإدخال الشك على المؤمنين وتربصهم الدوائر وانتهازهم الفرص بحال الطالب المسارع إلى تحصيل شيء يخشى أن يفوته وهو متوغل فيه متلبس به.

والمعنى: لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله، وذلك من شدة حرصه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على الناس فكان يحزنه مُبَادَرَةُ الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق.

قال القشيري: والحزن على كفر الكافر طاعة؛ ولكن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يفرط في الحزن على كفر قومه،

فنهى عن ذلك؛ كما قال تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسْرَاتٍ} [فاطر: ٨] وقال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦].

{إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} نكرة في سياق النفي، تفيد
العموم، أي: لن يضرروا الله أي شيء في ذاته ولا في ملكه ولا في
أسمائه وصفاته ولا في غير ذلك.. والآية تعليل للنهي عن أن
يحزنه تسارعهم إلى الكفر.

روى مسلم في صحيحه عن أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ
النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
أَنَّهُ: (قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ
مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ
فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ
فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ
فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا
أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ
تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ
أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ
وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ

وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمُ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا
نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ
وَإِنْسَكُمُ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ
إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخِيطُ
إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ
أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ
فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

وقال عطاء: يريد أولياء الله.

وقال المهايمي: أي: لن يضرُوا أولياء الله، لأنهم يحميهم
الله، فلو أضروهم لأضروا الله بتعجزهم إياه عن حمايتهم، ولا
يمكنهم أن يعجزوه شيئاً.

وتعليق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم والإيذان بأن مضارتهم
بمنزلة مضارته سبحانه، وفيه مزيد مبالغة في التسلية.

وقيل: المنفي هنا ضرر خاص، وهو إبطال الإسلام وكيده
حتى يضمحل، فهذا لن يقع أبداً، بل أمرهم يضمحل ويعلو أمرك
عليهم.

قال ابن عاشور: نفي أن يعطلوا ما أراده إذ قد كان الله وعد
الرسول إظهار دينه على الدين كله، وكان سعي المنافقين في

تعطيل ذلك، فنهى الله رسوله أن يحزن لما يبدو له من اشتداد المنافقين في معاكسة الدعوة، وبين له أنهم لن يستطيعوا إبطال مراد الله، تذكيراً له بأنه وعده بأنه متم نوره.. وإذا انتفى إضرارهم لله انتفى إضرارهم للمؤمنين فيما وعدهم الله.

فإن قيل: إن الله قد أثبت أن بعض عباده يؤذيه كما في قوله تعالى: **{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ }** [الأحزاب: ٥٧] وفي قوله في الحديث القدسي: (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ) [البخاري]

فنقول أنه لا يلزم من الأذية الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر به أرأيت لو صلى إلى جانبك أو جلس إلى جانبك رجل قد أكل بصلاً وثوماً فإنك تتأذى برائحته ولكن لا تتضرر، فلا يلزم من الأذية الضرر، وحينئذ لا معارضة بين نفي الضرر عن الله عز وجل وإثبات الأذية.

{ يُرِيدُ اللَّهُ } استئناف لبيان جزائهم على كفرهم في الآخرة، بعد أن بين السلامة من كيدهم في الدنيا.

{ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا } الحظ: النصيب من شيء نافع **{ فِي }** **{ الْآخِرَةِ }** من الثواب في الآخرة. فكفرهم ليس مراغمة لله سبحانه

حتى تحزن، وإنما هو بإرادته لأنه أراد ألا يكون لهم حظ من الخير في الآخرة.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ذو عظمة، وعظمة كل شيء بحسبه؛
فقوله تعالى: **{سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}** [النور: ١٦] كلمة
عظيم هنا من باب الذم، وقوله: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}**
[النمل: ٢٣] من باب المدح.

**إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)**

{إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا} استبدلوا **{الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ}** إما بأخذه
بدلاً من الإيمان الحاصل بالفعل، كما هو حال المرتدين، أو
بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله في التوراة، كما هو
شأن اليهود ومنافقيهم.

والكفار ابتداء كان اختيارهم للكفر أخرجهم من الفطرة التي
كانوا عليها، وهي التوحيد، فهم اشتروا الكفر بعد الإيمان
الفطري.

وهذه أَوْخَسُ صفقة على وجه الأرض أن يأخذ الإنسان الكفر
بالإيمان طائعاً طيبة به نفسه والعياذ بالله.

وفي هذا دلالة على أمرين:

أولهما: أن الكافرين طمس على قلوبهم فاستبدلوا بفطرة الإيمان التي فطر الله الناس عليها كفرا قامت الدلائل على بطلانه، فكان هذا دليلاً على تمكن الضلال، وكل ما يقع منهم بعد ذلك من شر يجب أن يكون متوقعا، فيهون أمره، ويضعف في النفس أثره.

ثانيهما: أن الإيمان في ملك كل إنسان، وهو الأصل الذي يجب أن يهتدي إليه عندما تلوح ظواهره وبيئاته، فإن الله تعالى قد ألهم كل نفس فجورها وتقواها، والبيئات الشاهدة الواضحة المؤيدة الهادية تجعل الإيمان في قبضة يد طالب الحق، فإذا فتح قلبه للكفر، فقد باع أغلى شيء في الوجود، وهو الإيمان، بأحق شيء في الوجود وهو الكفر.

{لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} فيه تعريض ظاهر باقتصار الضرر عليهم، كأنه قيل: وإنما يضررون أنفسهم.

فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده، ببيان علته، بتغيير عنوان الموضوع، وتصريح بلحوق ضرره بأنفسهم، وعدم تعديه إلى غيرهم أصلاً، كيف وهو علم في الخسران الكلي، والحرمان الأبدي، دال على كمال سخافة عقولهم، وركاكة آرائهم، فكيف

يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم، ورزانة الرأي، ورصانة التدبير، من مضارة حزب الله تعالى.. فالجملة مقررمة لمضمون ما قبلها تقريراً للقواعد الكلية، لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام.

أو المعنى ليس في طولهم ولا في طاقتهم أن يضرروا دين الله تعالى ولا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولا المؤمنين بالله تعالى شيئاً من الضرر الذي تكون عاقبته انتصارهم إلى النهاية، فإن الله تعالى ناصر دينه خاذل أعداء الحق، فإضافة إرادة الضرر إلى الله تعالى على حذف مضاف، أي وتقديره دين الله أو رسوله أو المؤمنين بالله، وفي حذف المضاف إشارة إلى أن ما يفعله المشركون ويوجهونه إلى المؤمنين إنما يوجهونه إلى الله تعالى رب العالمين، وذلك إعلاء للدين وللرسول وللمؤمنين.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} جملة مبتدأة مبينة لكمال فضاغة عذابهم، بذكر غاية إيلامه، بعد ذكر نهاية عظمه. فهنا قال: إنه أليم، وهناك قال: إنه عظيم، فيجتمع في عذابهم -والعياذ بالله- العظيم والأليم، وأليم هنا بمعنى مؤلم وليس بمعنى شديد.

وقيل: لما جرت العادة باغتيال المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وتألمه عند كونها خاسرة، وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك.

**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)**

قد يرد على الخاطر: إذا كان أمر الله هو الغالب فلم يترك هؤلاء الكفار في شيء من النعيم تارة وبعض الانتصارات والعلو تارة أخرى.. فقال سبحانه:

{وَلَا يَحْسَبَنَّ} النهي عن الظن متجها للذين كفروا.. وفي قراءة ولا تحسبن ويكون الخطاب بالنهي متجها إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأمته.

{الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ} الإملاء: الإمهال في الحياة، يقال: أملى لفرسه إذا أرخى له الطول في المرعى، وهو مأخوذ من الملو وهو سير البعير الشديد، ثم قالوا: أملت للبعير والفرس إذا وسعت له في القيد لأنه يتمكن بذلك من الخب والركض.

أي: نملي لهم بتطويل أعمارهم وإمهالهم عن العقوبة
وتخليتهم وشأنهم دهرًا طويلًا. كقوله تعالى: **{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ**
كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣]

{خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ} بل هو سبب مزيد عذابهم.

{إِنَّمَا نُمْلِي} نطول أعمارهم.

{لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} إلى إثمهم، بكثرة المعاصي فيزدادوا
عذابًا، فهم -والعياذ بالله- لا يستفيدون من دنياهم، وإنما
يزدادون فيها كفرًا فيكون أخذهم به أشد.

والآية استئناف واقع موقع التعليل للنهي عن حسابان الإملاء،
خيرًا، أي ما هو بخير لأنهم يزدادون في تلك المدة إثمًا.

واللام لام العاقبة كما هي في قوله تعالى: **{لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ**

وَحَزَنًا} [القصص: ٨]

{وَلَهُمْ} في الآخرة **{عَذَابٌ مُّهِينٌ}** ذو إهانة في أسفل
درجات النار.. وهو أنه لما تضمن الإملاء التمتع بطيبات الدنيا
وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزز والتجبر، وصف عذابهم
بالإهانة، ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقًا.

كقوله تعالى: **{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ.**
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥-٥٦]،

وكقوله: { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } [القلم: ٤٤]، وكقوله: { فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة: ٥٥].

روي عن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: "ما من أحد
بر ولا فاجر إلا والموت خير له؛ لأنه إن كان برا فقد قال الله
تعالى: { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ } [آل عمران: ١٩٨] وإن كان
فاجرا فقد قال الله: { إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا }".

والآية نص في بطلان مذهب القدرية؛ لأنه أخبر أنه يطيل
أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي، وتوالي أمثاله على
القلب. كما تقدم بيانه في ضده وهو الإيمان.

والإملاء لزيادة الإثم مشروط باستمرارهم على الكفر، لأن
الإملاء ينقطع بإيمانهم، فالإملاء إنما هو لأجل مشاقة الله
ورسوله وإعلان الكفر ومحادة الحق، وبإيمانهم تنتهي هذه
المشاقة فيزول سبب الإملاء، وإن زيادة الإثم إنما هي منوطة
بوصف الكفر، فبانتهائه تزول الزيادة، بل يغفر الله -سبحانه
وتعالى- ما سبق كما قال جل شأنه: { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا

يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ {
[الأنفال: ٣٨].

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى
يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى
الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)
{مَا كَانَ اللَّهُ} استئناف ابتدائي، وهو رجوع إلى بيان ما في
مصيبة المسلمين من الهزيمة يوم أحد من الحكم النافعة دنيا
وأخرى.

{لِيَذَرَ} ليرك **{الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ}** من الالتباس
بالمنافقين، بل لا يزال يتليكم.

أي: أن هذا ممتنع غاية الامتناع على الله عز وجل، وهذا
الامتناع ليس امتناعاً لعدم المقدرة عليه، فهو قادر، لكنه امتناع
شرعي، أي: يمتنع بحسب ما تقتضيه حكمته سبحانه.

{حَتَّى يَمِيزَ} مزت الشيء أميزه إذا فرقت بين شيئين. ومنه
امتاز القوم، تميز بعضهم عن بعض. ويكاد يتميز: يتقطع؛ وبهذا
فسر قوله تعالى: **{تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ}** [الملك: ٨]

{الْخَيْثُ} المنافق **{مِنَ الطَّيِّبِ}** المؤمن الخالص من النفاق.

فلا بُد أن يعقد سببا من المحنة والتكليف، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله.

وفي التعبير عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث تسجيل على كل منهما، بما يليق به، وإشعار بعله الحكم.

وإفراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكرره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما -أعني: المؤمن بصيغة الجمع- للإيذان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد أحادهما، كما في مثل قوله تعالى: **{يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ}** [الحج: ٢]، حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف.

****** وفيه بيان رحمة الله عز وجل بعباده حيث لا يتركهم هكذا يشته بعضهم ببعض، بل لا بد من تميز هذا عن هذا. وبيان حكمة الله عز وجل في أفعاله وشرعه أيضاً.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} الذي يميز به ما في قلوب الخلق من الإيمان والكفر.. أي ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم، ولكن لا يميز إلا بهذا الابتلاء الكاشف. لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسسا على استفادة المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها.

يذكر أن منجما كان عند الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فأخذ الحجاج حصيات بيده قد عرف عددها فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب فأصاب المنجم.

فأغفله الحجاج وأخذ حصيات لم يعدهن فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ، ثم حسب أيضا فأخطأ؛ فقال: أيها الأمير، أظنك لا تعرف عدد ما في يدك؟ قال لا: قال: فما الفرق بينهما؟ فقال: إن ذاك أحصيته فخرج عن حد الغيب، فحسبت فأصبت، وإن هذا لم تعرف عددها فصار غيبا، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي} يختار ويصطفى {مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ}

باطلاعه على بعض الغيب، كما أوحى إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما ظهر منهم من الأقوال والأفعال، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويخلصكم من سوء جوارهم.

والجملة استدراك حتى لا يجعله المنافقون حجة على المؤمنين، في نفي الوحي والرسالة، فيكون المعنى: وما كان الله ليطلعكم على الغيب إلا ما أطلع عليه رسوله فيكون كاستثناء من عموم {ليطلعكم}.

قال ابن القيم: هذا استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، كما قال: **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}** [الجن: ٢٦-٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واثقتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله. التعرض للاجتماع للإيمان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل، تقاصرت عنه همم الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم، وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب أمر متين، له

أصل أصيل، جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل عليهم السلام.

{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} الذين اجتباهم للاقتداء بهم في الاعتقادات والأعمال.

خطابا للمؤمنين المقصود منه الإيمان الخاص، وهو التصديق بأنهم لا ينطقون عن الهوى، وبأن وعد الله لا يخلف، فعليهم الطاعة في الحرب وغيره أو أريد الدوام على الإيمان، لأن الحالة المتحدث عنها قد يتوقع منها تزلزل إيمان الضعفاء ورواج شبه المنافقين.

وتعميم الأمر في قوله تعالى: **{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}** مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهاني، والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل، لأنه مُصدق لما بين يديه من الرسل، وهم شهداء بصحة نبوته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام، فيدخل فيه تصديقه فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولاً أولاً.

{وَإِنْ تُؤْمِنُوا} فتصححوا الاعتقادات **{وَتَتَّقُوا}** فتصلحوا الأعمال.

{فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} يعني ثواباً، وسمى الله الثواب أجراً من باب التكرم والتفضل كأننا نحن مستأجرين أدينا العمل، فنطالب بالأجرة، مع أن الحق لله علينا لكنه -عز وجل- أوجب على نفسه أنه: **{مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً}** [النساء: ١٢٣ - ١٢٤]

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة، شرع ههنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه.

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ} الظاهر أن هذا أنزل في شأن أحوال المنافقين، فإنهم كانوا يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، كما حكى الله عنهم في سورة النساء بقوله: **{الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ}**

النَّاسَ بِالْبُخْلِ { [٣٧] وكانوا يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وغير ذلك، ولا يجوز بحال أن يكون نازلا في شأن بعض من المسلمين لأن المسلمين يومئذ مبرؤون من هذا الفعل ومن هذا الحساب، ولذلك قال معظم المفسرين: إن الآية نزلت في منع الزكاة، أي فيمن منعوا الزكاة، وهل يمنعها يومئذ إلا منافق. ولعل مناسبة ذكر نزول هذه الآية هنا أن بعضهم منع النفقة في سبيل الله في غزوة أحد.

والبخل في اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه. فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخل؛ لأنه لا يذم بذلك.

عن جَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟) قُلْنَا: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَّا نُبْخِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ). قَالَ: وَكَانَ عَمْرُو عَلَى أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُولِّمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا تَزَوَّجَ [لأدب المفرد وصححه الألباني]

والشح هو البخل مع حرص، روى مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (اتَّقُوا الظُّلْمَ

فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ).

وروى النسائي عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرِي مُسْلِمٍ وَلَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ). وهذا يدل على أن الشح أشد في الدم من البخل. **{بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** أي من خيره؛ لأن الفضل في الأصل هو الزيادة فالإنسان قد يعمل عملاً يؤمل أن يكسب فيه ألفاً، فيكسب ألفين أو أكثر من فضل الله عز وجل.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن سبب البخل نسيان أصل المال، إذ أن البخيل يحسب أن ما يأتي إليه من مال إنما هو بجهوده وكسبه فقط، وليس فضلاً من الله، وينسى أن الله سبحانه وتعالى هو المعطي المانع، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب، وأن الرجلين يسعيان ويتخذان الأسباب، فتأتي جائحة لهذا تأكل الأخضر واليابس، وينجو مال ذاك، والله على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

والجملة للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله، كما في قوله تعالى: **{وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}** [الحديد: ٧]

{هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ} لاستجلاب العقاب عليهم، والتنصيص على شريته لهم، مع انفهامها من نفي خيريته، للمبالغة في ذلك، والتنوين للتفخيم.

والجملة إضراب إبطالي، وقد يأتي الإضراب في القرآن انتقالياً كما في قوله تعالى: **{بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}** [النمل: ٦٦] فالثاني لا يبطل الأول بل يؤكد.

{سَيُطَوَّقُونَ} سين الوعيد، أي سوف يطوقون، أو للتحقيق فكلمة **{سَيُطَوَّقُونَ}** أبلغ في التحقيق من كلمة {يطوقون}.

{مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وسمي يوم القيامة لوجوه ثلاثة: يقوم فيه الناس لرب العالمين، ويقوم فيه الأشهاد، ويقوم فيه العدل.

والآية بيان لكيفية شرية مآل ما بخلوا به. أي: سيجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم.

وقد ذهب طائفة من المفسرين إلى أن هذا الوعيد على طريق التمثيل أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به لزوم الطوق.

وذهب آخرون إلى أنه على ظاهره، وأنه نوع من العذاب الأخروي المحسوس، وأيدوه بما رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ [الشجاع: الذكر من الحيات وهو أجروها، والأقرع: كثير السم؛ لأن رأسه من كثرة سمه قد تمزق شعره، فهو أقرع] لَهُ زَبَيْتَانِ [غَدَّتَانِ تُشْبِهَانِ الزَبِيبَ، قد امتلأتا من السم] يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكُ أَنَا كَنْزُكَ [يقول ذلك توبيخاً له فيزداد بذلك حسرة] ثُمَّ تَلَا { لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ } الْآيَةَ.

{وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} اللام هذه للاختصاص، والجار والمجرور خبر مقدم، وتقديمه يفيد الحصر، أي: أنه له وحده عز وجل.

وذلك أن الذي يخل بماله إنما يخل به ليبقى له، فبين الله أنه لن يبقى له، ولا بد أن يموت ويرثه ورثته ثم يموتون ويرثهم ورثتهم وهكذا إلى أن ينتهي الإرث إلى الله عز وجل

أو المعنى: أنه يفني أهل السموات والأرض، ويصير أملاك أهلها بعد فنائهم إلى خالص ملكه، كما يصير مال المورث ملك الوارث، فجرى ما هنا مجرى الوراثة، إذ كل الخلق يدعون الأملاك ظاهراً، وإلا فالكل له، وعلى هذا فهو مجاز.

وفيه بيان سلطان الله تعالى على كل ما في الوجود، فهو ملكه، وهو الذي يتول إليه، وفي ذلك بيان كمال سلطانه، وتأكيد لمعنى أنه المعطي الوهاب، والقوي الرزاق المتين، ولذلك لم يعبر عن الميراث بأنه ميراث الأموال التي نعرفها، بل ميراث كل ما حوته السماء وما حوته الأرض.

والمعنى في الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن ينفقوا ولا يخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثاً لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا، فالآية موعظة ووعد ووعيد.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} فيجازيكم على المنع والبخل، فالخبرة هي العلم الدقيق الشامل.

وختّم الآية بهذا الاسم {الخبير} واضح المناسبة؛ لأن هؤلاء الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله قد لا يطلع عليهم الخلق، فالإنسان قد يكون عنده المال الكثير ولا يعلم الناس عنه، ويخل بزكاتها ولا يُعلم عنه، فبين الله تعالى أنه خبير بعملهم.

لأن الخبرة - كما قال العلماء-: هي العلم ببواطن الأمور، ومن المعلوم أن العليم ببواطن الأمور عليم بظواهرها من باب أولى.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

{لَقَدْ} تأكيد بالقسم المقدر و (قد) التي تفيد التحقيق، وإنما أكدده سبحانه وتعالى للمبالغة في تهديد هؤلاء.

{سَمِعَ اللَّهُ} تهديد، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة، وإن كان القصد منها التعريض بطلان كلام القرآن، لأنهم أتوا بهذه العبارة بدون محاشاة، ولأن الاستخفاف بالرسول وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر.

ولا يلزم من السماع ثبوت الأذن، فها هي الأرض يوم القيامة تُحدث أخبارها، أي تخبر عما فعل الناس عليها، أو عما قالوا عليها، مع أنه ليس لها أذن ولا لسان، والجلود والأيدي والأرجل تشهد يوم القيامة على الإنسان بما عمل، وهي ليس لها آذان،

إذن لا يجوز أن نقول: إن الله له أذن بناءً على أن الله أثبت له السمع، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير سبحانه وتعالى.

{قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا} من اليهود.. وإيراد صيغة الجمع في الآية مع كون القائل واحداً، كما روي، لرضا الباقيين بذلك، ونظائره في التنزيل كثيرة.

{إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ} قال أهل التفسير: لما أنزل الله تعالى: **{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}** [البقرة: ٢٤٥].. قال قوم من اليهود - منهم حيي بن أخطب؛ في قول الحسن. وقال عكرمة وغيره: هو فنحاص بن عازوراء - إن الله فقير ونحن أغنياء يقترض منا.

ولكن الله - عز وجل - في كتابه لا يذكر شيئاً خاصاً إلا لسبب، لا بد معه من تعيين الشخص، ولهذا لم يذكر الله - عز وجل - أحداً باسمه في القرآن من هذه الأمة إلا رجلاً مؤمناً ورجلاً كافراً فقط. الرجل المؤمن زيد بن حارثة **{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا}** [الأحزاب: ٣٧]، والرجل الكافر من هذه الأمة أبو لهب؛ لأن الوصف أكثر فائدة لوجهين:

الأول: أنه قد تتغير حال المعين، يكون بالأول فاسقاً مارداً كافراً، ثم يسلم ويتوب الله عليه، فإذا تاب ولم يذكر اسمه في

القرآن كان أحسن مما لو ذكر، فإنه لو ذكر اسمه لبقى العار عليه ولو تاب.

الثاني: أنه أعم؛ لأن تعليق الحكم بالوصف أعم من تعليقه بالشخص، ولهذا إذا عُلّق الحكم بالشخص احتمل الخصوصية، وإذا قلنا بعموم الحكم المعلق بالشخص فإنه ليس عمومًا شموليًا، ولكنه عموم تمثيلي، يعني بالقياس.

وهذه مسألة دل عليها القرآن وكذلك السنة أيضاً دلت عليها، فكان الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يقول: ما بال فلان يقول كذا؟ بل كان يقول: ما بال أقوام.

والله -عزّ وجل- جعل الإنفاق في سبيله بمنزلة القرض له، إشعاراً للمنفق بأنه سوف يجازي عليه، كما أن المقرض يجب عليه أن يوفي مقرضه، فهكذا جعل الله العمل له بمنزلة القرض تفضلاً منه -عز وجل- وإحساناً للعباد.

واليهود لا يستغرب منهم أن يصفوا الله بمثل هذا، فهم قالوا: يد الله مغلولة، فوصفوه بالبخل، وهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم تعب واستراح يوم السبت، ولهذا يجعلون يوم السبت هو يوم الراحة عندهم -قاتلهم الله- وهم كاذبون في هذا، قال الله تبارك وتعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا**

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ {
[ق: ٣٨]

وقيل: إنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم، لا أنهم يعتقدون هذا؛ لأنهم أهل كتاب. ولكنهم كفروا بهذا القول؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أي إنه فقير على قول محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنه اقترض منا.

{وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} فجعلوا أنفسهم أكمل من الله، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة.

{سَنَكْتُبُ} بنون العظمة.. والكتابة هنا كتابة الله عز وجل بملائكته؛ لأنهم يكتبون بأمره وهم جنده وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

فالظاهر أنه أريد من الكتابة عدم الصفح ولا العفو بل سيثبت لهم ويجاوزون عنه فتكون الكتابة كناية عن لزوم المحاسبة.

{مَا قَالُوا} ما قالوه من هذه العظيمة الشنعاء في صحائف الحفظة. وهذا كقوله: **{وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ}** [الأنبياء: ٩٤]. وقيل: مقصود الكتابة الحفظ، أي سنحفظ ما قالوا لنجازيهم.

{وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ} إنما نظم مع ما قبله زيادة في مذمتهم بذكر مساوي أسلافهم، لأن الذين قتلوا الأنبياء هم غير الذين قالوا: **{إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}** بل هم من أسلافهم، فذكر هنا ليدل على أن هذه بشاعة قديمة فيهم، وهي الاجترار على الله ورسله، وأنه ليس أول جريمة ارتكبوها، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه هذا الكلام، وأن هؤلاء اعتدوا على حق الله وعلى حق رسله وأنبيائه.

أي: ونكتب قتلهم الأنبياء، أي رضاهم بالقتل. والمراد قتل أسلافهم الأنبياء؛ لكن لما رضوا بذلك صحت الإضافة إليهم. روي أنه حسن رجل عند الشعبي، قتل عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فقال له الشعبي: شركت في دمه. فجعل الرضا بالقتل قتلا؛ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

وهذه مسألة عظمى، حيث يكون الرضا بالمعصية معصية. وقد روى أبو داود عن العُرسِ ابنِ عَمِيرَةَ الكِنْدِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ، كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرَّهَا - وَقَالَ مَرَّةً: «أَنْكَرَهَا» - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا) وهذا نص.

{بَغِيرِ حَقٍّ} هذا قيد كاشف وليس احترازي، يعني أن قتلهم
للأنبياء بغير حق، وليس المعنى أن الأنبياء ينقسم قتلهم إلى قتل
بحق وقتل بغير حق، فكل قتل للأنبياء إنما هو بغير حق، ومع
ذلك لا يقتلون النبي لشخصه، وإنما يقتلونه لما جاء به من الحق
أي أنهم يقتلونهم لكونهم أنبياء. ففي هذا القيد فائدتان:
الأولى: بيان الواقع، فهي صفة كاشفة.

والثانية: المبالغة في التشنيع عليهم.. فإنهم يقتلونهم بغير
حق وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرهم، وأنهم لا
يبالون أكان فعلهم في موضعه أم في غير موضعه.

{وَنَقُولُ} أي يقال لهم هذا في جهنم، أو عند الموت، أو
عند الحساب.. ثم هذا القول من الله تعالى، أو من الملائكة؛
قولان.

{ذُوقُوا} الذوق إدراك الطعوم، ثم اتسع فيه لإدراك سائر
المحسوسات والحالات، وذكره ههنا، لأن العذاب مرتب على
قولهم الناشئ عن البخل، والتهالك على المال، وغالب حاجة
الإنسان إليها لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله به للخوف من
فقدانه، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال - أفاده البيضاوي -.

وقيل: الذوق هو الإحساس، وهو هنا الإحساس بالألم،
والتأصل في الذوق أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه،
وهو هنا للألم، فالتعبير فيه تهكم عليهم، كما قال تعالى:
{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١]

{عَذَابُ الْحَرِيقِ} الحريق النار الملتهبة، وإضافة عذاب
الحريق بيانية، أي: العذاب الذي هو الحريق.

وهو قول يقصد به الإهانة والإذلال وإلا فإنهم سيدوقون
عذاب الحريق، قيل لهم ذلك أم لم يقل، فهو حق.

فهؤلاء سوف يدوقون العذاب بالألم البدني والألم النفسي
في قوله: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}، ففي الحريق: ألم بدني، وفي
قوله {ذُوقُوا}: ألم نفسي؛ لأن هذا توبيخ وإهانة، فالأمر هنا
للتوبيخ والإهانة.

** وفيه: بيان قدرة الله - عز وجل - حيث يحترق هؤلاء
وتنضج جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها،
ومع ذلك لا يموتون مع أن مثل هذا الحريق لو أصاب أحداً في
الدنيا لهلك كما قال سبحانه: {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}
[الأعلى: ١٣] فلا يموت ويستريح، ولا يحيا حياة هنيئة.

{ذَلِكَ بِمَا} الباء للسببية على أن هذا العذاب لعظم هوله
مما يتساءل عن سببه، ففيه تهويل للعذاب.

{قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ} وتخصيص الأيدي بالذكر؛ للدلالة على
التمكن من الفعل وإرادته، ولأن أكثر الشر يكون ببطش اليد،
ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته.
والتعبير بالأيدي عن الأنفس من حيث أن عامة أفاعيلها إنما
تزاوُل بهنّ، فهو من قبيل التعبير عن الكل بالجزء الذي مدار
جلّ العمل عليه.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً
وتحقيراً وتصغيراً، بسبب هتكهم حرمة الله، وحرمة كلامه وأنبيائه
المبلغين له.

إن قيل: ظلام صيغة مبالغة من الظلم، تفيد الكثير، ولا يلزم
من نفي الظلم الكثير نفي الظلم القليل، فلو قيل: بظالم، لكان
أدل على نفي الظلم قليله وكثيره!
فالجواب عنه من أوجه:

أحدها: أن الصيغة للنسب من قبيل نجار وعطار لا للمبالغة،
والمعنى: لا ينسب إلى الظلم .

الثاني: أن فعلاً قد جاء لا يراد به الكثرة. وهذا يدل على نفي البخل في كل حال، ولأن تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة.

والثالث: أن المبالغة لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده، وظلام لعبيده، فالصيغة للمبالغة كما لا كيفاً.

الرابع: أنه إذا نفي الظلم الكثير انتفى الظلم القليل ضرورة، لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر، كان للظلم القليل المنفعة أترك.

الخامس: إن المبالغة لتأكيد معنى بديع، وذلك لأن جملة: **{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}** اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها، أي: والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم.

والتعبير عن ذلك بنفي الظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها. وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم.

والصفات المنفية لا يُراد بها مجرد النفي، بل المراد انتفاء هذه الصفة لثبوت كمال الضد، فإذا نفى أن يكون ظلاماً للعبيد فذلك لكمال عدله، وإذا نفى أن تأخذه سنة ولا نوم فذلك لكمال حياته وقيوميته، وإذا نفى أن يصيبه لغوب فذلك لكمال قوته، وهكذا.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)

{الَّذِينَ قَالُوا} هم الذين قالوا.. سقت للذم، وفيه ذكر قولة أخرى شنيعة منهم.

{إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا} أمرنا، أو أوصانا وصية موثقة بالعهد.
{أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ} نصدقه ونذعن لما يدعو إليه ونخضع؛ إذ المطلوب منهم هو الإذعان للحق والخضوع له والتسليم به.

{حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ} فالرسول هو الذي يأتي بالقربان من النعم مما يتقرب به إلى الله تعالى ذبحاً، ويقدمه هو، ثم تنزل نار البيضاء من السماء فتأكله، فليسوا هم الذين يقدمون

القربان الذي تأكله النار، بل الذي يفعل ذلك هو الرسول إعجازاً، ولبيان أنه رسول، وتكون معجزة وآية كما حصل في عهد موسى وهارون من نزول النار وأكلها المحرقة.. إلا أنها معجزة لا تطرد لسائر الأنبياء كما زعمه اليهود لأن معجزات الرسل تجيء على ما يناسب تصديق الأمة.

وقيل: كان أمر القرابين ثابتاً إلى أن نسخت على لسان عيسى ابن مريم. وكان النبي منهم يذبح ويدعو فتنزل نار بيضاء لها دوي وحفيف لا دخان لها، فتأكل القربان.

واعلم أن القربان -بضم القاف- معناه لغة: ما يتقرب به إلى الله تعالى وسيلة لمرضاته. قال في «مرشد الطالبين»: ذبائح العبرانيين عديدة جداً، وكان المستعمل من هذه الذبيحة -بتعيين الله-: الثيران والنعاج والمعز والحمام واليمام.

وكانت الذبائح نوعين عامّين: إحداهما كانت تقرب لتكفير الخطايا، والأخرى شكراً لله على مراحمه وبركاته.

ثم قال: فالذبيحة اليومية كانت مشهورة جداً، وهي خروف بلا عيب، يقدم وقوداً لله كفارة للخطايا، وذلك مرتان صباحاً ومساءً، طول مدة السنة، فالتى في الصباح تقدم عن خطايا الشعب ليلاً، والتي في المساء عن خطاياهم نهاراً.

وقبل فعل الذبيحة تعترف كل الشعوب بخطاياها فوق
الحيوان المراد ذبحه على يد الكاهن الخادم، وبهذا كان ينقل
الإثم إليه بواسطة وضع وكلاء الشعب أيديهم على رأسه، ثم
يذبح ويقرب وقوداً.

وفي غضون ذلك تسجد الجماعة في الدار، وتبخر الكهنة
على المذابح الذهبية، ويقدمون الطلبات لله عن الشعب، وأما
في يوم السبت، فكانت تتضاعف الذبيحة، ويقرب في كل دفعة
خروفان.

ويوم الكفارة كان ممتازاً بالذبيحة السنوية، وهي أنه بعد أن
يقرب الكاهن ثوراً كفارة لخطايا عائلته يقرب ماعزان كفارة
لخطايا الشعب. انتهى

{قُلْ} يا محمد تبكيتاً لهم، وإظهاراً لكذبهم **{قَدْ جَاءَكُمْ}** يا
معشر يهود **{رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ}** الآيات والمعجزات
الواضحة الدالة على رسالتهم وصدقهم.

{وَبِالَّذِي قُلْتُمْ} بعينه من نار تأكل القرايين المتقبلة.
وقدم قوله بالبينات ليدل على أن ما قالوه وإن كان آية، لكنه
دون البينات التي جاؤوا بها؛ لأنهم جاؤوا بأعظم من هذا، فمثلاً
موسى -عليه الصلاة والسلام- جاء ببينة أعظم من ذلك: كان

يلقي العصا فتكون حية، ويحملها فتكون عصا، وكان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء لكن من غير عيب أو من غير برص، كذلك عيسى كان يخرج الأموات من القبور أحياء، أو يقف على الميت قبل أن يدفن فيحيا بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فينفخ فيه فيكون طيراً، أو فيكون طائراً فيه قراءتان.

فأيهما أعظم.. هذه البينات أم أن تنزل من السماء نار تأكل القربان؟!!

{فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ} فلم قابلتموهم بالكذب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم. إذ إن القتل لا يكون إلا أثراً من آثار التكذيب العنيد، والجحود الشديد

فقتلتم زكريا ويحيى وشعيا، وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم.. أراد بذلك أسلافهم.

وهذه الآية هي التي تلاها عامر الشعبي رضي الله عنه، فاحتج بها على الذي حسن قتل عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كما بيناه.

والله تعالى سمى اليهود قتلة لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كان بينهم نحو من سبعمائة سنة، ولأنهم تكلموا عن الماضين

منهم بأنهم منهم فقالوا: **{إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا}**، مع أن الأمر كان في هؤلاء الماضين لا فيهم، لذلك كان عليهم أن يتحملوا وصف الإجرام الذي وقع من الماضين حتى يتخلصوا من تلك الأمة الخاسرة، ويدخلوا في أمة الإيمان وأهل الإذعان.

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسول. والاستفهام إنكاري ينفي أن يكون ثمة مبرر للقتل على أي وجه كان المبرر، وينفي أيضا صدقهم.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

{فَإِنْ كَذَّبُوكَ} بعد بطلان عذرهم المذكور **{فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ}** فلا تحزن.

{جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ} الآيات البينات الشرعية والكونية، فالآيات الشرعية هي الكتب التي جاءوا بها، والآيات الكونية هي ما يُسمى بالمعجزات الحسية.

{وَالزُّبُرِ} الكتب الموحاة منه تعالى.. الكتب المزبورة، يعني المكتوبة. والزبر جمع زبور وهو الكتاب. وأصله من زبرت أي كتبت. وكل زبور فهو كتاب.

وقيل: الزبور ما اشتمل على المواعظ والزواجر، ولهذا كان الزبور الذي أوتيّه داود أكثره مواعظ وزواجر. وأما الكتاب فما اشتمل على الأحكام الشرعية.

{وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} الواضح الجلي. والزبور والكتاب واحد في الأصل، وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين. فالزبور فيه حكم زاجرة، والكتاب المنير هو المشتمل على جميع الشريعة. وقيل: جمع بين الزبور والكتاب -وهما بمعنى- لاختلاف لفظهما.

وقيل: عطف من باب عطف الصفة على الصفة الأخرى؛ لأن الزبور تتضمن الكتاب المنير وعطف الصفات بعضها على بعض موجود في القرآن، ومنه: **{سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** [الأعلى: ١-٤] فالتغاير تغاير صفة وليس تغاير ذات.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} هذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد، وتفنيد شبه المنافقين في مزاعمهم أن الناس لو استشاروهم في القتال لأشاروا بما فيه سلامتهم فلا يهلكوا.

وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة هي أنه أسند ذوق الموت إلى النفس، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس روح، والشخص جزءان جسد ونفس، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسد، فهي التي تذوق الموت، كما ذاقَت الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية.

وعبر بالذوق لأنه أبلغ في الحصول؛ فالذوق يحصل به حق اليقين، وقد قسم العلماء اليقين إلى ثلاث درجات: علم، وعين، وحق. العلم بالخبر، والعين بالمشاهدة، والحق بالذوق.

والآية كقوله تعالى: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** [الرحمن: ٢٦-٢٧] فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولًا.

أما قوله تعالى: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}** [الزمر: ٦٨] ذكر العلماء أنه يستثنى من هذا من لا يموت ممن خلّقوا للبقاء كالولدان الذين في الجنة والحدود اللاتي في الجنة. وفي هذه الآية تعزية لجميع الناس، ووعد ووعد للمصدق والمكذب.

{وَإِنَّمَا تُوفَّقُونَ أَجُورُكُمْ} أي تكمل لكم أجوركم لا نقص فيها، والخطاب هنا للأشخاص لا للنفوس وحدها. وفيه تعريض بأنهم قد حصلت لهم أجور عظيمة في الدنيا على تأييدهم للدين: منها النصر يوم بدر، ومنها كف أيدي المشركين عنهم في أيام مقامهم إلى أن تمكنوا من الهجرة. **{يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. فأجر المؤمن ثواب، وأجر الكافر عقاب.

قال الزمخشري: فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار! قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور.

وقال الرازي: بين تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف في الدنيا فهي مكدره بالغموم والهموم، وبخوف الانقطاع والزوال، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة، لأن هناك يحصل السرور بلا غم، والأمن بلا خوف، واللذة بلا ألم، والسعادة بلا خوف الانقطاع. وكذا القول في العقاب، فإنه لا يحصل في الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة، بل يمتزج به راحات وتخفيفات، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو الذي يكون يوم القيامة، نعوذ بالله منه.

{فَمَنْ زُحِرَ} أبعد **{عَنِ النَّارِ}** التي هي مجمع الآفات والسرور **{وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ}** الجامعة للذات والسرور.. وإنما جمع بين **{زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ}**، مع أن في الثاني غُنيَّة عن الأول، للدلالة على أن دخول الجنة يشمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من النار، ونعيم الجنة.

{فَقَدْ فَازَ} حصل الفوز العظيم، وهو الظفر بالبغيّة، أعني النجاة من سخط الله والعذاب السرمذ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد.

قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ) [مسلم]

وروى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. اقْرَءُوا إِنَّ شِئْتُمْ: {فَمَنْ زُخِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]) «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»

{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} لذاتها **{إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}** المتاع: ما يتمتع وينتفع به، كالفأس والقدر والقصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه. والغرور: غره، أي: خدعه وأطمعه بالباطل، وقيل: الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه، وفيه باطن مكروه أو مجهول والغرور الشيطان؛ يغر الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة. والشيطان غرور؛ لأنه يحمل على محاب النفس، ووراء ذلك ما يسوء. ومن هذا بيع الغرر، وهو ما كان له ظاهر بيع يغر وباطن مجهول.

وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لما تمنّيه لذاتها من طول البقاء، وأمل الدوام، فتخدعه ثم تصرعه.

قال الحسن: كخضرة النبات، ولعب النبات لا حاصل له.
وقال قتادة: هي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها؛
فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما
استطاع.

وقال بعض السلف: الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل
ويزول. فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم.

**لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ
تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)**

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن محنة أحد
كانت فيها العبر، وكانت تمحيصا لقلوب المؤمنين وصقلا
لنفوسهم ثم ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المستقبل سيكون من
جنس الماضي، وأنه سينزل بالمؤمنين ضروب من البلاء كالتي
نزلت أو أقوى، وأن واجب التبليغ والإيمان يتقاضاهم أن
يتحملوا ذلك بصبر وتقوى واحتياط ولذلك قال سبحانه وتعالى:
{لَتُبْلَوْنَ} الابتلاء: الاختبار، ويراد به هنا لازمة وهو
المصيبة، لأن في المصائب اختبارا لمقدار الثبات.

وقد أكد سبحانه وقوع الابتلاء بالقسم، واللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة، وقد أكد بهذه التأكيدات ليكون الوقوع مستيقنا، وليستعدوا بالصبر والمجاهدة، والاعتماد على الله تعالى.

{فِي أَمْوَالِكُمْ} بما يصيبها من الآفات بإنفاقه في سبيل الله تعالى، وتبديده بغارات الأعداء، وبالتكليفات الكثيرة المتعلقة به، وبالجوائح تنزل به، فكل هذا اختبار بالمال، وإنه ليسمى نفيسا؛ لأنه قرين النفس، وإن كان دونها، وهي أعلى منه، والمعنى: ليست أحوال المؤمن رخاء دائما، بل فيها شدة وبلاء يقتضي الصبر، وفيها نعمة وإحسان يقتضي الشكر.. وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها.

{وَأَنْفُسِكُمْ} بالقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من صنوف المتاعب والأمراض والمخاوف والشدائد.

والآية استئناف لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرىء بنصر الحق، وأكد الفعل بلام القسم وبنون التوكيد الشديدة لإفادة تحقيق الابتلاء، إذ نون التوكيد الشديدة أقوى في الدلالة على التوكيد من الخفيفة.

وهذا كقوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}
[البقرة: ١٥٥]

وفي مسند أحمد عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ سَعْدُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: (الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ،
فَالْأَمْثَلُ، حَتَّى يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، ذَاكَ فَإِنْ كَانَ صُلْبَ
الدِّينِ ابْتُلِيَ عَلَى قَدَرِ ذَاكَ - وَقَالَ مَرَّةً: أَشَدُّ بَلَاءً - وَإِنْ كَانَ فِي
دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدَرِ ذَاكَ - وَقَالَ مَرَّةً: عَلَى حَسَبِ دِينِهِ -
قَالَ: فَمَا تَبْرَحُ الْبَلَايَا عَنِ الْعَبْدِ، حَتَّى يَمْشِيَ فِي الْأَرْضِ -
يَعْنِي - وَمَا إِنْ عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ) [حسن]

{وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا} وفي الجمع بين العالم بالكتاب والجاهل به إشارة إلى
أنه عند وجود المعاندة يستوي العالم والجاهل، فإن الجاهل
يَعْمَهُ في عمياء جهالته، والعالم يطمس الله تعالى على قلبه،
فيكون هو والجاهل سواء.

{أَذَى كَثِيرًا} من الافتراء على الله تعالى، والتهكم على
القرآن، والسخرية من الشرع الإسلامي.. ولذلك وصفه هنا

بالكثير، أي الخارج عن الحد الذي لا تحتمله النفوس غالباً، وكل ذلك مما يفضي إلى الفشل.

فهو كثير ليس بقليل في مقداره، ولا في نوعه، ولا في موضوعه، فالكثرة ليس المراد منها المقدار فقط، بل الكثرة تشمل: المقدار، والنوع، والطريقة، والموضوع.

قال البخاري: بَاب {وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا}

عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ قَالَ حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَوْثَانَ وَالْيَهُودَ وَالْمُسْلِمِينَ وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ

مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ
فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَلَى يَا رَسُولَ
اللَّهِ فَأَغَشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نَحِبُّ ذَلِكَ فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ
وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَشَاوَرُونَ فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ
يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَالَ كَذَا وَكَذَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ
اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ لَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى
أَنْ يُتَوَجَّوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي
أَعْطَاكَ اللَّهُ شَرِيقَ بِذَلِكَ فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ
اللَّهُ وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: {وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا}
الْآيَةَ وَقَالَ اللَّهُ: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}

إِلَى آخِرِ الْآيَةِ وَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَدْرًا فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ قَالَ ابْنُ أَبِي ابْنِ سُلُولٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةُ الْأَوْثَانِ هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا.

{وَإِنْ تَصْبِرُوا} على ذلك {وَتَتَّقُوا} مخالفة أمره تعالى {فَإِنَّ ذَلِكَ} الصبر والتقوى.

{مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} العزم: إمضاء الرأي وعدم التردد بعد تبين السداد. والمراد هنا العزم في الخيرات.. والتقدير: وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم.

أي الصبر والتقوى من الأمور المعزومة التي تحتاج إلى عزم وإلى همة وإلى مكابدة لأنها شاقة على النفس، والعزم في الأمور من الصفات الحميدة التي وصف بها الكمل من الخلق، قال تعالى: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** [الأحقاف: ٣٥]، فالعزم لا شك أنه خلق عال يهبه الله عز وجل لمن يشاء، فإذا كان الإنسان عنده عزم في أموره فهذا هو الموفق، أما الإنسان الذي ليس عنده عزم فتجده دائماً في ملل،

وفي كسل، وفي تهاون، فإن هذا لا شك خاسر، فالإنسان العازم
في أموره هو الرابع دنيا وديناً.

وكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا
بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله،
والرجوع إلى الله عز وجل.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله: هل هذه الآية منسوخة وأنا
نصبر ونتقي إذا كنا عاجزين عن الرد بالمثل، أو هي محكمة؟
والصحيح أنها محكمة، وأنها إنما تكون في حال يكون الصبر
فيه على الأذى خيراً، أما إذا كان الأمر بالعكس فالرد أولى..
فالخير مطلوب في جميع الأحوال.

فليست الآية مقتضية عدم الإذن بالقتال من حيث إنه أمرهم
بالصبر على أذى الكفار حتى تكون منسوخة بآيات السيف، لأن
الظاهر أن الآية نزلت بعد وقعة أحد، وهي بعد الأمر بالقتال..
قاله القفال.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

{وَإِذْ} واذكر إذ **{أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ}** هو العهد الثقيل المؤكد الذي لا يقبل تأويلا ولا احتمالا، مشتق من الوثاق، وهو الحبل الذي يشد به الإنسان ويربط؛ لأنه كالرباط للمعاهد.

{الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} هم علماء اليهود والنصارى، فالآية توبيخ لهم، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم. والعالم لا يشعر بهذا الميثاق، لكن إيتاء الله العلم له يعتبر ميثاقاً، فالله تعالى لم يهبه هذا العلم إلا من أجل أن يبينه وإن كان الإنسان لا يستحضر أنه جرى بينه وبين الله عهد.

وقيل: هذا الميثاق أخذ على سلفهم من عهد رسولهم وأنبيائهم، وكان فيه ما يدل على عمومته لعلماء أمتهم في سائر أجيالهم إلى أن يجيء رسول.

{لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ} لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

والآية التفات من الغائب إلى الخطاب؛ إذ إنه كان متحدثاً عنهم، ثم فسر الكتاب بالخطاب، لتأكيد أخذ الميثاق بإعلان أنهم ما كانوا غائبين عند أخذه، بل كانوا حاضرين مخاطبين، فالعهد قد أخذ عليهم بالسنتهم.

{وَلَا تَكْتُمُونَهُ} من النهي عن الكتمان، بعد الأمر بالبيان،
مبالغة في إيجاب المأمور به. أي: لتبينه بياناً لا كتمان فيه.
وأكد قوله تعالى: **{لَتَبَيَّنَهُ لِلنَّاسِ}** بعدة توكيدات، بالقسم
وبلامه، وبنون التوكيد الثقيلة، ولم يؤكد **{وَلَا تَكْتُمُونَهُ}**؛ وذلك
لأن طلب البيان مشدد ومؤكد، وبذلك يتأكد عدم الكتمان
بتأكد طلب البيان، ولو أن أدوات التوكيد لحقت **{وَلَا تَكْتُمُونَهُ}**
لأوهم الأسلوب أن المنفي هو الكتمان المؤكد المبالغ، أما غيره
فلا ينفي، فلو قيل: (ولا تكتمنه) لأوهم الأسلوب أن المراد
النهي عن المبالغة في الكتمان، فغير المبالغة في موضع الإباحة،
وذلك غير معقول.

{فَبَذُوهُ} أي: الميثاق، والنبد الطرح، أي: فطرحوه ولم
يراعوه. وعطف بالفاء الدالة على التعقيب للإشارة إلى مسارعتهم
إلى ذلك.

{وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} مبالغة في الإطراح، وأنهم لن يعودوا إلى ما
نبذوه.. ونبدُ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به، والإعراض
عنه بالكلية. كما أن جعله نصب العين علم في كمال العناية به.

{وَأَشْتَرُوا بِهِ} استبدلوا به **{ثَمَنًا قَلِيلًا}** شيئاً حقيراً من حطام
الدنيا.. من إبقاء رئاستهم وجاههم وسلطانهم على قومهم؛ لأن

هؤلاء الأحرار والقسيسين لو تبعوا محمداً زالت رئاستهم ووجهتهم وصاروا كعامة الناس.

وقال ابن عاشور: وهو ما يأخذونه من الرشى والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء والعامة على تأييد المظالم والمفاسد بالتأويلات الباطلة، وتأويل كل حكم فيه ضرب على أيدي الجبابة والظلمة بما يطلق أيديهم في ظلم الرعية من ضروب التأويلات الباطلة، وتحذيرات الذين يصدعون بالمنكر. وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب إلا أن حكمها يشمل من يرتكب مثل صنيعهم من المسلمين لاتحاد جنس الحكم والعلة فيه.

ووصف الله هذا بأنه (قليل)؛ لأن جميع ما في الدنيا قليل، وأنهم لم يأخذوا مقابله ولا مماثله ولا ما فوقه، لكنهم أخذوا بدله ثمناً قليلاً، مما يدل على خسة هممهم، وأن هممهم دنيئة حيث أخذوا الأدنى بدلاً عن الأعلى.

{فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} بتغيير كلام الله ونبد ميثاقه.

روى أحمد عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ سُلِّ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [صحيح]

قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب. فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة.

وقال محمد بن كعب: لا يحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله؛ قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} الآية. وقال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٢].

وقال أبو هريرة: لولا ما أخذ الله - عز وجل - على أهل الكتاب ما حدثكم بشيء. ثم تلا: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ..} الآية.

وقال الحسن بن عمار: أتيت الزهري بعد ما ترك الحديث، فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدثني. فقال: أما علمت أني تركت الحديث؟ فقلت: إما أن تحدثني وإما أن أحدثك. قال حدثني. قلت: حدثني الحكم بن عتيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت علي بن أبي طالب يقول: ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا. قال: فحدثني أربعين حديثاً.

قال العلامة الزمخشري: "كفى بهذه الآية دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه، وأن لا

يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب
لنفوسهم، واستجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام الدنيا، أو
لتقية مما لا دليل عليه ولا أمانة، أو لبخل بالعلم، وغيره أن
ينسب إليه غيرهم".

قال العلامة أبو السعود: في تصوير هذه المعاملة بعقد
المعاوضة، لاسيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ،
والإعراض عن المعطي، والتعبير عن المشتري الذي هو العمدة
في العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة
إليه، وجعل الكتاب الذي حقه أن يتنافس فيه المتنافسون،
مصحوباً بالباء الداخلة على الآلات والوسائل - من نهاية الجزالة
والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنيء
الحقير، على الشريف الخطير، وتعكيسهم بجعلهم المقصد
وسيلة، والوسيلة مقصداً - ما لا يخفي جلالة شأنه ورفعة مكانه.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا
بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)

{لَا تَحْسَبَنَّ} تأكيد للنهي، وليس بتوكيد للظن **{الَّذِينَ}**
يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا} فرح أشد وبطر ومِنَّة على الله تعالى وعلى
رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَا أَتَوْا، أي بما أتوا من
الأعمال التي يتقربون بها إلى الله على زعمهم.

{وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا} يعني بذلك المرأين
المتكثرين بما لم يُعْطُوا ويبدلوا.

{فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ} أي: بمنجاة من
العذاب، وسمي موضع المخاوف كالصحاري مفازة على جهة
التفاؤل؛ قاله الأصمعي. وقيل: إنما سميت مفازة؛ لأن من قطعها
فاز.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} جملة استئنافية، لما بين أنهم ليسوا
بمفازة من العذاب وليسوا ناجين أكد هذا بقوله: **{وَلَهُمْ عَذَابٌ**
أَلِيمٌ} بمعنى مؤلم أشد الإيلام، أو بكل ما يتصور العقل من
إيلام، ولذلك جاءت كلمة **{أليم}** نكرة.

ولا شك أن من نسب إلى نفسه ما ليس لها من الخير، أو
ادعى ما ليس عنده من الفضل، فقد كذب على نفسه، وكذب
على الناس.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: " أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه ".

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقُولُ إِنَّ زَوْجِي
أَعْطَانِي، مَا لَمْ يُعْطِنِي؟
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ
كَلاِبِسِ ثَوْبِي زُورٍ) [رواه مسلم]

قال النووي رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ الْمُتَكَثِّرُ بِمَا لَيْسَ
عِنْدَهُ، بِأَنْ يَظْهَرَ أَنَّ عِنْدَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، يَتَكَثَّرُ بِذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ،
وَيَتَزَيَّنُ بِالْبَاطِلِ، فَهُوَ مَذْمُومٌ كَمَا يُذَمُّ مَنْ لَبَسَ ثَوْبِي زُورٍ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَآخَرُونَ: هُوَ الَّذِي يَلْبَسُ ثِيَابَ أَهْلِ الزُّهْدِ
وَالْعِبَادَةِ وَالْوَرَعِ، وَمَقْصُودُهُ أَنْ يَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِتِلْكَ
الْصِّفَةِ، وَيَظْهَرُ مِنَ التَّخَشُّعِ وَالزُّهْدِ أَكْثَرُ مِمَّا فِي قَلْبِهِ، فَهَذِهِ
ثِيَابُ زُورٍ وَرِيَاءٍ، وَقِيلَ: هُوَ كَمَنْ لَبَسَ ثَوْبَيْنِ لَغَيْرِهِ، وَأَوْهَمَ أَنَّهُمَا
لَهُ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ يَلْبَسُ قَمِيصًا وَاحِدًا وَيَصِلُ بِكُمِّيهِ كُمَيْنِ
آخَرَيْنِ، فَيَظْهَرُ أَنَّ عَلَيْهِ قَمِيصَيْنِ، وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ قَوْلًا آخَرَ أَنَّ
الْمُرَادَ هُنَا بِالثَّوَابِ الْحَالَةَ وَالْمَذْهَبَ، وَالْعَرَبُ تَكْنِي بِالثَّوْبِ عَنْ

حَالٍ لَا بَسَّه، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ كَالْكَاذِبِ الْقَائِلِ مَا لَمْ يَكُنْ، وَقَوْلًا آخَرَ
أَنَّ الْمُرَادَ الرَّجُلَ الَّذِي تُطْلَبُ مِنْهُ شَهَادَةُ زُورٍ، فَيَلْبَسُ ثَوْبَيْنِ
يَتَجَمَّلُ بِهِمَا، فَلَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ لِحُسْنِ هَيْئَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
قَالَ: (وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةٍ لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قِلَّةً)
متفق عليه، واللفظ لمسلم.

قال ابن حجر: "ولا مانع من أن يتناول الآية كل من أتى
بحسنة وفرح بها فرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويشنوا
عليه بما ليس فيه. والله تعالى أعلم".

وفي الحكم: «لا تُفرحك الطاعة من حيث إنها صدرت
منك، وافرح بها من حيث إنها هدية من الله عليك؛ {قُلْ بِفَضْلِ
اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} [يونس: ٥٨]».

وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ
أَخْبَرَهُ أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ لِنِّ
كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذِّبًا
لِنُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ
وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ فَأَرَوْهُ أَنَّ قَدْ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا

سَأَلَهُمْ وَفَرَحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {وَإِذْ أَخَذَ
اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ قَوْلِهِ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}.

وفي البخاري أيضا، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ
رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى
الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا [أي
ويحبون أن يحمدوا بأن لهم نية المجاهدين] فَنَزَلَتْ: {لَا
يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ
يَفْعَلُوا} الْآيَةَ

ولا منافاة بين الروایتين، لأن الآية عامة في جميع ما ذكر،
ومعنى نزول الآية في ذلك وقوعها بعد ذلك، لا أن أحد الأمرين
كان سبباً لنزولها.

وقد روى ابن مَرْدُويه عن محمد بن ثابت الأنصاري؛ أن
ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن
أكون هلك. قال: "لم؟" قال: نهى الله المرء أن يُحِبَّ أن

يُحْمَدَ بما لم يفعل، وأجدني أَحِبُّ الحمدَ. ونهى الله عن الخيلاء، وأجدني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا امرؤ جهوري الصوت. فقال رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَلَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟) قال: بلى يا رسول الله. فعاش حميدًا، وقُتِلَ شهيدًا يوم مُسَيْلَمَةَ الكذاب.

وروى مسلم عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ مَا شَأْنُكَ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ).

وقوله تعالى: { لَا تَحْسَبَنَّ ... فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ } أسلوب توكيد، يسمى في علم البديع بالترديد، وإفادته التأكيد حاصلة بمجرد إعادة اللفظ.

ونظيره قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } [القمر: ٩]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(١٨٩)

قال ابن عاشور: هَذَا غَرَضٌ أُنفِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا تَتَابَعَ مِنْ
أَغْرَاضِ السُّورَةِ، انْتَقَلَ بِهِ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ وَالْمَقْصِدِ وَالْمُتَخَلَّلَاتِ
بِالْمُنَاسَبَاتِ، إِلَى غَرَضٍ جَدِيدٍ هُوَ الْإِعْتِبَارُ بِخَلْقِ الْعَوَالِمِ
وَأَغْرَاضِهَا وَالتَّنْوِيهِ بِالَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ بِمَا فِيهَا مِنْ آيَاتٍ.

وَمِثْلُ هَذَا الْإِنْتِقَالِ يَكُونُ إِذَا نَا بِنْتِهَاءِ الْكَلَامِ عَلَى أَغْرَاضِ
السُّورَةِ، عَلَى تَفْنُنِهَا، فَقَدْ كَانَ التَّنْقُلُ فِيهَا مِنَ الْغَرَضِ إِلَى
مُشَاكِلِهِ وَقَدْ وَقَعَ الْإِنْتِقَالُ الْآنَ إِلَى غَرَضٍ عَامٍّ: وَهُوَ الْإِعْتِبَارُ
بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِتِّعَاطِ بِذَلِكَ،
وَهَذَا النَّحْوُ فِي الْإِنْتِقَالِ يَغْرِضُ لِلْخَطِيبِ وَنَحْوِهِ مِنْ أَغْرَاضِهِ
عَقَبَ إِيْفَائِهَا حَقَّهَا إِلَى غَرَضٍ آخَرَ إِذَا نَا بِأَنَّهُ أَشْرَفَ عَلَى
الْإِنْتِهَاءِ، وَشَأْنُ الْقُرْآنِ أَنْ يَخْتَمَ بِالْمَوْعِظَةِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ أَغْرَاضِ
الرِّسَالَةِ، كَمَا وَقَعَ فِي خِتَامِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

{وَلِلَّهِ} خبر مقدم للحصر والاختصاص والانفراد، وفي ذلك
إشارة إلى أنه وحده المتصرف، وهو الذي يعطي ويمنع ويحاسب
ويعاقب.

{مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ملك الأعيان وملك التصرف، فهو مالك لأعيانها، وهو مالك للتصرف فيها، قال تعالى: **{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ [على سبيل الاستقلال] وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ [على سبيل المشاركة] وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ [وما لله منهم من معين] * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** [سبأ: ٢٢-٢٣]

وهذه الآيات يقولون عنها: إنها قطعت علائق المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان.

وقوله: **{السَّمَاوَاتِ}** يعني السبع **{وَالْأَرْضِ}** للجنس فتشمل الأرضين السبع.

** وفيه الإشارة إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يتصرف في ملكه إلا على حسب إذن الشارع؛ لأن كون الملك لله يدل على أن تصرفنا فيه إنما يكون بطريق الوكالة، يتقيد بما أذن له فيه.

{وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا

نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

والقدرة هي التمكن من الفعل بلا عجز، وأما التمكن من الفعل بلا ضعف يسمى قوة، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤]، فقابل القدرة بالعجز، وقال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} [الروم: ٥٤] فقابل الضعف بالقوة.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)

{إِنَّ} للتأكيد {فِي خَلْقٍ} إيجاد الشيء على غير مثال سبق
يسمى خلقاً.

{السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} في إيجادها على ما هما عليه من
الأمور المدهشة، تلك في ارتفاعها واتساعها، وهذه في
انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة
العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار

وأشجار، ونبات وزروع، وثمار وحيوان، ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص.

وفي خلق السموات والأرض آيات من عدة أوجه:

الوجه الأول: من جهة الكبر والسعة.

الوجه الثاني: ما فيهما من الحسن والبهاء والجمال، قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ}** [الملك: ٥]. والذي يطلع على ما صوره العلماء من هذه الآيات العظيمة يتبين له عظمة الله - عز وجل - في هذا الخلق.

الوجه الثالث: في خلق السموات من جهة إتقانها وعدم تخلخلها، قال الله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}** [الملك: ٣-٤]

الوجه الرابع: ما أودع الله فيهما من المواد المتعددة المختلفة الأنواع والأشكال والمنافع كما قال الله تعالى: **{وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** [الرعد: ٤]

أيضاً ما فيهما من المنافع العظيمة للخلق. فالشمس فيها خير عظيم، والقمر كذلك، والأشجار وغيرها.. كلها فيها خيرات عظيمة من آيات الله عز وجل.

{وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} في تعاقبهما، وكون كل منهما خلفه للآخر، بحسب طلوع الشمس وغروبها، أو في تفاوتهما بازدياد كل منهما انتقاص الآخر، وانتقاصه بازدياده.

فاختلافهما من وجوه شتى:

أولاً: من جهة أن الليل ظلمة والنهار نور، وهذا من آيات الله. قال الله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [القصص: ٧٣-٧١]

ثانياً: كذلك أيضاً اختلافهما من جهة الطول والقصر. أحياناً يطول الليل، وأحياناً يطول النهار، وأحياناً يتساويان. ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا، فهو من آيات الله. ولو أن أهل الأرض

كلهم اجتمعوا على أن يدخلوا من الليل جزءاً في النهار ما استطاعوا ولا العكس.

ثالثاً: اختلاف الليل والنهار، يدخل فيه اختلافهما حراً وبرداً، أحياناً يكون هذا حاراً وهذا بارداً، وأحياناً يتساويان.

رابعاً: اختلافهما في الرخاء والشدة. أحياناً تمر بك الأيام رخاء، وأحياناً تمر بك الأيام شدة.

خامساً: اختلافهما في العز والذل والنصر والخذلان، ينصر أحياناً أقواماً ويخذل هؤلاء الأقوام في آن آخر، وهكذا فإن الليل والنهار فيهما آيات تختلف باختلافهما في ذاتهما وفيما يقع فيهما، قال الله تعالى: **{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}** [آل عمران: ١٤٠]

{لَايَاتِ} اللام للتأكيد أيضاً: أي: لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته، وباهر حكمته. والتنكير للتفخيم كماً وكيفاً، أي: كثيرة عظيمة.

{الْأُولَى الْأَلْبَابِ} ذوي العقول التامة التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله تعالى فيهم: **{وَكَايِّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ}**

وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ
بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ { [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

ولب الشيء: خلاصته، وسمي العقل لباً: لأنه خالص
الإنسان، كما أن «اللب» خالص الحبة، فالإنسان بعقله، والعقل
ليس هو الذكاء كما قد يتبادر بأذهان كثير من الناس، ولكن
العقل هو: الرشد في التصرف. فكلما كان الإنسان أشد رشداً
وتصرفاً كان أعقل. وليس كلما كان أذكى فهو أعقل؛ لأنه قد
يكون من الأذكياء من هو أبعد الناس عن العقل، ولهذا يمكن أن
نقول لصناديد الكفرة الممتلئين ذكاء نقول: إنهم غير عقلاء وإن
كانوا أذكياء.

وأولي الأبواب أيضاً ذوي العقول المجلوة بالتزكية والتصفية
بملازمة الذكر دائماً كما قال:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)

{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} ذكرا
باللسان وسائر الجوارح، يذكرون الله بجوارحهم بالقيام والقعود

والركوع والسجود في الصلاة، وبالطواف بالبيت وبالوقوف بمزدلفة، وبالوقوف بعرفة K وبالوقوف بمنى لرمي الجمار.. كل عبادة تتعبد لله تعالى بها هي عبادة فعلية وهي من ذكر الله؛ لأنك تريد بها وجه الله. وبذلك تكون ذاكراً له.

فلا يخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر في تصفية الباطن. وفي البخاري: وَقَالَتْ عَائِشَةُ: "كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ".

فالمراد: تعميم الذكر للأوقات، وعدم الغفلة عنه تعالى. وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر، ليس لتخصيص الذكر بها، بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً، كقولهم: اشتهر كذا عند أهل المشرق والمغرب.

{وَيَتَفَكَّرُونَ} التفكير: إعمال الفكر **{فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** في إنشائهما بهذه الأجرام العظام، وما فيهما من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، فيعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى.

عن أبي سليمان الداراني أنه قال: "إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة".

وقال سفيان بن عيينة: "الفكرة نور يدخل قلبك".

وقال لقمان الحكيم: "إن طول الوحدة ألهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طرُق باب الجنة".

وقال وهب بن مُنبّه: "ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل".

وقال عمر بن عبد العزيز: "الكلام بذكر الله -عز وجل- حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة".

وقال بشر بن الحارث الحافي: "لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه".

وقال الحسن، عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون: "إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان: التفكير".

وروى ابن القاسم عن مالك -رحمه الله- قال: قيل لأم الدرداء: ما كان شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه

التفكير، قيل له: أترى التفكير عملاً من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين.

وإنما خصص التفكير بالخلق للنهي عن التفكير في الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته.

****** وفيه أنه إذا أثنى سبحانه على المتفكرين في الخلق، فالتفكرون في الشرع من باب أولى؛ لأن الشرع ليس أمراً محسوساً، فالتفكر فيه أبلغ في الإيمان من التفكير في الخلق، فالخلق أمر محسوس كل إنسان يدركه، لكن حكم وأسرار الشرائع ليس لكل أحد أن يدركها.

{رَبَّنَا} على إرادة القول بمعنى يتفكرون قائلين: "يا ربنا".. فبعد أن يتفكروا في خلق السموات والأرض تحصل لهم هذه النتيجة المباركة فيقولونها.

وتعبرهم في دعائهم بوصف {ربنا} دون اسم الجلالة، لما في وصف الربوبية من الدلالة على الشفقة بالمربوب، ومحبة الخير له، ومن الاعتراف بأنهم عبيده، ولتأتي الإضافة المفيدة التشريف والقرب، ولرد حسن دعائهم بمثله بقولهم «رَبَّنَا، رَبَّنَا».

{مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} عبثاً، بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى.. فالمقصود نفي

عقائد من يفضي اعتقادهم إلى أن هذا الخلق باطل أو خلي عن الحكمة، والعرب تبني صيغة النفي على اعتبار سبق الإثبات كثيراً.

وقد بين الله في آيات أخرى أن من ظن أن الله خلق شيئاً باطلاً فقد أخذ بظن الكفار، فقال تعالى: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}** [ص: ٢٧]

وقال: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [الدخان: ٣٨-٣٩] بالحق: أي للدلالة على توحيده وقدرته.

وكلمة: **{هَذَا}** متضمنة لضرب من التعظيم، أي: ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً، عارياً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك، ووجوب طاعتك، واجتناب معصيتك، وأن يكون مداراً لمعاش العباد، ومناراً يرشدكم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد.

{سُبْحَانَكَ} تقدست ذاتك وتنزهت، تنزيهاً لك من العبث، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة.

وأصل التسبيح: التنزيه والإبعاد عن السوء؛ ومنه قولهم: «تسبح فلان»، يعني نزل في الماء يسبح وبَعْد.

أي: نسبحك تسبيحا، وننزهك تنزيها يليق بك، وأنت لم تخلق هذه السموات والأرض باطلاً.

وفيه تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص، والذي ينزه الله عنه شيئان: «النقص»، و «مماثلة المخلوقات»، حتى فيما هو كمال في المخلوقين فإن الله منزّه عن مماثلتهم.

{فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} وقد كان ترتيب الخوف على التفكير له موضعه لأن نهاية التفكير هو الخوف، إذ ينتهي إلى أعلى درجات الشعور بالمهابة لله تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته.

قنا عذاب النار بما تشاء؛ إما بعدم إدخالنا فيها يعني أن لا ندخلها أصلاً، أو بإخراجنا منها بالشفاعة؛ لأن المؤمن الفاسق يستحق دخول النار على فسقه ثم بعد ذلك يخرج منها، وقد يعفو الله عنه.

أي: يا من خَلَقَ الخلق بالحق والعدل، يا من هو مُنزه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك،

وَقِضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

قال السيوطي: "فيه استحباب هذا الذكر عند النظر إلى السماء. ذكره النووي في «الأذكار»".

قال ابن عاشور: فإن قلت: كيف تواطأ الجميع من أولي الألباب على قول هذا التنزيه والدعاء عند التفكير مع اختلاف تفكيرهم وتأثرهم ومقاصدهم. قلت: يحتمل أنهم تلقوه من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكانوا يلزمونه عند التفكير وعقبه، ويحتمل أن الله ألهمهم إياه فصار هَجِيرَاهُمْ مثل قوله تعالى: {وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا} [البقرة: ٢٨٥]

** فيه: تعليم العباد كيفية الدعاء، بتقديم الشاء على الله تعالى أولاً {سُبْحَانَكَ}، والتوسل في الدعاء بصفات الله، يعني: أننا نتوسل إلى الله - عز وجل - بتنزيهه عن النقص أن يقينا عذاب النار؛ لأننا مؤمنون بكماله وجلاله.

** وفيه: أن صفوة الخلق محتاجون إلى الدعاء بالوقاية من النار.

** وفيه أيضاً: الشاء على أصحاب العقول؛ لأن الله جعل هذا الاختلاف لذوي العقول. أما من لا عقل له فإنه لا ينتفع

بهذه الآيات، ولا يعتبر بها وتمر عليه وكأنها مظاهر طبيعية لا علاقة لفعل الله تعالى بها، وهذا -والعياذ بالله- من الطمس على القلوب وعمي الأبصار؛ لأن هذا الكون على هذا النظام البديع لا يمكن أبداً أن يقع إلا من رب حكيم، ولا يمكن أن يقع من فاعل على وجه السفه أبداً.

**** وفيه: أن الرب -عز وجل- أظهر آياته لخلقه مع أن مجرد الإيمان بأن الله تعالى حي موجود يكفي؛ لكن كلما تعددت الأدلة والآيات ازداد الإنسان يقيناً، ودليل هذا أن إبراهيم قال لله عز وجل: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي} [البقرة: ٢٦٠] فالإنسان قد يكون مؤمناً ولا إشكال عنده في الأمر لكن يحتاج إلى من يطمئنه.**

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)

{رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} أهنته وأظهرت فضيحته لأهل الموقف، وأخزاه: أذله وأهانته بمرأى من الناس أو على رؤوس الأشهاد.

وهذه الآية في مقام التعليل لضراعتهم بالوقاية من النار، وهو تعظيم لأمر العقاب يوم القيامة، ومنه قول إبراهيم عليه السلام:

{وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} [الشعراء: ٨٧]

وسر هذا الإتيان عظم موقع السؤال، لأن من سأل ربه حاجة، إذا شرح عظمها وقوتها، كانت داعيته في ذلك الدعاء أكمل، وإخلاصه في طلبه أشد، والدعاء لا يتصل بالإجابة إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص.

{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ} من: دالة على استغراق النفي، أي لا ناصر لهم أيا كان، وفي ذلك إشارة إلى انفراد الله تعالى بالسلطان.

{أَنْصَارٍ} أعقبوه بما في الطباع من التفادي عن الخزي والمذلة بالهرع إلى أحلافهم وأنصارهم، فعلموا أن لا نصير في الآخرة للظالم فزادوا بذلك تأكيداً للحرص على الاستعاذة من عذاب النار إذ قالوا: **{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} أي: يوم القيامة لا مُجِير لهم من الخزي، ولا مُحِيد لهم عما أردت بهم.**

وهو تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم، ببيان خلود عذابهم، بفقدان من ينصرهم، ويقوم بتخليصهم، وغرضهم تأكيد

الاستدعاء.. فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة، على أن المراد بالظالمين هم الكفار.

والجملة إظهار في موضع الإضمار، فإن مقتضى السياق أن يقول : (وما لهم من أنصار)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: أن هؤلاء الذين يدخلون النار مستحقون لهذا الوصف، أي: وصفهم بالظلم.

الفائدة الثانية: العموم؛ أن كل ظالم حتى وإن لم يدخل النار إذا أراد الله أن يعاقبه فإنه لن يجد من ينصره.

الفائدة الثالثة: إثبات العلة في الحكم، فلو قال: (وما لهم من أنصار) لم يتبين لنا أن السبب لأنهم ظلموا أنفسهم، فإذا وصفهم بهذا فكأنه بين الحكم بعلة.

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ
فَأَمْنَا رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ
الْأَبْرَارِ (١٩٣)

{رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا} النداء: رفع الصوت بالكلام رفعاً قوياً لأجل الإسماع، وهو مشتق من النداء وهو الصوت

المرتفع.. فأصل النداء الجهر بالصوت والصياح به. وأطلق هنا على المبالغة في الإسماع والدعوة وإن لم يكن في ذلك رفع صوت.

والمراد بالمنادى: الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والتنوين للتفخيم، وهذا كقوله تعالى: **{وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ}** [الأحزاب: ٤٦]. وفي وصفه -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالمنادي دلالة على كمال اعتناؤه بشأن الدعوى وتبليغاً إلى الداني والقاصي، لما فيه من الإيذان برفع الصوت.

{يُنَادِي لِلْإِيمَانِ} ذكر النداء مطلقاً، ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان.

والسياق أن يقال: (إلى الإيمان)، ولكنه أتى باللام؛ لأن اللام ألصق من «إلى». واللام لام العلة، أي لأجل الإيمان بالله.

{أَنَّ} «أن» هذه تفسيرية؛ لأنها جاءت بعد جملة تتضمن معنى القول دون حروفه، وكل «أن» تقع بعد جملة تتضمن معنى القول دون حروفه فإنها تسمى تفسيرية، فهي بمعنى «أي» ومنه قوله تعالى: **{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ}** [المؤمنون: ٢٧] يعني: «أي اصنع الفلك».

{آمِنُوا بِرَبِّكُمْ} بيان للإيمان الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام.. والإيمان بالله يكون متضمناً للإيمان ببقية أركان الإيمان كما هو معلوم.

{فَآمَنَّا} فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه، وآمنا بكل شيء يجب الإيمان به، فكل ما أخبر الله به صدقنا به وأقررنا به، فهو داخل في الإيمان بالله عز وجل.

وجاءوا بفاء التعقيب في {فآمنا}: للدلالة على المبادرة والسبق إلى الإيمان، وذلك دليل سلامة فطرتهم من الخطأ والمكابرة، وقد توسموا أن تكون مبادرتهم لإجابة دعوة الإسلام مشكورة عند الله تعالى، فلذلك فرعوا عليه قولهم: **{فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}** لما بذلوا كل ما في وسعهم من اتباع الدين كانوا حَقِيقِينَ بترجي المغفرة.

وحقيقة الإيمان بالله -عز وجل-: الإقرار المتضمن للقبول والإذعان وليس مجرد الإقرار، ولو كان الإيمان مجرد الإقرار لكان أبو طالب مؤمناً لأنه مقرر، ولكنه لا يكون إيماناً حتى يتضمن القبول والإذعان، يعني الانقياد فأما إذا لم يقبل أو قبل ولم يدعن فإنه ليس بمؤمن.

{رَبَّنَا} تكرير للتضرع، وإظهار لكمال الخضوع.

وقيل: التكرار في قوله: {ربنا}، لأنهم يتلذذون بهذا التعبير أن يكون الله ربهم، وإذا كان الله ربهم فهم عبيده، وتلذذ الإنسان بعبوديته الله - عز وجل - دليل على كمال إيمانه؛ لأنه كلما كان الإنسان أذل لله كان أكمل إيماناً، ولهذا يكررون {ربنا} تلذذاً بهذا الاسم الكريم.

** وفيه التوسل إلى الله تعالى بالربوبية حال الدعاء، فالوسيلة هي أصلاً تشبه الوصيلة، وأكثر ما يكون التوسل به من أسماء الله بالدعاء هو الربوبية؛ لأن الربوبية بها الخلق والملك والتدبير، فلهذا نجد أن أكثر ما يدعى به الربوبية؛ اسم الربوبية، أو وصف الربوبية.

{فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي: بسبب إيماننا واتباعنا نبيك استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها.

وفيه: أن كل أحد محتاج لمغفرة الذنوب؛ فلا تغرنك كثرة الطاعات، فالإنسان كلما كثرت طاعاته ينبغي أن يكون أخوف على نفسه من أن ترد هذه الطاعات ويذهب عمله سدى.

{وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} السيئات طلبوا تكفيرها؛ لأن السيئات هي «الصغائر» وهي تكفر بالأعمال الصالحة وبالطاعات، ولا

يمكن أن تكفر بالطاعات إلا بعد أن تكون الطاعات على الوجه الأكمل؛ لأن الطاعات إذا نقصت لم تقو على تكفير السيئات. إذ إن الإنسان قد يفعل الطاعة ولا يحصل له منها إلا إبراء الذمة، لكن لا تقوى على التكفير حتى تكون «تامة» بقدر المستطاع، ولهذا قالوا: **{وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا}** بما نفعله من الأعمال الصالحة.

ثم اعلم أن تكفير السيئات قد يكون معيناً من قبل الشرع، أي ما يكفر به قد يكون معيناً من قبل الشرع، مثل: كفارة الظهار، وكفارة القتل، وكفارة الجماع في نهار رمضان. فهذا مقيد بالشرع، وقد يكون عاماً كتكفير السيئات عموماً بالصلاة وبالوضوء، وبالجمعة إلى الجمعة، وبرمضان إلى رمضان وبالعمرة إلى العمرة. فالتكفير إما مقيد، وإما مطلق عام.

قال في زهرة التفاسير: تكفير السيئات، أي الأمور التي تسيء في ذاتها، والفرق بين الذنب والسيئة، أن السيئة عصيان فيه إساءة، والذنب فيه تقصير وتبطؤ عن الخير والغفران، والتكفير كلاهما ستر، ولكن الأول يتضمن معنى عدم العقاب، والثاني يتضمن ذهاب أثر الإساءة.

قال ابن عاشور: والغفر والتكفير متقاربان في المادة المشتقين منها إلا أنه شاع الغفر والغفران في العفو عن الذنب، والتكفير في تعويض الذنب بعوض، فكأن العوض كفر الذنب أي ستره، ومنه سميت كفارة الإفطار في رمضان. وكفارة الحنث في اليمين إلا أنهم أرادوا بالذنوب ما كان قاصرا على ذواتهم، ولذلك طلبوا مغفرته، وأرادوا من السيئات ما كان فيه حق الناس، فلذلك سألوا تكفيرها عنهم. وقيل هو مجرد تأكيد، وهو حسن، وقيل أرادوا من الذنوب الكبائر ومن السيئات الصغائر لأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، بناء على الذنب أدل على الإثم من السيئة.

{وَتَوْقْنَا} اقبضنا إليك، وليس فيه أنهم يتمنون تقديم الوفاة، بل أن يتوفاهم على الإسلام متى جاء أجلهم.

{مَعَ الْأَبْرَارِ} المراد بالمعية المعية الحكيمة لا الزمنية.. أي: ألحقنا بالصالحين، واجعلنا معدودين في جملتهم حتى نكون في درجتهم يوم القيامة.

قالوا: وسألوا الوفاة مع الأبرار، أي أن يموتوا على حالة البر، بأن يلازمهم البر إلى الممات، وأن لا يرددوا على أدبارهم، فإذا

ماتوا كذلك ماتوا من جملة الأبرار. فالمعية هنا معية اعتبارية، وهي المشاركة في الحالة الكاملة.

والأبرار جمع بارّ أو برّ وهو كثير البر أي: الطاعة.. وفيه جواز سؤال الموت على طريق أهل الخير.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

{ رَبَّنَا } تكررت خمس مرات.. قال الحسن البصري: "ما زالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم"، وقال جعفر الصادق: "من حزه أمر، فقال خمس مرات {ربنا} أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد. قيل: وكيف كان ذلك؟؛ قال: "اقرأوا إن شئتم: **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا..} الآيات**"

وفيه أن تكرار الدعاء من أسباب الإجابة، وأن الدعاء باسم الربوبية أقرب إلى الإجابة من الدعاء باسم آخر؛ لأن أكثر الأدعية الواردة في القرآن جاءت باسم الربوبية.

{ وَآتِنَا } آتنا: بمعنى أعطنا، بخلاف آتينا: بمعنى جئنا، آت بمعنى أعط، وآتى بمعنى جاء.. والمصدر من آتى إيتاء؛ لقوله تعالى: **{وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى}** [النحل: ٩٠].

{ مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ } على تصديق رسلك والإيمان بهم.
أو على السنة رسلك، وهو الثواب، ولم يقولوا على رسولك
للإشارة إلى أن ثواب المطيع وعقوبة العاصي مما جاء به كل
الرسول.

لما سألوا المثوبة في الدنيا والآخرة ترقوا في السؤال إلى
طلب تحقيق المثوبة، وقد أخرجوا ذلك لشعورهم بهفواتهم أكثر
من شعورهم بحسناتهم التي يستحقون عليها الثواب.
{ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } تفضحنا وتذلنا على رؤوس الخلائق
يوم القيامة.

قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله: **{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ**
النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } [التحریم: ٨] بإظهار أنهم ممن آمن
معه.

{ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } تعليل لسؤالهم، يعني: سألناك يا
ربنا أن تعطينا هذا لأنك لا تخلف الميعاد.. ورغم أنهم عالمين
بأن الله لا يخلف الميعاد إلا أنهم قالوا هذا من باب الأدب مع
الله حتى لا يظهروا بمظهر المستحق لتحصيل الموعد به تذللًا،
أي كسؤال الرسول عليهم السلام المغفرة وقد علموا أن الله غفر
لهم.

وإنما انتفى عنه إخلاف الوعد لكمال صدقه وكمال قدرته؛
لأن إخلاف الوعد إما أن يكون لكذب الواعد كميّعاد أهل
النفاق، وإما أن يكون لعجز الواعد أي أنه يفى لكنه عجز، والله
-عز وجل- قد انتفى في حقه الأمران: الكذب والعجز، فهو
لكمال صدقه وكمال قدرته لا يخلف الميعاد، وهذه الصفة من
الصفات السلبية والسلب بمعنى النفي.. وهي الصفات التي يراد
بها انتفاء الصفة التي نفيت إثبات كمال ضدها.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلَّزِينَا هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ
(١٩٥)

{فَاسْتَجَابَ} عقب ذلك بفاء التعقيب التي تدل على سرعة
الاستجابة بحصول المطلوب، ودلت على أن مناجاة العبد ربه
بقلبه ضرب من ضروب الدعاء القابل للإجابة.

{لَهُمْ رَبُّهُمْ} ولم يقل (الله) لأنهم كانوا يدعون بقولهم: {ربنا} فالموقع هنا يقتضي الربوبية، وهي هنا ربوبية خاصة؛ لأن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، ومقتضى الربوبية العامة مطلق التصرف، ومقتضى الربوبية الخاصة النصر والتأييد واللفظ وغير ذلك مما يقتضي عناية خاصة. وفيه مشاكلة بين لفظ الدعاء والإجابة.

{أَنِّي} بأني.. هذا تفسير للإجابة، أي قال لهم مُجِيبًا. **{لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ}** نفي إضاعة عملهم، نفي إلغاء الجزاء عنه: جعله كالضائع الغير الحاصل في يد صاحبه. فنفي إضاعة العمل بالاعتداد بعلمهم وحسابه لهم، فقد تضمنت الاستجابة تحقيق عدم إضاعة العمل تطينا لقلوبهم من وجل عدم القبول.

وإذا كان سيجزيهم الجزاء الأوفى فلأنهم عملوا خيرا، وسبحان الله الشاكر العليم، هم يطلبون الجنة منحة من الله، لأنهم لا يعتقدون أن عملهم يدخلهم الجنة استصغارا لأعمالهم بجوار نعمة رب العالمين عليهم، ففي الآية الكريمة إشارة إلى عدله ورحمته، وبيان القانون الأمثل للعدل، وهو أن يكون الجزاء

من جنس العمل {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة ٧-٨].

{مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} «من» اتصالية أي بعض المستجاب لهم متصل ببعض، وهي كلمة تقولها العرب بمعنى أن شأنهم واحد وأمرهم سواء.. قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ} [التوبة: ٦٧] الخ... وقولهم: "هو مني وأنا منه".

والمعنى: جميعكم في ثوابي سواء، وأنتم في عنايتي بأعمالكم سواء، لا فرق بين الذكر والأنثى، كلكم بنو آدم.. وهذه جملة معترضة مبينة سبب شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين.

{فَالَّذِينَ هَاجَرُوا} تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، وهو من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بذلك الخاص، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية. وهي هنا خمسة:

هاجروا أي: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران.. والمفاعلة فيها للتقوية، كأنه هجر قومه وهجروه لأنهم لم يحرصوا على بقاءه.

**** وفيه فضيلة الهجرة في سبيل الله، وقد قال العلماء: إن الهجرة تنقسم إلى ثلاث أقسام:**

القسم الأول: هجر ما حرم الله، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، وهذا يعني أن المهاجر هو الذي قام بفعل الواجبات وترك المحرمات.

القسم الثاني: الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، كما فعل المهاجرون من مكة إلى المدينة، وهذه هي التي يكون فيها المدح الذي جاء في القرآن.

القسم الثالث: الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة، فإن بعض البلاد تكون بلاداً إسلامية تقام فيها الشعائر الإسلامية وينادي فيها بالأذان، وتقام الجماعات، وتقام الجُمُعات، فهي بلاد إسلامية، ولكنها بلاد فسق من جهة أخرى لكثرة المعاصي والفواحش وغيرها في هذا البلد فيهاجر الإنسان منها إلى بلد الاستقامة.

**ثم ما هو الواجب من هذه الأنواع الثلاثة؟
أما الأول: «هجر ما حرم الله» فهو واجب على كل إنسان، حتى في بلاد الإسلام المستقيمة يجب عليه أن يهجر ما حرم الله.**

وأما الثاني: «المهاجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام» فإن العلماء -رحمهم الله- يقولون: إن كان قادراً على إظهار دينه لم تجب الهجرة، وإن كان عاجزاً وجبت عليه الهجرة، فإذا كان في بلاد يحبسون الحريات ويمنعون المسلمين من إقامة شعائر دينهم كالصلوات في الجماعة مثلاً؛ فالهجرة هنا واجبة؛ لأن المسلم لا يقدر على إظهار دينه. وإن كان في بلد تعتبر نفسها بلد حرية فإن الهجرة ليست بواجبة، لكن مع هذا نقول: هي أكمل وأحسن مما لو بقي. وعليه فإذا كان يمنع من إظهار الدين وجب عليه الهجرة حتى لو كان من أهل البلد أصلاً، أما إذا كان في بلد الحرية فالهجرة أكمل، خوفاً من الفتنة.

وأما الثالث: «الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة» هذه فيها تفصيل أيضاً: إن كان يخشى على نفسه من الفتنة وجبت عليه الهجرة، وإن كان لا يخشى لم تجب عليه الهجرة، وربما يكون بقاءه أحسن في هذه البلاد إذا كان يدعو إلى الله تعالى.

{وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} التي ولدوا فيها ونشئوا، فضايقتهم المشركون بالأذى وسوء المعاملة حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم. أو طردوهم مباشرة بصريح القول.

والثاني أشد؛ لأن التضييق يمكنه أن يصبر معه ويتحمل ولا يخرج، يختفي أحياناً ويهرب أحياناً، ويبقى في بلده، لكن الطرد بأن يمسك ويطرده لا شك أنه أشد، ولهذا قال أهل العلم خصوصاً الحنابلة فيمن فعل ما يوجب الحد من زنا أو غيره، ثم لجأ إلى الحرم في مكة فإنه لا يخرج من الحرم ولا يقام عليه الحد في الحرم، لأنه لجأ إليه، ومن دخله كان آمناً، ولكنه يضيق عليه فلا يؤاكل ولا يشارب ولا يبايع ولا يكلم، حتى تضيق عليه الأرض ويخرج، أما أن يخرج بالقوة ليقام عليه الحد فلا.

{وَأُودُوا فِي سَبِيلِي} من أجله وبسببه، يريد سبيل الإيمان بالله وحده، وهو تناول لكل أذى نالهم من المشركين.. أي أصابهم الأذى وهو مكروه قليل من قول أو فعل وفهم منه أن من أصابهم الضر أولى بالشواب وأوفى. وهذه حالة تصدق بالذين أودوا قبل الهجرة وبعدها.

وإنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: **{يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}** [المتحنة: ١]. وقال تعالى: **{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [البروج: ٨].

{وَقَاتِلُوا} الكفار بالجهاد **{وَقْتِلُوا}** استشهادا في سبيل الله.. وهذا أعلى المقامات أن يقتل في سبيل الله، فيُعَقَّر جَوادُه، ويعَقَّر وجهه بدمه وترابه.

وقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَخْطُبُ النَّاسَ، فَذَكَرَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنَا صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرَ مُدْبِرٍ، كَفَّرَ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: " نَعَمْ "، قَالَ: " فَكَيْفَ قُلْتَ؟ " قَالَ: فَرَدَّ عَلَيْهِ الْقَوْلَ كَمَا قَالَ، قَالَ: " نَعَمْ "، قَالَ: " فَكَيْفَ قُلْتَ؟ " قَالَ: فَرَدَّ عَلَيْهِ الْقَوْلَ أَيْضًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، كَفَّرَ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: (نَعَمْ، إِلَّا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جَبْرِيلَ سَارَنِي بِذَلِكَ)

{لَا تُكْفِّرَنَّ} جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم، ونون التوكيد الثقيلة.

{عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه.

أي بما حصل لهم من هذه التضحيات من: هجرة، وإخراج من ديار، والإيذاء في سبيل الله، والمقاتلة في سبيل الله والقتل. ومغفرة الذنوب في الكبائر، والتكفير في الصغائر؛ تكفرها الأعمال الصالحة وتكفرها المصائب أيضا.

{وَلَا تُدْخِلَنَّهُمْ} تأكيد باللام، والقسم، والنون.

{جَنَّاتٍ} بالجمع، وأحيانا تأتي: بالإفراد، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات.

وأصل الجنة البستان الكثير الأشجار، وسُمِّي بذلك لأنه يجن من فيه؛ أي يستره، والمادة هذه (ج ن ن) كلها دالة على الستر والخفاء، ومنه الجُنَّة للمقاتل يأخذها يستتر بها عن السهام، ومنها الجنان يعني القلب لاختفائه، ومنه الجِنَّة أي: (الجن) لاستتارهم.

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا} من تحت قصورها ومن خلالها.

{الْأَنْهَارُ} من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْنَ رَأَتْ، ولا أذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، ولا تحتاج إلى حفر ولا إلى إقامة جدر.

قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخلود جرت ** سبحان ممسكها عن الفيضان
والجملة تشويق إلى الجنة ليزداد الإنسان قوة في العمل.
{ثَوَابًا} عطاء {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} مصدر مؤكد لما قبله، فإن
تكفير السيئات وإدخال الجنة، في معنى الإثابة. وأضافه إليه
تعالى ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً
كثيراً.

{وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} جملة مؤكدة لما سبق، أي أن
الله - سبحانه وتعالى - يشبههم الثواب الحسن؛ لأن هذا هو الذي
عند الله، ولهذا يجازي المحسن بحسنه عشرة أمثالها إلى
سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ
قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)

{لَا يَغُرَّنَّكَ} الغرة غفلة في اليقظة.. وليس من مقتضى النهي
أن يكون قد وقع من النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غرور،

فالنهي عن أمر من شأنه أن يقع في النفوس ليس دليلاً على وقوعه، ولذلك روى أن قتادة قال: "والله ما غروا نبي الله -صلى الله عليه وسلم- حتى قبضه الله".

ولقد قال الزمخشري في توجيه النهي للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "فيه وجهان:

أحدهما: أن مدرّة القوم [المقدم فيهم] ومتقدمهم إذا خوطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قال: لا يغرنكم.

والثاني: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان غير مغرور بحالهم، فأكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله: {وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ}، {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ}.

{تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ} أي ترددهم في البلاد وتقلبهم من بلد إلى آخر، وتقلبهم في التجارات وفي أنواع الصناعات وفي غيرها مما فتح الله عليهم.. فهذا لا يغرك، ووجه الغرور الذي قد يحصل هو أن الإنسان قد يغتر بهذا الذي أعطاهم الله -عز وجل-، فيصنع مثل صنيعهم، أو يظن أن

إعطاء الله إياهم هذا الشيء دال على أنه لا ينكر ما هم عليه، ولو أنكر ما هم عليه لم يمكنهم من التقلب في البلاد.

فلا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مُتْرَفُونَ فيه من النِّعْمَةِ والغِبْطَةِ والسرور، فعَمَّا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مُرْتَهِنِينَ بأعمالهم السيئة، فإنما نَمُدُّ لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه:

{مَتَاعٌ} ما يقوم به الانتفاع والمتعة ولا يبقى طويلا.. سواء كانت متعة نفسية أو متعة جسدية، وهي ما يحصل للجسد من اللذة والنعيم وغير ذلك.

{قَلِيلٌ} في الكمية والكيفية لقصر مدته، وكونه بُلْغَةً فانية، ونعمة زائلة، فلا قدر له في جنب ما أعد الله للمؤمنين.

{ثُمَّ} دالة على التراخي للإشارة إلى أنه مهما طالت بهم المدة في هذه الحياة فإن مآلهم هذا المآل الخبيث والعياذ بالله. أيضا للدلالة على تفاوت شاسع ما بين حالهم في الدنيا، وما يكونون عليه في الآخرة.

{مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} مصيرهم الذي إليه يأوون، وجهنم اسم من أسماء النار -أعاذنا الله منها- وسميت بذلك؛ لأنها مشتقة من التجهم، أو من الجهمة وهي السواد.

{وَبُسْ الْمَهَادُ} ما يكون ممهداً للإنسان، أي: مقراً له وفراشاً. قال تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً}** [النبا: ٦] أي: ممهدة لكم كالفراش.. وهو تعبير من قبيل التهكم، وبيان قبح هذا المأوى، وفي هذا تعزية للمؤمنين أبلغ تعزية.

وهذه الآية كقوله تعالى:

{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [غافر: ٤]

{إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٩-٧٠]

{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]
{فَمَهَلٌ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤُودًا} [الطارق: ١٧]، أي: قليلاً.
{أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [القصص: ٦١]

**** وفيه: أن ما يعطيه الله العبد من الرخاء وسعة الرزق والانطلاق في الأرض يميناً وشمالاً ليس دليلاً على رضاه عن العبد، وإنما المقياس لرضا الله عن العبد هو اتباع العبد لشرع الله.**

وأن الله - عز وجل - قد يستدرج المرء بإغداق النعم عليه
فتنة له. كقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ
وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥]
وأن الدنيا مهما أعطي الإنسان فيها من النعيم فإنها متاع
قليل.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)

{لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} مجيء الاستدراك في هذه الآية له
حكمة بالغة، لأن الاستدراك -أصلاً- إنما يكون فيما يتوقع
دخوله فيما سبق، مثل: قام القوم لكن فلان لم يقم ممن يتوقع
أن يكون فيهم قائم.

فهنا وجه الاستدراك أن الذين اتقوا ربهم لو حصل لهم في
الدنيا مثل ما حصل لهؤلاء الكفار لم يكن ذلك حائلاً بينهم
وبين ما عند الله، يعني قد يحصل تقلب المؤمنين في البلاد
كتقلب الكفار، فلن يكون مأوى المتقين كمأوى الكافرين.

فلاستدراك هنا من ألطف ما يكون لئلا يظن الظان أن الله لو
مكن للمؤمنين أن يتقلبوا في البلاد تقلب الكفار لفاتهم ما عند
الله، فبين أنه لن يفوتهم فقال:

{لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} اتخذوا ما بقي من عذاب الله بفعل
أوامره واجتناب نواهيه، ولم يقل: (اتقوا الله) إشارة إلى أن ربوبية
الله لهم ربوبية خاصة أعانهم فيها على التقوى، ووفقهم لها،
فكانت ربوبيته لهم ربوبية خاصة بهم كربوبيته لبعض الأنبياء مثل:
{رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١٢٢]، فهي ربوبية خاصة لا
يشركهم فيها أحد.

{لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أبدا.
{نُزُلًا} ضيافة من عند الله، والنزل: المنزل، ما هُيئ للنزول
والضيف أن ينزل عليه لإكرامه والحفاوة به.

وقيل: والنزل اسم لأول ما يقدم للضيف من الطعام، ومعلوم
أن أول يوم للضيف يقدم له أطيب وأحسن شيء، فجعل الله هذه
الجنة كلها نزلاً لا يختلف آخرها عن أولها بخلاف نزل الضيافة
في الدنيا، فإنه يكون أول يوم من أطيب ما يكون ثم يقل في
اليوم الثاني وهكذا.

{مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} هذا النزل ليس من فلان أو فلان بل من عند
أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وهو الله، والنزل من الأكبر
يكون عظيماً وكريماً وكثيراً.

وفي هذا بيان لمقدار عناية الرحمن الرحيم بهم، وإدخالهم
مدخل صدق، وإنزالهم منزلاً مباركا.

{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ} ما: اسم موصول ولا يمكن أن تكون نافية؛
لأن المعنى يفسد كثيراً، يعني والذي عند الله.

{خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} جمع بر، والبر كثير الخير.. أي: وما عد الله
أعظم وأفضل لأهل الطاعة مما يتقلب فيه الذين كفروا من نعيم
الدنيا.

قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: ما من نفس برّة ولا فاجرة
إلا الموت خير لها، لئن كان برا لقد قال الله: **{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
لِلْأَبْرَارِ}** وقرأ: **{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ
لأنفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}** [آل
عمران: ١٧٨].

**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا**

قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
(١٩٩)

{وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} مسلمة أهل الكتاب {لَمَنْ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ} جملة مستأنفة سقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم
كمن حكيت هنتهم من نبذ الميثاق، وتحريف الكتاب وغير
ذلك. بل منهم طائفة يؤمنون بالله حق الإيمان.
{وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ} ويؤمنون بما أنزل على النبي
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع ما هم مؤمنون به من الكتب
المتقدمة.

{خَاشِعِينَ لِلَّهِ} مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه.
{لَا يَشْتَرُونَ} لا يأخذون ولا يطلبون {بِآيَاتِ اللَّهِ} الآيات
الشرعية {ثَمَنًا قَلِيلًا} أي يأخذ الجاه والرئاسة والمال وغير ذلك
بدلاً عن آيات الله الشرعية واتباعها.

وهذه الأمور الخمسة يترتب بعضها على بعض، فيترتب على
الإيمان الصادق بالله الإيمان بمحمد والإيمان بما نزل على
النبيين الصادقين، ويترتب على هذا كله الخشوع، وأولى ثمرات
الخشوع ألا يتركوا آيات الله تعالى لأي عرض من أعراض الدنيا.

وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى، وقد قال تعالى:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: ٥٢-٥٤]
{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}
[الأعراف: ١٥٩]

{لَيْسُوا سَوَاءً مَنِ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣]
{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]

وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً، كما وجد في عبد الله بن سلام فإنه كان حبراً من أحبارهم وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس في حياته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٨٢-٨٥] .

{أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ} روى البخاري عن أبي بريدة أنه سمع أباة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْأَمَةُ فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنٌ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ)

وروي أن جعفر بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لما قرأ سورة «كهيعص» بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطارقة والقساوسة، بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم.

وثبت في البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ. خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا.

وفي البخاري عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: (مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَعَى لَهُمُ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الْحَبَشَةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَقَالَ: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ) [البخاري]

{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق، وأنه يوفيهما كل عامل على ما ينبغي، وقدر ما ينبغي.

ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر لكونه من لوازمها. ولكونها من لوازمها أشبه التأكيد، فلذا لم يعطف عليه.

وقيل: السرعة: عدم التباطؤ في الشيء، فالله تعالى سريع الحساب من وجهين:

الوجه الأول: أن الدنيا قليلة وفانية وسريعة وما هي إلا لحظات ثم تنقضي بسرعة، ما تأخذ إلا شيئاً قليلاً حتى يصل الإنسان إلى نهايته ويموت، فيجد الحساب أمامه، فهذه سرعة. والسرعة الثانية: يوم القيامة فإن الله تعالى يحاسب الخلائق كلها في نصف يوم؛ لقوله تعالى: **{أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}** [الفرقان: ٢٤] والقيولة إنما تكون في نصف النهار، ويلزم من هذا أن الله يحاسب الخلائق كلهم في نصف يوم حتى إن كل واحد منهم يقيم في منزله ومستقره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} صدر الكلام بالنداء الذي يفيد تنبيه المخاطب، ثم إذا كان النداء بوصف الإيمان كان دليلاً على أن ما يأتي بعده من مقتضى الإيمان، فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا وكذا، أو لا تفعلوا كذا وكذا.

كما يدل النداء بالمؤمنين على أن مخالفة ذلك من نواقض الإيمان، إن كان الشيء من أصول الدين مثل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦] فإن مخالفته من نواقض الإيمان.

وإن كان في فرع من فروع الدين فإن مخالفته من نواقض الإيمان، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا} [المجادلة: ١١]

أيضا النداء بالإيمان يفيد إغراء الإنسان وحثه على أن يفعل ما وجه إليه من الأمر أو النهي؛ لأن الإنسان إذا وصف بوصف فإنه يغريه هذا الوصف.

{اصْبِرُوا} على مشاق الطاعات وترك المخالفات، وما يمسكم من المكاه والشدائد، فالمصائب التي تصيب الإنسان هي بنفسها مكفرة للذنوب، فإذا احتسب الإنسان أجرها على الله وانتظر بذلك ثواب الله كانت مع التكفير زيادة حسنة.. فالمؤمن إذا صبر فليبشر بالخير، وفي المثل: «من صبر ظفر».

ومعلوم أن الذي يحتاج إلى الصبر هو الذي يخالف هوى النفس؛ فالذي يخالف هواك هو الذي يحتاج إلى الصبر؛ لأنه يشق عليك تحمله.

{وَصَابِرُوا} المصابرة تكون من اثنين، فلا بد من شخص آخر يضادك فتصابره.

فالصبر: لا أحد يضادك فيه، إنما هو شيء بينك وبين نفسك فتصبر. أي حبس النفس من غير مصابر.

والمصابرة: إنسان يضادك ويشرك ويعتدي عليك فصابره .. بمعنى غالبه بالصبر، وهذا يكون في ملاقات الأعداء غالباً.

والمعنى: غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الجهاد، ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة: باب من الصبر. ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً، لشدته وصعوبته.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرأ ولا لشدّة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم. وكذلك قال غير واحد من علماء السلف.

قال ابن عاشور: ختمت السورة بوصاية جامعة للمؤمنين تجدد عزيزتهم وتبعث الهمم إلى دوام الاستعداد للعدو كي لا يشبطهم ما حصل من الهزيمة، فأمرهم بالصبر الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال، ثم بالمصابرة وهي الصبر في وجه الصابر، وهذا أشد الصبر ثباتاً في النفس وأقربه إلى التزلزل، وذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصبر لما يلاقيه من مقاومة قِرْنٍ له في الصبر قد يساويه فإنه لا يجتني من صبره شيئاً، لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً.

{وَرَابِطُوا} أقيموا على مرابطة الغزو في نحر العدو بالترصد والاستعداد لحربهم، وارتباط الخيل، قال الله تعالى: **{وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}** [الأنفال: ٦٠]

والرباط في الأصل أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره، وكل معد لصاحبه، ثم صار لزوم الثغر رباطاً. وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً، وقد يتجوّز بالرباط عن الملازمة والمواظبة على الأمر، فتسمى: رباطاً ومرابطة .

وقد وردت الأخبار بالترغيب في الرباط، وكثرة أجره:

فمنها ما رواه البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (رِبَاطُ

يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْغَدَوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا)

وروى مسلم عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفِتَانُ)

وروى الإمام أحمد عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ، إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُجْرَى لَهُ أَجْرُ عَمَلِهِ حَتَّى يُبْعَثَ) حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، قَالَ فِيهِ: (وَيُؤَمَّنُ مِنَ فِتَانِ الْقَبْرِ).

وَبِإِسْنَادٍ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ)

ومن الوجوه في قوله تعالى: {رَابِطُوا} أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة.

فقد روى مسلم والنسائي عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا
يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ
قَالَ إِبْسَاقُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ
وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ)، قال
ابن عطية: "والحق أن معنى هذا الحديث على التشبيه" .. فشبهه
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما ذكر من الأفعال الصالحة بالرباط.
{وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ} أعقب هذا الأمر بالأمر بالتقوى لأنها
جماع الخيرات وبها يرجى الفلاح.

{لعل} هنا للتعليل وليست للرجاء؛ لأن كلام الله -عز
وجل- ليس فيه رجاء، فإنه على كل شيء قدير، ولا يصعب عليه
شيء ولا يعسره شيء، لكنها للتعليل

وقيل: {لعل} لتغيب المآل. لئلا يتكلوا على الآمال.

{تُفْلِحُونَ} تفوزون بما يغبط به، كلمة جامعة للفوز
بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

والتقوى هي لب كل عمل صالح، وهي النية المحتسبة
للخير، فالمرابطة والمصابرة إن لم تكن منبعثة من التقوى لإرضاء

الله تعالى فإنه لا خير فيها، وإن هذه الأمور الأربعة هي التي يرجى بها الفلاح، أي الفوز في الدنيا والآخرة.

وفي البخاري عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَتَحَدَّثَتْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رُكْعَةً ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٍ فَصَلَّى رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ

وفي البخاري عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَقُلْتُ لَأَنْظُرَنَّ إِلَى صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَطُرِحْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسَادَةً فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي طُولِهَا فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَاتِ الْعَشْرَ الْآخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ حَتَّى خَتَمَ ثُمَّ أَتَى شَنًّا مُعَلَّقًا فَأَخَذَهُ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا ثُمَّ صَلَّى رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: <http://www.docudesk.com>